
ابن عذاري المراكشي

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب

نحو ٦٩٥ هـ

رقم الكتاب في المكتبة الشاملة: ١١٧٨٢
الطابع الزمني: ١١-٥٨-١١-٠٣-١٩-٠٨-٢٠٢١
[المكتبة الشاملة رابط الكتاب](#)

المحتويات

٥	بسم الله الرحمن الرحيم	١
٥	وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه	١٠١
٦	ذكر حد المغرب وأفريقية	٢
٦	وما اتصل بهما وعد معهما	٢٠١
٧	ذكر فضل المغرب	٣
٧	وما ورد من الأخبار والآثار	٣٠١
٨	ابتداء التاريخ	٤
٨	سنة إحدى وعشرين من الهجرة	٤٠١
٨	فتح أفريقية للإسلام	٤٠٢
٨	بعض أخبار عبد الله بن سعد وإمرته	٤٠٣
٩	ذكر قتل عبد الله بن الزبير لجرير	٤٠٤
٩	ملك أفريقية والمغرب كله	٤٠٥
١٢	أخبار معاوية بن حديج الكندي بأفريقية	٤٠٦
١٣	ذكر ولاية عقبة بن نافع أفريقية	٤٠٧
١٣	وغزواته فيها واختطاطه مدينة القيروان	٤٠٨
١٤	ولاية أبي المهاجر أفريقية وعزل عقبة	٤٠٩
١٤	ذكر فتح المغرب الأقصى على يد عقبة وغزواته	٤٠١٠
١٥	ولاية حسان بن النعمان أفريقية والمغرب	٤٠١١
١٥	بعض أخبار حسان بن النعمان	٤٠١٢
١٥	خبر حسان مع الملكة الكاهنة وهزيمتها له	٤٠١٣
١٦	ذكر مقتل الكاهنة الملكة	٤٠١٤
١٧	ذكر ولاية أبي عبد الرحمن موسى بن نصير	٤٠١٥
١٧	أفريقية والمغرب وبعض أخباره رحمه الله عليه	٤٠١٦
٢٠	ولاية محمد بن يزيد أفريقية والمغرب	٤٠١٧
٢١	ولاية بشر بن صفوان أفريقية	٤٠١٨
٢١	ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي أفريقية والمغرب	٤٠١٩
٢٢	ولاية عبيد الله بن الحبحاب أفريقية والمغرب كله	٤٠٢٠
٢٣	ولاية كلثوم بن عياض إفريقية	٤٠٢١
٢٣	ومقاتلته مع أمير المغرب خالد بن حميد الزناني	٤٠٢٢
٢٤	ذكر برغواطة وارتدادهم عن الإسلام	٤٠٢٣
٢٥	ولاية حنظلة بن صفوان أفريقية والمغرب كله	٤٠٢٤
٢٦	انتزاء عبد الرحمن بن حبيب الفهري بإفريقية	٤٠٢٥
٢٦	وبعض أخباره	٤٠٢٦

٢٩	بقية أخبار عبد الرحمن بن حبيب بأفريقية	٤٠٢٧
٢٩	مقتل عبد الرحمن	٤٠٢٨
٢٩	ولاية الياص بن حبيب أفريقية	٤٠٢٩
٣٠	ذكر قيام حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب على عمه	٤٠٣٠
٣٠	الياص وتغلبه على بلاد أفريقية	٤٠٣١
٣١	ذكر ولاية محمد بن الأشعث الخزاعي أفريقيا	٤٠٣٢
٣١	ثورة عيسى بن موسى بالقيروان وبعض بلاد أفريقية	٤٠٣٣
٣٢	ولاية الأغلب بن سالم التيمي	٤٠٣٤
٣٢	ولاية عمرو بن حفص بن قبيصة أفريقية	٤٠٣٥
٣٤	ولاية يزيد بن حاتم أفريقية والمغرب	٤٠٣٦
٣٥	ولاية داود بن يزيد بن حاتم أفريقية	٤٠٣٧
٣٥	ذكر ابتداء الدولة الهاشمية بالبلاد الغربية	٤٠٣٨
٣٥	وهم الأدارسة - رحمهم الله	٤٠٣٩
٣٦	ولاية روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب أفريقية	٤٠٤٠
٣٧	ولاية نصر بن حبيب المهلي أفريقية	٤٠٤١
٣٨	ولاية هرثة بن أعين أفريقية	٤٠٤٢
٣٨	ولاية محمد بن مقاتل العكي أفريقية	٤٠٤٣
٣٩	ثورة تمام بن تميم التيمي على محمد بن مقاتل العكي	٤٠٤٤
٤٠	ولاية إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التيمي أفريقية	٤٠٤٥
٤١	ولاية عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب أفريقية	٤٠٤٦
٤٢	ذكر ولاية زيادة الله بن الأغلب أفريقية وبعض أخباره	٤٠٤٧
٤٦	ولاية أبي عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب أفريقية	٤٠٤٨
٤٦	ولاية أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم ابن الأغلب أفريقية	٤٠٤٩
٤٨	ولاية العباس بن الفضل جزيرة صقلية	٤٠٥٠
٤٨	ولاية أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب أفريقية	٤٠٥١
٤٩	ولاية زيادة الله بن محمد بن الأغلب	٤٠٥٢
٤٩	ابن إبراهيم بن الأغلب أفريقية	٤٠٥٣
٤٩	ولاية أبي الغرائق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب	٤٠٥٤
٥٠	ولاية إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب	٤٠٥٥
٥٢	ثورة الدراهم على إبراهيم بن أحمد	٤٠٥٦
٥٤	ابتداء الدولة العبيدية الشيعية	٤٠٥٧
٥٦	قصة ابن الأغلب مع الشيخ الصالح أبي الأحوص	٤٠٥٨
٥٧	أخبار إبراهيم بن أحمد على الجملية ووفاته	٤٠٥٩
٥٨	ولاية أبي العباس بن إبراهيم بن أحمد وسيرته	٤٠٦٠
٥٨	مقتل أبي العباس بن إبراهيم بن أحمد	٤٠٦١

٤٠٦٢	ولاية زيادة الله بن أبي العباس	٥٨
٤٠٦٣	عبد الله ابن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب	٥٨
٤٠٦٤	ذكر خروج بن الأغلب من أفريقية	٦٣
٤٠٦٥	هروب زيادة الله من رقادة	٦٣
٥	ذكر دولة الشيعة	٦٤
٥٠١	ذكر توجه الداعي إلى سجلمانة	٦٥
٥٠٢	واجتماعه بعبيد الله الشيعي بها	٦٥
٥٠٣	التعريف بأمر سلجماسة	٦٧
٥٠٤	من حين ابتدائها إلى هذه السنة المؤرخة	٦٧
٥٠٥	ذكر وصول عبيد الله الشيعي إلى رقادة	٦٨
٥٠٦	ونبذ من أخباره وما قيل في نسبه	٦٨
٥٠٧	ذكر قتل عبيد الله الشيعي لأبي عبد الله	٧٠
٥٠٨	الشيعي وأبي زاك	٧٠
٥٠٩	خروج أبا القاسم الشيعي لمحاربة مصر	٧٣
٥٠١٠	تلخيص أخبار أمراء مدينة نكور	٧٥
٥٠١١	من حين بنائها على الجملة إلى هذه السنة المؤرخة	٧٥
٥٠١٢	ذكر مدينة جراوة	٨٣
٥٠١٣	ذكر مدينة تهرت	٨٣
٥٠١٤	ذكر من ملك مدينة تهرت	٨٤
٥٠١٥	من حين ابتدائها من بني رستم وغيرهم	٨٤
٥٠١٦	ذكر مدينة تلمسان	٨٥
٥٠١٧	ذكر افتتاح مدينة سبتة بالعدوة	٨٥
٥٠١٨	ذكر من ولي سجلماسة من حين فتحها الشيعي	٨٨
٥٠١٩	ذكر ولاية أبي القاسم بن عبيد الله بإفريقية	٨٨
٦	ذكر أخبار الأدارسة وسبب دخولهم إلى المغرب	٨٩
٦٠١	وبنائهم مدينة فاس ومن وليها منهم ومن غيرهم إلى هذه السنة	٨٩
٦٠٢	أخبار أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفاني الزناتي	٩٢
٦٠٣	ولاية إسماعيل بن أبي القاسم عبيد الله الشيعي	٩٢
٦٠٤	خبر برغواطية	٩٤
٧	ابتداء الدولة الصنهاجية بأفريقية	٩٧
٧٠١	ولاية أبي الفتوح يوسف بن زيري	٩٧
٧٠٢	ابن مناد الصنهاجي بإفريقية	٩٧
٧٠٣	ولاية العزيز بالله نزار	٩٧
٧٠٤	ذكر مدينة أصيلا	٩٨

٧٠٥	ذكر من ولي مدينة البصرة	١٠٠
٧٠٦	ذكر وفاة أبي الفتوح يوسف بن زيري	١٠٢
٧٠٧	ابن مناد الصنهاجي	١٠٢
٧٠٨	ولاية أبي الفتوح المنصور بن أبي الفتوح إفريقية	١٠٢
٧٠٩	مقتل الثائر أبي الفهم	١٠٣
٧٠١٠	إمارة أبي مناد باديس بن أبي الفتوح	١٠٥
٧٠١١	ابن أبي الفتوح يوسف بن زيري بن مناد	١٠٥
٧٠١٢	ذكر هزيمة عسكر إفريقية واستيلاء زيري بن عطية عليه	١٠٦
٧٠١٣	وظهور زناتة على صنهاجة	١٠٦
٧٠١٤	بعض أخبار زناتة ودولتهم بالغرب إلى حين ظهور المرابطين	١٠٧
٧٠١٥	ولاية المعز بن باديس إفريقية	١١٣
٧٠١٦	ذكر قيام المعز شرف الدولة بالإمارة	١١٦
٧٠١٧	وقطعه الدعوة العبيدية الشيعية من إفريقية	١١٦
٧٠١٨	ذكر تبديل السكة عن أسماء بني عبيد	١١٨
٧٠١٩	ذكر ولاية العهد تميم بن المعز بن باديس	١١٨
٧٠٢٠	ذكر ما قيل من أخبار بني زيري	١١٩
٧٠٢١	ذكر طرف الفتنة العظيمة ودمار القيروان	١٢٢
٧٠٢٢	ذكر هزيمة العرب للمعز بن باديس	١٢٢
٧٠٢٣	نبذ من وقعة باب تونس أحد أبواب القيروان	١٢٣
٧٠٢٤	هزيمة صنهاجة أيضا بجبل حيدران	١٢٣
٧٠٢٥	وهزيمة المعز بن باديس من وجه آخر	١٢٣
٧٠٢٦	بعض أخبار المعز بن باديس	١٢٥
٧٠٢٧	حكاية في ابتداء دولة صنهاجة	١٢٥
٧٠٢٨	دولة الأمير تميم بن المعز	١٢٦
٧٠٢٩	ونبذ من أخبارها	١٢٦
٧٠٣٠	ذكر دخول النصارى مدينة المهدية	١٢٧
٧٠٣١	بعض أخبار تميم بن المعز	١٢٨
٧٠٣٢	دولة يحيى بن تميم بن المعز	١٢٩
٧٠٣٣	ونبذ من أخباره وسيرته	١٢٩
٧٠٣٤	دولة علي بن يحيى بن تميم بن المعز	١٣٠
٧٠٣٥	بالمهدية وبعض بلاد إفريقية	١٣٠
٧٠٣٦	دولة الأمير الحسن بن علي	١٣١
٧٠٣٧	ابن يحيى بن المعز بإفريقية	١٣١
٨	ذكر من ولي تونس من الأمراء	١٣٤
٨٠١	من بعد زوال ملك المعز بن باديس منها	١٣٤
٨٠٢	ذكر الأمراء والولاة بأفريقية لخلفاء بني أمية	١٣٥

١٣٥	٩	ذكر صفة الأندلس وأوليتها
١٣٧	١٠	ذكر دخول المسلمين إلى الأندلس
١٣٧	١٠٠١	وانتزاعها من أيدي الكفار
١٣٩	١٠٠٢	ذكر ما افتتح طارق بن زياد من بلاد الأندلس
١٣٩	١٠٠٣	سنة 92 من الهجرة
١٣٩	١٠٠٤	فتح قرطبة
١٤٠	١٠٠٥	فتح مالقة
١٤٠	١٠٠٦	فتح غرناطة قاعدة البيزة
١٤٠	١٠٠٧	فتح مرسية
١٤٠	١٠٠٨	فتح طليطلة
١٤١	١٠٠٩	فتح قرمونة
١٤١	١٠٠١٠	فتح إشبيلية
١٤١	١٠٠١١	فتح ماردة
١٤٢	١٠٠١٢	فتح إشبيلية ثانية
١٤٢	١٠٠١٣	فتح لبلة
١٤٢	١٠٠١٤	ذكر اجتماع الأمير أبي عبد الرحمن موسى بن نصير
١٤٢	١٠٠١٥	مع مولاه طارق بن زياد على طليطلة
١٤٣	١٠٠١٦	ذكر ما أفاء الله على فاتحي الأندلس
١٤٤	١٠٠١٧	أخبار الأمير أبي عبد الرحمن موسى بن نصير
١٤٤	١٠٠١٨	رحمه الله تعالى
١٤٥	١٠٠١٩	ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير
١٤٦	١٠٠٢٠	ذكر ولاية أيوب بن حبيب الأندلس
١٤٦	١٠٠٢١	ولاية الحر بن عبد الرحمن الثقفي
١٤٧	١٠٠٢٢	ولاية السمع بن مالك الخولاني
١٤٧	١٠٠٢٣	ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الأندلس
١٤٧	١٠٠٢٤	ولاية عنبرة بن سحيم الكلبي
١٤٧	١٠٠٢٥	ولاية يحيى بن سلمة الكلبي
١٤٧	١٠٠٢٦	ولاية حذيفة بن الأحوص
١٤٨	١٠٠٢٧	ولاية عثمان بن أبي نسة
١٤٨	١٠٠٢٨	ولاية الهيثم بن عبيد الكافي
١٤٨	١٠٠٢٩	ولاية محمد بن عبد الله الأشجعي
١٤٨	١٠٠٣٠	ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ثانية
١٤٨	١٠٠٣١	ولاية عبد الملك بن قطن
١٤٩	١٠٠٣٢	ولاية عقبة بن الحجاج السلوي
١٤٩	١٠٠٣٣	ولاية عبد الملك بن قطن الفهري ثانية
١٥٠	١٠٠٣٤	ذكر ولاية بلج بن يسر القشيري الأندلس

١٥٠	مقتل عبد الملك بن قطن الفهري	١٠٠٣٥
١٥٠	ولاية ثعلبة بن سلامة العاملي الأندلس	١٠٠٣٦
١٥١	ذكر ولاية أبي الخطار	١٠٠٣٧
١٥١	الحسام بن ضرار الكلبي الأندلس	١٠٠٣٨
١٥١	ذكر الصميل بن حاتم وسبب الفتنة	١٠٠٣٩
١٥٢	ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري الأندلس	١٠٠٤٠
١٥٢	مقتل أبي الخطار	١٠٠٤١
١٥٣	تسمية من ثار على يوسف بن عبد الرحمن الفهري بالأندلس	١٠٠٤٢
١٥٣	جامع أخبار بني أمية بالمشرق	١١
١٥٤	ذكر دخول عبد الرحمن بن معاوية	١١٠١
١٥٤	ابن هشام إلى الأندلس وهروبه من الشام	١١٠٢
١٥٧	خلافة عبد الرحمن بن معاوية	١٢
١٥٧	ابن هشام بن عبد الملك	١٢٠١
١٦١	ذكر بعض أخباره على الجملة	١٢٠٢
١٦٣	خلافة هشام الرضي بن عبد الرحمن الداخل	١٢٠٣
١٦٤	ذكر بعض أخباره على الجملة	١٢٠٤
١٦٥	قصة الكافي مع هشام بن عبد الرحمن	١٢٠٥
١٦٦	خلافة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن	١٢٠٦
١٦٧	مقتل أهل الربض أولاً قبل هيجه ثانية	١٢٠٧
١٦٨	ذكر دخول الحكم طليطلة حين خالفت عليه	١٢٠٨
١٦٩	ذكر هيج أهل الربض ثانية في سنة 202	١٢٠٩
١٧٠	بعض أخباره وسيره	١٢٠١٠
١٧١	خلافة عبد الرحمن بن الحكم بن هشام	١٣
١٧٤	دخول المجوس إشبيلية في سنة 230	١٣٠١
١٧٥	ذكر بعض أخباره على الجملة وسيره	١٣٠٢
١٧٧	خلافة محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام	١٤
١٨٠	وفيا كانت بالأندلس مجاعة عظيمة متوالية	١٤٠١
١٨٣	بعض أخباره وسيره	١٤٠٢
١٨٨	بعض سيره وأخباره	١٤٠٣
١٨٨	خلافة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم	١٥
١٩١	ذكر ثورة بني حجاج بإشبيلية	١٥٠١
١٩٣	أخبار عمر بن حفصون في أيام الأمير عبد الله	١٥٠٢
١٩٤	جملة الثوار ببلاد الأندلس في أيام الأمير عبد الله	١٥٠٣
١٩٤	الخارجين عن الجماعة المضرمين لنار الفتنة	١٥٠٤

٢٠١	شأن ابني الأمير عبد الله محمد ومطرف	١٥٠٥
٢٠١	شأن القاسم أخي الأمير عبد الله	١٥٠٦
٢٠٢	صفة الإمام عبد الله بن محمد	١٥٠٧
٢٠٢	بعض أخبار الأمير عبد الله بن محمد على الجملة	١٥٠٨
٢٠٤	الناصر لدين الله	١٥٠٩
٢٠٤	خلافة أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد	١٦
٢١١	ذكر موت عمر بن حفصون	١٦٠١
٢١١	غزوة مطونية	١٦٠٢
٢١٢	غزاة الناصر لدين الله إلى بلدة	١٦٠٣
٢١٢	غزاة مويش	١٦٠٤
٢١٧	غزاة الناصر إلى بنبلونة	١٦٠٥
٢٢٠	ذكر قتل سليمان بن حفصون	١٦٠٦
٢٢١	ذكر افتتاح مدينة ببشتر	١٦٠٧
٢٢٤	مطالعة أمير المؤمنين الناصر لببشتر في الشتاء	١٦٠٨
٢٣٣	بعض أخبار الناصر على الجملة	١٦٠٩
٢٣٤	حكاية	١٦٠١٠
٢٣٤	حكاية	١٦٠١١
٢٣٦	ذكر مسجد قرطبة الأعظم	١٦٠١٢
٢٣٧	ذكر بناء مدينة الزهراء بقرطبة	١٦٠١٣
٢٣٧	أعادها الله للإسلام بفضلله	١٦٠١٤
٢٣٧	خلافة الحكم بن عبد الرحمن المستنصر بالله	١٧
٢٣٨	ذكر الحبس الذي حبس المستنصر بالله على الجامع بقرطبة	١٧٠١
٢٤٥	ذكر اتصال محمد بن أبي عامر بخدمة الحكم المستنصر	١٧٠٢
٢٤٦	خلافة هشام بن الحكم	١٨
٢٤٦	ابن عبد الرحمن الناصر والدولة العامرية	١٨٠١
٢٤٨	بعض أخبار المنصور محمد بن أبي عامر في ابتدائه	١٨٠٢
٢٥٠	مقتل المغيرة بن عبد الرحمن الناصر	١٨٠٣
٢٥٠	بعض أخبار الصقالبة مع ابن أبي عامر	١٨٠٤
٢٥١	غزوة محمد بن أبي عامر الأولى	١٨٠٥
٢٥٢	ذكر نكبة الحاجب جعفر بن عثمان	١٨٠٦
٢٥٢	غزوة ابن أبي عامر الثانية	١٨٠٧
٢٥٣	غزوة ابن أبي عامر الثالثة	١٨٠٨
٢٥٥	استبداد ابن أبي عامر بالملك وتغلبه عليه	١٨٠٩
٢٦٠	ذكر تدمير عبد الرحمن بن مطرف	١٨٠١٠
٢٦٠	مع عبد الله بن المنصور في القيام عليه	١٨٠١١

٢٦١	ذكر مقتل عبد الله المنصور	١٨٠١٢
٢٦٥	غزوة شنت ياقوب على سبيل الاختصار	١٨٠١٣

عن الكتاب

الكتاب: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب
المؤلف: ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد (المتوفى: نحو ٦٩٥هـ)
تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال
الناشر: دار الثقافة، بيروت - لبنان
الطبعة: الثالثة، ١٩٨٣ م
عدد الأجزاء: ٢
[ترقيم الكتاب موافق للمطبوع]

عن المؤلف

ابن عذاري (٠٠٠ - نحو ٦٩٥ هـ = ٠٠٠ - نحو ١٢٩٥ م)
محمد (أو أحمد بن محمد) المراكشي، أبو عبد الله، المعروف بابن عذاري: مؤرخ.
أندلسي الأصل، من أهل مراكش.
لم أظفر له بترجمة.

بقي من تأليفه (البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب - ط) ثلاثة أجزاء، وهو من أعظم المراجع وأوثقها في موضوعه.

قال في مقدمته إنه وصل في الثالث منه إلى أخبار سنة ٦٦٧ هـ، إلا أن المطبوع منه يقف عند سنة ٤٦٠ وأشار في الجزء الأول منه إلى كتاب له في (تاريخ المشرق) لم يعرف مصيره

نقلا عن : الأعلام للزركلي

١ بسم الله الرحمن الرحيم

١٠١ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

الحمد لله مصرف الأقدار ومحبي الآثار والمتعالي عن الأشباه والأنظار، المتنزه عن تمثيل الأوهام وتكييف الأذكار الذي احتجب بحجاب عزته وقدرته فلا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار الذي خضعت لهيبته وعظمته رقاب الأكاسرة والجبابرة والأشعار، العالم بالكونين على اختلافها والحوادث مع تشتت أوصافها، وكل شيء عنده بمقدار، مكور الليل على النهار، والنهار على الليل ما جرى الفلك الدوار وجعلهما آيتين بينتين للمفكر في العظة والاعتبار وخص الإنسان بفضل النظر والاستبصار فقال جل وتعالى "فاعتبروا يا أولي الأبصار" وعلمه ما لم يكن يعلم وكرر عليه ما لم يلحق من انباء القرون الماضية في الأزمان والأعصار وأراه متقلبهم في هذه الدنيا الفنية التي جعلها لهم دار انتقال، ومفر وزوال، وجعل الأيام بينهم دولا والأقوام بعضهم من بعض بدلا ذلك تقدير العزيز القهار نحمده على ما نعم به علينا من الهداية للنظر في مواقع الأدلة بأن هو الله الملك الغفار ونشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله المصطفى المختار، الذي اختار لرسالته وختم به الرسل الكرام الأبرار، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وصحبه الأكرمين الأخيار، وسلم كثيراً.

وبعد جعلنا الله ممن نظر فاعتبره، ووعظ فازدجره فإن خير ما شغلت به الأذكار والأفكار، وتحدثت معه الليل والنهار، حفظ ما فاد من العلوم والأخبار وأن أولى ما ريعنا به النفوس البشرية مجالسة العلماء والأخيار، ومذاكرة الأدباء ذوي الهمم وعلو المقدار، ففي مجالستهم ومذاكرتهم

ما يسحر الذهن وينور الأفكار فان فقدت مجالستهم فلا عوض منها غير كتاب يتخذ جليسه ويجده في كل وقت أنيسه ويتنسمه روضاً يانع الأزهار وإذا نظر للهب بفتنته إلى أصناف العباد ومختلف الآباد أغناه ذلك عن المشاهدة وقام له الاستماع مقام المعاينة والاستخبار.

قال المؤلف: ولما كنت كلفت بأخبار الخلفاء والأئمة والأمراء بالبلاد الشرقية والمغربية وما والاهما من الأقطار، وولعت بالمناظرة في ذلك مع الفضلاء والأخلاء ذوي الأقدار والأخطار، طلب بعضهم إلي، ممن يجب إكرامه على، أن أجمع له كتاباً مفرداً في أخبار ملوك البلاد الغربية على سبيل الإيجاز والاختصار، ولازمي في طلبه مراراً، فلم يمكنني التوقف في ذلك ولا الاعتذار وحلني على جمعه وتأليفه حمل اضطرار لا اختيار، فجمعت له في هذا الكتاب نبذا ولما من عيون التواريخ والأخبار، مما جرى الله به تصارييف الأقدار فيما مر من الأزمنة والأعصار في بلاد المغرب وما والاهما من الأقطار: جمعت ذلك من الكتب الجليلة مقتضياً من غير إسهاب ولا إكثار فاقطعت عيونها واقتضبت فنونها ووصلت الحديث بالقديم والقديم بالحديث لأنه إذا اتصل يستظرف ويستحلى كما قال بعضهم:

وسئت كل مآربي ... فكأن أطيبها خبيث

إلا الحديث فإنه ... عند اسمه أبدأ حديث

فنقلت والله ولي التوفيق من تاريخ الطبري والبكري والريقي والقضاعي ومن كتاب (الذيل) لابن شرف ومن كتاب ابن أبي الصلت ومن (المجموع المفترق) ومن كتاب (بهجة النفس وروضة الأنس) ومن كتاب (المقباس) و (القبس) ومن مختصري عريب وابن حبيب ومن (درر القلائد وغرر الفوائد) ومن (القلائد) و (المطمح) لابن خاقان ومن كتاب ابن حزم (ذخيرة) ابن بسام ومن (أخبار)

الدولة العامرية) لابن حيان، ومن كتاب (تقصي الأنباء في سياسة الرؤساء) ومن كتاب (الأنوار الجليلة في الدولة المرابطية) ومن (نظم الجمان في أخبار الزمان) لابن القطان، ومن كتابي (الاشيري) و (البندق) وكتاب يوسف الكاتب وكتاب بن صاحب الصلاة

أبي مروان، ومن كتاب بن رشيق ومن كتاب وجدته أو تعليق، ومن شيوخ أخذت الأخبار الوقتية عنهم بتحقيق والله الهادي إلى سواء الطريق.

ولما كل ما قيدته وجردته على ثلاثة أجزاء: كل جزء كتاب قائم بنفسه ليكون لمطالعه أوضح البيان وأسهل مرام لدى العيان وسميته بالبيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب. أما الجزء الأول فاختصرت فيه أخبار أفريقية من حين الفتح الأول في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه -، ثم أخبار أمراءها من ولاية الخلفاء الأمويين ومن دخل الغرب منهم ومن قام بأفريقية من الصفرية والاباضية ثم قام فيها بالدولة العباسية ومن ملكها من بني الأغلب وأخبار بني عبيد الشيعة وأخبار زناته والصهاجيين وغيرهم وكل ما اشتهر من أمرهم إلى حين انتقال العبيدية إلى البلاد المصرية واستخلافهم صهاجة على أفريقية ثم خلع صهاجة لهم واستيلائهم على أفريقية وذكر فتنة العرب وأسبابها ودخولهم إلى القيروان وخرابها وتنقل أمراء صهاجة إلى المهديّة ومن ملكها منهم وما اشتهر في ذلك من الأخبار عنهم من ملوك المناديين والحماديين إلى حين ظهور الموحدين ونقصت في ذلك كله أخبار أمراء البلاد الغربية ومن دخلها من أخبار الدولة العبيدية وذكرت أخبار المدراريين السجلماسيين والأمراء الإدريسيين وأخبار البرغواطيين والزناطين ومن ملك فاسا من زناتة المغراويين ومن ولاء الخلفاء الأمويين الأندلسيين على أن أخبار المغرب الأقصى أكثر من أن تحصى لكنني نسقتها نسق الأسلاك وسقت من كان فيه على الولاء من الأملاك من حين فتحه الأول إلى حين ابتداء الدولة اللتونية المرابطية.

والجزء الثاني اختصرت فيه أخبار جزيرة الأندلس وأملاكها الغابرين الدرس من حين الفتح الأول ثم من وليها من الأمراء للخلفاء الأمويين بالمشرق ثم من قام بها من العرب الفهريين إلى حين دخول الخلفاء الأمويين في ابتداء أمرهم ومن قام عليهم من الثوار الأندلسيين وذكرت بعض أخبارهم وآثارهم في غزواتهم وحركاتهم إلى انقضاء مدتهم بعد ذكر حجابهم العامرين وماآثرهم إلى حين انقضاء الدولة العامرية وقيام الفتنة البربرية وذكرت فيه أخبار ملوك الطوائف بعد انقضاء دول الخلائف من الحموديين والهوديين والجهوريين والعباديين وفتيان العامرين والصمادحيين والزناطين والبكريين والافطسيين والصهاجيين وغيرهم من الرؤساء الأندلسيين وكل ذلك إلى حين دخول لمتونة إلى الأندلس سنة ٤٧٨.

والجزء الثالث: اختصرت فيه أخبار الدولة المرابطية اللتونية وخروجهم من صحرائهم في ابتداء أمرهم واستيلائهم على مملكة أمراء المغرب والأندلس وخلعهم لجمعهم وتغلبهم على مملكة كل منهم وما تسنى لهم فيها من الفتوحات والمنوحات إلى حين ابتداء دولة الموحدين وظهورهم ونبد من أحوالهم وأمورهم ثم ما كان بين أمراء الدولتين من مقاتلات ومنازلات وحصر من حصر ونصر من نصر - سمح الله لهم - وذلك إلى حين انقضاء الدولة المرابطية وابتداء دولة الموحدية ثم ما تخلل ذلك للموحدين من النصر والتأييد ومن فتوح ومنوح وصنع عجيب في البلاد الأفريقية والأندلسية إلى حين انقراض دولتهم وذلك بسبب أحداث حدثت عليهم وأحوال نسبت إليهم وذكرت الدولة الحفصية الموحدية الهتاتية في البلاد الأفريقية والدولة الهودية المتوكلية والنصرية الاحمرية في البلاد الأندلسية والدولة السعيدة

٢ ذكر حد المغرب وأفريقية

٢٠١ وما اتصل بهما وعد معهما

المرينية في البلاد الغربية اختصرت في ذلك كله ما اشتهر أمره وأمكنني ذكره وذكرت بعض البيعات والرسائل السلطانيات وما تعلق بها وكان بسببها من الوقائع المذكورات والأمور المشهورات وذلك إلى انقضاء الدولة الموحدية واستيلاء الإمارة اليوسفية المرينية على حضرتهم المراكشية وذلك على مرور السنين إلى عام ٦٦٧.

قال المؤلف - سمح الله له - فإن كنت اقتصرت فيما اقتصرت فعذراً فيما ظهر من تقصير وباع قصير فان الذهن كليل والقلب شغيل وكنت قد نسخت نسخة من هذا الكتاب وربما زدت في هذه الثانية أو نقصت إذا كان الأولى بي والأخرى إلا القدم الأولى ولا

أؤخر الأخرى ولكني ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا وحسي الاعتراف فهو سبيل الإنصاف نسأل الله الإرشاد إلى سواء فهو حسي ونعم الوكيل.

ذكر حد المغرب وأفريقية
وما اتصل بهما وعد معهما

قال أبو مروان في كتاب (المقباس) وابن حمادة في كتاب (القبس) وغيرهما من المؤرخين لأخباره المعتنن بآثاره: إن حد المغرب هو من ضفة النيل بالإسكندرية التي تلي بلاد المغرب إلى آخر بلاد المغرب وحده مدينة سلاء وينقسم أقساما: فقسم من الإسكندرية إلى طرابلس وهو أكبرها وأقلها عمارة وقسم من طرابلس وهي بلاد الجريد ويقال أيضاً بلاد الزاب الأعلى ويلى هذه البلاد بلاد الزاب الأسفل وحدها إلى مدينة تيهرت ويلىها بلاد المغرب وهي بلاد طنجة وحدها مدينة سلاء وهي آخر المغرب وإذا جرت سلاء وأخذت إلى ناحية الجنوب تركت مغرب الشمس يمنة وأخذت منها قافلا إلى قبلة فتسمى تلك البلاد تامسنا ويقال لها أيضاً بلاد السوس الأدنى وحدها إلى جبل درن وإذا جرت هذا الجبل فعن يمينك

٣ ذكر فضل المغرب

٣.١ وما ورد من الأخبار والآثار

بلاد السوس الأقصى ويقال لها بلاد ماسة ويتصل السوس الأقصى ببلاد الصحراء إلى السودان وهي بلاد الزنج وبلاد الأندلس أيضاً من المغرب وداخله فيه لاتصالها به ويلىها المجاز الأعظم الذي يسمى بحر الزقاق وفيه مصب البحر الكبير الذي يسمى المحيط ويقال له بحر الظلمات وهذا البحر لا يعلم له ساحل غير الذي عليه بلاد السودان وبلاد الكجوس الذين يلون بلاد الأندلس ويصب ماء الزقاق في البحر الرومي ويقال له أيضاً البحر الشامي وهو يتصل إلى البلاد الشام إلى ناحية القسطنطينية وبينه وبين بحر الزقاق الخليج الذي منه وذكر بن حمادة أن حد المغرب من بحر القلزم وهو الهابط من اليمن إلى عدن إلى عيذاب إلى القلزم وإلى مصر قبلة وشرقا وحد المغرب من الجوف البحر الشامي وهو بحر الإسكندرية وهو المتفرغ في بحر الزقاق من جزيرة طريف وعلامته صنم قادم وحد المغرب من الغرب البحر المحيط المسمى الابلاية وصار المغرب كالجزيرة دخل فيه بعض أعمال مصر وأفريقية كلها والزاب والقيروان والسوس الأدنى والسوس الأقصى وبلاد الحبشة ومنه يتفرع نيل مصر.

ذكر فضل المغرب

وما ورد من الأخبار والآثار

روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال (لا تزال طائفة من أمتي بالمغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) ومن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال (لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) وذكر البخاري، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: لا يضرهم من خالفهم، حتى يروا قياما فيقولون: غشيتهم فيغشون سرعان خيلهم،

فيرجعون إليهم فيقولون: الجبال سيرت فيخرون سجدا فتنبض أرواحهم) وروي أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول (خير الأرض مغاربها وأعوذ بالله من فتنة المغرب) وذكر خالد بن سعيد أن محمد بن عمر بن لبلة كان يروى عن عبيد الله بن خالد عمن حدثه عن أبي زيد المصري يرفع الحديث عن أبي عباس - رضي الله عنه - عن أبي أيوب الأنصاري قال: بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واقف إذ توجه تلقاء المغرب فسلم وأشار بيده فقلت (على من تسلم يا رسول الله) قال (على رجال من أمتي يكونون في هذا المغرب بجزيرة يقال لها الأندلس حيم مرابط وميهم شديد وهم ممن استثنى الله من كتابه " فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ") وصح وعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن الإسلام سيبلغ مشارق الأرض ومغاربها فكان

الأمر كما وعد وقال الحميدي في قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (لا يزال أهل الغرض ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) هذا وإن كان عاماً فلا أندلس منه حظ وافر بدخولها في الإسلام وتحقيقها من الغرب وإنها عن آخر المعمور فيه وبعض ساحلها الغربي والبحر محيط بجميع جهاتها فصارت بين البحر والروم وروى الرفيق عن عبد الله بن وهب يرفع الحديث إلى النبي أنه بعث سرية في سبيل الله فلما رجعوا ذكروا شدة البرد الذي أصابهم فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (لكن أفريقية أشد برداً وأعظم أجراً) وعن سفيان بن عيينة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال (الشر عشرة أجزاء، فتسعة في المشرق، وواحد في سائر البلدان) . ويقال بأن أفريقية ساحلاً يقال له المنستيد وهو باب من أبواب الجنة وبها جبل يقال له المطمور: باب من أبواب جهنم. وفي الحديث أن أفريقية يحشر منها سبعون ألف شهيد ووجوههم كالقمر ليلة البدر وعن سفيان بن عيينة قال يروي أن المغرب باب المنوبة مفتوحاً مسيرة أربعين خريفاً لا يبلغه الله حتى تطلع منه الشمس.

٤ ابتداء التاريخ

٤.١ سنة إحدى وعشرين من الهجرة

٤.٢ فتح أفريقية للإسلام

ودخل أفريقية من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من المهاجرين الأولين ناس كثير ودخل الأندلس من التابعين قوم فأول من دخل أفريقية غازياً في زمن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عمرو بن العاص وكان استفتح مصر سنة ٢٠ من الهجرة ووجه منها عقبة بن نافع الفهري إلى لوبية وأفريقية فافتتحهما ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها إلى الجزية: دينار على كل حالم وتوجه منها إلى طرابلس فافتتحهما بعد استغاثة أهلها بقبيل من البربر يقال لهم نفوسة إذا كانوا دخلوا معهم في دين النصرانية. ابتداء التاريخ

سنة إحدى وعشرين من الهجرة

فيها افتتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية وفي سنة ٢٢ بعدها افتتح بلاد طرابلس وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يخبره بما أفاء الله عليه من النصر والفتح وأن ليس أمامه إلا بلاد أفريقية وملوكها كثير وأهلها في عدد عظيم وأكثر ركبهم الخيل فأمره بالانصراف عنها فأمر عمرو العسكر بالرحيل قافلاً إلى مصر ثم استشهد عمرو - رضي الله عنه - فلما ولي عثمان الخلافة عزل عمرو بن العاص عن مصر وولاه عبد الله بن أبي سرح سنة ٢٥ من الهجرة.

وفي سنة ٢٧ من الهجرة أمر أمير المؤمنين عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري بغزو أفريقية.

فتح أفريقية للإسلام

ندب عثمان - رضي الله عنه - الناس إلى غزوهم نفرج المسلمون في جيش عظيم فيهم مروان بن الحكم وجمع كثير من بني أمية وبشر كبير من بني أسد بن عبد

٤.٣ بعض أخبار عبد الله بن سعد وإمرته

العزى وعن عبد الله بن الزبير بن العوام في عدة من قومه وعبد الرحمن بن أبي بكر - رضي الله عنه - وعن عبد الله بن عمر بن العاص والمطلب بن سائب وبشر ابن أرطاة وغير هؤلاء من المهاجرين وأعان عثمان المسلمين في هذه الغزوة بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس وفتح بيوت السلاح التي كانت للمسلمين فلما توافى الناس جدوا السير وذلك في الحرم من هذه السنة وأمر الناس فعسكروا وقام فيها

خطيباً فوعظهم وذكرهم وحرصهم على الجهاد ثم قال (وقد عهدت إلى عبد الله بن سعد أن يحسن صحبتكم ويرفق بكم وقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على ابن أبي سرح فيكون الأمر له) .
بعض أخبار عبد الله بن سعد وإمرته

نسبه: هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري وكان يكتب الوحي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم ارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين بمكة وكان معاوية بن أبي سفيان بمكة قد أسلم وحسن إسلامه فاتخذه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كاتباً للوحي بعد ابن أبي سرح فلما فتح النبي - صلى الله عليه وسلم - مكة استجار ابن أبي سرح فأخذ له عثمان الأمان من النبي - صلى الله عليه وسلم - وكان ابن أبي سرح أخاً لعثمان من الرضاعة فحسن إسلامه من ذلك الوقت فلما أفضت الخلافة إلى عثمان - رضي الله عنه - ولاه ملك مصر وجندوها فكان يبعث المسلمين في جرائد الخليل يغيرون على أطراف أفريقية فيصيبون كثيراً من الأنفس والأموال فكتب إلى عثمان بذلك فكان السبب في توجيه الجيش إليه وتقديمه عليه وأمر له بالدخول لغزو أفريقية فخرج عبد الله من مصر في عشرين ألف إلى أفريقية وصاحبها بطريق يقال له جرجير وكان سلطانه من طرابلس إلى طنجة فبعث عبد الله السرايا في آفاق أفريقية فغنموا في كل وجه والتقى عبد الله مع

٤.٤ ذكر قتل عبد الله بن الزبير لجرجير

٤.٥ ملك أفريقية والمغرب كله

البطريق ضحى النهار في موضع يعرف بسبيلة وكان جرجير في مائة وعشرين ألفاً فضاق المسلمون في أمرهم واختلفوا على لين سعد في الرأي فدخل فسطاطه مفكراً في الأمر فلما رأى جرجير خيل العرب اشتد رعبه وأهمته نفسه فأخرج ديدبانه وصد فيه يشرف على العساكر ويرى القتال وأمر ابنته فصعدت الديدبان وسفرت عن وجهها وكان عدة خدما اللائي صعدن الديدبان أربعين جارية في الحلي والحلل من أجمل ما يكون ثم قدم كراديسه كردوساً كردوساً وهو تحت الديدبان ثم قال لهم (أنتعرفون هذه) فقالوا (نعم هذه سيدتنا ابنة الملك وهؤلاء خدماها) فقال لهم (وحق المسيح ودين النصرانية لئن قتل رجل منكم أمير العرب عبد الله بن سعد لأزوجه ابنتي هذه وأعطيته ما معها من الجواري والنعمة وأنزله المنزلة التي لا يطمع فيها أحد عندي) وما زال ذلك من قوله حتى مر على المسامع خيله ورجله فخرض بذلك تحريضاً شديداً.

وإن عبد الله بن سعد لما انتهى إليه ما فعل جرجير وما كان من قوله نادى في عسكره فاجتمعوا فأخبرهم بالذي كان من جرجير ثم قال (وحق النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - لا قتل أحد منكم جرجير إلا نفلته ابنته ومن معها) ثم زحف المسلمين فالتقى الجمعان واستحرق القتال واشتعلت نار الحرب والمسلمون قليل والمشركون في عشرين ومائة ألف وأشكل الأمر على ابن سعد ودخل فسطاطه مفكراً في الأمر.

ذكر قتل عبد الله بن الزبير لجرجير

ملك أفريقية والمغرب كله

قال عبد الله بن الزبير: فرأيت عورة من جرجير والناس على مصافهم

رأيت على برذون أشهب خلف أصحابه منقطعاً عنهم معه جاريتان له تظلاله من الشمس بريش الطواويس فأتيت فسطاط عبد الله بن سعد فطلبت الإذن عليه فقال له حاجبه (دعه فإنه يفكر في شأنكم ولو اتجه له رأي لدعا بالناس) فقلت (أني محتاج إلى مذكراته) فقال له (أمر في أن أحبس الناس عنه، حتى يدعوني) قال فدرت حتى كنت من وراء الفسطاط فرأى وجهي فأومأ إلي أن تعال فدخلت عليه وهو مستلق على فراشه فقال (ما جاء بك؟ يا ابن الزبير) فقلت (رأيت عورة من عدونا. فرجوت أن تكون فرصة هيأها الله لنا، وخشيت الفتور) فقام من فوره وخرج حتى رأى ما رأيت فقال (أيها الناس انتدبوا مع ابن الزبير إلى عدوكم) فتسرع إلي

جماعة اخترت منها ثلاثين فارساً فقلت (إني حامل فاصرفوا عن ظهري من أرادني فأني سأكفيكم ما أمامي إن شاء الله) قال عبد الله: فحملت في الوجه الذي هو فيه وذبح عني الناس الذين انتدبوا معي واتبعوني حتى خرقت صفوفهم إلى أرض خالية فضاء بيني وبينهم فوالله ما حسب إلا أنني رسول إليه حتى رأى ما بي من أثر السلاح فتدبرني هارب إليه فلما أدركته، طعنته، فسقط: فرميت نفسي عليه وألقت جارياته عليه أنفسهما فقطعت يد إحداهما، وأجهزت عليه ورفعت رأسه على رمحي وحال أصحابه وحمل المسلمون في ناحيتي وكبروا فانهمز الروم وقتلهم المسلمون كيف شاءوا وثار الكائن من كل جهة ومكان وسبقت خيول المسلمين ورجالهم إلى حضن سبيطة فنعوهم من دخوله. وركبهم المسلمون يمينا وشمالا في السهل والوعر فقتلوا أنجادهم وفرسانهم وأكثروا فيهم الأسرى حتى لقد كنت أرى في موضع واحد أكثر من ألف أسير.

وذكر أشياخ من أهل أفريقية أن ابنة جرجير لما قتل أبوها تنازع الناس في قتله وهي نازرة إليهم فقالت (قد رأيت الذي أدرك أبي، فقتله).

فقال لها الأمير بن ابن أبي سرح (هل تعرفينه؟) فقالت (إذا رأيته، عرفته) قال فر الناس بين يديها حتى مر عبد الله بن الزبير فقالت (هذا والمسيح قتل أبي) فقال له ابن أبي سرح (لم كتمتنا قتلك إياه) ؟ فقال عبد الله (علمه الذي قتلته من أجله) فقال الأمير (إذا والله أنفلك ابنته) ففعله ابن أبي سرح ابنة الملك جرجير فيقال إنه اتخذها أم ولد ولما انهزمت جيوش جرجير سار عبد الله بن أبي سرح حتى نزل باب مدينته العظمى قرطاجنة، فحصرها من كان معه من المسلمين حصاراً شديداً أتت فتحت فأصاب فيها من السبي والأموال ما لم يحيط به الوصف وكان أكثر أموالهم الذهب والفضة فكانت توضع بين أيديه أكوام الفضة والذهب لأنه اقترح أفريقية مبكراً فعجب هو والمسلمون من كثرة ذلك فقال للأفارقة: (من أين لكم هذا؟) فجعل الرجل منهم يلتمس شيئاً من الأرض حتى بنوا زيتون، فقال: (من هذا أصبنا الأموال لأن أهل البحر والجزر ليس لهم زيت فكانوا يمتارونه من هنا) فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف ديناراً عينا وسهم الراجل ألف دينار وقسم ابن أبي سرح السرايا والغارات من مدينة سبيطة فبلغت جيوشه بقصر قفصة فسبوا كثير وغنموا فأذلت هذه الوقعة الروم بأفريقية ورعبوا رعباً شديداً فجاءوا إلى الحصون والمعقل ثم طلبوا من عبد الله بن سعد أن يقبض منهم ثلاثمائة قنطار من الذهب في السنة جزية على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم فقبل ذلك منهم وقبض المال وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم وما أصابوه بعد الصلح ردوه عليهم ودعا الأمير عبد الله بن سعد عبد الله بن الزبير فقال له (ما أحق بالبشارة منك فامض فبشر أمير المؤمنين عثمان - رضي الله عنه - بالمدينة، بما أفاء الله على المسلمين) فتوجه عبد الله بن الزبير

من سبيطة فقبل إنه وافى المدينة في أربعة وعشرين يوماً وكانت إقامته بأفريقية سنة وشهرين ثم وصل فيء أفريقية إلى المدينة فبيع المغنم فطفق مروان بن الحكم على الخمس فأخذ منه خمسين ألف دينار فسلم له من ذلك عثمان - رضي الله عنه - فكان ذلك مما انتقد عليه. وفيه وفي رد الحكم أبيه بعد أن نفاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول عبد الرحمن أخو كندة:

سأحلف بالله جهد اليمين ... ما ترك الله شيئاً سدى
ولا كن خلقت لنا فتنة ... لكي نبتي بك وتبتي

دعوت اللعين فأدينته ... خلافاً لسنة من قد مضى

وأعطيت مروان خمس العباد ... ظلهما لهم وحميت الحمى

وقال مروان بن الحكم يوماً في مجلس معاوية (ثلاث لم أدخل فيهن حراماً قط: دارى بالمدينة، ومالي بذي خشب، وصدقات نسائي) فنظر معاوية إلى عبد الله بن الزبير وكان حاضراً فقال له (ما تقول؟ فإنك طعان) فقال (مهلاً أبا عبد الملك خرجنا مع ابن أبي سرح إلى غزو أفريقية فوالله ما كان مروان أحسننا وجهها ولا أكثرنا نفقة، ولا أعظمنا في العدو نكايه فطفق على خمس أفريقية بم تعلم وتحبى له من تعلم فنى منه الدار واتخذ منه المال وتزوج منه النساء) فقال له مروان (أتطعن على أمير المؤمنين عثمان؟) فقال له معاوية (دعه وخذ مني غير هذا فإنك صحة ما أقول) قال الطبري (كان عثمان - رحمه الله - قال لعبد الله بن سعد: إن فتح الله عليك أفريقية

فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس نفلاً) فلما فتح أفريقية في هذه السنة وهي سنة ٢٧ قسم عبد الله الفيء على المسلمين فأبقى الخمس لنفسه وبعث بأربعة أحماسه إلى عثمان وضرب فسطاطه في أرض القيروان فوفد وفد على عثمان يشكون بآبن أبي سرح فيما أخذ من

الخمس فقال لهم عثمان (أنا نفلته إياه وذلك الآن إليكم فإن رضيتم فقد جاز وإن غضبتم فهو رد) قالوا: (فإننا نسخط) فكتب عثمان إلى ابن سعد برد ذلك قالوا (فأعزله عنا أنا لا نريد أن تأمر علينا وقد وقع ما وقع فكتب إليه أن استخلف على أفريقية رجلاً ترضاه ويرضونه واقسم خمس الخمس الذي كنت نفلتك في سبيل الأحماس فإنهم قد سخطوا النفل)

ففعل ذلك عبد الله ورجع إلى مصر وقد فتح الله أفريقية فما زالوا من أسمع أهل الأقاليم وأطوعهم إلى زمن هشام بن عبد الملك ثم ورد الخمس على أمير المؤمنين عثمان فكان من أمر مروان بن الحكم فيما تقدم ذكره.

وفي سنة ٢٨ غزا حبيب بن مسلمة قورية من أرض الروم ذكر ذلك الطبري وغيره.

وفي سنة ٢٩ هجرة افتتح عبد الله بن عامر أرض فارس. وفي سنة ٣٠ سقط الخاتم من يد عثمان - رضي الله عنه - في بئر اريس وقد ذكرنا خبر سقوطه في كتابنا المسمى (البيان المشرق في أخبار المشرق) وفي سنة ٣١ كانت غزوة ذات الصواري وغزوة ذات الاساورة في قول الواقدي وفي سنة ٣٢ توفي عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - وهو ابن خمس وسبعين سنة، وفيها مات عبد الله بن زيد بن عمرو بن نفيل وفيها مات أبو طلحة وأبو ذر - رضي الله عنهما - وبها توفي عبد الله بن مسعود فدفن بالبقيع.

وفي سنة ٣٣ كانت غزوة عبد الله ابن أبي سرح أفريقية مرة ثانية حين نقض أهلها العهد هكذا ذكره عريب في مختصره وقد تقدم خبر ابن أبي سرح على الجملة دون تعيين سنة.

وفي سنة ٣٤ مات عبادة بن الصامت في قول الواقدي وهو ابن اثنين وتسعين سنة ودفن بالرملة وفيها غزا معاوية بن حديج أفريقية وهي أول غزواته إلى المغرب ثم اشتغل الناس بعد ذلك بأمر عثمان - رضي الله عنه - وبوقائع

الجلل وصفين وغيرهما إلى أن اعتدلت الخلافة إلى معاوية ابن أبي سفيان وفي سنة ٣٥ استشهد عثمان - رضي الله عنه - واستخلفه أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - فازعه معاوية ولم يبايعه. وفي سنة ٣٦ عزل علي - رضي الله عنه - ابن أبي سرح عن مصر وأقام عليها قيس بن عبادة الأنصاري. وفي سنة ٣٧ كان العامل على مصر محمد ابن أبي بكر الصديق وفي سنة ٣٨ قتل محمد ابن أبي بكر الصديق بمصر قتله معاوية ابن أبي حديج بأمر معاوية بن أبي سفيان وقد ذكرنا شرح مقتله في (البيان المشرق في أخبار المشرق) وفي سنة ٤٠ كانت مهادنة بين علي - رضي الله عنه - وبين معاوية إلى أن توفي علي - رضي الله عنه - وفيها دعي معاوية بأمر المؤمنين وكان قبل ذلك يدعى الأمير. وفي سنة ٤٠ المذكورة توفي أمير المؤمنين أبو الحسن علي ابن أبي طالب - رضي الله عنه - وبويع بالخلافة ابنه الحسن - رضي الله عنهما - وفي سنة ٤١ كان تسليم الحسن - رضي الله عنه - الأمر لمعاوية واستوسقت المملكة له وفيها غزا معاوية بن حديج أفريقية المرة الثانية قال عريب في مختصره: ذكر أهل العلم بأخبار أفريقية أن معاوية بن حديج نزل جبلاً فيها، فأصابه فيها مطر شديد فقال (إن جبلنا هذا لمطوراً) فسمي البلاد ممطوراً إلى الآن. وقال (أذهبوا بنا إلى ذلك القرن) فسمي ذلك الموقع قرناً وكانت لمعاوية هذا إلى أفريقية ثلاث غزوات. وفي سنة ٤٣ ولد الحجاج بن يوسف الثقفي وولى معاوية مروان بن الحكم المدينة وفيها غزا عقبة بن نافع أفريقية، قال عريب في مختصره للطبري: فيها غزا بن نافع المغرب وافتتح غدامس فقتل فيها وسبي. وفي سنة ٤٣ مات عمرو بن العاص بمصر يوم الفطر فذكر إنه عمل فيها لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أربع سنين ولعثمان - رضي الله عنه - أربع سنين ولعروة سنين إلا شهراً

وفي سنة ٤٤ عمل مروان بن الحكم المقصورة بمسجد المدينة - كرمها الله - وعملها أيضاً معاوية في الشام. وفي سنة ٤٥ غزا معاوية بن حديج الكندي أفريقية وكانت حرباً كلها قال الطبري: وذلك أن حبابة الرومي قدم على معاوية بن أبي سفيان فسأله أن يبعث معه جيشاً إلى أفريقية فوجه معاوية بن حديج في عشرة آلاف مقاتل فسار حتى انتهى إلى الإسكندرية فاستعمل عليها حبابة الرومي ومضى

ابن حديج حتى دخل أفريقية وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه وعن أبيه - وعن عبد الله ابن الزبير - رضي الله عنه وعن أبيه وعبد الملك بن مروان ويحيى ابن الحكم بن المعاصي وغيرهم من أشرف قريش فبعث ملك الروم إلى أفريقية بطريقاً يقال له نجفوراً في ثلاثين ألف مقاتل فنزل الساحل فخرج إليه معاوية بن حديج عبد الله بن الزبير في خيل كثيفة فسار حتى نزل على شرف عال ينظر منه إلى البحر بينه وبين مدينة سوسة اثني عشر ميلاً فلما بلغ ذلك نجفوراً أقلع في البحر منهزماً من غير قتال فأقبل بن الزبير حتى نزل على باب سوسة فوقف على البحر وصلى بالمسلمين صلاة العصر والروم يتعجبون من جرأته فأجروا له خيلاً وابن الزبير مقبلاً على صلته لا يهوله خبرها حتى قضى الصلاة ثم ركب وحمل على الروم بمن معه فانكشفوا منهزمين ورجع ابن الزبير إلى معاوية ابن حديج وهو بجبل القرن. ثم وجه ابن حديج عبد الملك ابن مروان في ألف فارس إلى مدينة جلولاء فحاصرها وقتل من أهلها عدداً كثيراً حتى فتحها عنوة فقتل المقاتلة وسبي الذرية وأخذ جميع ما كان في المدينة وحمل ذلك كله إلى معاوية بن حديج فقسمه على المسلمين فيقال أنه أصاب كل رجل منهم مائتي مثقال وأغزى معاوية بن حديج جيشاً في البحر إلى صقلية في مائتي راكب

٤.٦ أخبار معاوية بن حديج الكندي بأفريقية

فسبوا وغنموا شهراً ثم انصرفوا إلى أفريقية بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجواهر فاقتسموا فيهم وبعث ابن حديج بالخمسة إلى معاوية ابن أبي سفيان هكذا نص عريب في مختصره للطبري.

أخبار معاوية بن حديج الكندي بأفريقية

ذكر الرقيق في كتابه قال: كان هرقل ملك القسطنطينية العظمى ورومة يؤدي إليه كل نصراني في بر وبحر جزيته منهم المقوقس صاحب الإسكندرية وورقة ومنهم صاحب طرابلس وصبرة ومنهم صاحب صقلية وروم أفريقية والأندلس فلما بلغه ما صالح عليه أهل أفريقية عبد الله ابن أبي سرح بعث إلى أفريقية بطريقاً يقال له أوليمة وأمره أن يأخذ ثلاثمائة قنطار من الذهب كما أخذ ابن أبي سرح فنزل قرطاجنة واخبرهم بذلك فأبوا عليه وقالوا (إن الذي كان بأيدينا من الأموال فدينا به أنفسنا من العرب وأما الملك فهو سيدنا فيأخذ عادته منا) وكان القائم بأمرهم رجلاً يقال له حبابة فطردوا وليمة الواصل إليهم واجتمع رأيهم على تقديم الاطربون وصار حبابة إلى الشام فقدم على معاوية فوصف له حال أفريقية فسأله أن يبعث معه جيشاً من العرب فوجه معه معاوية بن حديج في جيش كثيف وذلك سنة ٤٥ فسار ابن حديج حتى وصل أفريقية وقد صارت ناراً وكان معه جماعة وقد تقدم أكثرهم وبعث ملك الروم البطريق المتقدم ذكره في ثلاثين ألفاً فبعث ابن حديج إليه عبد الله ابن الزبير فقاتله فأقلع منهزماً في البحر وحاصر ابن حديج جلولاء فكان يقاتلهم وسط النهار وينصرف إلى عسكره فلما انصرف ذات يوم نسي عبد الملك ابن مروان قوساً له معلقاً بشجرة فأنصرف إليها فإذا بجانب من سور المدينة قد انهدم فصاح في أثر الناس فرجعوا فكان بينهم قتال شديد حتى دخلت المدينة عنوة

واحتوى المسلمون على جميع ما فيها كما تقدم ذكره وكان بين معاوية ابن حديج وعبد الملك بن مروان تنازع في ذلك لان عبد الملك أراد محاباة إخوانه وأصحابه لأنه كان سبب فتح المدينة فقال حنش الصنعاني يوماً لعبد الملك: (ما شأنك؟ فوالله لتلين الخلافة ويصير ذلك الأمر إليك فلا تغتم) فلما أفضت الخلافة إلى عبد الملك بعث الحجاج بن يوسف لقتال عبد الله بن الزبير فأخذ حنش الصنعاني أسيراً وبعث إلى عبد الملك ابن مروان فلما وقف بين يديه: (ألست أنت الذي بشرتني بالخلافة يوم جلولاء؟) قال: (نعم) قال: (فلما ملئت عني إلى ابن الزبير؟) فقال: (رأيتك تريد الدنيا فلذلك ملئت إليك) فقال: (قد عفوت عنك).

وفي سنة ٤٦ قال البلاذري: أول من غزا صقلية معاوية بن حديج بعث إليها عبد الله بن قيس ففتحها وأصاب فيها أصناماً من الذهب والفضة مكللة بجواهر فحملت إلى معاوية ابن أبي سفيان فبعث بها إلى الهند فأخذ ثمنها فأنكر الناس عليه ذلك إنكاراً كلياً وكان العامل على بلاد أفريقية من قبل معاوية ابن أبي سفيان معاوية بن حديج الكندي.

وفي سنة ٤٧ عزل معاوية ابن أبي سفيان عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر وولاهها معاوية بن حديج الكندي وكان عثمانياً فسار

متوجهاً إليها من أفريقيا وكان قد قتل محمد ابن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - فلقية عبد الرحمن ابن أبي بكر فقال له (يا معاوية قد أخذت أجره من معاوية ابن أبي سفيان حين قتلت محمد ابن أبي بكر الصديق ليوليك مصر فقد ولاكها) فقال (ما قتلت محمد ابن أبي بكر لولاية وإنما قتلته لما فعل بعثمان - رضي الله عنه - وفي سنة ٤٨ كان العامل على مصر وأفريقية لمعاوية ابن أبي سفيان معاوية ابن حديج.

٤٠٧ ذكر ولاية عقبة بن نافع أفريقية

٤٠٨ وغزواته فيها واختطاطه مدينة القيروان

وفي سنة ٤٩ غزا عقبة بن نافع الفهري الروم في البحر بأهل مصر وفيها عزل معاوية مروان بن الحكم عن المدينة وأمر عليها سعيد بن العاص وكانت ولاية مروان المدينة لمعاوية ثمانين سنين وشهرين. وفي سنة ٥٠ من الهجرة عزل معاوية بن سفيان معاوية بن حديج عن أفريقية وأفره على ولاية مصر ووجه إلى أفريقية عقبة بن نافع الفهري.

ذكر ولاية عقبة بن نافع أفريقية

وغزواته فيها واختطاطه مدينة القيروان

نسبه هو عقبة بن نافع بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن طرف بن الحارث بن فهر ومن فهر بن مالك تفرقت القبائل وقال ابن أبي الفياض أن عقبة ولد قبل وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسنة واحدة قال إبراهيم بن القاسم: ووصل عقبة بن نافع الفهري إلى أفريقية في عشرة آلاف من المسلمين فافتتحها ودخلها ووضع السيف في أهلها فإني من بها من النصارى ثم قال (إن أفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون غزا للإسلام إلى آخر الدهر) فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين وقالوا (نقرب من البحر ليم لنا الجهاد والرباط) فقال عقبة (إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركه صاحب البحر إلا وقد علم به) وإذا كان بينها وبين البحر ما يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون فلما اتفق رأيهم على ذلك قال (قربوها من السبخة فإن دوابكم الإبل وهي التي تحمل أثقالكم فإذا فرغنا منها لم يكن لنا بد من

الغزو والجهاد حتى يفتح الله لنا منها الأول فالأول وتكون إبلنا على باب قصرنا في مراعيها آمنة من عادية البربر والنصارى) قال الاشيلي في مسالكة (إن البربر حين دخلوا المغرب وجدوا الإفرنج قد سبقوهم إليه فأخلوهم حتى اصطلحوها على أن يسكن البربر الجبال وتسكن الإفرنج الاوطئة فبنوا المدائن بها. (رجع الخبر) وفي سنة ٥١ شرع عقبة - رضي الله عنه - في ابتداء بناء مدينة القيروان وأجابه العربي إلى ذلك ثم قالوا (إنك أمرتنا ببناء في شعاري وغياض لا ترام ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك) وكان في عسكره ثمانية عشر رجلاً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسائرهم من التابعين. فدعا الله سبحانه وأصحابه يؤمنون على دعائه ومضى إلى السبخة وواديها ونادى (أيها الحيات والسباع نحن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فارحلوا عنا فأنا نازلون ومن وجدناه بعد هذا قتلناه) فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر معجب من أن السباع تخرج من الشعري وهي تحمل أشبالها سمعاً وطاعة والذئب يحمل جروه والحية تحمل أولادها. ونادى في الناس (كفوا عنهم حتى يرحلوا عنها) فلما خرج ما فيها من الوحش والسباع والهوام والناس ينظرون إليها حتى أوجعهم حر الشمس فلما لم يروا منها شيئاً دخلوا فأمرهم أن يقطعوا الشجر فأقام أهل أفريقية بعد ذلك أربعين عاماً لا يرون فيها حياً أو عقرباً ولا سباعاً فاخبط عقبة أولاً دار الإمارة ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاخبطه ولم يحدث فيها بناء فكان يصلي فيه وهو كذلك فاختلف عليه الناس في القبلة وقالوا (إن جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد فأجهد نفسك في تقويمها) فأقاموا أياماً ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارك الشمس فلما رأى أمرهم قد اختلف بات مغموماً فدعا الله - عز وجل - أن يفرج عنهم فأتاه آت في منامه فقال له (إذا أصبحت

٤.٩ ولاية أبي المهاجر أفريقية وعزل عقبة

نخذ اللواء في يدك واجعله على عنقك فإنك تسمع بين يديك تكبيراً ولا يسمعه أحد من المسلمين غيرك فانظر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير: فهو قبلتك ومحرابك وقد رضي الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة وسوف يعز الله بها دينه ويذل بها من كفر به) فاستيقظ من منامه وهو جزع فتوضاً للصلاة وأخذ يصلي وهو في المسجد ومعه أشراف الناس فلما أ فجر الصبح وصلى ركعتي الصبح بالمسلمين إذا بالتكبير بين يديه فقال لمن حوله (أستمعون ما أسمع؟) فقالوا (لا) فعلم أن الأمر من عند الله فأخذ اللواء فوضعه على عنقه وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب فانقطع التكبير فركز لواءه وقال (هذا محرابكم) فاقتردى به سائر مساجد المدينة ثم أخذ الناس في بناء الدور والمساكن والمساجد وعمرت وشد الناس إليها المطايا من كل أفق وعظم قدره وكان دورها ثلاثة عشر ألف ذراع وستمائة ذراع حتى كمل أمرها. وكان عقبة خير وال خير أمير مستجاب الدعوة. وفي سنة ٥٥ استعمل معاوية ابن أبي سفيان على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلد الأنصاري وعزل معاوية بن حدرج عن مصر وعزل عقبة بن نافع عن أفريقية فكانت ولايته عليها أربعة أعوام وكان معاوية قد ولي مسلمة مصر فلما ولي مسلمة الآن أفريقية عزل منها

عقبة وولى عليها مولاه أبا المهاجر ديناراً وبقي هو صاحب مصر جمع ذلك كله معاوية له من أطراف إقليم مصر إلى طنجة وهو أول من جمع له المغرب كله فلم يزل والياً عليه حتى هلك معاوية

ولاية أبي المهاجر أفريقية وعزل عقبة

لما جمع معاوية ولاية المغرب لمسلمة بن مخلد استعمل عليه مولاه ديناراً ويكنى أبا المهاجر وعزل عقبة عن أفريقية فقبل لمسلمة بن مخلد والي مصر لو استعملت عقبة وأقرته على أفريقية؟ فإن له فضلاً وسابقاً وهو الذي بنى القيروان فقال مسلمة (إن أبي المهاجر كأحدنا صبر علينا في غير ولاية ولا كبير نيل فنحن نحب أن نكافئه ونصطنعه) فقدم أبي المهاجر أفريقية فأساء عزل عقبة ونزل خارجاً عن المدينة وكره أن ينزل الموضع الذي اختطه عقبة ومضى حتى خلفه بميلين مما يلي طريق تونس فاخطط بها المدينة وأراد أن يكون له ذكرها ويفسد عمل عقبة فبنى مدينة وأخذ في عمرانها وأمر الناس أن تحرق القيروان ويعمروا مدينته فخرج عقبة منصرفاً وأدركه الخير في الطريق فتوجه إلى المشرق آسفاً على أبي المهاجر ودعا الله عليه أن يمكنه منه فبلغت أبي المهاجر دعوته فقال (هو عبد لا ترد دعوته) ولم يزل أبي المهاجر خائفاً منه نادماً على ما فعل معه ولما قدم عقبة على معاوية قال له (فتحت البلاد ودانت لي وبنيت المنازل واتخذت مسجداً للجماعة وسكنت الناس ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عزلي) فاعتذر له معاوية وقال له (قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام عثمان وبذله مهجته صابراً محتسباً طع من أطاعه من قومه ومواليه وأنا أرددك إلى عملك) وتراخى الأمر حتى توفي معاوية وأفضى الأمر إلى يزيد ابنه فلما علم حال عقبة قال (أدركها قبل أن تفسد) فردده والياً على أفريقية وقطعها على مسلمة بن مخلد والي مصر. وفي سنة ٥٦ من الهجرة دعا معاوية بن أبي سفيان إلى بيعة يزيد وجعله ولي عهده من بعده فانقاد له الناس كلهم إلا خمس نفر (الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عباس - رضي الله عنهم -) . وفي سنة ٥٧ عزل معاوية مروان عن المدينة واستعمل الوليد بن عقبة

٤.١٠ ذكر فتح المغرب الأقصى على يد عقبة وغزواته

وكان العامل على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلد وولى مسلمة على أفريقية أبو المهاجر وبقي الحال على ذلك إلى وفاة معاوية. وفي سنة ٦٠ توفي معاوية بن أبي سفيان يوم الجمعة منتصف رجب وهو ابن اثنين وثمانين سنة وتولى الخلافة من بعده يزيد ابنه وتلقب بالمستنصر بالله في بعض الأقوال وكنيته أبو خالد وقد ذكرنا أخباره في تأليف وفي سنة ٦١ كان مقتل الحسين بن علي - رضي الله عنهما - وفيها أظهر عبد الله بن الزبير الخلافة بمكة وخلع طاعة يزيد بن معاوية وخبرهما. وفي سنة ٦٢ ولي يزيد بن معاوية على بلاد أفريقية والمغرب كله عقبة ابن نافع الفهري وهي ولايته الثانية على أفريقية.

ذكر فتح المغرب الأقصى على يد عقبة وغزواته

فرحل عقبة من الشام ومعه خمسة وعشرون رجلاً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما مر على مسلمة بن مخلد صاحب مصر خرج إليه واعتذر من فعل أبي المهاجر وأقسم له إنه خالفه فيما صنع وإنه كان قد أوصاه بتقوى الله وحسن السيرة وأن يحسن عشرة عقبة فقبل منه عقبة ومضى خنقاً على أبي المهاجر حتى قدم أفريقية فأوثق أبي المهاجر في الحديد وأمر بتخريب مدينته التي بناها ورد الناس إلى القيروان وركب في وجوه العسكر ومن معه من الصحابة والتابعين فدار بهم حول مدينة القيروان وهو يدعو لها ويقول (يا رب املأها عابدين واملأها بالمطيعين لك واجعلها عزاً لدينك وذلاً على من كفر بك) ثم عزم - رضي الله عنه - على الغزو في سبيل الله وترك بها جنداً من المسلمين واستخلف عليهم زهير بن قيس البلوي وكان رجلاً صالحاً ودعا عقبة أولاده فقال لهم إني قد بعث نفسي من الله - عز وجل - وعزمت على من كفر به حتى أقتل فيه وألحق به ولست أدري أتروني بعد يومي هذا) .

٤٠١١ ولاية حسان بن النعمان أفريقية والمغرب

٤٠١٢ بعض أخبار حسان بن النعمان

وفي سنة ٧٦ كان حدوث السكة في الإسلام وأمر أمير المؤمنين عبد الملك بضرب الدنانير والدراهم بنقش الإسلام. وفي سنة ٧٧ ثار المطرف بن المغيرة بن شعبة على عبد الملك بن مروان فكايدته عبد الملك واحتال عليه إلى أن قتل وفيها كان قتل رؤساء الخوارج. ولاية حسان بن النعمان أفريقية والمغرب

وفي سنة ٧٨ قدم حسان بن النعمان أفريقية اختاره لها عبد الملك بن مروان وقدمه على عسكر فيه أربعون ألف أقامه أولاً في مصر بالعسكر عدة لما يحدث ثم كتب إليه يأمره بالهوض إلى أفريقية ويقول له (أني قد أطلقت يدك في أموال مصر فأعط من معك ومن ورد عليك وأعط الناس واخرج إلى بلاد أفريقية على بركة الله وعونه) .

بعض أخبار حسان بن النعمان

نسبه: هو حسان بن النعمان بن عدي بن بكر بن مغيث بن عمرو بن مزريق بن عامر بن الازد قدم أفريقية في عسكر عظيم فلم يدخل المسلمون قط أفريقية بمثل ما دخلها حسان بن نعيمان فلما حصل القيروان سأل أهل أفريقية (من اعظم ملوك بها قدراً؟) فقالوا (صاحب قرطاجنة دار ملك أفريقية فسار نعيمان حتى نزل عليها وكان بها من الروم خلق لا يحصى كثرة فخرجوا إليه مع ملكهم فقاتلهم حسان بن نعيمان حتى هزمه وقتل أكثرهم ثم نازلها حتى افتتحها وهي كانت دار الملك بأفريقية. ذكر قرطاجنة أفريقية ويسمى أهل تونس اليوم بالمعلقة وكانت قرطاجنة مدينة عظيمة تضرب أمواج البحر سورها وهي من مدينة تونس على اثني عشر ميلاً وكان بينهما قرى متصلة عامرة وكان البحر لم يخرق إلى

٤٠١٣ خبر حسان مع الملكة الكاهنة وهزيمتها له

تونس وإنما انخرق بعد ذلك وفي هذه المدينة آثار عظيمة وأبنية ضخمة وأعمدة ثابتة غليظة تدل على عظمة قدرة الأمم الدائرة وأهل تونس إلى الآن لا يزالون يطلعون في خرابها على أعاجيب ومصانع لا تنقطع بطول الأزمان لم تأمل. فلما قدم حسان إليها وقتل فرسانها ورجالها اجتمع رأي من بقي بها على الفرار منها وكانت لهم مراكب كثيرة فمنهم من مضى إلى صقلية ومنهم مضى إلى الأندلس فلما انصرف عنها حسان وعلم أهل بواديا وأقاليمها هروب الملك عنها بادروا إليها فدخلوها فرحل إليها حسان ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديداً حتى دخلها بالسيف فقتلهم قتلاً ذريعاً وسباهم ونهبهم وأرسل لمن حوالها فاجتمعوا إليه مسارعين خوفاً من عظيم سطوته وشدة بأسه فلما أتوه ولم يبق منهم أحد أمرهم بتخريب قرطاجنة وهدمها ونفروها حتى صارت كأمس الغابر ثم بلغه أن النصاري اجتمعوا وأمدتهم البربر بعسكر عظيم في بلاد صطفورة فرحل إليهم حسان حتى لقيهم وقاتلهم حتى هزمهم وقتل الروم والبربر قتلاً ذريعاً وحمل

عليهم أعنة خيله فما ترك في بلادهم موضعاً إلا وطئه ولجأ الروم هارين خائفين باجة فتحصنوا بها وهرب البربر إلى إقليم بونة وانصرف حسان إلى القيروان.
خبر حسان مع الملكة الكاهنة وهزيمتها له

لما دخل حسان القيروان أراح بها أياماً ثم سأل أهلها عمن بقي من أعظم ملوك أفريقية ليسير إليه فيبيده أو يسلم فدلوه على امرأة بجبل أوراس يقال لها الكاهنة وجميع من بأفريقية من الروم منها خائفون وجميع البربر لها مطيعون (فإن قتلها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضاد ولا معانداً) فدخل بجيوشه إليها وبلغ الكاهنة خبره فرحلت من الجبل في عدد لا يحصى ولا يبلغ بالاستقصاء وسبقته إلى مدينة باغاية فأخرجت منها

الروم وهدمتها وظنت أن حسان يريد مدينة ليتحصن بها فبلغ خبرها حساناً فنزل بوادي مسكينة فرجلت الكاهنة حتى نزلت على الوادي المذكور فكان هو يشرب من أعلى الوادي وهي من اسله فلما توافت الخليل دنا بعضهم من بعض فأبى حسان أن يقاتلها آخر النهار فبات الفريقان ليلتهم على سروجهم فلما أصبح الصباح التقى الجمعان فقاتلوا قتالاً لم يسمع بمثله وصبر الفريقان صبراً لم ينته أحد إليه إلى أن انهزم حسان بن النعمان ومن معه من المسلمين وقتلت الكاهنة العرب قتلاً ذريعاً وأسرت ثمانين رجلاً من أعيان أصحابه وسمي ذلك الوادي وادي العذارى واتبعته الكاهنة حتى خرج من عمل قابس فكتب حسان إلى أمير المؤمنين عبد الملك يخبره بذلك وإن أمم الغرب ليس لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية كلها بادت أمة خلفتها أمم وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم فعاد له جواب أمير المؤمنين يأمره أن يقيم حيثما وافاه الجواب فورد عليه في عمل برقة فأقام بها وبني هنالك قصوراً تسمى إلى الآن بقصور حسان. وملك الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت للبربر إن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي فلا نرى لكم إلا خراب بلاد أفريقية كلها حتى يئس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر فوجهت قوماً إلى كل ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون فذكروا أن أفريقية كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة وقرى متصلة ومدائن منظمة حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن حصوناً من إقليم أفريقيا والمغرب مسيرة ألف ميل في مثله فخربت الكاهنة ذلك كله وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق

٤٠١٤ ذكر مقتل الكاهنة الملكة

كثير يستغيثون بما نزل بهم من الكاهنة ففرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية. وكانت الكاهنة لما أسرت ثمانين رجلاً من أصحاب حسان أحسنت إليهم وأرسلت بهم إلى حسان وحبست عندها خالد بن يزيد فقالت له يوماً: (ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع وأنا أريد أن أرضعك فتكون أماً لولدي) وكان له ابنان أحدهما بربري والآخر يوناني وقالت له (نحن جماعة البربر لنا رضاع: إذا فعلناه نتوارث به) فعمدت إلى دقيق الشعير فليته بزيت وجعلته على ثديها ودعت ولديها وقالت (كلا معه على ثديي) ففعلا فقالت (قد صرتم أخوة).

ذكر مقتل الكاهنة الملكة

ثم إن حسان توافت عليه فرسان العرب ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبد الملك فدعا حسان عند ذلك برجل يشق به وبعثه إلى خالد بن يزيد بكتّاب. فقراه وكتب في ظهره (أن البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأى عندهم فأطو المراحل وجدوا في السير) وجعل الكتّاب في خبزة وجعلها زاداً للرجل ووجهه بها إلى الأمير حسان فلم يغب عن خالد بن زيد إلا يسيراً حتى خرجت الكاهنة نائرة شعرها تضرب صدرها وتقول (يا ويلكم يا معشر البربر ذهب ملككم فيما يأكله الناس) فافترقوا يميناً وشمالاً يطلبون الرجل فساره الله تعالى حتى وصل حساناً فكسر الخبزة وقرأ الكتّاب الذي كتب إليه خالد فوجده قد أفسدته النار فقال له حسان: (ارجع إليه) فقال الرجل: (إن المرأة كاهنة: لا يخفى عليها شيء من هذا) فرحل حسان بجنوده إليه وبلغ الكاهنة خبره فرحلت من جبل أوراس في خلق عظيم ورحل إليها حسان فلما كان في الليل قالت لبنيتها: (إني مقتولة) وأعلمتهم أن رأسها مقطوع موضوعاً بين يدي ملك العرب

الأعظم الذي بعث حسناً فقال لها خالد: (فارحلي بنا وخلي له عن البلاد) فامتنعت ورأته عاراً لقومها فقال لها خالد وأولادها (فما نحن صانعون بعدك؟) فقالت: (أما أنت يا خالد فستدرك ملكاً عظيماً عند الملك الأعظم وأما أولادي فيدركون سلطاناً مع هذا الرجل الذي يقتلني ويعقدون للبربر غزائهم) ثم قالت: (اركبوا واستأمنوا إليه) فركب خالد وأولادها في الليل وتوجهوا إلى حسان فأخبرها خالد بخبرها وإنها عملت قتلها، وقد وجهت إليك بأولادها فوكل بهما من يحفظهما وقدم خالد على أئنة الخيل وخرجت الكاهنة ناشرة شعرها فقالت انظروا ما دهمكم فأني مقتولة ثم التحم القتال واشتد الحرب والنزال فانهزمت الكاهنة واتبعها حسان حتى قتلها. وكان مع حسان جماعة من البربر استأمنوا إليه فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفاً يجاهدون مع العرب فأجابوه وأسلموا على يديه فعقد لولدي الكاهنة لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس وأخرجهم مع العرب يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر وانصرف حسان إلى مدينة القيروان بعد ما حسن إسلام البربر وطاعتهم وذلك في شهر رمضان سنة ٨٣ وفي هذه السنة استقامت بلاد أفريقية لحسان بن النعمان فدون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم أفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية. وأقام حسان بعد قتل الكاهنة لا يغزو أحداً ولا ينازعه أحداً ثم عزله عبد العزيز بن مروان الوالي على مصر وكان الوالي على مصر يولي على أفريقية فعزل حسناً وأمره بالقدوم عليه فعلم حسان ما أراد عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك فعمد إلى الجوهر والذهب والفضة فجعله في قرب الماء وأظهر ما سوى ذلك من الأمتعة وأنواع الدواب والرقيق

٤٠١٥ ذكر ولاية أبي عبد الرحمن موسى بن نصير

٤٠١٦ أفريقية والمغرب وبعض أخباره رحمة الله عليه

وسائر أنواع الأموال فلما قدم على أمير مصر عبد العزيز بن مروان أهدى إليه مائتي جارية من بنات ملوك الروم والبربر فسلمه عبد العزيز جميع ما كان معه من الخيل والأحمال والأمتعة والوصائف والوصفان ورحل حسان بالأثقال التي بقيت له حتى قدم على الوليد فشكا له ما صنع به عبد العزيز فغضب الوليد على عمه عبد العزيز ثم قال لحسان لمن معه: (ائثوني بقرب الماء) ففرغ منها من الذهب والفضة والجوهر والياقوت ما استعظمه الوليد وعجب من أمر حسان فقال له الوليد (جزاك الله خيراً يا حسان) فقال (يا أمير المؤمنين إنما خرجت مجاهداً في سبيل الله وليس مثلي يخون الله والخليفة) فقال له الوليد: (أنا أردك إلى عملك وأحسن إليك وأثق بك) فخلف حسان (لا أولي لبني أمية أبداً) فغضب الوليد بن عبد الملك على عمه عبد العزيز. وكان حسان يسمى الشيخ الأمين وغزوات حسان لم تنضب بتاريخ محقق ولا فتحه لمدينة قرطاجنة وتونس ولا قتله للكاهنة وذكر ابن قطان أن عزل حسان وولاية موسى بن نصير كان من قبل عبد العزيز بن مروان دون أمر أخيه عبد الملك ولا مشورته.

ذكر ولاية أبي عبد الرحمن موسى بن نصير

أفريقية والمغرب وبعض أخباره رحمة الله عليه

نسبه: قيل إنه من لحم وقيل من بكر بن وائل وذكر ابن بشكوال في كتاب (الصلة) له إنه موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد وكان موسى على خراج البصرة قدمه عليها عبد الملك بن مروان فاحتجج الأموال على ما ذكره لنفسه فأوصى الحجاج به ألا يفوته نخافه موسى وقصد إلى عبد

العزيز بن مروان صاحب مصر لانتقطاع كان منه إليه فتوجه عبد العزيز مع موسى إلى الشام فوفدا على عبد الملك فأغرمه عبد الملك مائة ألف دينار فغرم عنه عبد العزيز نصفها وعاد مع عبد العزيز إلى مصر فولاه منها أفريقية.

فأول فتوحه قلعة غزوان ونواحيها وبينها وبين القيروان مسيرة يوم كامل وبنواحي غزوان قبائل بربر بعث إليهم موسى خمسمائة فارس ففتحها الله فبلغ سببهم عشرة آلاف وهو أول سبي دخل القيروان في ولاية موسى ثم وجه ابنه له اسمه عبد الله إلى بعض نواحي أفريقية فأتى بمائة ألف رأس من السبي ثم وجه ابنه مروان فأتى بمثلها فكان الخمس يومئذ ستين ألفاً فكتب موسى إلى عبد العزيز يعلمه بالفتح ويعلمه أن الخمس بلغ ثلاثين ألفاً وكان ذلك وهماً من الكاتب: كتب ثلاثين ألفاً بدلا من ستين ألفاً فلما قرأ عبد العزيز بن مروان الكتاب

وأن الخمس من السبي ثلاثون ألفاً استكثر ذلك ورأى إنه وهم من الكاتب لكثرت فكتب إلى موسى يقول له: (إنه قد بلغني كتابك تذكر أن خمس ما فاء الله عليك ثلاثون ألف رأس فاستكثر ذلك وظننته وهماً من الكاتب فكتب بالحقيقة) فكتب إليه موسى (قد كان ذلك وهماً من الكاتب على ما ظنه الأمير والخمس أيها الأمير ستون ألف رأس ثابتاً بلا وهم) فلما بلغه الكتاب عجب كل العجب وامتلئ سروراً وقد كان عبد الملك كتب إلى أخيه عبد العزيز (قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من رأيك في عزل حسان وتولية موسى وقد أمضى لك أمير المؤمنين ما كان من رأيك وولاية من وليت) فكتب عبد العزيز إلى أخيه يعلمه بالفتح وكتب موسى ثم وجه عبد الملك رجلاً إلى موسى ليقبض ذلك منه على ما ذكر فدفع موسى إليه مثل ذلك وزاد ألفاً وكان موسى عند وصوله إلى أفريقية لما صار في الجيش الأول أتى عصفور حتى نزل على صدره فاخذ به موسى وذبحه ولطخ بدمه صدره

من فوق الثياب وطرحه على نفسه وقال (هو الفتح ورب الكعبة) . قال ابن قتيبة: فتح موسى بن نصير سبجومه وقتل ملوكها وأمر أولاد عقبة: عياضاً وعثمان وأبا عبدة أن يأخذوا حقهم من قاتل أبيهم فقتلوا من أهل سبجومه ستمائة رجل من كبارهم ثم قال لهم: (كفوا) فكفوا وذلك سنة ٨٣ (على قول من قال أنه ولي فيها) . ثم فتح موسى هواره وزناته وكنامه فأغار عليهم وقتلهم وسباهم فبلغ سببهم خمسة آلاف رأس وكان عليهم رجل يقال له طامون فبعث به موسى إلى عبد العزيز بن مروان فقتله عند البركة التي عند قرية عقبة فسميت بركة طامون إلى اليوم وكانت قد قدمت على موسى فولى عليهم رجلاً منهم وأخذ منهم رهائن من خيارهم. وفي سنة ٨٥ توفي عبد العزيز بن مروان صاحب ملك مصر من قبل أخيه عبد الملك بن مروان ووليا عبد الله بن مروان أخو عبد الملك وكان عبد الملك بن مروان أراد أن يخلع أخاه عن مصر في هذه السنة على ما فعل من عزل حسان بن النعمان وفيه فنهاه قبيصة بن ذؤيب وقال (لعل الموت يأتيه فنستريح منه) فكف عبد الملك عنه وبقيت نفسه تنازعه أن يخلعه فينا هو على ذلك وروح بن زنباع الجذامي يقول له يوماً: (لو خلعت ما انططح فيه عزان) إذ دخل عليهما قبيصة فقال (آجرك الله يا أمير المؤمنين في أخيك فقال (وهل توفي؟) قال: (نعم) فقال عبد الملك: (كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا أجمعنا عليه) وكانت وفاة عبد العزيز في جمادى الأولى من السنة المؤرخة. وفي سنة ٨٦ توفي عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين فكتب الوليد إلى عمه عبد الله بن مروان بولاية موسى بن نصير أفريقية والمغرب وقطعها عن عمه وكانت أكثر مدن أفريقية خالية باختلاف البرابر عليها.

فتح المغرب الأقصى على يد الأمير أبي عبد الرحمن موسى بن نصير

ثم خرج موسى - رحمه الله - غازياً من أفريقية إلى طنجة فوجد البربر قد هربوا إلى الغرب خوفاً من العرب فتبعهم وقتلهم قتلاً ذريعاً وسبى منهم سباً كثيراً حتى بلغ السوس الأدنى وهو بلاد درعة فلما رأى البربر ما نزل بهم استأمنوا وأطاعوا فولى عليهم والياً واستعمل مولاه طارقاً على طنجة وما والاها في سبعة عشر ألف من العرب واثنى عشر ألف من البربر وأمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين ثم مضى موسى قافلاً إلى أفريقية. قال ابن القطان: وذكر أن موسى بن نصير بعث أثر بيعته للوليد في هذه السنة المؤرخة زرعة بن أبي مدرك إلى قبائل من البربر فلم يلتق حرباً منهم فرغبوا في الصلح منه فوجه رؤساءهم إلى موسى بن نصير فقبض رهونهم ثم عقد لعياش بن اخيل على مراكب أفريقية فشئى في البحر إلى صقلية فأصاب مدينة يقال لها سرقوسة فغنمها وجميع ما بها وقتل سالماً غنائماً. ولما حمل أبو مدرك زرعة بن أبي زرعة رهائن المصامدة جمعهم موسى مع رهائن البربر الذين أخذهم إلى أفريقية والمغرب وكانوا على طنجة وجعل عليهم مولاه طارقاً ودخل بهم جزيرة الأندلس وترك موسى بن نصير سبعة عشر رجلاً من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام وقد كان عقبة بن نافع ترك فيهم بعض من أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام: منهم شاكر صاحب الرباط وغيره ولم يدخل المغرب الأقصى أحد من ولادة خلفاء بني أمية بالمشرق إلا عقبة بن نافع الفهري ولم يعرف المصامدة غيره وقيل أن أكثرهم أسلموا طوعاً على يديه ووصل موسى بن نصير بعده.

وفي سنة ٩٣ من الهجرة جاز طارق إلى الأندلس وافتتحها بمن كان معه من العرب والبرابر ورهائنهم الذين ترك موسى عنده والذين أخذهم حسان من المغرب الاوسط قبله. وكانت ولاية طارق على طنجة والمغرب الأقصى في سنة ٨٥ وفي هذا التاريخ تم إسلام

أهل المغرب الأقصى وحولوا المساجد التي كان بناها المشركون إلى القبلة وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات وفيها صنع مسجد اغمات هيلانة. ونسب طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن ورنجوم بن نبرغاسن بن ولهاص بن بطوفت بن نزاو فهو نفزي ذكر إنه من سبي البربر وكان مولى موسى بن نصير وفي سنة ٩٢ جاز موسى بن نصير إلى الأندلس فعبر البحر غاضباً على طارق ومشى على غير طريقه وفتح فتوحاً كثيرة يقع ذكرها إن شاء الله في الجزء الثاني من هذا الكتاب في فتح الأندلس. وفيها ولي عبد الله بن موسى أفريقية عوضاً من أبيه حين توجه إلى الأندلس إلى أن وصل أبوه منها متوجهاً إلى المشرق فقدم مدينة القيروان في أواخر سنة ٩٥. وفي سنة ٩٥ انصرف موسى من الأندلس إلى أفريقية بما أفاء الله عليه فأجاز الأموال من الذهب والفضة والجوهر في المراكب إلى طنجة ثم حملها على العجلات.

قال الرقيق: كانت وسق مائة عجلة وأربع عشرة عجلة وفيها المائدة وكانت من ذهب يشوبه شيء من فضة مطوفة بثلاثة أطواق: طوق ياقوت وطوق زبرجد وطوق جوهر وحملت يوماً على بغل عظيم أفره وأقوى ما وجد فما بلغ المرحلة حتى تفسخت قوائمه. قال الليث بن سعد: لم يسمع بمثل سبایا موسى بن نصير في الإسلام.

ولما قدم عليه ابنه من السوس خرج للقائه مع وجوه الناس فلما التقيا قال مروان بن موسى لرجاله: (مروا لكل من خرج مع والدي بوصيف أو وصيفة) وقال موسى: (مروا أنتم لهم من عندي بمثل ذلك) فرجع الناس كلهم بوصيف أو وصيفة ومن أخبار موسى بن نصير أيضاً - رحمه الله - لما انصرف من الأندلس ولي عليها ابنه عبد العزيز وشخص قافلاً إلى أفريقية فقدم القيروان في آخر سنة ٩٥ فلم يدخلها ونزل بقصر الماء ثم قعد في مجلسه وجاءته جيوش العرب من القيروان فمنهم من سافر معه ومنهم مع تخلف مع ابنه عبد الله بأفريقية فقال لأصحابه: (أصبحت اليوم في ثلاث نعم: منها كتاب أمير المؤمنين بالشكر والثناء ثم وصف ما جرى الله على يديه من الفتوحات ثم كتاب ابني عبد العزيز يصف ما فتح الله عليه في الأندلس بحمد الله تعالى. فقاموا إليه فهنئوه وما الثالثة فأنا أريكموها وقام فأمر برفع الستر فإذا فيه جوار مختلفات كأنهن البدور الطوالع من بنات ملوك الروم والبربر عليهن الحلي والحلل) فهنئ أيضاً بذلك فقال علي ابن رباح السلمي (أيها الأمير أنا انصح الناس إليك: ما من شيء انتهى إلا ورجع فارجع قبل أن يرجع إليك) قال: فانكسر موسى وفرق جواريه من حينه على الناس.

ثم رحل إلى المشرق وخلف على أفريقية ابنه عبد الله وعلى الأندلس ابنه عبد العزيز وعلى طنجة ابنه عبد الملك وقال ابن القطان: الأكثرون يقولون أن مستقر طارق قبل محاولة الأندلس كان طنجة ومنهم من يقول كان بموضع سبلماسة وإن سلا وما ورائها من أرض فاس وطنجة وسبته كانت للنصارى قال: واختلف الناس هل دخل موسى القيروان في هذه الوجهة أم لا. ثم رحل عنها مه بقية أولاده: مروان، وعبد الأعلى وغيرهما معه أشراف الناس من قریش والأنصار وسائر العرب ومن وجوه البربر مائة منهم كسيلة بن لمزم وبنو يسور ومزدانة ملك السوس وملك مبورقة ومتورقة ومن أولاد الكاهنة ومائة من وجوه ملوك الأندلسيين وعشرون ملكاً من ملوك المدائن التي افتتحها بأفريقية وخرجوا معه بأصناف ما كان في كل بلد من طرفها حتى انتهى إلى مصر فلم يبق بها فقيه ولا شريف إلا وصله وأعطاه ثم خرج من مصر متوجهاً إلى فلسطين فتلقيه آل روح بن زنباع ونحروا له خمسين بعيراً ثم خرج وترك لهم عندهم بعض أهله وصغار ولده فأعطى آل روح بن زنباع عطاء جزلاً ثم وافاه كتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك يأمره بشد السير إليه ليدركه في قيد الحياة وكان مريضاً ووفاه كتاب من سليمان بن عبد الملك ولي عهد أخيه الوليد يأمره بالتأني والتربص فأسرع موسى ولم ينظر في كتاب سليمان إلى أن وصل إلى الوليد قبل موته بثلاث أيام فقال سليمان: (لئن ظفرت به لأصلبته) فدفع موسى الأموال والمائدة والدر والياقوت والتيجان والذهب والفضة إلى الوليد بن عبد الملك. وقال المسعودي في كتابه (معجائب البلاد والزمان) قال: لما فتح طارق طليطلة وجد بها بيت الملوك ففتحه فوجد فيه زبور داود - عم - في ورقات الذهب مكتوباً بماء ياقوت محلول من عجيب العمل الذي لم يكدر مثله ومائدة سليمان - عم - وقد تقدم وصفها ووجد فيه أربعة وعشرين تاجاً منظمة بعدد ملوك القوطيين بالأندلس: إذا توفي أحدهم جعل تاجه بذلك البيت وفعل الملك بعده لنفسه غيره جرت عوائدهم على ذلك ووجد فيه قاعة كبيرة مملوءة بإكسير الكيمياء فحمل ذلك كله إلى الوليد بن عبد الملك. وفي سنة ٩٦ توفي الوليد بن عبد الملك في جمادى

الأخير وولي الخلافة سليمان فغضب على موسى غضباً عظيماً وأمر عليه فأوقف في يوم شديد الحر في الشمس وكان رجلاً بادناً ذا نسمة فوقف حتى سقط مغشياً

عليه وقال له سليمان (كتبك إليك فلم تنظر كتابي هلم مائة ألف دينار) قال (يا أمير المؤمنين قد أخذتم ما كان معي من الأموال فمن أين لي مائة ألف دينار؟) قال: (لا بد من مائتي ألف) فاعتذر فقال (لا بد من ثلاثمائة ألف دينار) وأمر بتعذيبه وعزم على قتله فاستجار بيزيد ابن المهلب وكانت له حظوة عند سليمان فاستوهبه منه وقال (يؤدي ما عنده) وقيل أن موسى افتدي من سليمان بألف ألف دينار ذكر ذلك بن حبيب وغيره ثم أن يزيد بن المهلب سهر ليلة مع الأمير موسى فقال له: (يا أبا عبد الرحمن في كم كنت تعتد أنت وأهل بيتك من الموالي والخدام؟ أ تكونون في ألف؟) فقال (نعم) وألف ألف إلى منقطع النفس قال (فلم ألقيت بنفسك إلى التهلكة؟ أفلا أقت في قرار عزك وموضع سلطانك؟ والله لو أردت ذلك لما أنالوا من أطرافي شيئاً ولكني آثرت الله - عز وجل - ورسوله ولم أر الخروج عن الطاعة) وقيل أن سليمان بن عبد الملك بعد ما افتدي منه موسى دعا يوماً بطست من ذهب فرآه موسى ينظر إليه فقال له: (يا أمير المؤمنين إنك لتعجب من غير عجب والله ما أحسب أن فيه عشرة آلاف دينار والله لو بعثت إلى أخيك الوليد بتنور من زبرجد أخضر كان يصب فيه اللبن فيخضر ولقد قوم بمائة ألف دينار ولقد أصبت كذا بكذا) وجعل يكثر عليه في ذلك حتى بهت الأمير من قوله. وكان مولد موسى بن نصير سنة ١٩ ووفاته سنة ٩٨ فكان عمره تسعاً وسبعين سنة وفي سنة ٨٨ ولي أفريقية فأقام عليها أميراً وعلى الأندلس والمغرب كله نحو ثمان عشر سنة إلى أن مات ومما ذكر في وفاته أنه حج مع سليمان فلما وصلا المدينة قال موسى بن نصير لأصحابه: (ليمتن بعد غد رجل قد ملئ ذكره المشرق والمغرب) فمات موسى في ذلك اليوم.

٤٠١٧ ولاية محمد بن يزيد أفريقية والمغرب

ولاية محمد بن يزيد أفريقية والمغرب

قال الواقدي: ثم أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك قال لرجاء بن حيوة: (أريد رجلاً له فضل في نفسه أوليه أفريقية) ، فقال له: (نعم) فكث أياماً ثم قال: (قد وجدت رجلاً له فضل) قال: (من هو؟) قال: (محمد بن يزيد مولى قريش) فقال: (أدخله علي) فأدخله عليه فقال سليمان: (يا محمد بن يزيد اتق الله وحده لا شريك له وقم فيما وليتك بالحق والعدل وقد وليتك أفريقية والمغرب كله) قال فودعه وانصرف وهو يقول: (ما لي عذر عند الله ما لم أعدل) وفي سنة ٩٧ من الهجرة استقر محمد بن يزيد بأفريقية بأحسن سيرة وأعد لها ثم وصله الأمر بأخذ عبد الله موسى بن نصير وتعذيبه واستئصال أموال بني موسى فسجنه محمد وعذبه ثم قتله بعد ذلك وكان سليمان قد أمره بأخذ أهل موسى وولده وكل من تلبس به واستئصال أموالهم وتعذيبهم حتى يؤدوا ثلاثمائة ألف دينار وتولى قتل عبد الله بن موسى خالد ابن أبي حبيب القرشي وأما عبد العزيز بن موسى فخلف دعوة بني مروان واستبد بأمره لما بلغه ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته وجاءت الكتب إلى حبيب بن أبي عبده ووجوه العرب من سليمان بن عبد الملك يأمرهم بقتله فقتلوه وحمل رأسه ورأسه أخيه عبد الله حتى وضعاً بين يدي أبيهما موسى وهو في عذابه فكان فعل سليمان هذا بموسى وبنيه وقد فعل من الفتح في الإسلام ما فعل من هفوات سليمان التي تزل تنقم عليه. واستعمل محمد بن يزيد على الأندلس الحارث بن عبد الرحمن الثقفي وكانت الأندلس إذ ذاك إلى وإلى أفريقية كما كان أيضاً وإلى أفريقية من قبل وإلى مصر وكان محمد بن يزيد يبعث بسرية إلى ثغور أفريقية فما أصابه قسمه عليهم وكانت ولايته سنتين واشهر.

وفي سنة ٩٩ توفي سليمان بن عبد الملك واستخلف عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - يوم وفاته فاستعمل على أفريقية إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم. وفي سنة ١٠٠ ولي إسماعيل بن أبي المهاجر أفريقية من قبل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فكان خير أمير وخير وال وما زال حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام حتى اسلم بقية البربر بأفريقية على يده في دولة عمر بن عبد العزيز وهو الذي علم أهل أفريقية الحلال والحرام وبعث معه عمر - رضي الله عنه - عشرة من التابعين أهل علم وفضل منهم عبد الرحمن بن

نافع وسعد بن مسعود التجيبي وغيرهما وكانت النجر بأفريقية حلالاً حتى وصل هؤلاء التابعون فبنوا تحريمها - رضي الله عنه - . وفيها استخلف إسماعيل بن أبي المهاجر على الأندلس السصح بن مالك الخولاني فكان حلوله بها في رمضان من السنة . وفي سنة ١٠١ توفي عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - بدير سمعان لست خلون من شعبان فكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وولي الخلافة بعده يزيد ابن عبد الملك فولى على أفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف وصاحب شرطته . وفي سنة ١٠٢ قدم إلى أفريقية والياً عليها يزيد ابن أبي مسلم وكان ظلوماً غشوماً وكان البربر يحسنونه فقام على المنبر خطيباً فقال (أني رأيت أن أرسم اسم حربي في أيديهم كما نصنع ملوك الروم يحرسها فأرسم في يمين الرجل اسمه وفي يساره حربي ليعرفوا بذلك من بين سائر الناس فإذا وقفوا على أحد أسرع لما أمرت به) فلما سمعوا ذلك منه أعني حرسه اتفقوا على قتله وقالوا: (جعلنا بمنزلة النصاري) فلما خرج من داره إلى المسجد لصلاة المغرب قتلوه في مصلاه فتكلم في رجل

٤٠١٨ ولاية بشر بن صفوان أفريقية

يقوم بأمرهم حتى يأتيهم أمر الخليفة فتراضوا بالمغيرة بن أبي بردة وكان شجاعاً كبيراً فقال له ابنه عبد الله: (إن يزيد ابن أبي مسلم قتل بحضرتك فإن قتل بهذا الأمر اتهمت بقتله ولكن الرأي أن نتراضى لمحمد ابن أوس الأنصاري) وكان غازياً بصقلية فلم يلبث يسيراً حتى قدم بغنائم قد أصابها فقلدوه أمر الخليفة فكتب إلى يزيد بن عبد الملك يخبره بما حدث من الأمر فاستعمل على أفريقية بشر بن صفوان.

ولاية بشر بن صفوان أفريقية

هو بشر بن صفوان بن توبل بن بشر بن حنظلة بن علقمة بن شراحيل ابن عزيز ابن خالد ولي أفريقية سنة ١٠٣ فاستصفي بقايا آل موسى بن نصير ووفد بعد ذلك إلى يزيد ابن عبد الملك فألفاه قد هلك . وفي سنة ١٠٥ هلك يزيد بن عبد الملك في ربيع الأول وولى هشام بن عبد الملك فرد بشر بن صفوان إلى أفريقية فلما قدمها ولي على الأندلس عنبة بن سحيم الكلبي ثم أن بشر بن صفوان غزا بنفسه صقلية فأصاب بها سبياً كثيراً وقتل إلى القيروان فلما حضرته الوفاة قالت جاريته: (وا شماتة الأعداء) فقال لها: (قولي للأعداء لا يموت) واستخلف العباس بن باضعة الكلبي . وفي سنة ١٠٧ ولي بشر بن صفوان على الأندلس يحيى بن سلمة الكلبي فقدمها في شوال وفي هذه السنة اختلط أمر ولاية مصر اختلاطاً كثيراً وفي سنة ١٠٩ توفي بشر بن صفوان والى أفريقية بمدينة القيروان فكانت ولايته سبع سنين وبقي نائبه على القيروان حتى وصل وال من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك.

٤٠١٩ ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي أفريقية والمغرب

ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي أفريقية والمغرب

وهو ابن أخي أبي الأعور السلمي صاحب خيل معاوية بصفين فقدم أفريقية سنة ١١٠ في ربيع الأول فدخل القيروان فجأة وذلك يوم الجمعة فألقى خليفة بشر بن صفوان قد تهيأ لشهود الجمعة ولبس ثيابه فقيل له: (هذا عبيدة قد قدم أميراً) فقال: (لا حول ولا قوة إلا بالله هكذا تقوم الساعة بغتة) وألقى بنفسه فما حملته رجلاه ودخل عبيدة فأخذ عمال بشر وأصحابه فحبسهم وأغرمهم وعذب بعضهم . وفي سنة ١١٠ ولى عبيدة بن عبد الرحمن المذكور عثمان بن أبي نسمة على الأندلس فقدمها في شعبان . وفي سنة ١١١ قدم إلى الأندلس والياً أيضاً من قبل عبيدة بن عبد الرحمن صاحب أفريقية والمغرب كله حذيفة بن الاحوص القيسي وقيل: الاشجعي وذلك في غرة محرم من السنة المذكورة . وفي سنة ١١٢ ولى عبيدة المذكور على الأندلس أيضاً الهيثم بن عبيد الكاكي فقدمها في محرم أيضاً من هذه السنة ثم توفي سنة ١١٤ وكانت ولايته سنتين وأياماً ولما أخذ عبيدة عمال بشر وأصحابه وأغرمهم وعذبهم كان فيهم أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي وكان شريفاً في قومه مع صفاحه وبراعة وكان ولي في أفريقية ولايات كبيرة في أيام بشر بن صفوان

فعرله عبيدة ونكل به فقال طويل:
أفألم بني مروان فيها دماءنا ... وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط ... ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
تعاميت عنا بعين جلية ... وأنتم كذا ما قد علمنا لنا فعل

٤٠٢٠ ولاية عبيد الله بن الحبحاب أفريقية والمغرب كله

وبعث بهذه الأبيات إلى الخليفة هشام بن عبد الملك فأمر هشام بعزل عبيدة من أفريقية والمغرب ففقل منه واستخلف عقبة بن قدامة وذلك في شوال سنة ١١٤ فكان ملك عبيدة بأفريقية أربع سنين وستة أشهر وتوجه إلى الشام سنة ١١٤ بهدايا وتحف عظيمة وبقي خليفته على القيروان ستة أشهر. وفي سنة ١١٣ كان عمال أفريقية والأندلس الذين كانوا في السنة قبلها ثم ولي الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي فغزا الروم واستشهد مع جماعة من عسكره سنة ١١٥ بموضع يعرف ببلاط الشهداء وفيها أصاب الناس مجاعة عظيمة. ولاية عبيد الله بن الحبحاب أفريقية والمغرب كله

وهو مولى بن سلول وكان رئيساً نبيلاً وأميراً جليلاً بارعاً في الفصاحة والخطابة حافظاً لأيام العرب وأشعارها ووقائعها فقدم أفريقية في ربيع الآخر من سنة ١١٦ وهو الذي بنى المسجد الجامع ودار الصناعة بتونس وكان أول الأمر كاتباً ثم تناهت به الحال إلى ولاية مصر وأفريقية والأندلس والمغرب كله فاستخلف على مصر ابنه القاسم واستعمل على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي واستعمل على طنجة وما والاها من المغرب الأقصى ابنه إسماعيل ثم عمر بن عبد الله المرادي.

وبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري غازياً إلى السوس الأقصى فبلغ أرض السودان ولم يقابله أحد إلا ظهر عليه ولم يدع بالمغرب قبيلة إلا داخلها وأصاب من السيي أمراً عظيماً ووجد جارين ليس لكل واحدة منهما إلا ثدي واحد ثم رجع سالماً ظافراً فغزا صقلية وظفر بأمر لم يره مثله.

ثم أن عمر بن عبد الله المرادي عامل طنجة وما والاها أساء السيرة وتعدى في الصدقات والعشر وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فيء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبلة وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام فكان فعله الذميمة هذا سبباً لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد نعوذ بالله من الظلم الذي هو وبال على أهله.

فلما علم البربر خروج حبيب بن أبي عبيدة إلى بلاد الروم نقضوا الطاعة لعبيد الله بن الحبحاب بطنجة وأقاليمها وتداعت برابر المغرب بأسره فثارت المغرب بالمغرب الأقصى فكانت أول ثورة فيه وفي أفريقية في الإسلام.

وفي سنة ١٢٢ كانت ثورة البربر بالمغرب نفرج ميسرة المدغري وقام على عمر بن عبد الله المرادي بطنجة فقتله وثار البرابر كلها مع أميرهم ميسرة الحقيير ثم خلف ميسرة على طنجة عبد الأعلى بن حدبج وزحف إلى إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب إلى السوس فقتله ثم كانت وقائع كثيرة بين أهل المغرب الأقصى وأهل أفريقية يطول ذكرها وكان المغرب حينئذ قوم ظهرت فيهم دعوة الخوارج ولهم عدد كثير وشوكة كبيرة وهم برغواطة وكان السبب في ثورة البربر وقيام ميسرة إنها أنكرت على عامل ابن الحبحاب سوء سيرته كما ذكرنا وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ويبعثون فيها إلى عامل أفريقية فيبعثون لهم البربر السنيات فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان فأضطر إلى التعسف وسوء السيرة فحينئذ عدة البرابر على عاملهم فقتلوه وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب.

وكان لعبيد الله بن الحبحاب أولاد قد أعجبهم أنفسهم قدم عقبة بن الحجاج عليهم وكان أبو عقبة قد عاتق الحبحاب والد عبيد الله فلما دخل

عقبة على عبيد الله وأقعدته على سريرته فلما خرج عقبة من عنده أنكر عليه ذلك أولاده فقال لهم: (ما رأيكم) فقالوا (إن تعطيه شيئاً وتصرفه عنا فلا يكسر شرفنا فقال لهم: (نعم) فلما كان في غد أمر الناس فدخلوا عليه ودخل عقبة في جملتهم فقام إليه وأجلسه على سريرته ووقف قائماً فقال: (أيها الناس إن بني هؤلاء غرتهم غرة الشيطان لعزة السلطان وأرادوا أمراً أخرج به عن الحق وأنكروا ما رأوا من بري بهذا الرجل وإنما أخبركم أنه مولاي وأن أباه أعتق أبي وإن أكره كتمان أمر الله - سبحانه - شهيد به علي) ثم خير عقبة في ولاية ما شاءه من سلطانه فاختار الأندلس فولاه عليها وذلك في سنة ١١٦ وأقام بها إلى سنة ١٢١ وقام عليه عبد الملك بن قطن الفهري نخله وقيل: بل هو استخلفه.

رجع الخبر إلى ميسرة المدغري رأس الصفيرية أمير الغرب: لما بلغ عبيد الله بن الحبحاب قتل عامله وولده كتب إلى حبيب ابن أبي عبدة يأمره بالرجوع من صقلية ليأخذ في الحركة مع أهل أفريقية إلى ميسرة وولى ابن الحبحاب على عسكر أفريقية وأشرفهم ووجههم خالد ابن أبي حبيب الفهري فشنخ إلى ميسرة ووصل حبيب ابن أبي عبدة في أثره وسار خالد حتى عبر وادي شلف وهو بمقربة تهرت ثم قدم حبيب فزل على مجاز الوادي المذكور فلم يبرح منه ومضى خالد من فوره حتى لقي ميسرة بمقربة من طنجة فاقتتل معه قتالاً شديداً لم يسمع قط بمثله ثم انصرف ميسرة إلى طنجة فأكرت البربر عليه سوء سيرته وتغيره عما كانوا بايعوه عليه. قال الرفيق: وكان ميسرة قد تسمى بالخلافة وبوبع عليها فقتلوه وولوا أمرهم بعده خالد بن حميد الزناتي فالتقى خالد بن أبي حبيب بالبربر فكان بينهم قتال شديد فبينما هم كذلك إذ غشيم خالد بن حميد الزناتي من خلفهم

٤٠٢١ ولاية كلثوم بن عياض إفريقية

٤٠٢٢ ومقاتلته مع أمير المغرب خالد بن حميد الزناتي

بعسكر عظيم، فتكاثر عليهم البربر؛ فانهمز العرب وكره خالد بن أبي حبيب أن يهرب؛ فألقى بنفسه هو وأصحابه إلى الموت أنفة من الفرار. فقتل ابن أبي حبيب ومن معه، حتى لم يبق من أصحابه رجل واحد. فقتل في تلك الواقعة حماة العرب، وفرسانها، وكلماتها، وأبطالها؛ فسميت الغزوة غزوة الأشراف؛ فانتفضت البلاد. وبلغ أهل الأندلس ثورة البربر؛ فوثبوا على أميرهم؛ فعزلوه وولوا عبد الملك بن فطن. فاختلت الأمور على ابن الحبحاب؛ فاجتمع الناس عليه وعزلوه. وبلغ ذلك الخليفة هشام بن عبد الملك فقال: (والله لأغضبن لهم غضبة عربية ولأبعثن جيشاً أوله عندهم وآخره عندي) ثم كتب إلى ابن الحبحاب بقدمه عليه؛ فخرج في جمادى الأولى من سنة ١٢٣.

ولاية كلثوم بن عياض إفريقية

ومقاتلته مع أمير المغرب خالد بن حميد الزناتي

لما بلغ هشام بن عبد الملك انتقاض البلاد الغربية والأندلسية، بعث كلثوم بن عياض هذا إلى أفريقية، وعقد له على اثني عشر ألفاً من أهل الشام. وكتب إلى والي كل بلد أن يخرج معه بمن معه. فصارت عمال مصر وطرابلس وبرقة معه حتى قدم أفريقية في رمضان سنة ١٢٣. فنكب عن القيروان. وكان على طلائعه بلج بن بشر القشيري ابن عمه. فلما وصل بلج قال لأهل أفريقية (لا تغلقوا أبوابكم، حتى يعرف أهل الشام منازلكم) ومع ذلك كلام كثير يغيظهم به. فكتبوا إلى حبيب بن أبي عبدة يعرفونه بمقالة بلج. فكتب إلى كلثوم: (إن ابن عمك السفه قال كذا وكذا. فارحل بعسكرك عنهم، وإلا حولنا أعنة الخيل إليك!) فكتب كلثوم يعتذر إليه ويأمره أن يقيم بشلف حتى يقدم عليه. فاستخلف كلثوم على القيروان عبد الرحمن بن

عقبة الغفاري، وسار حتى عسكر حبيب، فرفضه واستهان به، وسب بلج بن بشر لحبيب وتنقصه وقال: (هذا الذي يحول أعنة الخيل إلينا) فقام إليه عبد الرحمن بن حبيب وقال (يا بلج هذا حبيب! فإذا شئت فاعرض له للمقابلة!) وصاح الناس (السلاح! السلاح!) فقال أهل أفريقية إلى ناحية. ومعهم أهل مصر. ثم سعى بينهم الصلح. فكان هذا الاختلاف سبب هلاكهم، مع سوء رأي كلثوم وبلج.

ولما قدم كلثوم على وادي سنبل، وهو في ثلاثين ألفاً، وقال ابن القطان: فيهم عشرة آلاف من صلب بني أمية، وعشرون ألفاً من سائر العرب. فتوجه إليهم خالد بن حميد الزناتي الذي تولى الأمر بعد ميسرة. فوجه كلثوم بلجا ليلا ليقع بالبربر. فسرى ليلته، وأوقع بهم عند الصباح؛ فخرجوا إليه عراة؛ فهزموه ووصلوا إلى كلثوم. فأمر بدبذبان فنصب له، وقعد عليه. ثم نشب القتال، وقعدت البربر تحت الدرق، ونشبت الخيل الخيل العرب خيل البربر؛ ثم انكشفت خيل العرب، وألقت الرجال بالرجال. فكان صبر وقتال. وخالطت خيل البربر ورجلهم كلثوم وأصحابه. فقتل كلثوم، وحبيب بن أبي عبدة، وسليمان بن أبي المهاجر. ووجه العرب. فكانت هزيمة أهل الشام إلى الأندلس، وهزيمة أهل مصر وأفريقية إلى أفريقيا.

قال ابن القطان: لما بعث هشام بن عبد الملك كلثوما واليا على أفريقيا والمغرب، وأمره بالجد والاجتهاد في أمرها، إذ كانوا بين أمية يجدون في الدريات أن الملك القائمين عليهم لا يجاوز الزاب. فتوهموا إنه زاب مصر، وإنما كان زاب أفريقيا. وعهد إليه في سدها وضبطها، وعهد أن حدث بكلثوم حدث أن يكون ابن أخيه بلج مكانه. فدارت بينه وبين البربر حروب، هزموا في بعضها كلثوم بن عياض وقتلوه، وصار أمر العرب بأفريقية إلى بلج بالعهد المذكور. ولجأ فلهم إلى سبتة، وبقوا بها حتى ضاق عليهم الأمر؛ فكتب

٤.٢٣ ذكر برغواطة وارتدادهم عن الإسلام

بج وأصحابه عبد الملك بن قطن أمير الأندلس، وسأله إدخالهم الأندلس. فلم يأمنهم عبد الملك، ومظلمهم بالميرة والسفن. ثم اضطرب إلى إدخالهم الأندلس بعد ذلك، لسبب أشرحه في الجزء الثاني إن شاء الله؛ وهو موضعه في أخبار الأندلس. فكتبهم، وشرط عليهم إقامة سنة في الأندلس، ثم يخرجون عنها. فرضوا بذلك؛ وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام.

ولما دخلوا الأندلس وأقاموا فيها سنة، ترفهوا بها. فأمرهم عبد الملك بالخروج منها، كما أشرت عليهم. فامتنعوا، وقتلوا عبد الملك بن قطن، واستولى بلج على الأندلس، وبقي بها أحد عشر شهرا، أميرا. وقد شرحنا أمره في أخبار الأندلس في الجزء الثاني وقال الرقيق: لم ينهزم من أهل أفريقيا إلا عبد الرحمن بن حبيب؛ فإنه جاز على الأندلس؛ فقال لأمره عبد الملك بن قطن: (هؤلاء أهل الشتم يقولون: ابعت لنا مراكب نجوز فيها، وهم، إن جازوا إليك، لم بأمنهم عليك!) فلما أجازهم إليها، ما لبثوا فيها إلا سنة حتى وثبوا عليه مع بلج. فكانت بينهم اثنتا عشرة وقعة، وكلها على عبد الملك بن قطن حتى قتله بلج واستولى على الأندلس.

وفي سنة ١٢٤، قتل بلج بالأندلس، ووليا ثعلبة بن سلامة العاملي، وأعقده أصحاب بلج مكانه بما عهد به هشام إليهم، وباعوه. فثار في أيامه بقايا البربر بمادرة؛ فغزاهم ثعلبة، وقتل منهم خلقا كثيرا وأسر منهم نحو الألف، وانصرف إلى قرطبة. فكانت ولايته عشرة أشهر. وفيها كان ابتداء ظهور برغواطة.

ذكر برغواطة وارتدادهم عن الإسلام

قال ابن القطان وغيره: كان طريف من ولد شمعون ابن إسحاق وإن الصغيرة رجعت إلى مدينة القيروان لنهبها استباحتها في ثلث مائة ألف من البربر مع أمير منهم. وكانوا قد اقتسموا بلاد أفريقية وحريمها وأموالها؛ فهزمهم الله تعالى بأهل القيروان، وهم في اثني عشر ألف مقاتل، نصرهم الله تعالى عليهم؛ وخبرهم طويل، يمنع من إيراده هنا خيفة التطويل، وكان طريف هذا من جملة قواد هذا العسكر؛ وإليه تنسب جزيرة طريف. فلما هزمهم الله بأهل القيروان، تفرقوا، وقتل من قتل منهم، وتشتت جمعهم، سار طريف إلى تامسنا، وكانت بلاد بعض قبائل البربر. فنظر إلى شدة جهلهم؛ فقام فيهم، ودعا إلى نفسه. فباعوه وقدموه على أنفسهم. فشرع لهم ما شرع، ومات بعد مدة. وخلف من الولد أربعة. فقدم البربر ابنه صالحا. فأقام فيهم على الشرع الذي شرعه أبوه طريف. وكان قد حضر مع أبيه حرب ميسرة الحقيير ومغرور بن طالوت الصفريين. فأدعى إنه أنزل عليهم قرآنهم، الذي كان يقرءونه؛ وقال لهم إنه صالح المؤمنين، الذي ذكره الله في كتابه العزيز. وعهد صالح إلى ابنه الياس بديانته، وعلمه شرائعه وفقهه من دينه، وأمره ألا يظهر الديانة حتى يظهر أمره، وينتشر خبره، فيقتل حينئذ من خالفه. وأمره، موالاة أمير المؤمنين بالأندلس. وخرج صالح إلى المشرق،

ووعده إنه يرجع في الدولة السابع من ملوكهم، وزعم إنه الهدي الذي يكون في آخر الزمان لقتال الدجال وأن عيسى - عم - يكون من رجاله وأنه يصلي خلفه. وذكر في ذلك كلاما نسبته إلى موسى - عم - .
فولى بعد خروجه إلى المشرق ابنه الياس خمسين سنة. فكم شريعته إلى سنة ١٧٢. فخرج عن ذلك كله من أمر صالح وابنه أن ابتداءه كان في هذه السنة، أو التي قبلها، وما يأتي بعدها من السنين، إذ خمسون سنة آخرها سنة ١٧٢، مبدأها سنة ١٢٤ أو نحوها، والله أعلم.

٤٠٢٤ ولاية حنظلة بن صفوان أفريقية والمغرب كله

ولاية حنظلة بن صفوان أفريقية والمغرب كله
ولما بلغ أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك قتلُ كثوم بن عياض وأصحابه بعث إلى أفريقية والمغرب حنظلة بن صفوان الكلبي. وكان عامله على مصر ولاءه عليها سنة ١١٩. فقدمها في شهر ربيع الآخر منها. فبعث إليه أهل الأندلس أن يبعث إليهم عاملا، فوجه إليهم أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي. فسار في البحر من تونس إلى الأندلس، واليا عليها. فقدمها في رجب، وسأذكر خبره في أخبار الأندلس إن شاء الله.

ومن أخبار حنظلة أمير أفريقية مع بعض القبائل الغربية: وذلك لما استقر حنظلة بالقيروان، لم يمكث فيها إلا يسيرا، زحف إليه عكاشة الصفري الخارجي، في جمع عظيم من البربر، وزحف أيضا إلى حنظلة عبد الواحد بن يزيد الهواري في عدد عظيم. وكانا اقترقا في الزاب. فأخذ عكاشة على طريق مجانسة. فنزل في القيروان، وأخذ عبد الواحد على طريق الجبال، وعلى مقدمته أبو قرة المغيلي. فرأى حنظلة أن يعجل قتال عكاشة، قبل أن يجتمعا عليه. فزحف إليه بجماعة أهل القيروان. فالتقوا بالقرن، وكان بينهم قتال شديد فهزم الله عكاشة ومن معه، وقتل من البربر ما لا يحصى كثرة، وقيل إن حنظلة لما رأى ما دهمه من البربر قال لأصحابه: (نستمد أمير المؤمنين!) فقال له شاب جميل الوجه: (بل نخرج إلى عدونا حتى يحكم الله بيننا!) فعزم حنظلة، وخرج فهزم الله عكاشة في خبر طويل.
قال عبد الله بن أبي حسان: فأخرج حنظلة كل ما في الخزائن من السلاح وأحضر الأموال، ونادى في الناس فأول من دخل عليه، رجل من بحصب فقال له: (نصر بن ينعم!) قال: فتبسم حنظلة كالمكذب له وقال له (بالله أصدق!) فقال (والله) مالي أسم غير ما قلت لك فتفأل به وقال (نصر وفتح) فأعطى الناس وخرج

لمقابلة الصفرية وهم بالخوارج. فكان بينه وبينهم حرب يطول ذكرها، فالتحم فيها القتال، وتداعى الأبطال ولزم الرجالة الأرض، فلا تسمع إلا وقع الحديد على الحديد، وتقابض الأيدي بالأيدي. وكانت كسرة على ميسرة العرب، ثم انكسرت ميسرة البربر وقلبهم، ثم كرت العرب على ميمنة البربر، فكانت الهزيمة. وسبق إلى حنظلة رأس عبد الواحد، وأخذ عكاشة أسيرا، فأتى به إلى حنظلة، فقتله وخر الله ساجدا.

وقيل إنه ما علم في الأرض مقتله كانت أعظم منها. أراد حنظلة أن يحصى من قُتل، وأمر بعدهم. فما قدر على ذلك. فأمر بَقَصَبٍ فطرح قصبة على كل قتيل. ثم جمعت القصب، وعدت، فكانت القتلى مائة ألف وثمانين ألفا. وكانوا صفرية يستحلون النساء وسفك الدماء.

وكتب بذلك حنظلة إلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك. فسر بذلك سرورا عظيما. وكان الليث بن سعد يقول: (ما من غزوة كنت أحب أن أشهدا، بعد غزوة بدر، أحب إلي من غزوة القرن والأصنام) .

وفي سنة ١٢٥، توفي أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بعلة الذبحة. وعمله في هذه السنة هم الذين كانوا في السنة قبلها، ومن جملتهم حفص بن الوليد على مصر، وحنظلة بن صفوان على أفريقية والمغرب، وأبو الخطار على الأندلس. ثم استخلف بعده الوليد بن يزيد، يوم موت هشام بن عبد الملك، وذلك يوم الأربعاء لست خلون من ربيع الآخر.

وفي سنة ١٢٦ توفي الوليد بن يزيد مقتولا يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة، قتله يزيد بن الوليد المسمى بالناقص واستخلف

يزيد ولم يكن في أيامه في هذه السنة بأفريقية أمر. وبويع بدمشق وجعل العهد نعه لابنه إبراهيم بن يزيد فأقام نحو شهر ونصف، ثم خلع نفسه لمروان الجعدي. فقيل إنه نبش على يزيد بن الوليد وأخرجه من قبره وصلبه.

٤٠٢٥ انتزاء عبد الرحمن بن حبيب الفهري بأفريقية

٤٠٢٦ وبعض أخباره

انتزاء عبد الرحمن بن حبيب الفهري بأفريقية
وبعض أخباره

كان عبد الرحمن بن حبيب هذا قد هرب إلى الأندلس. عند هزيمته من الواقعة التي قتل فيها أبوه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع، مع كلثوم بن عياض. فلم يزل. وهو بالأندلس، يحاول أن يتغلب عليها. فلم يمكنه ما أراد، إلى أن وجهه حنظلة أبا الخطاب إليها، فخاف على نفسه، وخرج مستترا، فركب البحر إلى تونس، فنزل بها، وذلك في جمادى الأولى سنة ١٢٧، فدعا الناس إلى نفسه، فأجابوه. وأراد حنظلة الخروج إليه، والزحف لقتاله. ثم كره قتال المسلمين. وكان ذات ورع ودين، فوجه إلى حنظلة جماعه من وجوه أفريقية يدعونه إلى مراجعة الطاعة. فلما قدموا عليه. أوثقهم في الحديد، وأقبل بهم إلى القيروان، وقال (أن رمى أحد من أوليائهم بحجر، قتلهم) وكانوا وجوههم ورؤساءهم. فلما رأى حنظلة ذلك دعا القاضي والعدول، وفتح بيت المال؛ فأخذ منه ألف دينار، وترك الباقي، وقال: (لا أتلّس منه ألا بقدر ما يكفيني ويبلغني) ثم شخص عن أفريقية في سنة ١٣٩ في جمادى الأول. وأقبل عبد الرحمن حتى دخل القيروان، ونادى مناديا: (لا يخرجن أحد مع حنظلة، ولا يشيعه) فرجع عنه الناس خوفا من عبد الرحمن. ولما قفل حنظلة إلى الشرق، دعا على عبد الرحمن وعلى أهل أفريقية، وكان مستجاب الدعوة. فوقع الوباء والطاعون بأفريقية سبع سنين، لا يكاد يرتفع إلا مرة في الشتاء ومرة في الصيف.

وقال بعض المؤرخين أن مروان بن محمد الجعدي بعث إلى عبد الرحمن ابن حبيب بولايته على أفريقية بعد تغلبه عليها. ولما ولي عبد الرحمن، ثار عليها جماعة من العرب والبربر. ثم ثار عليها

عروة بن الوليد الصديقي؛ فستولى على تونس، وثار عليها عرب الساحل، وقام عليه ابن عطف الأزدي. وثار. البربر في الجبال الصنهاجية بباجة؛ فأخذها. فخرج إلها الياس بن حبيب، أخو عبد الرحمن، في ستمائة فارس؛ ولم يظهر إنه خرج إليه، بل أعمل الحيلة مع أخيه في ذلك. ولما وصل الجاسوس، قال: (إن القوم آمنون غافلون) خرج العسكر إليهم؛ فقتل ابن عطف وأصحابه، وأمعن عبد الرحمن بن حبيب في قتل البربر، وأمتحن الناس بهم، ابتلاهم بقتل الرجال صبورا، يؤتي الأسير من البربر، فيأمر من يهتمه بتحريم دمه بقتله، فيقتله. وكانت بأفريقية حروب ووقائع يطول ذكرها.

وكان عبد الرحمن بن حبيب قد كتب إلى مروان بن محمد، وأهدى إليه الهدايا. فكتب إلى مروان، يأمره بالقدوم عليه. ثم ضعف أمر بني أمية بالمشرق، واشتغل بحرب المسودة. فأقام عبد الرحمن بالقيروان، حتى كانت سن ١٣٥. فغزا تسلمان، وخلف ابنه حبيبا على القيروان؛ فظفر بطوائف من البربر، وعاد إلى القيروان. ثم أغزى صقلية. ثم بعث إلى (سر دانية)؛ فقتل من بها قتلا ذريعا؛ ثم صالحوا على الجزية. وبعث إلى إفرنجة؛ فأتى بسيها؛ ودوخ المغرب كله، وأذل من به من القبائل، لم يهزم له عسكر. ولا ردت له راية. وداخل جميع أهل المغرب الرعب والخوف منه.

وقتل مروان بن محمد بالمشرق، وزالت دولة بني أمية. وبقي عبد الرحمن ابن حبيب أمير أفريقية والمغرب. وهرب جماعة من بين أمية خوفا من بني العباس، ومعهم حرمهم. فتزوج منهم عبد الرحمن وأخواته. وكان فيمن قدم ابنا الوليد بن يزيد، وكانت ابنة عمها عند أليس بن حبيب، فأنزلهما عبد الرحمن في دار؛ ثم أحتال في بعض الليالي؛ فأطلع عليهما من موضع خفي، وهما على نبيذ، ومولاهما يسقيهما، إذ قال أحدهما: (أيظن عبد الرحمن إنه يبقى أميرا معنا، ونحن أولاد الخليفة) فلما سمع هذا منه أنصرف. ثم دعاها، وأظهر لهما بشرا، حتى أتاهما من أخبرهما أن عبد الرحمن سمع كلامهما. فركبا جملين وهربا فبعث عبد الرحمن الخيل في طلبهما،

وأدركا. فأمر بضرب أعناقهما. وكانت ابنة عمهما عند إلياس، فقالت له (قتل أختانك وأنت صاحب حربيه وصاحب سيفه! وجعل العهد من بعد عهده لحبيب ولده! فهذا تهاون بك!) ولم تزل به حتى اجتمع رأي إلياس وأخيه عبد الوارث على قتل أخيهما عبد الرحمن. وهاودهما على ذلك جماعة من أهل القيروان على ما يأتي ذكره.

وفي سنة ١٢٧ كان دخول عبد الرحمن بن حبيب هذا أفريقية ودعواه لنفسه، كما تقدم. وفيها كان انتزاع ثوابه بن سلامة بالأندلس، ويبيع بها. وكان قد هزم أبا الخطار سنة ١٢٥. وتم له الأمر في هذه السنة، لكن لا بعهد من بني أمية ولا من بني العباس، بل عنوة بالسيف. وأقام معه الصميل؛ فكان السلطان لثوابه للصميل.

وفي سنة ١٢٨، هلك أمير الأندلس ثوابه في شعبان، فكانت دولته نحو سنة، حسب ما أذكر ذلك في أخبار الأندلس، أن شاء الله. فبقيت الأندلس دون أمير أربعة أشهر. فأجتمع الناس على الصميل بن حاتم، فوقع نظره ونظرهم على تقدين يوسف بن عبد الرحمن الفهري.

وفي سنة ١٢٩، أستقل يوسف الفهري بولاية الأندلس فكانت ولايته إياها عشر سنين: فما من سنة من هذه السنين ألا ويمكن أن يكون له فيها غزو، إذا قالوا إنه واصل الجهاد؛ وسيأتي ذكره وخبره في خبر الأندلس إن شاء الله.

وفيها كانت بالأندلس حروب ووقائع وغلاة في الشعر. وقيل أن ولاية يوسف كانت في صفر من هذه السنة، وإنهم كتبوا لعبد الرحمن بن حبيب عامل القيروان؛ فأنفذ إليه عهد بولاية الأندلس.

وفي سنة ١٣٠، كان استيلاء أبي مسلم على مرو، وتفريقه كلمة العرب واختياره اليمانية لنصرته، وتشريده المضرة وكان له غزوات ومواقعات؛ وعبد الرحمن بن حبيب أمير أفريقية كذلك، في حروب ووقائع البربر.

وفي سنة ١٣١ كان استيلاء أبي مسلم على خراسان، وعامل مصر وأفريقيا والأندلس على ما كان عليه قبل ذلك. وفيها بني عبد الرحمن بن حبيب سور مدينة طرابلس، وانتقل الناس إليها من كل مكان.

وفي سنة ١٣٢ كانت الوقعة التي هزم فيها الأمويون مع أبي هريرة، وفتح العباسية للكوفة. ثم اتصلت الولايات العباسية والفتوح للبلاد الشرقية وخروجها عن الأموية واحدا من بعد واحد. فقلت مروان بن محمد الجعدي في هذه السنة، وانقطعت الدولة الأموية. وكانت دولتهم ٩١ سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام وهم أربعة عشر رجلا: منها أيام ابن الزبير تسع سنين واثنان وعشرون يوما. ثم تفرقت بنو أمية في البلاد هربا بأنفسهم، وهرب عبد الرحمن ابن معاوية إلى الأندلس. فبايعه أهلها وتجددت لهم بها دولة استمرت إلى بعد الأربعة والعشرين والأربعمئة. فانقطعت دولتهم ست سنين أو نحوها، من هذه السنة إلى حين دخول عبد الرحمن الأندلس. وجددها في سنة ١٣٧. فإن صح أن عهد عبد الرحمن بن حبيب، صاحب القيروان وأفريقية من قبل بني أمية، وصل إلى يوسف بن عبد الرحمن المتغلب على الأندلس، الذي أدخل عبد الرحمن إليها وهو أميرها، فعلى هذا، كانت لهم دولة متصلة بالأندلس. فتأمل هذا فإن إن صح بكتفه غريبة وفائدة عجيبه قال أبو محمد بن حزم: انقطعت بني أمية. وكانت على علاتها دولة عربية، لم يتخذوا قاعدة ولا قصبة. وإنما كان سكني كل أمير منهم في داره وضعيته التي كانت له قبل خلافته، ولا كلفوا المسلمين أن يخاطبوهم بالعبودية والملك ولا تقبيل يد ولا رجل، وأما كان غرضهم التولية والعزل في أقاصي البلاد؛ فكانت عمالهم وولاتهم في الأندلس، وفي الصين، وفي

السند، وفي خراسان، وأرمينية، واليمن، والشام، والعراق، ومصر، والمغرب وسائر البلاد الدنيا، ما عدى الهند. وانتقل الأمر إلى بني العباس في هذه السنة. قال ابن حزم في جملة كلامه أيضا: فكانت دولتهم أعجمية: سقطت فيها دواوين العرب، وغلب عجم خراسان على الأمر، وعاد الأمر ملكا غرضوا كسرويا، إلا أنهم لم يعلنوا بسبب أحد من الصحابة - رضوان الله عليهم - افتقرت في دولة بني العباس دعوة المسلمين وكلمتهم، فتغلبت على البلاد طوائف من الخوارج والشيعة والمعتزلة ومن ولد إدريس وسليمان ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم أجمعين - ظهوروا في المغرب الأقصى وتملكوا فيه. ومنهم من ولد معاوية تغلبوا على الأندلس، وكثيرا من غيرهم أيضا. وفي خلال هذه الأمور تغلبت الكفرة على أكثر بلاد الأندلس وأكثر بلاد السند. وفي سنة ١٣٢ المذكورة كان المولون للعمال بالبلاد أربعة أمراء: وهم مروان بن محمد وأبو سلمة الخلال، وأبو

مسلم، وأبو العباس السفاح. فأما مروان فعزل الوليد بن عروة عن المدينة، وولاهها أخاه عيسى، وأما أبو سلمة، فاستعمل محمد بن خالد على الكوفة إلى أن ظهر أبو العباس السفاح ظهوراً تاماً، وأما أبو مسلم، فهو كان السلطان الأعظم الذي لا يرد أمره، وهو الذي قدم محمد بن الأشعث على فارس، وأمره أن يأخذ عمال أبي سلمة فيضرب أعناقهم، ففعل ذلك، وأما أبو العباس، فوجه بعد ذلك إسماعيل بن علي واليا على فارس، وأخاه أبا جعفر على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان، وولى أخاه يحيى بن محمد عليّ على الموصل، وولى على مصر أبا عون عبد الملك بن يزيد، وولى على أفريقية عبد الرحمن بن حبيب لأنه، لما بلغت بيعته أبي العباس كتب إليه بالسمع والطاعة فأقره. وفي سنة ١٣٣ ولى أبو العباس السفاح عمه سليمان بن عليّ البصرة وأعمالها والبحرين وغير ذلك، وولى عمه إسماعيل على الأهواز، وولى عمه داود المدينة، وولى عماله سائر البلاد الشرقية، وأفريقية والأندلس على ما كانت عليه. وفي سنة ١٣٤ بعث أبو العباس السفاح موسى بن كعب في اثني عشر ألفاً لقتال منصور بن جمهور من المنتزين على العباس، فسار إليه حتى لحقه بأرض الهند، فهزمه ومن كان معه، ومضى فمات عطشا في الرمال.

وفيها كان أيضا عزل والولايات بالمشرق. وبقي على مصر أبو عون وعلى أفريقية عبد الرحمن بن حبيب، وعلى الأندلس يوسف الفهري.

وفي سنة ١٣٥ كانت غزوة عبد الرحمن بن حبيب صاحب أفريقية صقلية، فسبى وغنم. وغزا أيضا سودانية، وصالحهم على الجزية. وغزا أرض البربر بجهة تلمسان. ومدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط وهي دار مملكة زناتة. قال البكري: بنو يغمراسن من هواره يعتدون في ستين ألفا. وتلمسان دار مملكة زناتة على قديم الزمان، ومتوسط بلاد القبائل من زناتة وغيرهم ومقصد النجار، ونزلها محمد بن سليمان من ذرية علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ومن ذريته أبي العيش عيس بن إدريس بن محمد بن سليمان الذي بنى مدينة جراوة.

ونسب زناتة: قال أبو المجد المغيلي، وعلي بن حزم، وغيرهما: أن زناتة هم أولاد جانا بن يحيى بن صلوات بن ورتاج بن ضرى بن سفكو بن قيدواد بن شعبا بن مادغيس بن هود بن هرسق بن كداد بن مازيغ. وذكروا أن ضرى هو ابن وزجيج بن مادغس بن بر، فولد ابن برنوس. وولد برنوس كامة ومصمودة واوربة ووزداجة واوزيغ، فولد أوزيغ هواره، ومن قبيل هواره بنو كهلان ومليلة، وولد يحيى جذانا وسمجان وورسطيف، وولد جذانا ورسيج وولد ورسيج مرين، وولد مرين نجد ونمالة، وولد وورسطيف

وركنة ومكاسة، وولد ضرى أيضا تمزيت، وولد تمزيت مطماطة ومدغرة وصدينة ومغيلة وملزوزة، ومديونة، وولد وزجيج لاوى الكبير، وولد لاوى الكبير لاوى الصغير ومغرواة وأيفرن وولد لارى الصغير نفزاو وولد نفزاو يطوف وولد لاوى الصغير أيضا كطوف وولد كطوف ونبطط، فولد ونبطط سدراتة وكانت سدراتة أخوان بني مغرواة لأهم، وكان أولاد مغرواة وبني يفرن من أعظم بطون زناتة.

قال رجال من كتابه: كان بنو مرين يسكون وراء تلمسان، وهو من زناتة، من ولد جانا بن يحيى بن ضريس بن لوا بن نفزاو بن بتر بن قيس غيلان بن الياس بن مضر. قال: وبنو مرين من العرب الصريحيون.

وفي سنة ١٣٦، كان ابتداء أبي العباس السفاح محاولة الغدر بأبي مسلمة، وضفر أبي مسلم بمن حاول ذلك، وقتله لهم، وذلك في خبر طويل. وقيل: بل كان ابتداء تلك المحولة في ١٣٥ قبلها. وقدم أبو مسلم في هذه السنة على أبي العباس مستأذنا في الحج، فهم أبو العباس بقتله ثم انثنى على ذلك ووج أبو مسلم وأبو جعفر.

وفيها توفي أبو العباس السفاح في ذي الحجة، بعد أن ولى العهد لأخيه أبو جعفر المنصور، فاستوسقت له الأمور، وبايعه الجمهور. وفي ١٣٧، كان قدوم أبي جعفر المنصور من مكة، وتتميم بيعته، فدخل أبو جعفر الكوفة وصلى الجمعة، ووافاه كاتب أبي مسلم بالخيرة، ثم شخص أبي مسلم إلى الأنبار.

وفيها انتزى عبد الله بن عليّ على أخيه وامتنع من بيعته، فبعث إليه أبو جعفر أبي مسلم، فخاربه. وفيها قتل المنصور أبا مسلم. وكيفية ذلك في (تاريخ) أخبار المشرق.

٤٠٢٧ بقية أخبار عبد الرحمن بن حبيب بأفريقية

٤٠٢٨ مقتل عبد الرحمن

بقية أخبار عبد الرحمن بن حبيب بأفريقية

لما صار الأمر إلى أبي جعفر المنصور، كتب إلى عبد الرحمن يدعو إلى الطاعة. فأجابه، ودعا له، ووجه إليه بهدية كان فيها بزة وكلاب، وكتب إليه: (أن أفريقية اليوم إسلامية كلها، وقد أنقطع السيئ منها) فغضب أبو جعفر المنصور وكتب إليه يتوعده. فلما وصل إليه الكتاب، غضب غضبا شديدا، ثم نادى (الصلاة جامعة) فاجتمع الناس، وخرج عبد الرحمن في مطرف خز، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم أخذ في سب أبي جعفر، وقال (أني ظننت هذا الخائن يدعو إلى الحق ويقوم به، حتى تبين لي خلاف ما بايعته عليه من إقامة العدل! وأني خلعتك كما خلعت نعلي هذا!) وقذفه من رجليه. ثم دعا بخلع السود وأمر بتخريقها وقال: (هذا لباس أهل النار في النار!) قال الرقيق: (كان قد لبسها قبل ذلك، ودعا فيها لأبي جعفر، ففقطعت قطعا وأحرقت). وقال ابن القطان: كان عبد الرحمن بن حبيب يظهر الطاعة لأبي جعفر، يدعو له على المنبر، ألا إنه لم يلبس السود، وقال: (أن هذا لباس أهل النار في النار!) ثم خلعه ونبذ طاعته. وحقق عريب أن خلعه لطاعة أبي جعفر كان في هذه السنة.

مقتل عبد الرحمن

كان عبد الرحمن يوجه أخاه غازيا، فإذا ظفر، كتب عبد الرحمن بالفتح، ويزعم أن ابنه كان يتولى الفتوح وكان قد ولاه عهده، فعمد الياس إلى قتل أخيه عبد الرحمن، وشاور في ذلك أخاه عبد الوارث، فأجابه. ودعوا إلى ذلك قوما من أهل القيروان من العرب على أن يقتلوا عبد الرحمن ويؤمروا الياس بن حبيب، وتكون الطاعة لأبي جعفر. وكان عبد الرحمن ولى أخاه

٤٠٢٩ ولاية الياس بن حبيب أفريقية

الياس تونس، وودعه للخروج إليها، وعبد الرحمن إذ ذاك مريض. فدخل عليه، وهو في غلالة ورداء، وابن له صغير في جرة، فتعد طويلا، وعبد الوارث يغمزه. فلما قام يودعه أكب عليه ووضع السكين بين كتفيه حتى وصل إلى صدره ثم ردة يده على السيف فضربه، وخرج هاربا دهشا. فقال له أصحابه: (ما فعلت؟) قال: (قتلته!) قالوا: (أرجع! فهز رأسه!) فرجع وهز. وثارت الصيحة. وأخذ الياس أبواب دار الإمارة، وسمع ابنه حبيب الصيحة، فأخبر بقتل والده، فأختفى، ثم تحامل على وجهه إلى باب تونس أحد أبواب القيروان فخرج منه ومضى إلى عمه عمران بن حبيب، وهو والي تونس لوالده فكانت ولاية عبد الرحمن بن حبيب أفريقية عشر سنين وسبعة أشهر. وكان أول ثائر متغلب على بلاد أفريقية

ولاية الياس بن حبيب أفريقية

ولما قتل أخاه، ولي أمور أفريقية والقيروان، وحبيب عند عمه عمران بتونس. فأخبره بخبر أبيه، ولحق بهما موالهما وعبيدهما من كل ناحية. فخرج إلياس، وأتاه حبيب وعمران بمن معهما؛ فهموا بالقتال، ثم اصطالحوا على أن يعود عمران إلى ولاية تونس وصطفورة والجزيرة، ويكون حبيب على قفصة وقسطيلية، وألياس لسائر أفريقية والمغرب. ومضى الياس مع أخيه عمران إلى تونس؛ فوثب عليه ألياس، وبعث به إلى الأندلس. وولي على تونس محمد ابن المغيرة، وانصرف إلى القيروان؛ فبلغه عند حبيب أخبار كرهها. فعلم ذلك حبيب؛ فدرس له من زين له الخروج إلى الأندلس؛ ففعل؛ ووجه معه شقيقه عبد الوارث ومن أحب من مواليه. فركبوا البحر، وقد تعذرت بهم الريح؛ فكتب حبيب إلى الياس يعلمه بأن الريح ردت، ووقفوا بطية. فكتب الياس إلى عاملة بها يحذره من أمره. فسمع به موالى عبد الرحمن وأهل طاعته؛ فأتوا إليه من كل ناحية، وطرقوا سليمان بن زياد عامل الياس ليلا،

٤٠٣٠ ذكر قيام حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب على عمه

٤٠٣١ الياص وتغلبه على بلاد أفريقية

وهو في معسكره يحارس حبيبا. فأسروه، وشدوا وثاقه، وركبوا إلى حبيب، فأخرجوه إلى البر.
ذكر قيام حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب على عمه
الياص وتغلبه على بلاد أفريقية

لما خرج حبيب هذا إلى البر، واجتمعت عليه أهل طاعة أبيه، ظهر أمره، وشاع ذكره. وتوجه إلى الأرس، فأخذها. وبلغ خبره إلى الياص؛ فخرج يريده، وأستخلف على القيروان محمد بن خالد القرشي، فلما قرب الياص منه، تحاربا حرباً خفيفة. فلما أمس حبيب، أوقد النيران ليضن الناس إنه مقيم. ثم سرى، فأصبح بجلولاء. ثم نفذ إلى القيروان، فيتولى عليها. ثم رجع الياص في طلبه، ففسد عليه من كان معه، وتقوى حبيب وخرج إليه في جمع عظيم. فلما التقيا، ناداه حبيب: (لما نقتل صنائعنا ومواليها، وهم لنا حصن! ولكن أبرز أنا وأنت.. فأينا قتل صاحبه، استراح منه!) فناداه الناس.. (قد أنصفك يا الياص) فخرج كل واحد منهما إلى صاحبه، ووقف أهل العسكر ينظرون إليهما، فقطاعنا حتى تكسرت قناتهما ثم تضاربا بسيوفهما وعجب الناس من صبرهما. ثم ضرب الياص حبيبا ضربة (في ثيابه ودرعه، ووصلت إلى جسده وضرب حبيب عمه الياص ضربة) أسقطته ثم أكب عليه، فخر رأسه وأمر برفعه على رمح وأقبل به على القيروان فدخلها وبين يديه رأس عمه ورؤوس أصحابه، فيهم عم أبيه محمد بن أبي عبدة بن عقبه ورأس محمد بن مغيرة القرشي وغيرهما من وجوه العرب وذلك في عام ١٣٨ فكانت ولاية الياص إلى أن قتل نحو سنة وستة أشهر.

وفي سنة ١٣٨، قام البربر في أفريقية على حبيبي بن عبد الرحمن بن حبيب ولما قتل حبيب عمه الياص هرب عبد الوارث بن حبيب ومن كان معه.

إلى عسكر الياص أخيه إلى بطن من البربر يقال لهم ورجومة من نقزة لاجئين إليهم فزولوا عليهم وأميرهم عاصم بن جميل فكتب إليه حبيب يأمره بتوجيههم إليه فلم يفعل فرحف إليه حبيب ولقيه عاصم ومعه كل من هرب من حبيب فاقتتلوا وانهزم حبيب وكان إذا خرج إليهم استخلف على القيروان أبا كريب القاضي فكتب بعض أهل القيروان إلى عاصم وأشياخ ورجومة وظنوا أنهم يوفون لهم بالعهد وأظهروا لهم أنهم إنما يريدون أن يدعوا لأبي جعفر فرحف عاصم بن جميل وأخوه مكرم من كان معهم من البربر ومن لجأ إليهم من العرب بعد أن هزموا حبيبا وساروا إلى ناحية قابس، حتى انتهوا إلى القيروان. فلما دنا بعضهم من بعض، خرج جماعة من عسكر عاصم، فقتلوا منهم أناسا وتفرق الناس عن القاضي أبي كريب ورجعوا إلى القيروان ولم يعلموا ما يحل بهم من البربر وثبت أبي كريب في نحو ألف رجل من أهل الدين، مستسلمين للموت فقاتلوا حتى قتل أبي كريب وأكثر أصحابه ودخل ورفجومة القيروان، فاستحلوا المحارم، وارتكبوا الكبائر، ونزل عاصم بمصلى روح ثم استخلف على القيروان عبد الملك بن أبي جعد اليفرني وسار إلى حبيب، وهو بقابس. فانهزم حبيب ولحق بجبل أوراس. فسار إليه عاصم، فهزمه حبيب، وقتله مع جملة من أصحابه. وأقبل حبيب إلى القيروان، فخرج إليه عبد الملك بن أبي الجعد فاقتتلا، فانهزم حبيب وقتل في المحرم سنة ١٤٠ فكانت ولاية وتاريخ عبد الرحمن بن حبيب نحو ١٠ سنين وأشهر، وولاية أخيه الياص سنة وستة أشهر (ثم تغلب على أفريقية بعض القبائل الصفرية بعد قتل حبيب وعاصم، فدخل القيروان وربطوا دوابهم في المسجد الجامع، وقتلوا كل من كان من قريش وعذبوا أهلها. وأساءت ورفجومة لأهل القيروان سوء العذاب وندم الذين استدعوههم أشد ندامة. ثم قام أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمع

المعافري وكان ثائرا متغلبا خرج طرابلس بعد ما كان استولى عليها يريد القيروان لقتال ورفجومة. فالتقى معهم وقاتلها. ثم هزمهم وتبعهم يقتلهم، ثم انصرف إلى القيروان. فولى عليهم عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بعد ذلك ومضى الخطاب إلى طرابلس وكانت مدة هذه الأهوال والفتن التي اختصرناها هنا مجملة في نحو ثلاثة أعوام.

وفي سنة ١٣٩، كان الفداء بين أبي جعفر المنصور والروم، فاستنقذ المنصور منهم أسرى المسلمين. ولم تكن بعد ذلك صائفة للمسلمين إلى سنة ١٤٦.

وفي سنة ١٤١ كان ابتداء بناء سجلماسة. وفيها كان خروج أبي الخطاب إلى القيروان لقتال ورجومة، فخرج إليه واليها عبد الملك، فخله أهل القيروان وانهزموا عنه، فقتل عبد الملك وأصحابه في صفر وكان تغلب ورجومة على القيروان سنة وشهرين. وفي سنة ١٤٢، أقبل أبي الأحوص اعجلي بالمسودة. فخرج إليه أبي الخطاب. فالتقى بمقداس على شاطئ البحر، فانهزم أبي الأحوص وأصحابه واحتوى أبي الخطاب على عسكرهم. ورجع أبي الأحوص إلى مصر وانصرف أبو الخطاب طرابلس. وكانت أفريقية في يديه إلى أن وجه المنصور بن الأشعث. وفي سنة ١٤٣ اتصل أبي الخطاب أن أبي الأشعث يريد القيروان. فخرج إليه في زهاء مائتي ألف. فعسكر بهم في أرض سرت واتصل ذلك بمحمد بن الأشعث. وفي سنة ١٤٤، ولي أفريقية محمد بن الأشعث الخزاعي.

٤.٣٢ ذكر ولاية محمد بن الأشعث الخزاعي أفريقيا

ذكر ولاية محمد بن الأشعث الخزاعي أفريقيا لما غلبت الصفرية على أفريقيا بعد أن قتلت ورجومة من قتلت من قریش وغيرهم، خرج جماعة من عربها إلى المنصور يستنصرون به على البربر ويصفون له ما نالهم منهم. فولى أبو جعفر بن الأشعث مصر. فوجه أبا الأحوص. فهزمته البربر كما تقدم. فكتب أبو جعفر إلى ابن الأشعث أن يسير بنفسه، فخرج إلى أفريقية في أربعين ألفا، عليها ثمانية وعشرون قائدا. فالتقوا بأبي الخطاب، وكان قد جمع أصحابه في كل ناحية، ومضوا في عدد عظيم. فضاق ذرع ابن الأشعث بقاء أبي الخطاب لما بلغه كثرة جيوشه. ثم أن زناته وهوارة تنازعت فيما بينها، واتهمت زناته أبا الخطاب في ميله مع هوارة. فارقه جماعة منهم وبلغ ذلك بن الأشعث فسر به ورحل إليه. فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم البربر وقتل أصحاب أبي الخطاب وأبو الخطاب. فظن ابن الأشعث ألا بقية بعد أبي الخطاب. ثم طلع عليهم أبي هريرة الزناتي في ستة عشر ألفا. فتلقاهم أبي الأشعث فهزمهم وقتل بعضهم، وذلك في ربيع الأول من السنة. ووجه أبي الأشعث برأس أبي الخطاب إلى بغداد. ولما انتهى إلى عبد الرحمن ابن رستم قتل أبي الخطاب وولى هاربا إلى موضع تبهرت، فاخطتها ونزلها وأخذ أهل القيروان عامله عليها فأوثقوه في الحديد وولوا على أنفسهم عمرو بن عثمان القرشي، إلى أن وفد عليهم أبي الأشعث ودخل القيروان غرة جمادى الأولى من السنة. وفي هذه السنة وأمر ابن الأشعث بناء سور القيروان في ذي القعدة وكان تمامه في رجب سنة ١٤٦. وضبط ابن الأشعث أفريقية وأعمالهم وأمعن في كل من خالفه من البربر بالقتل نخافوه وأذعنوا له بالطاعة. ثم ثار عليه موسى بن موسى بن عجلان كان أحد جنده، في جماعة من قواده فأخرجوا ابن

٤.٣٣ ثورة عيسى بن موسى بالقيروان وبيع بعض بلاد أفريقية

الأشعث من القيروان من غير قتال. فكان خروج ابن الأشعث من القيروان في ربيع الأول سنة ١٤٨. فكانت ولايته بها ثلاثة أعوام وعشرة أشهر، في خلافة أبي جعفر المنصور. وفي سنة ١٤٥، اشتغل ابن الأشعث بناء سور القيروان. وأخصبت بلاد أفريقية وكان قد بعث إلى زويلة وودان، فافتتحهما وقتل من بهما من الأباضية وقتل عبد الله بن حيان الأباضي، وكان رأس أهل زويلة. وسكن ابن الأشعث أحوال أهل أفريقية في هذه السنة. فلم تكن بها حركة له وفي سنة ١٤٦، استتم ابن الأشعث بناء سور مدينة القيروان. وفيها أيضا استم المنصور بناء بغداد ولازم العمل فيها، وانتقل إلى سكناها في شهر صفر من هذه السنة. وفي سنة ١٤٧، كان الأمير على مصر يزيد بن حاتم، وعلى أفريقية محمد بن الأشعث الخزاعي، وليس هو محمد بن الأشعث الكندي ابن أخت عائشة.

وفي سنة ١٤٨، ثار الجند على محمد ابن الأشعث بأفريقية وسأله الخروج عنهم. فخرج في ربيع كما تقدم ذكره. ثم اتفق الجند على تولية عيسى بن موسى الخراساني.

ثورة عيسى بن موسى بالقيروان وبيع بعض بلاد أفريقية فتغلب عليها بعض العرب والجند من غير عهد من المنصور، ولا رضى منه، ولا تراض من العامة، وذلك في شهر ربيع آخر من عام ١٤٨ المذكور. فكانت مدته ثلاثة أشهر.

٤٠٣٤ ولاية الأغلب بن سالم التميمي

ولاية الأغلب بن سالم التميمي لما بلغ المنصور ما كان من أمر قواد الجند المصرية وصرفهم محمد بن الأشعث بعث إلى الأغلب بن سالم بن عقال التميمي عهده بولايته، في آخر جمادى الآخر من السنة المؤرخة فاستقامت له الحال. وكان من أهل الرأي وذوي المشورة، ووصله كتاب المنصور بعد كتاب العهد يأمره بالعدل في الرعية وحسن السيرة في الجند، وتحصين مدينة القيروان وخذقها وترتيب حرسها ومن يترك فيها إذا رحل إلى عدوه، وغير ذل كمن أموره. وسنة ١٤٩، لم يكن فيها حركة.

وفي سنة ١٥٠، ثار الحسن بن حرب الكندي بالقيروان على الأغلب بن سالم، وسبب ذلك أن أبا قرة الصغرى خرج في جمع كبير من البربر، فسار إليه الأغلب في عامة القواد الذين معه، وخلف على القيروان سالم بن سودة فلما علم أبوه أن الأغلب قرب منه هرب وتفرق أصحابه. وقدم الأغلب الزاب وعزم على الرحيل منه إلى تلمسان، قاعدة زناتة ثم إلى طنجة. فكر الجند المسير معه، وقالوا: (قد هرب أبو قرة الذي خرجنا إليه!) وجعلوا يتسللون عنه إلى القيروان. فلم يبق معه إلا نفر يسير من وجوههم وكان الحسن بن حرب بيونس فلما خرج الأغلب يريد أبا قرة، كاتب جميع القواد. فلحق به بعضهم وأقبل معهم إلى القيروان فدخلها، وأخذ سالم بن سودة عاملها، فحبسه. وبلغ الخبر الأغلب فأقبل في عدة يسيرة وكتب إليه، يعرفه بفضل الطاعة، ووبال المعصية. فأعاد الجواب إلى الأغلب، وفي آخره (وافر)

ألا قولوا لأغلب غير سوء ... مغلغة عن الحسن بن حرب
بأن البغي مرتعه وخيم ... عليك وقربه لك شر قرب

فإن لم تثني لتنال سلمي ... وعفوى فأذن من طعن وضربي
وأقبل الأغلب يحث السير بعد ما مضى إلى قابس، وقدم رسول المنصور

٤٠٣٥ ولاية عمرو بن حفص بن قبيصة أفريقية

عليه بكتاب منه إليه وإلى الحسن بن حرب يدعوا الحسن إلى الطاعة، فلم قبل فأقبل إليه الأغلب. فاقتتلوا وانهمزم الحسن ومضى راجعا إلى تونس، ودخل الأغلب القيروان. ثم حشد الحسن وسار في عدة عظيمة إلى القيروان. ثم أن الأغلب لما بلغه قدوم الحسن إليه، جمع أهل بيته وخاصته، وخرج إليه فأصابه سهمان فمات منه في شعبان من السنة المؤرخة. فكانت ولايته سنة واحدة وثمانية أشهر ولاية عمرو بن حفص بن قبيصة أفريقية

ثم ولي أفريقية عمرو بن حفص بن قبيصة سنة ١٥١. وكان شجاعا بطالا. وسبب ولايته أن أبا جعفر لما بلغه قتل الأغلب بن سالم، وجهه في نحو خمسمائة فارس فأقام بالقيروان ثلاثة سنين وأشهر من ولايته، والأمور له مستقيمة ثم سار إلى الزاب، واستخلف حبيب بن حبيب بن يزيد بن الهلب نفلت أفريقية من الجند وثار بها البربر فخرج إليهم حبيب والتقى معهم، فهزموه وهزموا عسكر طرابلس معه. فاشتدت الفتنة بأفريقية واشتعل نارها. واثاها أمراء القبائل من كل فج، واجتمعوا في اثني عشر عسكريا وتوجهوا إلى الزاب

ولبس مع عمرو بن حفص إلا خمسة عشر ألفاً وخمسمائة. وكان أمراء المغرب في ذلك الوقت ورؤسائهم أبو قرّة الصفري في أربعين ألفاً، وعبد الرحمن بن رستم الأباضي في خمسة عشر ألفاً وأبو حاتم في عدد كثير وعاصم السدراني في عدد كثير: قبل في ستة آلاف والمصور الزناتي في عشرة آلاف وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي الصفري في ألفين سوى جماعات. قال الرقيق: لم أذكرهم. فلما رأى عمرو بن حفص ما أحاط به من العساكر بمدينه طنبه بالزاب، جمع قواده، فاستشارهم، وقال لهم: (إني أريد مناهضة هذا العدو!) فأشاروا عليه ألا يبرح من مدينة طنبه وقالوا له: (أخرج من أردت إلى

عدوك ولا تخرج أنت! فإنك، أن أصبت، تَلَفَ المغرب وفَسَد!) فوجه عمرو إلى أبي قرّة مالا كثيرا وكسي كثيرة: على أن ينصرف عنه فقال: (لا حاجة لي بذلك!) فانصرف الرسول بذلك إلى أخيه. فدفع له بعض المال والثياب على أن يعمل في صرف أخيه أبي قرّة والصفريّة إلى بلادهم. فعمل في ليلته تلك، واجتمع بأهل العسكر فلام يعلم أبي قرّة حتى انصرف عنه أكثر أهل العسكر فلم يجد بدا من اتباعهم. فلما انصرف الصفريّة وجه عمرو إلى أبي رستم عسكرا، وكان تهودا فانهزم ابن رستم، وقتل من أصحابه نحو ثلاثة آلاف. ووصل منهزما إلى تهرت.

ورجع عمرو بن حفص إلى القيروان؛ فجعل يدخل إليها كل ما يصلحه من الطعام والمرافق وعدة الحصار. ثم أقبل أبو حاتم في جموعه حتى نزل عليه. وكثرت الفتن ببلاد أفريقية. ويقال أن عدة من حاصر القيروان مائة ألف وثلاثون ألف وكان ابن حفص يخرج إليهم في كل يوم فيحاربهم. فلم يزلوا كذلك ضاق أمرهم، وأكلوا دوابهم وكلابهم وسنانيرهم، وماتوا جوعا وانتهى الملح عندهم أوقية بدرهم. واضطرب علي ابن حفص أمره وساءت خلقه، وبلغ أن يزيد بن حاتم بعث أمير المؤمنين في ستين ألفا لنصرة القيروان. فقال: (لا خير في الحياة بعد أن يقال: يزيد أخرجه من الحصار! إنما هي رقدة وأبعث إلى الحساب!) وخرج، فجعل يطعن ويضرب حتى قتل في النصف من ذي الحجة من سنة ١٥٤. ولم يعط الحال تفصيل هذه السنين من سنة ١٥١ إلى ١٥٣ بعدها سنة: فاجتمعت أمرها هنا أجملا مختصرا يغني عن أعادتها في كل واحدة منها.

ولما قتل عمرو بن حفص، بايع الناس أخاه جميل بن حفص بالقيروان. فلما طال عليه الحصار، دعاه الاضطراب إلى مصالحة أبي حاتم، على أن جميلا وأصحابه لا يخلعون سلطانهم، ولا ينزعون سوادهم. فغضب أبو حاتم، وأحرق أبواب القيروان، وثلم سورها ودخلها. ولما دخل أبو حاتم القيروان، أخرج أكثر أهلها إلى الزاب. ثم بلغ قدوم يزيد بن حاتم؛ فتوجه للقاءه نحو طرابلس وأستخلف على القيروان عبد العزيز المعافري. فقام عليها عمر بن عثمان؛ وقتل أصحاب أبي حاتم. فزحف إليهم أبو حاتم إلى القيروان؛ فاقتتل معهم. وتوجه أبو عثمان إلى تونس؛ ورجع أبو حاتم إلى طرابلس، حين بلغه قدوم يزيد ابن حاتم. فقليل إنه كان بين العرب والبربر، من لدن قاتلهم عمرو بن حفص إلى انقضاء أمرهم، ثلاثمائة وخمس وسبعون وقعة.

وفي سنة ١٥١ ولي المنصور عمرو بن حفص المتقدم الذكر أفريقية. فقدما في صفر في خمسمائة فارس. وكان قد ولي أفريقية سنة ١٥٠، بعد موت الأغلب، المخارق بن غفار الطائي، أستخلفه الأغلب على القيروان؛ واجتمع الناس عليه في رمضان؛ فوجه الخليل في طلب الحسن بن حرب؛ فهرب من تونس إلى كرامة فأقام شهرين، ورجع إلى تونس؛ فخرج إليه من بها من الخليل؛ فقتل الحسن بن حرب.

وفي سنة ١٥٢ كان ما تقدم ذكره على الجملّة الأفريقية. وفيها عزل المنصور يزيد بن حاتم عن مصر، وولاه محمد بن سعيد. وكان سائر عمالها الذين كانوا في السنة قبلها وفي سنة ١٥٣، قال الطبري: قتل عمر بن حفص: قتله حاتم الأياضي وأبو غادي ومن كان معهم من البربر؛ وكانوا فيما ذكر ثلاث مائة ألف وخمسون ألفا، الخليل منها خمسة وثلاثون ألفا، ومعهم أبو قرّة اليقري أمير تلسمان، في أربعين ألفا. وكان يسلم عليه بالخلافة هكذا ذكر ابن القطان في (نظم الجمان) وقد يقدم أن قتل عمرو بن حفص كان سنة ١٥٤. ذكر كذلك الرقيق وابن حمادة وغيرهما.

قال الرقيق وعريب: وفي سنة ١٥٣ زحف أبو قرّة من تلسمان في جمع

٤٠٣٦ ولاية يزيد بن حاتم أفريقية والمغرب

من كبير من البربر إلى القيروان. فصالحه عمرو بن حفص وانصرف. وفيها ثارت البربر بطرابلس وقدموا أبا حاتم الأباضي: وأسمه يعقوب بن لبيب.

وفي سنة ١٥٤، قال عريب: استخلف عمرو بن حفص على طبنة المهني بن المخارق، وخرج عمرو إلى القيروان، فأقبل إليه أبو حاتم الأباضي إلى أن قتل عمرو كما تقدم ذكره. ولما بلغ المنصور قتل عمرو وبعث إلى أفريقية يزيد بن حاتم، على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وفي سنة ١٥٥، قال الطبري: فيها افتتح يزيد بن حاتم أفريقية، وقتل أبا غادي وأبا حاتم، واستقامت بلاد المغرب، ودخل يزيد بن حاتم القيروان ثم قدم يزيد.

ولاية يزيد بن حاتم أفريقية والمغرب

وهو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، وكان يكنى أبا خالد. ولاة أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور العباسي وحاله في كرمه. وجوده، وشجاعته، وبعد صيته، ونفاذ رأيه، وتقدمه، معروف غير منكر. وكان كثير الشبه بجده المهلب ابن أبي صفرة في حروبه وكرمه، وكان له أولاد مذكورون بالشجاعة والإقدام. ويقال إنه انتهى ولد المهلب ثلاثمائة ولد من الذكور والإناث، من مات منهم ومن عاش. وكان أبو جعفر المنصور عالماً ببلاد أفريقية، وكان لا يبعث إليها إلا خاصته. وكان يزيد هذا حسن السيرة فقدم أفريقية، وأصلحها، ورتب أسوار القيروان، وجعل كل صناعة في مكانها. ولم تزل البلاد هادئة إلى أن ثارت عليه البربر. فرحف لهم وأوقع بهم. وله فيهم ملاح مشهورة. وقيل فيه: (شتان ما بين اليزيديين!) يعني يزيد بن سليم ويزيد بن حاتم. ومن شعر ربيعة فيه. في قصيدة (طويل):

حلفت يميناً غير ذي مثوية ... يمين أمري آلي وليس بآثم

لشأتنا ما بين اليزيديين في الندى ... يزيد سليم والأغر بن حاتم

وقدم يزيد على أفريقية ومعه كل من جند من الشام والعراق وخراسان، فنزل أولاً طرابلس، وسار إليه أبو حاتم، فرحف إليه يزيد، واقتتل معه قتالاً شديداً. فانهزم أبو حاتم وقتل هو وكثير من أصحابه. واتبع سائرهم، فقتل من أدرك منهم. واستعمل يزيد على طرابلس سعيد بن شداد، وحينئذ نهض إلى القيروان، فدخلها يوم الاثنين لعشر بقين لجمادى الآخرة من هذه السنة. وفي هذه السنة، أنكرت الصفرية المجتمعة بسلمجانة على أميرهم عيسى بن يزيد أشياء، فشدوه وثاقاً ووضعوه على قنة جبل، فلم يزل كذلك حتى مات، وقدموا سمغو بن واسول بن مدلان المكاسي جد مدرار.

وفي سنة ١٥٦ بعث يزيد بن حاتم العلاء بن سعيد المهلب مدداً لمخارق بمدينة طبنة بالزاب، وقلعة جحاب بجبل كرامة، وهرب عبد الرحمن بن حبيب عنها وقتل العلاء جماعة ممن أدرك فيها. ثم انصرف إلى القيروان.

وثار على يزيد بن حاتم أبو يحيى بن قرياس الهواري بناحية طرابلس، واجتمع إليه كثير من البربر. وكان بها عبد الله بن السمط الكندي قائداً ليزيد، فالتقوا على شاطئ البحر، واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم أبو يحيى وقتل عامة أصحابه. وتهدنت أفريقية ليزيد بن حاتم وضبطها.

وفي سنة ١٥٧، جدد يزيد بناء المسجد الجامع بالقيروان. وكان غاية في الجود والحسن. وفيها توفي أبو جعفر المنصور، في ذي الحجة من السنة المؤرخة.

وفي سنة ١٥٨، ولي الخلافة المهدي، ببيع يوم مات أبو جعفر بمكة - شرفها الله - نعهد من أبيه، وذلك يوم السبت لست خلون لذي الحجة. واستقل بالملك والخلافة في هذه السنة. وكان أديباً ن جواداً، محباً لأهل الأدب والشعر.

وقد ذكرنا بعض أشعاره وأخباره في تاريخ المشرق، والغرض هنا أخبار المغرب الأقصى والأوسط وفي سنة ١٦٣، توفي أبو خالد عبد الرحمن بن زياد بن أنعم القاسي بالقيروان، وصلى عليه أمير أفريقيا يزيد بن حاتم، وتمثل بهذا البيت لما رأى ازدحام الناس عليه (بسيط):

يا كعب ما راح من قوم ولا أنكروا ... ألا وللموت في آثارهم حادي

وكان مرضه إنه أكل حوتا وشرب عليه لبناً على مائدة يزيد، وكان قد جاوز ٩٠ سنة، فهلك من ليلته.

وفي سنة ١٦٣، أمر المهدي يحيى بن خالد بن برمكة أن يكون كاتباً لأبنة هارون، وقال له: (إني اخترتك ووليتك الكتابة) وأمر له بمائة ألف درهم معونة على سفره مع هارون إبنه.

وفي سنة ١٦٥، أغزى المهدي ابنه هارون إلى بلاد الروم، في ٩٥ ألفاً، بمائة ألف ألف من العين، وبعشرين ألف ألف من الورق. فبلغ خليج البحر على القسطنطينية، وأذعن له الروم بالجزية ٩٠ ألف دينار في كل سنة وانصرف بخمسة آلاف من الأسرى والغنائم. وفي سنة ١٦٦، قدم هارون ابن أمير المؤمنين كمن غزوته هذه، وقدمت الروم بالهدية والجزية. وفيها سخط المهدي على وزيره يعقوب بن داود. وكان قد فوض إليه أمور خاصته!

وفي سنة ١٦٩، توفي المهدي بن المنصور واختلف في سبب موته: فقيل مسموماً غلطا وقيل غير ذلك واستخلف ابنه موسى الهادي. وفي سنة ١٧٠، توفي موسى الهادي في ربيع الأول، وهو ابن ستة وعشرين سنة ونصف، فكانت خلافته سنة وشهرين واستخلف هارون بن محمد الرشيد.

وفي سنة ١٧١، توفي أمير أفريقيا يزيد بن حاتم، وكان خاصاً بأبي جعفر المنصور، وتولى ولايات كثيرة قبل قدومه المغرب كمنها أرمينية، والسند، ومصر، وأذربيجان، وغير ذلك، وكانت ولايته مصر سنة ١٤٤ إلى سنة ١٥٣ وكان حسن السيرة بأفريقية، امتدحه كثير من فحول الشعراء، فأجزل لهم العطاء.

قال الزبير بن بكار عمن حدثه من الشعراء، قال: (كنت أمدح يزيد بن حاتم من غير أن أعرفه ولا ألقاه). فلما ولاه المنصور مصر أخذ على طريق المدينة فألقبه. فأشده منذ خرج من مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مسجد الشجرة. فأعطاه رزمته ثياب وعشرة آلاف دينار. هكذا ذكر الرقيق. ومما قيل (كامل) ..

يا واحد العرب الذي دانت له ... قحطان قاطبة وساد نزارا

إني لأرجو إذ بلغتك سالماً ... ألا أكابد بعدك الأسفار

وفيه قيل (طويل) :

شتان ما بين اليزيديين في الندى ... إذا عد في الناس المكارم والمجد

وقوله: (لشتان ما بين اليزيديين) مثلٌ يمثّل به في كل ناحية على لسان كل سائر. وكان على ربيعة الشاعر دية فأعطاه عشرة ديات، ووصله وأحسن إليه وكان سخياً ومن قول يزيد بن حاتم رحمة الله (بسيط)

ما بألف درهم المضروب خرقتنا ... إلا لما يسيرا ثم ينطلق

يمر مرا عليها وهي تلفظه ... إلى أمرؤ لم يحالف خرقتي الورق

ومن أخباره بأفريقية - رحمه الله - روى إن بعض وكلائه زرع قولا كثيراً في بعض رياضاته. فقال له: (يا بني يابن الخناء أتريد أن أعبّر بالبصرة،

٤٠٣٧ ولاية داود بن يزيد بن حاتم أفريقية

٤٠٣٨ ذكر ابتداء الدولة الهاشمية بالبلاد الغربية

٤٠٣٩ وهم الأدارسة - رحمهم الله

فيقال: (يزيد بن حاتم يا فلان) ثم أمر أن يباح للناس، وخرج أيضاً يوماً في طريقه من القيروان متنزهاً. فنظر إلى غنم كثيرة كانت لابنه فزجره عليها وأمر بذبحها وأن تباح للناس، فانتبهوها وأكلوها، وجعلوا جلودها في كدية، فهي تعرف من ذلك الوقت بكدية الجلود. وكانت وفاته في رمضان من سنة ١٧١ فكانت ولايته خمسة عشر سنة وثلاثة أشهر في بعض خلافة المنصور وخلافة المهدي كلها وبعض خلافة هارون الرشيد.

ولاية داود بن يزيد بن حاتم أفريقية

استخلفه أبوه في مرضه فأقام واليا بأفريقية تسعة أشهر ونصفاً، يحارب أمراء قبائل البربر محاربة عظيمة، وكان بينه وبينهم مواقف كثيرة في جبال باجة وغيرها. وقال عليه نصير بن صالح الأياضي نخرج إليه المهلب بن يزيد فهزموه وقتلوا من أصحابه جماعة. فوجه إليهم داود سليما بن يزيد في عشرة آلاف فهرب البربر أمامهم فتبعهم، وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف وأقام داود على أفريقية إلى أن قدم عليه عمه روح بن حاتم أميرا على المغرب.

ذكر ابتداء الدولة الهاشمية بالبلاد الغربية
وهم الأدارسة - رحمهم الله -

اتفق جماعة المؤرخين إن دخول إدريس بن عبد الله - رضي الله عنه - إلى المغرب كان في سنة ١٧٠، وهو إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي - رضي الله عنه - وكان دخوله في إمارة يزيد بن حاتم أفريقية وإمارة هشام بن عبد الرحمن لداخل بقرطبة، وأول ظهور بني مدرار بسلمجمانة. وكان نزوله بوادي الزيتون، بموضع يعرف بمدينة البلد وكان وصوله مع مولاه راشد.

وقال البكري في (المجموع المقترق) وكان نزوله بوليلي وهي اسم لطنجة باللسان البربري وذكر محمد بن يوسف أنها كانت على مسافة يوم من موضع فاس الآن. وكانت مدينة أزلية وبها مات إدريس - رضي الله عنه - وكان سبب وصول إدريس إلى المغرب، على ما ذكر الرقيقي والنوفلي في (المجموع المقترق) وغيرها من المؤرخين، وذلك أن الحسين بن علي بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كان قد قام بالمدينة أيام موسى الهادي، ثم خرج إلى مكة في ذي الحجة سنة ٦٩ وخرج معه جماعة من إخوانه وبني عنه ومنهم إدريس ويحيى ابنا عبد الله بن حسن وبلغ ذلك الهادي، فولى حربته محمد بن سليمان بن علي وكانت الواقعة بفخ، فقتل الحسين بن علي وأكثر أصحابه وأفلت إدريس هذا الداخل إلى المغرب، فهرب إلى مصر وكان على بريدها واضح، مولى صالح بن المنصور، فحمله على البريد إلى أرض المغرب فوقع بمدينة وليلة من أرض طنجة، فاستجاب له من بها من قبائل البربر ولما ولى الرشيد وبلغه أمره، بعث إلى واضح، فحضر عنقه ودس إلى إدريس الشماخ مولى الهادي، فخرج حتى وصل وليلة، وذكر إنه متطرب من شيعتهم العلوية ودخل إلى إدريس فأنس به واطمئن إليه ثم إنه شكى له علة في أسنانه فأعطاه سنونا مسموما قاتلا وأمر أن يستن به عند طلوع الفجر فأخذه منه. وهرب الشماخ من تحت ليلته. فلما طلع الفجر استن إدريس، وأكثر منه في فمه فسقطت أسنانه ومات من وقته وطلب الشماخ، فلم يظفر به، وقدم على الرشيد، فولاه بريد مصر هكذا ذكر الرقيقي في كتابه.

وفي سنة ١٧٢، اجتمعت القبائل على إدريس بن عبد الله من كل جهة ومكان، فأعطوه وعظموه وقدموه على أنفسهم، وأقاموا معه معتبتين بطاعته

٤٠٤٠ ولاية روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب أفريقية

ومتشرفين بخدمته طول حياته. وكان رجلا صالحا مالكا لشهوته، فاضلا في ذاته، مؤثرا للعدل مقبلا على أعمال البر وفي سنة ١٧٣، كان خروجه بعساكر القبائل الغربية حتى انتهى إلى بلاد السوس الأقصى، ودخل ماسة، فغنم وسبي، ورجع إلى الغرب سالما غانما. وفي سنة ١٧٤، توجه بعسكره إلى رباط تازا لما قفل من حركة السوس.

فوجد في جبلها معدن الذهب. وأجابه جميع القبائل الغربية وأطاعوه وبايعوه في هذه السنة، وكملت له الإمارة فيهم. ولاية روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب أفريقية

ولاه عليها أمير المؤمنين هارون بن محمد الرشيد، فقدمها في سنة ١٧١.

وكان له ولايات كثيرة: فحجب المنصور، ثم ولاه البصرة، وولى الكوفة في أيام المهدي، وولى السند وطبرستان وفلسطين وغير ذلك. ونظر رجل إلى روح بن حاتم واقفا في الشمس عند باب المنصور، فقال له. (لقد طال وقفك في الشمس!) فقال له: (ليطول بذلك وقفي في الظل) وفي له ابن، فدخل عيه أصحابه وهو ضاحك فتوقفوا عن تعزيتيه، فعرف ذلك منهم فأنشأ يقول (طويل) . .

وأنا لقوم ما تفيض دموعنا ... على هالك منا وإن قسم الظهر

وقيل إنه بعث لكتابه ثلاثين ألف درهم ووقع إليه: (إني بعثت إليك بكذا، لا أستقلها لك تكبرا، ولا أستكثرها تمننا، ولا أقطع عنك بها رجاء بعد. والسلام.) وكان روح أكبر سنا من أخيه يزيد وأكثر ولاية. وعندما يطول جلوسه بالقيروان، ربما خطر عليه النعاس من الضعف والشاخة وكان بكى أبا خالد

٤٠٤١ ولاية نصر بن حبيب المهلي أفريقية

توفي ليلة الأحد لسبع بقين من رمضان المعظم من سنة ١٧٤، فكانت ولايته ثلاثة سنين وثلاثة أشهر. ولاية نصر بن حبيب المهلي أفريقية

وكان صاحب البريد وأبو العنبر القائد قد كتب! إلى الرشيد، في جملة من كتب إليه من الفؤاد، يعلمانه بضعف روح بن حاتم وكبره وإنهما لا يأمنان موته عن قريب، وأفريقية ثغر كبير لا يصلح بغير سلطان وكان نصر هذا على شرطة يزيد بن حاتم بمصر وأفريقية، وكان محمود السيرة.

فكتب الرشيد عهده وبعثه سرا إليه. فلما مات روح، بويح قبضة ابنه في المسجد الجامع، وأجمع الناس على بيعته. وكان الفضل بن روح عاملا في الزاب، فركب أبو العنبر وصاحب البريد بعهد أمير المؤمنين هارون إلى نصر بن حبيب فأوصى إليه وسلما عليه بالإمارة وربكا معه إلى المسجد فيمن معهما، حتى أتيا قبضة، وهو جالس على الفراش. فأقاموه، وأقعدا نصر بن حبيب وأعلما الناس بأمره. وقرء الكتاب الواصل من أمير المؤمنين هارون إلى نصر بن حبيب على الناس، فاستمعوا وأطاعوا. وكان ذلك في العشر الأواخر لرمضان المعظم من عام ١٧٤. فحسنت سيرته، وعدل في أحكامه فولا سنتين وثلاثة أشهر.

وفي سنة ١٧٥، عقد الرشيد لابنه محمد بمدينة السلام ولاية عهد المسلمين من بعده، وأخذ عليه بيعة القواد والجند وسماه بالأمين، وله يومئذ خمسين سنة.

وفي سنة ١٧٦، ظهر يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب بالتسلم، واشتدت شوكته وقوي أمره، فاغتم الرشيد لذلك ولم

يكن في تلك الأيام يشرب النبيذ، فصرف إليه الفضل بن يحيى في خمسين ألف رجل، فانهزم يحيى بن عبد الله.

وفي سنة ١٧٧، ولي أفريقية الفضل بن روح بن حاتم، ولاه أمير المؤمنين الرشيد عليها، وكتب بعزله نصر بن حبيب، وأن يقوم بأمر الناس المهلب بن يزيد إلى أن يقدم الفضل. فكان قدومه في محرم من هذه السنة. ولما قدم الفضل ولي ابن أخيه المغيرة تونس، وكان غير ذي تجربة ولا سياسة للجمهور فستخف بالجند وسار بهم سيرة قبضة، فاجتمعوا وكتبوا كتابا لعمدة الفضل يخبرونه بما صنع المغيرة فيهم وقبح سيرته، فتناقل الفضل عن جوابهم فقالوا (كل جماعة لا رأس لها لا ينجم سعيهم ولا مطالبهم) فقال بعضهم: (أشير عليكم بعبد الله بن عبد ربه بن الجارود فانطلقوا إليه وقالوا له: (قد رأيت ما فعل بنا المغيرة، وقد خاطبنا عمه، فلم يصلنا جوابه وأنت المنظور إليه، والمعمول في الأمور عليه، ونحن نصير أمرنا إليك، ونعتمد فيه عليك.) فقال لهم: (ليس لي من الجواب ألا النصيحة لي ولكم، وأنا أخاف على نفسي وأقع بالعافية؛ وإن كان أمر، وكنت فيه كأحدكم) فقالوا له: (وما لك من هذا بدا!) فقال لهم (أعطوني من بيعكم ما أثق به) فبايعوه وأطاعوه.

وفي سنة ١٧٨ ثار الجند على أمير أفريقية الفضل بن روح بن حاتم، وقدموا ابن الجارود بتونس. ثم ساروا إلى المغيرة، وهو بدار الإمارة؛ فقالوا له: (الحق بصاحبك أنت ومن معك!) وكتب للفضل بن روح: (من عبد الله بن الجارود. أما بعد، فأنا لم نخرج المغيرة خروجاً عن الطاعة، ولكن لأحداث أحداثها فينا، ظهر فيها فساد الدولة. فعجل لنا من ترضاه يقوم بأمرنا؛ وإلا نظرنا لأنفسنا!) وكتب الفضل إلى عبد الله بن الجارود: (أما بعد، فإن الله يجري فضاءه على ما أحب الناس أو كرهوا، وليس اختياري أن أولى عليكم! فاختاروا لأنفسكم! ولكن أوجه إليكم عاملاً.) فوجه عبد الله

ابن محمد إلى تونس. فلما وصل إليها، قال لهم ابن الجارود: (كيف تصنعون ذلك، وأنتم قد أخرجتم ابن أخيه وشتتموه؟ والله! ما

بعث إليكم إلا ليطيبيكم حتى ترجعوا عن رأيكم؛ فإذا اطمأنتم أخذتم واحد بعد واحد!) قالوا له: (فما رأيك؟) قال: (الذي ذكرت لكم) نخرجوا حتى التقوا بالعسكر الواصل مع العامل من قبل الفضل أمير أفريقية والقيروان بموضع الزيتون، فدفعوه عن أنفسهم، وجرى بين الجند كلام كثير يطول ذكره، إلى أن وقعت الحرب بين ابن الجارود وعسكر الفضل، فهزمهم ابن الجارود واتبعهم إلى القيروان، فنزل عليها. فاجتمع الفضل مع بني عمه وخاصته وتساور معهم في أمره، فاضطرب الأمر عليه، ولم يصح له أمر. فلما أصبح أقبل عبد الله بن عبد ربه بن الجارود في عسكره، والفضل في دار الإمارة مع أصحابه. وكان بعض القواد على الأبواب، فلما قرب ابن عبد ربه منها فتحوها له، فدخل أصحابه، لا يدافعهم أحد، ونزل ابن عبد ربه خارج المدينة، ثم دخل دار الإمارة، فأمن الفضل وأصحابه، ثم أمرهم بالخروج إلى قابس وقال لهم: (إني لا آمن أصحابي عليكم، ولكن أوجه معكم من يوصلكم إلى قابس.) فوجه إليهم أبا الهيثم في جماعة، وأخذ عليه الإيمان ألا يسلم الفضل. فخرج الفضل معه، مع ثلاثة من بني عمه وبعض أصحابه من باب آخر. فقال لهم البواب: (اخرجوا يا كلاب النار! لا رحمكم الله!) فقال الفضل عند ذلك: (لا غله إلا اله! لم يبق أحد إلا صار علينا حتى من أعتقناه!) وسار ليلته ونهاره حتى دنا الغروب، فسمع طبلا، فقال: (فلان جاء بمائة فارس، بعثه ابن الجارود إليك لأنه خاف عليك الجند!) ثم سمع طبلا آخر، فإذا هوم منصور بن هاشم. فقال له: (ما جاء بك؟) فقال (كذا وكذا) م سمع طبلا آخر، فإذا هو صاحب شرطة ابن عبد ربه بن الجارود، فقيل للفضل: (إذا جاء ليردك!) وذلك إنه أشار على ابن

الجارود جماعة من أصحابه أن: ((لن) تتركوا الفضل يدخل طرابلس لثلا يقوم الناس معه ويرجع القيروان، فنادى مناديه (من كان من طاعة ابن الجارود فلينعزل!) فانعزل الناس ولم يبق مع الفضل أحد فردوه إلى القيروان، بعدما خلو عن المهلب وجميع الناس الذين كانوا مع الفضل إلا محمد بن هشام والفضل بن يزيد، فانطلقوا بهما حتى جعلوا في الدار معه. ثم قتل الفضل بن روح في شعبان من سنة ١٧٨، فكانت ولايته سنة واحدة وخمسة أشهر، فكانت دولة المهالبة بأفريقية ثلاثا وعشرين سنة، وثار ابن الجارود في جمادى الآخرة من سنة ١٧٨، فكانت له مع البربر وقائع عظيمة، ثم أمناه الرشيد، فأجاب إلى الطاعة.

وفي سنة ١٧٩، كتب ابن الجارود المتغلب على أفريقية إلى يحيى بن موسى وهو بطرابلس، أن: (أقدم القيروان: فإني مسلم لك سلطانها!) فخرج يحيى بن موسى بمن معه، في محرم، فلما بلغ قابس، تلقاه بها عامة الجند من القيروان، ومعهم النظر بن حفص، وعمر بن معاوية، فخرج ابن الجارود من القيروان، واستخلف عليها المفرج بن عبد الملك، فكانت أيلم ابن الجارود سبعة أشهر.

وأقبل يحيى بن موسى والعلاء بن سعيد متسابقين إلى القيروان، فسبقه العلاء إليها فقتل بها جماعة من أصحاب ابن الجارود، فبعث إليه يحيى بن موسى أن يفرق جموعه إن كان في الطاعة. فأمر من كان معه أن ينصرفوا إلى مواضعهم. ورحل العلاء إلى طرابلس، وكان ابن الجارود قد وصل إليها قبل وصول العلاء، فلقي بها يقطين بن موسى، فخرج معه سائرا إلى المشرق فلقوا هرثمة بن أعين قد وصل بولاية أفريقية. وقد كان العلاء كتب إلى هرثمة يعلمه بأنه هو الذي أخرج ابن الجارود من أفريقية فأجازه بجائزة سنوية، وكان يحيى بن موسى قدمه هرثمة ابن الجارود، سيره إلى أمير المؤمنين الرشيد.

٤٠٤٢ ولاية هرثمة بن أعين أفريقية

٤٠٤٣ ولاية محمد بن مقاتل العكي أفريقية

ولاية هرثمة بن أعين أفريقية

ولاه عليها أمير المؤمنين هارون الرشيد، فقدم القيروان غرة ربيع الآخر، فأأس الناس وسكنهم، وأحسن إليهم قال ابن حمادة: وصل هرثمة في جيش كثيف حتى نزل تهرت، فخرج إليه ابن الجارود واقتتل معه فهزم ابن الجارود، وطاعت البربر لهرثمة، وانصرف راجعا إلى القيروان وهو الذي بنى القصر الكبير المعروف بالمنستير. قاله الرقيق.

وفي سنة ١٨٠ كانت الزلزلة العظمى بأرض مصر وسقط رأس منار الإسكندرية.

قال الرقيق: لما رأى هرثمة بن أعين ما رأى من الخلاف بأفريقية وسوء طاعة أهلها، طلب الاستعفاء فكتب إليه الرشيد بالقدوم عليه

فرجع إلى المشرق وهو الذي بنى سور طرابلس.

ولاية محمد بن مقاتل العكي أفريقية

وفي سنة ١٨١ ولى أمير المؤمنين الرشيد على أفريقية محمد بن مقاتل بن حكيم العكي، فقدمها في رمضان. وكان رضيع الرشيد، وكان أبوه من كبار أهل دولته. وكان محمد هذا غير محمود السيرة، فاضطرب أمره واختلف عليه جنده. ولو لم يكن من سوء سيرته، وقبيح ما يؤثر عنه من أخباره، إلا أقدامه على عابد زمانه وورع عصره البهلول. بن راشد فضربه بالسياط ظلما وحبس، فكان ذلك سبب موته. ومن أخباره إنه اقتطع أرزاق الجند وأساء السيرة فيهم وفي الرعية، فبشى القائد فلاح في أهل خراسان وأهل الشام، فلم يزل بهم حتى اجتمع رأيهم على مخلد بن مرة الأزدي. وخرج على العكي تمام بن تميم التميمي، وكان عامله بتونس.

٤٠٤٤ ثورة تمام بن تميم التميمي على محمد بن مقاتل العكي

ثورة تمام بن تميم التميمي على محمد بن مقاتل العكي

وفي سنة ١٨٣ زحف تمام من تونس مع جماعة القواد والأجناد من أهل الشام وخراسان متوجها إلى القيروان، في النصف من رمضان. ففرج إليه العكي فتقاتلا. فأنهزم العكي ورجع إلى القيروان، فتحصن في داره التي بناها وترك دار الإمارة. وأقبل تمام فزحل بعسكره خلف باب أبي الربيع. فلما أصبح تمام فتح له الأبواب فدخل يوم الأربعاء لخمس بقين من رمضان سنة ١٨٣، فأمن تمام العكي على دمه وأهله وماله. فكانت ولايته إلى أن أخرجه تمام من القيروان سنتين وعشرة أشهر ثم ولى أفريقيا أبو الجهم بن تميم التميمي. وكان ثائرا متغلبا من غير عهد من الرشيد وهو جد أبي العرب بن تميم صاحب التواليف. فدخل القيروان، وخرج العكي منها بأمانه ومشى لطرابلس ولحق به قوم من خراسان منهم طرحون صاحب شرطته فاجتمع رأيهم على أن يدخلوه فدخلها وأقام تمام ملك القيروان فنهض إليه إبراهيم بن الأغلب من الزاب، وكان أمير عليه. فلما بلغ تمام إقباله إليه سار إلى تونس، فدخل ابن الأغلب القيروان، وأبتدر المسجد الجامع، وصعد المنبر وكان فصيحاً بليغاً فأعلم الناس إنه ما وصل إلا لنصره العكي محمد بن مقاتل، وأنه أميرهم المودم عليهم من أمير المؤمنين وكتب إلى العكي يخبره بما فعل في حقه ويؤكد عليه في الوصول. فأقبل راجعا حتى دخل هو ومن معه القيروان فبشى يوما في أرقتها فنادته امرأة من طاقها تقول له (أشكر إبراهيم بن الأغلب! فهو الذي رد عليك ملك أفريقيا!) فكبر ذلك عليه وكان تمام بن تميم بتونس. فقال لأصحابه: (أن إبراهيم بن الأغلب رد الملك على العكي والذين مع العكي قد ملثوا رعبا من وقعتنا بهم وإذا بلغهم خروجي من تونس يسلمونه ويصلون ألي! ومع هذا فإن العكي حسود، لا بد أن يخالف إبراهيم بن الأغلب فيما يشير به عليه.) وكان الناس يقولون (استرحنا من العكي، فرد إبراهيم علينا! فلهوت خير لنا من الحياة في سلطان العكي!) ففرع الناس إلى تمام بن تميم التميمي. فلما رأى كثرة من معه، طابت نفسه لقتال العكي. فكتب تمام إلى العكي: (أما بعد، فإن إبراهيم بن الأغلب لم يبعث إليك فيردك من كرامتك عليه، ولا للطاعة التي يظهرها للخليفة؛ ولكن كره أن يبلغ إليك أخذه البلاد فترجع إليه؛ فأمن منك، كان مخالفا لأمير المؤمنين؛ وإن دفعها إليك، كان ما فعل لغيره، فبعث إليك لترجع؛ ثم يسلمك إلى القتال. وغدا تعرف ما جرت من وقعتنا لك بالأمس!) وفي آخر كتابه (الطويل):

وما كان إبراهيم من فضل الطاعة... يرد عليك الملك لكن لتقتلا

فلو كنت ذا عقل وعلم بكيدة... لما كنت منه يا ابن عك لتقبلا

فلما وصل كتابه إلى محمد بن مقاتل العكي، قرأه ودفعه إلى ابن الأغلب؛ فقراه وضحك، وقال: (قاتله الله! ضعف رأيه!) وكتب إليه ابن العكي: (من محمد بن مقاتل إلى الناكث ابن تميم. أما بعد فقد بلغني كتابك، ودلني على قلة رأيك. وفهمت قولك في إبراهيم؛ فأمن كانت نصيحة، فليس من خان الله والخليفة مقبول منه ما نصح به! وإن كانت خديعة، فأقبح الخداع ما فطن له!) وفي آخر كتابه (طويل):

وإني لأرجو إن لقيت ابن أغلب... إذا في المنيا أن تغفل وتقتلا

٤٦

Shamela.org

تلاقي فتى يستصحب الموت في الوغى ... ويحيي بصدر الرمح عزرا موثلا
وأقبل تمام من تونس بعسكر عظيم؛ وأمر ابن العكي من كان معه من أهل الطاعة بالخروج إليه، مع إبراهيم بن الأغلب؛ فتقاتلوا قتالا
شديداً؛ فانهزم تمام، ورجع إلى تونس. وانصرف ابن العكي إلى القيروان، وأمر إبراهيم بن الأغلب بالمشير إلى تونس.
وفي سنة ١٨٤ خرج العسكر من القيروان لحصار تونس وقتال تمام؛

٤٠٤٥ ولاية إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التيمي أفريقية

وذلك في محرم منها. فلما اقبل تمام إقباله، طلب الأمان منه؛ فأمنه إبراهيم، وأقبل به إلى القيروان، يوم الجمعة، ثمان خلون من محرم
المذكور

ولاية إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التيمي أفريقية

وصله عهد الرشيد في العشر الوسط لجمادى الأخيرة من سنة ١٨٤؛ وقال له فيه: (قد تقدم لكم بأفريقية أمره) وكان الرشيد ولاءه على
بلاد الزاب، وفي بلاد الجريد، وابن العكي على أفريقية. وكان إبراهيم بن الأغلب فقيهاً، أدبياً، شاعراً، خطيباً، ذا رأى ونجدة وبأس
وحزم وعلم بالحروب ومكايدها، جرى الجنان، طويل اللسان، لم يل أفريقية أحسن سيرة منه، ولا أحسن سياسة، ولا أرأف برعيته،
ولا أوفى بعهد، ولا أرفع لحرمة منه. فطاعت له قبائل البربر، وتمهدت أفريقية في أيامه. وعزل العكي عمها، واستقامت الأحوال
بها.

وكان إبراهيم قد سمع من الليث بن سعد، ووهب له جلا جل أم ولده لمكانه منه ولقد قال الليث يومها: (ليكون لهذا الفتى شأن!)
وكان لإبراهيم فضائل جمّة ومآثر حسنة. وكان له مع راشد أمير الغرب مولى إدريس الحسنى مواقف ومحاربة؛ وكان راشد قد علا
أمره.

ومن قول إبراهيم، وكان قد خلف أهله بمصر (بسيط)

ما سرت ميلا ولا جاوزت مرحلة ... ألا وذكريني دائماً عنقي

ولا ذكرتك إلا بت مرتقبا ... أرفع النجوم كان الموت مغتبي

ولما ملك أفريقية، قع أهل الشر بها وضبط أمرها. وكان له مع بربرها حروب طويلة ذكرها. وأحسن إلى عرب جيشها.
وفي سنة ١٨٥ شرع إبراهيم في بناء مدينة القصر القديم وصار بعد ذلك دار الأمراء. وكان على ثلاثة أميال من القيروان؛ وكان قد
اشترى موضعه من بني طالوت؛ فبناه ونقل إليه السلاح والعدد سرا، وسكن حوله عبده وأهل الثقة به من خدمته. وكان حافظا
للقران، عالما به وثار عليه الكندي بتونس؛ وكانت له معه وقائع وافقت محاربة المأمون للأمين، بعد موت الرشيد. وفيها، قال الطبري:
وقعت بالمسجد الحرام صاعقة، فقتلت رجلين.

وفي سنة ١٨٦ حج بالناس هارون الرشيد، وأخرج معه ابنه محمداً الأمين، وعبد الله المأمون، وقواده، ووزراءه، وقضاته، وولي عهد
عبد الله. قال الطبري: وكان الرشيد عقد لأبنة محمد ولاية العهد في شعبان سنة ١٧٣، وسماه الأمين، وضم إليه الشام والعراق في سنة
١٧٥، ثم بويع لعبد الله المأمون بالرقّة في سنة ١٨٣؛ وولاه من حد همدان إلى آخر المشرق. ولما قضى مناسكه في هذه السنة، كتب
للمأمون كتابين: أحدهما على محمد بما أشرط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم وما ولى لعبد الله من الأعمال، وما صير له من الضياع
والأموال؛ والأخر نسخة البيعة التي أخذها لعبد الله على محمد وعلى الخاصة والعامة. وأشهد في ذلك في البيت الحرام، وأمره بقراءة
الكتاب على عبد الله ومحمد. وأشهد عليهما جماعة من حضر من بني هاشم وغيرهم. ثم أمر أن يعلق الكتاب في الكعبة. فلما علق،
وقع؛ فقيل: (أن هذا لأمر سريع انتفاضه قبل تمامه!) وفي سنة ١٨٧ كان قتل الرشيد لجعفر بن يحيى، وإيقاعه بالبرامكة؛ والوالي على
أفريقية إبراهيم بن الأغلب كما كان.

وفي سنة ١٨٨، كان غزو إبراهيم بن جبريل أرض الروم: وجهه الخليفة هارون، ودخل أرض الروم من درب الصفصاف؛ فخرج للقائه البطريق نقفور، فورد عليه من ورائه أمر صرفه عن لقائه؛ فانصرف ومر يقوم من المسلمين؛ فخرجوا عليه، وأنهمزم، وقتل من الروم أربعون ألفا وبسعمائة، واخذ له أربع آلاف دابة. وفي سنة ١٨٩ كان شخوص الرشيد إلى الرى: وبعث حسينا الخادم إلى طبرستان بالأمان لمرزبان صاحب الديلم؛ وقدم عليه؛ فأمنه وأمن غيره. وقال أبو العتاهية في خرجة هارون هذه (سريع) إن أمين الله في خلقه ... حن به البر إلى مولده ليصلح الري وأقطارها ... ويمطر الخير بها من يده وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم؛ فلما بقي في أرض الروم مسلم إلا فدى.

وفي سنة ١٩٠ فتح الرشيد هرقله من مدائن الروم. وقال شبيل الترجمان: لما فتح الرشيد هرقله رأيت على بابها لوح رخام مكتوب فيه بلسانه؛ فجعلت أقراه، والرشيد ينظر إلي، وأنا لا أشعر، فإذا فيه: (يا بن آدم! غافص الفرصة قبل إمكانها وقل الأمور إلى وليها، ولا يملكك أفرادها السرور على المآثم، ولا تحمل نفسك هم يوم لم يأت! فإنه أن يكن من أجلك وبقية عمرك، ويأت الله فيه برزقه! فلا تكن من المغرورين يجمع المال! فكم قد رأينا جامعا لبلبل خليلته، ومقترا على نفسه توفيرا لخزانة غيره!) وفي سنة ١٩١ ولي الرشيد هرمثة بن أعين غزو الصائفة، وضم إليها ثلاثين ألفا من جند خراسان. وفيها امر الرشيد بهدم الكنائس في الثغور. ولم يكن للمسلمين بعد هذه السنة صائفة بالمشرق إلى سنة ٢١٥. وفي سنة ١٩٣، توفي هارون بن محمد الرشيد - رحمه الله - بطوس من أرض خراسان، ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الأخير. واستخلف محمد الأمين ابنه. ولما صار المر إلى الأمين، أقر إبراهيم بن الأغلب على أفريقية

٤٠٤٦ ولاية عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب أفريقية

فبقي بها إلى أن توفي بالقيروان في العشر الأخرى من شوال من سنة ١٩٦ وعمره خمس وستون سنة وولايته أفريقية اثنا عشرة سنة واشهر.

ولاية عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب أفريقية

وفي سنة ١٩٦ ولي عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب أفريقية. وذلك إنه لما مات إبراهيم بن الأغلب، كان ابنه عبد الله هذا غائبا بمدينة طرابلس؛ فقام له أخوه زيادة الله بالأمر، وأخذ له البيعة على نفسه وعلى أهل بيته وجميع رجاله وخدمته، وبعث إليه بذلك. وفي سنة ١٩٧ قدم أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب من طرابلس؛ فتلقيه أخوه زيادة الله، وسلم الأمر إليه. وحمل عبد الله في إمارته على أخيه زيادة الله حملا شديدا؛ وكان يتنقصه، ويأمر ندماءه بإطلاقه ألسنتهم بسبه، وزيادة الله مع ذلك يظهر له التعظيم والتجيبيل والصنع الجميل، ولا يظهر له ثغيرا ولا يظهر عليه منه أثر. وقد كان عبد الله بن إبراهيم أراد أن يحدث جورا عظيما على رعيته فأهلكه الله قبل ذلك. وكان من أجمل الناس وجهها، وأقبحهم فعلا، وأعظمهم ظلما، أحدث بأفريقية وجوها من الظلم شنيعة، منها قطع العشر حبا، وجعله ثمانية دنائير للقفيز وأصاب أو لم يصب، وغير ذلك من الظلم والمغارم والمظالم. فأشدت على الناس ذلك. وفي سنة ١٩٨، قتل الأمين بن الرشيد: قتله ابن طاهر عامل أخيه المأمون؛ وذلك لخمس بقين من المحرم. واستخلف أخوه المأمون؛ فأقر عبد الله بن الأغلب على أفريقية. ولما قدم حفص بن حميد الصالح على أفريقية، ومعه قوم صالحون من الجزيرة، قصدوا إليه؛ فوعظوه في أمر الدين ومصالح المسلمين.

٤٠٤٧ ذكر ولاية زيادة الله بن الأغلب أفريقية وبعض أخباره

فتهاون بهم، فخرجوا مغمورين يريدون القيروان، وكان هو في القصر القديم. فلما وصلوا وادي القصارين، قال لهم حفص بن حميد (قد يئسنا من الخلق فلا نئس من الخلق! فاسألوا المولى واضرعوا إليه في زوال ظلمه عن المسلمين! فإن فتح في الدعاء، فقد أذن في الإجابة) فتوضأ جميعهم وساروا إلى كدية مصلى رُوح، فصلى بهم حفص ركعتين، ودعوا الله أن يكف عن المسلمين جور أبي العباس، ويريحهم من أيامه. فيقال أن قرحة خرجت له تحت أذنه، فقتلته في السادس من دعاء القوم. وقال من حضر غسله أنه، لما كشف عنه ثيابه، ضن إنه عبد أسود بعد جماله وذلك بسوء فعالة، وكانت وفاته ليلة الجمعة لست خلون من ذي الحجة من سنة ٢٠١ فكانت دولته خمسة أعوام وأشهرًا.

وفي سنة ٢٠١ كان تقديم أهل بغداد منصور بن المهدي أميراً عليهم خديماً للمأمون، إلى أن يقدم أو يقدم وكانت وقائع قبل ذلك وبعده. وفيها مات ابن الأغلب كما ذكرناه، وولى أخوه زيادة الله ساعة موته.

ذكر ولاية زيادة الله بن الأغلب أفريقية وبعض أخباره

كنيته أبو محمد. وهو أول من أسمه زيادة الله ممن ولى من بني الأغلب ببيع يوم الجمعة لسبع بقين من ذي الحجة، فأساء السير في الجند وسفك فيم الدماء وأشدت عليهم في كل وجه. فثار عليه زياد بن الصقلية بفحص أبي صالح إليه سالم بن سواده، فهزمه سالم. ثم ثار العامة عليه أيضاً وذلك أن زيادة الله كان أغلظ على الجند، وأمعن في سفك دمائهم، والاستخفاف بهم، وحمله على ذلك سوء ضنه بهم لوثوب على الأمراء قبله وخلافهم على أبيه. وكان أكثر سفكه وسوء فعله إذا سكر، وكثر الخوض عليه. وخالفت الجند عليه وغيرهم، فكانت بينه وبينهم حروب ووقائع، حتى خاف على نفسه، فخصن القصر القديم وبقي فيه على ما يأتي ذكره أن شاء الله تعالى.

وفي سنة ٢٠٢ توجه الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب إلى المشرق، خوفاً من أخيه زيادة الله وذلك أن الأغلب كان شقيق أبي العباس عبد الله بن إبراهيم، وكان أبو العباس طول ولايته، يتنقص زيادة الله ويأمر ندماءه بإطلاق ألسنتهم فيه فلما صار الأمر إلى زيادة الله جاءه الأغلب، فأستأذنه في الخروج إلى الحج فأذن له زيادة الله، فخرج الأغلب، وخرجت معه أبناء أخيه: محمد المكنى بأبي فهر، وإبراهيم المكنى بأبي الأغلب وهما إذ ذاك صغيران، فحج وأقام بالمشرق. وكان وزير زيادة الله والقائم بأمره الأغلب بن عبد الله المعروف بغلبون وفي سنة ٢٠٣، كانت ولاية أبي عبد الله أسد بن فرات بن سنان مولى بن سليم قضاء القيروان، وهو ممن سمع من مالك بن أنس. فلما ولى أسد القضاء ضاق أبو محرز القاضي إذ تشرك معه، ولم يعلم قبلهما قاضيان في وقت واحد؟. وفي سنة ٢٠٤ لم يكن فيها ولا في التي بعدها خبر يجتلب.

وفي سنة ٢٠٦ غزا المسلمون جزيرة سردينية، وعليهم محمد بن عبد الله ألت ميمي فأصابوا وأصيب منهم، قفلوا. وفي سنة ٢٠٧ ثار زياد بن سهل على زيادة الله بن الأغلب، وزحف إلى حرب باجة، فحاصرها أياماً. فأخرج إليه زيادة الله العساكر فهزموا زياداً، وقتلوا من وجدوا معه على الخلاف وغنموا الأموال. وكانت فيها وفات اليسع بن أبي القاسم صاحب سلجاسة، وتقديم أهلها على أنفسهم أخاه الياس المنتصر بن أبي القاسم الذي كانوا خلعه.

وفي سنة ٢٠٨ ثار عمرو بن معاوية القيسي على زيادة الله بن إبراهيم بالقصرين وتغلب على تلك الناحية وكان عاملاً لزيادة الله. وكان له ولدان،

يقال لأحدهما حباب وللآخر سحمان، فقال له ابنه حباب: (إنك دخلت في أمر عظيم وعرضت نفسك للهلاك، ولست من رجال هذا الأمر ولا ينفعك عدد ولا عدة! فراجع أمرك، واتق الله في نفسك!) فضربه مائتي سوط وتمادى على الخلاف. فأخرج إليه زيادة الله جيشاً كثيفاً حاصره أياماً، ثم نزل هو وولده على أمان، وجئ بهم إلي زيادة الله، فألقى على شراب مع قوم من وجوه أهل بيته، فأمر بحبسهم حتى يرى فيهم رأيه، ودخل إثر ذلك مضحك له يقال له أبو عمار فقال له زيادة الله: (ما يقول الناس يا أبا عمار؟)

فقال (يقولون إنما منعك أن تقتل عمرو بن معاوية مخافة أن تشب القيسية على عمك بمصر) فوقع كلامه بقلب زيادة الله، ثم شرب ساعة والتفت غلبون وزيره، فقال (أنقل نرو بن معاوية وولديه من حبسك إلى حبسي!) ففعل فلما كان في نصف الليل أقبل زيادة الله إلى السجن ويده السيف فقتل عمرو بن معاوية ثم رجع إلى قصره فعاد حباب وسجمان ابني عمرو. فأمر بحباب أن يقتل، فقال (أيها الأمير) إني مظلوم وقد بلغت نصيحتي لأبي فيك حتى ضربني بالسياط. فقال أجل قد كان ذلك! ولكنني أعلم أنك لا تخلص لي وأمر بضرب عنقه واستبقى الأصغر، وهو سجمان فلما أصبح دعا بترس، فوضع فيه الرأسين ودعا بسجمان، فقال (أتعرف هذين الرأسين) فقال: أعرفهما! ولا خير في الحياة بعدهما فأمر زيادة الله بضرب عنقه وجعل رؤوسهم في ترس وشرب عليها ذلك اليوم مع أهل منادته.

وفي سنة ٢٠٩ ثار منصور الطنبذي بتونس فأخرج زيادة الله محمد ابن حمزة في ثلاثمائة فارس مسلحين وأوصاه بكتمان حركته حتى يبعث منصورا بتونس، فيقبض عليه ويأتي به مصفدا. فسار ابن حمزة إلى تونس، فألقى منصورا غائبا في قصره بطنبذة. فنزل دار الصناعة ووجه إليه شجرة بن عيسى القاضي في أربعين شيخا من أشياخ تونس يناشده الله ويرغبه في الطاعة ويعرفه بما له في ذب لك من الحظ من دينه ودينه فتوجه شجرة بن عيسى مع المشايخ إلى منصور فدعوه إلى الطاعة فقال منصور (ما خاعت يدا ولا أحدث حدثا! وأنا سائر معكم إلى زيادة الله، ولك أقيموا علي يومي هذا حتى أعد لكم ما يصلحكم، فأقاموا معه، ووجه إلى ابن حمزة والذين معه ببقر وغنم وعلف وأحمال قهوة وكتب إليه (إني قادم عليك بالغداة. القاضي شجرة) فركن ابن حمزة لقوله وذبح البقر والغنم وأكل هو والناس الذين معه وشربوا. قلما أمسى منصور، أخذ القاضي والذين معه فحبسهم في قصره وأخذ دوابهم فجعل عليها أصحابه، وجمع خيله وأشياعه، وزحف إلى تونس، وأمر أصحابه ألا يسمع لهم حس ولا حركة حتى يصيروا إلى دار الصناعة. وسار حتى إذا كان بالقرب من دار الصناعة، أمر بالطبول، فضربت وأمر أصحابه فكبروا، فوثب ابن حمزة ومن كان معه، والتحم القتال على الليل. وكثر الناس عليهم، فقتل من كان مع ابن حمزة، ولم يسلم منهم إلا سبع البحر، وذلك يوم الاثنين لخمس بقين من صفر.

وأصبح منصور، فاجتمع إليه الجند وقالوا (نحن لا نثق بك، نأمن أن يستنزلك السلطان بدينه وماله فتميل له ولكن إن أحب أن نقوم بنصرك، فأخضب يدك في دماء أصحاب السلطان وأهل بيته! فوجه حينئذ عن عامل زيادة الله على تونس، وهو إسماعيل بن سالم بن سفيان وعن ولده محمد فأمر بقتلهم معا.

فلما اتصل الخبر بزيادة الله، وما كان من قتل رجاله وعامله عقد غلبون وزيره على عسكر جليل وقال: (والله! لئن انهزم واحد منكم، لأجعل عقوبته ما فر وهو السيف) فسار غلبون في العاشر لربيع الأول. حتى

وصل إلى سبخة تونس، ففرج إليهم منصور الطنبذي تعبئة عباها لنفسه، فاقتتلوا مليا. ثم حمل منصور حملة كانت فيها هزيمة غلبون وأصحابه لعشر بقين مكن ربيع الأول، وسار منهزما إلى زيادة الله، فاعتذر غلبون عن الهزيمة وحاف أنهم نصحوا واجتهدوا ولكن قضاء الله لا يرد. وتوالت القواد على أعمال أفريقية، كل قائد على بلدة يضبطها، ويمتنع فيها من عقوبة زيادة الله التي توعدهم بها. واضطربت أفريقية نارا، ورمى الجند كلهم إلى منصور الطنبذي أزمة أمورهم وولوه على أنفسهم. وقدم غلبون على زيادة الله، فأعلمه بما كان من أمره ونغل الجند فكتب إليهم زيادة الله صكوك أمان، وبعث رهبها إليهم، فلم يثقوا بها منه، وخلعوا الطاعة.

ولما ظفر منصور، واجتمع إليه بتونس جميع الجند والحشود والوفود من كل جهة ومكان، فرحف بهم من تونس، فوصل إلى القيروان لخمس خلون من جمادى الأولى. فركب إليه القاضيان أبو محرز وأسد، فكان بينهما وبينه كلام لم يفد. وخندق منصور الطنبذي على نفسه فكانت بينه وبين زيادة الله وقائع كثيرة. ثم رحل منصور من خندقه، ونزل منزلا آخر، وأخذ منصور في إصلاح سور القيروان فوالاه أهل القيروان وحاربوا معه. فدامت الحرب بين منصور وبين عسكر زيادة الله أربعين يوما. ثم زحف زيادة الله على تعبئة عباها لنفسه قلبا وميمنة. فلما رأى ذلك منصور هاله وراعه. والتقت الفئتان، فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم منصور وولى هاربا وقتل أصحابه قتلا ذريعا، في منتصف جمادى الآخرة، وانتهى زيادة الله إلى القيروان فأمر برفع القتال وتمادى منصور في هزيمته إلى أن دخل قصره

بتونس، والناس لا يشعرون. وعفا زيادة اله عن أهل القيروان، وصفح عن جميعهم غير أنه جعل عقوبتهم هدم سور القيروان حتى ألصقه بالأرض.

وفي سنة ٢١٠ كانت وقعة سببية، وهي مدينة. وذلك أن الجند الذين تقدم ذكر سيرتهم وتنعمهم لأجل الهزيمة التي طرأت عليهم كان قائدهم عمر بن

نافع وأقر زيادة الله على الجيش محمد بن عبد الله بن الأغلب، فالتقوا هنالك لعشر بقين من المحرم فانهزم ابن الأغلب وقتل وتمادت الهزيمة إلى القيروان من ضحى النهار إلى بعد صلاة العشاء، فاغتنم لذلك زيادة الله وأخذ في ضم الرجال وبذل الأموال. وكان عيال الجند بالقيروان، فلم يعرض لهم زيادة الله. ثم أن الجند سألوا منصور أن يحتال في نقل عيالاتهم من القيروان، فزحف بهم منصور إليها ونزل على القصر نحو ستة عشر يوما، فلم يكن بينه وبين زيادة اله فيها قتال، وأخرج الجند حرهم عن القيروان. ثم انصرف منصور إلى تونس ولم يبق بيد زيادة الله من أفريقية كلها إلا قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس، فانهم تمسكوا بطاعته، ولم ينقصوه شيئا من جبايته. وملك منصور جميع عمل زيادة الله، وضرب السكة باسم نفسه.

وكتب الجند إلى زيادة اله (ارحل عن أفريقية ولك الآمان في نفسك ومالك) فشاور زيادة اله أهل بيته وخدمته، وقد ضاق به الأمر فقال له سفيان بن سودة: (مكني ممن أثق بهم أتقدم بهم إلى نفزاوة) فانتقى له مائة فارس، فأعطاهم وسار بهم إلى نفزاوة فدعا بربرها إلى نصرته. فأجابوه. فأقبل عامر بن نافع في الجند نحو نفزاوة فلما وصل إلى قسطنطينية جمع ألف أسود ومعهم الفؤوس والمساحي وخرج بهم إلى نفزاوة فنزل بتقيوس وبلغ ابن سواد قدومه، ففرج إليه وأقتل معه، فانهزم الجند وقتل منهم عدد كبير. ورجع عامر إلى قسطنطينية فأقام بها ثلاثة أيام يجبي أموالها ليلا ونهارا، حتى كل له من ذلك ما أراد، وسار نحو القيروان.

وفي سنة ٢١١، قام عامر بن نافع على منصور الطنبذي. وكان حاسدا له لأن منصور كان يتوعده على الشراب، فعمل عليه عامر مع الجند، فلم يشعر منصور وهو بقصره بطبندة حتى زحف إليه عامر من تونس، فحاصره. فراسله منصور وطلب منه الآمان، على أن يتوجه في سفينة إلى المشرق. فأجابته إلى

ذلك وخرج منصور في أول الليل مستخفيا يريد الأربس. فلما أصبح عامر، قفا أثره وأثر من اكن معه، حتى أدركهم. فاقتتل معهم فانهزم منصور ودخل الأربس، فتحصن بها فحاصره عامر فيها. فلما ضاق الحصار بأهلها، قالوا المنصور (إما أن تخرج عنا وإلا دفعناك إلى عامر!) فرغب منهم أن يمهله حتى يعمل في الخلاص لنفسه. فأرسل إلى عبد السلام بن الفرّج (وكان من وجوه الجند) يسأله الاجتماع به. فأتاه فقال له منصور من أعلى السور: (بهذا كان جزائي منكم يا معشر الجند! وقد علمتم أن قيامي على القوم إنما كان من أجلكم. فإذا كان قد صار الأمر إلى ما صار إليه فأحب أن تسعى في أماني وخلاصي وأخرج عنكم إلى المشرق) فأجابه عبد السلام إلى ما سأل، واستعطف له عامر بن نافع فأسعفه في ذلك. ثم وجهه عامر منصورا مع خيل وأمر مقدمهم سرا أن يعرجوا به إلى مدينة جربة ويحبسه بها. ففعل ذلك وحبس منصور هنالك. فلما علم عبد السلام بهذه الغدرة من عامر حقد عليه وكان بباجة مع أصحابه، وكان هاشم أخو عامر واليا عليها، فأخذه وحبسه وكتبوا إلى أخيه عامر (أما أن تحلي عن منصور وإلا قتلنا أخاك) فكتب إليهم عامر (إني لست أخلى عن منصور فاصنعوا بهاشم ما شئتم! فستعلمون عاقبة أمركم) فلما جاءهم كُتابه، أطلقوا هاشما. وأمر بضرب عنق منصور وأخيه حمدون. واستقامت الأمور لعامر بن نافع.

وفي سنة ٢١٢، أغزى زيادة اله صقلية. واجتمع له سبعون مركبا حمل فيها سبعمائة فرس. وعرض القاضي أسد بن الفرات نفسه على زيادة الله في الخروج للغزو، فولاه على الجيش، وأقره على القضاء مع القيادة، ففرج معه أشرف أفريقية من العرب والجند والبربر والأندلسيين، وأهل العلم والبصائر، وذلك في حفل عظيم وعدة جليلة في ربيع الأول. فساروا إلى حصون الروم ومدنهم فأصابوا سبيا كثيرا وسائمة كثيرة وكثرت الغنائم عند المسلمين. واحتل القاضي أسد بمن معه على مدينة سرقوسة، وحاصرها برا وبحرا وأحرق مراكبها، وقتل جماعة من أهلها. وجائته الأمداد من أفريقية والأندلس وغيرها.

وفي سنة ٢١٣ توفي عامر بن نافع على فراشه. فلما بلغ موته زيادة الله، قال: (اليوم وضعت الحرب أوزارها!) فاستأمن بنوه إلى زيادة الله، فأمنهم. وفيها توفي إدريس بن إدريس الحسني

فقام بأمر فاس والبربر ابنه محمد، فولى أخاه البصرة وطنجة وما يليهما، وولى سائر اخوته بلاد المغرب. ذكر مدينة البصرة بالغرب. كانت قبل مدينة كبيرة أزلية، تعرف ببصرة الكنان لأنهم كانوا يتابعون، في بدء أمرها في أكثر تجارتهم بالكنان. وتعرف أيضا بالخرء. لأنها حمراء التراب. وكان سورها مبني بالحجارة والطوب. ولها عشرة أبواب. ولجامعها سبع بلاطات. وبها حمامان كبيران ومقبرتها الكبرى في شرقها، والأخرى في غربها، وهي التي تعرف بمقبرة قضاء. وماؤها زعاق وشربهم من ماء عذب كبير على باب المدينة، يعرف ببئر أبي ذلفاء. ونساء البصرة مخصصات بالجمال الفائق والحسن الرائق، ليس بأرض المغرب أجمل منهن، وفيهن يقول أحمد بن فتح التبرتي في قصيدة مدح بها أبا العيش الحسني (كامل):

ما حاز كل الحسن إلا قينة ... بصرية في حمرة وبياض
الخر في لحضاتها والورد في ... وجناتها هيفاء غير مفاض

وأست البصرة في الوقت الذي أسست فيه أصيلا أو قريبا منه. ومنها إلى قصر كتامة وهو قصر عبد الكريم، مرحلة ومنها إلى مدينة جنينة مرحلة. وقيل أنها كانت قرية على وادي سبو بينها وبين فاس مرحلة ومن مدينة البصرة طريق آخر إلى فاس، فمنها إلى ورغة مرحلة، ثم إلى وادي ماسنة مرحلة وهي مدينة عيسى بن حسن الحسني المعروف بالحمام ثم إلى مدينة سدك وهي قاعدة خلوف بن محمد المغيلي ثم إلى فاس. فذلك سبع مراحل. وفي هذه السنة توفي أسد بن الفرات في رجب منها وهو محاصر لسرقوسة فلما توفي، هربت رهن الروم التي كانت عنده ووقع الموت في عسكر المسلمين، فاغتنموا لذلك، وولوا على أنفسهم الجراوي.

وفي سنة ٢١٤ توفي القاضي أبو محرز الكلبي. وفيها وصل من الأندلس إلى صقلية نحو ثلاثمائة مركب، فيها أصبغ بن وكيل المعروف بفرغلوش. وبلغ المسلمين المحصورين بها خير ووصلهم، فاستغاثوا بهم، فودعهم بالغوث.

وفي سنة ٢١٥، كان غزو فرغلوش الواصل في المركب إلى صقلية هو والوقاد الذين معه، فأخذوا القلاع، وسبقوا، وغنموا في بلاد الروم. ثم سألوا إغاثة من كان من المسلمين بها، فأجابوهم إلى ذلك على أن يكون أمر الناس إلى فرغلوش فساروا إلى ذلك وأخذوا في طريقهم القلاع وأغاروا حتى انتهوا إلى ميناو. فخرج مخنق من كان بها من مسلمين، وحرقوا المدينة وهدموها، وانتقلوا عنها. وسار المسلمون إلى غلوايه، فحصروها وتغلبوا عليها.

واعتل جماعة من المسلمين بها وأخذ الوباء ومات فرغلوش وغيره من القواد فرحل المسلمون وركب العدو أثرهم، فقتل منهم خلق كثير في خبر طويل ثم أخذوا في إصلاح مراكبهم قافلين إلى الأندلس. وفيها ولي سعيد بن إدريس مدينة نكور.

وفي سنة ٢١٦ كانت وقعة بين مطبق السلمي وإسماعيل بن الصمصامة بإفريقيا فتقاتلا بما من معهما فهزم مطبق وقتل ونهزم أصحابه أبو فهر صقلية.

وفي سنة ٢١٧ توجه أبو فهر محمد بن عبد الله التميمي من إفريقيا إلى صقلية وهرب عثمان بن عرقب عنها.

وفي سنة ٢١٨ قام بمدينة تونس فضل بن أبي العنبر بعد هزيمته لخليل زيادة الله، فضبطها لنفسه. وسار إليه أبو فهر بن عبد الله بن الأغلب في جيش كثيف حتى افتتحها وقتل فيها عباس بن الوليد الفقيه الصالح.

وفي سنة ٢١٩ أمن زيادة الله كل من طلب الأمان ممن تلفت من تونس وخرج عنها وقت دخول أبي فهر لها. فأمنهم وسكنت أحوالهم وكان فيهم عبد الرحمن وعلي ابنا أبي سلمة وأبو العزاف كانوا شعراء فصحاء فأنش عبد الرحمن مديحا له فيه فلما أنقض إنشاده قام يعقوب بن يحيى الشاعر يحرض زيادة الله على بني أبي سلمة وأبي العزاف بهذه الأبيات وأوفر:

تسمع أيها الملك المعان ... قوافي في معانيها البيان

يتم أمان من الخضب العوالي ... وليس لشاعر أبدا أمان

لأن قوافي الأشعار تبقى ... على الأيام ما بقي الزمان
وقد يرجى لجرح السيف برء ... ولا برء لما جرح اللسان
فلم يلتفت زيادة الله إلى قوله وأمضى لهم أمانهم وقال لأبي العزاف: ما منعك أن تستأمن إلينا قبل هذا الوقت؟ قال: أيها الأمير كنت مع قوم حمقى يولون كل يوم واليا ويعزلون آخر. فرجوت أن تكون لي معهم دولة، فضحك زيادة الله وقال: لقد عفوت عنك وفي سنة ٢٢٠ ولي أحمد بن أبي محرز قضاء أفريقية وفيها غزى محمد بن عبد الله بن الأغلب صقلية. فالتقى بالمشركون فانهزموا أمامه. وانصرف بالغنائم إلى بسلوم. وكانت بصقلية في هذه السنة غزوات كثيرة للمسلمين برا وبحرا وكذلك بالأندلس. وفيها وصل ابن الأغلب إلى بسلوم قاعدة صقلية واليا عليها، في رمضان، بعد أن رأى شدة في البحر وعطبت له مراكب وحطمت له أخرى

وأصاب له النصارى حرقا من مراكبه. وجاهداهم محمد بن السندي في حراقات فاتبعهم حتى حال الليل بينهم. وفي سنة ٢٢١، توفي قاضي صقلية ابن أبي محرز. وكان قد أوصى أخاه عمران أن يكتكم موته حتى يكفنه ويصلي عليه، خوفا أن يكفنه زيادة الله ويصلي عليه، ففعل عمران ذلك. فلما حمل نعشه وخرج به من داره أقبل خلف الفتى يمسك كثير وأكفان من قبل زيادة الله فقال له عمران: قد كفناه: فذر خلف المسك الذي كان معه عليه وحمل إلى المصلى حضر زيادة الله دفنه وعزى أخاه عنه وقال: يا أهل القيروان لو أراد الله بكم خيرا لما خرج ابن أبي محرز من بين أظهركم. وكان زيادة الله يقول: ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات: بنياني المسجد الجامع بالقيروان وبنياني قنطرة أبي الربيع، وبنياني حصن مدينة سوسة ونوليقي أحمد بن محرز قاضي أفريقية، وولي القضاء بعده ابن أبي الجواد.

وفي هذه السنة، ابتدأت الفتنة بسلجمانة بين ميمون وأخيه ابني المنتصر ابن اليسع. وفي سنة ٢٢٢ كانت غزوة صقلية للمسلمين إلى ناحيو جبل النار، فأصابوا وغنموا وقفلوا سالمين غاثمين. وفيها فتح المسلمون حصن مدنار ومعقل كثيرة في غزوة للفضل بن يعقوب، أغزاه أبو الأغلب، وغزوة أخرى لعبد السلام بن عبد الوهاب، أغزاه أيضا إياها أبو الأغلب، فخرج إليه العدو فانهزم المسلمون وأصيب منهم جماعة وأسر عبد السلام حتى فدي بعد ذلك. وفي سنة ٢٢٣ توفي زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب صاحب أفريقية، يوم الثلاثاء لربيع عشرة ليلة خلت من رجب وهو ابن إحدى وخمسين سنة. فكانت ولايته إحدى وعشرين سنة، وسبعة أشهر وثمانية أيام.

٤٠٤٨ ولاية أبي عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب أفريقية

٤٠٤٩ ولاية أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب أفريقية

ولاية أبي عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب أفريقية
وهو الملقب بخزر، فلنا ولي أمن الناس وأحسن إليهم وإلى الجند، وغير أحداثا كثيرة كانت قبله وأجرى على العمال أرزاقا واسعة وصلات جزلة وقبض أيديهم عن الغبة، وقطع النبيذ من القيروان، وعاقب على بيعه وشربه. وتوفي في العشر الأواخر لربيع الآخر سنة ٢٢٦، وهو ابن ثلاثة وخمسين سنة فكانت ولايته سنتين وتسعة أشهر وأياما. وفي سنة ٢٢٤، كانت وقعة بأفريقية بين عيسى بن ريعان الأزدي، وقد أخرجه السلطان لذلك، وبين لواته وزاغة ومكاسه فقتلهم عن آخرهم بين قفصة وقسطيلية. ذكر ذلك ابن القطان. وفيها، قدم أهل سلجماسة ميمون بن مدرار وأخرجوا أخاه. فلما استقر الأمر لميمون أخرج أباه مدرار وأمه إلى بعض قرى سلجمانة. وفي سنة ٢٢٥، كانت وفاة أبي جعفر موسى بن معاوية الصمادحي، مولى آل جعفر وكان ممن روى عنه سخنون. وفي سنة ٢٢٦، توفي أبو عقال الأغلب بن إبراهيم في ليلة الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر، وولاية ابنه أبي العباس يوم موت أبيه

ولاية أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب أفريقية كانت ولايته في أولها ساكنة، والأمور معتدلة. وقد أحمد بن الأغلب كثيرا من أموره وكان محمد هذا قليل العلم، ذكر أن رجاء الكاتب كان يوما بين يديه، فكتب محمد (لحم ضبي) بضاد مسقوطة. فلما حفلا المجلس، قال له كاتبه: (أيد الله الأمير الظبي يكتب بضاء مرفوعة) فقال له محمد: (قد

علمنا فيها اختلافا فأبو حنيفة يجعله بالطاء ومالك يجعله بالضاد) فعجب الحاضرون من قوله وكان عقيما لا يولد له. وكان مظفرا فيء حروبه.

وفي سنة ٢٢٧، توفي أبو محمد عبد الله بن أبي حسان اليحصبي فقيه أفريقية، ولقي مالك، وسمع منه. وسأله زيادة اله في النبذ، فقال له: (كم دية العقل؟) قال: (ألف دينار) قال: (أصلح الله الأمير يعمد الرجل إلى ما قيمته ألف دينار، فيبعه بنصف دسهم فقبل له: (أنه يعود ويرجع) فقال: (أصلح الله الأمير! بعد كشفه سوئته، وإبداءه عورته وضرب هذا وشم هذا) وفي سنة ٢٢٨، كانت أفريقية هادئة ساكنة قال عريب وغيره لم يكن في أفريقية هذه السنة خبر يذكر ولا في السنتين بعدها.

وفي سنة ٢٣٠ توفي بهلول بن عمرو بن صالح الفقيه، سمع من مالك وطبقته. وفي سنة ٢٣١ كانت ثورة أحمد بن الأغلب على أخيه محمد واستيلائه عليه، وذلك أن أحمد تواعد مع جملة من الموالي إلى موضع، فتوافوا هنالك وقت الظهر، فقصدوا إلى مدينة القصر القديم، وقد خلى الباب من الرجال فدخلوا، وأغلقوا الباب، ثم ساروا حتى أغلقوا لأبواب الأخر. ثم هجموا على أبي عبد الله بن علي بن حميد الوزير فأمر أحمد فضربت عنقه ووقع القتال بين رجال محمد بن الأغلب وبين رجال أحمد بن الأغلب وجعل أصحاب أحمد يقولون لأصحاب محمد: (ما لكم تقاتلوننا! نحن في طاعة محمد ابن الأغلب. إنما قنا على أولاد علي بن حميد الذين أفقروكم واستولوا على أموال مولاكم دونكم وإما نحن في الطاعة) لما سمعوا ذلك، أوقفوا عن القتال، ولما نظر محمد إلى ما دهمه من غير استعداد، قعد في مجلسه الذي يقعد فيه للعامة، وأذن لأخيه أحمد والرجال الذين معه في الدخول عليه.

فدخلوا بسلاحهم. فكانت بينهما معاتبة. ثم حلفا أن لا يغدر أحدهما بصاحبه واصطالحا. واعتدلت الأمور لأحمد بن الأغلب إلا أن أسم الإمارة فقط وقبض أحمد على من شاء، واستصفى من أراد وعذب من أحب وأعطى الرجال وجنى الأموال، واستوزر نصر بن حمزة.

وفي سنة ٢٣٢، ظفر محمد بن الأغلب بأخيه أحمد، وحبسه، ورجع له سلطانه. وقام معه في ذلك جماعة من بني عمه ومواليه. وسقى البوابين واحتال عليهم حتى دخل المدينة، وحارب أخاه طول الليل وأطلق من كان في حبس أخيه، فاستمد بهم ووصل أهل القيروان حتى أفنذ جميع ما في خزائنه من الأموال والكسي ثم نفى محمد بن الأغلب أخاه إلى المشرق فمات بالعراق.

وفيها عزل عبد الله بن أبي الجواد عن القضاء، فقال سخون لمحمد بن الأغلب: (أيها الأمير، أحسن الله جزائك! فقد عزلت فرعون هذه الأمة وجبارها وظالمها) وابن أبي الجواد حاضر ولحيته تضطرب على صدره وكان تام اللحية.

وفي سنة ٢٣٣ ولي سخون بن سعيد بن حبيب التنوخي الفقيه (واسمه عبد السلام، إنما سمي بسخون لحدة ذهنه) القضاء بأفريقية بعد أن رجع محمد بن الأغلب في ذلك عاما كاملا، وهو يأبى عليه، حتى حلف له بأيمان المؤكد وأعطاه العهود المغلظة إنه يطلق يديه على أهل بيته وقرباته وخدمه وحاشيته، وينفذ عليهم الحق، أحب أو كرهوا.

وفيها كانت ثورة سالم بن غلبون وقلته، وذلك إنه كان واليا على الزاب فعزاه محمد بن الأغلب. فأقبل سالم يريد القيروان. ثم عدل في بعض طريقه إلى الأربس مظهرًا للخلاف، فمنعه أهلها من دخولها فسار إلى باجة فدخلها وضبطها فأخرج إليه ابن الأغلب خفاجة بن سفيان في جيش كثيف فنزل عليه وحاربه أياما، فهرب سالم بن غلبون في الليل، فاتبعه خفاجة

فلحقه لما أصبح وقتله، وحمل رأسه إلى محمد بن الأغلب وكان ابنه أزهر محبوسا عنده فأمر بضرب عنقه.

وفي سنة ٢٣٤، ثار عمر بن سليم النجيب بتونس، فأخرج إليه ابن الأغلب خفاجة بن سفيان، فأقام عليه بقية هذه السنة، ثم انصرف عنه من غير ظفر وفيها مات عبد الله بن أبي الجواد في سجن سخون وكان ورثته ابن القلقاط يطلبونه بنخسمائة دينار وديعة واستظهروا

بخطه. فأنكر الوديعة والخط. فكان سخون يخرج به كل جمعة، فإذا استمر على الإنكار، ضربه عشرة أسواط. وأرادت زوجته فدائه بما لها، فامتنع سخون إلا أن يعترف ابن أبي الجواد بأن هذا مال الأيتام أو عوضا عنه. فأبى ابن أبي الجواد. فما زالت تلك حاله إلى أن مرض، فمات. فشنع الناس على سخون أن قتله. وكان يقول بخلق القرآن.

وفي سنة ٢٣٥ كانت وقعة، بمقربة من تونس، بين المنتزي في العام الفارط عمرو بن سليم المعروف بالقوبع، وبين محمد بن موسى المعروف بعريان، الذي استقوده ابن الأغلب لمحاربته، ففرع كثيرا من موالى ابن الأغلب إلى القوبع. ف وقعت على محمد بن موسى هزيمة، وأسر أحد قواده، بعد أن انكسرت رجله، ثم طعنه ولد القوبع طعنة كان في حنقه، وقتل كثير من أصحابه. وأنصرف باقي الجيش إلى ابن الأغلب مفلولين. واشتدت شوكة القوبع.

وفي سنة ٢٣٦، كانت وقعة بين عمرو بن سليم القوبع المنتزي بتونس وبين خفاجة بن سفيان، قائد جيش قائد بن الأغلب، فاقتتلوا قتالا شديدا، فهزم القوبع، وقول أصحابه مقتلة عظيمة. وأدرك القوبع، فضربت عنقه، وحمل رأسه إلى محمد بن الأغلب، فوصل قاتله، وكساه، وأحسن إليه. ودخل خفاجة مدينة تونس بالسيف، يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول وسبى فيها، وانصرف بالجيش إلى القيروان، فكساه ابن الأغلب.

٤٠٥٠ ولاية العباس بن الفضل جزيرة صقلية

ولاية العباس بن الفضل جزيرة صقلية

لما توفي صاحب صقلية أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله الأغلب، قدم أهلها على أنفسهم العباس بن الفضل هذا، وكتبوا إلى محمد بن الأغلب بن خبر. فأقر العباس، وكتب إليه بعهد بولاية صقلية. فجاهد كثيرا، وغزا طويلا. وكان له في الروم مواقف أذلهم بها. وفي سنة ٢٣٧ ولي حبيب بن نصر التميمي المظالم بالقيروان بتقديم القاضي سخون إياه عليها. وفي أغزى العباس بصقلية أرض الروم، فغنم غنائم عظيمة، وسبى سبيا كثيرا وأداخ بلاده.

وفي سنة ٢٣٨ أغزى العباس بن الفضل صاحب صقلية الروم فقتل الله المشركين. وبعث العباس برؤوسهم إلى مدينة بالرم، وقام ينتسف زروعهم، ويطأ أرضهم، ويسبى من ظفر بهم منهم. ثم قفل إلى صقلية.

وفي سنة ٢٣٩ كان الجهاد بصقلية في غزوة العباس بن الفضل في الصائفة فأفسد زروع النصارى، وبث السرايا في كل موضع، وغنم وقصريانة وقطانية وسرقوسة وغيرها، وحاصر مدينة بنيرة ستة أشهر حتى صالحوه على ستة آلاف رأس قيضها منهم. وقفل إلى حضرة بلرم، وفتح مدينة سبرينة.

وفي سنة ٢٤٠، توفي الفقيه سخون - رحمه الله - وفيها كان الجهاد أيضا بصقلية: غزا العباس بن الفضل صاحبها بلاد الروم فسبى ونكى وخرّب وانتسف وبث السرايا، فغنموا غنائم عظيمة.

وفي سنة ٢٤١، غزا العباس بن الفضل أيضا الروم بصقلية، فأفسد زروعهم وبث السرايا في أراضيهم، فغنمت غنائم كثيرة. وأقام في جبل مانع ثلاثة أشهر يضرب كل يوم حول يلنة فيقتل ويصيب، وتوجه سراياه

٤٠٥١ ولاية أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب أفريقية

فتغنم في كل جهة. وأغزى أخاه علي بن الفضل في البحر، فأصاب وغنم وأنصرف برؤوس كثيرة.

وفي سنة ٢٤٢، توفي أبو العباس محمد بن الأغلب صاحب أفريقية ليلتين خلتا من المحرم، فكانت ولايته خمسة عشرة سنة وثمانية أشهر واثنين عشرة يوما ومات وهو ابن ستة وثلاثين سنة. وولي بعده ابن أخيه.

ولاية أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب أفريقية

وليها وهو ابن عشرين سنة. وكان حسن السيرة، كريم الأخلاق والأفعال، من أجود الناس وأسمحهم وأرقهم بالربعة، مع دين واجتناب للظلم على حداثة سنه وقلة عمره. وكان يركب في ليالي شعبا ورمضان وبين يديه الشمع فيخرج من القصر القديم ويمشي حتى يدخل من باب أبي الربيع ومعه دواب بالدراهم، فكان يعطي الضعفاء والمساكين حتى ينتهي إلى المسجد الجامع بالقيروان فيخرج الناس إليه يدعون له.

وفيها ولي القضاء بأفريقية أبو الربيع سليمان بن عمران بن أبي هاشم الملقب بخروقة. وفيها كان الجهاد بصقلية. غزا صاحبها العباس بن الفضل الروم بالصائفة فغنم وسبي وانتقل من حصن إلى حصن، ففتح أكثرها، وصالحه بعض أهلها.

وفي سنة ٢٤٣، كان الجهاد بصقلية. غزا العباس بن الفضل صاحبها بالصائفة فسبي وغنم، وصالحه أهل قصر الحديد، بعد أن حاصره شهرين بخمسة عشر ألف دينار، وصالحه أهل حصن شلفودة على أن يخرجوا منه ويهدمه، ففعل ذلك.

٤٠٥٢ ولاية زيادة الله بن محمد بن الأغلب

٤٠٥٣ ابن إبراهيم بن الأغلب أفريقية

وفي سنة ٢٤٤ غزا العباس صاحب صقلية أرض الروم، فغنم غنائم كثيرة وخرج أخوه في مراكب في البحر إلى جزيرة إقريطش، فقتل وسبي. وغنم ثم دارت على المسلمين جولة، فقتل منهم، وأخذت لهم عشرون مركبا.

وفي سنة ٢٤٥، أخرج أبو إبراهيم بن الأغلب صاحب أفريقية مالا كثيرا لحفر المواجه، وبنان المساجد والقناطر لكلمة كانت منه على سكر.

وفي سنة ٢٤٦، كان حفر المآجل الكبير على باب تونس. وفيها توفي أبو خلف الزاهد، واسمه مطروح بن قيس. وكان عابداً زاهداً. وفي سنة ٢٤٧، كان بالقيروان سيل عظيم كسر القنطرة فأمر صاحب أفريقية بإصلاحها. وفيها توفي عبد الرحمن بن عبد ربه، وكان مستجاب الدعوة.

وفيها توفي العباس بن الفضل صاحب صقلية، في جمادى الأولى لثلاث خلون منها، وولى عمه أحمد صقلية: ولاه أهلها، وكتبوا بذلك إلى صاحب أفريقية أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب، فجاء كتابه بإثباته.

وفي سنة ٢٤٨، كل بناء ماجل باب تونس الكبير وتمت الزيادة في جامع القيروان وكل إصلاح قنطرة باب أبي الربيع، وفيها كانت غزوة رباح فأصاب وغنم، ثم دارت عليه وقعة، أخذت فيها طوبوله وأعلامه، ثم أسر قوم من أصحابه ثم تراجع وافتتح مدينة جبل أبي مالك، وسبي جميع كما كان فيها وأحرقها وبث سرايا كثيرة فأصاب وغنم.

وفي سنة ٢٤٩، توفي أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب صاحب أفريقية يوم الثلاثاء لثلاث خلت من ذي القعدة، فكانت ولايته سبع سنين وعشرة أشهر ونصفاً. وهو ابن ثمان وعشرين سنة.

ولاية زيادة الله بن محمد بن الأغلب

ابن إبراهيم بن الأغلب أفريقية

ولي يوم وفاة أبي إبراهيم، في ذي القعدة، فكتب إلى خفاجة بإمضاء

٤٠٥٤ ولاية أبي الغرائق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب

ولايته وخلع عليه. وكان أبو محمد زيادة الله هذا عاقلاً حليماً حسن السيرة جميل الأفعال، ذا رأي ونجدة وجود وشجاعة. وهو الثاني من أسمة زيادة الله في بني الأغلب. ول تطل في الملك مدته، فتكون له أخبار تؤثر. وتوفي ليلة السبت لعشر بقين من ذي القعدة من

سنة ٢٥٠ فكانت دولته سنة واحدة وسبعة أيام.

ولاية أبي الغرائق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب

ولي سنة ٢٥٠، وهو ابن أخي زيادة الله المتوفى قبل. ولي يوم السبت لعشر بقين من ذي القعدة، ولقب بأبي الغرائق لأنه كان يهوى صيدها، حتى بنى قصرا يخرج إليه لصيدها، أنفق فيه ثلاثين ألف مثقال من الذهب. وكان مسرفا في العطاء، مع حسن سيرة في الرعية. ثم غليت عيه اللذات والانشغال بها فلم يزل كذلك طول مدته، ولم تكن له همة في جمع مال. فلما مات لم يجد أخوه في بيتا المال شيئا يذكر، وكانت ولايته حروبا أكثرها على ما يأتي ذكره.

وفي سنة ٢٥١ كانت غزوة السرية المعروفة بسرية ألف فارس، وذلك أن خفاجة صاحب صقلية غزا قصر يانة، فأفسد زرعه وسار إلى سرقوسة فقاتل أهلها. ثم رحل عنهم وأخرج ابنه محمدا إليهم في سرية فكن لهم وقتل منهم ألف فارس، فسميت تلك السرية سرية ألف فارس.

وفي سنة ٢٥٢، بنى محمد بن حمدون الأندلسي المعافري الجامع الشريف بالقيروان المنسوب إليه: بناه بالآجر والجص والرخام، وبنى فيه جبابا للماء. وغزا خفاجة صاحب صقلية أرض الروم، وافتتح حصونا كثيرة؛ ثم مرض مرضا شديدا، فانصرف في محمل إلى بلرم. وفي سنة ٢٥٣ قال ابن القطان: عريت هذه السنة من أخبار أفريقية، فلم يكن فيها خبر مشهورا يحتلب.

وفي سنة ٢٥٤ غزا خفاجة صاحب صقلية بطريقا وصل من القسطنطينية، في جمع كبير نفى البر والبحر، فأنهزم البطريق بعد قتال شديد، وقتل من أصحابه آلاف كثيرة، وأخذ لهم سلاح وخيل. ودخل خفاجة إلى سرقوسة وغيرها؛ فغنم غنائم كثيرة، ورجع إلى بلرم قاعدة أول يوم من رجب.

وفي سنة ٢٥٥ خرج خفاجة صاحب صقلية للغزو؛ فلقه العدو في جمع كبير؛ فاقتتلوا قتالا شديدا، فقتل شجاع من شجعان المسلمين؛ فانكسروا لقتله. فسار خفاجة إلى سرقوسة فامتنعت منه؛ فأقام عليها، وأفسد زرعها. وفيها توفي خفاجة؛ وذلك أنه؛ لما أكمل غزاته المذكورة، قفل من سرقوسة، يريد بلرم؛ فأدلى ليلا؛ فأغتاله رجل من عسكره، وطعنه طعنه مات منها، وذلك أول يوم من رجب. وهرب الذي طعنه إلى سرقوسة. وحمل خفاجة إلى بلرم؛ فدفن بها. فولى أهل صقلية ولده محمد. وكتبوا بذلك إلى الأمير محمد بن أحمد بن الأغلب أبي الغرائق؛ فكتب إليه بالولاية، وخلع عليه.

وفي سنة ٢٥٦ توفي محمد بن سخون التنوخي، وكان فقيها ورعا - رضي الله عنه -! وفي سنة ٢٥٧ ولى القضاء بإفريقيا عبد الله بن أحمد بن طالب صارفا سليمان بن عمران. وفيها، توفي صاحب صقلية محمد بن خفاجة قتله خدمة نهار ثلاث خلون من رجب، وكتبوا أمره، فلم يعرف قتله إلا بعد يوم لهروب الخدم، فأخذوا وقتل بعضهم. فولى صقلية أحمد بن يعقوب بتقديم ابن الأغلب إياه. وولى على الأرض الكبير عبد الله بن يعقوب، فكانت لهما في هذا العالم غزوة أوقعا فيها بالمشركون. ولم يكن في إفريقيا في سنة سبع خبر يذكر.

وفي سنة ٢٥٨، توفي أحمد بن يعقوب صاحب صقلية، وولى ابنه الحسين مكانه. وأوفر صاحب أفريقيا عليها.

٤٠٥٥ ولاية إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب

وفي سنة ٢٥٩، ولى سليمان بن عمران قضاء أفريقية، وعزل عبد الله بن أحمد بن طالب التيمي عنه. وفيها عزل صاحب صقلية سرقوسة، فصالحه أهلها على أن يخرجوا إليه من أير المسلمين الذين كانوا عندهم ثلاثمائة وستين أسيرا. وفي سنة ٢٦٠ كانت المجاعة العامة بالمشرق والمغرب، والوباء، والطاعون. وفيها توفي محمد بن إبراهيم بن عبدوس الفقيه العالم، الذي دون (المجموعة)، وكان مجاب الدعوة.

وفي سنة ٢٦١ توفي أبو الغرائق محمد بن أحمد بن الأغلب ليلة الأربعاء لست خلون من جمادى الأول من هذه السنة، فكانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر ونصف، وفي دولة المستعين بالله والمعز والمهتدي المعتمد في بعض أيامه. ولاية إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب

وصفة ولايته أن أبي الغرائق كان عهد لأبنة أبي عقاب، وأستخلف أخاه إبراهيم بن أحمد ألا ينارعه في ملكه بخمسين يمينا. فلما مات أبو الغرائق، أتى أهل القيروان إلى إبراهيم بن أحمد، وهو إذ ذاك والي على القيروان. فقالوا له (قم، فأدخل القصر، فأنت الأنير!) وكان إبراهيم قد أحسن السيرة فيهم. فقال لهم (قد علمتم أن أخي قد عقد البيعة لابنه، واستحلفني خمسين يمينا ألا أنارعه ولده ولا أدخل قصره) فقالوا له (تكون أمير في دارك بالقصر القديم، ولا تنارعه ولده! فنحن كارهون ولايته ومبايعون لك! وليس في أعناقنا له بيعه!) فركب من القيروان، ومع أكثر أهلها، فخاربوا أهل القصر حتى دخل إبراهيم داره، فبايعه مشايخ أهل أفريقية ووجوهها، وبايعه جماعة بني الأغلب.

وفي سنة ٢٦٢ توفي أبو زيد شجر بن عيسى القاضي بتونس، وكان من خيار القضاة، له مناقب كثيرة، وهو ابن تسع وتسعين سنة. وفيها أسست قلعة مدينة تنس، أسسها البحريون من أهل الأندلس. وفي سنة ٢٦٣ ابتداء إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ببناء مدينة رقادة.

وفي سنة ٢٦٤ كمل بناء القصر المعروف بالفتح، وانتقل إليه إبراهيم بن أحمد. وقتله للوالي بالقصر القيم لأنهم ثاروا عليه. وفيها فتحت سرقوسة يوم الأربعاء لأربعة عشرة ليلة خلت لرمضان، وقتل فيها أكثر من أربعة آلاف عالج، وأصيب فيها من الغنائم ما لم يصل بمدينة من مدائن الشرك ولم ينج من رجالهم أحد. وكان مقام المسلمين بصقلية عليها على أن فتحت تسعة أشهر، وقاموا بعد فتحها شهرين، ثم تهدمت. وفيها، قتل صاحب صقلية جعفر بن محمد. قتله غلمان مع الأغلب بن محمد بن الأغلب، الملقب بخرج الرعونة، وفي عقاب الأغلب بن أحمد، وكانا محبوسين عنده فتولى خرج الرعونة بلرم وضبطها، فوثب أهلها عليه وعلى أبي عقاب ومن أتصل بهما، فأخرجوهم من صقلية إلى أفريقية. وولي الحسن بن رباح صقلية.

وفي سنة ٢٦٥ غزا صاحب صقلية الحسن بن الرياح الصائفة إلى طرمين، ودارت بينه وبين مشركي صقلية حرب قتل فيها من المسلمين، ثم كانت لهم الكرة على المشركين، فهزموهم، وقتلوهم، وقتلوا بطريقتهم.

وفي سنة ٢٦٦ كان القحط العظيم والغلاء المفرط بأفريقية. وفيها أغرى صاحب صقلية الروم، فالتقى في البحر بمراكبهم، وهم في نحو مائة وأربعين مركبا، فدارت بينهم حرب شديدة حتى أسلم المسلمون مراكبهم وأخذها الروم وأنصرف من وكان في تلك المراكب إلى بلرم، فأقاموا بها شهورا يبتئون السرايا ويغنمون أرض الروم المجاورين لهم.

وفي سنة ٢٦٧ ولي عبد الله بن أحمد بن طالب التميمي القضاء صارفا لسليمان بن عمران عنه. وفيها ولي الحسن بن العباس جزيرة صقلية. وفيها

كانت فتنة ولد ابن طولون، حين أراد التغلب على إفريقية. وهأنا أذكر قصته إلى أن هزم. وذلك أن العباس بن أحمد بن طولون ولد صاحب مصر، قدم في هذه السنة في ثمانمائة فارس وعشرة آلاف من سودان أبيه على خمسة آلاف جمل إلى مدينة برقة، في ربيع الآخر يريد إفريقية والتغلب عليها وإخراج بني الأغلب عنها. وحمل مع نفسه من بيت مال مصر ثمانمائة حمل دنائير ذهباً فأعطى أصحابه الأرزاق بها. وقيل أن مبلغ ما حمل من المال ألف ألف دينار ومائتا ألف دينار. ومعه عبد الله أحمد بن محمد الكاتب مكبلا لأنه أظهر الامتناع من الخروج معه، أشار عليه بأن يؤخر التقدم إلى طرابلس حتى يصانع البربر فقال (أخشى أن تقدم العساكر من الشام قبل أحكام هذا الأمر (يعني عساكر أبيه، لأنه كان ثائرا على أبيه) ويكون أيضا في ذلك فسحة لإبراهيم بن أحمد فيتمهل في الاستعداد. ولكنني أمضي على فوري هذا، فأتى لبدة وإطرابلس فجأة، ثم أخذ في استمالة البربر بعد ذلك بالعتاء والأفضال وأبعد من مصر، فلا يقوم لأحمد بن طولون (يعني أباه) أمل في مطالبتي لبدي عنه!) وخرج يريد لبدة فأنصل خبره لإبراهيم بن أحمد فأخرج إليه أحمد بن قهر بن قهر في ألف وستمائة فارس، خيلا مجردة لا رجال فيها وأمره بإعداد السير والسرى بالليل حتى دخل لإطرابلس قبل وصول العباس بن أحمد بن طولون إلى لبدة ثم أحشد ابن قهر من أمكنه من جند إطرابلس وبربرها، ثم بادر إلى لبدة ودخلها وأقبل العباس بن طولون وقد صنع له ببرقة خمسة آلاف بند فجعل له كل جملا رجلا يبنده وزحف بثمانمائة فارس وخمسة آلاف رجل فالتقى به أحمد بن قهر بن قهر على خمسة عشر ميلا من لبدة وقد تأخرت الجمال بالرجالة أصحاب البنود فلم يكن بينهم ألا مناوشة يسيرة حتى أنهزم

أحمد بن قهرّب وهو يرضن أن من ناوشة من أصحاب ابن طولون كانوا مقمّد للجيش. ووصل أحمد بن قهرّب إلى إطرابلس منهزماً وركب العباس بن طولون أثره حتى نزل إطرابلس منصب عليها المجانيق وناصبهم الحرب. وأقام محاصراً لهم ثلاثة وأربعين يوماً فتعدى بعضهم سودانه على بعض حرم البوادي وهتكوا الستر فستغاث أهل إطرابلس بأبي منصور صاحب منقوسة فقام متحسباً وناصر جيرانه من المسلمين وحجف في اثنا عشرة ألفاً من رجال نفوسة إلى العباس بن أحمد بن طولون فناشبو الحرب فقال العباس لأبي عبد الله الكاتب (ما الرأي؟) فقال له (برقة خلفته!) وألح أهل نفوسة في محاربة ابن طولون فأنهزم وخرج إلى برقة بعد انتهاب أهل إطرابلس لجميع عسكره. ول يتلبس النفوسيون منه بشيء بل تورعوا عنه. وكان إبراهيم بن أحمد قد حشد الأجناد وضرب حلّ نسائه دنانير ودراهم إذ لم يبق أبو الغرائق مالا. ثم خرج بنفسه يريد إطرابلس فلقه خبر هزيمة ابن طولون فيبحث ابن الأغلب عن الأموال وأخذ ممن وجت عنده، فكان الرجل من أهل العسكر يبيع مئاقيل ابن طولون سرا بما أمكنه خوفاً من أن تأخذ منه وفي سنة ٢٦٨ كان فتك إبراهيم بن الأغلب بأهل الزاب فقتلهم وقتل أطفالهم وحملوا على العجل إلى الحفر فألقوا فيها وفيها عزل صاحب صقلية الحسين بن عباس ووليا محمد بن الفضل. وفي سنة ٢٦٩ توفي سليمان بن حفص الفراء، وكان جهمياً. وكان يقول بخلق القرآن ودعا الناس إليه فهموا بقتله. وفي سنة ٢٧٠ توفي سليمان بن عمران القاضي مفلوجاً. وتوفي حسين بن زيد بن علي. وتوفي أبو حاتم هشام بن حاتم الفقيه، وكان مجاب الدعوة. وفي سنة ٢٧١، توفي الحسين بن أحمد صاحب صقلية. ووليا سواد بن محمد بن خفاجة التميمي.

٤٠٥٦ ثورة الدراهم على إبراهيم بن أحمد

وفي سنة ٢٧٢ أغزى سودة صاحب صقلية سراياه إلى بلاد الروم فغنمت انصرفت. وفيها كانت وقائع بين المسلمين وبين بطريق جاء من القسطنطينية، يقال له نجفور، في عسكر كبير، فدخل مدينة سبرينة، وخرج منها المسلمون بأمان إلى صقلية. وفي سنة ٢٧٣ وثب أهل بلرم على سودة بن محمد صاحب صقلية وعلى أخيه وبعض رجاله فوجهوهم مفيدين إلى أفريقية. وأجتمع أهل البلد على أبي العباس بن علي، فولوه على أنفسهم. وفي سنة ٢٧٤ كان وصول أحمد بن عمر بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب المعروف بجبشي. وفيها توفي أحمد بن حدير بإفريقيا، وله سماع من سخون. وفي سنة ٢٧٥ كان لأهل صقلية على المشركين صولة، فقتل فيها من المشركين أكثر من سبعة آلاف وغرق نحو من خمسة آلاف، حتى أخلى الروم كثير من المدن والحصون التي تجاور المسلمون. ووصلت سرايا المسلمين إلى الأرض الكبيرة فسبت وانصرفت. وكانت بإفريقيا هيجة تعرف بثورة الدراهم.

ثورة الدراهم على إبراهيم بن أحمد

وذلك أن إبراهيم بن أحمد ضرب الدراهم الصالح، وقطع ما كان يتعامل به من القطع. فأنكرت ذلك العمة وغلقت الحوانيت، وتألفوا، وصاروا إلى رقادة، وصاحوا على إبراهيم، فحبسهم في الجامع. وتصل ذلك بأهل القيروان فخرجوا إلى الباب وأظهروا المدافع. فوجه إليهم إبراهيم بن أحمد وزيره أبا عبد الله بن أبي إسحاق فرموه بالحجارة وسبوه. فانصرف إلى السلطان إبراهيم بن أحمد، فأعلمه بذلك. فركب إبراهيم إلى القيروان، ومعه حاجبه نصر بن

الصمصامة في جماعة من الجند، فناصبه أهل القيروان القتال. فتقدم إبراهيم بن أحمد إلى المصلى، فنزل وجلس وكف أصحابه عن قتاله. فلما اطمأن به مجلسه، وهداً الناس، خرج إليه الفقيه الزاهد أبو جعفر أحمد بن مغيث، فإن بينهما كلام كثير. ودخل أبو عبد الله بن أبي إسحاق الوزير مدينة القيروان مع أحمد بن مغيث فشق صماطها وسكن أهلها. فرجع إبراهيم بن أحمد إلى رقاده، وأطلق المحبوسين بالجامع. وانقطعت النقود والقطع من أفريقيا إلى اليوم، وضرب إبراهيم بن أحمد ديناراً ودرهماً وسماها العاشرية، في كل دينار منها عشرة دراهم.

وفيها، عزل عبد الله بن أحمد بن طالب بن سفيان عن قضاء أفريقيا وحبسها، ثم أرسل إليه بطعام مسموم وأكله في الحبس، فمات من فوره في رجب، واستقضى إبراهيم بن أحمد محمد بن عبدون بن أبي ثور، وكان جده طحانا، وكان يكتب اسمه: محمد بن عبد الله الرعيني.

وفي سنة ٢٧٦ كان الجهاد بصقلية في غزوة سودة بن محمد إلى طرمين، فحاصرها. وفيها حبس إبراهيم بن أحمد كاتبه محمد بن حيون المعروف بابن البريدي فكتب إليه من السجن (بسيط) :

هبنی أسأت فأین العفو والكرم

إذ قادی نحوك الإذعان والندم

یا خیر من مدت الأیدی إليه أما

ترثی لصب نهاء عبدك القلم

بالغت في السخط فأصفح صفحا مقتدرا

أن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

قال: فلها قرا إبراهيم بن أحمد أبياته، قال: (يكتب إلي: (هبنی أسأت!) وهو قد أساء! أما إنه لو قال (وافر) :

ونحن الكاتبون وقد أسأنا... فهبنا للكرم الكاتبينا

لعفوت عنك!) ثم أمر - قبحه الله - به، فجعل في تابوت حتى مات - رحمه الله تعالى! - ٢٧٧ قتل إبراهيم بن أحمد حاجبه نصر بن الصمصامة بان ضربه خمسمائة صوت، فلم ينطق بكلمة ولا تحرك من موضعه ثم أمر بضرب عنقه. فقال لنن حوله (لا تظنوا أنني أجزع من الموت!) ووددهم إنه يفتح يده ويغلقها ثلاث مرات بعد ضرب عنقه ففعل، فأخبر إبراهيم بذلك فتعجب وأمر بشق بطنه شقا لطيفا ويؤتي إليه بقلبه. فنظر منه إلى منظر عجيب وذلك أمه كان فأتى في كبده ووجت فيه شعيرات نابت في أكثر أجزائه.

وفي سنة ٢٧٨ كانت ولاية أبي العباس أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب للظالم، وولاية محمد بن الفضل صقلية، وعرض ديوان الخراج على سودة النصراني على أن يسلم، فقال: (ما كنت لأدع ديني على رياسة أناها!) فقطع بنصفين وصلب.

وفي سنة ٢٧٩ كانت ولاية محمد بن الفضل صقلية. ودخل حضرة بلرم لليلتين خلتا من صفر.

وفيها، قتل إبراهيم بن أحمد من أهل أفريقية من قتل بطرا وشهوة فممن قتل في هذه السنة: إسحاق بن عمران المتطبب المعروف بسم ساعة؛ قتله وصلبه، ومنهم حلجه فتح، ضربه بالسياط حتى مات. وقتل فيها جميع فتياته؛ وسبب ذلك إنه كان كثير الإصغاء إلى قول المنجمين والكهنة، وكانوا قالوا له إنه يقتله رجل ناقص العقل، وأنه يمكن أن يكون فتى، فكان إبراهيم، إذا

رأى أحد من فتياته، فيه حركة ونشاط وجدة، يتقلد سيفاً، قال: (هذا هو صاحبي!) فلما قتل منهم جماعة، وقع بقلبه إنه قد استفسد إليهم فضمه الحذر منهم إلى قتل جميعهم، فقتلهم في هذا العام، واستخدم عوضا عنهم السودان. ثم عرض لهم منه ما عرض للفتيان الصقالبة: فقتل السودان أجمعين.

وفي سنة ٢٨٠ كان الإيقاع برجال بلزمه، وقصتهم ان إبراهيم بن أحمد ابن الأغلب كان قد حاربهم وأستقدم منهم إلى مدينة رقادة نحو من سبعمائة رجل من ابطالهم، فأنزلهم ووسع عليهم، وبني لهم دارا كبيرة تشمل على دور ترجع إلى باب واحد، وأسكنهم فيها. فلما سكنوا واطمأنوا، جمع ثقات رجاله لأخذ أرزاقهم؛ ثم أمرهم بمصابحة ابنه عبد الله لما أمره به. فلما اجتمعوا إليه ركب إلى دار البلزميين في الجند، فقتلهم عن آخرهم، بعد أن دافعوا عن أنفسهم إلى وقت العصر. وكان ذلك من أسباب انقطاع دولة بني الأغلب، إذ كان أهل بلرمة في نحو ألف رجل من أبناء العرب والجند الداخلين إلى أفريقية عند افتتاحها وبعده، وكان أكثرهم من قيس، وكانوا يذلون كرامة. فلما قتلهم إبراهيم، استطالت كرامة، ووجدت السبيل للقيام مع الشيعي على بن الأغلب.

وفيها، كان تمنع البلاد ومخالفتها على السلطان إبراهيم بن أحمد، وانتزاء من انتزى عليه. وذلك أن أهل تونس والجزيرة والأربس وباجة وقودة خالفوا عليه وقدموا على أنفسهم رجالا من الجند وغيرهم، لأن السلطان إبراهيم بن الأغلب أخذ عبيدهم وخيلهم، وجار عليهم،

فصارت أفريقية على نار موقدة، ولم يبق يده من أعمال إلا الساحل والشرق إلى طرابلس. فحفر حفيرا حوالي رقادة، ونصب عليها أبواب حديد، وجمع إلى نفسه ثقاته، وقرب السودان من قصره، وقد كان جمع منهم خمسة آلاف أسود ز وفيها، وكانت وقائع انجلت عن فتح تونس عنده، قودة تحركوا لقتال إبراهيم بن الأغلب؛ فأخرج إليهم ميمونا الحبشي. فقاتلهم حتى

٤٠٥٧ ابتداء الدولة العبيدية الشيعية

انهزموا، وقتل جماعة منهم، ثم فعل ذلك أهل تونس، فهزمهم ميمون أيضا، وهزم أهل الجزيرة وصطفورة، وقتل منهم كثيرا، حتى سيق القتلى في العجل إلى القيروان. ثم دخلت تونس بالسيف، لعشر بقين من ذي الحجة، فهبت الأموال وسبيت الذرية، واستحلت الفروج. ومما كان بأفريقية في هذا العام، دخول أبي عبد الله، داعية الشيعة أفريقية، ونزوله بكامة منها. فلنذكر الآن مبتدأ أمرا مختصرا، إلى أن استقل بالملك. ثم نرجع ما كنا بصددده.

ابتداء الدولة العبيدية الشيعية

قال الوراق: لم تزل الشيعة منذ مات على ابن أبي طالب - رضي الله عنه - تدعو إلى إمام معصوم، يقوم بالحق، على زعمهم؛ فترسل دعاة إلى سائر النواحي، فلا ينجح لهم سعي. ثم تفاوضوا وتراسلوا على أن يرسلوا داعيا إلى المغرب، يدعو الناس إلى التدين بحب الله البيت، وتكاتبوا من سائر الأفاق. فاخترأوا منهم رجلا ذا فهم، وفصاحة وجدال، ومعرفة، يسمى أبا عبد الله الصنعاني، وجمعوا له مالا يتقوى به على سفره. فسار أبو عبد الله هذا إلى موسم الحج ليجتمع به مع من يحج تلك السنة من أهل المغرب، ويدوق أخلاقهم، ويطلع على مذاهبهم، ويتحيل على بيل الملك بضعيف الحيل. فسبحان مقدرة المقدورة، ومحكم الأمور كيف يشاء لا إله إلا هو فلما وصل للموسم، لا للحج لأن الحج ليس من مذهبهم الفاسد، بل تكلف حضوره ليتسبب في مراده، فرأى في الموسم قوما من أهل المغرب، فلصق بهم وخالطهم. وكانوا نحو عشرة رجال من قبيلة كامة، ملتفين على شيخ منهم. فسألهم عن بلادهم، فأخبروه بصفتها، وسألهم عن مذهبهم، فصدقوه عنه. فتكلم أبو عبد الله الداعي في المذاهب؛ فوجد الشيخ يميل في مذهبه إلى مذهب الأباضية النكارة، فدخل

عليه من هذه الثملة ولم يزل يستدرجهم ويخلبهم بما أوتي من فضل اللسان والعلم بالجدل إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه. فلما حان رجوعهم إلى بلادهم سألوه عن أمره وشأنه فقال لهم (أنا رجل من أهل العراق وكنت أخدم السلطان ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البر فتركها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال فلما أرلذلك وجهها ألا تعليم القرآن للصبيان، فسألت أين يأتي ذلك تأتيا حسنا، فذكر لي بلاد مصر). (ونحن سائرون إلى مصر وهي طريقنا. فكن في صحبتنا إليها!) ورغبوا منه في ذلك فصحبهم في الطريق. فكان يحدثهم ويميل بهم إلى مذهبه ويلقي إليهم الشيء بعد الشيء إلى أن أشربت قلوبهم محبته فرغبوا منه أن يسر إلى بلادهم ليعلم صبيانهم. فاعتذر لهم بعد الشقة وقال: (أن وجت بمصر حاجتي أقت بها وألا فربما أصحبكم إلى القيروان). فلما وصلوا مصر غاب عنهم كأنه يطلب بغيته. ثم أجمع بهم وسألوه فقال لهم: (لم أجد في هذه البلاد ما أريد). فرغبوه أن يصحبهم فأنعم لهم بذلك. فكانوا في صحبتته حتى وصلوا إلى القيروان فرادوه على أن يصل معهم إلى البلاد وضمنوا لهم ما أراد من تعليم الصبيان فقال لهم (لا بد لي المقام بالقيروان حتى أطلب فيها حاجتي. فلما اتفق لي فيها غرضي وإلا نهضت إليكم). وكان شيخهم أحرصهم عليه وأكرمهم له، فوصف له منزله وموضعه من قبيلة كامة، فأقام بالقيروان يتعرف أخبار القبائل حتى صح عنده أن ليس في قبائل أفريقية أكثر عددا ولا أشد شوكة ولا أصعب مراما على السلطان، من كامة.

فلما تقرر ذلك عده، نهض نحو صاحبه الشيخ الكامي، فاشتري بغلة شهباء ودخل الطريق مع الفقة حتى قرب من موضع الشيخ صاحبه، فعدل إليه، ومر في الطريق بأندر، والبقرفيه تدرس الزرع ورجل كهل من أهل كامة جالس فيه مع ابنه، فقرب منهما، وسلم عليهما. فقاما إليه ورحبا به، ورغبا منه في النزول

عندهما، فأجابهما إلى ذلك، فأنزله وأكرموه. فقال الداعي للرجل: (ما اسم ولدك هذا؟) قال: ما اسمك أنت؟ قال: معارك. فقال

في نفسه: تم أمرنا أن شاء الله، لكن بعد معارك. ثم أراد الداعي الانصراف، فصرفوه مع امرأة تتدله على الطريق، لأن الحرب كانت بينهم وبين بني عمهم. فسار حتى نزل في منزل من منازل كرامة. فأتى المسجد، وفيه معلم يعلم الصبيان. فقام إليه المعلم وسلم عليه، وهو راكب على بغلته الشهباء فجعل المعلم يطيل النظر إليه، فاستراب لذلك أبو عبد الله، ونزل عن الدابة ودخل المسجد. ثم دعا المعلم فقال له: لقد رأيتك تنظر إلي كثيرا وإلى البغلة. فقال له: ذلك لسبب أنا أقوله لك. وذلك إنه كان فيهما تقدم رجل من كرامة كاهن، يقال له فيلق، وكان إذ رأى تفاتهم يقول لهم: إنما ترون الحرب إذا جاءكم الرجل الشرقي صاحب البغلة الشهباء. فلما رأيتك، تذكرت قوله. فلما قر ذلك في سمعه استبشر. وكان ذلك والذي قبله من الفال تقوية له على أمره، وزيادة إقدام، لولا هو لم يقدر أن يتجاسر على شيء منه. فسبحان مسبب الأسباب.

فسار عبد الله الداعي حتى وافى منزل الشيخ صاحبه الكامي، فقصده إلى المسجد ونزل به، وفيه معلم يعلم الصبيان وعنده أبناء الشيخ صاحبه فلما حان وقت الظهر أذن المعلم فسمع الشيخ الأذان فخرج إلى المسجد، فرأى عبد الله فسلم عليه، وعانقه فلما أراد المعلم الدخول للمحارب، أخره عنه الشيخ وقدم عبد الله لداعي، فلما انقضت الصلاة قم معه إلى منزله وبالغ في إكرامه، وتحدث معه إلى أن حانت صلاة العصر، فخرج معه لصلاة. فاستراب معلم الصبيان بذلك فترك ذلك المسجد والتعليم فيه وانصرف. وصار عبد الله في ذلك المسجد يصلي ويعلم الصبيان. واجتهد

في تعليم الأولاد فجمعوا له أربعين ديناراً، وزاد عليها الشيخ وأتى بها إلى أبي عبد الله، فدفعها له، واعتذر له من ذلك. فتركها أبو عبد الله أمامه ورد يده إلى كيس كان معه، وصب منه خمسمائة دينار أمام الشيخ وقال له: لست بمعلم الصبيان إنما الأمر ما أخبرك به فاسمع إنما نحن أنصار أهل البيت وقد جاءت الرواية فيكم يا أهل كرامة! إنكم أنصارنا، والمقيمون لدولتنا، وإن الله يظهر بكم دينه، ويعز بكم أهل البيت! وإنه سيكون غمام منهم أنتم أنصاره والباذلون مهجهم دونه، وإن الله يستفتح بكم الدنيا كلها ويكون لكم أجرهم مضاعفاً. فيجتمع لكم خير الدنيا والآخرة! فقال له: الشيخ: أنا أرغب فيما رغبتني فيه وأبذل فيه مهجتي ومالي ومن اتبعني وأنا أطوع إليك من يدك: فربما شئت أمثله! فقال له: ادع لخاصة من بني عمك الأقرب فالأقرب. فقال: نعم. فنظر الشيخ فيما قاله، وبث دعوته في أقاربه ومن يختص به.

وجاء شهر رمضان. فقال أبو عبد الله للشيخ: إن رمضان قد جاء ومذهبنا أن لا تصلي التراويح لأنها ليست من سنة النبي - صلى الله عليه وسلم - وإنما سنّها عمر ونحن نطوّل القراءة في صلاة العشاء الأخيرة، ونقرأ بالسور الطوال، فيكون ذلك عوضاً عن التراويح. فقال له الشيخ: أنا طائع لك فافعل ما تريده. وبلغ خبر هذه الصلاة ولمع من أخبار هذا لداعي إلى بعض من اتصل بمنزل الشيخ وبأخيه. فسار أخو الشيخ إليه وقال له: ما لك ولهذا المشرقي الذي أفسد دينك. وغير مذهبك؟ فلما فرغ من كلامه قال له الشيخ: أنا أدعوك للأمر الذي دخلت فيه، فأما أن تتقلد ما تقلدته وأما أن لا تلقاني بدم من قد بلوت خيره وفضله ودينه! فانصرف عنه أخوه مغضباً. وانفرد الشيخ مع سائر الجماعة، فوصف لهم أبا عبد الله بكل فضيلة حتى تمكنت محبته في قلوبهم، ثم أخرجه إليهم وقال له: كلهم يا أبا عبد

الله فكلمهم بلسانه وقال لهم: أنتم أنصار أهل البيت وشيعته! حتى خلب عقولهم بحلاوة لفظه. فلم يبرحوا حتى دخلوا في دعوته. ثم أن أخا الشيخ توجه إليه، يفخر عليه بمعلم أولاده، ويدعي إنه أعلم من أبي عبد الله ويطلب مناظرتهم. فتواعدوا لذلك. ولنا حان الموعد جاء أخو الشيخ وأبنائه، وبلغ أخاه مجيئه، فأتى بجماعة من بني عمه ممن دخل في مذهبه وقال لهم: إذا نحن اجتمعنا، اضربوا أنتم على قيطون أخي كأنكم أعدائه! وأمر جماعة أخرى، فكمن له في طريقه. فبينما أخو الشيخ مع معلمه وأولاده، إذ صرخت صارخة من نحو قيطونة، فأسرع يركض إلى ناحيته، فخرج عليه الكمين، فخطوه بأسياهم، وتركوه عقيراً. وبلغ الشيخ خبر قتل أخيه، فبادر كأنه لا علم عنده من ذلك، وجاء بنو عمه يعزونه في أخيه، فذبحت البقر، وصنع طعاماً لبني عمه ونعى لهم أخاه، واحتال على قوم من بني عمه وأخذ عليهم العهود والمواثيق بطاعة الداعي فاجتمع له منهم خلق كثير.

وأقام هذا الشيخ في حرب مع قومه وبني عمه مدة من سبعة أعوام، إلى أن وافاه أجله. فلما حضرته الوفاة، جمع بني عمه وقرابته، وقال لهم: أوصيكم بهذا الرجل ألا تختلفوا عليه! وأوصى عبد الله على أولاده، وقضى نحبه. فالتزمت كرامة الطاعة لأبي عبد الله ودخلت قبائل كثيرة في دعوته. فصير لهم ديوانا، وألزمهم العسكرية، وقال لهم: أن لا أدعوكم لنفسي، وإنما أدعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت، الذي صفته كذا وكذا. ووصف لهم من كراماته ما تنكره العقول. فكانت تصح عندهم، ويقول لهم: هو صاحب هذا الأمر، وأنا منصرف من بين يديه إذا ظهر! يعني عبيد الله. ولم يكن رآه قط، وإنما يسمع من شيوخ الشيعة، وكان يعتقد ذلك اعتقادا صحيحا لا مرية فيه، إلى أن صفا له أمر البربر، فنازل الحواضر وهزم ملك أفريقية وانتزعها من يديه.

وفي سنة ٢٨١، أمر إبراهيم بن الأغلب صاحب أفريقية ميمونا الحبشي أن يسير إلى تونس، فيقتل بها جماعة من بني تميم وغيرهم، فقتلوا وصلبوا على بابها. فوجد أكبر أهل تونس مع ميمون الحبشي، فكسا السلطان ميمونا الخنز والوشى والديباج، وطوقه بالذهب، وحماه على فرس، وصرفه إلى تونس من غده. وفيها خرج السلطان إبراهيم بن الأغلب إلى تونس، لثمان خلون من رجب، فاستوطنها. وفي سنة ٢٨٢، انعقد الصلح بين أهل صقلية والروم لأربعين شهرا على إخراج ألف أسير من المسلمين، وعلى أن تكون عندهم رهائن الإسلام في كل ثلاثة أشهر من العرب وثلاثة من البربر وفيها قدم إبراهيم بن الأغلب بنيه على بلاد أفريقية.

وفي سنة ٢٨٣، رجع إبراهيم بن أحمد من تونس إلى رقادة. وخرج أبو منصور أحمد بن إبراهيم إلى طرابلس. وخرج أبو بحر بن أدهم إلى مصر. وفيها كانت وقعة نفوسة، وذلك إن إبراهيم بن أحمد اعترضته نفوسة بين قابس وطرابلس ومنعته الجواز، وكانوا في زهاء عشرين ألف رجل لا فارس معهم فناصرهم الحرب وقتلهم قتالا شديدا حتى هزمهم وقتلوا أكثرهم. ثم تهادى إلى مدينة طرابلس، فقتلوا بها أبو العباس محمد بن زيادة الله بن الأغلب وكان أديبا ظريفا، له تواليف، وسبب قتله أن المعتضد بالله العباسي كتب إلى إبراهيم بن أحمد يعنفه على جوره وسوء فعله بأهل تونس ويقول له: إن انتهيت عن أخلاقك هذه، وإلا فسلم العمل الذي بيدك لابن عمك محمد بن زيادة الله! ثم نهض من طرابلس إلى تاورغا: فقتل بها خمسة عشر رجلا، وأمر بطبخ رؤوسهم مظهرا إنه يريد أكلها، هو ومن معه من

٤٠٥٨ قصة ابن الأغلب مع الشيخ الصالح أبي الأحوص

رجاله فارتاع أهل العسكر منه، وقالوا: (قد خولط) فانفض الناس عنه فلنا رأى ذلك، خشي أن يبقى وحده. فرجع إلى تونس فجعل عقوبة من انفض عنه غرم ثلاثين دينارا، فسمي غرم الهاربين.

وفي سنة ٢٨٤، كانت وقعة بنفوسة لأبي العباس بن إبراهيم فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم نحو ثلاثمائة. فلما وصل بهم إلى والده إبراهيم بن أحمد دعا بهم. فقرب إليه الشيخ منهم، فقال له إبراهيم: أعرف علي بن أبي طالب؟ فقال له: لعنك الله يا إبراهيم على ظلمك وقتلك! فذبح إبراهيم وشق عن قلبه، وأخرجه بيده، وأمر أن يفعل ببقية الأسرى كذلك، حتى أتى على آخرهم. ونظمت قلوبهم في حبال، ونصبت على باب تونس.

قصة ابن الأغلب مع الشيخ الصالح أبي الأحوص

وذلك إن أبا الأحوص أحمد بن عبد الله المكفوف المتعبد، من أهل سوسة كان زاهدا ورعا. فلما أكثر إبراهيم بن أحمد الجور والقتل، دعا برجل من لأهل سوسة، وأملى عليه رسالة إلى إبراهيم، كان في فصل منها: يا فاسق! يا جائر! يا خائن! قد حدث عن شرائع الإسلام! وعن قريب تعين مقعدك من جهنم، وسترد فتعلم! وبعث به إليه فلما قرأه، غضب وبعث إلى أبي الأحوص من قال له: عذرناك لفضلك ودينك! ولكن ابعث إلي الذي كتب الكتاب. وبالله لئن لم تفعل، لأقتلن فيه من أهل سوسة كذا وكذا، ويكون إثم ذلك في عنقك! فقال أبو الأحوص للرسول: قال له لئن قتلت ألفا لا يكون إثمهم إلا عليك! ولو عملت ما عملت ما أعلمتك بالرجل. فنب إلى خالك، وأرجع عن جورك! فأمسكه الله عنه، ومات أبو الأحوص في هذه السنة.

وفي سنة ٢٧٥، كانت فتنة بصقلية، بين عربها وبربرها، وفي خلال ذلك، وردت كتب ابن الأغلب يدعوهم إلى الرجوع للطاعة، ويؤمنهم أجمعين، حاشى أبا الحسن بن يزيد وولديه الحضرمي، فتقبض عليه وبعث بهم إلى لأبن الأغلب فأما أبو الحسن فإنه تناول سمات من ساعته وصلبت جثته وقتل ولداه. وجعل إبراهيم من يضاحك الحضرمي ويهازله، فقال له: ليس هذا وقت هزل! وأمر به فقتل بالمقارع بين يديه.

وفي سنة ٢٨٦، سخط إبراهيم ابن الأغلب على جماعة من فتيانه وقتلهم. وفيها كانت وقعة أبي العباس بن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وبين بني بلطيط ببسكرة، ففرق مجموعهم وقتل عددا كثيرا منهم وأصلح ما كان التاث هناك.

وفي سنة ٢٨٧، كانت بصقلية ملحمة كبيرة، وذلك إن أبا العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد أخرجه أبوه بالأسطول مصلحا لها، فأسرع إلى بلرم يؤمن أهلها. فأتاه قاضيا في جماعة من أهلها، فحسبهم عند نفسه وصرف القاضي. ثم وجه إليهم ثمانية مشايخ من أهل أفريقية، فحسبهم مكافأة أفعله في مشايخهم. ثم زحفوا إليه وحاربوه فانهمزوا وقتل منهم عدد كثير ودقت لهم سفن. وتمادت هزيمتهم إلى بلرم. ثم زحف إليهم، فحاربهم على باب بلرم، وقتل منهم عددا كثيرا، وطلبوه بالأمان فأمنهم. ودخلها لعشر بقين من رمضان من السنة.

وفي سنة ٢٨٨، أخرج إبراهيم بن أحمد ولده أبا عبد الله في جيش كثير إلى الزاب. وفيه أغرى أبو العباس صاحب صقلية، فدخل مدينة رية عنوة وغنم فيها غنائم كثيرة واستأمنت له حصون وأعطوه الجزية.

وفي سنة ٢٨٩، أظهر صاحب أفريقية إبراهيم بن أحمد التوبة لنا استقام أمر أبي عبد الله الداعي بكامة. فأراد إبراهيم بن أحمد أن يرضي العامة ويستميل قلوب الخاصة بفعله، فرد المظالم وأسقط القبالات، وأخذ العُشْر طعاما، ونزك لأهل الضياع خراج السنة، وسماها سنة العدل،

٤٠٥٩ أخبار إبراهيم بن أحمد على الجلمة ووفاته

وأعنت ممالكه، وأعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالا عظيمة ليفرقوها على الضعفاء والمساكين فاستوكلت وأعطيت من لا يستحقها وأنفقت في اللذات. وصرفت في الشهوات. وقدم ولده أبو العباس من صقلية مستدعي فأسلم إليه أبوه الملك، فولي أبو العباس على الكور من أحب.

أخبار إبراهيم بن أحمد على الجلمة ووفاته

كان مولده يوم الأضحى سنة ٢٦١، وتوفي يوم الاثنين لثلاث عشر ليلة بقيت من ذي القعدة من هذه السنة المؤرخة بأرض الروم وسبق ميتا إلى جزيرة صقلية، فدفن بها بعد ثلاثة وأربعين يوما من موته. وكان عمره اثنين وخمسين سنة ومدة ولايته ثمانية وعشرين سنة وستة أشهر واثنتي عشرة يوما. وأقام في أول ولايته سبعة أعوام على ما كان أسلافه من حسن السيرة وحميد الأفعال، ثم تغيرت أحواله، وأخذ في جمع الأموال. ثم صار في كل سنة يزداد تغيرا وسوء حال. ثم اشتد نكاده، فأخذ في قتل أصحابه وحجابه حتى إنه قتل ابنه المكنى بأبي الأغلب، وقتل بناته وأتى بأمور لم يأت بها أحد غيره. وكان كثير الملل، شديد الحسد. وكانت له في بدء أمره سيرة حسنة، وأفعال محمودة، ثم غلب عليه خلط سوداوي، فتغير وساءت أخلاقه كما ذكرنا. فقليل إنه افتقد منديلا صغيرا كان يسمح به فقه، وكان سقط من يد بعض جواريه فأصابه خادم له، فقتل بسبه ثلاثمائة خادم. وكان سبب قتله لولده ظن منه به، فضربت رقبته بين يديه صبرا. وقتل أخرته ثمانية: ضربت أعناقهم بين يديه. وكانت أمه إذا ولدت له ابنة أخفتها وربتها، لئلا يقتلها حتى اجتمع عندها منهن ست عشرة جارية، كأنهن البدور، فقالت له

٤٠٦٠ ولاية أبي العباس بن إبراهيم بن أحمد وسيرته

يوما وقد رأت منه رقة: يا سيدي قد ربيت لك وصائف ملاحا، وأحب أن تراهن. قال: نعم. فلما رآهن قالت له: هذه بنتك من فلانة وهذه بنتك من فلانة. حتى عدتهن. فلما خرج من عند أمه قال لخادم له أسود: امض إليهن وجئني برؤوسهن. فوقف اسيتعضا ما لذلك. فقال له: أمض وإلا قدمتك قبلهن! فلما دخل على أمه، كبر ذلك عليها، وعظم في قلبها وقالت له: راجعه! فقال لها: لا سبيل إلى ذلك! فقتلتهن وأخذ برؤوسهن، وجاء بها إليه معلقة بشعورهن، فطرحها بين يديه - قبحه الله - وأدخل كثيرا من فتياه الحمام وأغلق عليهم باب البيت السخن، فماتوا فيه جميعا. وأخباره كثيرة في هذا المعنى، ذكرها الرقيق وغيره.

وفي سنة ٢٨٩ المذكورة استرجع أبو العباس بن إبراهيم بن أحمد المال الذي أخرجه أبوه إلى الفقهاء ووجوه الناس ليفرقوه في المساكين، فرجع معظمه وقال لمشايخ أفريقية: اغتنمتم الفرصة في المال لمرض الأمير أبي ومغيب عنه! وفيها شخص أبو عبد الله الأحول بن أبي العباس إلى مدينة طنبه إلى محاربة الشيعة. وفيها تساقطت النجوم ثمان بقين من ذي القعدة، فسميت السنة سنة النجوم، فلهذه السنة ثلاث أسماء سنة العدل وسنة الجور، (سماها العامة بذلك) وسنة النجوم وفي سنة ٢٩٠، كتب أبو العباس بن إبراهيم إلى العمال ليأخذوا له البيعة لأن أباه فوض إليه وتخلي له عن الملك واشتغل بالعبادة، وذلك قبل أن يبلغه وفاة أبيه.

ولاية أبي العباس بن إبراهيم بن أحمد وسيرته

وذلك إنه أظهر التقشف، والجلوس على الأرض، وإنصاف المظلوم وجالس أهل العلم وشاورهم. وكان لا يركب إلا إلى الجامع فقال قوم: إن

٤٠٦١ مقتل أبي العباس بن إبراهيم بن أحمد

٤٠٦٢ ولاية زيادة الله بن أبي العباس

٤٠٦٣ عبد الله ابن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب

أهل النجوم أمره بذلك! وقال قوم: به وسوسة! وكتب إلى ابنه زيادة الله يستحثه في القدوم عليه من صقلية لأنه وشي به إليه إنه يريد الانتزاء عليه. فقدم زيادة الله على أبيه لعشر بقين من جمادى الأخيرة، فقبض أبو العباس ما كان معه من الأموال والعدة، وحبس زيادة الله في بيت داخل داره وحبس ناسا من أصحابه.

مقتل أبي العباس بن إبراهيم بن أحمد

قتل يوم الأربعاء، ليوم بقي من شعبان فكانت ولايته بعد أبيه تسعة أشهر وأحد عشر يوما، ومن يوم أفضى إليه أبوه الأمر سنة واثنان وخمسون يوما. وكان قتله على ما أصفه: وذلك إنه خرج من الحمام إلى دار خالية واستلقى على سرير الخيزران، ووضع تحت رأسه سيفاً ونام بعد أن خرج كل من كان في الدار غير فتيين كان يثق بهما فلما نام تأمرا على قتله وقالوا: (هذه فرصة في تقديم اليد عند زيادة الله! فنطلقه من أسره ونستريح من أبيه ويولي مكانه ونفوز بالخطوة عنده). فأستل السيف الذي كان تحت رأسه وضربه ضربة فقطع عنقه ولحيته حتى نفذ إلى السرير. ومضى الفت الأخر إلى ناحية من الدار فارتقى الحائط ونفذ إلى زيادة الله وأعلمه لأن أباه قتل فظن أنها مكيدة عليه فقال له (أن كنت صادقا فأريني الرأس فانطلق مسرعا ورمي إليه بالرأس فعند ذلك صدقه.

ولاية زيادة الله بن أبي العباس

عبد الله ابن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب

وذلك أن زيادة الله لما صح عنده قتل أبيه ورأى الرأس بين يديه

كسر قيوده وبادر خوفاً أن يشعر بالأمر أحد من أعمامه فيسبقه. فلما صار زيادة الله في الدار أرسل في عبد الله بن الصائغ وفي أبي مسلم منصور بن إسماعيل، (وهما من كان سجن معه تهمة)، وفي عبد الله بن أبي طالب.

فلما دخلوا عليه قال لهم: (انظروا لي ولأنفسكم!) فقالوا له: (أرسل في أعمامك في لسان أبيك، وفي جودة الرجال والقواد). فأرسل فيهم ودفع إليهم الصلات، وأخذ عليهم البيعة وأمر أن ينادي بتونس: (من كان هاهنا من الجند فليوافوا باب الأمير!) فركعوا بأسلحتهم فأمر بإدخالهم واحداً واحداً: يدخل الرجال فيبايع ويعطي خمسين مثقالاً ففعل ذلك بالجودة.

أو كتب ذلك كتاب بيعته، فقرأ بتونس على منبر جامعها. وأخذت له البيعة على العامة بها. وكتب إلى العمال (بالبلاد) بأن يأخذوا له البيعة على من قبلهم. فلما قرب العشاء، نودي في الجند (اصبحوا للأخذ عطاياكم) ومطل عمومته بالانصراف (عنه) إلى الليل ثم أجمعهم أجمعين وأدخلهم في شينى، ووكل بهم ثقافته، وأمرهم أن يمضوا بهم إلى جزيرة الكراث، وهي على اثني عشر ميلاً من مدينة تونس، فضربت هناك رقابهم ليلة السبت ثلاث خلون لرمضان. وأصبح الجند والموالي من غد ذلك اليوم لأخذ الصلات. فلما مضى صدر من النهار قيل لهم: انصرفوا فإنه يوم شغل! ثم أتوا من الغد فدفعوا. فلم يزالوا يترددون إلى أن بردت قلوبهم وملوا الاختلاف. ولما كمل الأمر لزيادة الله دعا بالفتيين الذين قتلوا أباه. فأمر بهما فقطعت أيديهما وأرجلهما وصلبا على باب القيروان وباب الجزيرة من أبواب تونس. وقتل أيضاً زيادة الله عمه أبا الأغلب الزاهد الساكن يسوسه وقتل أخاه أبا عبد الله الأحول بعد أن استقدمه من طينة. وولى زيادة الله الوزارة والبريد عبد الله بن الصائغ، وولى أبا مسلم منصور بن إسماعيل ديوان الخراج! وولى قضاء القيروان حماس بن مروان ابن سمالك الحمداني، وكان ورعاً عالماً بمذهب مالك وأصحابه، فعدل في أحكامه، ولم يكن يهيب أحداً في ولايته (ونظره). وفيها مات محمد بن محمد بن الفرّج البغدادي مولى بني هاشم، وكانت له عناية وطلب، ومات محمد بن ابن المنهال، وكانت له رئاسة بأفريقية. وفيها قتل بن الفياض إذ اتهمه زيادة الله بأنه أشار على أبيه يؤذبه وحبسه. وفيها مات محمد بن سليمان وكان ثقة الحديث والرواية وسمع أبوه من سفيان بن عيينة).

وفي هذه السنة، أسست مدينة وهران، على يدي محمد بن أبي عون بن عبدون وجماعة من الأندلسيين. (وفيها مات علي بن الهيثم المحدث، وإبراهيم بن عثمان القرشي التونسي وكانا من أهل الرواية والعلم). وفي سنة ٢٩١ ولى محمد بن زيادة الله العهد، وأخذت البيعة له بذلك. (وفيها قتل هذيل النفطي، صاحب ديوان الخراج، وقتل ابن المنبت الملقب بالعجل، وفيها توفي محمد بن زرزور الفقيه الفارسي وكان على مذهب أبي حنيفة، وكان حافظاً لليبيا، ونظر في النجوم والحساب، وخولط في عقله، فكان إذا قيل له: (يا زواغي) يهيج وينشط) وولى علي بن أبي الفوارس

(التميمي) عمالة القيروان ثم عزل عنها، ووليا أحمد بن مسرور. وولى إبراهيم بن حبشي التميمي قتال أبي عبد الله الشيعي. وفيها مات أبو جعفر أحمد بن داود الصواف، مولى ربيعة، وكان فاضلاً من رجال سخنون وكان في حدائمه يقول الشعر ثم تركه. وفيها خرج الحسن بن حاتم إلى العراق رسولا من عند زيادة الله بهاديا وطرف. وولى الحسن بن أبي العيش بن إدريس بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن (أبن الحسن) بن علي بن أبي طالب (رضه) عمل جراوة لوفاة أبيه أبي العيش. ورفع زيادة الله فقهاء إفريقية إلى مدينة تونس مستظفرا بهم على أبي عبد الله الشيعي فاجتمعوا عند عبد الله بن الصائغ صاحب البريد، وتفاوضا في أمره وقال لهم ابن الصائغ (أن الأمير يقول لكم هذا الصنعاني الخارج علينا مع كُمامه يعلن أب بكر وعمر رضنهما ويزعم أن أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ارتدوا ويسمى أصحابه: المؤمنين ومن يخالفه في مذهبه: الكافرين ويبيح دم من خالف رأيه) فأظهر الفقهاء لعنه والبراءة منه، وحرصوا الناس على قتله وأفوتهم بمجاهدته. (وأرس زيادة الله هدية للعابس فيها عشرة آلاف مقال في كل مثقال منها عشرة مثاقيل وكتب في كل مثقال هذين البيتين (كامل):

يا سائراً نحو الخليفة قل له ... أن قد كفلك الله أمرك كله

بزيادة الله بن عبد الله سي ... ف الله من دون الخليفة سله

وفي سنة ٢٣٩ قد أبو مسلم بن إسماعيل بن يونس لإصلاح

مدينة رقادة ورقع ما وهي فيها وإنشاء مربكا على ماجل القيروان وسمى الزلاج. وقدم زيادة الله في تونس في شهر ربيع الآخر فنزل على الماجل الكبير بالقيروان. وفيها ضرب الخلال طوف بمدينة القيروان مخسبا على بغل بأكاف. وفيها، ظهر النجم ذو الذوابة في الجدي بجه الشمال، بقرب بنات نعش وذلك في رجب. وبقية كانت وقعة على عسكر السلطان وذلك أن أبي عبد الله (الداعي)، لما علم بخروج العسكر إليه وكثرة من معه من وجوه الرجال وأجناد العرب والموالي، وما معه من العدة وآلات الحرب، وأرتاع لذلك، وأخذ في حشد كرامة وكان حشده بغير ديوان إنما كان يكتب إلى رؤساء القبائل، فيحشدوا من يليهم، طاعة له ورغبة فيه. وكان لا يزيدهم في كتابه إليهم على أن يقول: (أن الوعد يوم كذا في موضع كذا) ويصرخ صاروخ بين يديه: (حرام على من تخلف) فلا يتخلف عنه أحد من كرامة، فأجتمع منهم ما لا يحصى كثرة. وتأهب لملاقاة إبراهيم بن حبشي، فالتقى مع إبراهيم بن حبشي أمير العسكر بكنينة فكانت بينهما ملحمة عظيمة تطاعنوا فيها بالرمح حتى تحطمت وتجادلوا بالسيوف حتى تقطعت، من أول النهار إلى آخره ثم انهزم إبراهيم ووقع القتل على أصحابه فذهب كثير منهم ونجى باقيهم في ظلمة الليل واشتغلت عنهم كرامة بالغنيمة والأموال والسلاح والسروج والجم وضروب الأمتعة. وهي أول غنيمة أصابها الشيعي وأصحابه، فلبسوا أثواب الحرير، وتقلدوا السيوف الموحلات، وركبوا بسروج الفضة والجم الملهبة، وكثر عندهم السلاح، فشرفت أنفسهم، وتحققت آمالهم، وصح عندهم ما كان الشيعي يعدهم به من النصر، ويسط له الآمال فيه من التأيد لهم والنصر والغلبة لعدوهم. ووقع الوهي على أهل إفريقية، وداخلهم الوهن والجزع

وكتب أبو عبد الله الداعي إلى عبيد الله الشيعي، وهو يومئذ بسجلماسة يعلموا بالفتح ووجه إليه بمال كثير مع قومه من أهل كرامة سرا. وذكر رجل من بني هاشم بن عبد المطلب يسمى بأحمد بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن علي بن زيد بن ركانة بن عبدون بن هاشم، كان مع عبيد الله بسجلماسة قال: (وصلني عبيد الله بمال كثير من دنائير لا توجد في ذلك البلد، فكثرت تعجبي منها. فلما رأى مني ذلك، وعلم مني ما أوجه ثقتي به واستنابته إلي. قرأ على كتاب أبي عبد الله بالفتحة، وأمرني بكتمان الخبر، وألا أبدل حالي الأولى، ولا أغير حيلتي وملبسي، وقال لي: (عن علينا عيوننا ورقابة؛ فلا يطلعوا منا على تبدل الحال، واستفادة مال) وفيها، مات أبو سهل فرات بن محمد العبدي الفقيه، سمع من سخون، وعبد الله بن بي حسان، وموسى بن معاوية، وغيرهم بأفريقية، ورحل إلى المشرق فسمع كمن رؤساء أصحاب مالك وله لسان طويل ومعرفة بالأنساب، وكان أعلم الناس بالنأي وأوقع الناس في الناس حتى نسب إلى الكذب. وفيها، ولد محمد بن يوسف الوراق بالقيروان.

وفي سنة ٢٩٣، أخرج زيادة الله بن عبد الله بن الأغلب جيشا إلى الأربس لمحاربة أبي عبد الله الشيعي وولى عليهم مدج بن زكرياء، وأحمد بن مسرور الخلال، نخالفا عليه يوم الاثنين لعشر خلون من جمادى الأخيرة، ووافيا بالعسكر مدينة القيروان يوم الخميس لثلث عشرة ليلة خلت من جمادى الأخيرة، فخرج لهم الغوغاء من القيروان ودافعوهما. وكجا بمبلج فرسه، فقتل من ساعته وقل مع ابن بربر، وصلب على باب رقادة وقد كان زيادة

الله برز لقتال مدج، حتى أتاها الخبر بقتل العامة له، فكتب بذلك فتحا قرى بالقيروان وأعمالها. وكان سبب خلافه على زيادة الله إنه حكم عليه في منية له كما تعرف بالجليلية، وسجل عليه فيها القاضي حماس بن مروان فأضغن ذلك، وجعل سببا إلى الخلاف عليه.

وفيها، ورد كتاب المكتفي بالله، يحث أهل أفريقيا على نصره زيادة الله، ومحاربة الشيعي. وقرأ كتابه على الناس. وفيها، كسفت الشمس كلها، وصلى القاضي حماسة بن مروان بالناس صلاة الكسوف في الجامع. وفيها خرج زيادة الله بن عبد الله إلى مدينة الأربس فنزل بغريها، واجتمعت إليه عساكر كثير، وأعطى بها الأموال جزافا بالمصحاف كيلا بلا وزن، لكل رجل صحيفة توضع له في كسائه دنائير ويحمل على فرس، ثم يخرج الرجل، فلا يرى بعدها. فأنفق فيها أموال جسيمة وبذل مجهوده في الإحسان إلى الرجال. والشيعي مع ذلك ازداد ظهورا. ووجه عساكر إلى بدعاية، وشك مدين طبنة وشخها بالرجال وقد عليها حاجبه أبا المقارع حسن بن أحمد بن نافذ مع سيب بن أبي شداد القمودي وخفاجة العيسي، وكانوا من أهل البسالة، وأمرهم بشن الغارات على كرامة، فكان

بينهم وقائع قتل فيها كثير من الفريقين.

وفيها، ولي قضاء مدينة رقادة محمد بن عبد الله المعروف بابن جيمال، وكان مولى لبني أمية، ولم يكن عنده علم ولا ورع وإنما عنيت به عبد الله بن الصائغ، وكانت فيه غفلة شديدة وضعف وقيل إنه باع نفسه في حادثته تين أيام الشدة، ثم أثبت بعد ذلك حريته، وأنطلق. وشهدت عنده بينه بأن امرأة وكلت ولدها، فقال لهم: (وكلته وهي بالغة؟) قالوا له (وهو أبناها! أصلحك الله! فكيف لا تكون بالغاً!) وضحكوا عليه، فأستحي.

وفيها، قدم أبو يعقوب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي المتطبب على زيادة الله من المشرق مع أبي الحسن بن حارث فوصل إليه وهو بالاربس. قال إسحاق: (فدخلت على زيادة الله ساعة وصولي، ورأيت مجلسه قليل الوقار، كثير اللهو. فابتدأني بالكلام ابن حبيش المعروف باليوناني، فقال لي: (تقول أن الملوحة تحلو؟) فقلت له: (نعم) قال (وتقول أن الحلاوة تحلو؟) قلت له: (نعم) فقال لي: (فلحلاوة هي الملوحة والملوحة هي الحلاوة!) فقلت له: (أن الحلاوة تحلو بلطافة وملائمة، والملوحة تحلو بعنف وقوة) فتمادى على المكابرة في ذلك، حتى قلت له (تقول أنك حي والكلب حي؟) قال (نعم) قلت له (فأنت الكلب والكلب أنت) فضحك زيادة الله ضحكا شديدا قال: (فعلت أن رغبتك في الهزل أكثر من رغبتك في الجد) .

وفي هذه السنة تغلب أبو عبد الله الداعي على مدينة بالرمة وعلى مدينة طبنة، ودخلهما بالأمان في آخر ذي الحجة وبها أبو المقارع حسن بن أحمد وإلى زيادة الله وعامله عليهما مع صاحبيه المذكورين قبل هذا. وكان بهما جباة على ضروب المغارم، فأتوه بما في أيديهم من الجباية، فقال لأحدهم (من أين جمعتم هذا المال؟) فقالوا له (من العشر) فقال عبد الله: (إنما العشر حبوب وهذا عين) ثم قال لقوم من ثقة طبنة: (أذهبوا بهذا المال فليرد على كل رجل ما أخذ منه، وأعلموا الناس أنهم إمناء على ما يخرج الله لمن أرضهم، وسنة العشر معروفة في أخذه وتفرقة وعلى ما ينصه كتاب الله عز وجل) ثم قال لآخر (من أين هذا المال الذي بين يديك؟) قال: (جبيته من اليهود والنصارى جزية عن حول مضى لهم.) فقال (وكيف أخذته عينا، وإنما كان يأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الملاء ثمانية وأربعين درهما، ومن المتوسط أربعة وعشرين درهما ومن الفقير اثني عشر درهما!) فقال له: (أخذت العين عن الدراهم بالصرف الذي كان يأخذه عمر) فقال أبو عبد الله: (هذا مال طيب) ثم أمر أحد الدعاة بأن

يفرقه على أصحابه وقال لمن أتاه بمال الخرج: (هذا ما لا خير فيه ولا قابلة ولا خراج على المسلمين في أموالهم!) ثم أمر ثقة أهل طبنة برده على أهله وقبض مال الصدقة من الإبل والبقر والغنم، بعد أن قيل له أنها قبضت الأنعام على الإنسان الواجبة في الصدقات، ثم بيعت وجمعت أثمانها. فرضي بذلك وجوز. فلما نظر أهل طبنة إلى فعله، سروا به وجوا أن يستعمل فيهم الكتاب والسنة. وانتشر فعله في جميع نواحي إفريقية فتأقت أنفسهم إليه، وكاتبوه ودخلوا في طاعته وبلغ ذلك زيادة الله فأغتم به غما شديدا (وأخذ في حشد الرجال والاستكثار منهم) وأمر بلعنة الشيعي على المنابر.

(وفيها قدم زيادة الله بن الطنبلي من بغداد وفيها توفي أبو جعفر محمد بن الحسين المروزي بجزيرة صقلية وكان فقيها وأتهم بالكذب وتوفي فيها محمد بن المنيب الأزدي الفقيه، وكان مذهبه مذهب أهل العراق وكان من أهل الخير، وعرض عليه القضاء فلم يقبله. مات محمد بن نصر المتعبد وكانت له رواية، ومحمد بن أبي الحميد السوسي، وزيدان بن إسماعيل الأزدي وكانا في الثقات في العلم) .

وفي سنة ٢٩٤، (خرج إبراهيم بن حبشي بن عمر من الأندلس بالعسكر لملاقاة أبي عبد الله الشيعي بمدينة طبنة في النصف من الحرم. وفيها عزل عبد الله ابن محمد بن مفرج المعروف بابن الشاعر عن قضاء قسطنطينية، ورفع إلى زيادة الله وهو بالاربس، مخشبا، فأمر بضربه وقيده وحبس بحبس الأربس، وذلك أن وجود قسطنطينية رفعوا عليه إلى زيادة الله، تظلموا منه، وكتب إلى عامله بعزله وتخشيبه ورفعاه إلى بابه فقدم الكتاب والعامل غائب، وتبادر بعض القوم الذين رفعوا عليه إلى مجلس القضاء الذي كان فيه فسبوه وهما بالبسط إليه فأمر غلمانهم بأخذهم وضربهم وقيدهم وحبسهم، ثم قدم القدم العامل

وقد نفذ فيهم كلما أحب، فأوثقه حديدا، وخشبه، ووجه إلى زيادة الله فضربه بالدرّة وحبسه، وذلك للنصف من محرم.

وفيها، أنصرف زيادة الله من الأربس إلى رقادة، واستخلف على الجيش بالأربس إبراهيم بن أحمد بن أبي عقال. وبني زيادة الله سور مدينة رقادة بالطوب والطواي، والتزم التنزه على البحر وغيره، واتباع اللذات، ومنادمة العيارين والشطار والزمامرة والضراطين. وكان إذا فكر في زوال ملكه وغلبت عدوه على أكثر مواضع عمله، يقول لندمائه (املاً أسقني! من القرن يكفيني!) وأشدت كلفه بسلام له يسمى بخطاب فكتب اسمه في سكة الدنانير والدرهم، ثم وجد عليه فخبسه وقيده، فغنت له جارية تستعطف على الخطاب (بسيط) :

يا أيها الملك الميمون طائرہ ... رفقا فأن يد المعشوق فوق يدك
كم ذا التجلد والأحشاء خافقة ... أعيد كفك أن تسطو على كبك

فرض عن الخطاب وأعادته إلى منزلته. وكان إذا أظهر الغم بأمره الشيعي أخذوا له في التسلي فغنت جارية له يوم (كامل) :

أصبر لدهر نال م ... نك فهكذا مضت الدهور

فرح وحزن مرة ... ولا الحزن دام ولا السرور

فقال لها (صدقتني!) وأمر لها بصلة.

وفيها، استعفى حماس بن مروان عن القضاء بالقيروان، فعوفي، وولي زيادة الله مكانه محمد بن جيمال، فلم يزل قاضيا إلى أن هرب زيادة الله. وفيه، دخل أبو عبد الله الشيعي مدينة بغاية بالأمان، في شعبا، فعظم غم زيادة الله بذلك، وأستشار ابن الصائغ في أمره، فقال له (ارحل إلى مصر سرا وأستخلف على إفريقية قائدا تجعل إليه أمر العساكر، وتترك له الأموال) فنظر في ذلك، وأمر بشراء خمسمائة جمل لرحيله. ثم ظهر له خطأ هذا الرأي، وخشي قيام الناس عليه وثورتهم به، فأمسك. وشعر إبراهيم بن حبشي

ابن عمر بما كان هم زيادة الله من الحرب فتعرض له حتى أدخله قصر البحر وأراه ما زخر فيه له فيه وقال: (يا سيدي! أين البنية من قصر جدك القديم الذي صبر فيه على الحصار أعوام كثيرة وقد أبغضه جل أهل بلده! وقام عليه رؤساء جنده، فبقى مقيما فيه وضابطا له، حتى أظهره الله عليهم، ومكنه منهم! فكيف بك وقد كثر مالك وأحبك رجالك؟ وأهل إفريقية معك! وإنما خرج عليك شيخ لا يعرف مكانه في البربر وأنت في حصن منيع! والله يدفع عنك! فدفع ما يقال لك! فإنك الظافر بحول الله وقوته، إن شاء الله) فأصغى زيادة الله غالى قوله، وسر بما سمع منه وجعل يرسل الرجال والأموال إلى الأربس وهو أقصى ثغوره. فكانت خيل أبي عبد الله الشيعي تغير على الأربس من باغاية من الأربس. وفيها قدم حبشي وابن حجر وابن عباس من بلد الروم ومعهم رسول صاحب القسطنطينية. وكساهم زيادة الله وأنزل الرسول في الملعب بقرب رقادة وجمع الناس للمباهاة بهم فكان جمعا عظيما. وفيها ضرب القباب والأخبية حوالي مدينة رقادة وأخذ أهل مدينة القيروان بالعسس حولها والمبيت في الأخبية المضروبة جوارها. وجدد زيادة الله الحشد ورغب الناس بالأموال وفيها توفي محمد بن أبي الهيثم اللؤلؤي الفقيه، ولي قهرب الحجارة في شعبان.

وفي سنة ٢٩٥، خرج زيادة الله إلى مدينة تونس في شهر محرم (ليحاول أموره فيها). (وفيها استسقى القاضي أبو العباس بن جيمال بالناس يوم الاثنين لست خلون من شهر ربيع الآخر. وفيها عزل ابن الوليد عن الصلاة وولى

مكانه ابن يزيد للنصف من شهر ربيع الآخر. وفيها توفي أبو الحسن بن حاتم الرسول إلى بغداد، في شوال. وفيها توفي أبو موسى عيسى بن مسكين القاضي فصلى عليه أبو جعفر أحمد بن خالد السهمي في قريته بالساحل. و (فيها) توفي (أبو عياش) أحمد بن موسى بن مخلد (الفقيه وكان يحمي إلى غافق، وكان من أصحاب سخنون بن سعيد)، وكان زاهدا ورعا متعبدا فاضلا (وعالما بما فيه كتبه، كثير الحكاية، سمع منه بشر كثير من أهل القيروان، ودفع بباب سلم. وفيها، مات سعيد بن إسحاق الفقيه، مولى كلب وكان من رجال سخنون بن سعيد، وسمع من جماعة من إفريقية وكان كثير الرباط والرواية والجمع للحديث، وكان مولده سنة ٢١٢).

وفقي سنة ٢٩٦، وصل خليل (أبي عبد الله الشيعي) (الداعي) إلى قسطنطينية، وانهمز أبو مسلم منصور بن إسماعيل، (وشبيب بن أبي الصارم، وانقبضا) إلى مدينة توزر، وانبسطت الخيل (هنالك واحترقت القرى) وأفسدت ما مرت به من النعم. وكان أبو عبد الله قبل ذلك قد أمر أصحابه بالكف عن الغارات وألا يرموا مكانه، فأقاموا نحو شهرين لم تظهر له حركة، حتى قيل فيه أنه مريض وقيل: بل مات. ولما وصل الخبر بانبساط جيوش أبي عبد الله إلى زيادة الله هالة وراعه، وارتجت الحضارة واضطربت أحوال الجند ويئسوا

من البلد وخافوا على ذرارهم وأهاليهم السبي والاسترقاق: وجعل عبد الله بن الصائغ يقول لزيادة الله (هذا ما تضيع الشيخ السوء أبي مسلم ومن سوء نظره!) وكان ابن الصائغ كاتباً لأبي مسلم في أيام إبراهيم بن أحمد، ففسدت الحال بينهما، ولم يزل يرفع على أبي مسلم يومئذ حتى عزل. ثم لما دارت هذه الدائرة بقسطنطينية، نسب ذلك ابن الصائغ إليه وأوقد زيادة الله عليه وأغراه به حتى كتب إلى شبيب بن أبي الصارم يأمره بضرب عنق أبي مسلم وصلبه يوماً وليلة ثم يدفنه. وبعث إليه من ثقاته من يحضر تنفيذ ذلك فيه فلما وصل الكتاب إلى شبيب اغتم ولم يجد

٤٠٦٤ ذكر خروج بن الأغلب من أفريقية

بلداً من التنفيذ فدفع الكتاب إلى أبي مسلم وهو مع يومئذ بتوزر وقال له: (عز على ما وردني فيك!) فلما قرأه أبو مسلم قال (أنا الله وأنا إليه راجعون! خدع الصبي الأحمق وذهب ملكه) ثم قبض بيده اليسرى على لحيته وصفع باليمنى قفا نفسه صفعات، وقال: (هذا جزاء من عصي الله وأطاع الآدميين، وسفك الدماء المحرمة! أما الله! ولو تركته ولم أشر عليه بقل عمومته وأخوته وشغلهم بهم ما دار على من قبله ما دار!) ثم قال لشبيب (أهلني أتوضاً وأصلي ركعتين أختم بهما عملي!) ففعل وصلى ودعا وبكى ثم قدم، فضربت عنقه وصلب ودفن في اليوم الثاني وذلك في النصف من صفر. وفيها توفي أبو العباس بن أبي خدش صاحب المظالم أيام ابن عبدون. وفيها مات أبو عقاب بن خير الفقيه، وكان يذهب مذهب أهل العراق، وكتب لابن عبدون أيامه على القضاء. ذكر خروج بن الأغلب من أفريقية

وفيها، زحف أبو عبد الله الشيعي إلى الأربس ونازلها، وبها إبراهيم بن أبي الأغلب في عساكر أفريقية وجمهور أجنادها، فقاتلها حتى أخذها عنوة ودخلها بالسيف لست بقين من جمادى الأخيرة. فهرب إبراهيم بن أبي الأغلب وإليها، ونجا في جماعة من القواد والجند. ولجأ أهل الأربس ومن كان اجتمع فيها من فلال العسكر جامعها. وركب بعض الناس بعضاً وقتلهم الشيعي (لعنه الله) أجمعين حتى كانت الدماء تسيل من أبواب المسجد كما يسيل الماء من وابل الغيث. وقيل إنه قتل داخل المسجد

٤٠٦٥ هروب زيادة الله من رقادة

ثلاثين ألف رجل. وكان قتلهم من بعد الصلاة العصر إلى آخر الليل. فلما أصبح، وقد فرغ من القتل والنهي والسبي، نادى بالرحيل، وانصرف إلى مدينة باغاية، إذ خشي أن يحاشد عليه من أهل أفريقية. هروب زيادة الله من رقادة

واتصل الخبر بزيادة الله في اليوم الثاني، وهو يوم الأحد لخميس بقين من جمادى الأخيرة، فسقط ما بيده، وعلم إنه خارج عن ملكه. وجعل ابن الصائغ يطفئ الخبر ويكذبه له، ويظهر أن الفتح كان لهم على الشيعي. وبرح على أبواب مدينة رقادة: (من أراد اللحاق وجزيل العطاء، للفارس عشرون ديناراً وللراجل عشرة دنانير، فليلق بقصره الأمير!) فلما سمع الناس ذلك بدر إليهم سوء الظن، وعلموا أن الدائرة كانت على أصحاب زيادة الله، وماجوا فيما بينهم. وجعلت الخاصة وأهل الخدمة يفرون من رقادة. فلما رأى ذلك زيادة الله، أخذ في شد الحمال بما خف من الجوهر والمال، وحرك خاصته للخروج معه. فلما كان وقت صلاة العتمة من ليلة الاثنين لأربع بقين من جمادى الأخير، ركب فرسه، وتقلد سيفه، وقدم الحمال فر من بين يديه، هارباً أعلى عيون أهله وحرمة وولده. فأخذت جارية من جواريه عوداً ووضعت على صدرها، وغنته على حمله معه، فقالت (منسرح):

لم أنسن من الوداع موقفها ... وجفنها من دموعها غرق
قولها، والركاب سائرة: ... (تركنا سيدي وتنطلق
أستودع الله ظبية جزعت ... للبين والبين فيه لي حرق)

فدمعت عينا زيادة الله عند سماعها، وشغله سوء الموقف وضيق الحال عن حملها معه. وخرج عن مدينة رقادة متوجها إلى مصر في ثلث الليل الأول.

ومعه وجوه رجاله وفتياناه وعبيده، (وأخذ طريق الجادة) حتى لحق بمدينة إطرابلس. وكان عبد بن الصائغ يتقلد جميع أوامره (وينظر على أهل خدمته) فوطأ خزان الأموال على انقطاع ثلاثين حملا من المال، في كل حمل ستة عشر ألف مثقال؛ فواعدهم موضعا يجتمع فيه معهم؛ فأخطئوه في الليل، وخرجوا إلى مدينة سوسة؛ فقبض عليهم ابن الهمداني عاملها، وخزنها في قصر الرباط بسوسة، حتى صارت إلى الشيعة. وأصبح الناس من ليلة خروج زيادة الله هاربا إلى مدينة رقادة، فأنتهبوها وأخذوا من بقايا أموال بني الأغلب ومتاعهم وصنوف الآتية من الذهب والفضة وما لا يحيط به وصف. ورجع القوي يأخذ من الضعيف ما سبق إليه. والهارب أبو مضر زيادة الله بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الأغلب، المعروف بخزر ابن إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمي. وكانت ولايته بأفريقية خمس سنين وأحد عشر شهرا وأربعة أيام. وكانت إمارة بني الأغلب بأفريقية مائة سنة، وإحدى عشرة سنة ن وثلاثة أشهر.

ثم أن إبراهيم بن الأغلب، المنهزم من الأربس، أقبل إلى القيروان فيمن بقي معه من القواد. قفنز بدار الإمارة. وبعث في وجوه الناس، وجعل يظهر عندهم عتب زيادة الله، ويأخذ في انتقاصه، وأنه أسند أمر المسلمين إلى من كان يسعى في زوال ملكه. وقال للناس: (أن كرامة مفسدون في الأرض ناصحون لله ولهذا الدين، وأمدوني بالرجال والأموال) وحضر صلاة الظهر؛ فسلم على رأس الإمارة؛ ثم أجمع إليه الناس وقالوا له: (بلدنا لا يعرف الفتن، ونحن لا نقوم بالحرب؛ وأنت لم تستطع دفع كرامة بالعساكر والسلاح والمال! فكيف نقوى نحن على دفعهم بأموال؟) ثم صاح الناس به: (لا طاعة لك علينا، ولا بيعه في أعناقنا! فأخرج عنا!) فركب فرسه، وشهر سيفه ودف الفرس، ونجا هاربا حتى خرج من باب أبي ربيعة، ولحق بزيادة الله.

٥ ذكر دولة الشيعة

وركب عبد الله بن الصائغ في البحر يريد المشرق؛ فألقاه البحر بمدينة طرابلس، وبها زيادة الله. فأقى إليه به؛ فقربه وأدناه، وعاتبه في فراقه عنه؛ فأعذر إليه ابن الصائغ بما اخذ من الخيرة والخوف؛ فهم زيادة الله باستيحائه؛ فأشار إليه كل من معه من أهله وقواده بقتله؛ فأمر راشدا الأسود بضرب عقه؛ فقتله. وكان يحكي علي بن إسحاق بن عمران المتطبب إن عبد الله بن الصائغ كان، إذا رأى راشدا الأسود قبل ذلك، أربد وجهه؛ وإذا ذكر له تنكر سروره، حتى يعرف ذلك كل من حضره. قال: فسأله يوما عن ذلك؛ فقال لي: (تحدثني نفسي أن ملك الموت يقدم علي في صورة راشد الأسود، عبد قبضه لروحي؛ فإذا رأيته، لم املك من البصر شيئا)

ذكر دولة الشيعة

وبلغ أبا عبد الله الشيعي هروب زيادة الله. فتحرك من الأربس يريد القيروان. فهاه الناس أمره، وخافوه على أنفسهم. وخرج إليه الفقهاء ووجوه الناس؛ فقطع بهم محبوب بن عبد ربه الهواري بوضع يعرف بحفص باروقس، بين مدينة جلولاء وحمام السراق؛ وذلك يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأخير؛ فانصرفوا أقبح انصراف، وكتبوا إلى عبد الله، يذكرون ما دار عليهم، ويعتذرون بذلك إليه، ويسألونه أن يحد لهم موضعا يلتقونه، فأجابهم: (موعدكم ساقية ممس يوم السبت). وبعث أبو هبدي الله غروية بن يوسف الملوحي بقطيع من الخيل لضبط مدينة رقادة، وتحصين ما أدرك بها من الأموال؛ فنزل عليها يوم الجمعة لانسلاخ جمادى الأخير؛ فألقى الناس بين داخل وخارج؛ فأمر الخارج ألا يعود، والداخل بالخروج فارغا. ولم يكن منه إلى الناس إلا خير. وفيها أقبل إلى مدينة رقادة في سبعة عساكر، وعدد من

فيها، على ما ذكر ثلاثمائة ألف بين فارس وراجل. فوصل إليهم يوم السبت غرة رجب؛ ففرج إليه أهل القيروان من الفقهاء والوجوه وجلة التجار؛ فالتقوا به على ساقية ممس، وأظهروا له الرغبة في دولته، وسألوه الأمان، فأمنه، (وصوب فعلهم)، ووعدهم بالإحسان

والعدل فيهم، وكان قد وعد قبل ذلك قواد كثامة ورجالها بأن يوكلمهم القيروان ويسلط أيديهم فيها ويقطعهم جميع أموال أهلها. فلما سمعوا بأمنته للقوم، ساءهم ذلك وكلوه فيه وذكره ما كان وعدهم به. فتلا عليهم: وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها) وقال لهم: (هي القيروان) فقلوا قوله وسلخوا لأمره ثم تقدم بإنزال عساكره حوالي مدينة رقادة فدخلها وقارئ يقرأ بين يديه: " هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر " (إلى آخر) الآية ويقرأ: " كم تركوا من جنات وعيون " إلى آخر السورة. ونزل بالقصر المعروف بقصر الصحن وبعث غرويه بن يوسف إلى مدينة سوسة فأمن أهلها وأتاه بالثمانية والعشرين الحمل من المال التي كانت مخزونة بقصر الرباط المتقدم ذكرها وأمن من ألقى بالقيروان من بني الأغلب وقوادها الذين تخلفوا عن زيادة الله، وأمر بقتل السودان من موالي بني الأغلب وقتل إبراهيم بن بربر بن يعقوب التميمي المعروف بالقوس، فقتل خنقا إذ كانوا هموا بالوثوب عليه. وقال أبو عبد الله: (ما أمنت بأفريقية حتى قتلت القوس!) وبعث أبو عبد الله الشيعي إلى طرابلس، فأتى منها بأخيه أبو العباس المخطوم، وكان بها محبوسا، وبأبي جعفر الخزري، وبأمن عبيد الله الشيعي، وكانت هنالك مع الخزري، فقدموا عليه. وكان أبو العباس المخطوم عجولا، كثير الكلام، ضعيف العقل فأراد أن ينفي من القيروان

كل من يذهب من الفقهاء. مذهب أهل المدينة، فلم يجبه أخوه أبو عبد الله إلى ذلك. وولي أبو عبد الله الشيعي على مدينة القيروان الحسن بن أحمد بن علي بن كليب المعروف بابن أبي خنزير، وأمره بقتل من خرج ليلا أو شرب مسكرا، أو حمله أو وجد عنده. وولي على مدينة القصر القديم خلف بن أحمد بن علي بن كليب، أخاه ابن أبي خنزير، وأمره بمثل ذلك. وأمره بأن تزداد في الأذان بعد (حي على الصلاة) (حي على خير العمل)، وأسقط من أذان الفجر (الصلاة خير من النوم) وأمره بجمع ما انتهب من الأموال بمدينة رقادة، وضم عبيد زيادة الله ووقف جواريه وولي النظر في ذلك أحمد بن فروخ الطبين الأحذب. وولى على السكة أبي بكر الفيلسوف المعروف بابن القمودي، ونقش فيها: " الحمد لله رب العالمين " وسميت السعيدية. وكان نقش خاتم أبي عبد الله: " فتوكل على الله أنك على الحق المبين " وفي الخاتم الذي يطبع به السجلات: " وتمت كلامات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم " ووشم في أنف الخيل: (الملك لله) وكتب في بنوده: " سيهزم الجمع ويولون الدبر " و" قل جاء الحق وزهق الباطل أن الباطل كان زهوقا " وآيات كثير من القرآن في هذا المعنى. وأمر الصلاة على علي بن أبي طالب في الخطب بأثر الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى فاطمة، والحسن والحسين وأظهر التشيع في علي ومادة من قدم عليه من أصحاب النبي - عليه السلام -.

وفيها، ولي أبو عبد الله على قضاء مدينة القيروان محمد بن عمر ابن يحيى بن عبد الأعلى المروزي من جند خراسان، يوم الخميس لأثنتا عشرة ليلة بقيت من شعبان، فقع في الجامع وأمر بإسقاط صلاة الإشفاع في شهر رمضان وأجبح في ذلك على الفقهاء، وأنكر عليهم الاقتداء بفعل

٥٠١ ذكر توجه الداعي إلى سبيلهم

٥٠٢ واجتماعه بعبيد الله الشيعي بها

عمر بن الخطاب في القيام، وتركهم الاقتداء بفعل علي بن أبي طالب في زيادة (حي على خير العمل) في الأذان، وقال لهم: (أعملوا بمذهب أهل البيت واركوا الفضول) . فلما كان في أول يوم من شهر رمضان، أقبل المروزي إلى المسجد الجامع، فوجد في حائط المسجد في القبلة، وفي موضع جلوسه، مكتوبا: " ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها " إلى آخر الآية. فلما رآه، سأل القوم هل رأوا من جلس في ذلك الموضع فقالوا: (لا) فأمر بمحوه، وانتقل عن الجلوس بذلك الموضع. ووقف يوم على المروزي رجل محقق خلع، والناس حوله، فقال له: (قد لطفنا لنا - أصلح الله - في قطع قيام شهر رمضان فلو احتلت لنا في ترك صيامه، لكفيتنا مؤنته كلها) فقال له المروزي: (أذهب عني يا ملعون) وأمر بدفعه. وأمر عبد الله الشيعي وجوه كثامة بدعوة الناس

إلى مذهبهم من التفضيل لآل علي البراءة فدخل في ذلك معهم كثير من الناس فلذلك سميت دعوته، لأتباعهم رجالا من (أهل) المشرق.

ذكر توجه الداعي إلى سجلمانة

واجتماعه بعبيد الله الشيعي بها

ونظر أبو عبد الله في إقامة الجيوش والاستعداد والغزو إلى سجلمانة. وكان بها عبيد الله الشيعي وابنه أبو القاسم محبوسين. وكان أبو عبد الله الداعي يدعو إلى عبيد الله الشيعي ويزعم إنه إمام من آل علي. قلها كل له ما أراد من جوشه وجهازه وعدده وآلات وسفره، أستخلف على إفريقية أخاه أبا العباس وأبا زكي تمام بن معارك الأجنبي. ثم خرج من رقادة يوم الخميس من للنصف شهر رمضان في جموع كالدبي المنتشر ومعه وجه رجاله وأهل دعوته وفيهم إبراهيم بن محمد الشيباني المعروف بأبي

اليسر الكاتب وزيد بن خلفون المتطبب مولى بن الأغلب. وغزا معه أحمد بن سيرين، الفقيه بمذهب أهل العراق، راجلا يرى إنه محتسب للثواب في طلب الإمام وبهذا السبب ولي قضاء مدين برقة بعد ذلك. فسار أبو عبد الله حتى حل بمدينة تهرت، نخلها بالأمان وقتل بها من الرستمية يقظان بن أبي يقظان، وجماعة من أهل بيته. وبعث برؤوسهم إلى أخيه أبي العباس وأبي زكي خليفته برقادة، وطوفت بالقيروان، ونصبت على باب مدينة رقادة. وانقضت دولة بني رستم بتهرت، وكان لها مائة وثلاثون سنة.

ثم ولي أبو عبد الله على تهرت أبا حميد دواس بن صولات الهيصي، وإبراهيم بن محمد اليماني بالهوارى وكان يلقب السيد الصغير. ثم نهضة حتى احتل على مدينة سجلمانة يوم السبت لست خلون من ذي الحجة. فأحاط بها في جموعه وجيوشه، وحاربها يوم الأحد لسبع خلون منه، ففتحها في هذا اليوم، وأخرج منها عبيد الله الشيعي وابنه أبو القاسم، وكانا محبوسين في غرفة عند مريم بنت مدرار. فلما بصر به عبد الله الشيعي ترجل له، وخضع بين يديه، وبكى من إفراط سروره به. ثم مشى أمامه راجلا حتى أنزله في الفازة، وسلم إليه الأمر، وقال لمن معه: (هذا هو مولاي ومولاكم! قد أنجز الله له وعده، وأعطاه حقه، وأظهر أمره!) وانتهب أبو عبد الله الشيعي ورجاله سجلمانة، وأحرقت. وهرب منها اليسع صاحبها في جماعة من بني عمه ليلا، فطلبه أبو عبد الله الشيعي، فلم يقدر عليه.

وفيها، مات إبراهيم بن عيسى بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب، ودفن في داره بآرشقول. وفيها، ومات أبو عبد الرحمن بكر بن حمادة بن سهر بن أبي إسماعيل، وهو زناتي، في شوال بقلعة ابن حمة، بجوفي مدينة تهرت، وبها كان مولده ومنشأه، وصلى عليه

موسى بن الفارس الفقيه، وهو يوم مات ابن ست وتسعين سنة، ورحل بكر إلى المشرق في سنة ٢١٧، وهو حدث السن، فسمع من الفقهاء وجلة العلماء وكان عالما بالحديث وتميز الرجال، وشاعر مفلحا ومدح المعتمم ووصله بصلات جزيلة، أجمع بحبيب وصرع ودعبل وعلي بن الجهم وغيرهم من شعراء العراق وله أبيات إلى المعتمم يحرض فيها على دعبل وهي (طويل):

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه ... ويمشي على الأرض العريضة دعبل؟

أما والذي أرسى ثبرا مكانه! ... لقد كانت الدنيا لذاك تزلزل

ولكن أمير المؤمنين بفضله ... بهم يغفو أو يقول فيفعل

فعاتبه حبيب فيه وقال له: (قتلته، والله! يا بكر) فقال في قصيدته هذه طويلة

وعاتبني فيه حبيب وقال لي: ... (لسانك محذور وسمك يقتل)

وأني، وأن صرفت في الشعر منطقي ... لأنصف فيما قلت فيه وأعدل

وفيها مات محمد بن الحسن المعروف بابن ورصيد من قسطنطينية، وكانت له رحلة وسماع من الفقهاء، ومات محمد بن يزيد الفارسي من أهل القيروان له سماع من سخون ومن ابنه محمد.

وفي سنة ٢٩٧، غدر قوم من البربر يعرفون بني خالد باليسع بن مدرار واستأمنوا به إلى أبي عبد الله الشيعي فأمنهم، وذلك في مستهل المحرم. وفيها، ولي عبيد الله على مدينة سجلمانة إبراهيم بن غالب المزاتي وترك معه خمسمائة فارس من كنانة، ورحل بالعساكر إلى

أفريقية. وفيها قتل بالقيروان، في صفر، إبراهيم بن محمد الضبي المعروف بابن البرذون وأبو بكر بن هذيل الفقيهان، وكانت عندهما رواية، وأدب، وتصرف في فنون منة العلم وكان محمد الكلاعي وأصحابه على مذهب أهل العراق وهو الجائز عند الشيعة لما عنده من الترخيص فسعوا بها إلى أبي العباس المخطوم وذكروا عندهما أنهما يطعنان في الدولة، ويشوبان على علي ابن أبي طالب بأبي بكر وعمر وعثمان، فحبسهما المخطوم ثم أمر ابن أبي خنيزر بقتلهما بعد أن يضرب إبراهيم بن الرذون خمسمائة سوط، إذ كان القول فيه أشنع، والسعي عليه أعظم، فغلط ابن أبي خنيزر فيهما، وضرب ابن هذيل، ثم قتله وقتل ابن البرذون بلا أن يضربه، وذلك في صفر، وطيف بهما في سماء القيروان، مجرورين مكشوفين ثم صلبا بعد ذلك. وكتب أبو العباس إلى أخيه بالخبر فعنفه عليه، ولأمره فيه، وقال: (قد أفسد علينا من أهل البلد وأهله ما كانت بنا حاجة إلى صلاحه) .

وفيها خالف علي أبي عبد الله الشيعي محمد بن خزر بن صيالات الزناتي وأقبل إلى مدينة تهرت وطمع بأخذها وأخرج دواس بن صولات منها وأن يقطع بابي عبد الله وبمن معه في انصرافهم من سجلماسة. وباطنه على ذلك قوم من أهل تهرت يعرفون بني دبوس، فاستدعوه فوشى بهم إلى دواس عامل الموضع فحبسهم بحصن برقانة المعروف بتهرت القديمة وحارب محمد بن خزر تهرت وتغلب على بعض أرباضها. فلما رأى ذلك دواس هرب إلى ابن حمة صاحب القلعة، ووثب أهل حصن برقانة على بني دبوس عندهم، فقتلوههم. ودفع أهل تهرت محمد بن خزر، وحاربوه حتى قتلوه ثم كاتبوا دواس، فأنصرف إليهم. وولي عبيد الله على مدينة سجلماسة إبراهيم بن غالب المزاتي، وخلف معه ألفي فارس من كرامة. وتوجه عبيد الله وأبو عبد

٥.٣ التعريف بأمر سلجماسة

٥.٤ من حين ابتدائها إلى هذه السنة المؤرخة

الله نحو أفريقية ومعهم بنو مدرار وأهلهم مكبلين، فلما بلغوا مدينة أربا اتصل بهم خبر محمد بن خزر، فساروا نحوه فهرب، ودخل الرمال. وأمر عبيد الله بقتل اليسع بن مدرار، فقتل، وهو مريض. وفيها ثار أهل سجلماسة بإبراهيم ابن غالب المزاتي عاملها فقتلوه ومن كان معه من الشيعة، ومن كاتمة، وذلك يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر ربيع الأول، وولوا على أنفسهم وأسول ابن الأمير ابن مدرار.

التعريف بأمر سلجماسة

من حين ابتدائها إلى هذه السنة المؤرخة

كان أبو القاسم سمغون بن واسول المكاسي صاحب ماشية كثيرة، ينتجع موضع سلجمانة، ويتردد إليها وكان برجا، يجتمع الناس فيه من قبائل البربر المجاورين له يتسوقون فيه. فاجتمع قوم من الصفرية على أبي القاسم، وسكنوا معه هنالك في خيمات. ثم شرعوا في البناء في حدود الأربعين ومائة. ثم قدموا على أنفسهم عيسى بن يزيد الأسود وولوه أمرهم. ثم أنكروا عليه أشياء فأخذوه وشدوا وثاقه. وربطوه إلى شجرة في رأس جبل، وتركوه حتى مات ثم ولي أبو القاسم سمغون المتقدم ذكره، قيل إنه ابن واسول، وقيل ابن مدلان فلم يزل واليا عليهم إلى أن مات سنة ١٦٨.

ثم ولي الياس ابن أبي القاسم، وسمي أبا الوزير، فبقي سنتين، وقام عليه أخوه. ثم ولي أخوه أليسع بن سمغون بن مدلان المكاسي في سنة ١٧٠ وسمي

بالمختصر، وكان جبارا عنيدا، فظفر بمن عانده من قبائل البربر وقهرهم وأذلهم، وأظهر الصفرية، وأخذ خمس معادن درعة. وعظم قدره في ذلك الوقت. وموضع سلجمانة قد عمر بالديار دون سور. ثم زاد ملك اليسع المذكور، وأمر ببناء السور، أسفله بالحجارة، وأعلى بالطوب. فقليل أ، بناء من ماله، لم يشاركه فيه أحد. فسكن سلجمانة، وتوفي في سنة ٢٠٨، فكانت مدته بها نحو أربعة وثلاثين سنة. ثم ولي ابنه مدرار بن اليسع، وهو المختصر بن سمغون المتقدم ذكره، فلم يزل واليا عليها إلى أن اختلف الأمر بين ولديه ميمون المعروف بابن أروا (وهي أمه بنت عبد الرحمن بن رستم صاحب تهرت) وابنه المعروف بابن بقية. فتنازعا في الأمر بينهما، وتقاتلا

ثلاثة أعوام. فمال مدرار والدهما مع ابنه ميمون بن الرستمية، وأخرج أخاه ابن بقية من سلجمانة. فولى ميمون بن مدرار، وخلع أبوه لنفسه، ثم قام عليه أهل سلجمانة، فجعلوه وأرادوا خلعه عليه وتقديم أخيه ابن بقية، فأبى أن يتأمر على أبيه، فأعادوا أباه مدرار بعد خلعه، ثم سمع أهل سلجمانة إنه استدعى ابنه ابن الرستمية فيمن أطاعه من درعة، فتوجهوا إلى مدرار وحصلوه، ثم خلعه أيضا وقدموا ابن بقية فولى أمرهم. فلم يزل واليا عليها إلى أن مات سنة ٢٦٣. وفي دولته مات أيوه مدرار. ثم ولي أليسع بن ميمون بن مدرار بن أليسع بن سمغون بن مدلان المكاسي في صفر سنة ٢٧٠ وتلقب بالمنتصر على أسم جده وهو الذي سجن عبيد الله بسلجمانة حين عرف عنه إنه قام بدعوته الشيعي. ثم زحف إليه الشيعي من أفريقية، وفر أمامه، وخرج عبيد الله من سلجمانة من سجنه، واستولى على المملكة. ثم ظفر به في سنة ٢٩٦، فقتله، فكانت مدة أليسع ابن مدرار المذكور بسلجمانة سبعا وعشرين سنة. وانقرضت دولة بني مدرار بسلجمانة وما والاها، فكانت مائة سنة ونحو ستين سنة. فولى عليها الشيعي عامله فوثب عليه أهلها فقتلوه، فكانت مدته بها خمسين يوما.

٥.٥ ذكر وصول عبيد الله الشيعي إلى رقادة

٥.٦ ونبذ من أخباره وما قيل في نسبه

ذكر وصول عبيد الله الشيعي إلى رقادة

ونبذ من أخباره وما قيل في نسبه

وفيها وصل عبيد الله إلى مدينة رقادة، ومعه ابنه أبو القاسم، (جعفر بن علي الحاجب، وأبو الحسن الطيب بن إسماعيل المعروف بالحاضن) ولقبه الفقهاء ووجوه القيروان، فدعوا له وهنئوه وأظهروا (له) السرور بأيامه، وسألوه تجديد الأمان لهم (أنتم آمنون في أنفسكم أو ذراريكم!) ولم يذكر الأموال، فعاوده بعضهم وسألوه التأمين لهم في الأموال، فأعرض عنهم) نخافه أهل العقل من ذلك الوقت. ودخل مدينة رقادة (وعليه ثوب خز أذكن، وعمامة مثله، وتحتة فرس ورد، وأبو القاسم ابنه خلفه عليه ثوب خز خلوي، وعمامة مثله وتحتة فرس أشقر، وأبو عبد الله إمام عبيد الله، وعليه ثوب توتي، وظهارة سنان، وعمامة، ومنديل إسكندراني، وتحتة فرس كميث ويده سبئية يمسح بها العرق والغبار عن وجهه، والناس حواليه بين يديه أقواط يسلمون عليه) في القصر المعروف بالصحن، ونزل ابنه بقصر أبي الفتح وتسمى عبيد الله بالمهدي.

واختلف في نسبه فادعى هو إنه عبيد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر ابن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - وهو مذهب الحكم المستنصر بالله الأموي، وقال سائر الناس إنه ابتسامة للطالبيين دعوة باطلة، وذكروا عن أبي القاسم بن طباطبا العلوي إنه قال: والله الذي لا إله إلا هو! ما عبيد الله الشيعي منا، ولا بيننا مبيته نسب! وقال مقاتل: هو عبيد الله بن محمد بن عبد الرحمن البصري. وقد فضح القاضي أبو بكر ابن الطيب الباقلاني نسبه في (كتاب كشف الأسرار، وهتك الأسرار) وذكر

أنهم قرامطة، وأن أبا عبد الله الشيعي أحدث لهم هذا المذهب، ونسبهم هذا النسب. وحكي بعض المؤرخين أن جعفر بن علي كانت له جارية، فغشيها رجل من القرامطة، وقيل من اليهود، دفعت له مالا، فكان يهاها وتهواها، وقتلت جعفرا مولاهما، فولدت جد عبيد الله هذا. فمن خفيت عليه هذه القصة قال إنه علوي، ومن علمها علم دعوته وكذبه. والله اعلم! هكذا ذكر ابن القطان في نسبه.

ونقش في خاتمه: أفن المهدي يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون! واستحجب أبا الفضل جعفر بن عبي وأبا أحمد جعفر بن عبيد الله، وأبا الحسن طيب بن إسماعيل المعروف بالحاضن، وأبا سعيد عثمان بن سعيد المعروف بمسلم السلجماسي. واستكتب أبا اليسر إبراهيم بن محمد البغدادي الشيباني. وولي على بيت النال أبا جعفر الخزري وعلى ديوان الخراج القاسم بن القديم وعلى السكة بكر الفيلسوف المعروف بابن القمودي وعلى العطاء عبدون بن حباسة وعلى قضاء مدينة رقادة المصلح بن هارون الملويسي. وأقر علي عمالة القيروان الحسن ابن أبي خنزير وعلى القضاء بها المروزي. وأمر أن تقلع من المساجد والمواجل

والقصور والقناطر أسماء الذين بنوها، وكتب عليها اسمه. وأظهر عبيد الله التشيع القبيح وسب أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وأزواجه حاشى علي بن أبي طالب، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري وزعم أن أصحاب النبي - رضي الله عنهم - ارتدوا بعده غير هؤلاء الذين سميناهم ومنع المروزي الفقهاء، أن يفتي أحدهم إلا بمذهب زعم إنه مذهب زعم إنه مذهب جعفر بن محمد منه سقوط الحنث عن طلق بالبتة، وإحاطة البنات بالميراث، وأشياء كثيرة يطول ذكرها. ومدحت الشعراء عبيد الله بالكفر، فاستجازه. وكان فيما مدح به شعر لمحمد البديل، كاتب أبي قضاة، وفيه (بسيط) :

حل برقادة المسيح ... حل بها آدم ونوح

حل بها أحمد المصطفى ... حل بها الكبش والذبيح

حل بها الله ذو المعالي ... وكل شيء سواه ربح

- لعنه الله، وغضب عليه وأخزى القائل والقول فيه! - وكانت أيمان كرامة أول دخول أفريقية: (وحق عالم الغيب والشهادة، مولانا المهدي الذي برقادة) حتى كتب بعض أحداث القبروان هذين البيتين، وتلففوا في وصولها إلى عبيد الله من حيث لا يعلم، وهي (مجثت) :

الجور قد رضينا ... لا الكفر والحماقة!

يا مدعي الغيوب ... من كاتب البطاقة؟

فاشدد عليه ذلك لما وصل إليه، وكشف سرا عن كاتب ذلك، فلم يقع له على خبر فيها. خالف بلد كرامة بباب مع قبائل من البربر، واجتمع إليه عدد عظيم، فكتب عبيد الله إلى أن تمسك بطاعته من كرامة، يأمرهم بحاربتهم. فقتل أكثرهم، وأخذ بباب أسيرا، وقرى كتاب الفتح بمدينة القبروان ورجعت قبيلة زناتة إلى تهرت، وحاصروا دواس بن صولات فيها فأخرج إليهم عبيد الله قائدا يعرف بشيخ المشايخ فهزم زناتة، وقتل كثيرا منها. وفيها خرج أبو القاسم يوم الفطر إلى المصلى بمدينة رقادة وصلى بالناس وخطبهم وخرج مع أبو عبد الله الشيعي وجماعة قواد كرامة وهو أول عيد صلى فيه بأفريقية، وقرى بذلك كتاب عبيد الله على منبر القبروان وأعمالها. وفيها خرج أبو عبيد الله الشيعي، مع جماعة من قواد كرامة ودعاتهم إلى أرض المغرب، ولنا ظهر فيه من الالتياث، وفساد الطرق، وقيام القبائل على عمالهم، فافتتح المدن، وقتل وسبي. ووردت له كتب كثيرة بالفتوح،

فقرأت بأفريقية. وفيها مات جبلة بن حمود بن جبلة الصدي مولى الإمام عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وكان فقيها زاهدا، من رجال سخون ومن نبذ الدنيا وتركها، وكان أبوه من خدمة السلطان وأهل الأموال، فنبذته في حياته، ثم تبرأ من تركته بعد وفاته، وكانت تركته نحو ثمانين مثقال. وفيها مات دعامه ابن محمد الفقيه، وكان من رسخون، وونلي القضاء بصقلية في أيام بني الأغلب التميمي، وعبد الله بن أبي المنهل. وفيها صلى أبو القاسم يوم الأضحى بالناس، وخطب وقرى بذلك كتاب عبيد الله بالقبروان. وفيها مات محمد بن خالد القيسي المعروف بابن الطرزي وكان من رجال سخون، ومات أبو السميذع المؤدب النحوي. وفيها قتل في مدينة رقادة أحمد بن يحيى بن طيب المتطبب الفقيه بقول أهل العراق.

وفي هذه السنة وصل أبو عبد الله الشيعي إلى مدينة (تنس) ونزل بالموضع المعروف (بالجوزا) وذلك يوم الجمعة لثلاث بقين من ذي الحجة. فجمع إلى نفسه وجوه كرامة وتكلم معهم في أمر عبيد الله وعمل معهم على خلعه وقال لهم: إن أفعاله قبيحة، ليست تشبه أفعال المهدي الذي كتب أدعو إليه. وأخشى أن أكون قد غلظت فيه وعرض لي ما عرض لإبراهيم الخليل - عم - إذ جن عليه الليل، فرأى كوكبا، فقال (هذا ربي) ويجب علي وعليكم امتحانه وكشفه عن العلامات الموجودة في الإمام المعروفة عند النقباء. وزعم لهم بأن الرواية أتت أن بين كتفي المهدي مكتوبا: المهدي رسول الله، كما بين كتفي نبي الله - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبوة. وأن المهدي يأتي بالآيات البينات، ويطلع بخاتمه بالجنديل. فعقد مع جماعة

كرامة على امتحانه إذا انصرفوا (نحوه) إلى رقادة، ودخل معه في هذا العقد عربة بن يوسف (وتعاهدوا على ذلك) .

وفي سنة ٢٩٨، تحول أبو عبد الله الشيعي في بلاد البربر وحارب صدينة وزناته. وقتل الرجال، وأخذ الأموال وسبي الذرية وأحرق بعض المدن بالنار، وكتب بالفتوحات إلى عبيد الله، فقرأت كتبه على الناس. ثم قفل أبو عبد الله إلى مدينة رقادة، بعد أن تحول بالغرب شهورا كثيرة، فلما توصل أبو عبد الله إلى مدينة رقادة أخبر عروبة بن يوسف عبيد الله الشيعي بما كان من أبي عبد الله في جانبه وقت وصوله إلى مدينة تنس وما عمل عليه مع جماعة كغامة من خلعه، فالتزم عبيد الله الاحتراس منه في سر أمره، وفيها ولي أبو جعفر البغدادي ديوان الكشف، مشتركا مع عمران بن أبي خالد بن أبي سلام. وفيها مات من الفقهاء المدنيين من أصحاب سخون، يحيى بن عون بن يوسف وعبد الله بن الوليد المعروف بابن الصدي، وكان فقيها من أهل الانقباض والخير. وفيها مات أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيباني البغدادي المعروف بالرياضي، يوم الأحد لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى، ودفن باب سالم، وكان ظريفا، أدبيا، مرسلا، شاعرا، حسن التأليف، وقدم الأندلس على الإمام محمد بن عبد الرحمن. رحمه الله، بكتاب اخترقه إليه على السنة أهل الشام فتقبله الإمام محمد وأتله ووسع عليه ووصله، واطلع على أن الكتاب مخترق مصنوع، فلما أراد أبو اليسر الانصراف، دفع إليه كتاب مختم جوابا عن كتاب أهل الشام فيما رأى. فلما جاز البحر فك أبو اليسر الكتاب ليقرأه، فإذا هو بياض ليس فيه إلا (بسم الله الرحمن الرحيم) فعلم إنه تمويه لن يجز وأن الذي أعطى وحى عن تكرم وفضل وعلم في عينه ملوك الأندلس ورجاله، وحدث بما عرض له، وعجب الناس منه وكتب أبو اليسر لبني الأغلب حتى انصرفت أيامهم ثم كتب لعبيد الله حتى مات. وله مؤلفات حسان في فنون من العلم، ومسند في الحديث وكتاب في قرآن سماه (سراج الهدى) وله (كتاب لقيط المرجان) ورسالة (الوحيدة المؤنسة) و (قطب الأدب) وغير ذلك من الأوضاع. وفيها استكتب عبيد الله أبا جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي، بعد أبي اليسر وقربه وأدناه، واستعان به على أمر أبي عبد الله وأبي العباس وجماعة كغامة، فكان منه في ذلك رأي جميل ونفع عظيم. وكان أبو جعفر ذا دهاء وفهم حسن ودخل الأندلس في أيام الإمام عبد الله - رحمه الله - فصحب الناس وجالس أهل الأدب وكان بعد ذلك يحافظ من جاز به قاصدا إلى الحج من خلطائه بقرطبة ويكرمهم.

وفيها خالفت هواره بطرابلس وقدموا على أنفسهم أبا هارون الهواري، وزحف أيضا جماعة من زناته ولماية وغيرهم من القبائل إلى مدينة طرابلس محاصرين لأهلها. فأخرج إليهم عبيد الله الشيعي أبا زاك تمام بن معارك الأجاني، وكان يذهب مذهب أبي عبد الله في الغدر بعبيد الله والخلع له. فأراد أن يبعده لما كان يحاوله عبيد الله من قتل عبد الله وجيش مع أبي زاك جيشا عظيما، فخاربههم أبو زاك حتى هزمهم وفرق جموعهم وقتل كثيرا منهم وبعث بؤس كثيرة وآذان مقرطة لمن قتل فنصبت برقادة.

٥.٧ ذكر قتل عبيد الله الشيعي لأبي عبد الله

٥.٨ الشيعي وأبي زاك

ذكر قتل عبيد الله الشيعي لأبي عبد الله

الشيعي وأبي زاك

وذلك أن عبيد الله كتب إلى (ماقنون بن دبارة الأجاني) عامله بطرابلس يأمره بقتل أبي زاك تمام بن معارك الأجاني على بنية بناها ونية نواها في قتله وقتل أبي عبد الله الشيعي بعده فبعث عامل طرابلس في أبي زاك! وكان عمه، ثم عرض عليه كتاب عبيد الله إليه يأمره يقتله. فلما قرأه أبو زاك قال له: يا عم نفذ ما أمرت به! فقدمه فصرب عنقه، وكتب إلى عبيد الله بخبر قتله مع حمام وصل إلى رقادة من ساعته، وذلك يوم الثلاثاء، غرة ذي الحجة سنة ٢٩٨. فلما وصل الخبر إلى عبيد الله الشيعي، أمر عروبة ابن يوسف الملويسي وجبر بن مناسب الميلي أن يكمن خلف قصر الصحن، فإذا مر بهما أبو عبد الله الشيعي وأخوه أبو العباس طعنوهما بالرماح حتى يموتا. فكمن لهما هناك مع جماعة من كغامة. وبعث عبيد الله في أبي عبد الله وأبي العباس ليحضرا طعاما على جاري عادتتهما معه. فلما مرا

بالموضع الذي فيه الكمين، خرج عليهما فصاح أبو عبد الله بعروبة: لا تفعل يا ولدي! فقال له: أمرني بقتلك من أمرت الناس بطاعته (وانخلعت له من الملك بعد توطئته ثم طعمه بيده طعنة واحدة خر منها صريعاً، ووقعت في أبي العباس تسع عشرة طعنة، وذلك يوم الثلاثاء وقت الزوال، مستهل ذي الحجة. ومكثا صريعين (على صف الحفير المعروف بالبحر) إلى بعد الظهر، ثم أمر عبيد الله بدفنهما، فدفنا في الجنان، وقال: رحمك الله أبا عبد الله، وجزاك في الآخرة (بقديم سعيك) ! ولا رحمك الله أبا العباس، إنك صددته عن السبيل وأوردته موارد الهلاك! ثم قرأ: " ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين، وأنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون "! وكتب إلى الشيعة بالمشرق في أمرهما: أما بعد فقد علمتم محل أبي عبد الله وأبي العباس من السلام. فاستنزلهما الشيطان فطهرتهما بالسيف والسلام! وحدث الثقة أن أبا عبد الله نلام في حضرة أحابه وعنده جماعة من دعاة كرامة فتحرك في نومه فانكشفت سوخته، فنظر بعضهم إلى بعض، ولم يقدموا أن يستروه. فد عروبة بن يوسف يده إلى الملحفة التي كانت عليه فستره بها واتبه أبو عبد الله فقال: من سترني إذا انكشفت؟ فقال له عروبة: هو والله قاتلي! فجعل عروبة يبكي بين يديه ويقول له: يا سيدي مر بقتلي! فقال له: لا سبيل إلى ذلك! لكنك والله قاتلي! فكان الأمر كما كان ذكره.

واحتجب عبيد الله عن كرامة أياما كثيرة، ثم أمنهم وأدخلهم على نفسه مفترقين على حذر منهم ثم عمل على جماعة منهم، فقتلهم بأصناف من القتل. وفيها خرج سي بن دوقان ورجاء بن أبي قنة، إلى لواتة في عسكر ضخم. فقتلوهم، وغنموا أموالهم وسبوا ذرياتهم (وقرى بذلك كتاب عبيد الله بالقيروان وأعمالها، وفي سنة ٢٩٩، أخرج عبيد الله إلى المغرب جماعة من قواده لمحاربة زناتة في عساكر عظيمة، فكانت بينهم وبين زناتة وقعة عظيمة بموضع يعرف بفلك مديك، قتل فيها من زناتة عدد لا يحصى. وفيها فتحت مدينة تبهرت، وكان أهلها قد ثاروا على دواس عاملها وأرادوا قتله فهرب منها إلى تبهرت القديمة وتحصن بها. وقتل فيها أكثر أصحابه، وكانوا في نحو ألف فارس. واستدعوا محمد بن خزر فقدم عليهم وأدخلوه البلد، وولوه، وبرزوا

إليه بأمر دواس وعياله وأكثر سلاحه ثم خذلوه وخذلهم، فزال عنهم وانصرف إلى موضعه. ثم أخرج عبيد الله العساكر إلى تبهرت في أعداد عظيمة وخلق لا يحصى كثرة فنزلت عليها يوم الجمعة لانسلاخ المحرم، وحروب أهلها ثلاثة أيام. ثم أخذوا بالكيد ودخلت العساكر تبهرت يوم الثلاثاء لأربع خلون من صفر فقتلوا الرجال وسبوا النساء والذرية وانهبوا الأموال، وحرقوا المدينة بالنار. وبلغ عدد القتلى بها ثمانية آلاف رجل. ثم ولى عبيد الله تبهرت مصالة بن حبوس بن منازل بن بهلول المكاسي. وانصرف دواس ابن صولات إلى مدينة رقادة. وقتله عبيد الله بعد ذلك.

وفيها كانت بالقيروان زلازل وهذات، وخسف بقرية في الساحل تعرف بالباس. وفيها كانت واقعة كرامة بالقيروان يوم الثلاثاء لعشر بقين من شعبان فقتل منهم في الأزقة والأسواق أكثر من ألف رجل، وذلك أن كرامة كانوا يسألون عبيد الله أن يطلق أيديهم على نهب القيروان وكان يسوقهم في ذلك، ويعلق أطماعهم به، وهم يتحاملون على أهل القيروان بالتطاول والأذى حتى شق الناس بهم، فقاموا عليهم في بعض الأيام بسبب استطالة رجل من جند كرامة على رجا من تجار أهل القيروان. فلما دافعه عنه، شهروا عليهم السلاح وأرادوا نب الحوانيت. فصاح أهل الأسواق (النفير، النفير) فقتل من كرامة أكثر من ألف رجل. وركب احمد بن أبي خنزير صاحب مدينة القيروان، فسكن الناس، وأمر بتغيب القتلى، فطرحوا في المراحض. ولحق من كان حوالي رقادة من كرامة ببلادهم. فلما حصلوا بها، أظهروا الخلف على عبيد الله. وقدموا على أنفسهم حدثا يعرف بالمارطي واسمه كادوا بن معارك وجعلوه قبله يصلون إليه وزعموا انه المهدي المنتظر، وكتبوا كتابا فيه شريعة زعموا أنها نزلت عليه. فتغلب على جميع

الزباب، وقوى أمره، واشتدت شوكته. فأخرج إليه عبيد الله قوادا حاربوهم وهرب إليهم أحد القواد وهو صولات بن جندة في نحو مائتي رجل، ثم أخرج عبيد الله ابنه أبا القاسم إلى بلد كرامة لمحاربة المارطي ففصل من رقادة من يوم السبت لخمس بقين من شهر رمضان. فافتح مدينة القسطنطينية من أرض كرامة وغيرها ز وكانت له على المارطي وقائع. وهرب من قواد أبي القاسم إلى المارطي رجال، ثم أمنهم أبي القاسم ولاطفهم حتى انصرفوا إليه.

وفيهما قتل بالقيروان قوما اتهموا بالميل مع أبي عبد الله الشيعي، إذ نوى الغدر بعبيد الله، ومنهم محمد بن أبي سعيد الميلي صاحب السوق، وعبد الله بن محمد المعروف بابن القديم، ومحمد بن أبي رحال الباغي، وأبو الوهب بن عمرو بن زرارة العبدي، وجماعة من بني الغلب وقوادهم. وقتل أبو إبراهيم المعروف بابن البجاري القرشي الفهري، وهو القائم على إبراهيم بن أحمد بنم الأغلب مع أهل تونس. وفيها ولد أبو الطاهر إسماعيل بن أبي القاسم بن عبيد الله الشيعي وولي أفريقية سبع سنين. وفيها مات زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الهارب من أفريقية إلى مصر ودفن ببيت المقدس، (وكان لما فر عن القيروان بعياله وماله وألف سقلي ترك جارية فغنت له محرقة على حمل نفسها (منسرح)

لم انس يوم الوداع موقفها ... وجفنها في دمعها غرق
وقولها والركاب واقفة ... تتركني سيدي وتنطلقوا

قال المظفري فخط حمل مال، وحملها في مكانها. وقال عريب فدمعت عيناه، واشتغل عنها ثما هو فيه، فتركها. ووصل إلى مصر فبقية عن عيسى النوسري صاحبها ثمانية أيام، ورحل إلى الرقة، فنع الدخول إلى بغداد وأمر بالانصراف إلى مصر فسمه بعض عبیده فمات. وفيها، مات من الفقراء المدنيين، وأهل العلم باللغة والنحو وفصاحة اللسان، عبد الله بن محمد التميمي المعروف بالبيدي، وهو من ولد عباد بن كثير ما ابن سبع وثمانين سنة.

وفي سنة ٣٠٠، خالف أهل مدينة طرابلس على عبيد الله الشيعي، إذ كان قد استعمل عليهم ماقنون بن دبارة الأجاني؛ فبسط أيدي بني عمه من كتامة على الناس، وتطاولوا إلى الحرم، فتحرك السواد، ومدوا أيديهم إلى من لقوا من كتامة، فقتلوهم، وهرب ماقنون وأغلق أهل طرابلس أبواب المدينة، وقتلوا من كان داخلها من كتامة، وقدموا على أنفسهم حمد بن إسحاق، المعروف بابن القرلين، ولحق ماقنون بعبيد الله. فأخرج إليهم جيشا، وحاربهم شهورا. وفيها، قفل أبو قاسم الشيعي (من بلد كتامة) إلى رقادة، ومعه المارطي الثائر وأصحابه أسرى فطوفوا بالقيروان على الجمال، وعليهم القلائس الطوال المشمرة بالقرون والمصافع، فقتلوا بمدينة رقادة. وفيها، خالفت جزيرة صقلية، وثاروا بالحسن وعلى أبي أحمد بن محمد بن أبي الخنزير العاملين عليها، وطاردوها، وانتهوا دورهما. وأرادوا أهل صقلية أن يقدموا على أنفسهم أحمد بن زيادة الله بن قرهب، فامتنع عليهم، وهرب منهم وتوارى عنهم في غارة، فاجتمع وجوه أهل البلدة عليه، وأوثقوه من أنفسهم أنهم لا يخذلونه. فتولى أمرهم، وكتب إلى المقتدر ببغداد بأن يكون داعيا له، وقائما بأمره بجزيرة صقلية، فأنفذ المقتدر ذلك له، وبعث إليه بألوية سود، وخلع سود، وطوق ذهب، ووصل ذلك إلى أحمد بن زيادة الله بن قرهب، فسر به، وأظهر الحزم والجد في أمره.

وفيها، خرج أبو القاسم بن عبيد الله لمحاربة طرابلس وفصل من

رقادة يوم الأحد لليلتين خلتا من جمادى الأولى. ووجه إليها عبيد الله في البحر خمسة عشر مركبا حربية. فلما وصلت إلى طرابلس أخرجوا إليها مراكبهم فحرقوا الأسطول، وقلوا من فيه. وسار أبو القاسم في البر نحو طرابلس فأوقع بأهل هواره، ثم نزل على طرابلس فخارها وحاصرها حتى أكلوا الميتة فرغبوا إلى أبو القاسم في الأمان، فأمنهم إلى ثلاثة أنفس اشترط التحكم فيهم: وهم محمد بن إسحاق القرشي ومحمد بن نصر ورجل يعرف بالحوكة. فدخل طرابلس وتحكم فيها. ثم قفل بالعسكر إلى رقادة وبين يديه الثلاثة الذين تقدم ذكرهم، فطوفوا بالقيروان على الجمال بالقلائس، ثم قتلوا.

وفيها، قتل أبو القاسم في مدينة طرابلس عند افتتاحه لها، من كان معه من بني الأغلب وقوادهم.

وفيها، خرج عبيد الله من مدينة رقادة إلى تونس وقرطاجنة ونواحي البحر، يرتاد موضعا يتخذة دار مملكته. فوقع اختياره على جزيرة جمة فابتدأ ببنائها، وهي التي تسمى بالهدية.

وفيها، ولي أبو جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي ديوان البريد فلم يزل يتولى ذلك إلى أن هلك. وفيها، قتل بالقيروان محمد بن أبي أيوب المعروف بأبي العاهة وكان ممن رفع عليه أنه يحاول القيام على عبيد الله فأختفى، وهدمت بسببه دور، ثم خرج بنصيحة أظهرها لعبيد الله في أهل القيروان فغفل عنه أيام، ثم قتله. وفيها، قتل من التجار أبناء الأندلسيين بالقيروان أبو جعفر بن خيرون صاحب

المسجد الشريف والفنادق المجاورة للسجن بسعي، كان القاضي المروذي عليه وشهادة شهد بها أن قبله وديعة كبيرة فطوب بها وعذب حتى مات

وفي سنة ٣٠١ أخرج عبيد الله الشيعي حباسة ابن يوسف بالجيش إلى المشرق؛ فدخل مدينة سرت بالأمان، وهرب من كان فيها من جند بني العباس، وقرى بذلك كتاب في الجوامع بأفريقية. ودخل حباسة مدينة أجدابية بالأمان أيضا، وهرب من كان فيها لبني العباس. ودخل مدينة برقة. وكان عبيد الله يمد حباسة بن يوسف بالجيش، فكلما دخل مدينة قتل أهلها، وأخذ أموالهم، وعاث فيهم، وتعلل على أهل العافية منهم، حتى لقد أخذ ببرقة جماعة كانوا يلعبون بالحمام؛ فأضرم لهم النار وأجلسهم حوالها، وأمرهم أن تقطع لحومهم وتشوى، ثم يطعمونها؛ وقذفهم بعد ذلك في النار، وقال: (إن هذه الحمام تأتيهم بالأخبار من قبل بني العباس!) وبرح ببرقة: (من أراد العطاء والرزق الواسع فليأتي!) فأكتب عنده جماعة، وأمر العرفاء من كرامة بأن يعرفوا بأعينهم، ويرقب كل واحد منهم رجلا من أولئك المكتتبين عنده، ثم أمرهم أن يحضروا بالغداة لأخذ الأرزاق، فلما حضروا، قتل جميعهم، وكانوا نحو من ألف رجل، فأمر بجمع جثثهم، ووضع عليها كرسيا، وجلي فوقهم، ثم أدخل وجوه أهل البلد، فنظروا إلى ما هالهم من كثرة القتل، ومات منهم ثلاث من الخوف والرعب، فلما مثل أهل البلد بين يديه، سبهم، وقال: (أن لم تحضروني غدا مائة ألف مثقال، قتلتم أجمعين) فأحضره إياها. ووردت على حباسة عساكر عظيمة من مصر لمحاربتهم؛ فدارت بينهم حرب عظيمة، كانت فيها ردعات على حباسة، ثم انهزمت جيوش مصر، وأتبعهم حباسة، وقتل كثير منهم.

وفيهما، قتل حباسة بن يوسف حارثا ونزارا أبني جمال المرتاني، في نفر من أبنائهم وبني عمهم، بمدينة برقة، وباع نسائهم، وأخذ جميع أموالهم، إذ كان عبيد الله الشيعي قد خطر بهم في حين قدومه من مصر؛ فأدعى أنهم سرقوا له حمل مال ومتاع. فلما طلب ذلك عندهم، قام إليه رجل منهم، فشمته ولطمه؛

٥.٩ خروج أبا القاسم الشيعي لمحاربة مصر

فكان ذلك سبب قتل حباسة لهم، على ما أمره به عبيد الله وحده له. ثم أن هل برقة كتبوا إلى عبيد الله بما دار عليهم من حباسة، وقتله رجالهم، وسبائه نسائهم، وأخذ أموالهم، فجأوبهم يعتذر إليهم، ويخلف أنه ما أمر بشيء مما ذكره إلا في نفر الثلاث. وكتب إلى حباسة، يأمره بالرحيل عنهم. فتوجه بالعساكر نحو مصر. فنزل بجبل مقة، وحارب الحصون التي تجاوره حتى أخذها، وقتل أهلها، وأخذ أموالهم وسبي ذرائعهم.

خروج أبا القاسم الشيعي لمحاربة مصر

وفيهما، خرج أبو القاسم بن عبيد الله من مدينة رقادة، غازيا إلى مصر في حشود عظيمة، وفيها، أحرق محمد بن أحمد بن زيادة الله بن قهره أسطول عبيد الله الشيعي بمرسى لبطة، وقتل قائده الحسن بن أحمد بن أبي خنزير: قتله محمد بن قهره ذبحا بيده، وقطع يديه ورجليه، وأسر من أصحابه نحو ست مائة رجل، وأحرق جميع الأسطول. وبلغ عبيد الله ذلك، فبعث جيشا للمدافعة عن الأسطول، إذ ظن أنه لم يحرق. فخرج أصحاب بن قهره إليهم، وقتلهم حتى هزمهم، وغنموا ما كان في العسكر. وفيها مات بالقيروان أبو بكر محمد بن عمر بن محمد بن الحسن البصري القرشي وفيها مات بقصر الطوب وهو موضع رباط بجانب سوسة، أبو يونس الزاهد، ونفر أهل القيروان لشهود جنازته

وفي سنة ٣٠٢، دخل أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي مدينة الإسكندرية ومعه حباسة القائد فألفاها خالية، وقد هرب أهلها في البحر بما خف من أموالهم

وأسلموا سائر أثقالهم. فاحتوى أبو القاسم وحباسة على جميع ذلك ووصل أبو القاسم إلى الفيوم، فعسكر بها حتى قدم قائد الخليفة مؤنس الفتى من العراق لمحاربتة. ثم أن حباسة بن يوسف هرب من مصر إلى أرض المغرب، وكان سبب هربه أن أبا القاسم مبعث إليه من

الفيوم أبا فريدن القائد، وأمره أن يستخلفه على الجيوش ويلحق حباسة به في الفيوم، فأغضبه ذلك، وقال: لما أشرفت على أخذ البلد، يفوز أبو فريدن بخيره وذكره. فركب حباسة في نحو ثلاثين فارساً من بني عمه، وخرج هارباً إلى جهة المغرب. فكتب أبو القاسم إلى عمال الطريق بخبره وأمرهم بارتصاده وأخذه أن مر بهم. وكتب إلى أبيه عبيد الله بذلك. ونزل مؤنس الفتى مصريوم الاثنين للنصف من شهر رمضان فرحل أبو القاسم من الفيوم منصرفاً إلى أفريقيا بما خف من الأموال والكسي والسلاح. فضربت جيوش مصر في ساقته، فأخذت مضاربه وسلاحاً كثيرة وأثاثاً. ووصل حباسة إلى حوز برقة، ثم إلى نفزاوة، فعثر عليه وعلى أصحابه فهرب أصحابه. وأخذ حباسة، وقيد، وحمل إلى عبيد الله فحبسه وحبس جميع أهله. وفيها حاول عروبة الحرب من تبهرت، إذ بلغه خبر حباسة وهربه، وقيل أن حباسة كاتبه وإنه كاتبه يرجو اللحاق به والاعتصام بكونه معه. فلما أخذ حباسة، نفر عروبة وخاف فهرب بماله. فظفر به بجبل أوراس، فقتل، وبعث برأسه إلى عبيد الله، فنظر إليها وإلى رأسي حباسة وعروبة، فقال: (ما أعجب أمور الدنيا! هذه الرؤوس ضاق بها المشرق والمغرب، وحملتها هذه القفة!) وأمر بطرحها بجامع الإسكندرية سرا. وفي هذه السنة، مات سعيد بن محمد بن صبيح الغساني الفقيه، وكان قد صحب سخون بن سعيد وحمل عنه علمه. وفيها، خالفت مدينة برقة وكان أبو

القاسم، لما مر بهم في انصرافه من مصر وقد هنتوه بسلامة، فزعم لهم إنه إنما كان طلب حباسة ليعاقبه على فعله بهم، وأمرهم ببيان ثلث مدينتهم، واستخلف عليهم رجالاً من كرامة. فلما ولي عنهم أبا القاسم، وعلموا الحال التي انصرف عليها من مصر بدر الغوغاء إلى من كان خلف عندهم من كرامة، فقتلوهم ووصل أبو القاسم إلى مدينة رقادة من صرفه عن الفيوم يوم الأحد لعشر خلون من ذي القعدة.

وفي سنة ٣٠٣ مات زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب بالرملة، وترك من المال، في ما ذكر من كان بحضرته، ألف مثقال من ضرب سكتته. وكان بأفريقية وما والها في هذا العام وباء كثير، فمات بها من قريش القيروان أبو المصعب بن زرارة العبدي. ومات حماس القاضب ابن مروان بن سمالك الهمداني، وكان فقيهاً زاهداً ورعاً. ومات محمد بن عبادة السوسي. ومات خلف بن معمر بم منصور من الفقهاء العراقيين وكان يروى عن أبيه عن أسد بن الفرات، وكان قد تشرق أول دخول الشيعة أفريقية ليعتصم بذلك من مطالبت الشيعة لولده بمال كان غمس يديه فيه عند هرب زيادة الله من رقادة، وكان والده معمر بن منصور قد سمع من ابن فروخ، ومن أسد ابن الفرات، وكان أصح أصحابه سماعاً عنه وكان معمر يقول بتحليل المسكر ما لم يسكر منه. وفيها مات القاضي المروزي، وهو محمد بن عمر في العذاب برقادة، ودفن بباب سالم ليلاً، وطولب أهل القيروان بماله، فامتحن بذلك جماعة من وجوه أهل القيروان وفضلائهم وتجارهم.

وفيها، أخرج عبيد الله الجيوش إلى مدينة برقة مع أبي مدين بن فروخ اللهيطي. وفيها، ولي عبيد الله (فأفريقية الخراج) أبا معمر عمران بن أحمد ابن عبد الله بن أبي محرز القاضي، فتولى بوظيفة التقسيط على ضياع أفريقية بعد أن وزع جميعها ونظر إلى أوفر مال ارتفع من العصور في سنة وأقله ثم جمع المالين ووظف الشطر على كل ضيعة.

وفيها اضطرب أمر جزيرة صقلية على ابن قرهب، وأجمع بعضهم على خلعه وكتبوا عبيد الله في أمره، فداراهم ابن قلاهب وذكرهم بأيامهم له، فلم يلب ذلك حتى صارت بسببه فتنة بصقلية طائفة كانت معه وطائفة كانت عليه. فأراد ابن قرهب جواز البحر إلى الأندلس واكثرى مراكب، وشحن فيها متاعاً كثيراً فحال أهل صقلية بينه وبين ما أراد، وانتهوا ما كان له في تلك المراكب، وأسروا ابن قرهب وأبنته وقاضيه المعروف بابن الخلامي وقيدوا أجمعين، وبعثوا إلى عبيد الله. وكتب أهل جزيرة صقلية أن يوجه إليهم عاملاً وقاضياً وإنهم لا يحتاجون إلى رجال ولا مدد واشتروا في كتابهم إليه اشتراطاً أغضه عليهم، وأغراه بهم، وحرك منهم لمحاصرتهم على ما سيأتي ذكره أن شاء الله تعالى.

وفي سنة ٣٠٤ في المحرم منها وصل، وصل ابن قرهب وأصحابه إلى مدينة سوسة مصفدين في الحديد. وكان عبيد الله الشيعي بها. فأوصل ابن قرهب إلى نفسه وقال له: (ما حملك على الخلاف علينا ونحن حقنا؟) فقال له: (أهل صقلية ولوني، وأنا كاره، وخلعوني

وأنا كاره!) فأنصرف عبيد الله بهم إلى رقادة وأمر بآبن قزهب وأصحابه، فزربوا بالسياط وقطعت أيديهم وأرجلهم على قبر الحسن بن أبي خنزير بباب سالم وصلبوا هناك. وفي شهر ربيع الأول من هذه السنة، كل سور المهديّة ونصبت أبوابها. وفيها، أخرج عبيد الله الجيوش والأساطيل إلى صقلية وقد عليهم أبا سعيد المعروف بالضيف. فحاصروهم شهرا، وقتل منهم جملا، وأجال كرامة على من ألفا في أرباض المدينة من النساء والذرية، فعبث بهم واقترح الجوّاري الأبقار. وكتب أبو سعيد الضيف إلى عبيد الله بالفتح فيهم، فأمدّه بمراكب ورجال كثيرة. فلما رأى ذلك أهل صقلية، رغبوا إليه في الأمان على أن يدفعوا عليهم من كان شايع ميمّا أحدثوه. فأمنهم، وهدم سور المدينة وأخذ سلاحهم وخيلهم ورقيقهم، وفرض عليهم مغرما، وبعث بمن أخذ منهم إلى عبيد الله في مراكب فانكفأ بهم في البحر. وولي أبو سعيد الضيف على جزيرة صقلية سال بن أبي راشد، وأبقى معه جماعة من كرامة وانصرف إلى القيروان. وفي هذه السنة فتحت مدينة برقة على يد أبي مدين الموجه إليهم بعد أن أفنت الحرب أكثر ألمانا مدت ثمانية عشر شهرا، وحوصروا فيها، وأحرق قوم منهم بالنار، واستصفى أبو مدين أموالهم، وبعث جماعة منهم إلى عبيد الله، فأمر بقتلهم. وفيها، مات محمد بن اسود بن شعيب القاضي الصديني. وفيها مات ميمون بن عمر الفقيه، ومحمد بن أحمد الصديني الزاهد. وفيها خرج مصالة ابن حبوس من تهرت لمحاربة سعيد بن صالح بن سعيد بن إدريس، صاحب نكور، فدارت بينهم حروب كثيرة.

وفي سنة ٣٠٥ أفتتح مصالة بن حبوس، قائد عبيد الله الشيعي مدينة نكور، وقتل بها سعيد بن صالح رئيسها، وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من محرم. وانتهب مصالح مدينة نكور وسبي النساء والذرية، ثم أنصرف إلى تهرت، وكتب بالفتح إلى عبيد الله وبعث إليه سعيد بن صالح ورؤوس أصحابه، فطوفت بالقيروان. ثم أن بين صالح خرجوا فارين بأنفسهم إلى الأندلس معتممين بما تناهى إليهم من فضل أمير المؤمنين الناصر وحن مذهبه في كل نازع إليه ومعتم به، فتنزلوا مرسى مالقة، وعهد بإيثارهم والتوسع عليهم، وبعث إليهم بضروب الكسوة وكل ما احتاجوا إليه من المرافق وخيروا في القدوم إلى قرار السلطان أو المقام في ذلك المكان، فاختاروا المقام على بره وحبائه. وكان مصالة قد أستخلف على نكور رجلا يقال له ذلول، وانصرف إلى تهرت، فافترق عن ذلول من كان معه وبقي في فل من المشاركة. فقصده صالح بن سعيد بن صالح من مرسى مالقة، فقتله، وقتل أصحابه ولزم نكور، وهادي أمير المؤمنين بالخليل والجمال.

٥٠١٠ تلخيص أخبار أمراء مدينة نكور

٥٠١١ من حين بنائها على الجملة إلى هذه السنة المؤرخة

تلخيص أخبار أمراء مدينة نكور
من حين بنائها على الجملة إلى هذه السنة المؤرخة
وذلك أن صالح بن منصور، المعروف بالعبد الصالح، كان دخل أرض المغرب في الافتتاح الأول زمن الوليد بن فيد الملك، فنزل في بني تمسمان وعلى يديه أسلم بربرها، وهم صنهاجة وغمارة. ثم ارتد أكثرهم لما ثقلت عليهم شرائع الإسلام، وقدموا على أنفسهم رجلا يسمى داود ويعرف بالمزيدي وكان من نفرة وأخرجوا صالحا من بينهم. ثم أفاء الله بالإسلام عليهم، وتابوا من شركهم، وقتلوا داود المزيدي، وردوا صالحا. فبقي ذلك إلى أ، مات بتسمان، وكان له من الولد ثلاثة: المعنم، وأدریس، أمه صنهاجية وعبد الصمد، فولوا المعنم، ومكث فيهم يسيرا، ومات. فولوا على أنفسهم إدريس. ثم مات. وولى سعيد ابن إدريس، وهو الذي بنى مدينة نكور. ومنها إلى مدينة زواغة، التي كانت للحسن بن أبي العيش، مسيرة خمسة أيام. وكان لها أربعة أبواب: منها أبواب سليمان، وباب بني ورياغل، وباب المصلى وباب اليهود. وبها جامع كبير. وأكثر خشبهم الأرز. وبها حمامات كثيرة، وأسواق عامرة ممتدة. وهي بين نهريْن، أحدهما اسمه نكور، وبه سميت المدينة. ودخلها الجوس سنة ٢٤٤، وتغلبوا عليها، وانتبهوا من كان فيها إلا من خلصه الله بالفرار، وأقام الجوس بها ثمانية أيام، وخرجوا منها. وبينها وبين البحر خمسة أميال. وقامت البرانس على سعيد بن إدريس، فأظفروه الله عليهم وهزمهم وقتل رئيسهم. ثم رجع من بقي منهمك إلى الطاعة. ومات سعيد بن إدريس بعد أن ملكهم سبعا وثلاثين سنة.

وولي ابنه صالح بن سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور. وكان لسعيد من الولد كمنصور وحماد وزيادة الله والرشيد، وعبد الرحمن الشهيد ومعوية وعثمان وعبد الله وإدريس. وكان عبد الرحمن فقيهاً بمذهب مالك، ورجع أربعاً، وعبر البحر إلى الأندلس برسم الجهاد، فقتل الثائر ابن حفصون كل من كان معه، وتخلص هو بنفسه إلى مرسية، وحضر غزوة أبي العباس القائد، واستشهد فيها. وقام علي صالح أخوه إدريس في بني وريغل وجزناية، فالتقوا بجبل وزناية، وانهب إدريس عسكره، واستمر إلى مدينة نكور ليدخلها، فامتنع أهلها إلى أن أتاهم صالح صاحبها في خاصته، فدخلها في جوف الليل، ولن يعلم أخوه إدريس بذلك، وكان قد نول عليها وطمع فيها. فلما كُن في غد اقبل إدريس على فرسه وهو لا يعلم بأمر أخيه فأدخله المدينة، وأرجله فتيان صالح عن دابته، وأتوا به إلى أخيه، فأمر بحبسه. ثم سار عليه قاسم الوشتاقي بقتله، فأمر فتى من فتيانه يقال له عسلون فقتله، وامتنعت مكاسة على صالح، وحبسوا مغارمهم. فكتب إليهم يتوعدهم، وختم الكتاب، وأدخله في مخلاة، وشدها على حمارة! وبعثه مع ثقتة، وقال له (إذا توسطت مكاسة، فاترك الحمار بما عليه وانصرف) ففعل فوجد مكاسة حمار صالح، وقرؤوا كتابه فتمادوا على امتناعهم عليه. ثم انصرف رأيهم إلى جمع ما كان عليهم فجمعوه، وجللوا الحمار بملفحة، وأتوا صالحاً بالحمار وبمغارمهم واستعفوه فغافاهم. وبقي صالح بن سعيد أميراً إلى أن توفي بعد أن ملك أزيد من عشرين سنة.

وولى بعد ابنه سعيد بن صالح. فلما توطد الأمر له، دخل عليه عبيدهم الصقالبية، فسألوه العتق فقال لهم: أنتم جندنا وعبيدنا لا تدخلون في ورثنا. فما طلبكم للعتق؟ فألحوا عليه في ذلك وناله جفاء منهم، وخلعوه وقدموا أخاه عبيد الله وعمه الرضي المكنى بأبي علي وزحفوا بهما إلى القصر فخاربههم سعيد من أعلى القصر بمن كان معه وبالنساء. وقامت عليهم العامة،

فأخرجوه من البلد وهزمهم. فتحصنوا بقرية سبعة أيام، ثم ظفر بهم سعيد. وكان عنه الرضي صهره، فحبسه مع أخيه عبيد الله، وقتل من خرج معهما من بني عمه، منهم الأغلب، وأبو الأغلب، فقام سعادة الله بن هارون، وهو ابن عم الأغلب فقال: قتل ابن عني وأبقى عمه وأخاه! فألب عليه بني يصلاتن، وعقد أهـ معهم، وسعدة الله مع سعيد بمدينة نكور. ثم خذله سعادة الله، وانحاز إلى بني يصلاتن بمن معه فانهزم سعيد، وأخذت بنوده وطبولة، وقتل من مواليه نحو ألف رجل، وأتوا مع سعادة الله حتى حاصروا سعيد بن صالح بنكور. ثم كانت الكرة لسعيد عليهم، فهزمهم، واسر ميمون بن هارون أخا سعادة الله، وسار إلى تمسامان. فأحرق دياره وخربها وانصرف إلى نكور. وخرج سعادة الله بعد ذلك إلى بطوية وبني ورتدي، وزحف بهم إلى زناتة، فخاربههم وهزمهم، وانقادت له جميع تلك البلاد. ثم انصرف إلى مدينة نكور، فأقام بها مصافياً لسعيد المذكور.

ولما تغلب عبيد الله الشيعي، كتب إلى أهل المغرب، يدعوهم إلى الدخول في طاعنته والتدين بإمامته. وكتب بمثل ذلك إلى سعيد بن صالح، وفي أسفله أياتاً كثيرة منها (طويل) .

فإن تستقيموا أستقيم لصالحكم ... وأن تعدلوا عني أرى قتلكم عدلاً وأعلو بسيفي قاهر السيوفكم ... وأدخلها عفواً وأملوها قتلاً فأجابه شاعرهم، فقال: (طويل) .

كذبت وبيت الله لا تعرف العدلا ... ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا وما أنت إلا كافر ومنافق ... تميل مع الجهال في السنة المثلا وهمتنا العليا لدين محمد ... وقد جعل الرحمن همتك السفلا

فكتب عبيد الله الشيعي إلى مصالة قائده على تهرت، يأمره بالنهوض إلى مدينة نكور، ويأمره بخاربة سعيد بن صالح المذكور. فخرج مصالة من تهرت في غرة ذي الحجة من السنة الفارطة عن هذه المؤرخة، فنزل من مدينة نكور على مسيرة يوم. فخرج إليه سعيد، فخاربه ثلاثة أيام مكافئاً له. وكان مع سعيد رجل من أعلام البربر يقال له أحمد بن العباس من بني يطوفت، دعتة نفسه إلى أن يقصد محلة مصالة في سبعة فوارس، واقتحم إلى مصالة، فتصايح الناس، وأخذ أحد أسيرا زمن معه، فأمر مصالة بضرب أعناقهم، فقال له

أحمد: ليس مثلي يقتل! فقال مصالة: لم؟ قال: لأنك لا تطمع في سعيد إلا بسبي! فاستبقاه وقربه حتى أنس به، ثم أعطاه جيشا فقصد به جانبا كان يعلم الغرة منه، حتى دخل عسكر سعيد من حيث لا يظن به. ففرق جمعه وغشى سعيدا ما لم يتأهب له، وترادفت عليه العساكر، ونظر أمرا لا يستطيع المقام معه، فبعث إلى مدينة نكور، فأخرج كل من كان في قصره وما معهم، وساروا إلى جزيرة في موسى نكور، ومعههم صالح بن سعيد، وإدريس والمعتصم. وقابل سعيد حتى قتل واستبيح عسكره. ودخل مصالة مدينة نكور، فقتل رجالها، وسبي النساء والذرائر. وفي ذلك يقول بعض الشعراء (رجز).

لما طغى الأرذل وابن الأرذل
في عصابة من الطغاة الجهل
قال: نكور دون ربي معقلي
أتاه محتوم القضاء الفصيل
من الإله المتعالي الأعدل
حطم أهل كفرها بالكلكل
وجاء رأس رأسها المبدل
على قنا من الرماح الذبل
ذو لمة شعناء لم تقتل
ولحية غراء لم ترحل

وركب من نجا من ذرية سعيد البحر إلى مقالة، فاستقروا بها لقربها من بلدهم ورجائهم العودة إليه. وبقي مصالبة في نكور نحو ستة أشهر، ثم استخلف عليها ذلول. فكان من أمره ما تقدم ذكره. وذلك أنه لما افترق عن ذلول أصحابه سمع بذلك بنو سعيد بمقالة، فعبروا البحر في مراكب مختلفة، في ليلة واحدة، واتفقوا على أن من وصل غلبها قبل فالولاية له، ثقة منهم برعيتهم. وكانوا إدريس والمعتصم وصالح بن سعيد. فوصل صالح من ليلته، فتسامع البربر بقدمه، فتسارعوا إليه، وعقدوا له الأمرة، ولقبوه باليتيم، وزحفوا إلى ذلول وأصحابه فقتلوهم أجمعين. وكتب صالح بالفتح والنصر إلى أمير المؤمنين الناصر فأمر بإمداد صالح بالأخبية والآلات والأسلحة والبنود والطبول، فتوطد الملك بالمغرب لصالح بن سعيد، وبقي أخوته في البحر شهرا يترددون فيه إلى أن وصلوا بعد ذلك إلى نكور. وهي في وقتنا هذا مدينة المزمة أو قريبا منها، وفي هذه السنة تم شأن القاسمية بالقيروان، وانتقل إليها التجار وأهل الصناعات، وذلك في شهر ربيع الأول. وفيها مات أبو جعفر أحمد بن محمد القرشي المعروف بالمغرباني، وكان من أهل الزهد والعبادة، وله سمات كثيرة من سخون وغيره. وفيها مات القاضي بقفصه، وهو مالك بن عيسى بن نصير، وكانت له رحلتان في طلب بالحديث، أقام فيهما عشرين سنة، وكان به بصيرا، وفي علمه نافذا. وفيها مات بمدينة رقادة من قریش أفريقية أبو الفضل محمد بن عبد السلام بن عبد السلام، من ولد عبد الملك بن مروان، وكان قد تولى جباية طرابلس وتونس لينج مع القوم ويبقى معهم، فتوصل بذلك إلى أخذ نعمته، ومات في عذاب الشيعة. وفيها أخذ أهل الضياع بأعمال أفريقية بمغرم سمي التضضيع. وزعموا أنه من بقايا التقسيط.

وفي سنة ٣٠٦، خرج أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي إلى مصر في سفرته الثانية وذلك يوم الاثنين مستهل ذي القعدة بعد أن حشد من كتامة جملا كثيرة ومن عرب أفريقية وبربرها وخرج معه خليل بن إسحاق وأبو غانم الكاتب، وغيرهما من رجال أبيه. وعزل عبيد الله عن القيروان من الله بن الحسن بن أبي خنزير، وأخرجه مع ابنه أبي القاسم إلى مصر، وولى عمل القيروان أبا سعيد الضيف، وفيها وقعت النار بالقيروان في سوقها ليلة الأربعاء لثلاث عشرة ليلة من ذي الحجة.

وفيها توفي أبو سعيد محمد بن محمد بن سخون، وله سماع من أبيه، وغلبت عليه الزهادة والعبادة. وفيها، مات أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن ابن جندب المعروف بموسى القطان، وكان من رجال محمد بن سخون، وولي قضاء مدينة طرابلس في أيام عيسى بن مسكين، وعزله إبراهيم بن أحمد عن القضاء وحبس، وله اثني عشر جزءا ألفها في أحكام القرآن. وفيها مات بمدينة برقة أبو مدين بن فروخ اللهبطي، وكان قائد الشيعة بها.

وفي سنة ٣٠٧، كان بأفريقية وما والاها إلى مصر، طاعون شديد وغلاء وغلاء سعر مع الجور الشامل من الشيعة، والتعلل على أموال الناس في كل جهة. وفيها، قدم أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي سليمان بن كافي، صاحب مقدمته إلى الإسكندرية في حملة من رجال كنانة وغيرهم، فوجد أهلها غافلين. فلما أحسوا بالخطر، وتلاحق بهم أبو القاسم بجيوشه، أخذوا المدينة وتركوها. فدخلها أبو القاسم الشيعي، وانتهب أموال أهلها وكتب إلى أبيه بالفتح، ثم قدم سليمان بن كافي بالجيوش إلى الفيوم فدخلها بالسيف، وقتل أهلها، وانتهب أموالها وسبى الذرية وجبى الخراج، وأقبلت العساكر من أفريقية يتلوا بعضها بعضا، فاجتمع إلى أبو القاسم عدد يجمل عن الإحصاء. فتنقل من

محتة عن الإسكندرية إلى الفيوم ونزل بالأشمونين في رجب. وألقى الأطمعة في الأنادر لم تخزن، فانتهبها العساكر. وغلّت الأسعار بمصر وبالعسكر، ووقع الوباء في الناس وجلا كثيرا منهم. وكانت مصر في ذلك الحين خالية من الجند، فاجتمعوا وتشاوروا في أمرهم، فردوه إلى محمد بن علي الماداني وأخيه أبي زنبور، فكتبوا إلى أبو القاسم سرا يعرفه بغيبة الجند وضعف البلد وأظهرها له المسارعة إلى طاعته، وسألاه الاستثناء عليهم لما يتوقعون من العوام، وكان مذهبهما أن يكتف عنهم حتى تأتيهم الرجال من بغداد. وكتب الماداني إلى المقتدر بنزول العساكر عليهم. وفي هذه السنة أقبل ثل الفتي بالمراكب الشامية، مغيثا لأهل الإسكندرية. فألقى الشيعة بها أسطولا لمحاربة ثل حتى تغلب على الأسطول بمن فيه، وذلك يوم الأحد لاثنتي عشر ليلة بقيت من شوال، وأسر جملة من رجال كنانة ثم نهض ثل بالأسرى إلى القسطنطينية، فطوفهم على الجمال مشهرين، وفيهم جماعة من رجال الشيعي المشهورين بالبأس.

وفيها مات القاضي محمد بن محفوظ القمودي بإفريقيا، وكان ضعيف الرأي جائر الحكم وولى القضاء بالقيروان إسحاق بن أبي المنهال. وفيها هبت بالقيروان رياح مظلمة صفراء دامت أياما وسدت الأفق حتى كان الرجال لا يرى جليسه، وأتبعها الوباء الذي تقدم ذكره. وفيها مات أحمد بن علي بن دودان الفقيه وكانت له رحلة سمع فيها من يونس والمزني. ومات محمد بن أحمد بن يحيى بن مهران الفقيه من رجال محمد بن سحنون. ومات أبو سليمان داود بن مسرور الغساني وكان متزهدا فاضلا ومات محمد بن عبد الله ابن القاضي أحمد بن محرز. ومات بمدينة تونس من قريش محمد بن أحمد بن عبد الله بن سعيد بن خالد بن عبيد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وكان يلقب بالبعرة وكان طرأ على إبراهيم بن أحمد من المدينة، ودخل الأندلس مرتين.

وفي هذه السنة قتل بالقيروان عروس المؤذن بمسجد أبو عياش الفقيه إذ شهد عليه قوم من المشاركة بأنه أذن ولم يقل: (حي على خير العمل) وكان من المتزهدين يطحن بيده، ويعمل الخلفاء، ويتعيش من ذلك. وفيها مات من الفقهاء بالقيروان عبد الله بن محمد بن يحيى الرعيني من أصحاب سحنون، ومحمد بن موسى التميمي من شيوخ العراقيين، وإسحاق بن إبراهيم بن أبي عاصم الفارسي، وأبو جعفر أحمد بن منصور مولى بني تميم وكان يعرف بابن المقرعة الغاسل، وسمع بمكة ومصر. ومات جماعة من التجار ومن خدم السلطان ومن الأطباء ممن يطول الكتاب بذكره.

وفي سنة ٣٠٨ سار مصالة قائد عبيد الله الشيعي نحو المغرب بالجيوش. فلما بلغ قريبا من نكور خرج صالح بن سعيد عن مدينة نكور وتحصن بجبل هناك يعرف بجبل أبي الحسين. ودخل مصالة المدينة وضبطها ثم سار منها إلى جهة فاس. وكان بها حينئذ يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس في أهله ورجاله. فلما قرب منها، أرادوا مدافعته. فخاربههم أياما حتى هزمهم. ودخل مصالة مدينة فاس وضبطها. وقال شاعرهم وقد عرض بها بسيط:

دخلت فاسا وشوق إلى فاس ... والجبن يأخذ بالعينين والرأس
فلست أدخل فاسا ما حييت ولو ... أعطيت فاسا بما فيها من الناس
وفيها قتل أبو سعيد موسى بن أحمد بن موسى بن أحمد بمدينة القيروان زيادة بن خلفون المقطب مولى بني الأغلب، وكان عالما بالطب، حسن الذهن فيه، وكان عبيد الله قد احتاج إلى زيادة، وقربه من نفسه وحذره من أبي سعيد، لاختلاف كان قد وقع بينهما، وأمره أن لا يدخل القيروان إذا كان أبو سعيد بها، فالتزم زيادة ذلك إلى أ، بات ليلة بالقيروان، وأبو سعيد برقادة، وكانت له عيون عليه فبعث إليه من دخل عليه داره، وقتله بها.

وفي هذه السنة انتقل عبيد الله الشيعي بعياله وأمواله ونقله إلى المهديّة يوم الخميس ثمان خلون من شوال، بعد أن كمل قصره بها، وقصر ولده أبي القاسم، وسور المدينة وبعض دور رجاله، ولم يكمل الكل. وكانت في هذه السنة بالقيروان ورقادة أقطار كثيرة، هدمت المباني، فاضطر عبيد الله إلى استعجال التنقل. فقالت شعراء أفريقية في انتقاله واستيطانه من الشعر ما ذكرنا أبياتاً منها ليستدل بما فيها على ما كان يستحله ويجوز عنده من الأشعار (وافر)

لينك أيها الملك الهمام ... قدوم فيه الدهر ابتسام
حطت الرحل في بلد كريم ... رعتك لك الملائكة الكرام
لئن عظم الحرام وما يليه ... كما عظمت مشاهد العظام
لقد عظمت بأرض الغرب دار ... بها الصلوات تقبل والصيام
هي المهديّة الحرم الموق ... كما بتهمة البلد الحرام
كأن مقام إبراهيم فيه ... ترى قدميك إن عدم المقام
وإن لثم الحجاج الركن أضى ... لنا بعراض قصركم التشام
لئن شاب الزمان وشاب منك ... دعائهم إذا عجمت حطام
لملك أيها المهدي ملك ... غلام والزمان به غلام
لك الدنيا ونسلك حيث كنتم ... فكلكم لها أبداً إمام

وفي هذه السنة قتل بالقيروان من قرش تميم علي بن محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن هاشم بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رحمه الله - قتله أبو سعيد موسى بن أحمد إذ اتهمه برفع كتاب إلى عبيد

الله بأن أهل القيروان عقدوا مع أبي سعيد هذا على الخلاف فحكمه عبيد الله فيه وحسبه، ثم خنق حتى مات. وفيها مات من قواد بني الأغلب أبو جعفر أحمد بن تميم، ومن الفقهاء سعيد بن حكيم، وكان زاهداً. وتوفي إبراهيم ابن تونس المعروف بابن الحساب، مولى موسى بن نصير، وكان يلقب حارث حسبة، وولي أحكام القيروان وقضاء مدينة رقادة. وتوفي من الفقهاء العراقيين أحمد بن عبد الرحمن اللخمي، سمع كمن محمد بن وهب وغيره. وتوفي منهم أحمد ابن غبدون بن وهب. وتوفي الربيع بن هشام التميمي، وكان من الزهاد المتعففين.

وفي سنة ٣٠٩ فتح مصالة بن حبوس مدينة سلجمانة، وانتهب أموالها وقتل بها أحمد بن مدرار وولي عليها المعتز بن محمد بن مدرار، وانصرف. وفيها أظهر منيب بن سليمان الكناسي الداعي التشريق بجانب تهرت وتحليل المحرمات. وقيل أن عبيد الله وغيره من الأطراف، وأمرهم بإظهار التشريق فإن وجدوا الناس محتلمين له ومغضبين عليه، نشروه عند العامة، وأظهروه. فلما كشف منيب بجبل ونشريش ما أمره عبيد الله به وكان الرجل يدخل إلى حليلة جاره، فيطأها وزوجها حاضر ينظر إليه ثم يخرج، فيصق في وجهه، ويصفع قفاه ويقول له: تصبر فإذا صبر عد كامل الإيمان وسمي من الصابرة. فقام عليهم الناس وقتلوا بعضهم! وفيها، وصل أبو القاسم الشيعي إلى المهديّة يوم السبت مستهل رجب منصرف من الفيوم وكانت سفرته هذه سنتين وثمانية أشهر.

وفيها، أمر عبيد الله بحبس نحو مائتي رجل أظهروا التشريق بالقيروان

وباجة تونس، وجأهروا بتحليل المحرم وأكلوا الخنزير وشربوا الخمر في رمضان جهاراً. وعلم بذلك الخاص والعام حتى عير به أبو القاسم أيام كونه بالفيوم وكثر القول من الناس في هذا فكتب عبيد الله إلى عماله بهذه المواضع بأن يرفعوهم إليه مقيدين، ثم حبسوا، فمات أكثرهم بالسجن وكلهم مشهور بأفريقية: منهم أحمد البلوي النحاس بالرقيق كان يصلي إلى رقادة أيام كون عبيد الله بها وهي منه في المغرب فلما انتقل عبيد الله إلى المهديّة وهي منه في المشرق، صلى إليها وكان يقول: لست ممن يعبد من لا يرى! وكان يتصدى لعبيد الله ويقول له: أرق إلى السماء كم تقيم في الأرض وتمشي في الأسواق! وكان يقول لأهل القيروان في عبيد الله: أنه يعلم سرهم ونجواهم! فاقرب إليه يرجلا يوماً وهو يقول ذاك فأخذ أذنه ونطق فيها: عبيد الله الذي نقول زان! ابن الزانية! فإن كان يعلم ما قلت لك، فلينتصر!

فصاح صيحة عظيمة وقال: يا مسكين! إنه حلیم لا يعجل! ومنهم إبراهيم بن غازي، وكان يأكل في شهر رمضان جهارا ويركب الجائر وكان في أيام بني الأغلب من المتزهدين المرابطين بقصر الطوب المجاور لسوسة وقد كان أهل سوسة أرادوا تقديمه لصلوات الجماعة. وفيها تصدى جماعة من أهل القيروان بالنساء والذرية لأبي القاسم، وشكوا إليه سرا جور أبي سعيد وأصحاب المحارس، ووصفوا إفسادهم وغارتهم على أموالهم فاستأذن لهم على أبيه، فدخلوا كافة، وشكوا عليه بما شكوا به إلى أبي القاسم وأبو سعيد جالس عنده فحلف لهم عبيد الله أنه ما علم بظلمهم، وأمرهم بالانصراف ووعدن بالإنصاف وأمر أبا سعيد برفع كتابه وقوم من أصحاب المحارس إليه فحسبهم عبيد الله وأطلق كاتبه.

وفيها، أمر عبيد الله بأن يكون طريق الحاج على المهدية، لأداء ما وظف عليهم من المغارم في الشطور، وألا يتعدى هذا الطريق أحد وكان

من أمثال أهل القيروان في أيام بني الأغلب عند مطالبة شيء ممتنع: إذا أردت الحج، نخذ على بندون! وبندون هذه قرية في طريق جمة والطريق القصدة إنما هي على مصر. فلما عهد عبيد الله بأن تكون طريقهم على المهدية صار المثل القديم حقا.

وفيه، أمر عبيد الله بقتل أبي علي حسن بن مفرج الفقيه، ومحمد الشذوني الزاهد، إذ رفع عليهما إليه بتفضيل بعض الصحابة على عليّ وفيها مات بمدينة سوسة أبو الغصن نقش الفقيه، سمع من سخون زمن عون بن يوسف وغيرهما، وتوفي محمد بن هيثم بن سليمان بن حمدون القيسي الفقيه ومحمد، ومحمد ابنا عبد السلام بن إسماعيل من بني عبد الملك بت مروان، وفي سنة ٣١٠، قدم مصالة بن حبوس إلى المهدية على عبيد الله. فأقام بها أياما. ثم صرفه إلى تبهرت. فخرج إليها في شعبان. وفيها، قرى كتاب لعبيد الله الشيعي في جامع القيروان بوقعة كانت بين فلاح بن قون وبين جند مصر بذات الحمام. وفيها، قتل بجبل أوراس أبو معلوم فخلون الكّامي من قواد عبيد الله وكان قد أخرجه إلى هذا الجبل، فكلف أهله فوق وسعهم وأمرهم برفع عيالاتهم إلى المهدية، فأظهروا الطاعة له، وشرعوا فيما أمرهم به فلما كان في بعض الليالي، وثبوا عليه وعلى جند كّامة الذين كانوا معه، فقتلوهم أجمعين.

وفيها خالفت نفوسة على عبيد الله، وقدموا على أنفسهم أبا بطّة فاجتمع إليه عدد كثير واشتدت شوكته. فأخرج إليهم عبيد الله علي بن سلمان الداعي في جمع كثير فلما قرب منهم بيتوه فقتلوا من أصحابه وانهمزم الباقون وتفرقوا عن علي بن سلمان، فسار علي إلى طرابلس، وكتب إلى عبيد الله بذلك فكتب عبيد الله إلى علي بن لقمان عامله على قابس بأن يقتل كل من مر به من المنهمزين فقتل منهم جماعة.

وامتد عبيد الله بن سلمان بالجيش، وأخذ في حصار نفوسة بعزم. وفيها، غزا مسعود الفتى بلد الروم في البحر في عشرين شينا فافتتح مدينة أغاثي، وسباها وانصرف إلى المهدية وفيها، توفي محمد بن سلام بن سيار البرقي الهمداني وكان متفقا على مذهب الشيعة وتوفي من قریش أحمد بن يحيى بن خالد السهمي، بعد أن جاوز التسعين وكانت له رحلة، وسمع من أبي سنجر مسنده.

وقام حسن بن علي الحسيني مع البربر فأتى إلى فارس، وبها ربحان الكّاني قائدا عليها من قبل عبيد الله فأخرجه منها واستبد بها ثم غدره حامد بن حمدان وأدخل بن أبي العافية، وكان وكان يتولى لبني أمية، فبقى بها إلى أن أرسل الشيعي قائديه مسرورا وجواهر. ففر أمامهما. وبقي فيها قائد الشيعي إلى أن أخرجه بنو إدريس ورجع ملكها لهم حتى حاربها عسكر الناصر الأموي صاحب الأندلس وملكها. وفيها، مات أبو جعفر الطبري.

وفي سنة ٣١١، عزل عبيد الله إسحاق بن أبي المنهال عن قضاء مدينة القيروان يوم السبت لعشر بقين من جمادى الآخرة، وأخرج إليه عبيد الله من قال له: لم نزلك عن حرجة، وإنما عزلناك لئلا نك وبهانتك! وولى قضاء مدينة القيروان محمد بن عمران النفطي وكان قبل ذلك على قضاء مدينة طرابلس، فجمع بها أموال كثيرة من الرشى والأجاس ورفعها إلى عبيد الله فكانت له وسيلة إليه.

وفيها، أوقع علي بن أبي سلمان بأهل نفوسة، ودخل حصنهم وهدمه وقتل الرجال، وسبي الذرية، وذلك يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان. وفيها، ضرب محمد بن العباس الهذلي الفقيه بالدرة في الجامع عريانا، وصفع قفاه حتى جرى الدم من رأسه، ورح عليه في أسواق القيروان إذ شهد عليه قوم من المشاركة بأنه يطعن على السلطان ويفتي بقول مالك، وفيها، دخل مسرور بن سليمان بن كافي الواحات من صعيد مصر وهما حضنان في قفار ورمال، وكان عليهما عامل لصاحب مصر يعرف بالبكر بازي، فهزمه

مسرور وأسر ولده وابن أخيه، واستحوذ على الموضع ثم وقع الطاعون في أصحاب مسرور فأخرب الحصن، وقلع أثمارها، وانصرف إلى برقة.

وفي هذه السنة، مات بالقيروان من العدول وأهل السنة والخير محمد بن شيبه بن حسان وكان شيبه من القواد الداخلين أفريقية مع يزيد بن حاتم وفيها، مات بتونس أبو جعفر محمد بن تميم التميمي وكان من قواد زيادة الله فهرب إلى أبا عبد الله الشيعي ودخل معه أفريقية. وفيها، مات أبو الفضل أحمد بن جعفر بن موسى الصمادحي.

وفي سنة ٣١٢، خرج مصالة من تهرت إلى زناتة فأدخا بلدهم وقتل وسبي وأخرج خيلا إلى بعض ونواحي ابن خرز وكان فيها أكثر حماته ووجوه رجاله، وبقي مصالة في نفر من أصحابه. فبلغ ذلك ابن خرز فقصد نحو مصالة، ودارت بين الفريقين حرب عظيمة، قتل فيها مصالة وانهزم أصحابه وذلك يوم الجمعة لعشر بقين من شعبان. وفيها، خرج أبو جعفر ابن عبيد الحاجب في أسطول كبير إلى صقلية يريد غزو الروم فشقي بصقلية تلك السنة، ولم يلق العدو، وفي هذه السنة، مات بالقيروان القاضي محمد بن عمران النفطي في شهر ربيع الأول، وكان يرتشي على الأحكام، ويستهر في ضروب من المنكر. فولى عبيد الله القضاء مكانه إسحاق بن أبي المنهل مرة ثانية وكتب في عهده: وإنما كنا عزلناك للينك ومهانتك! ورددناك لدينك وأمانتك! وفيها، مات محمد بن حفص الفهم، وكان من أهل الفضل والدين، وأم بالناس الإشفاع بجامع القيروان في أيام بني الأغلب قم ولى صلاة جامع رقادة وكان يرتوق في كل شهر عشرة مثاقيل فأحضره المروذي عند نفسه وقال: لا يوم بنا إلا ولى من أولياء أمير المؤمنين. فأدخل إلى بعض الدعاة يأخذ عليك البيعة، وتبقى على خطتك! وإنما أراد أن يتشرك معهم ويدخل في الكفر مدخلهم. فقال له: أنظرني اليوم أشاور نفسي! فأنظره ثم أتاه

من الغد وقد كره الدخول معهم في شيء مما هم عليه فعزا عن الصلاة. وفيها، قري كُتاب عبيد الله بالقيروان وأعمالها بدخول مسرور بن سليمان بن كافي الواحات، وملكها، وتاريخه يوم الخميس لثمان ليال بقين من محرم.

وفي سنة ٣١٣، غزا أبو أحمد جعفر بن عبيد الحاجب بلد الروم من صقلية، فافتتح أماكن كثيرة ومنها مدينة واري، وقتل بها ستة آلاف مقاتل، وأخرج منها عشرة آلاف سبية وأسر بها بطريقا صالحه عن نفسه ومدينته بخمسة آلاف مثقال وانصرف إلى صقلية فوصل إليها لأربع بقين من شهر ربيع الآخر، وكتب إلى عبيد الله الشيعي بالفتح، ثم قدم جعفر بعد ذلك إلى المهديّة وأوصل جميع الغنائم إلى عبيد الله الشيعي فذكر بعض رجاله أنه دخل عليه وبين يديه جوهر كثير، وديباج سني، وأموال، فقال له: يا مولاي، ما رأيت كالיום منظر! فقال له عبيد الله: هذه من الغنائم التي أصببت بواري! فقال له الرجل: أن من أدى هذا لأمين! وأراد أن يثني بذلك على جعفر الحاجب فقال له عبيد الله مبادرا: والله! ما أعطاني من الجمل إلا أذنيه! وفيها، ولي أحمد بن بحر بن علي بن صالح، المعروف بابن أخي كرام، مظالم القيروان وجلس للنظر يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأخيرة، وفيها، مات بمدينة سوسة محمد بن يسطام بن رجاء الضبي الفقيه وكانت له رحلة سمع فيها من ابن عبد الحكم وغيره. ومات عبد العزيز بن شيبه وكانت له رحلة أيضا سمع فيها من بندار وأبي موسى الزمن، وأبي حفص القلاس، ولم يتخلف هذا المتوفى وارثا، فورثه عبيد الله وكان له مسجد يجاور داره وفندقه، فأغلق الناظر في المواريث لعبيد الله المسجد، ووصله بالدار والفندق. وفيها ابتداء عبيد الله الشيعي ببناء مدينة المسيلة وسماها المحمدية على يد علي بن حمدون الجذامي المعروف بابن الأندلسي في وسط أرض بني برزال وبني كهلان على قرب من هوار. وكانت على واد ولها سوران تنفيها ساقية من هذا الوادي.

وفي سنة ٣١٤، عزل عبيد الله الشيعي عن عمالة القيروان نسينا فتاه وضمه إلى المهديّة، وحبس عند جودر الفتى، وقبض على أمواله، وكان نسيم سريع الغضب والضرب بالسوط. وولي عبيد الله عمالة القيروان صابر الفتى مولى بن قزح. وفيها، زحف ابن خزر إلى تهرت وحاربها فانهزم عنها وأخرج عبيد الله في أثره موسى بن محمد الكّامي في جماعة من القواد فلها صاروا بطبنة، دخل محمد بن خزر الصحراء، وأبقى أخاه عبد الله مع وجوه رجاله بوادي مطماطة، فدات بينه وبين رجال الشيعي حرب عظيمة كان الظفر فيها والغلبة لابن خزر. ثم أخرج عبيد الله إلى إسحاق بن خليفة وأصحابه وخالفت على الشيعي لمائة، وما جاورها من القبائل واستمدوا بابن خزر فكتبوا إلى عبيد الله مستمدين، فأمدهم بجيش كبير فهزموه. وأرسلت هذه القبائل إلى محمد بن جزر، فولى عليهم أخاه عبد الله.

ودارت بينه وبين جيوش الشيعة وقائع كثيرة. وفيها، مات مونس البغدادي المغني مولى موسى بن بغل بالمهدية فجأة. وفي سنة ٣١٥، خرج أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي من المهديّة يريد المغرب، يوم الخميس لتسع ليال خلون من صفر. وكانت طريقه على القيروان، ثم نزل الأريس. فأقام بها أياما حتى اجتمعت إليه العساكر. فسار إلى باغاية، ثم إلى كرامة، ونقدم إلى جبل فيه بنو برزال، وقوم من مكلاّة. فامتنعوا عليه، فخاربههم حتى فتح له عليهم ونوجه إلى مدغرة، ثم إلى سوق إبراهيم. فأقام في تلك الجهة أكثر من شهر لكلب الشتاء وكثرة الوحل. فحكى بعض رجال عبيد الله أنه كان بين يديه، هو وطائفة من خدمه وصحبه، وقد توقفت كتب أبو القاسم عن الورود حتى ساءت الظنون من جهته، فورد كتابه على أبيه بحضرهم. فلما فتحه وقرأه، بكى، قال: نخفنا أن يكون حدث وأمر وهمنا بالبكاء معه حتى افتتح الكلام، فقال: اللهم أنك تعلم أنني ما أردت إخراجه إلى المغرب إلا رضاك، ونصرة دينك، وإذلال أعدائك! وما

يسهل عليّ أن أفارقه يوما واحدا، قال: ثم التفت إلينا فقال: هذا مولانا كم يذكر في كتابه أنه أقام فير مناخ واحد شهرا كاملا، عليه المطر كل يوم بالغدو والآصال، وأنه مشى عقابا كثيرة راجلا، إذ لم يستطع الركوب فيها لوعرها، ويقتات كل يوم ببيضة أو نحوها لكثرة الذباب في العسكرا! وفيها، خرج صابر الفتى إلى صقلية لغزو بلد الروم، في أربعة وأربعين مركبا، فأصاب في غزاته هذه وسبي وقتل. وفيها، قتل برملة المهديّة معلّى بن محمد الملوّسي الداعي، بعثه أبو القاسم من المغرب مقيدا. فأمر عبيد الله بضرب عنقه. وفيها، قتل بمصمود الساحل، من أحواز طنجة حاميّ المفتري ابن من الله. وكان قد تنبأ بالجبل المنسوب إليه، وأجابه بشر كثير من البربر الجهال، وشهدوا له بالرسالة. وقد كان سنّ لهم صوم يزم الخميس، فن أكل فيه، غرم خمسة أثوار، وصوم الاثنين، فن أكل فيه غرم ثورين، ونحو هذا من الباطل والحقائق. ومما قيل فيه (طويل).

قالوا افتراء إن حاميّ مرسل ... إليهم بدين واضح الحق باهر
فقلت: كذبتكم بدد الله شملكم! ... فما هو إلا عاهر وابن عاهر!
فإن كان حاميّ رسولا فإنني ... بمرسل حاميّ لأول كافر!
رووا عن عجوز ذات إفك بهيمة ... تجاوز في أسخارها كل ساحر
أحاديث إنك حاك إبليس نسجها ... يسرونها والله مبدي السرائر!
وفي هذه السنة، توفي محمد بن سلمون القطان بأفريقية، وله سماع كثير من رجال سخون. وتوفي من التجار وأهل العدالة حاتم بن عبد الرحمن بن حاتم، سمع من سخون ورحل إلى العراق.

وفي سنة ٣١٦، زحف أبو القاسم الشيعي إلى قبائل البربر بالمغرب، فنزل ببرقاجنة على حصنها المعروف بأغرزيوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم، فقاتلهم، ونقب السور عليهم حتى سقط، وهلك ممن كان تحته وفوقه عدد كثير. فلما نظروا إلى الغلبة، أحرقوا الأمتعة، وعرقبوا الدواب والمواشي، وقاتلوا الشيعة حتى قتلوا، وأسر منهم من استأسر وانتهب ما في الحصن. وأجابت هواره ولماية إلى طاعة الشيعة، فأمنهم أبو القاسم، ثم سار إلى جهة تبهرت فأقام بها نحو شهر، وتقدم منها إلى تامغلت، فأقام بها شهرين، مناظرا لـ بن حزر، وهو حينئذ بموضع يقال له أورن ثم نكب أبو القاسم إلى مدينة طبنة، وانصرف إلى المهديّة دون أن يلتقي ابن حزر. وقيل أن سبب انصرافه، إنما كان لكاتب ورده من قبل ابنه قاسم، يعلمه أن الناس تحدثوا بمبايعة عبيد الله لابنه أحمد المكنى بأبي عليّ وأنه صلى بالناس عيد الفطر وعيد الأضحى. فأقلقه ذلك، وقدم المهديّة.

وفيها غزا صابر من صقلية إلى بلد الروم فاقتتح موضعا يعرف بالغيران وقلعة الحسب، واحتوى على ما فيهما، وزحف إلى سليبر، فصالحه أهلها بمال وديباج. ثم توجه إلى نابل، فصالحوه أيضا بمال وثياب ثم صدر إلى صقلية. وفيها، مات محمد بن أحمد بن أبي زاهر من الفقهاء بالقيروان، وعبد الله المعروف بالعيني وكان من المعبدین. وفيها، ابتداء غلاء السعر بالقيروان. زفيها كان ابتداء أمر أبي مخلص بن كيداد الزناتي، وهو رجلا أخذ نفسه بمذاهب النكار يحلل دماء المسلمين وفروجهم ويسب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وكان أول أمره بتيقوس، يعلم الصبيان، ويعتقد الخروج على السلطان ويحتسب على الناس في كثير من أفعالهم، وعلى جباة الأموال. فغير

في هذا العام على عامل تقيوس، وأمر بقتله، فقتله أهل تقيوس ففزع أبو يزيد عند ذلك، وخرج إلى الحج. فلما وصل إلى طرابلس، وصل كتاب عبيد الله في طلب قوم من البربر فهرب هو وصاحبه أبو عمار الأعمى، وكان على مذهبه وضلاله. فكرا في تقيوس، فورد كتاب عبيد الله في طينة فيها زال يقر ويستتر إلى أن ظهر أمره بعد ذلك.

وفي سنة ٣١٧، كان بالقيروان وأعمالها وباء عظيم وغلاء سعر فبلغ قفيز قمح بالكيل القرطبي مثقال ذهب. وفيها، تغلب محمد بن خزر على الزاب كله وملكه جملة. وفيها، بنى بنو محمد المدينة المعروفة فجّر النسر. وفيها سار موسى بن أبي العافية إلى مدينة نكور وصاحبها يومئذ المؤيد بن عبد البديع ابن إدريس بن صالح بن منصور. فحاصره فيها حتى تغلب عليها واستباحها وغنم ما فيها وقتل المؤيد وهدم أسوارها. ثم سار يريد بني محمد بن سليمان ابن عبد الله، وعميدهم يومئذ الحسن بن عيسى المعروف بابن أبي العيش صاحب جرواة، وهي أشرف مدائن ذلك الجانب. فنزل عليها وحاصر ابن أبي العيش فيها حتى أوفى على أخذها. فلما أحس ابن أبي العيش بالغبلة، وخرج في الليل، هاربا بأهله وولده ومن تبعه، ونجا إلى مربي جرواة المعروف بأكاس. فدخل منه البحر وعاد بجزائر ملوثة. ثم سار إلى جزيرة أرشقول، وهي منيعة لا ترام، فتحصن فيها بأهله وولده ومواليه. وجال موسى بن أبي العافية بتلك الجهات وأخذ مدينة تربية ومدينة أرشقول. وهرب كل من في ذلك الجانب من آل محمد بن سليمان، وخلص الموضع لموسى بن أبي العافية وأخلى منه قواد بني خزر وعملهم وصار في ملكه من أحواز تبهرت إلى السوس الأقصى وفيها، غزا صابر الفتي غزوته الثالثة والتقى في البحر بالسردغوس، وهم في سبعة مراكب، وصابر في أربعة مراكب فانهزم السردغوس. وفتح صابر مدينة نرمولة، وسبى فيها سبيا كثيرا، ثم انصرف إلى المهديّة. وفيها مات بالقيروان من الفقهاء أحمد بن نصير بن زياد، سمع من محمد بن سحنون ومن ابن عبدوس

ومن يوسف بن يحيى المغامي وكان عالما بالمنظرة مليئا بالشاهد، صحيح المذهب، سليم القلب. قال محمد بن حار: حضرته يوما، وعنده جماعة من المحاضرين في المسألة، حتى دخل عليه محمد بن عبد الله بن مسرة القلاطبي في حين توجهه إلى الحج فسلم، وجلس جانبا وهو يجيل بصره في وجوه المتكلمين. قال: فلم أشك أنه من أهل العلم، ولم أكن عرفته باسمه. فلما أظهر الشيخ أحمد بن نصر القيام، قال له: (يا شاب جلست منذ يوم. فهل من حاجة تذكرها؟) فجابه محمد بن مسرة بكلام حسن بليغ وقال له: (أتيتك مقتبسا من نورك، ومستمدا من علمك) وجابه أحمد بن نصر أيضا بجواب حسن. ثم قام وقنا بأثره. وفيها، مات محمد بن محمد بن خالد القيسي المعروف بالطرزي، وكان ولي المظالم بالقيروان، ولما أراد إبراهيم بن أحمد توليته المظالم، اعتذر إليه بأن فيه حياء ولين جانب وقلة فقه، فقال له إبراهيم: (أما الحياء واللين، فإذا أمرت ونهيت زالا عنك. وأما قلة الفقه فشاور الفقهاء في أحكامكم) وولاه فلم يكن بالقيروان حاكم أشد صرامة منه.

وفي سنة ٣١٨ خرج حميد بن يصل من المهديّة إلى تبهرت بغير إذن عبيد الله، وبني قلعة هنالك، ورد حماد بن هاشم إلى بلده، وصاهره وأصلح بينه وبين سيار بن عبد الوهاب. فكتب عبيد الله إلى يصل بن حبوس أن يوجه حميد إلى المهديّة، ولا يؤخره ساعة. فرجع حميد إليها، ولم يلق من عبد الله سوءاً. وفيها، نزلت الأمطار بالقيروان وصلحت الأحوال، ورخصت الأسعار بعد ضيق شديد كان فيه الناس، وغلاء، ووباء. وفيها مات بالمهديّة هشام بن الربيع التميمي وكان من أهل الخير والفضل وناله من عبيد الله الشيعي عقاب، وضربه بسبب ابن القديم. وأوصى ألا يدفن في المهديّة فسيق إلى القيروان ودفن بها.

٥٠١٢ ذكر مدينة جرواة

٥٠١٣ ذكر مدينة تبهرت

ذكر مدينة جرواة

كانت مدينة جرواة عليها سور مبني بالطوب. وبخارجها عيون مالحة وداخلها آبار كثير طيبة عذبة، وحولها أرباض من جميع جهاتها، وفيها قصبة مانعة وفيها خمس حمامات، وجامع، له خمس بلاطات أسسها أبو العيش عيسى بن إدريس سنة ٢٥٧، ووليا بعد ابنه الحسن بن أبي العيش في سنة ٢٩١، وخرج منها إلى حصن المنصور في سنة ٣١٩، ثم عاد إليها في سنة ٣٢٣، ثم انتقل إلى تلمسان في

سنة ٣٢٥. وكان لها أربعة أبواب وحولها فحوص للزرع والضرع وحولها قرى مدغرة على البحر. وعلى الجبل بنو زناتن، ومن جهة الشرق بنو يفرن من زناتة ومن جهة الغرب قبائل زواغة وغيرهم.

ذكر مدينة تبهرت

وأما مدينة تبهرت، فأسسها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام، وكان مولى لعثمان بن عفان وكان خليفة لأبي الخطاب أيام تغلبه على إفريقية ولما دخل ابن الأشعث القيروان، فر عبد الرحمن إلى الغرب بما خلف من أهله وماله فاجتمعت إليه الأباضية، وعزموا على بنيان مدينة تجمعهم، فنزلوا بموضع تبهرت وهي غيضة بين ثلاثة أنهار فبنوا مسجدا من أربع بلاطات، واختطة الناس مساكنهم، وذلك في سنة ١٦١. وكانت في الزمان الخالي مدينة قديمة فأحدثها الآن عبد الرحمن بن رستم وبقي بها إلى أن مات في سنة ١٦٨ وقد تقدم ذكر ذلك.

٥١٤ ذكر من ملك مدينة تبهرت

٥١٥ من حين ابتدائها من بني رستم وغيرهم

ذكر من ملك مدينة تبهرت

من حين ابتدائها من بني رستم وغيرهم

أولهم عبد الرحمن بن رستم: كانت مدته بها سبعة أعوام. ثم وليها ابنه عبد الوارث فكانت مدته بها عشرين سنة وتوفي في سنة ١٨٨. ثم وليها ابنه أبو سعيد أفلح بن عبد الوارث، ومات سنة ٣٠٥، ثم وليها أيضا ابنه أبو بكر بن أفلح بن عبد الوارث بن عبد الرحمن بن رستم، فاختلف عليه الأمر وأخرجه أهلها من تبهرت، ثم أعادوه إلى أن مات فيها. ووليها بعده أخوه أبو اليقظان محمد ابن أفلح، فكانت مدته بها سبعة وعشرين سنة، ووفاته في سنة ٣٨١، ووليها بعده أبو حاتم يوسف بن أبي اليقظان، فأقام فيها عاما واختلف عليه الناس واضطرب أمره، فخرج إلى حصن لواتة، وقامت بينه وبين أهل تبهرت حروب عظيمة. ووليها بتقديم أهلها يعقوب بن أفلح بن عبد الوارث بن عبد الرحمن بن رستم، فأقام واليا أربعة أعوام ثم خلعه وقدّموا أبا حاتم بن أبي اليقظان، فأقام ستة أعوام إلى أن قتله بنو أخيه سنة ٢٩٤، ثم وليها يقظان ابن أبي اليقظان، فقتله أبو عبد الله الشيعي، في خبر طويل، مع جماعة من أهل بيته، وذلك في شوال سنة ٢٩٦، وانقطع ملك بني رستم من تبهرت في هذا التاريخ.

ووليها في أيام الشيعة أبو حميد دواس اللهبصي ولاه أبو عبد الله الداعي حين خروجه منها إلى سلجمانة، فأقام فيها ستة أشهر حتى أئته العساكر من أفريقية، فافتتحها في سنة ٢٩٩، ووليها مصالة بن حبوس المكاسي، إلى أن قتله محمد بن خزر الزناتي في شعبان سنة ٣١٢ فكانت ولايته بها ثلاث عشرة سنة ووليها بعده أخوه يصل بن حبوس إلى أن توفي سنة ٣١٩، ثم وليها أبو مالك بن يغمراس بن أبي شحمة اللهبصي، فقام عليه أهل البلد، وأخرجوه سنة ٣١٣، ووليها أبو القاسم الأحذب ابن مصالة بن حبوس، فقدموه على أنفسهم، فأقام عليهم سنة واحدة، فلما انصرف ميسور من أرض المغرب إلى أفريقية، حاربهم حتى ظفر بالبلد، وقتل أبا القاسم بن مصالة المذكور، وولي على تبهرت داود بن إبراهيم العجيسي، فأقام واليا عليها إلى أن أخرجه حميد ابن يصل في جمادى الآخرة من سنة ٣٢٣، في أيام أبي يزيد مخلد بن كيداد البفرني، وخرج حميد بن يصل من تبهرت في سنة ٣٣٣ في خبر يطول ذكره وجاز إلى الأندلس، واحتل إسماعيل الشيعي مدينة تبهرت، وولي عليها ميسورا الفتى فاضطرب عليه أهل البلاد لأنه سار فيهم بسيرة غير مرضية، فاستدعوا محمد بن خزر الزناتي، وابنه الخير، ومن معهم من زناتة، فقدموا إلى تبهرت في جمع عظيم، وأظهروا أنهم ناصرون لميسور، فخرج إليهم فغدروه وأسروه. ودخل ينو خزر وزناتة مدينة تبهرت، ونزلوا دار الإمارة ثم اضطرب أمر أهل تبهرت وتغلب عليها يعلي بن محمد البفرني الزناتي، إلى أن قدم جوهر قائد الشيعة، سنة ٣٤٩، وكانت حوا تبهرت بساتين من أنواع الثمار، كثيرة الأشجار وهي شديدة البرد كثيرة الأمطار، قيا لبعض الظرفاء من أهلها (كم الشتاء عندكم من شهر في السنة!) قال: (ثلاثة عشر شهرا) وقال بعض الشعراء تبهرت من قصيدة أولها (طويل)

فراغ الهوى شغل ومحيا الهوى قتل ... ويوم الهوى حول وبعض الهوى كل

وجود الهوى بخل ورسل الهوى عدى ... وقرب الهوى بعد وسبق الهوى مطل
سقى الله تهرت المنى وسويقة ... بسياحتها غيثا يطرب بها المحل
كأن لم يكن والدار جامعة لنا ... ولم يجتمع وصل لنا ولا شمل
فلما تمادى العيش واشتقت العصي ... تداعت أهاضيب النوى وهي تنهل
سلام على من لم نطق يوما بيننا ... سلاما ولكن فارقت وبها ثكل
وما هي آماق يفيض دموعها ... ولكنها الأرواح تجري وتنسل
ومما قيل حين قضى الله بخرابها وانتقال أهلها عنها وأربابها (طويل)
خليل عوجا بالرسوم وسلمها ... على طلل أقوى وأصبح أغبرا
ألما على رسم تهرت دائر ... عفته الغواصي الرائحات فأقفرا
كأن لم تكن تهرت دارا لمعشر ... فدمرها المقدار فبمن تدمرا

وتهرت القديمة هذه هي التي خربها الخير بن محمد بن خزر الزناتي، وفيها مات بالقيروان من قریش أبو الحسن المطلبی أحمد بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن علي بن زيد بن ركانة بن عبدود بن هاشم بن عبد المطلب يوم الأربعاء لأربع عشر ليلة خلت من جمادى الأول وكان قد صحب عبيد الله بسجلهاسة قبل أن يملك القيروان، فنال بها جاها كبيرا في آخر عمره وفيها، مات محمد بن عثمان الخرساني الفقيه، صاحب الوثائق بالقيروان، وكان يذهب مذهب أهل الكوفة، ولم يكن ممن يقول بخلق القرآن وله سماع بمصر من يونس بن عبد الأعلى وفي سنة ٣٢٩، اكتب موسى بن أبي العافية (صاحب الأندلس) (أمير المؤمنين) (عبد الرحمن) الناصر من العدو (الغريبة) ورغب في موالاته والدخول في طاعته، وأن يستميل له أهواء أهل العدو المجاورين له فتقبله (أمير المؤمنين) أحسن قبول وأمدته بالخلع والأموال وقوى أوده على ما كان يحاوله من حرب ابن أبي العيش وغيره فظهر أمر موسى من ذلك الوقت في العدو وتجمع إليه كثير من قبائل البربر وتغلب على مدينة جراوة وأخرج عنها الحسن بن أبي العيش بن إدريس العلوي ودارت

٥١٦ ذكر مدينة تلمسان

٥١٧ ذكر افتتاح مدينة سبتة بالعدوة

بينهما محاربات ومواقعات. (وبني الحسن بن أبي العيش حصنا منيعا بجبل بينه وبين جراوة أربعة) أميال وحوله قرى لدغرة، وبني يفرن وغيرهم من القبائل وكان لأبي العيش أيضا وبنيه مدينة تلمسان وما والاها، يسكنها مثل زواغة ونفزة وغير ذلك، وفي ذلك يقول بكر بن حماد (كامل)

سائل زواغة عن طعان سيوف ... ورماحه في العارض المتهلل
وديوار نفرة كيف داس حريمها ... والخليل قرغ في الوشيج الذلل
غشى مغيلة بالسيوف مذلة ... وسقى جراوة من نقيع الحنظل

ومن جراوة إلى تهرت ثلاثة مراحل وإلى حصن تامغلت مرحلتان يسكنه بنو دمر من زناتة.

ذكر مدينة تلمسان

ذكر أن تلمسان قاعدة المغرب الأوسط قاله البكري وصحح قوله كثير مكن الإخباريين، ومن كتاب رجار قال: وبين مدينة تلمسان وتهرت، يسكن بنو مرين وجميع قبائل زناتة، منهم تجين ومغراوة وبنو راشد، وورنيد، وغيرهم، قال: وأكثرهم فرسان يركبون الخيل ولهم معرفة بارعة وحذق وكياسة، لاسيما بعلم الكتف. وهم منسوبون إلى جانا. قال: وزناتة في أصل مذهبهم عرب صراح وإنما تبرروا بالمجاورة والمخالفة للبربر. وذكر أنهم ينتسبون إلى بر بن قيس بن إلياس بن مضر.

ذكر افتتاح مدينة سبتة بالعدوة

وفي سنة ٣١٩، هذه المؤرخة، افتتح الناصر لدين الله الأموي مدينة سبتة بالعدوة (على بحر الزقاق من بر العدو، التي هي نظام باب المغربين ومفتاح باب المشرقين، وهي على ما قبل مجمع البحرين قاعدة البر والبحر واللؤلؤ الحالة من الدنيا بين السحر والنحر وفي فتحها يقول عبيد الله بن يحيى بن إدريس يخاطب الناصر (طويل)

بسيفك دانت عنوة وأقرت ... بصائر كانت برهة قد تولت
وما قربت أهواؤها إذ تقربت ... ولا حليت بالزبي لما تحلت
ولكن أزال راسيات عقودها ... عزائم لو ترمي بها العصم زلت
ودولة منصور اللواء مؤيد ... تدل بحد الله من شر دولة
فهذا أوان النصر منها وهذه ... بشائره تروي الأنام ببسطة

فشكها أمير المؤمنين (الناصر) بالرجال، وأتقنها بالبيان وبرني سورها بالكدان وألزم فيها من رضىه من قواد وأجناد وصارت مفتاحا إلى العدو قال عريب: وبابا إليها، وثقافا على المراسي في ذلك الجانب وقامت الخطبة فيها باسم أمير المؤمنين الناصر وذلك يوم الجمعة لثلاث خلون من ربيع الأول من العام المؤرخ. وفيها، ورد الخبر على عبيد الله بالمهدية بدخول موسى بن أبي العافية وأهل سبتة في طاعة أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد الناصر، وأن مريكا نزل زم الأندلس بمرسى جراوة لموسى بن أبي العافية، فهبط إليه الحسن بن أبي العيش واخذ ما كان فيه. فكتبه قاضيه ووجه أهل موضعه وكله في ذلك فلم يصرف إليه متاعه، فزحف موسى إلى صاء، فأخرج منها عامر بن أبي العيش وأمن أهلها، ثم زحف إلى زواغة، فخرج إليه ابن أبي العيش فلما رأى كثرة من معه انصرف عنه من غير قتال، وأحرق ابن أبي العافية بسيط جراوة وتجول في البدأ، ودارت بين أبي العيش وبين ابن أبي العافية مراسلات. ورغب ابن أبي العيش في مصالحته وصرف ما كان أخذ له،

واصطلحا. ورجع موسى إلى بلده، ثم زحف ابن أبي العافية إلى أزقور، فاستمد أهل قلوع جارة عليه بابن أبي العيش، فأمدهم بخيل وأغاروا على بعض نواحي ابن أبي العافية، وأخذوا له جمالا كثيرة، وقاسموا الغنيمة ابن أبي العيش. فعادت الحرب بين ابن أبي العافية وبين ابن أبي العيش وكتب أهل جراوة ابن أبي العافية وضمنوا له دخول المدينة وزحف إليها بمن معه، وأدخله أهلها طائفين. ثم قصد إلى المنصور فدعاهم إلى الأمان فأجابهم بعضهم، تغلي على سائرهم وقتل بها جماعة، وقيل أنه أخذ زوجة ابن أبي العيش القرشية، وأولاده وخيله وسلاحه وأحرق المدينة بالنار، وانصرف إلى محلته وبعث زوجة ابن أبي العيش إلى أهلها مع ثقات من أهل حراوة فعظم على الشيعي ما ورد من هذا الأمر، وأقلقه وكتب إلى القبائل في المغرب يحضهم على طاعته ويمنهم إمداده ونصره، ومدينة سبتة مدينة أزية على ضفة البحر الرومي وهو بحر الزقاق الداخل في البحر المحيط، وهي في طرف من الأرض والبحر محيط بها من كل ناحية إلا موضعا ضيقا جدا، لو شاء أهلها أن يصلوه بالبحر الآخر لفعلوا فتصير من جزر البحر. ويجلب الماء إلى حماماتها من البحر. وأهلها هرب وبربر ولم تزل دار علم. وشرقيها جبل منيف داخل في البحر والبحر محيط به ويلقط في بعض نواحي هذا الجبل ياقوت صغير الجرم، عريق في الجودة، وبحرها يستخرج منها المرجان وهو السبذ. واختلف في تسميتها بستة فقال قوم: سميت بذلك لانقطاعها في البحر تقول العرب: (ست النعل) إذا قطعت. وقال آخرون أن رجلا من ولد سام بن نوح - عم - اسمه سبت خرج من المشرق

لأسباب عرضت له فتوغل في المغرب حتى أتى موضعها فاخطت فيها موضعاً يعمره. ويذكر أشيائنا الحديث المسند عن وهب بن مسرة الحجري وذلك أن أبا عبد الله محمد بن علي حدثه عام ٤٠٠ عن وهب بن مسرة عن بن وضاح عن سخون عن إبراهيم ابن القاسم عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: أن بأقصى المغرب مدينة تسمى سبتة أسسها رجل صالح اسمه سبت من ولد سام بن نوح، واشتق لها اسما من اسمه ودعا لها بالبركة والنصر فما رماها أحد بسوء إلا رد الله بأسه عليه. قال بن حمادة: قال شيخنا العالم أبو الفضل عياض بن موسى وهذا الحديث تشهد بصحته التجربة، فأنها مازالت محمية عند من وليها من الملوك وقل وما أحدث أحد منهم فيها حدث سوء إلا هلك.

قال تاعذري: كان ملك من ملوك القوط بالأندلس يسمى تودوش فجاز البحر إلى سبتة لمحاربة البربر فحاصروهم فيها ثم تألفوا عليه فأمكنه منهم غزاة فقتلهم، ولم ينج منهم ألا القليل. ورجع تودش إلى الأندلس. وبقي البربر فيها إلى أن دخل الروم ثانية، وكان فيها

يليان. وكان عقبة بن نافع لما غزا الغرب ودوخه كله وصل إلى سبتة فخرج إليه يليان بهدايا وتحف وأستلطفه وكان ذا عقل وتجربة فأمنه عقبة وأقره على موضعه ثم دخل العرب بعد ذلك بالصلح ثم قام البربر إلى طنجة وزحفوا إليها فأخرجوا من كان فيها وخربوها، وبقيت مسكناً للوحوش مدة طويلة. ثم دخلها رجل من غمارة يسمى ماجكس فعمرها وأسلم ورأس فيها وانضافت له البربر إلى أن هلك ثم وليا بعده أبنه عصام بن ماجكس ثم أبنه مجبر بن عصام ثم وليا الرضى بن عصام وكان يحكم فيها برأي فقهاء الأندلس ثم دخلها قوم من قلشانة فاشترتوا فيها أرضا من البربر وبنوا فيها دورا وما ثلم من سورها الذي هو اليوم الستارة وكانوا مع ذلك يدعون الطاعة لبني إدريس

حتى أفتتحها عبد الرحمن الناصر ودخلها قائده فرج بن غفير يوم الجمعة ليلة خلت من شعبان من سنة ٣١٩. ذكرى من ولي سبتة لبني أمية: فوليا من قبل الناصر بن غفير سنة ٣١٩ المذكورة. ثم وليا أحمد بن عبد الصمد الغرناطي: ثم وليا محمد بن حزب الله سنة ٣٢٣ ثم عزل. ووليا محمد بن مسلمة في سنة ٢٣٦ ثم عزل. ووليا ابن مسلمة أيضا إلى سنة ٣٣٠ ووليا ابن مقاتل إلى أن أسر في شوال ٣٣٢ أسره عندهم بنو محمد الأدارسة إلى أن لحقهم قاضيها محمد ابن أبي العباس في رمضان سنة ٣٣٣، فجنحوا بنو محمد إلى السلم على يد القاضي فأطلقوا ابن مقاتل، وبعثوا رهائهم إلى أمير المؤمنين الناصر بقرطبة. ولم يزل ولاة الناصر يتداولونها إلى سنة ٣٤٦.

وفيه مات أحمد بن أحمد بن زياد الفارسي صاحب الوثائق بالقيروان، وكان له سماع ونظر، وتولى كتابة السجلات والأحكام لعيسى بن مسكين، وله كتب في الوثائق والشروط في مواقيت الصلاة. وفيه مات في مدينة نهرت يصل بن حبوس صاحبها فقدم أهلها على أنفسهم علي بن مصالة وتكبوا إلى عبيد الله بالخير، فولى عليهم حميد بن يصل وأخرجه إليها في جيش كثيف وفصل إليها في ذي الحجة. وفيه ولد أبو تميم معد بن إسماعيل الشيعي يوم الاثنين لتسع خلون من شهر رمضان بقصر المهديّة.

وفي سنة ٣٢٠ أوقع حميد بن يصل بداود بن مصالة، وسانن وأبي حميل بن برنو وقتل جماعة من أصحابهم وحصرهم في حصن أبي حميل ثلاثة أشهر. وقرى بذلك كتاب عبيد الله الشيعي على المنابر تأريخه يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادى الأخيرة. وفيه سار موسى بن أبي العافية إلى محمد بن خزر (أمير زناتة) وطوى نحوه المراحل فألقاه على حين غفلة فقاتله وهزمه وقل أصحابه ثم أنصرف إلى جراوة. وكان سبب

ذلك بن خزر كتب إلى موسى بن أبي العافية في أمر ابن أبي العيش بما أحفضه، وأظهر أنه مؤيد له عليه. فأنف لذلك موسى وخرج إليه وواقعه وفيه عزل عبيد الله بن سلمان صاحب الوثائق، وكان في عناية أبي جعفر البغدادي وزن بابنه فرع بذلك عليه خليل الشيعي وقال له: (يا مولاي إنما يعمل البغدادي ٦ في شتر هذه الدولة الزاهرة وإدخال العيب فيها! وقد ولى على قضاء إطرابلس والوثائق رجلا مستهترا بالمرء!) ورفع إليه قول ابن عامر الفزاري في مرد إفريقية أيام بني الأغلب وفيه ذكر أبو سلمان هذا بقبيح من القول. وأول الأرجوزة:

وروضة تكسويم الأرض
وشيثا بديعا من نبات غض
منها على الأرواح قاض يقضي
بياض بعض واحمرار بعض
وفيه:
بار ابن سلمان على الغزلان
شبيه بدر فوق غصن بان
ما إن له في حسنه من ثان
كأنما صبغ من العقيان

فلذلك عزله، وولى قضاء مدينة إطرابلس أحمد بن بحر وكان صاحب مظالم القيروان وصلاتها باختبار إسحاق بن أبي المنهل. وفيه أظهر موسى ابن أبي العافية الدعوة لأمير المؤمنين الناصر وقام بها وذلك في شعبان بعد أن تغلب على نكور ودخلها بالسيف وقتل صاحبها

المؤيد بن عبد البديع بن صالح بن سعيد بن إدريس وبعد أن حصر بني محمد في الجبل المعروف بحجر النسر حتى صالحوه على شيء أخذهم منهم وزال منهم.

٥٠١٨ ذكر من ولي سجلماسة من حين فتحها الشيعي

وفيها مات في تونس أبو حبيب نصر الرومي وله سماع من ابن عبد الله الحكم من أهل الحفظ للمسائل. وفي سنة ٣٢١ سجلماسة أبو المنصور بن معتز بن محمد وهو ابن ثلاثة عشر سنة فكث في ولايته شهرين وقام عليه ابن عمه محمد ابن الفتح المسمى بالأمين فخاربه وتغلب وتغلب عليه وأخرجه من سجلماسة وتملكها وكان سنيا يظهر العدل إلا أنه تسمى بأمر المؤمنين وتلقب بالشاكر لله وضرب بذلك الدنانير والدراهم وذلك ٣٤٢ فكث كذلك إلى أن قربت منه عساكر أبي تميم معد العبيدي.

ذكر من ولي سجلماسة من حين فتحها الشيعي

ولي الشيعي المزاني المتقدم ذكره في سنة ٢٩٨ فقتله أهل سجلماسة بعد إقامته خمسين يوما وولياها أبو الفتح بن الأمين سنتين وأشهرًا. ثم وولياها أحمد بن الأمين سنة ٣٠٠ وبقي بها إلى أن حاصره مصالة بن حبوس وافتتحها عنوة وقتله في محرم سنة ٣٠٩ وولي مصالة على سجلماسة المعتز ابن محمد من بني مدرار وبقي بها إلى سنة ٣٢١ المورخة وتوفي. فولياها أبو المنصور المذكور.

وفي سنة ٣٢٢ توفي عبيد الله المهدي ليلة الثلاثاء من ربيع الأول فكانت مدته أربعًا وعشرين سنة وعشرة أشهر ونصفًا. وكان وصوله إلى مصر في ذي القعدة سنة ٢٨٩. وظهر بسجلماسة في ذي الحجة سنة ٢٩٦ وسلم عليه بالأمانة. وأنفصل إلى رقادة في ربيع الآخر من سنة ٢٩٧. وبني المهدي وأستقر بها سنة ٣٠٨. ولما أنتقل إلى المهدي دخل رقادة الوهن وأنتقل عنها ساكنوها، فلم تزل تخرب شيئًا بعد شيء إلى أن ولي معد بن إسماعيل فخرب ما بقي منها.

ذكر رقادة: وكانت رقادة دار ملك بني الأغلب ويذكرون أن من دخلها لم يزل ضاحكا من غير سبب وأن أحد ملوك بني الأغلب شرد عنه النوم فلما وصل إليها نام فسميت رقادة، فاستوطنها إبراهيم بن أحمد وانتقل إليها من القصر القديم، فبنى بها قصورا عجبية وجامعا وحمامات وغير ذلك.

وكان تأسيسها سنة ٢٦٣ وتأسيس القصر القديم سنة ١٨٤. وكان ابن الأغلب منيع بيع الشراب بالقيروان وأباحه برقادة فقال بعضهم في ذلك منسرح:

يا سيد الناس وأبن سيدهم ... ومن إليه الرقاب منقاد

ما حرم الخمر في مدينتنا ... وهو حلال بأرض رقادة

ذكر المهدي بالقيروان: وأما المهدي فهي منسوبة إلى المهدي عبيد الله الشيعي. فإنه لما تغلب على الملك تلقب بالمهدي وسمى مدينته التي بناها بقلبه وبينها وبين القيروان سنون ميلا وقويت في أيام وأيام أبنه أبي القاسم وحفيده إسماعيل وصدرا من دولة معد بن إسماعيل حتى أنتقل منها معد إلى القاهرة، لما ملك مصر وبني القاهرة المعزية نسبة إلى لقبه المعز فضعف إذ ذاك المهدي إلى أن أستوطنها المعز بن باديس آخر أيامه لما خرجت القيروان بهزيمة المعز المذكور، إلى أن توفي بها، وولياها بعده ابن تميم بن المعز، وصارت دار ملكه، وولده يحيى بن تميم بعده وولده علي بن يحيى بعده إلى أن أخرجهم منها عبد المؤمن بن علي بعد المحاصرة. وبقيت للإسلام إلى الآن. وبها دار صنعه الإنشاء الحجيبة: يخرج الجفن مغمورا من خلف السور فلا يعلم به حتى يفاجأ العدو القاصد فيحيط به فلا يقربها العدو لآجل.

٥٠١٩ ذكر ولاية أبي القاسم بن عبيد الله بإفريقية

وأما القيروان، فكانت أعظم مدن المغرب طرأ وأكثرها بشرا، وأيسرها أموالا وأوسعها أحوالا. وكان الغالب على أهلها التمسك بالخير والتخلي عن الشبهات واجتناب المحارم إلى أن تولى الدمار عليها بدخول العرب عليها على ما يأتي ذكره في موضعه، فلم يبق بها إلا أطلال

دراسة، وآثار طامسة. ويذكر أنها ستعود إلى ما كانت عليه. وهي الآن في وقتنا الحاضر وهو آخر المائة السابعة قد ابتدأت بالعمارة. وملك عبيد الله الشيعي إفريقية، وجمع المغرب، وإطرابلس وبرقة وجزيرة صقلية وكانت عماله على ذلك كله وسير ولده ولي عهده إلى مصر ففتحها وكانت الكتب تنفذ في أيامه باسم ولده. وكان له ستة أولاد: أكبرهم ولي عهده أبو القاسم عبد الرحمن بن عبيد الله الشيعي الملقب بالمهدي وعمره أعني عبيد الله الشيعي يوم مات ثلاثة وستون سنة.

ذكر ولاية أبي القاسم بن عبيد الله بإفريقية

ببيع له يوم مات أبيه منتصف ربيع الأول من سنة ٣٢٢ المؤرخة وتلقب بالقائم بأمر الله. وتوفي يوم الأحد الثالث عشر من شوال سنة ٣٣٤. فكانت دولته اثنتي عشرة سنة وسبعة أشهر وعمره خمس وخمسون سنة. أولاده الذكور سبعة حاجبه: جعفر بن علي. ومن قضاته ابن أبي النهل. ولم يركب أبو القاسم طول إمارته بمظلة فقام بسيرة أبيه وأظهر من الحزن عليه ما لا يعهد لمثله وواصل الحزن لفقدته وأدامه من بعده فما ركب دابة من باب قصره منذ مات أبوه إلى أن قبض سوى مرتين. وافتتحت في أيامه مدائن كثيرة من مدائن الروم بصقلية وثار عليه عدة ثوار فأمكنه الله منهم وممن ثار عليه ابن طالوت القرشي فسار إلى ناحية أطرابلس ليأخذها هو في عدد كثير فقاتلوه وقتلوا جماعة من أصحابه وزعم أنه ابن المهدي فقام معه البربر واتبعوه. فلما تبين لهم أمره قتلوه وأتوا برأسه إلى القائم بأمر الله. وكان أول ما بدأ به أبو القاسم الشيعي أن أمر عمالة في سائر البلدان بعمل السلاح وجمع الآلات الحربية وأخرج الفتى ميسورا بعدد عظيم إلى الغرب فانتفى إلى فاس وهز ابن أبي العافية، وأخذ ابنه أسيرا. وأخرج يعقوب بن إسحاق في الأسطول إلى بلد الروم فافتتح جنوة وأقر أبا جعفر البغدادي على البريد والكتابة، وفوض إليه كثيرا من أمور المملكة.

وفي سنة ٣٢٣ بعث القائم بأمر الله عسكريا إلى برقة قود عليه زيدان، وبعث معه عامرا المجنون، وأبا زارة وجماعة من عساكر برقة الذين بها من كثامة إلى مصر فدخلوا إلى الإسكندرية فأخرج إليه محمد بن الإخديش جيشا فيه خمسة عشر ألفا فأسر منهم خلقا كثيرا. وفي هذه السنة مات الفضل بن علي بن ظفر وكان أديب دهره ظريفا عصره، علما وفقها وأدبا ووفاء. وفي هذه السنة وصل ميسور الصقلي إلى مدينة فاس، فخرج إليه صاحبها أحمد بن أبي بكر بن أبي سهل الجذامي فغدره وقبض عليه وبعث به إلى المهدي فقدم أهل فاس على أنفسهم حسن بن القاسم اللواتي وحارب أهل فاس ميسورا سبعة أشهر فلم يقدر عليهم ثم حاصر ابن أبي العافية واستعان ببني إدريس عليه واعتنى بهم ووفى لهم حقهم فانجلى ابن أبي العافية أمامهم

٦ ذكر أخبار الأدارسة وسبب دخولهم إلى المغرب

٦.١ وبنائهم مدينة فاس ومن وليها منهم ومن غيرهم إلى هذه السنة

إلى الصحراء وصار كل ما كان لبني العافية لبني إدريس. وكانت الرياسة فيهم لبني محمد بن القاسم، وهم حسن، وقنون، وإبراهيم المعروف بالرهوني. وقنون اسمه القاسم، وكان يلزم مدينة صخرة النسر.

ذكر أخبار الأدارسة وسبب دخولهم إلى المغرب

وبنائهم مدينة فاس ومن وليها منهم ومن غيرهم إلى هذه السنة

ذكر العذري وغيره أن إدريس وسليمان ابني عبد الله الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب - رضي الله عنهم - فروا من الواقعة التي كانت في أيام جعفر المنصور، وهي وقعة نخ، وكانوا ست أخوة: إدريس، وسليمان، ومحمد، وإبراهيم، وعيسى ويحيى. أما محمد فخرج بالحجاز وقتل. وأما يحيى فقام في الديلم، في خلافة الرشيد، وهبط على الأمان، ثم سم ومات. وأما إدريس، ففر إلى المغرب، ودخل إليه في أيامه من الطالبين أخوه سليمان، فاحتل بتسلهان، وداود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن أبي طالب، ثم رجع داود إلى المشرق، وبقيت ذريته بالمغرب. واحتا إدريس بن عبد الله بالمغرب سنة ١٧٠، واستوطن ويلي، وكانت أزلية. وكان وصوله مع

مولاه راشد؛ ثم نزل على إسحاق ابن عبد الحميد سنة ١٧٢؛ فقدمه قبائل البربر وأطاعوه وبلغ خبره هارون الرشيد، فدرس إليه من سمه. وكان المدسوس إليه رجل يقال له الشماخ فسمه وهرب إلى المشرق. ومات إدريس في سنة ١٧٥، فقام بأمر البربر مولاه راشد. وترك إدريس جارية بريرية اسمها كنزة؛ فولدت له علاما سمي باسم أبيه فولى إدريس بن إدريس سنة ١٨٧ وهو ابن أحد عشرة سنة؛ وقيل:

أكثر من ذلك، وبإيعه جميع القبائل. وكانت عدوة القرويين غياضا، في أطرافها بيوت من زواغة، فأرسلوا إليه، ودبر في البناء عندهم، فكان ابتداء بناء مدينة فاس سنة ١٩٣ وذلك عدوة القرويين، غزا إدريس بن إدريس نفرة، ووصل إلى تلمسان، ثم رجع، ووصل إلى وادي نفيس، فاستفتح بلاد المصامدة وتوفي مسموما سنة ٢١٣. وأختلف في كيفية موته لا. قال ابن حمادة والبكري وغيرهما: ترك من الولد اثني عشر، وهم: محمد، وأحمد، وعبد الله، وعيسى، وإدريس، وجعفر، ويحيى، وحمزة، وعبد الله والقاسم، وداود وعمر. فولي منهم محمد بن إدريس، ففرق البلاد على أخوته بأمر جدته كنزة، فأعطى قاسم طنجة وما يليها، وأعطى عمر صنهاجة الهبط وغمارة، وأعطى داود هواره تامليت، وولي عيسى ويحيى وعبد الله بلاد أخرى. وبقي الصغار من أخوته فنار عليه عيسى، ونكث طاعته، فكتب الأمير محمد بن إدريس إلى أخيه القاسم، يأمره بمحاربته، فأمتنع، وكتب أيضا إلى أخيه عمر، فأجابه وسارع إلى نصره، وكان تقدم بين عمر وعيسى تنازع. وتوفي عن ببلد صنهاجة، ونقل إلى فاس، وهو جد الحموديين. ثم توفي الأمير محمد بن إدريس - رحمه الله - فولي يحيى بن محمد بن إدريس، فولي يحيى أعمامه وأحواله أعمالا فولي حسين القبلية من مدينة فاس إلى أغمادت، وولي داود المشرق من مدينة فاس: مكاسة، وهواره، وصدينة، وولي قاسم غربي فاس: لهاته وكامة. وتشاغل يحيى عما كان يحق عليه من سياسة أمره. فلك أخوته أنفسهم، استمالوا القبائل، وقالوا لهم: (إنما نحن أبناء أب واحد، وقد ترون ما صار إليه أخونا يحيى من إضاعة أمره) فقدمهم البربر على أنفسهم تقدما كليا. وكان يحيى منهمكا في الشراب، معجبا بالنساء، وذكر أنه دخل يوما

الحمام على امرأة، فتغير عليه أهل فاس، فكان ذلك سبب هلاكه، فهرب إلى عدوة الأندلس، فمات بها، وكانت زوجته بنت علي بن عمر جد الحموديين. ثم ولي علي بن عمر بن إدريس، وذلك أنه، لما هلك يحيى، أتى صهره على هذا، فدخل عدوة القرويين وملكها، وانتقل الأمر عن بني محمد بن إدريس إلى بني عمر بن إدريس. ثم قاد عليه عبد الرزاق الخارجي الصفري من مديونة، فدارت بين علي وعبد الرزاق حروب كثيرة، إلى أن هزمه الخارجي، واستولى على فاس. ومر على أهل أروبة وملك عبد الرزاق عدوة الأندلسيين، وأخرج منها عبد الرزاق في خبر طويل. وطالت أيام يحيى هذا بفاس وما والاها من البلاد والأقطار والقلاع، إلى أن قتله ربيع بن سليمان سنة ٢٩٢.

ثم ولي يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس بن إدريس وذلك أنه لما مات يحيى بن القاسم تقدم إلى فاس يحيى بن إدريس وملكها. ورجع الأمر إلى بني عمر بن إدريس خمس عشر سنة، إلى أن قدم مصالة بن حبوس في سنة ٣٠٧، وذلك أن مصالة قد قدم الغرب في حركته الأولى سنة ٣٠٥، فابتدأ بالإحسان والإكرام لموسى بن أبي العافية، وقدمه على ما استولى عليه من بلاد الغرب. وكان يحيى بن إدريس صاحب فاس يغير عليه ويقطع عنه أمله. فلما رجع مصالة في سنة ٣٠٧، أقام بالغرب خمسة أعوام، فكان ابن أبي العافية يسعى في ضرار يحيى وحنقه عند مصالة لما تقدم بين موسى ومصالة من المودة ولما كان بين موسى ويحيى بن إدريس من العداوة فعزم مصالة على القبض على يحيى، فلم يزل يتحيل عليه، حتى أقبل إلى معسكره فغدره،

وقبض عليه، وانتزع ما كان بيده وأمره باستجلاب ماله فأحضره وأخرجه من فاس وولي فاسا عامل مصالة. وانفصل مصالة من الغرب، وبقي موسى ابن أبي العافية في الغرب أميرا.

ثم قام حسن بن محمد سنة ٣١٠، وهو حسن بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس، الملقب بالحجام، فأوقع بموسى بن أبي العافية. وكان بينه وبين رؤساء القبائل وقعة شنيعة، لم يكن بالغرب بعد دخول إدريس الكبير مثلها، قتل فيها من البربر نحو ألفي قتيل، وقتل لموسى في جملتهم ولد يسمى منهل. وملك حين هذا فاسا وما يليها نحو سنتين. ثم قام عليه أهل فاس، وغدروه وقدموا حامد بن حمدان الحمداني، وكان يعرف باللوزي، وهي قرية بإفريقية نسب إليها تسمى لوزة. فأخذ حامد حسن بن محمد، وسجنه وأرسل إلى موسى بن أبي العافية فأثاه بجيوشه ودخل فاسا وتغلب عليها وأراد قتل حسن لأجل أنه منهل الذي كان السبب في قتله، فدافعه حامد عنه،

وكره المجاهرة بقتله ثم سم بعد ذلك، وقيل: أخرجه حامد على السور فسقط عنه وانكسرت رجله ووصل إلى عدوة الأندلسيين فمات بها رحمه الله؟!

واستولى موسى بن أبي العافية على ملك فاس وبلاد الغرب بعد موت حسن الحجام. وسمي بذلك لأنه حارب بني عمه فضرب رجلا بحربة صادف بها موضع الحج، ثم صادف ضربة أخرى لشخص آخر في موضع المحاجم أيضا، وكذلك ثالثة. فقال ابن عمه أحمد: (صار ابن عمي حجاما) فسمي بذلك حجاما. ومن قوله طويل:

وسميت حجاما ولست بحجام ... ولكن لضربي في مكان المحاجم

ولما استولى ابن أبي العافية على فاس قتل عبد الله بن ثعلبة بن محارب

الأزدي وقتل أخاه محمد وهرب والدهما ثعلبة بن محارب إلى قرطبة. وأراد موسى ابن أبي العافية قتل حامد الذي كان السبب في دخول فاس فهرب منه محصل في المهديّة. وأجل موسى بن إدريس أجمعين عن مواضعهم وصاروا في مدينة حجر النسر مقهورين، وهو حصن مانع بناه إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس. وعزم موسى على محاصرتهم في هذا الحصن واستتصلهم، فأخذ عليهم في ذلك أكابر أهل المغرب وقالوا له: (قد أجليتم، وأفقرتهم! أتريد أن تقتل بني إدريس أجمعين، وأنت رجل من البربر؟ فأنكسر عن ذلك ولاذ بعسكره وتلف لمراقبتهم قائده أبو قح فكانت حملته قريبا منهم فضيق عليهم، وأستخلف ابن أبي العافية على أبنه مدين علي فاس فبقى بها حتى قدم حميد بن مصال. ولما وصل محمد إلى بلاد الغرب وولى على فاس حامد بن حمدان. وكان ولد موسى لما سمع بقدم محمد حامد هرب من فاس. وتظاهرت بنو إدريس على قائد موسى بن أبي العافية فهزموه وغنموا أكثر من عسكره. وذلك سنة ٣١٧. ثم قام بفاس أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامي فقتل حامد بن حمدان وبعث برأسه إلى موسى بن أبي العافية، وبرأس ولده فبعث بهما موسى إلى قرطبة مع سعيد الزراد. وكان حميد بن يصال ولما رجع من بلاد الغرب إلى إفريقية ترك موسى بن أبي العافية بغير عهد من أمير إفريقية فكان ذلك سببا لسجنه بإفريقية إلى أن هرب إلى الأندلس وكان موسى يسهل إلى لصاحب قرطبة من أمراء بني أمية. وفي سنة ٣٢٤ خرب علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي مدينة المسيلة. وكان بينها وبين طنبنة مرحلتين. وكان بقرب المسيلة مدينة للأول تسمى الرومانية، يطل عليها جبل أوراس وهو مسيرة سبعة أيام وفيه قلاع كثيرة يسكنها هواره وهم على رأي الخوارج وفي هذا الجبل كان مستقر

الكاينة وفيه ظهر أبو يزيد مخلد بن كباد وقام على أبي القاسم الشيعي.

وفي سنة ٣٢٥ قدم أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي على صقلية خليل بن إسحاق، فعمل بها ما لم يعمل بها أحد من قبله ولا بعده من المسلمين أهلكتهم قتلا وجوعا حتى فروا إلى بلاد الروم وتنصر كثير منهم وبقي بصقلية أربعة أعوام. ولما قدم منها سنة ٣٢٩ قال يوما، مفتخرا بظلمه في مجلس حضره جماعة من محو الناس تكلموا فيه معه في أمور شتى ثم جرى ذكر خروجه إلى صقلية: (أني قتلت ألف ألف: يقوله المكث والمقل يقول مائة ألف في تلك السفرة!) ثم قال: (لا والله ألا أكثر!) فقال له أبو عبيد الله المؤدب: (يا أبا العباس! لك في قتل نفس واحدة ما يكفيك!) وكان خليل هذا يكنى أبا العباس، وكان عبيد الله الشيعي يصرفه في الأعمال، وجبايات الأموال ومحاسبة الدواوين والعمال. ثم وقعت فيه أقواله، فكرهه عبيد الله وأبغضه، ولولا أبنه أبو القاسم لأهلكه. ومن قول خليل في عبيد الله الشيعي وتوغله فيه طويل:

أن الإمام أقام سنة جده ... للمسلمين كما حذوت نعالها

أحيى شرائعه وقوم كتابها ... وفروضها وحرامها وحلالها

وكان أبو القاسم بن عبيد الله أمر ببناء مدينة المسيلة سنة ٣١٣، وجعل المتولي لبنائها ابن الأندلسي وأستعمله بعد ذلك عليها إلى أن أهلك في فتنة أبي يزيد بن كيداد سنة ٣٢٦ وبقي ابن جعفر في المسيلة وصار أمير على الزاف كله إلى أن خرج عنها في سنة ٣٦٠ في فتنة زيري بن مناد والشيعية تسمى المسيلة المحمدية. قال المروذي سريع:

ثم إلى مدينة مرضية ... أست على التقوى محمدية

٦.٢ أخبار أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفاني الزناتي

وأما مدينة مشير فبناها زيري بن مناد الصنهاجي والدليل على ذلك ما أنشده عبد الملك بن عيشون رجز:

يا أيها السائل عن غربنا ... وعن محل الكفر أشير
عن دار فسق ظالم أهلها ... قد شيدت للكفر والزور

أسسها الملعون زيريه ... فلعنة الله على زيري

وخربها يوسف بن حماد الصنهاجي واستباح أموالها بعد الأربعين والأربعمئة.

وفي سنة ٣٢٧ قام بالمغرب الأقصى ويقال له السوس الأذني وهو مرضع تادلا وتامسنا أبو الأنصار بن أبي عفر البرغواطي بعد موت أبيه وكان يفي بالعهد والوعد. وسأذكر بعض أخبارهم إن شاء الله تعالى.

أخبار أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفاني الزناتي

هو مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كerman بن مخلد بن عثمان بن ورميت بن تبقراسن بن سميدان بن يفرن هو أبو الكاهنة وتنسب إلى جانا بن يحيى زناته كلها. قال ابن حمادة، كان أبو القاسم الشيعي لما مات أبوه عبيد الله أظهر مذهبه وأمر بسب الغر والعباء وغير ذلك من تكذيب كتاب الله تعالى فن تكلم عذب، وقتل. وأشدت الأمر على المسلمين. ثم أن أبا يزيد هبط من جبل أوراس، يدعوا إلى الحق يزعمه ولم يعلم الناس مذهبه، فخرجوا فيه الخير والقيام بالسنة، فخرج على الشيعة ودخل إفريقية وخرب مدنها ودوخها وقتل من أهلها ما لا يحصر.

وفي سنة ٣٣٢ اشتد امر أبي يزيد بإفريقيو حتى فر أمامه أبو القاسم الشيعي إلى المهديّة من رقادة. وكان أبو يزيد أحد أئمة الأباضية النكار

بالمغرب. قال الرفيق: وقرأ على عمار الأعمى. وكان يركب الحمار وتسمى شيخ المؤمنين قال ابن سعدون فبعث الله على أبي القاسم الشيعي مخلد ابن كيداد الخارجي فقهره وقتل جنوده وقام المسلمون معه. وخرج الفقهاء والعباد مع أبي يزيد لحربه وسماهم ابن سعدون في كتابه رجلا، رجلا. فركبوا معه ونهضوا إلى القيروان فدخلها في صفر العام وأظهر لأهلها خيرا وترحم على أبي بكر وعمر ودعا الناس إلى جهاد الشيعة وأمرهم بقراءة مذهب مالك. فخرج الفقهاء والصلحاء في الأسواق بالصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى أصحابه وأزواجه حتى ركروا بنودهم عبد الجامع. فلما كان يوم الجمعة اجتمعوا بالمسجد الجامع وركبوا مع أبي يزيد السلاح ومعهم البنود والطبول منها بندان أصفران مكتوب في أحدهما البسملة و (محمد رسول الله) وفي الآخر (نصر من الله وفتح قريب على يد الشيخ أبي يزيد! اللهم! أنصر وليك على من سب أولياءك) وبند آخر مكتوب عليه (قاتلوا أمية الكفر) الآية وبند آخر مكتوب فيه: (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم) وبند آخر مكتوب فيه بعد البسملة أيضا (محمد رسول الله أبو بكر الصديق، عمر الفاروق) وبند آخر وهو السابع فيه (لا إله إلا الله! محمد رسول الله! ألا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا). فلما اجتمع الناس وحضر الإمام وطلع على المنبر خطب خطبة أبلغ فيها وحرص الناس على جهاد الشيعة وأعلمهم بما لهم فيه لعن عبيد الله وابنه ثم نزل فخرج وخرج الناس معه لقتال الشيعة الفجار

٦.٣ ولاية إسماعيل بن أبي القاسم عبيد الله الشيعي

فلم يزل قاهرا لهم غالبا عليهم قاتلا لجنودهم حتى لم يبقى لهم من بلاد إفريقية إلا اليسير.

ولما رأى أبو يزيد أنه استولى على الأمر أو كاد وأن الشيعي قد كاد يبيد أو باد قال لجنوده (إذا التقيتم مع القوم فانكشفوا عن أهل القيروان حتى يتمكن أعدائهم من قتلهم فيكون هم الذين قتلوه لا نحن! فيستريح منهم!) أراد أن يتبرأ من معرة قتلهم عند الناس، وأراد الراحة منهم لأنه لما ظن إذا قتل شيوخ القيروان وأئمة الدين، تمكن من أتباعهم فيدعوهم إلى ما شاء فيتبعونه. فقتل من صلحاء

القيروان وفقهائهم من أراد الله بسعاده وشهادته وسقط في أيدي الناس وقالوا: (قتل أولياء الله شهداء) ففارقوه، واشتد بغضهم له أعني لأبي يزيد. وما أبو القاسم الشيعي محصورا.

وفي سنة ٣٣٣، قتل أبو يزيد ميسرة الفتى قاد أبو القاسم الشيعي وكان بين أبي القاسم وأبي يزيد حروب كثيرة وفيها كانت الواقعة المشهورة بينهما في وادي الملح قتل فيها من أصحاب أبو القاسم عددا لا يحصى.

وفي سنة ٣٣٤ توفي أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي القائم بأمر الله وذلك يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من شوال من السنة المذكورة فكانت مدته اثنتا عشرة سنة.

ولاية إسماعيل بن أبي القاسم عبيد الله الشيعي

كنيته: أبو الطاهر. لقبه: المنصور. وكان والده ولاه عهده في رمضان ودعا على المنبر بإفريقية. وكان مولده بالمهدية سنة ٣٠٢ وولى وسنة اثنان وثلاثون سنة. وكان فصيحاً بليغاً.

وفي سنة ٣٣٥ وصل أبو يزيد إلى المهدية ثم نهض إلى سوسة فناوشه أهلها، فقتل فيه: (وافرا) :

ألم بسوسة وبغى عليها ... ولكن الإله لها نصير
مدينة سوسة للغرب ... ثغرة يدين لها المدائن والقصور
لقد لعن الذي بغوا عليها ... كما لعنت قريظة والنضير
أعز الدين خالق كل شيء ... بسوسة بعدها التوت الأمور

فرفع أبو يزيد عنها، ورجع إلى المهدية، فلما وصل دفع حتى ضرب برمحه في بابها، فدخل راجل القصر على إسماعيل، فوجده يلعب بسلباحة في الصهرج. فقال له: (تلعب، وأبو يزيد يركز رمحه بالباب فقال له (أو قد فعل؟) قال: (نعم) قال: (والله لا عاد إليها أبدا! وقد جاء حتفه! كذا رأينا في كتبنا) ثم أمر في الحين بالركوب والخروج إليه.

وفي سنة ٣٣٦ من الهجرة، أمر المنصور أبو طاهر ببناء صبرة واختطها، وسماها المنصورية. قال البكري: ولم تزل المهدية دار ملك بني عبيد إلى أن سار منها أبو طاهر إلى القيروان بعد قتله لأبي يزيد، وبني مدينة صبرة واستوطنها، وخلت أكثر أرباض المهدية وتهدمت. ونقل أبو طاهر سوقة القيروان إلى صبرة. وكان لها أربعة أبواب. وبينها وبين القيروان نحو نصف ميل. وكان من المهدية إلى مدينة سلقطة ثمانية أميال، ومنها زحف أبو يزيد إلى المهدية أيام حصاره. وكانت محلة أبي يزيد بترونوط. وفي كتب الحدثان: (إذا ربط الخارجي خليه بترونوط، لم يبق لأهل السواد محلول ولا مربوط) و (ويل لأهل السواد من محلة أبي كيداد) وامتنح أهل باجة أيام أبي يزيد بالقتل والسي. وقيل في أبي يزيد رجز:

وبعدها باجة أيضا أفسدا ... وأهلها أخلي ومنها شردا

ولما عزم المنصور على مقاتلته ومحاربتة، أعطى جنوده، وحشد حشوده، وخرج إليه في العساكر. ففرت الهزيمة على أبي يزيد. وأمر إسماعيل الناس باتباعه إلى أن دخل بلاد كرامة. فتعلق بالجبل المعروف بحصن أبي يزيد، وأثنى بالجراح، وقبض عليه حيا، فجعل في قفص من حديد، وجيء به إلى المنصور إلى المهدية، فقتله، وصلبه على باب الذي ضرب فيه برمحه. قال القضاعي: مات أبو يزيد في محرم من سنة ٣٣٦ المذكورة. قال: وأمر بسلحه وحشي جلده قطنا، وصلبه. وقال أبو حمادة: ولما ظفر بأبي يزيد، نهض إلى القيروان، فدخلها في هذه السنة، فقتل من أهلها خلقا، وعذب آخرين، ولم يزلوا معه في الامتحان إلى أن هلك، قال القضاعي: وكان انتقال المنصور إلى المنصورية في سنة ٣٣٧.

وفي سنة ٣٣٩، تحرك أبو الطاهر المنصور بن أبي القاسم بن عبيد الله الشيعي إلى بلاد المشرق، ورد الحجر الأسود إلى مكانه من الركن من بيت الله الحرام، وذلك بعد خمسة أعوام من دولة المطيع. وكان الذي اقتلعه سليمان ابن الحسن القرمطي - لعنه الله - وفي سنة ٣١٧ في أيام المقتدر العباسي - رحمه الله - والذي تولى قلعه بيده بأمر القرمطي جعفر بن أبي علا - لعنه الله - ولما مات القرمطي، وجه إخوته الحجر، فرد إلى موضعه في هذه السنة، ووضع بيده الحسين بن المروزي الكافي وكان غينه الحجر من يوم قلعه إلى يوم رده اثنين وعشرين سنة أو نحوها. ورأى الحجر الأسود، في أيام ابن الزبير، ناصع البياض إلا وجه الظاهر. وكان اسوداده من لطح المشركين

له بدم القرايين، ولمسهم له بأيديهم، مع طول الدهر. قال الذهبي: حضرت يوم قلعه. يوم رده. وفي سنة ٣٤٠، ولي أبو الطاهر إسماعيل العبيدي ولده معدا المكنى بأبي تميم عهده. وخرج أبو الطاهر منتزها إلى جلولا، ورجع منها معتلا، وصلى عيد الفطر مريضا.

وفي سنة ٣٤١، توفي أبو الطاهر إسماعيل، الملقب بالمنصور، ابن أبي القاسم، والملقب بالقائم، ابن عبيد الله المهدي، وذلك منسلخ شوال من العام، وله تسع وثلاثون سنة. فكانت ولايته سبع سنين وخمسة عشر يوما. حاجبه جعفر ابن علي.

ثم ولي المملكة معد بن إسماعيل المعز لدين الله العبيدي وهو معد بن إسماعيل بن أبي القاسم بن عبيد الله. كنيته: أبو تميم. لقبه: المعز لدين الله. مولده: بالمهدية في رمضان من سنة ٣١٩. وولي، وله اثنان وعشرون سنة. وهو أول من ملك مصر بن عبيد الله، وذلك أنه لما توفي كافور الإخشيدي أمير مصر، بعث المعز لدين الله القائد أبا الحسن جوهرًا إلى مصر. وكان جوهر غلام والده إسماعيل، وأصله رومي، جلبه خادم اسمه صابر، ثم انتقل إلى خفيف الخادم، فحمله إلى إسماعيل المنصور، فظهر عنده، فأرسله المعز بالعساكر إلى مصر، فافتتحها يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من شعبان. وهرب أعيان الإخشيدية من مصر إلى الشام قبل وصول جوهر. وأقيمت الدعوة للمعز، يوم الجمعة الموفى لعشرين لشعبان من سنة ٣٥٨، في الجامع العتيق، وكان الخطيب أبو محمد الشمشاطي. ودعا له بمكة في موسم هذه السنة، ودعا أبو مسلم العلوي بالمدينة للمعز. وسار جعفر بن فلاح إلى الشام، وقبض على الحسين بن عبد الله، وأنفذه إلى جوهر، فأنفذ جوهر الحسين المذكور مع جماعة من الإخشيدية مع هدية إلى المعز، فوصلت إلى أفريقية مع ولده جعفر في رجب من سنة ٣٥٩.

وفي سنة ٣٤٢، فلج خطيب القيروان على المنبر ومات وتمم الخطبة أبو سفيان الفقيه.

وفي سنة ٣٤٤ ولد للمعز أبي تميم ولد سماه نزارا.

وفي سنة ٣٤٦ ولي مدينة سبتة وال من قبل الناصر عبد الرحمن، أمير الأندلس، وأمره بتحصينها وبناء سورها، فبناه بالكدان. وفي سنة ٣٤٧، دخل جوهر قائد أبي تميم إلى المغرب، واستولى على مدينة فاس. ثم توجه إلى تيطاون، ووصل إلى مضيق سبتة فلم يقدر عليها ورجع عنها وقصد بعساكره إلى سلجمانة، فرأى أمامه صاحبها محمد بن الأمير الفتح وتحصن في حصن على اثني عشر ميلا من سلجمانة، بأهله وماله وبعض أصحابه. وكان يلقب الشاكر لله، وقد تقدم بعض خبره. واستولى جوهر على سلجمانة، فلكها. وخرج محمد بن الفتح من الحصن في نفر يسير ليتعرف الأخبار، مستترا. فغدره قوم من مدغرة عرفوه، وأتوا به إلى جوهر، فقتله في رجب. وبقي جوهر في الغرب نحو سنة. وتوجه إلى أفريقية.

وفي هذه السنة وصل إلى قرطبة الحسن بن قنون من بني إدريس، فارا بنفسه أمام جوهر قائد أبي تميم المذكور. وكان بنو محمد بن القاسم من بني إدريس بن إدريس أجمعوا على هدم تبطلون، فهدموها، ثم ندموا على ذلك، وشرعوا في بنائها، فضج أهل سبتة لذلك لأن بنائها ضرر بهم فبعث إليهم عبد الرحمن الناصر جيشا برسم محاربة بني محمد، قوّد على الجيش أحمد بن يعلي. وكتب الناصر إلى حميد بن يصال صاحب تيكاس وتلك الجهات كلها، أن يعين القائد المذكور على بني محمد فتخلّى بنو محمد عن بناء تبطلون لما اجتمع العسكران عليهم، وبعثوا أولادهم مراهن إلى قرطبة.

٦٠٤ خبر برغواطة

وفي سنة ٣٤٨، وصل كتاب صاحب سبتة إلى أمير الأندلس عبد الرحمن الناصر، يعرفه بما فتح عليه في عسكر جوهر قائد الشيعة. وفي سنة ٣٤٩، وجه أبو تميم المعز لدين الله القاضي إلى أئمة المساجد والمؤذنين يأمرهم ألا يؤذنوا إلا ويقولوا فيه: (حي على خير العمل) وأن يقرؤوا (بسم الله الرحمن الرحيم) في أول كل سورة، ويسلموا تسليمتين، ويكبروا على الجنائز خمسا ولا يؤخروا العصر، ولا يكبروا بالعشاء الأخيرة ولا تصيح امرأة وراء جنازة، ولا يقرأ العميان على القبور إلا عند الدفن.

وفي سنة ٣٥٠، توفي حسين ابن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن إدريس والحسيني بقرطبة، وكان رهينا بها. وخلف ابنين يسميان محمدا

وحسينا، فلم يزلوا مستقرين بقرطبة إلى خلافة الحكم، فبعثهما إلى إخوانهما فوصلا في رجب سنة ٣٥٩ واستقرا ببلاد الغرب. وفي سنة ٣٥١، أخذ الروم مدينة المصيبة ومدينة طرسوس، واستولوا عليهما. وفي سنة ٣٥٢، وفد على الحكم المستنصر بالله أبو صالح زمور البرغواطي رسولا من أمير برغواطة أبي منصور بن أبي الأنصار، وذلك في شهر شوال من هذه السنة. وكان المترجم عنه باللسان العربي عيسى بن داود المسطاسي فسأله الحكم عن نسب برغواطة ومذهبهم، فأخبره.

خبر برغواطة

ومن أخبار برغواطة ما خبر زمور أن طريفا كان أبا ملوكهم. وهو من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق - عليهم السلام - قال: وكان طريف من أصحاب ميسرة ملك المغرب الذي تقدم ذكره، فلما قتل ميسرة، واقترب أصحابه، احتل طريف بلاد تامسنا، فقدمه البربر على أنفسهم، فولى أمرهم

وكان على دين الإسلام وإليه تنسب جزيرة طريف، فبقي أميرا عليهم، إلى أن هلك. وترك أربعة أولاد. فولى الأمر من بعده صالح بن طريف، وكان مولده سنة ١١٠ من لهجرة، فتنبأ فيهم، وشرع لهم ديانة، وسمى نفسه صالح المؤمنين، وعهد إلى ابنه إلياس بديانته، وأمره ألا يظهر ذلك غلا إذا قوى أمره، وحينئذ يدعوا إلى مذهبه ويقتل من خالفه فيه من قومه. وأمره بموالاته أمير الأندلس. وخرج صالح إلى المشرق، وزعم أنه يعود إليهم في دولة السابع من ملوكهم، وزعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال، وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا، وتكلم لهم في ذلك بكلام كثير نسبته لموسى - عم - ولسطيح الكاهن وغيره. ثم ولي بعده إلياس بن صالح بن طريف فأظهر ديانة الإسلام والعفاف وبقي أميرا خمسين سنة إلى أن هلك. وترك جمعة من الأولاد. فولى ابنه يونس بن إلياس، وذلك بعد ما وصل من المشرق، وحج ولم يحج أحد من أهل بيته. فتظهر ديانة جده، ودعا إليها وقتل من لم يدخل فيها حتى أخلى ثمانمائة موضع من مواضع البربر، يل أنه قتل منهم سبعة آلاف ونحو سبعمائة.

وهلك بعد أن ملك نحو أربعين سنة، وخرج الأمير عن بينه وقام أبو عفير يحمي بمن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف، فاستولى على ملك تلك البلاد، ودان بديانة آبائه. واشتدت شوكته، وعظم أمره. وكانت له وقائع في البربر مشهورة، منها وقعة تامعزا، أقام القتل فيها ثمانية أيام، ومنها وقعة بهت، عجز الإحصاء عن عد من قتل فيها. وكان لأبي عفير من الزوجات أربع وأربعون، وكان له من الأولاد بعددهن. ومات بعد أن ملك تسعاً وعشرين سنة. ثم ولي عبد بن أبي عفير، وهو أبو الأنصار، وذلك عند تمام المائة الثالثة، وكان سخيا ظريفا، يفي بالوعد والعهد، يحفظ الجار ويكافئ على الهدية بأضعافها. وصفته: أفطس، شديد الأدمة في الوجه، ناصع بياض الجسم،

طويل التحية وكان يلبس السراويل والملحفة، ولا يلبس القميص، ولا يعتم إلا في الحرب، ولا يعتم أحد من قومه إلا الغرباء عندهم. وكان في كل عام تحشد ويظهر أنه يغزوا لمن يليه من القبائل، فيهادونه، فيترك حركته. فلك في دعة نحو اثنين وأربعين سنة. ثم ولي أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار الذي بعث زمورا هذا إلى المستنصر بالله الأموي سنة ٣٥٢، وهو عبس بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي عفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف. وكان سنه إذ ولي اثنين وعشرين سنة، فسار بسيرة أبيه ودان بديانته. واشتدت شوكته وعظم سلطانه. وكان أبوه قد وصاه عند موته بموالاته أمير الأندلس، وقال: (أنت سابع الأمراء من أهل بيتك، وأرجو أن يأتيك جدك صالح كما وعد) انتهى ما اختصرته من كلام رموز.

وقال أبو العباس المرحي أن يونس القائم بدين برغواطة أصله من شذونة، من جهة وادي برباط، وكان قد رحل إلى المشرق في عام ٢٠١ مع عباس بن ناصح وزيد بن سنا الزناتي صاحب الواصلية، وبرغوث بن سعيد الترابي، وجد بني عبد الرزاق، ويعرفون بني وكيل الصفرية، ومناد صاحب القلعة المنادية، قريب من سجلماسة وآخر ذهب عني اسمه. فأربعة منهم فقهوا في الدين. ادعى يونس صاحب برغواطة النبوة. قال: وكان يونس شرب دواء للحفظ، فحفظ كل ما سمعه، وطاب علم النجوم والكهانة، ونظر في الجدال، وانصرف، فنزل بين هؤلاء القوم، فرأى جهلهم. وكان يخبرهم بأشياء قبل كونها، مما يدل عليه التنجيم، فيكون كما قال، أو قريبا

منه، فعظم عندهم. فلما رأى ذلك منهم وعلم ضعف عقولهم وكثرة جهلهم أظهر ديانته، ودعا إلى نبوته. وسمى من اتبعه برباطي، ثم أحالوه بالسنتهم، ردوه

(برغواطي) . وكان يونس قد قتل خلقا كثيرا من البربر حتلا أطاعوه وعلى دينه تابعوه. وقال سعيد بن هشام المصمودي في وقعة

بعت قصيدة طويلة منها وافر:
فقي قبل التفرق فاخبرينا ... وقولي واخبري خبرا مبينا

هموم برابر خسروا وضلوا ... وخابوا لا سقوا ماء معينا

يقولوا النبي أبو غفير ... فأخزى الله أم الكاذبين

ألم تسمع ولم ترى يوم بعت ... على آثاري خيلهم رنينا

رنين البايكات بهم ثكالي ... وعافية ومسقطه جنينا

هنالك يونس وبنو أبيه ... يوالون البوار معظمينا

فليس اليوم ردتكم ولكن ... ليالي كتم مستيسرينا

يعني بقوله مستيرين من المياسرة أصحاب ميسرة. فأما الضلال الذي شرع لهم فأنهم يقرون بنبوة صالح بن طريف وأن الكلام الذي ألف لهم هو وحي من الله تعالى لا يشكون فيه تعالى الله عن قولهم وفرض لهم صوم رجب وأكل رمضان وخمس صلوات في اليوم وكذلك في الليلة والضحية اليوم الحادي عشر من المحرم وفي الوضوء غسل السرة والخاصرتين ثم الاستنجاء والمضمضة وغسل الوجه ومسح القفا وغسل الذراعين والمنكبين ومسح الرأس ثلاث مرات ومسح الأذنين كذلك ثم غسل الرجلين من الركبتين وبعض صلاتهم دون سجود وبعضها على كيفية صلاة المسلمين. وهم يسجدون ثلاث سجودات متصلات ووجوههم وأيديهم من الأرض مقدار نصف شبر ويقراءون نصف قراءتهم في وقوفهم ونصفها في ركوعهم ويقولون في سلامهم بكلامهم: (الله فوقنا لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا

في السماء) ثم يقولون مقر باكش نحسا وعشرين مرة وتفسيره الكبير الله ويقولون أيمن باكش تفسيره بسم الله وغير هذا. ويتزوج الرجل منهم ما استطاع من النساء ويطلق ويرجع ما أحب ويقتل السارق بالإقرار والبيئة ويرجم الزاني وينفي الكاذب ويسمونه المغير. والدية عندهم مائة رأس من البقر ورأس كل حيوان عليهم حرام ولا يأكل الحوت عندهم ألا أن يذكي والديك والبيض عندهم حرام والدجاج مكروهة إلا يضطر إليها. وليس عندهم أذان ولا إقامة وهم يكتفون بمعرفة الأوقات بصراخ الديكة ولذلك حرموها. ويتبركون ببصاقة أي بصاق صالح. وكانوا أعلم الناس بالنجوم. وكانوا أجمل الناس رجالا ونساء وقرآنهم الذي وضع لهم صالح ثمانون سورة أكثرها منسوبة إلى أسماء النبيين أولها سورة أيوب وأخرها سورة يونس وغيرها من أسماء الأنبياء - عم - وفيها سورة فرعون الديك وسورة الجراد وسورة الجمل وسورة هاروت وماروت وسورة الحشر وسورة غرائب الدنيا وفيها علم عظيم عندهم ولم ينزل كثير من القبائل على مذهب إلى عام ٣٥٢.

رجعنا إلى نسق التاريخ: كان الحكم أمير الأندلس ولي الخلافة بها سنة ٣٥٠. فطاع له المغرب كله وتم بناء سور سبتة في عام ٣٥١. وفي سنة ٣٥٣ كتب الحكم المستنصر بالله سجيلا إلى أهل سبتة رفع عنهم فيه جميع الوظائف الخزنية والمغارم السلطانية. قال ابن حمادة رأيت هذا السجل عند القاضي عياض رحمه الله مؤخرا بشهر صفر من العام المذكور ذكر فيه: (وما وقع عليها من المؤن السلطانية في التقسيط فهو مضروب على شرف أشبيلية) .

٧ ابتداء الدولة الصنهاجية بأفريقية

٧.١ ولاية أبي الفتوح يوسف بن زيري

٧.٢ ابن مناد الصنهاجي بإفريقية

وفي سنة ٣٥٤ توفي أبو الطيب المتني وكان مولده بالكوفة سنة ٣٠٣، وعمر إحدى وخمسون سنة وكان أشهر من أن يذكر.
وفي سنة ٣٥٧ توفي الأستاذ كافور بمصر.
وفي سنة ٣٥٨ بعث المعز أبو تميم معد بن المنصور العبيدي أبا الحسن جوهرًا إلى مصر لما توفي كافور الخلدشي أمير مصر فلما وصلها جور فتحها في شعبان.

وفي سنة ٣٥٩ أنفذ جوهر إلى المعز لدين الله حدية جميلة صحبه ولده جعفر بن رجب.
وفي سنة ٣٦٠ وصل الحسن بن أحمد القرمطي إلى دمشق وقتل جعفر ابن فلاح. وتغلبت القرامطة على دمشق وصاروا إلى الرملة.
وفي سنة ٣٦١، خرج أبو تميم من المنصورية راحلاً إلى المشرق في أواخر شوال ثمان بقين منه وأستخلف على إفريقية أبا الفتوح الصنهاجي.

ابتداء الدولة الصنهاجية بأفريقية

ولاية أبي الفتوح يوسف بن زيري

ابن مناد الصنهاجي بإفريقية

لما خرج أبو تميم من إفريقية إلى المشرق أستخلف يوسف المذكور وأمر الكاتب أن يكتبوا إلى العمال وولاة الأشغال بالسمع والطاعة لأبي الفتوح. ورحل أبو تميم إلى مصر فاحتلها وأمن أهلها وأتخذها دار ملكه وبقي أبو الفتوح أميراً على إفريقية والمغرب كله قال القاضي لما وصل أبو تميم إلى الإسكندرية توجه إليه من مصر القاضي والشهود وأعيان من أهل البلد منهئين وداعين ومسلمين. ثم أستقر بقصر المعز في السابع لرمضان.

٧.٣ ولاية العزيز بالله نزار

وفي سنة ٣٦٣ وصل القرمطي إلى الطواحين في جمادى الأول وأنهزم في شعبان في هذه السنة.
وفي سنة ٣٦٥ توفي أبو تميم المز لدين الله العبيدي في يوم الجمعة الحادي عشر لربيع الآخر، فكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وأياماً منها مقامه بمصر سنتان وسبعة أشهر.
ولاية العزيز بالله نزار

فولي الإمار بمصر العزيز بالله نزار، المكنى بأبي المنصور ابن معد المكنى بأبي تميم. ولد بالمهدية في محرم سنة ٣٤٤ وولى العهد بمصر في العاشر لربيع الأول سنة ٣٦٥ وسترت وفاة أبيه وسلم عليه بأمر المؤمنين وقد ذكرنا بعض أخباره في أمراء مصر (أخبار المشرق).
وفي جمادى الأخيرة من سنة ٣٦٥ بعث أبو الفتوح أمير إفريقية إلى العزيز بالله هدية فشيّعها وعاد أبو الفتوح إلى رقادة نفرج إليه أهل القيروان فتلقاهم بأحسن قبول وأجملهم أجمل نزول وبعد ذلك عزم أبو الفتوح على الانتقال إلى فخص أبي صالح نفرج لتوديعه القضاة والشيوخ ثلاث بقين من رجب من السنة المؤخرة.

وفي ذي الحجة أمر أبو الفتوح العمل على إفريقية واليه عبد الله بن محمد الكاتب أن يقيم أسطولاً بالمهدية معدة من الرجال والسلاح. نفرج عبد الله إلى المهدية وأخذ في حشد البحريين في كل بلدة وأمر أن يأخذ كل من لقي منهم بالقيروان وغيرها وملاً بهم السجون. وأدرك خاصة البلد وعامتها من الخوف ما لزموا له البيوت وأنتها حالهم إلى أنه إذا مات أحد عندهم لا يخرجهم إلا النساء.

وفي سنة ٣٦٦ خرج الأسطول من المهديّة في أول محرم، فتعذّرت الرّيح عليها فأقاموا حتّى فرغت أزوائهم وعدّموا الماء، فهرب جميع من فيها من النّواتية والبحرية، وصاروا إلى البر، فنهّوا ما في المراكب من عدّة وسلاح وهربوا إلى كلّ ناحية. فجعل عبد الله الطلب عليهم، فمن ظفر بهم، قتل.

وفي هذه السّنة، توفي زيادة الله بن القديم في سجن عبد الله بن محمد الكاتب، وقيل أنّه قتل بأنواع من العذاب. وفي هذه السّنة، نادى عامل أفريقية والقيروان، وهو عبد الله الكاتب، فاجتمع الناس إليه، فأخذ من أعيانهم نحو السّتمائة رجل من أغنيائهم وأغرمهم على الأموال بالتّعين: يأخذ من الرجل الواحد عشرة آلاف دينار، ومن آخر دينار واحد. فاجتمعت له بالقيروان أموال كثيرة. وعم هذا الغرم سائر أعمال أفريقية ما عدا الفقهاء والصلحاء والأدباء وأولياء السّلطان، وكان الذي جى من القيروان نيّفا على أربعمئة ألف دينار عينا. وبقي الأمر كذلك في الطلب، إلى أن وصل الأمر من مصر إلى أبي الفتح برفع الغرم عن الناس، فأطلقهم عبد الله الكاتب في أواخر شوال.

وفي سنة ٣٦٧، بعث عبد الله الكاتب عامل أفريقية هذا المال إلى ملك مصر العزيز بالله بأمر أبي الفتح صاحب أفريقية من قبل العزيز بالله، وكتب على كلّ صرة أسم صاحبها. فكان خروج هذا المال من المنصورية لخمس بقين من جمادى الأخير. ولما وصل المال إلى مصر، رد العزيز بالله بعض الصّرر لأربابها.

وفي هذه السّنة، أنعم العزيز بالله على أبي الفتح بطرابلس ونواحيها. فقدم عليها أبو الفتح يحيى بن خليفة الملياني، فأقام بها شهرا، ثم عزله.

وفيها، زحف خزرون بن فلفل بن خزر الزّنتاني إلى سجلماسة، في عدد عظيم، فخرج إليه المعتز، فاقتتلوا قتالا شديدا، فقتل المعتز، لخمس بقين من

رمضان. وملك خزرون سجلماسة، وأخذ فيها أموالا جليّة. وبعث خزرون برأس المعتز إلى الأندلس واستحكم بها ملك زناته وأتباعه. وفي هذه السّنة، وصل أبو الفتح صاحب أفريقية إلى سبتة، فحاصرها. وبعث إليه ابن أبي عامر برأس جعفر بن علي، أراد أن يرضيه بذلك. وكان ابن أبي عامر قد قتل جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي. ويأتي خبر قتله في أخبار ابن أبي عامر من الأندلس.

وفي سنة ٣٦٨، خرج العزيز من مصر إلى الشام في عدد عظيم، ونزل بالرملة. وكان بين يديه ألف بند وخمسمائة طبل. وكان جوهر قائده خرج في العام الفارط إلى الشام، فهزّمه أفتكين التركي، ورجع إلى مصر مفلولا. فخرج العزيز بالله في هذه السّنة بنفسه. فلما نزل الرملة، خرج إلى التركي. فكانت بينهم حروب عظيمة، فانهزم التركي وأخذ أسيرا، فسيق إلى العزيز بالله بحبل في عنقه. ولما وصل إلى مصر، عفا عنه، ومات بعد ذلك.

وهذه السّنة، دخل أبو الفتح صاحب أفريقية من قبل عبد العزيز بالله بلاد الغرب، واستولى عليها، وهدم مدينة البصرة، ومحا رسمها بعد طول مدتها وكثرة عمارتها. وكان رحيل أبي الفتح من أفريقية إلى الغرب يوم الأربعاء لخمس بقين من شعبان من سنة ٣٦٨، فوصل بجيوشه الضخمة إلى فاس، فاستولى عليها، وملك سجلماسة وبلاد الهبط كلها، وطرد من جميعها عمال بني أمية، ثم رحل إلى سبتة في طلب من لجأ إليها من زناته. فلما أشرف عليها، نأمل الوصول إليها، فرأى من تحصينها ومنعتها ما لا يستطاع إدراكه إلا بالمراكب البحرية، فرجع عنها، ولم يعوزه من بلاد المغرب غيرها. فرجع يريد البصرة، وكان فيها عمارة عظيمة بالأندلس والبربر. فلما دخلها أمر بهدمها، ونهب ما كان فيها من الأموال والأمتعة وجميع الأسباب. فاستحالت

٧٠٤ ذكر مدينة أصيلا

الجيوش والأمم عليها، فصارت كأنّ لن تغن بالأمس. فلم تكن بصرّة بالمغرب إلى الآن، ودثر رسمها. وكانت قديمة أزيلت. وقد تقدم ذكرها. ثم صار منها إلى أصيلا.
ذكر مدينة أصيلا

وأما أصيلا، فهي محدثة وكان سبب بنائها أن المجوس خرجوا بساحلها، وزعموا أن لهم بها أموال وكنوزا، تركها لهم الأوائل الذين كانوا يسكنون السواحل وأخرجهم منها عامة القبائل. فلما نزلوا في البر لأخذ أموالهم، اجتمع البربر لقتالهم فقالوا: (لم تأت لحرب؛ وإنما لكنوز في هذا الموقع. فكونوا ناحية حتى نستخرجها، ونشارككم فيها) فاعتزل البربر عنهم لما سمعوا ذلك منهم. فحفر المجوس مواضعهم، واستخرجوا دخنا كثيرا عفنا. فلما رآه البربر، ظنوه ذهابا. فبدروا إليهم. وهرب الروم إلى مراكبهم. فأصاب البربر الدخن، فندموا ورغبوا إلى المجوس في الرجوع واستخراج المال، فأبوا وقالوا: (قد نقضتم العهد) وساروا إلى الأندلس، فحينئذ خرجوا بأشبيلية على ما يأتي ذكره في أخبار الأندلس. فاتخذ الناس موضع أصيلا رباطا، وانتابوا إليه من جميع الأمصار. فكانت تقوم في سوق جامعة ثلاث مرات في السنة (في رمضان وفي العواشر، وفي عاشوراء) .

ومما قيده واختصرته من (كتاب المسالك والممالك) لمحمد بن يوسف القروي قال: ومن المدن القديمة على ساحل بحر الغرب أصيلا، وهي في سهولة من الأرض، كانت مدينة للأول. ثم تغلب عليها البحر ثم بنيت بعد ذلك، وكان سبب بنائها، أن المجوس خرجوا من مرساها مرتين، ما الأولى، فأنهم صدقوا إليها، زاعمين أن لهم بها مالا وكنوزا، فاجتمع البربر لقتالهم حسبما ذكرت ذلك، وأما خروجهم الثاني، فأن الرياح قذفت بهم إليها

وعطبت لهم أجفان كثير عليها، حتى كان يعرف ذلك الموضع بباب المجوس. وكان موضعها ملكا لقبائل لواته. فابتناها قوم من كنام. فأول ما ابتدروا به مسجدا. ثم بنى لواتة مسجدا ثانيا، وشاع أمرها، فبنى الناس شيئا بعد شيء، فقصدتها التجار من الأمصار بضروب المتاجرة في أوقات معلومات لأسواق الغبار.

فأول من قدم عليها من الملوك القاسم بن إدريس، فإنه ملكها، وقامت دعوته بها إلى أن توفي - رحمه الله - ثم وليها ابنه إبراهيم بن القاسم، فحرت بينه وبين عمر بن حفصون الثائر ببشتر من الأندلس مراسلات ومكاتبات في شأن النفاق على الخليفة بقرطبة الأموي، إلى أن هلك. ثم وليها ابنه الحسين بن إبراهيم بن القاسم، فأضطرب أمره، وضعفت طاعته، وكانت مدته خمس وعشرين سنة في قبائل لواتة، وكان أخوه أحمد المتولي لأمر كنامة، وكان يعرف بأبي الأذنين. وكان صاحب البصرة حينئذ أخوهما عيسى بن إبراهيم بن القاسم، إلى أن قتله أبو العيش جنون من بني إدريس - رحمه الله - فتزوج أخوه أحمد الملقب بأبي الأذنين زوجته، وملك مكانه، وقيل أن زوجته سمته فقتلته. فصار أمر كنامة وأمر البصرة إلى يحيى بن إبراهيم بن القاسم المعروف بابن برهوية، فأختلفت عليه كنامة، وكان ذلك سبب دخول بني محمد بلد كنامة وهوارة وتلك الناحية، واستجاشوا بحسن بن محمد المعروف بالحجام، فقام بأمره، وهلك القاسم بن حسن بن القاسم بن إدريس صاحب أصيلا. ودخل بنو محمد من بني إدريس مدينة أصيلا، فاستأثر بها حسن الحجام دون بني عمه، فولى عليها رجلا من خاصته يقال له حجام بن يوسف، فأحسن السيرة فيهم، إلى أن هلك، فطلب ولايتها رجل من أهلها يقال له محمد بن عبد الوارث، فعبدوا طوره فيها، ويقال ن أصاب بأصيلا كنزا بداره، ونهى ذلك إلى حسن المعروف بالحجام، فطمع في ذلك المال، وعزله عن أصيلا.

ثم وليها إبراهيم الغل المكاسي، وكان ساكنا بها، بعدما أعطى مال لحسن الحجام. قلما وصل إلى أصلا، سار محمد بن عبد الوارث إلى الحسن بمال كثير فعزل إبراهيم وأعاد ابن الوارث. فسار إبراهيم بهدية إلى الحسن، فعزل مجدا وولاه عليها. ثم عزاه إبراهيم وولى محمد بن عبد الوارث. وكانت عزلتهما وولايتهما نحو سنتين، إلى أن استقر فيهما مجدا هذا، وسني فار الصهرج، يعنون الكنز الذي أصاب فيه. وتبين لبن عبد الوارث رغبة حسن في ماله، فأعطاه. واستقامت له معه جميع أحواله مدة، ثم عزله، وولى إبراهيم ابن الغل المذكور، فبقي بها إلى أن حصر ابن العافية بني محمد في حجر النسر، فأتاه أهل أصلا، وطلبوا منه واليا من قبله، فولاه سعيد بن الشيخ الإشبيلي. وهرب إبراهيم بن الغل إلى مدين بن موسى بن أبي العافية، فوفد عليه، وهاداه، وانقطع إليه، فولاه أصلا فأحسن السيرة ورفق بالرعية وانصرف إلى تسول، بعدما استخلف على حرب بني محمد رجلا من أصحابه يعرف بأبي قح، فحاصرهم حصارا شديدا. فلما ضاق عليهم الأمر، هجموا عليه ليلا، فهرب أبو القمح، ومالك بنو محمد محلته. واجتمعت قبائل كنامة بقلعة هناك، فزحف إليهم بنو محمد الأدارسة، فخارهم حتى دخلوا القلعة، وقتلوا من كان فيها. فكان أول فتح بني محمد بن إدريس الحسني.

وبلغ ذلك إلى أهل أصلا، فكتبوا إلى ابن العافية، وذلك في سنة ٣٢٢، في حين خروج ميسور إلى أرض المغرب. فجأوبهم موسى بن أبي العافية، وأمرهم أن يتحصنوا في بلدهم، وكتب إلى قبائل كغامة ولواتة وهوارة، وصنهاجة، يأمرهم بمعونتهم على البنيان، فانقسموا على سور المدينة، وبنوه في ستة أشهر. فهرب وجوه القبائل إلى أصلا، واجتمع بها ملاء عظيم منهم، فزحف إليهم بنو محمد الأدارسة بعساكر، فكانت بينهم حرب عظيمة، فاستمدوا ابن أبي العافية، فاعتذر إليهم وقال لهم: اكتبوا إلى أمير المؤمنين! فأنا وانت

٧٠٥ ذكر من ولي مدينة البصرة

رعيته وتحت طاعته! فكتبوا إلى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر. وكانت مدينة سبتة تحت طاعته. فبعث إليهم الرماة الأنجاد، واتصل ذلك ببني محمد، فحشدوا الأحشاد، وزحفوا إلى أصلا، فخاربههم أربعين يوما. نخاف وجوه أهلها، فجازوا إلى الأندلس. ودخل بنو محمد أصلا، وذلك سنة ٣٢٦، وملكوها فأمنوا من بقي بها من أهلها. وعاد من جاز إلى الأندلس إليها. وحوها من القبائل لواتة في القبلة، ومن هوارة قوم يعرفون ببني زياد بينهم دكة رمل عالية. قال إبراهيم بن محمد الأصلي من قصيدة له (وافر) .

سقى غربي أرض بنو زياد ... سحائب ما يحف لها غروب
ولا زال النسيم يعلم قوما ... إزائهم من الشرق الكثيب
وحولها من القبائل من جهة الغرب هوارة الساحل.
ذكر من ولي مدينة البصرة

أسست البصرة في الوقت الذي أسست فيه أصلا. وعلى ثمانية أميال منها جبل يقال له صرصر كثير المياه والثمار، يسكنه مصمودة. وأول من ملكها إبراهيم بن القاسم بن إدريس نحو أربعين سنة، ثم وليها ابنه عيسى بن إبراهيم، ثم أخوه أحمد بن إبراهيم، ثم برهون بن عيسى بن إبراهيم، ثم أحمد بن القاسم بن إدريس، ثم برهون بن عيسى ثانية، ثم سعيد غلام المظفر من قبل مصالة بن حبوس، ثم حسن بن محمد بن الحجام، ثم محمد بن يحيى بن القاسم ولد الجوطي، ثم عيسى بن أحمد المعروف بأبي العيش، ثم أحمد بن القاسم ثانية، ثم وال من قبل ابن أبي العافية، ثم أبو العيش بن أحمد الثالثة، ثم أحمد بن أبي العيش إلى سنة ٣٤٧.

وكانت مدينة يقال لها كرت في جبل يسمى به إلى وقتنا هذا، خربها بنو محمد، وهي كانت قاعدة أحمد بن القاسم، الذي يقول فيه بكر بن حماد (كامل)

إن السماحة والمروءة والندى ... جمعوا لأحمد بن القاسم
وإذا تفاخرت القبائل وانتمت ... فأغفر بفضل محمد وبفاطم
وبجعفر الطيار في درج العلا ... وعلى العضب الحسام الصارم
لأنني لمشتاق إليك وإنما ... يسموا العقاب إذا سمى بقوادم
فأبعث إليّ بمركب أسمو به ... على أكون عليك أول قادم
وأعلك أنك لن تنال محبة ... إلا بعض ملابس ودراهم
فبعث إليه بغلة سنية وصللة جزلة. وكان له فيه أمداح كثيرة.

وكان على وادي ورغة حصن كبير يسكنه البربر فسكن عندهم شخص من الحضرة فقال في نفسه (طويل) .
الأهل أتى أهل المدينة أنني ... بورغة بين الأعجمين غريب
إذا قلت شيء قيل: ماذا تريد ... لهم بين أحرار الوجوه قطوب

وكان هناك حصن أيضا يعرف بسوق عكاشة، قريب من ورغة، لحمد بن حسن من بني إدريس - رحمهم الله - وجنيارة حصن كبير في جبل يعرف بالجبل الأشهب، وهي لبني حصين. وفي ذلك الجبل قرى كثيرة. وهو بمقربة من قاس. ومن أصلا إلى مدينة فاس خمسة أيام على طريق البصرة. ويلي أصلا من جهة الشرق مدينة طنجة. وكان صاحب طنجة القاسم بن إدريس. ومن طنجة إلى

فاس عدوتان أسست عدوة الأندلسيين سنة ١٩٢، من الهجرة، أسسها أهل ربض قرطبة إذ فروا من الحكم الرضي، وأسست عدوة القروين بعدها بسنة. قال: الشاعر (بسيط) .

يا عدوة القرويين التي كرمت ... لا زال جانبك المحبور ممطورا

لا امسك الله عنها صوب نعمته ... أرض تجنبت الآثام والزورا

ولما خرب أبو الفتح يوسف بن زيري الصنهاجي أمير أفريقية مدينة البصرة، رحل بعساكره إلى بلد برغواطة. وكان ملكهم صالح بن عيسى بن أبي الأنصار وكان فصيحاً شاعراً، فأطاعوه حتى جعلوه نبياً، وشرع لهم شريعة، فاتبعوه. فضل، وأضلهم. فغزاهم أبو الفتح، فكانت بينهم حروب لم يجر قبلها مثلها كان الظفر فيها لأبو الفتح. وقتل الله الكافر ابن عيسى وانهزمت عساكر برغواطة، فقتلوا قتلاً ذريعاً، وسبى من نسائهم وذرياتهم ما لا يحصى عددهم. وأرسل أبو الفتح سبيهم إلى أفريقية، فلقبهم عامله عبد الله الكاتب، مع أهل القيروان والمنصورة. وملك أبو الفتح بلاد الغرب. فكانت السجلات ترد عليه من مصر، فتصله على البريد إلى فاس أو غيرها، ثم يرجع بها إلى عامل أفريقية، فتقرأ بعد مدة من تاريخها. وأقام أبو الفتح في بلاد الغرب، وهو قد ملكها، وأهل سبتة منه خائفون، وزناة مشردون، وذلك من سنة ٣٦٨ المؤرخة إلى سنة ٣٧٣.

وفي سنة ٣٦٥٩، توفي أحمد بن أبي و خالد، الطيب الكبير المعروف بابن الجزائر.

وفيها كانت الحمرة التي ظهرت في السماء ليلة الأربعاء لخمس خلون من ربيع الأول، نخرج الناس إلى المساجد للضحج والتضرع إلى الله تعالى وفي غد تلك الليلة هرب كباب ومغنين ابن زيري بن مناد من قصر أخيهما السلطان أبي الفتح الذي كان فيه محبوسين وقد لبسا ثياب النساء، وخرجا في نسوة دخلن إليهما لزيارتهما، فوجدا عبيدهما قد أعدوا لهما خيلاً وسلاحاً، فركبا ومضيا نحو المشرق حتى وصلا مصر، فأنزلهما العزيز بالله، وخلع عليهما ووصلهما، وبقي هنالك بقية هذه السنة.

وفي سنة ٣٧٠، صرف العزيز بالله كباباً ومغنياً ابن زيري إلى أبي الفتح يوسف بن زيري أمير أفريقية وأمر أن يعفوا عنه ويتعرض لهما. ففعل ذلك. وفيها تمكنت حال يعقوب بن يوسف بن كلس مع العزيز بالله، فأدل كرامة وقهرهم، وقدم الترك والإخشيدية، وعزل الوزراء جوهرها وغبرة. .

وفي سنة ٣٧١ دخل سبي البرغواطين إلى المنصورية يوم السبت لثمان خلون من ربيع الأول. فرأى أهل أفريقية من السبي كما لم يره أحد منهم لكثرتهم. وطيف بهم في المنصورية والقيروان.

وفي هذه السنة وصل باديس بن زيري من مصر برسالة إلى أبو الفتح يأمره بتخير ألف فارس من أخواته الأبطال صنهاجة منهم حبوس وماكسن وزاوي وحمامة وبنو حمامة بن مناد وزاوي بن مناد، ونظرائهم فكتب إليه من بلاد الغرب يعرف بتغلب بني أمية أمراء الأندلس على البلاد الغرب وأن الدعاء لهم فيه على المنابر وأنه قد خرج لمحاربتهم بهؤلاء الرجال الذين سماهم أمير المؤمنين فأن عزم على بعثهم إليه ترك الغرب وسار بنفسه في حملتهم. فلم يعد إليه جواباً فيهم.

وفي جمادى الأول من هذه السنة كان بالمهدية زلازل دامت الشهر كله وعشرة أيام بعده تزلزل في كل يوم مرات حتى هرب أكثر أهلها وأسلموا ديارهم وما فيها.

وفي سنة ٣٧٢ قتل أمير صقلية أبو القاسم علي بن حسن في مقابلته مع الإفرنج وكانت ولايته بها إحدى عشر سنة ثم ولي ابنه جابر سنة واحدة.

وفي سنة ٣٧٣ اشترى عبد الله بن محمد الكاتب عامل إفريقية العبيد السودان وجعل على كل عامل من ثلاثين عبداً إلى ما دون ذلك وكذلك على أصحاب الخراج ووجوه رجاله. فاجتمع له منهم ألوف وأسكنهم بالمنصورية. وفيها عمل عبد الله بيت الحديد وملاه أموالاً ثم عمل بيت خشب وملاه أموالاً أيضاً واستخفاف على المنصورين جعفر بن حبيب وخرج إلى المهديّة على عادته في كل سنة.

٧٠٦ ذكر وفاة أبي الفتوح يوسف بن زيري

٧٠٧ ابن مناد الصنهاجي

٧٠٨ ولاية أبي الفتوح المنصور بن أبي الفتوح إفريقية

ذكر وفاة أبي الفتوح يوسف بن زيري
ابن مناد الصنهاجي

وفي هذه السنة توفي أبو الفتوح قفوله من قتال برغواطة وقد انفصل سجناسه فمات بموضع قتال له وأركنفويوم الأحد لتسع بقين من ذي الحجة. وذلك أن ابن خزرون الزناتي ضرب على سجناسه فدخلها وأخذ ما كان فيها من الأموال وكان بها عامل أبي الفتوح فأتاه الخبر بذلك، فرحل إليها فاعتل في طريقه بقولنج فمات بالموضع المذكور. فأوصى لأبي زعل بن هشام وكان من خاصته فأرسل إلى المنصور يعرف بوفاة والده أبي الفتوح.

ولاية أبي الفتوح المنصور بن أبي الفتوح إفريقية

ولي الإمارة في أوائل سنة ٣٧٤ أشير وتوفي يوم الخميس لخمس خلون من ربيع الأول من سنة ٣٨٧ فكانت مدته اثنتي عشر سنة ودفن بالمنصورية وكان كريما سخا جوادا صارما عازما. قال الرفيق: وقد ذكرت سيرته وحروبه وعطاياه في كتاب مفرد لأخبار جده وأبيه وأخباره وكان لقبه عدة العزيز بالله بن يوسف العزيز بالله.

وفي هذه السنة وهي سنة ٣٧٤ بعث المنصور أخاه يطوف من مدينة أشير، لما بلغت موت أبيه وأمر أن يطوي المراحل إلى القيروان والمنصورية يرسم القبض على عبد الله بن محمد الكاتب وكان بالمهدية، ونائبه على المنصورية جعفر بن حبيب وعلى القيروان برهون العامل فصحبهم يطوف سحر يوم الثلاثاء منتصف المحرم فنظروا يطوف إلى الخزائن مغلقة وإلى البيت المال مقفلا فأخذ المفاتيح وفتح بيت المال وبيت السلاح وفرق على أصحابه وركب من كان مترجلا من الصنهاجيين بالمنصورية. ثم خرج والتقى مع عبد

الله الكاتب في بعض الطريق فوثب عليه وأرجله عن فرسه وانتهت أسبابه وأعتقل بالمنصورية أياما. ثم أمر المنصور بإطلاقه ورفع يده عن البلد ثم عاد الأمر إلى عبد الله فأمره بالقضاء ووجه الناس من شيوخ القيروان وغيرهم وتوجه معهم لرسم التهئة والتعزية للمنصور فوصلوا إليه وسلموا عليه بمدينة أشير فقال لهم المنصور: (لقد شق على تعبك في حركتكم غير أن سروري في رؤيتكم). ثم شكر عبد الله الكاتب وذم فعل أخيه به ثم أمر عبد الله الكاتب أن يدفع للوافدين عليه عشرة آلاف دينار ضيافة. فدعوا له وانصرفوا. ثم استدعاهم بعد ذلك وقال لهم (أن أبي وجدي اخذ الناس بالسيف قهرا وأنا لا آخذهم ألا بالإحسان. وما أنا في هذا الملك ممن يولى بكاتب ويعزل بكاتب لأنني ورثته عن آبائي وأجدادي وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حيرا!) أو كلاما هذا معناه ثم أمرهم بالانصراف مع عبد الله الكاتب فكانت مدة مسيرتهم ورجوعهم خمسة وثلاثين يوما.

وفي رجب قدم المنصور إلى رقادة فتلقاها عبد الله الكاتب في خلق عظيم من أهل القيروان فأظهر للناس الخير ووعدهم بكل جميل. وأتاه العمال بالهدية والأموال وأعطاه عبد الله هدايا جليلة. ثم أخذ المنصور في جهاز هدية بعثها إلى مصر مع زروال بن نصر. فقيل أن قيمة ما كان فيها من الأمتعة والدواب والطرف ألف ألف دينار عينا. وأقام المنصور برقادة فأمر بعمل سرج مكلل بالدر والياقوت نفرج به إلى العيد في أحسن زي وخرج إليه من القيروان خلق عظيم فصلى بالمصلى وخطب القاضي ابن الكومي وانصرف المنصور إلى قصره وولد سماه باديس بن المنصور ليلة الأحد لثلاث عشرة من ربيع الأول من هذه السنة.

وفيها أعطى المنصور لأخيه يطوفت العساكر ووجهه إلى مدينتي فاس

وسجناسه يطلب ردهما ورد تلك البلاد الغريبة إذ كانت خرجت عن طاعته صنهاجة عند وفاة أبي الفتوح فوصل إلى مدينة فاس. وكان بها زيري بن عطية الزناتي الملقب بالفرطاس فلما أحس بوفادة بن أبي الفتوح عاجل بالخروج إليه والهجوم عليه فقاتله قتالا شديدا

حتى انهزم يطوفت وظفرت زناته بصنهاجة فتبعوهم وثلثوا منهم قوما كثير واسروا كثيرا آخرين وهرب الباقيون إلى تيهرت وهزم في هذه الوقعة قائدان له اسمهما ابن شعبان وابن عامل فسمر ابن شعبان على باب فاس وقتل ابن عامل شر قتيلة. وبقي زيري بن عطية مالكا لفاس وما حولها. ولما بلغ المنصور هزيمة أخيه، من المنصورية يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة برسم الغرب. خرج ومعه عبد الله الكاتب، وأستخلف عبد الله على القيروان ابن يوسف ثم رجع عبد الله بعد ذلك بعمالة أفريقية كلها. وبعث المنصور إلى أخيه يطوفت بجيش آخر فتلقاها بتيهت ولم يتعرض المنصور بعد ذلك إلى بلاد زناتة.

وفي سنة ٣٧٥ أمر أبو الفتح المنصور أن يعمل بالقيروان أبواب حديد وأمره ببناء قصره الكبير وكان فيها مولد لأبي علي المنصور (قيل: المنصور) ابن نزار العزيز بالله بمدينة القاهرة في يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الأول وفي سنة ٣٧٦ ظهر أبو الفهم انخراساني الداعي واجتمع إليه خلق كثير من كتامة. وكان يوسف بن عبد الله الكاتب قد أعطاه مالا وخيلا فتوجه إلى لبلد كتامة فدعاهم فأجابوه وتقررت أموره عندهم حتى صار يركب الخيل ويجمع العساكر ويعمل البنود ويضرب السكة فعظم أمره وشاع خبره وفيها جد يوسف بن عبد الله الكاتب في بناء المنصور قصر المنصورية للمنصور أبي الفتح فبلغ إنفاقه فيه قبل تمامه مائة ألف دينار.

وفي سنة ٣٧٧ وصل المنصور أبو الفتح صاحب أفريقية إلى المنصورية، فنزل في قصره الذي بني له وأتى معه عبد الله الكاتب وجميع عساكره ووجوه بني عمه ورجاله. وفي هذه السنة، كان مقتل عبد الله الكاتب وأبنة يوسف وذلك أن عبد الله بن محمد الكاتب بلغ مع المنصور بن أبي الفتح ما لم يبلغه أحد من قرابته وأهل بيته ودولته، وانحصرت أموره كلها كانت تحت قبضته فجمع الأموال ورتب الأحوال والأعمال وأعطى السياسة والرياسة حقها ففسنه كبراء أهل الدولة والتقى عنه حسن ابن خالته إلى المنصور أمورا من القدر في دولته وأنه كان السبب في خروج الداعي الثائر أبي الفهم بكتامة وأنه كان يصغر خبره حتى تفاقم أمره وغير ذلك من الأسباب المهلكات. وكان عبد الله الكاتب لثقتة بنفسه لا يداري أحد من أولاده زيري ولا أكابر الدولة. فلما أحسوا من المنصور بعض التغير عليه أكثروا من (اعتزل عن عمل أفريقية وأقتصر عن الكتابة وكل من تولى متصرف بين يدك وتحت أمرك!) فكان جوابه أن قال (القتلة ولا العزلة) فلما كان يوم الأحد لإحدى ليلة خلت من رجب غدا إلى ديوان كان قد بناه فجلس فيه لانتظار ركوب المنصور ويده جزء من القرآن يقرأ فيه حتى قيل له (قد ركب) فأطلقه وركب فرسه برسم لقائه، وهو يقول (طويل) .

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض ... على الماء خاتته فزوج الأصابع

فلما وصل إليه المنصور، نزل عبد الله إليه سلم عليه ثم وقف، فدار بينهما كلام كثير لم يقف أحد على صحته، ثم طعنه المنصور برمح، فجعل أكمله على وجهه وقال: على ملة الله وملة رسوله! لم يسمع له غير ذلك. وضربه عبد الله أخو المنصور برمح بين كتفيه فسقط إلى الأرض ميتا. ثم أوتي بابنه يوسف، فرضبه المنصور وما كسن بين زيري، فسقط ميتا. وكان عبد الله لما تكرر له المنصور لا يزال يتثمل بهذا البيت (طويل)

٧.٩ مقتل الثائر أبي الفهم

أرى ألف بان لا يقوم لهادم ... فكيف بيان حوله ألف هادم
وكان يتمثل أيضا بقوله (كامل) .

لي مدة لا بد أن أبلغها ... حتى إذا قضيتها مت

لو صارعتني الأسد ضارية ... لصرعتها ما لم يجر الوقت

ولما مات عبد الله وابنه، دار العسكر على الناس، فانتبهوهم وسلبوهم، وقطعوا الطرق، فأخذوا كل من وجدوا من المسافرين وغيرهم، ومالوا إلى وادي القصارين وإلى باب تونس أحد أبواب القيروان، فنهبوا ما كان عند القصارين، فذهب في ذلك اليوم إلى أموال المسلمين، وقتل خلق ممن دافع عن نفسه ومال. ودفن عبد الله في الإسطبل دون غسل ولا كفن. وولي أعمال أفريقية من قبل أبي الفتح بن أبي محمد وكان عاملا على قفصه فأعطاه البنود والطبول وخلع عليه، وولاه أفريقية مكان عبد الله يوم الخميس لخمس بقين من

شعبان من هذه السنة المؤرخة.

وفي سنة ٣٧٨، تحرك أبو الفتح المنصور بعسكره إلى بلاد كغامة. فمر على ميله، وأمر بخرابها، وهدم سورها، وأمر أهلها بالمسير منها إلى باغاية، فاجتمعوا وساروا إليها. فلقبهم ماكسن بن زيري بعسكره، فأخذ ما كان معهم من مال وغبره. وكان المنصور في هذه الحركة لا يمر بمنزل ولا قصر ولا دار إلا أمر بهدمه. ولما وصل المنصور إلى كغامة، حاربوه فظفر بهم وقتلهم واستأصلهم. وهرب الثائر أبو الفهم إلى جبل وعمر، فأرسل إليه المنصور من أخذه. فلما صار بين يديه، أمر به، فلطم لطمًا شديدًا، وتفت لحيته: حتى أشرف على الموت.

مقتل الثائر أبي الفهم

وذلك أنه، لما صار بين يديه، وعمل به ما تقدم ذكره، أمر بخروجه وقد

بقيت فيه حشاشة من الروح، فأخذ بعض رجاله، فنحروه وشق بطنه وأخرجت كبده، فشويت وأكلت. وأخذ عبيد المنصور، فشرحوا لحمه وأكلوه، حتى إذا لم يبق إلا عظامه متجردة وذلك يوم الثلاثاء لثلاث خلون من صفر. وقتل بسببه والي ميله وجماعة من كغامة. ونزل بكغامة الذل والهوان. وبقيت ميله خرابًا. ثم عمرت بعد ذلك. ورحل أبو الفتح المنصور قافلاً إلى المنصورية والقيروان، وفي هذه السنة. دخل الوادي إلى المنصورية وهدم دورها.

وفي سنة ٣٧٩، وصل إلى المنصور سعيد بن خزرون الزناتي من الغرب، فأعطاه وأرضاه وقال له يوماً: يا سعيد هل تعرف من هو أكرم مني؟ قال نعم قال: ومن هو؟ قال: أنا! قال له المنصور: ولم ذلك؟ قال: لأنك جدت عليّ بالمال وجدت أنا عليك بنفسك! فولى سعيداً هذا مدينة طبنة. وقدم عليه بعد ذلك جماعة من الزناتيين، وأكرمهم وأعطاهم، وزوج المنصور ابنته من ورو بن سعيد.

وفي هذه السنة، خالف أبو البهار بن زيري، فزحف إليه المنصور إلى تهرت، ففر أبو الهار إلى الغرب. ودخل عسكر المنصور تهرت فنهبا وقتلوا، ثم أمنهم بعد ذلك. ورجع المنصور عن تبع عمه أبو البهار، وآوى على تهرت أخاه يطوف ومضى المنصور إلى مدينة أشير وكتب أبو البهار إلى ابن أبي عامر، يسأله الدخول في طاعته، وأن يكتب له إلى زيري بن عطية الزناتي صاحب فاس أن يكون موالياً ومصافياً لابن أبي عامر، فكتب ابن أبي عامر إلى أبي البهار: أن كنت على نية فيما وصفته عن نفسك، فأرسل إلى ابنك، يكون رهينة عندي وأفعل عندك ما أحببت! فوجه إليه ابنه في مركب مع ميمون المعروف بابن الدابة كأبيه، فعطب المركب وماتا جميعاً في البحر. فوجه إليه ولده الآخر، فوصل إليه فوجه ابن أبي عامر

لأبي البهار أموالاً وكسي وكتب إلى زيري بن عطية في زحفه أن يعاضده وينصره، ويكون معه. فلما بلغ ذلك أبا البهار وصل إلى فاس، واتفق مع زيري بن عطية صاحبها.

وأما العامل على أفريقية، يوسف بن أبي محمد المتقدم الذكر فكان مشتغلاً بالأكل والشرب فإذا دخل الورد اصطبج عليه، فلا يظهر حتى يفنى الورد وينقطع. وكان يجلس فيه، وينام عليه، فسمي شيخه الورد. وأسلم الأمور لابن البوني، فكان أهل الحاضرة معه في أمن وعافية، وأهل البادية في عذاب وغرامة. وكان جباراً عنيداً، وسمحاً جواداً وكان يخرج في كل سنة فيدور على كور أفريقية، ويحجي الأموال، ويأخذ الهدايا من كل بلد ويرجع. قال الرقيق: كما إذا درنا مع يوسف بن أبي محمد على البدان، واستطاب موضعاً وأعجبه حسنه أقام فيه مصطبجاً الشهر والشهرين، وأبو الحسن البوني يحجي الأموال ويقبض الهدايا ويقوم بأمور أخلة يوسف وعسكره. وكان يعطي لخاصة يوسف في كل يوم خمسة آلاف درهم، وينفق على يوسف لمطيته وفاكهته نحو هذا المال المذكور.

وفيها توفي عامل صقلية عبد الله بن محمد بن أبي الحسن، وولى ابنه يوسف، فكان الناس في أيامه على أفضل ما يشتهون واستقامت له الأمور، وأداخ بلاد الروم، وظهر من كرمه وجوده وعدله مله معدوم في كثير من البلدان.

وفي سنة ٣٨٠، توفي المرصدي صاحب خراج القيروان. وأمر أبو الفتح المنصور بولاية محمد بن عبد الطاهر بن خلف الخراج مع سلامة بن عيسى؟ فجلسا معا في ديوان خراج المنصورية.

وفي سنة ٣٨١ توفي القائد جوهر بمصر وهو الذي فتحها. فلم يبق شاعر بمصر إلا رثاه، وذكر ما فتحه شرقاً وغرباً. وفيها وصل المنصور إلى

المنصورية ودخل قصره الجديد ففرج إليه أهل القيروان، يتلقون فأدناهم وأثنى عليهم ووعدهم خيراً. ثم رفع له في عبد من عبيده أنه

قذف بعض الصحابة، فأمر يقتله وصلب جثته، ونودي على رأسه في مدينة القيروان. وفي سنة ٣٨٢، طهر أبو مناد باديس بن أبي الفتح المصور بقصر والده وأهدى إليه جماعة من الناس على قدر أحوالهم، وفيها ترك المنصور البقايا للرعايا. وفيها قبض على البوني وابنه، وطلب منهم إلا كثيرا فأنكراه وكان المنصور قدر أنه يأخذ منهما أموالا يفتخر بها على أضياف كانوا عنده في يوم طلبها، وقال لهم: لو أن عبدا من عبيدي طلب منه بيوت مال لوجد ذلك عنده! فصادف أنكار البوني ذلك المحل، فأمر بذبح البوني. وعزل يوسف بن أبي محمد عن عمالة أفريقية وولى مكانه محمد بن أبي العرب الكاتب. وفيها وصل سبجل من العزيز بالله بولاية العهد لأبي مناد باديس بن المنصور، فسر المنصور بذلك، وجاءته الهدايا من البلدان ومن كل جهة ومكان، وفيها كان وصول سعيد بن خزرون من مدينة طبنة إلى المنصورية، فلقية المنصور، وعانقه ثم دخل معه إلى قصره، وأنزله وأجرى عليه الأرزاق الواسعة، فاعتل سعيد بن خزرون أياما، ومات في أول رجب، فكفنه المنصور بسبعين ثوبا، وفي هذه السنة وصلت هدية من بلد السودان فيها زرافة، ففرج المنصور حتى دخلت بين يديه. وفيها وصل إلى المنصور فلفل بن سعيد بن خزرون بعد موت أبيه، فأعطاه ثلاثين حملا من المال، وثمانين تحتاً من أنواع الكسي وخيلا بسروج محلاة، وعشرة من البنود الجدد المذهبة، وورده إلى مدينة طبنة أميرا عليها. وفي سنة ٣٨٣ خرج باديس بن المصور إلى مدينة أشير. وفيها وصل إلى المنصور كتاب أخيه يطوفت، يخبره بوصول عمه أبي بهار إليه فكتب إليه

٧٠١٠ إمارة أبي مناد باديس بن أبي الفتح

٧٠١١ ابن أبي الفتح يوسف بن زيري بن مناد

المنصور أن يبعثه فكان أبي البهار إلى المنصورية ليلة الاثنين منتصف شعبان، فأعطاه المنصور كسا وجواري وفرشا وسر به أعظم سرور وأنزله أحسن نزول. وفي سنة ٣٨٤، كان دخول أبي مناد باديس بن المنصور إلى المنصورية من جهة الغرب، وهي أول حركة، فلتقاه أبو العساكر وأهل القيروان وغيرهم، وفيها، كان وصول الهدية من مصر مع جعفر بن حبيب ومعه فيل عظيم. وفي سنة ٣٨٥، مات الأمير عبد الله بن يوسف بن زيري بم مناد. وفيها، كان خروج القائد يوسف بن أبي محمد عاملا على متيجة. وفي جمادى الأخيرة، وصل قاسم بن حجاج إلى المنصورية من مصر برؤوس الروم الذين قتلهم مارق الكامي بحلب. وفي سنة ٣٨٦، توفي أبو الفتح المنصور عدة العزيز بالله بن زيري بن مناد الصنهاجي في يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الأول، ودفن بقصره الجديد الخارج عن المنصورية. وكانت أيامه أحسن أيام.

إمارة أبي مناد باديس بن أبي الفتح

ابن أبي الفتح يوسف بن زيري بن مناد

ولما صارت الأمور إليه، أتاه الناس من كل ناحية بأفريقية للغزاة والتهنئة. وكانوا بنو زيري وبنو حمامة قد هموا بأمور، وخالفوا على ما كان معهم على ما عقدوه، فما تركهم عبيد باديس وعبيد أبيه إلى شيء مما أرادوا. ووصل أبو يبياش يطوفت بن أبي الفتح إلى المنصورية للغزاة والتهنئة ثم رجع إلى طبنة وجهة الغرب في أواخر شعبان. وفي هذه السنة توفي أبو المنصور نزار العزيز بالله العبيدي صاحب مصر في حوض الحمام وكانت به علة الحصى، وشرب دواء في الحوض، وأدركه أجله فيه، فمات. وولي مكانه أبو علي ولي عهده الملقب بالحاكم بأمر الله. وكان أبو مناد قد هيا هدية ليعثها للعزيز، فبرزت الهدية من المنصورية إلى رقادة مع جعفر بن حبيب لست خلون من رمضان. وكان العزيز بالله قد بعث سبجلا إلى أبي مناد يأمره فيه برفع القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم إلى مصر، فوصل السجل والقاضي مريض، فأمره أبو مناد بالخروج مع الهدية، فاعتذر بعده، فبعث إلى داره محمد بن أبي العرب وجماعة من رجال الدولة، وذلك لثلاث خلون من ذي القعدة، ووقف العسكر بباب أبي الربيع وظنوا أن أهل

القيروان يمنعه منهم ويحولون بينه وبينهم فهجموا عليه، وحملوه ببساطه الذي كان مريض عليه في ثيابه التي يلبسها في داره، لأنهم فاجئوه وخرجوا به محمولا، وقد اجتمع عند داره خلق عظيم ولم ينق أحد منهم، ومشوا به إلى رقادة وخلفه غلام نصراني يمسكه، وأولاده وقرابته يمشون خلفه. واغتم بمسيره سائر الناس وظهر عليهم الحزن والأسف لفقده، وكثر الدعاء له والثناء عيه. ثم جاءت الأخبار بوفاة العزيز بالله، فأمر أبو مناد برجوعه إلى داره مكرما معظما وفي هذه السنة، مات أبو محمد بن أبي زيد - رحمه الله! - وفي سنة ٣٨٧، توترت الأخبار بموت العزيز بالله. وفيها رجع القاضي إلى داره، وهو مريض، فازداد مقداره عند الناس وفي صفر، عقد أبو مناد ولاية أشير لحامد ابن أبي الفتوح يوسف بن زيري بن مناد، فخرج عاملا عليها وأعطاه خيلا كثيرة وكسا جليلة، ثم اتسعت عمالته وكثرت عساكره وعظم شأنه، وفي ربيع الآخر وصل القاضي الباهري من مصر إلى المنصورية، فبرز أبو مناد بعساكره عليه، وخرج بجميع رجاله إليه، رأى ما لم ير مثله. ووصل المذكور بسجلين، فقرئا بجامع القيروان والمنصورية: أحدهما بولاية أبي مناد

٧٠١٢ ذكر هزيمة عسكر أفريقية واستيلاء زيري بن عطية عليه

٧٠١٣ وظهور زناتة على صنهاجة

وتلقيه نصير الدولة، والثاني بوفاة العزيز بالله وخلافة الحاكم بأمر الله والجواب عن وفاة المنصور عدة العزيز بالله. وكان معه سجل ثالث بأخذ العهد على باديس وجماعة بني مناد للحاكم. فجلس أبو مناد ودعا وجوه الصنهاجين وأخذ عليهم البيعة. ثم رجع القاضي الشريف الباهري إلى مصر، بعد أن وصله أبو مناد بمال جليل. وفي هذه السنة خرج نصير الدولة إلى المصلى بزي جليل وهيئة حسنة وبين يديه الفيل وزرافتان، وجمل أبيض ساطع البياض، لم ير الناس مثله قط.

وفي سنة ٣٨٨، وصلت إلى نصير الدولة هدية من مصر تشتمل على الجوهر والأعلاق النفيسة، فتلقاها، ودخلت بين يديه إلى المنصورية وفيها، كانت وقعة بمصر بين الترك والكّامين، وكان الظفر للترك عليهم.

وفي سنة ٣٨٩، زحف زيري بن عطية صاحب فاس وما والاها من بلاد الغرب إلى مدينة تهرت، فنزل عليها وحاصرها. وكانت يطوفت بن يوسف بن زيري صاحبها، فكتب إلى ابن أخيه أمير أفريقية، يستمده، فبعث إليه محمد بن أبي العرب.

ذكر هزيمة عسكر أفريقية واستيلاء زيري بن عطية عليه
وظهور زناتة على صنهاجة

لما وصل كُتاب يطوفت إلى باديس نصير الدولة، أمر نصير الدولة محمد بن أبي العرب الكاتب بالخروج بالعساكر إلى زناتة، فكان تبريزه في منتصف صفر من هذه السنة، ونهض بالعساكر حتى بلغ أشير، وبها حماد بن يوسف بن زيري عاملا عليها، ومعه عسكر عظيم، فأقام بها يسيرا، ثم رحل ورحل حماد معه بعسكره، حتى وصلا إلى تهرت، فاجتمعا بيطوفت، ومعه أيضا عسكر عظيم وكان اجتماعهم بتهرت غرة جمادى الأولى. وكان بتهرت زيري بن

عطية نازلا بموضع يقال له امسار، على مرحلتين من تهرت، فزحفوا إليه. فكانت بينهم حرب شديدة وكان معظم عسكر حماد الوتلكاتيين، وكان قد أساء عشرتهم. فلما حمى الوطيس واشتد البأس، ولوا منزمين، فاتبعهم جميع العساكر الأفريقية. فرام ابن أبي العرب رد الناس فلم يقدر فولت الهزيمة على الجميع، حتى وصلوا إلى أشير وقد أسلموا محلاتهم ومضاربهم، وكل ما فيها من الأموال والسلاح وغير ذلك، فاحتوى زيري بن عطية وإخوانه على جميع ما ذكرنا. وقتل منهم خلق كثير، وأخذ أسرى كثيرة، فوعدهم بجبل، ثم أطلقهم عند وصوله إلى تهرت، ففضوا حتى وصلوا إلى أشير. وبقي ابن أبي العرب وحماد ويطوفت بأشير وبقي زيري بن عطية الزناتي على تهرت. وكانت هذه الوقعة والهزيمة يوم السبت لأربع خلون من جمادى الأولى من هذه السنة. ووصل الخبر إلى المنصورية لعشر بقين منها، فخرج نصير الدولة صاحب أفريقية من المنصورية للقاء زيري بن عطية يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الآخرة، ورحل حتى وصل إلى طينة، فبعث في طلب فلفل بن سعيد بن خزون الزناتي، وكان على طينة، فخاف منه، وبعث يعتذر له، ويسأله أن يكتب له سجلا بولاية طينة، فكتبه له، وبعث به إليه، ورحل عنه نصير الدولة باديس وتمادى في رحيله. فلما بلغ فلفلا أنه

قد أبعد عنه ضرب على جهة من جهاته، فأكل ما حولها ونهب وافسد ومضى إلى باغاية، فحاصرها، وأفسد تلك الجهات كلها، واكل ما والاها، ونصير الدولة في هذا كله متماد على سيره حتى وصل أشير. ولما وصل إلى المسيلة، رحل زيري بن عطية عن تهرت. فصمم إليه نصير الدولة. ثم وصله الخبر أنه توجه إلى ناحية فاس فعند ذلك رجع نصير الدولة إلى تهرت وأشير، واستخلف يطوفت على تهرت ابنه أيوب في أربعة آلاف فارس. وبلغ نصير الدولة ما فعل فلعل ابن سعيد، فأرسل من أشير عساكر تقدمت إليه، ثم رحل بعدهم ومعه أبو

البهار بن زيري حتى وصل إلى المسيلة فعيد بها عيد الفطر. ووصل إلى أبي البهار فيه الخبر بأن أخوته ماكسن وزاوي ومغنين نافقوا بأشير، وأنه قد قبضوا على يطوفت، فرحل أبو البهار هاربا في بنيته ورجاله وعياله. ورحل نصير الدولة ثالث شوال إلى أفريقية. فلما بلغ إلى يلزما، بلغه أن فلعل بن سعيد تمادى إلى القيروان، فرحل إلى باغاية، فعرفوه ما قاسوه من قتال فلعل وأنه حاصره خمسة وأربعين يوما، فرحل من باغاية في طلب فلعل، فالتقى معه لعشر خلون من ذي القعدة، فكانت بينهم حروب لم يسمع بمثلهما. ولكن قد اجتمع لفلعل من البربر مل لا يحصى عددا وكثرة، فانهزم فلعل إلى جبل الحناش، حسبما ذكره، واتبعته صنهاجة والعبيد. فلما رأوه تمادى منهزما، رجعوا عنه ونهبوا محله. وقتل في ذلك اليوم نحو سبعة آلاف من زناته. وأرسل نصير الدولة كتاب الفتح إلى مدينة القيروان. وفي سنة ٣٩٠، خرج نصير الدولة في طلب فلعل بن سعيد. فلما علم فلعل أنه لا طاقة له بقلائه، هرب إلى الرمال، واقترب جمعه فرجع نصير الدولة إلى أفريقية، ومعه أبو البهار بن زيري وقد أعذره له مما فعل إخوانه، فقبل عذره. ثم رجع فلعل إلى طرابلس، وتمادى نصير الدولة إلى أن وصى إلى قصر الأفريقي، فبلغه حينئذ أن بني زيري رجعوا إلى الغرب خوفا منه وأنه لم يبق مع فلعل سوى ماكسن وابنه محسن، فرجع نصير الدولة إلى المنصورية حضرته. وفي أول رجب من هذه السنة، خرج نصير الدولة إلى رقادة، متوجها لقتال زيري بن عطية الزناتي أمير الغرب، لما بلغه أنه أتى إلى أشير. ثم جاء الخبر برحيل زيري بن عطية إلى الغرب، فرجع نصير الدولة إلى المنصورية.

وفي سنة ٣٩١، خرج نصير الدولة في طلب فلعل ثانية، ووصل كتاب يوسف بن عامر عامل قابس، يذكر فيه أن فللا رحل إلى طرابلس من على قابس، لست بقين من رجب، ولما وصل فلعل إلى طرابلس خرج إليه فتوح

٧٠١٤ بعض أخبار زناته ودولتهم بالغرب إلى حين ظهور المرابطين

ابن علي وجماعة أهلها، فقتلوه وأدخلوه البلد، فاستوطنها من ذلك الوقت. وفي هذه السنة، وصل رسول حماد بن يوسف العزيز بالله يذكر أنه زحف إلى عمه ماكسن بن زيري ومن معه، فقتل ماكسن وولده محسن وباديس بعد حروب شديدة ن وذلك بعد ثلاث خلون لرمضان المعظم. وفيها توفي زيري بن عطية الزناتي، صاحب فاس والغرب كله وذلك في الثاني عشر من رمضان المذكور من السنة المؤرخة، بعد قتل ماكسن بتسعة أيام.

بعض أخبار زناته ودولتهم بالغرب إلى حين ظهور المرابطين

وذلك أن زناته كانت تقوم بدعوة الأمويين، لما تقدم لهم من هجرة جدهم خزر بن صولات وإسلامه على يد عثمان بن عفان، وكان صنهاجة تقوم بدعوة العبيديين. ووقع بينهم حروب كثيرة وقام ببلاد الغرب زيري بن عطية الخزري المغراوي، وملك فاسا وغيرها، وصار أمير زناته كلها في ذلك الوقت. وكان يدعو لبني أمية في دولة هشام المؤيد، إذ كان المقيم لها ابن أبي عامر حاجبه، وهو يحارب أعدائه وأضداده صنهاجة أمراء أفريقية. قال بن حمادة: وكان قد وصل إلى قرطبة، واجتمع مع ابن أبي عامر سنة ٣٧٩، وكان بأرض الغرب في خدمته من تلك السنة وموالاته مع سعة ملكه وبعد صيته إلى أن فسد ما بينهما سنة ٣٨٧، ووقع بينه وبين المظفر حروب يطول ذكرها.

قال ابن حيان: ثم أن زيري بن عطية الراوي نكث على علي ابن أبي عامر بعد الحب الشديد والوفاء الأكيد، وطعن علي بن أبي عامر سلبه الملك هشام وامتعض لهشام المؤيد، وغلبة ابن أبي عامر عليه، فانفذ له ابن أبي عامر واضحا فتاه بجيش كثيف، فقاومه بالمغرب. ودارت بينهم حروب عظيمة، ثم أردفه ابن أبي عامر بولده عبد الملك، وهبط هو إلى الجزيرة الخضراء يمددهم بالقواد

والأجناد. وبرز عبد الملك من طنجة إلى زيري، ودارت بينهم حروب لم يسمع بمثلها في الحروب الغابرة. أجلت عن هزيمة زيري واستئصال رجاله وحاله. ونجا هو مثخنا بالجراح. وانبسط ملك عبد الملك بن أبي عامر على الغرب وما والاها إلى سلجماسة، وعلى تلمسان وتيهرت. وقفل إلى الأندلس سنة ٣٨٩، واستخلف على بلاد الغرب واضحا الغازي، فأقام بفاس مدة وانصرف إلى الأندلس، وخلف على فاس عبد الله بن أبي عامر، ابن أخي المنصور، ثم تلاه إسماعيل بن البوري، ثم تلاه أبو الأحوص معن بن عبد العزيز، وبقي فيها إلى أن توفي محمد بن أبي عامر، فصرفها ابنه عبد الملك المظفر إلى المعز بن زيري بن عطية، وقد استحكمت ثقته به وحسن رأيه فيه فولاه على فاس سنة ٣٩٧، على أن يعطيه المعز عدة من الخيل والسلاح يحملها كل سنة إلى قرطبة، وقبض على ابنه المسمى معن رهنه. فاستقامت طاعة المعز، وأقام ابنه بقرطبة إلى أن نشأت الفتنة وانقرضت الدولة العامرية، فانصرف معن إلى أبيه ومضى مع أبوه على رأيه في موالاة من ظهر بالأندلس من الروانية، إلى أن هلك بعد صدر من الفتنة، وأورث ولده حمادة ملك فاس وما والها.

وقد ذكر الوراق ذلك، وشرحه شرحا كافيا وقال: توفي زيري بن عطية في سنة ٣٩١، أقام بنو عمه ابنه المعز مكانه. وذكر استجداء المعز للمظفر ابن أبي عامر، وأرسله إليه، وتقليد المظفر له ولاية المغرب على ما تضمنه من خيل وسلاح وغير ذلك، ورهنه المعز ولديه حمادة ومعنصر، وذكر موت المظفر، وتقديم أخيه عبد الرحمن لحجابة هشام المؤيد وبلغ المعز بن زيري ذلك، فاحتفل في هدية عظيمة يهديها له، وذلك سبعمائة من الخيل وأحمال كثيرة من درق اللط وجملة كبيرة من المال والسلاح، وسائر ما بالمغرب من الطرف، ووصل قرطبة مع هذه الهدية فتيان من بني عمه وجملة من شيوخ

القبائل ووجوه فاس، فسر عبد الرحمن بذلك وشكر المعز وسرح ابنه إليه بعد أن كساهما وأرضاهما وكتب للمعز عهدة بتحديد ولاية الغرب كله إلا مدينة سجلماسة فإنه كان قد عقد ولايتها لواضح الفتى قبل ذلك وولاها واضح وانودين بن خزرون اليفرني وأبن عمه زيري فلفل على ما ضمنه إليه وعده من الخيل والدرق معلومة وجملة من المال في كل سنة. ورهنه كل واحد منها أبه. فامثل النعز بن زيري وما أمره بن عبد الرحمن بن أبي عامر. وبقي المعز أمير الغرب إلى أن انقرضت الدولة العامرية ثم انقرضت الدولة الروانية وانشقت عصى الأمة ومرج أمر الناس بالأندلس وصار المسلمون شيعة متفرقون يقتل بعضهم بعضا وينهب. وفعل أهل المغرب مثل ذلك فكثرت فيه الشتات وشن الغارات بعضهم على بعض. وأقام المعز بن زيري يداري أمره إلى أن حانت وفاته سنة ٤١٦. وولى مكانه ابنه أبو العطف حمادة بن المعز بن زيري بن عطية وكان له حظ من المعرفة والأدب وحسن السياسة، فكانت مدينة فاس في أيامه هادئة راحية، وكان الشعراء يقصدونه من الأندلس. وجرت له حروب كثيرة إلى أن حانت وفاته في سنة ٤٣٣. وولى ابنه دوناس بن حمادة فقام عليه بنو عمه، ولم يزل أمره يضعف، ودولتهم تدبر إلى أن قام بمدينة فاس أميران بالعدوتين وكانت الحرب تدور بينهما. وجرت بين ذلك أمور وخطوب، ولا يحسن ذكرها لشناعتها، إذ للدول، إذا أدبرت كل ما يجري فيها يقبح ذكره، إلى أن شاع خبر خروج لمتونة من الصحراء، واستيلاءهم على بلاد المصامد وخلعهم للموكلهم وناموس عدلهم، ودخل عبد الله بن ياسين مدينة أغمات وما يليها، نخافت زناة وأجفلت عن جهة الشرق حيث مستقرها، ولما قتل عبد الله بن ياسين، رجعت زناة إلى المغرب، وقتلوا كل من اتهموه بالميل إلى أصحاب اللثام، فخاربهم الصحراويون. ووجه أبو بكر بن عمر يوسف بن تاشفين، فخارب رؤساء القبائل، واستفتح بلاد كثيرة.

وفي خلال ذلك كان الجوع الشديد الذي يعرف بسنة أوقبة بدرهم من الدراهم الخندوسية، وذلك في سنة ٤٤٤. ورجع الفتوح بن معنصر الزناتي من المشرق وكسر عسكر مدينة فاس في سنة ٤٥٤. وفيها كسرة مكاسة ولواة: كسرهما قائد أبي بكر بن همر اللمتوني. وفي سنة ٤٥٤، وطئ بليجين بن محمد بن حماد الصنهاجي جميع الغرب ودوخه بجيوش عظيمة.

وفي سنة ٤٥٩، دخل إبراهيم بن مليح الجزنائي مدينة فاس، وأخرج منها معنصر بن حماد إلى بيت الشرق. ثم رجع إلى فاس، وقتل كل من اتهمه بالميل في المثلثين. ثم رجع يوسف إلى المغرب وهرب معنصر. وقتل يوسف سدرارة ودخل مدينة فاس، واستولى عليها وعلى أكثر الغرب. هكذا ذكر أبو مروان عبد الملك بن موسى الوراق في كتابه (المقباس في أخبار فاس). وأما يوسف الجزنائي، صاحب مكاسة فتولى سنة ٤١٢. وأما توالي، فتوفي بالقلعة، وولي ابنه مهدي في هذه السنة. وأما ابن أبي العافية إبراهيم، فتوفي في

سنة ٤٥٠، وولي ابنه عبد الله وكان بنو أبي العافية أصحاب تسول وملوية ونكور، وهي لمزمة، وتوفي عبد الله ٤٦٠، وولي ابنه محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية وأما تلمسان والزاب، فكان فيها يعلى الزناتي، وما في هذا التاريخ أو قريباً منه وقام فيها بنوه. وما وراء الزاب من بلاد الغرب، لم يملكه العباسيون قط، أما تلمسان وأنظارها، فولياها محمد بن سلمان ابن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي - رضي الله عنهم - ومن ولده أبو العيش عيسى بن إدريس بن محمد المذكور. وأما فاس وأنظارها فكان فيها شيعة ثم آل أمرها إلى إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي - رضي الله عنهم - وأما تلمسان، فكان فيها أولاد صالح بن طريف على ضلالتهم. وأما سجلماسة، فنزلها عيسى بن سمغون، رئيس الصفرية. فهذه هي البلاد المتفق عليها، وأما المختلف فيها، بأفريقية: قيل أنه كان فيها عبد الرحمن بن حبيب ثائراً، وبالأندلس يوسف الفهري أميراً.

رجع الخبر إلى نسق التاريخ. وفي سنة ٣٩٢، توفي أبو طالب شيخ المعتزلة ولسانهم، وله تسع وستون سنة. وفي هذه السنة كان خروج يحيى بن علي بن الأندلسي من مصر بالعسكر، فأن وصوبه إلى طرابلس يوم الجمعة لتسع خلون من ربيع الأول وكان متولي التدبير في الوقت زيدان الصقلي، فاختلفت عليه أمور العسكر مع سوء عقله وضعف تدبيره ووصل إلى فلفل، فاستخلف به، واحتقره. وفيها ن في رمضان المعظم، توفي المنصور بن أبي العامر على ما يأتي في موضعه.

وفي سنة ٣٩٣، وصل يحيى بن علي بن الأندلسي، ومعه فلفل بن سعيد وفتح بن علي إلى مدينة قابس، فحصرها عطية بن جعفر وخرج في تلك الأيام إلى قابس عشرون رجلاً من الناشئة، فعرف بهم فلفل فبعث في طلبهم فلما أتى بهم ن ضرب أعناقهم، وكان وصولهم إليها يوم الاثنين لأربع عشرة خلون من شعبان من هذه السنة. ثم انصرفوا راجعين إلى طرابلس ولما رأى يحيى بن علي اختلال الحال عليه، ولم يجد ما يعطي لرجاله عاد ببقيتهم إلى مصر، بعد ما أخذ فلفل وأصحابه ما أحبوه من خيولهم بين شراء وغصب فلما وصل إلى صاحب مصر الحاكم بأمر الله، أراد الإيقاع به، وبعد ذلك عفا عنه وقبل عذره.

وفي سنة ٣٩٤، قتل الحاكم بأمر الله منجمه البكري بمصر، وكان ضعيف العقل أحمق وكان له بصر بالقضايا. وفيها قتل الحاكم جماعة كبيرة من وجوه رجاله وأحرقهم بالنار. وفيها، قتل المعروف بابن خريطة. وفيها، قتل ابن الغازي المنجم. وفي سنة ٣٩٥، كانت بأفريقية شدة عظيمة أنكشف فيها الستور، وهلك فيها الفقير، وذهب مال الغني، وغلت الأسعار، وعدم القوات. وجل أهلها

البادية عن أوطانهم وخلت أكثر المنازل فلم يبق لها وارث وع هذه الشدة وباء طاعون هلك فيه أكثر الناس من غني ومحتاج فلا ترى متصرفاً إلا في علاج أو عيادة مريض أو أخذاً في جهاز ميت أو تشيع جنازة أو انصرف من دفن. وكان الضعفاء يجمعون إلى باب سالم فتحفر لهم أخاديد ويدفن المائة والأكثر في الأخدود الواحد فمات من طبقات الناس وأهل العلم والتجار والنساء والصبيان ما لا يحصى عددهم إلا خالقهم تعالى وخلت المساجد بمدينة القيروان وتعطلت الأفران والحمامات. وكان الناس يوقدون أبواب بيوتهم وخشب سقوفهم. وجاء خلق من أهل الحاضرة والبادية إلى جزيرة صقلية. وكانت الرمانة بدرهمين للمريض في ذلك الوقت والفروج بثلاثين درهماً وقيل أن أهل البادية أكل بعضهم بعضاً. كذا ذكر أبو إسحاق الرقيق.

وفي سنة ٣٩٦، كثر الخصب بأفريقية ورخصت الأسعار وأرتفع الوباء عن الناس وفيها ثار بركة الوليد بن هشام وأدعى أنه من بني أمية من ولد المغيرة وكان ظهوره في العام الفارط عن هذه كان معلماً ببرقة فرأى في أهل برقة فرصة فانتسب لهم وعرفهم أم عنده روايات وعلمها وأنه هو الذي يملك مصر ويقتل الجبابرة وأعانه على ذلك قوم من لواتة وزناتة فنصبوه إماماً واجتمعوا عليه. ثم أقبل البربر من كل ناحية إليه فزحف إلى برقة وحاصرها حتى فتحها وذلك في رجب من العام الفارط ثم قوى أمره في هذه السنة، فأخرج الحاكم إليه جيشاً فكان بينهم قتال شديد إلى أن هزم عسكر مصر وقتل قائده. وفيها توفي عامل أفريقية محمد بن أبي العرب. وفيها قتل الحاكم قاضيه وأحرقه بالنار على أكله أموال الأيتام. وفي سنة ٣٩٧ استخلف أمر الثائر بركة الوليد بن هشام وكثرت جموعه وأتباعه فأخذ الحاكم بالحيلة فدعا وجوه رجاله وقواده وأمرهم أم يكاثمونه ويعرفوه أنه على مذهبه وهو أن قرب منهم صاروا في جملة. فلما تواتر ذلك عليه وثق به وزحف بكل من معه من قبائل البربر إلى مصر فخرجت إليه عساكر مصر فهزموه ولحق بأراضي السودان.

ثم أخذ أسيرا ودخل إلى مصر على جمل فطيف به بثياب مشهورة ثم قتل شر قتلة في النصف من شوال. وفيها ولي العمالة بأفريقية إلى القاسم بن محمد بن أبي العرب بعد موت أبيه فأفر رجاله على مراتبهم واستعان بهم.

وفي سنة ٣٩٨ توفي صاحب المظالم بأفريقية محمد بن عبد الله وكانت وطأته اشتدت على أهل الريب والفساد بالضرب والقتل وقطع الأيد والأرجل لا تأخذ فيها لومة لائم.

وفي سنة ٣٩٩، هرب أولاد محمد بن أبي العرب من المنصورية يريدون فلفل بن سعد بن خزرون الزناتي بإطرابلس، فأرسل نصير الدولة إلى صاحب قابس يأمره أن يقطع بهم فلحق بهم المذكور، وأخذ منهم عليا ويوسف فقطع رؤوسهما وتوجه بها المنصورية منسلخة الحرم ووصل القاسم بعد ذلك فعفا عنه.

وفي سنة ٤٠٠، توفي فلفل بإطرابلس بلة أصابته. وولي أخاه ورو وأطاعته زناتة وفيها رحل أبو مناد صاحب الدولة بعساكر إلى أطرابلس ليوم الاثنين خلون من شعبان فتلقيها أهلها مسرورين داعين مستبشرين فضربت له فساطيط الدياج والقباب الجليلة ونزل فأخذ الناس ربح عظيمة خرق جميع المضارب ومزقها وذبح بها. ودخل نصير الدولة إلى قصر فلفل. وجاءت رسل ورو بن سعيد أخي فلفل راعية في الأمان والعفو فعفى عنهم وشهد بذلك على نفسه، ثم صدر إلى المنصورية ظافرا. ووصل النعيم بن كنون وطائفة معه إلى المنصورية، فأعطاهم نصير الدولة، وأفضل عليهم أتم الأفضال وأمر للنعيم والبنود والطبول والبرادين والسروج وصرف إلى البلاد التي أعطاها وقاعدتها قصطيلية فأقام بها ملك بالطبول والبنود والجيش. وفي سنة ٤٠١، كان موت عزم بن زيري بن مناد بالقيروان. وفيها، توفي القائد جعفر بن حبيب. وفيها أمر الحاكم بأمر الله بن الحسين بن جوهر قائد القواد وصره القاضي على مصر عبد العزيز بن محمد بن النعمان فقتلا جميعا في وقت واحد. وفي شوال من هذه السنة خالف ابن الجراح على الحاكم بأمر الله، وبعث رسالة إلى أمير مكة يستدعيه للخلاف عليه معه نخالفة وتسمى بأمر المؤمنين. وتابعه على ذلك أهل مكة وبنو عمه وغيرهم وتمادى أمرهم على ذلك بقية هذه السنة. وفيها، وجعل أهل مصر ومن كان معهم من المغاربة وغيرهم يرسم التوجه إلى مكة - زادها الله تكريما وتشريفا! - وذلك عند وصولهم للقرم بلغهم ما فيعمل ابن الجراح وأبو الفتوح أبو الحسن بن جعفر بن محمد فل يحج منهم أحد، ولم يحج أحد هذه السنة من الشام ولا العراق ولا خراسان ولا سائر الآفاق ألا أهل اليمن ونفريسير ممن كان بمكة مجاورا.

وفي سنة ٣٠٢ تقدم المنصورية خزرون بن سعيد بن خزرون الزناتي أخو فلفل المتقدم ذكره. وكان سبب وصوله اختلاف بينه وبين أخيه ورو فقصد إلى نصير الدولة فقبله أحسن قبول وكان معه نحو سبعين فارسا من زناتة فأنزلهم وأحسن إليهم ثم بعد ذلك بأيام أعطاها مديمة، فخرج إليها بالبنود والطبول.

وفي سنة ٤٠٣ وصل إلى المهديّة مركب فيه هدية جليلة من الحاكم إلى نصير الدولة باديس صاحب أفريقية، وإلى ولده منصور عزيز الدولة فتلقيها المنصور مع أهل القيروان على قصر الماء بالبنود والطبول، ووصلت سجلات منه إلى نصير الدولة بإضافته وأعمال برقة إليه. وفيها توفي أبو الحسن القابسي

الفقيه العالم. وفيها، عزل أمير نصير الدولوبو يوسف ابن حبوس السنهاجي عن أمر الجيوش وغيرها. وفيها توفي مفرج بن الجراح ببلاد الشام وبقي أولاده مكانه. وفيها، عاد صاحب مكة إلى طاعة الحاكم وهو جعفر بن الحسن المتقدم الذكر الذي قام بها ودعا لنفسه وتسمى بأمر المؤمنين الراشد بالله ثم تاب مما فعل في هذه السنة وصعد المنبر وتبرأ مما كان ادعاه وكتب بذلك إلى الحاكم بأمر الله فقبل منه وأنفذ إليه أموالا عظيمة وأمر الناس أن يسافروا إلى مكة بالطعام وسائر المرافق.

وفي هذه السنة ظهر بأفريقية ثائر أسمه عبد الله بن الوليد بن المغيرة وكان خاملا مشتغلا بالتعليم ثم دعا إلى نفسه فأخذ وسيق إلى القيروان مع صاحب له وحمل على جملين وطيف بهما ثم ضربت أعناقهم ورفعوا فصلبا. ووجت عنه خريطة فيها كتاب بخط يده لبعض الأشياخ القبائل يقول فيها: (من عبد الله أبي محمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين إلى فلان) ثم يذكر أن تام أمره وظهوره يكون بكامة ويأمره لأن يتلاقاه في أول صفر من سنة ٤٠٤ فإنها آخر دولة صنهاجية وبها تنقطع دولتهم. فتمكن منه صنهاجية كما ذكرنا.

وفي سنة ٤٠٤ وصل سجل من الحاكم إلى نصير الدولة يذكر فيه أنه جعل ولاية العهد في حياته لأبن عمه أبي القاسم عبد الرحمن بن

ألياس فقراً بجامع القيروان والمنصورية وأثبت اسمه مع اسم الحاكم في البنود والسكة. فعظم ذلك عند نصير الدولة وقال: (لولا أن الإمام لا يتعرض على تدبير، لكتبته ألا يصرف هذا الأمر من ولده إلى ابن عمه!) وفي سنة ٤٠٥ هـ أخرج نصير الدولة هدية جليلة إلى الحاكم وشيعها بالبنود والطبول عن المنصورية فوصلت إلى المهدي وركب بها البحر يعلى بن فرج. وكان فيها مائة فرس ولها سروج محلاة شدت في ثمانية عشر حملاً أقفاصاً

وكان فيها ثمانية وعشرون حملاً من الخزف السمور والمتاع السوسي المذهب النفيس وعشرون وصيفة بارعة الجمال وعشرة من الصقالبة وغير ذلك. ووجهت السيدة أم ملال أخت نصير الدولة إلى أخت السيدة أخت الحاكم هدية أيضاً. ولما وصلت تلك الهدايا إلى جهة برقة أخذ العرب وهرب يعلى بن فرج وأسلمها بجميع ما فيها.

وفيها نادى مناد القيروان بانتقال من كان يسكن فيها من الصنهاجيين إلى المنصورية. ثم نادى مناد آخر بعد ذلك بإغلاق الحوانيت بالقيروان وفنادقها فأغلقت ولم يبق بها إلا بعض حوانيت الأحباس ويبلغ كراء حانوت بالمنصورية مائتي درهم لبيع الكنان وما سمع ذلك بكراء حانوت بالقيروان فكان ذلك أول أسباب خرابها.

وكان الحاكم لقب المنصور بن نصير الدولة بعزير الدولة وقرى سجله بذلك فأراد نصير الدولة أن يرشح ويضيف فيه أعمالاً يستخدم فيها أتباعه وصنائه. وكان نصير الدولة اتصل به عن إبراهيم بن سيف العزيز بالله هانت إنكاره عليه فأراد اختبارها فكتب كتاب إلى حماد يأمره فيه بتسليم عمل أبي زعلب قصر الإفرقي ومدينة القسطنطينية إلى مستخلف عزيز الدولة وقد كان قد خلع على هاشم بن جعفر وأعطاه البنود والطبول وأمره بالخروج إلى هذا لعمل نفرج بخزائن وعدد جليلة وبعث نصير الدولة إلى إبراهيم بن سيف العزيز بالله يشاوره على من يمضي بكتاب إلى حماد فتسرع إبراهيم إلى المسير بالكتاب نفسه وقال يجد مولانا عبداً من عبيده أنهض بخدمته مني!) وتضمن ذلك وأخذ على نفسه الموائيق أنه لا يقيم في مضيه إلا أقل من عشرين يوماً فأسار على نصير الدولة من يقرب منه بأن يعتقل إبراهيم، ولا يدعه لما يرد من السفر حتى يرى ما يكون من طاعة أخيه حماد ومساعدته إلى ما يأمره به نصير الدولة من ذلك وقال لإبراهيم: (امض إلى

أخيك حماد. فأن صدقت فيما قلت، ووفيت بما وعيت، وإلا فأفعل ما أردتما) وخرج إبراهيم بن يوسف العزيز بالله بماله ورجاله وجميع ذخائره، ولم يعقه في ذلك من نصير الدولة وإلا فقد بأثقال وجملة رجاله دليلاً على ما خالف ما أظهر، وكان خروجه من شوال، وصبحه هاشم بن جعفر، ثم أحس هاشم أنه سيغدره إذا قرب من أخيه، فاعتذر له أن حاجة بقيت له بباجة، وعدل إلى طريقها، ووعد أنه يلحقه سريعاً. ففجأه الله من غدره. ومضى إبراهيم حتى وصل تامديت، وكتب إلى أخيه، فنهض إليه حماد في عساكر عظيمة، واجتمعت كلماتها، وخلعا أيديهما من الطاعة.

وانتهى ذلك إلى نصي الدولة، فرحل في أواخر من ذي الحجة، ونزل برقادة، ووضع العطاء لعساكره، وأخرج عياله وأثقاله وأخته السيدة أم ملال، وأولاده، وعبيد إلى المهديّة، ورحل في السابع منه. وأمر بالقبض على يوسف بن أبي حبوس وأخته، فقبض عليه. وكان نصير الدولة لم يمض له يوم من الأيام إلا جدد عليه كرامة وإحساناً، ولا كان يهدى إليه فرس أو ثوب من ثياب الخلافة إلا أثره بذلك على نفسه، ومع ما حمل له من الضياع والرباع بكل كورة من كور أفريقية. وما زال يرفع من قدره، ويزيد في التنويه بذكره، حتى نال من أعلى المراتب، ما لم ينله بعيد ولا قريب، وسما من رفيع الدرجات ما لم يسم له حميم ولا نسيب. وكان - والله أعلم - تسول له نفس الفتك بالأمر نصير الدولة. وأنه هم بذلك مدة من الزمان، فلم يعنه الله عليه، بل خيب سعيه، ورد في نحره بغيه. فتقرر ذلك عند نصير الدولة، فقبض عليه. وكان في قبضه عليه ما أوهن الله به كيد الأعداء، وخيب آمالهم، وأضل أعمالهم. ورحل نصير الدولة ثاني عيد الأضحي بعسكره لحامد المذكور.

وفي سنة ٤٠٦ هـ، في صدر محرم، وصل عزم وفلفل حنون بن سنون، وماكسن بن بلقين، وعدنان بن معصم في عدة من الفرسان من عسكر حماد. نفخ عليهم، وأحسن إليهم. وما زال نصير الدولة يرحل مرحلة بعد مرحلة إلى أن وصل إلى تامديت. ثم ورد عليه الأخبار بوفاة ولده المنصور عزيز الدولة، وذلك أنه كان في حين حركته

إلى المهديّة عرضت له حمى، وظهر به جذري، فأقام سبعة عشر يوما. وتوفى. فكتب من نصير الدولة أمره خوفاً أن يبدو من جزع. يكون فيه وهنا على الدولة فيما هو بسبيله من مقابلة عدوه. فبلغ خبره إبراهيم وحمادا، فبعثا إليه، وقالوا له: (إن ولدك، الذي طلبت له ما طلبت، قد توفي) فما وضعه ذلك، ولا أوهنه، وكتب إلى السيدة يسألها عن ذلك. فورد كتابها بوفاته والتعزية عنه، ونصف سلامة المعتز حسن حاله، فكان من صبر نصير الدولة وحسن عزائه ما كثر التعجب به. وجلس مجلسا عاما للغزاة، فكان لا يرى من أحد جزعا وبكاء إلا سلاه وهون عليه، فزاد ذلك سرورا لأوليائه وكدا لحسدته وأعدائه.

ثم رحل من تامديت لست خلون من صفر، وتمادى رحيله إلى أن وصل المحمدية، وهي مدينة المسيلة، فتلقاها أهلها داعين شاكرين على ما منحهم من العدل والأمان، وكشف عنهم من الجور والعدوان. فأقام بها ستة أيام. ثم رحل، فعبّر وادي شلف، ثم تمادى مشيه حتى قرب من عساكر حماد وحشوده من زناتة وغيرها في العدوّة الأخرى في الوادي. فبات على تحفظ واحتراس. ولما كان في غد نزوله، برز في عساكره، ومشى عليها، ورتبها، وأقام كل قائد من قواده في مركزه. وقد تقارب الفريقان، وتراءى الجمعان، فهزم حماد، وانتهب عسكره. فقبل أن الذي انتهب من الدرق عشرة آلاف درقة. وكان اشتغال العساكر النصيرية برفع الغنائم والأموال والأثقال سببا لنجاة حماد المذكور، لتركهم أتباعه. وأخذ الناس من الأموال والغنائم ما لا يحصى عددا وكثرة، ووجد رقعتان فيهما: (أن الذي عند القائد فلان صندوق فيه

خمسون ألف دينار وسبعمئة، ومن الورق ألف ألف وخمسمئة ألف درهم، ومن الأمتعة خمسون صندوقا) غير ما كان في بيت حماد وخزائنه. قال أبو إسحاق: وجد رجل بين يديه بغل يسوقه، ففتشه بعض الوصفان بين أيدينا، فوجد في حشو برذعته وصوفها ثماني آلاف دينار، ومثل هذا ما لا يحصى كثرة وعرضت لي أبيات بعد أن سعدنا من الوادي، وقد لقينا به مشقة شديدة، غير أن حلاوة الظفر والفوز بالسلامة أنسى ذلك، وهي (بسيط):

لم أأس يوما بشلف راع منظره ... وقد تضايق فيه ملتقى الحدق
والخيل تعبر بالهامات خائضة ... من سافح الدم مجرى قاني الفلق
والبيض في ظلمات النقع بارقة ... مثل النجوم تهاوت في دجي الغسق
وقد بدأ معلما باديس مشتبرا ... كالشمس في الجو لا يخفى عن الحدق
وإن راحته لو فاض نائلها ... وبأسها في الورى أشفوا على الغرق
تجلوا عمامته الحمراء غرته ... كأنه قر في حمر الشفق
لو صور الموت شخصا ثم قيل له ... (أبو مناد تبدى) مات من فرق

وأصبح نصير الدولة يوم الاثنين لليلتين خلتا من جمادى الأولى، فبعث في طلب حماد بن يوسف العزيز بالله، وقد تحصن في القلعة من أخيه، فأقاما بها ثلاثة أيام حتى استراحا وأراحا دوابهما ومن كان معهما. فعرّفه إبراهيم بحاجته إلى الزيادة من الطعام والملح، فخرج حماد في جميع من كان معه ومع أخيه، فسار بهم حتى دخل مدينة دكمة، وقد كان نقد على أهلها، وكان نصير الدولة في أثره، فتصايح أهل الموضع بساقته، فاعترضهم بالسيف، وقتل منهم نحو ثلاثمائة رجل. فخرج إليهم أحمد بن أبي توبة فقيه هذه المدينة وصالحها، فخوفه بالله، ووعظه، وقال له (يا حماد إذا لاقيت الجمع هربت منها أو أن قاربك الجيوش فررت عنها! لا وإنما قدرتك وسلطانك على أسير يكون في يديك، ولا ناصر له عليك) فلما سمع كلامه، أمر بضرب عنقه. ووفق إليه شيخ صالح منها، فقال له: (يا حماد أتق الله! فأني حجت حجتين!) فقال له (أنا أزيدك عليهما الشهادة!) وأمر به، فضربت عنقه. ووقف إليه جماعة من التجار المسافرين، فقالوا له: (نحن قوم غرباء، ولا ندري ما جنى أهل هذه المدينة عليك) فقال لهم: (اجتمعوا وأنا أعرفكم) ودخل معهم غيرهم ممن طمع في الخلاص معهم. فلما وصلوا إليه، أمر بهم فضربت رقابهم أجمعين. وأخذ الجميع ما كان بتلك المدينة من طعام وملح، وعاد به إلى قلعته.

وأما نصير الدولة، فيوم هزيمة حماد، أخرج بكار بن جولة الوتلكاتي، وكان قد أخذه أسيرا، وكان بكار كثير ما ينطلق به لسانه. وكان يوسف بن أبي حبوس معتقلا أيضا عند نصير الدولة، فأخرج بكار بمحض يوسف، وحلقت لحيته، ويوسف ينظر إليه، ثم أمر: خلقت لحية يوسف، فصارا مثلة في العالم. وقال الرقيق: لما عاينا يوسف، وقد حلقت لحيته، تحدثنا سرا بيننا، وقلنا: (وقد كنا نرجو ليوسف

الحياة، لأن الملوك تعفو بعد العقوبة! وأما المثلة، فما نرى أن بعدها إبقاء) فلحنا نصير الدولة وقال: (ما خضت ما فيه؟) فصدقناه سرا، فقال: (ما ابتعثنا) وبعد ثلاث، أمر بإحضاره، فعدد عليه تساوي أفعاله وقبائح أعماله، ثم أمر به، فجذع أنفه، وقطعت أذنه، ورفع من بين يديه. ثم أعيد إليه، فقطعت يداه جميعا. ثم أمر به إلى موضع اعتقاله، فبات مشحطا في دمائه. فحكى بعض الحرس أنه سمعه يرغب أخاه أن يذبحه ويرحه خيفة أن يخرج من الغد ويزاد في عذابه أمام أعدائه، فقال له أخوه: (أصبر على قضا الله وقدره) فقال لبعض الحرس (خذ بيدي وأخرج لقضاء الحاجة) فأخذ بيده ووقف، فضربه ضربة عظيمة بجبهته في عمود، فذرت منها عيناه، وجرى دماغه، وخر إلى الأرض ميتا

ورحل نصير الدولة من وادي شلف. قال الرقيق: ومن عجيب ما سمعناه عن مناخ وادي شلف أن شيخا كبيرا من البربر حدثنا أنه يعرف بزادي الحن، وأخذ يذكر لنا من هزم فيه ومن قتل فيه من ملوك زناتة. وكنا على ظهر الطريق، فم نكتب ذلك، إلى أن قال: آخر من مات فيه زيري بن عطية، وآخر من هزم فيه حماد، وبه قتل يوسف بن أبي حبوس، وحمل منه معادلا لأخيه باديتان، ثم أمر به فدفن هناك.

وفي هذه السنة، مات ورد بن سعيد في شوال، فاختلفت كلمة الزناتيين ومالت فرقة مع خليفة بن ورو وفرقة مع خزرون، ابن عمه، وأرفع الله فيهم الشتات ذكر وفاة نصير الدولة باديس بن المنصور أنه لما كان يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذي القعدة، أمر بالتميز فبرز كل قائد في عسكره. وجلس نصير الدولة في القبة وأمر أيوب بن يطوف بالطواف على العسكر وحسابه، وانتظره حتى فرغ من حابها وعداها، فجاءه فعرفه بما سره وأبهجه، وانصرف إلى قصره. ثم ركب عشية هذا اليوم، وهو قد تناهى إقبالا، واستولى حسنا وجمالا. فلعبوا بين يديه. فكلما هز رماح كسره وأخذ غيره. ثم عاد إلى قصره أفسح ما كان أملا، واشتد سرورا وجدلا، فطعم وشرب مع خاصته وقرابته، فعانوا من طربه ما لم يعهدوه منه. فلما مضى نحو النصف من ليلة الأربعاء انقضاء ذي القعدة، قضى نحبه رحمه الله! وبعث في الوقت إلى حبيب بن أبي سعيد، وباديس بن حمامة، وأيوب بن يطوف. فأعلموا بوفاته خاصة من بين جميع صنهاجة وغيرهم، فانصرفوا على أن يكتنوا أمره حتى يجتمع رأيهم، وأصبح وجوه العساكر للسلام على عاداتهم وليس عندهم خبر وقد عزموا أن يعرفوا أنه أخذ دواء، وتقدموا إلى

٧٠١٥ ولاية المعز بن باديس أفريقية

سائر قواد العساكر أن يحضروا بعدتهم، فقد بلغهم أن حمادا يضرب في المحلة فما شعروا أن خرج الخبر من مدينة الحمادية بوفاة السلطان، وأنهم أغلقوا أبوابهم، وصعدوا على أسوارهم. فظهر ما لم يستطيعوا إخفاءه، فكأنما نودي في الناس بإشاعته، فاضطربت العساكر، وماج بعض في بعض، وخشوا من اختلاف الكلمة، فاجتمع رأيهم على تقديم كرامة، فأخذ عليهم العهد، وأمر بالكتب إلى بعض البلاد. فلما رأى ذلك عبيد نصير الدولة، ومن انضاف إليهم من سائر الحشم، أنكروا ذلك، وقالوا: إنما قدمناه ليحوط الرجال ويحفظ الأموال، حتى يدفع ذلك إلى مستحقه المعز ابن مولانا نصير الدولة! ومشي بعضهم إلى بعض ليلا، وتحالفوا على بيعة المعز فلما تم لهم ما عقدوه أعلنوا به يوم السبت ثلاث خلون من ذي الحجة. وتحالفت العساكر على ذلك طائفة بعد طائفة، واتفقت آراؤهم على خروج كرامة إلى أشير ليحشد قبائل صنهاجة وتلكانة، ويعود بهم إلى الحمادية. ثم رحلت العساكر بتابوت نصير الدولة.

ولاية المعز بن باديس أفريقية

كانت ولايته بالمهديّة في يوم السبت المذكور من سنة ٤٠٦، وسنة ثمانين سنين وأربعة أشهر، وولايته بالمهديّة بها لتسع بقين من ذي الحجة. ذلك لما وصل الخبر بوفاته أبيه، والسيدة أم ملال بالمهديّة، خرج إليها المنصور بن رشيق، وقاضي القيروان والمنصورية، وشيوخها، ومن كان بها من الصنهاجيين. فعزوها في أخيها. وخرج المعز بالبند والطبول، فنزل إليه الناس يهنئونه جميعا، وبايعوه وهنئوه وعزوه وابتهلوا بالدعاء له. وعاد إلى قصره. ودخل الناس يهنئون السيدة بولايته، فصرف أهل القيروان والمنصورية. وبقي المعز بالمهديّة يركب في كل يوم، ويعود إلى قبة السلام، ويتطعم الناس بين يديه، وينصرف إلى قصره.

وفي يوم السبت بموافقة عيد الأضحى رحلت العساكر من الحمادية بعد أن أضرموا النار في الأبنية والبيوت والزروب، وتقدموا أمام

البيود والطبول. فأشرف حماد على العساكر، وهي تمر كالسيل بين يدي التابوت، فقال لأخيه وخاصته: مثل هؤلاء يخدم الملوك! وصلت أنا إلى أفريقية في ثلاثين ألف فارس، ما منهم إلا من أحسنت إليه، وأنعمت عليه. فعدت إلى القلعة وما بقي معي منهم إلا أقل من ستمائة، وأنا بين أظهرهم أرجى! وهذا ميت أطاعه هؤلاء كما كان حيا! وكان وصول العساكر إلى المهديّة ثمان بقين من ذي الحجة، وبرزت العساكر على باب المهديّة. وركب المعز، فوقف ونزل الناس إليه فوجاً فوجاً حتى كل سلامهم.

وفي سنة ٤٠٧، رحل المعز بن باديس من المهديّة فكان دخوله المنصورية يوم الجمعة للنصف من محرم فدخل أجمل دخول، وبين يديه البنود والطبول. واحتل بقصره أفضل حلول، وقد سر به الخاص والعام.

وكان بمدينة القيروان قوم بحومة تعرف بدرب المعلى، يتسترون بمذهب الشيعة، من شرار الأمة، فانصرف العامة إليهم من نورهم، فقتلوا منهم خلقاً رجالاً ونساء، وانبطت أيدي العامة على الشيعة، ونهبت دورهم وأموالهم وتفاقم الأمر، وانتهى إلى البلدان، فقتل منهم خلق كثير. وقتل من لم يعرف مذهبه بالشبهة لهم. ولجأ من بقى بالمهديّة منه إلى المسجد الجامع، فقتلوا به عن آخرهم رجالاً ونساء. واجتمعت العامة على أبي البهار بن خلوف لشدة عليهم وقهره لسفهاءهم، فلجأ إلى المنصورية، فاتهبوا داره. وبلغ ذلك عساكر ابن أخيه، فركب لينصر عه أبا البهار، فقتلته العامة ومثلوا به، وقتلوا كل من كان معه، وزحفوا إلى المنصورية فهدموها. واجتمع بدار محمد بن عبد الرحمن نحو ألف وخمسمائة رجل من الشيعة، فإذا خرج أحد منهم لشراء قوته قتل حتى أكثرهم. ثم أخرجوا إلى قصر السلطان بعيالهم وأطفالهم. فسر المسلمون بما رأوه فيهم، وذلك لما ظهرت الكتب التي وجدت في ديار المسالمة، كان

فيها من الكفر والتعطيل للشريعة وإباحة المحارم شيء كثير، فتحصنوا في هذا القصر أواخر جمادى الأولى وجمادى الثانية. وفي أواخر هذه السنة وصل المعز ابن باديس سبيل من الحاكم، خاطبه فيه بشرف الدولة، وركب المعز بالبنود والطبول وفي سنة ٤٠٨، كانت حروب عظيمة بين عساكر شرف الدولة والمعز بن باديس وبين عساكر حماد، وذلك شيء يطول ذكره.

وفي سنة ٤٠٩، خرجت طائفة من الشيعة نحو مائتي فارس بعيالهم وأطفالهم يريدون المهديّة للركوب منها إلى صقلية، وبعث معهم خيل تشيعهم فلما وصلوا إلى قرية كامل، وباتوا بها، تنافروا أهل المنازل عليهم، فقتلواهم وفجوا بعض شواب النساء ومن كان منه جمال، ثم قتلوه. وفيها كان بأفريقية غلاء كثير وحروب كثيرة.

وفي سنة ٤١٠، وصل زاوین زيري الصنهاجي من الأندلس إلى أفريقية في أهله وولده وحشمه بعد أن اغترب بها اثنين وعشرين سنة، وقاسى حروبها وفتنها واحتوى على نعم ملوكها وذخائرهم. فخرج إليه في يوم وصوله شرف الدولة المعز بن باديس بزي عظيم، فترجل له الشيخ زاوي، ونزل شرف الدولة وسلم عليه، وسار معه حتى أنزله بالمنصورية.

وفي سنة ٤١١، ورد على المعز بن باديس أبو القاسم بن اليزيد، رسولا من الحاكم إليه، بسيف مكلل بنفيس الجواهر، وخلعه من لباسه لم ير الناس مثله، فلقبه المعز في أجمل زي وأكل هيئة. فقرئ عليه سجل فيه من التشريف ما لم يصل لأحد قبله، فسر بذلك. وفيها ورد أيضاً محمد ابن عبد العزيز بن أبي كدية بسجل آخر من الحاكم، جواباً للمعز عما كان فيه من أخبار الأندلس، وانقراض الدولة الأموية منها، وقيام القاسم بن محمد فيها فشكره على ذلك، وبعث إليه خمسة عشر علماً منسوجة بالذهب. وركب

المعز بن باديس الأعلام المذكورة بين يديه يوم الأحد لليلتين بقيتا من ربيع الآخر وجاءت سخابة شديدة الرعد، فأمطرت جراً لم ير أهل أفريقية مثله كبرا وكثرة، ووقعت معه صاعقتان. وفيها وصل الخبر بوفاة الحاكم أمير مصر وولي الظاهر بعده.

وفي سنة ٤١٢، توفي باديس بن سيف العزيز بالله، وصلى عليه شرف الدولة، وكان له مشهد عظيم. وفيها توفيت السيدة زوجة نصير الدولة، وكفنت فيما لم يذكر أن ملكاً من الملوك كفن في مثله، فخفى من حضره من التجار أن قيمته مائة ألف دينار، وجعلت في تابوت من عود هندي قد رصع بالجواهر. وكانت لها جنازة لم ير مثله، ودفنت بالمهديّة. وكانت مسامير التابوت بألفي دينار.

وفي سنة ٤١٣، تعرض المعز شرف الدواة. فكان له عرس ما تهيأ قط لأحد من ملوك الإسلام. وقد شرح الرقيق في كتابه. وتركاه اختصاراً.

وفي سنة ٤١٤، وردت الأخبار وثابتت بأفريقية بأن خليفة بن ورو ومن معه رموا في البحر مراكب كثيرة، وأنهم رحلوا من

طرابلس في طلب الفتوح بن القائد، وقد كان كاتب شرف الدولة المعز بن باديس في الانخياش إليه والدخول في طاعته، فأعطاه مدينة نفطة من عمل قسطلية. فخرج شرف الدولة، فاجتاز بسوسة، ثم إلى المهديّة، وذلك يوم الخميس لأربع خلون من المحرم. وأمر بالنداء في حشد البحرين وكتب أن يلحق به كل من يتخلف عنه من عساكره ليكون رحيله من المهديّة إلى سفاقس، ثم إلى قابس، قاصداً إلى طرابلس. وأمر بالاحتفاظ في إصلاح القطاعات وعمارة دار الصناعة، وأخذ في إنشاء العدد الحربية، فأُنشئ منها في المدة القريبة ما لم يتم مثله في الزمن البعيد. ثم رأى الوصول إلى المنصورية ليأخذ الناس عددهم وما يحتاجون إليه فكان وصوله يوم الاثنين لست بقين من المحرم من العام.

ووردت من الأخبار من المشرق، بأن أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله أمر بإحضار سيف الدولة ذي المجدين حسين بن علي بن دواس الكّامي. فلما دخل القصر، ولم يكن يدخل قبل ذلك حذراً على نفسه، أخرج من ساعته مقتولا، فأقام ثلاثة أيام، ومناد ينادي عليه: هذا جزاء من غدر مواليه! ثم دفع إلى عبيده، فدفنوه.

ثم جاء الخبر في الوقت بوفاة السيدة الشريفة بنت العزيز بالله. وصلى عليها الظاهر لإعزاز دين الله بمصر. وكانت قد ضبّطت المملكة وقومت الأمور بحسن رأي وتدبير. وكان الوزير عمار فوض إليه الأمر في النظر في الدواوين والأموال والكتابة وغير ذلك من خدمة الخلافة، فأمرت بقتله فقتل. وبأشرت بتدبير المملكة، فلا ينفذ أمر جل أو قل إلا بتوقيع يخرج عنها بخط أبي البيان الصقلي عبدّها. وفي هذه السنة، وصل محمد بن عبد العزيز من قبل الظاهر أمير مصر بتشريف عظيم لشرف الدولة. فقرئت به سجلات ما وصل قبلها مثلها أجل حالا ولا مقالا. وزاده لقبا إلى لقيه، فسماه شرف الدولة وعضدها، وبشره بمولودين ولدا له: أبو الطاهر، وعبد الله أبو محمد، وبعث إليه مع ذلك ثلاثة أفراس من خيل ركوبه بسروج جليلة وخلعة نفيسة من نفيس ثيابه، ومنجوقين منسوجين بالذهب على قصب فضة، ما دخل أفريقية مثلها قط، وعشرين بندا مذهبة ومفضضة. فلقبها شرف الدولة وعضدها أجمل لقاء وأعطاها حقها من الإكرام والاعتناء وقرئت السجلات بين يديه ثم قرئت بجامع القيروان، وأمر بنسخها، وأنفذت إلى الآفاق، فكان لها من السرور ما لم يوصف. وبعد ذلك، في هذه السنة، وصله سجل آخر بزيادة لقب آخر

تشريفاً لشرف الدولة، وأمر أن يكتب: من الأمير شرف الدولة وعضدها! ويخاطب بمثل ذلك فلقبه أحسن لقاء، وخلع عليه وحله. وجرت المكتبة من ذلك الوقت بهذا التشريف الجليل.

وفي هذه السنة، اعتلت السيدة أم ملال بنت عدة العزيز بالله أياما وأمير شرف الدولة يصل إليها في كل يوم عائداً ومتفقداً، فجلس عندها ويأذن لرجالها وعبيده يدخلون إليها، ثم ينصرفون. فلما كان ليلة الخميس منسلخ رجب، قبضها الله. وصلى على جنازتها بالبندود والطبول والعماريات والسيدات الجليلتان والدة والأخت بحال من التشريف لهذه الجنازة، لم ير ملك ولا لسوقة مثلها. وفوض الأمير شرف الدولة جباية الأموال، وولاية العمال، والنظر في العساكر وسائر الأشغال لأبي البهار بن خلوف يوم الثلاثاء لخمس بقين من جمادى الأولى، فحسنّت الأمور وضبّطت الأطراف والثغور. واستقام التدبير ورأى الأمير شرف الدولة من حزمه وعزمه وشهامته، ما لا لم يقم به غيره ولا وجد عند سواه بوجه.

وفي سنة ٤١٥، في صفر منه، ولد للأمير شرف الدولة ولد سماه بكبا وفي شهر رجب، تزوجت السيدة أم العلو، بنت نصير الدولة، أخت شرف الدولة. فلما كان يوم الأربعاء غرة شعبان المكرم، زين الإيوان المعظم للسيدة الجليلة أم العلو ودخل الناس خاصة وعامة، فنظروا من صنوف الجواهر والأسلاك والأمتعة النفيسة وأواني الذهب والفضة ما لم يعمل مثله، ولا سمع لأحد من الملوك قبله. قال أبو أساق الرقيق، فبهر عيون الخلق حال ما عاينوه، وأبهتهم عظيم ما شاهدوه، وحمل جميع ذلك إلى الموضع الذي ضربت

٧٠١٦ ذكر قيام المعز شرف الدولة بالإمارة

٧٠١٧ وقطعه الدعوة العبيدية الشيعية من أفريقية

فيه الأبنية والأخبية، وحمل المهر في عشرة أحمال على البغل على كل حمل جارية حسناء، وجملته مائة ألف دينار عينا. وذكر بعض حذاق التجار أنه قوم ما هو لها، فكان زائد على ألف ألف دينار وهذا ما لم يرق لا امرأة قبلها بأفريقية. وزفت العروس في يوم الخميس، ومضى بين يديها عبيد أخيها شرف الدولة وأبيها نصير الدولة وجدها عدة العزيز بالله، ووجوه رجال الدولة، فكان يوما سارت الركبتان بحاسن آثاره، وامتألت البلدان بعجائب أخباره.

وفي هذه السنة، وقف شرف الدولة لهدية صندل والي يسكرة، فعرضت عليه، وهي ثلاثمائة حصان، ومائة فرس أثني وبغلات منها عشرون بسروج محلاة، مائة حمل من المال. نفلح عليه وجدد له الولاية على يسكرة. وفي سنة ٤١٦، توفي أيوب بن يطوف. وحضر جنازته شرف الدولة وعضدها، وهو المعز بن باديس، بالينود والطبول.

وفي سنة ٤١٧، ولد للأمير شرف الدولة وعضدها مولود سماه نزارا وكتب إلى سائر عماله بذلك. ذكر قيام المعز شرف الدولة بالإمارة

وقطعه الدعوة العبيدية الشيعية من أفريقية

كان المعز بن باديس صغيرا إذ ولي، وهو ابن ثمانية أعوام، وقيل ابن سبعة أعوام، ربي في حجر وزيره أبي الحسن بن أبي الرجال، وكان ورعا زاهدا. وكانت أفريقية كلها والقيروان على مذهب الشيعة وعلى خلاف السنة والجماعة، من وقت نملك عبيد الله المهدي بن أبي الرجال المعز ابن باديس، وأدبه، ودله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة، والشيعة

لا يعلمون ذلك، ولا أهل القيروان. فخرج المعز في بعض الأعياد إلى المصلى في زينته وحشوده، وهو غلام فجا به فرسه، فقال عند ذلك: أبو بكر وعمر! فسمعتة الشيعة التي كانت في عسكره، فبادروا إليه ليقتلوه، فجاء عبيده ورجاله ومن كان يكتم السنة من أهل القيروان، ووضع السف في الشيعة، فقتل منهم ما ينيف على ثلاثة آلاف، فسمي ذلك الموضع بركة الدم إلى الآن. قال أبو الصلت: وصاح بهم في ذلك الوقت صائح الموت، فقتلوا في سائر بلاد أفريقية. فوافق ذلك ما قاله الشعراء فيهم على وجه التطهير لهم، كقول القاسم بن مروان (وافر) .

وسوف يقتلون في كل أرض ... كما قتلوا بأرض القيروان وكقول الآخر (رمل) .

يا معز الدين عش في رفعة ... وسرور واغبتاوط وجل أنت أرضيت النبي المصطفى ... وعتيقا في الملاعين السفل وجعلت القتل فيهم سنة ... بأقاصي الأرض في كل الدول وكقول آخر (طويل) .

وكانت لهم بالشرق نار فأطفئت ... فما ملكوا بالكفر شرقا ولا غربا

وحكي في قتل الروافض حكايات كثيرة مما رآه المعز في منامه، وتأويل ذلك وغيره ألغيناه هنا عن ذكره. ولم يزل المعز يعمل فكره في قطع الدعوة لهم إلى أن كانت سنة ٤٤٠.

وفي سنة ٤٢٠، وجفت جموع زناتة تريد حضرة القيروان، طمعا منها في الملك. فلما بلغ ذلك المعز، خرج إليهم بجنوده، فاقتتلوا قتالا شديدا، فانهزمت زناتة، وقتل منهم خلق كثير، وفر باقيهم إلى الغرب.

وفي سنة ٤٢١، وقعت في القيروان بين الأجناد والعامّة فتنة، فقتل من العامة نحو المائتين.

وفي سنة ٤٢٢، كثر الخصب والرخاء وأمان في أفريقية.

وفي سنة ٤٢٣، وصلت من ملك السودان إلى المعز هدية جلييلة، فيها رقيق كثير وزرافات، وأنواع من الحيوان غريبة.

وفي سنة ٤٢٥ كانت بأفريقية مجاعة شديدة. وفيها خرج أبو عمران الفاسي إلى الحجاز. وفيها مات الظاهر بمصر، وولي ابنه المستنصر.

وفي سنة ٤٢٦، وصلت إلى المعز بن باديس من ملك الروم هدية لم ير مثلها في كثرة ما اشتملت عليه من أمتعة الديباج الفاخر وغير ذلك. وفي سنة ٤٢٧، زحفت زناتة في جيوش عظيمة وجموع كثيفة تريد المنصورية. فلقيتها جيوش المعز، فظهرت زناتة عليها، فانهزمت، ووصلت إلى ما بين المنصورية والقيروان. ثم تلاقوا في الغد من ذلك اليوم، فثبتت صنهاجة وثبتت زناتة. وفي سنة ٤٢٨، كسر المعز زناتة، وهزكهم وقتل منهم خلقا كثيرا. وفي سنة ٤٢٩، خرج عسكر المعز من القيروان إلى الزاب، فقتل من البربر خلقا كثيرا. وفي سنة ٤٣٠، كثر الخصب ببلاد أفريقية وفيها مات أبو عمران الفاسي بعد عوده من المشرق. وفي سنة ٤٣١، دخلت جيوش مالطة جزيرة جربة، ففتحتها وقتلت كثيرا من أهلها. وفي سنة ٤٣٢ خرج العز إلى قلعة حماد زحاصرها مدة سنتين، وأخذ بمخنق حماد فيها. وفي سنة ٤٣٣ أظهر المعز الدولة العباسية. وورد عليه عهد القائم بأمر الله، نكب محمد بن محمود بن السكك، وكان المتولي لأشغال أم المعز، واستولى على دولته. وفي هذه السنة، وصل الأمير نزار بن المعز إلى الحضرة، قافلا من سفره الذي هزم فيه زناتة، فأثبته بن شرف قصيدته التي أولها (كامل).

طاعت من الغرب شمس الدين ... بالسعد والإقبال والتمكين

وفي سنة ٤٣٦، مات الجرجائي بمصر وكان الحاكم بأمر الله العبيدي قطع يديه جميعا، لجنية جناها، فلم يجزع لما أصابه. فقيل أنه عصب يديه إثر قطعهما، وانصرف من وقته إلى ديوانه، وجلس لخدمته على عادته. فلها تعجب منه قال: إن أمير المؤمنين لم يعزلي، وإنما عاقبني بجنايتي، فلما بلغ ذلك الحاكم، أقره على عمله.

وفي سنة ٤٣٧، وردت رسل المعز إلى القيروان، بخبر أنه أوقع بلوطة وقتل منهم عددا، وغنم أموالا فضربت الطبول على ذلك. وفي ذلك يقول ابن شرف من قصيدة أولها (منسرح):

باليمن والسعد عد وبالظفر ... موفق الورد غانم الصدر

وفيها بني سور المنصورية وفيها، ربح عاصف بأفريقية قصف ما مرت به من الشجر لقوتها وشدتها.

وفي سنة ٤٣٨ كانت وفاة نزار بن المعز بن باديس في رجب، وكان عمره إحدى وعشرين سنة وأشهرا. وفيها ولي المعز ولده الآخر أبا القاسم وكناه العزيز بالله وهو إذ ذاك ابن ثمانية أشهر، وتوفي بعد ذلك، وهو ابن سنة واحدة وثلاثة أشهر.

وفي سنة ٤٣٩، نكب حبوس بن حميد الصنهاجي والي نفطة، وطولب بمال كثير ونيل بالمكروه والهوان. وفيها، نكب أحمد بن حجاج قاضي قفصة، فبادر بعشرة آلاف دينار، وكان متصاوتا.

وفي سنة ٤٤٠، قطعت الخطبة لصاحب بمصر، وأحرقت بنوده. قال ابن شرف: وأمر المعز بن باديس بأن يدعى على منابر أفريقية للعباس بن عبد المطلب ويقطع دعوة الشيعة العبيديين، فدعا الخطيب للخلفاء الأربعة وللعباس، ولبقية العشرة - رضي الله عنهم -! ذكر السبب في قطع الدعوة العبيدية بالخطبة بالقيروان وغيرها لما رحل بنز عبيد إلى مصر لم تزل ملوك صنهاجة يخطبون لهم بأفريقية ويذكرون أسمائهم على المنابر. وتمادى الأمر على ذلك حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة فرارا من دعوتهم، وتبدعا لإقامتها بأسمائهم، فكان بعضهم، إذا بلغ المسجد قال سرا: اللهم أشهد! اللهم أشهد! ثم ينصرف فيصلي ظهرا أربعة، إلى أن تنهاى الحال حتى لم يحضر الجمعة من لأهل القيروان أحد فتعطلت الجمعة دهرا. وأقام ذلك مدة إلى أن رأى المعز بن باديس قطع دعوتهم، فكان بالقيروان لذلك سرور عظيم.

ذكر وقوع التصريح بلغتهم في الخطب بجميع أفريقية وخلعهم قال بن شرف، وأمر المعز بلغتهم في الخطب وخلعهم. ولما كان عيد الأضحى أمر الخطيب أن يسب بني عبيد، فقال: اللهم! والعن الفسقة الكبار المارقين الفجار أعداء الدين وأنصار الشيطان، المخافين لأمرك والناقضين لعهدك، المتبعين غير سبيلك، المبدلين لكالك! اللهم! والعنهم لعنا وببلا، واخزهم خزيا عريضا طويلا! اللهم وإن سيدنا أبا تميم المعز

٧٠١٨ ذكر تبديل السكة عن أسماء بني عبيد

ابن باديس بن المنصور القائم لدينك، والناصر لسنة نبيك، والرافع للواء أوليائك، يقول مصدقا لكاتبك، وتابعا لأمرك، مدافعا لمن غير الدين وسلك غير سبيل الراشدين المؤمنين: يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون! هكذا ذكر بإسقاط (قل) وآخرها. قال: وأمر أمير أبو تميم المعز بن باديس للخطيب أن يسبهم على منبر القيروان بأشنع من هذا السب. فلما كان في الجمعة الأخرى أبلغ في ذلك بما فيه شفاء لنفوس المؤمنين.

وفي سنة ٤٤١، تحرك الأمير أبو تميم إلى بلاد المغرب الأقصى، وترك ولده أبا الطاهر نعيم بن المعز على حضرة القيروان بالمنصورية، وفيها بنيت المصلى بالمنصورية. وفيها، ضرب الدينار المسمى بالتجاري. وفيها، ركب المعز بن باديس المذكور في أحفل جمع وأحسن زي، وخرج إلى ظاهر مدينة القيروان، وأخرجت السباع بين يديه فأفلت منها سبع فانهزم الناي أمامه ووقع بعضهم فوق بعض، فمات نحو المائتين، ووثب السبع على رجل من كتاب باب الغنم يدعى بالكرامي، فقتله.

ذكر تبديل السكة عن أسماء بني عبيد

قال ابن شرف: وفي هذه السنة، أمر المعز بن باديس بتبديل السكة في شهر شعبان، فنقش على الأزواج في الوجه الواحد: ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. وفي الوجه الثاني: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وضرب منها دنانير كثيرة. وأمر أيضا بسك ما كان عنده من الدنانير التي عليها أسماء بني عبيد، فسبكت وكانت أموالا عظيمة. ثم بث في الناس قطع سكتهم. وزوال أسمائهم مكن جميع الدنانير والدراهم بسائر عمله. وقد كان قطع أسمائهم من الرايات والبنود. وكان

٧٠١٩ ذكر ولاية العهد لتمام بن المعز بن باديس

مبتدأ ضرب السكك بأسماء بني عبيد الله ورسمها في الرايات والطرز سنة ٢٩٦، إلى أن قطعها المعز المذكور سنة ٤٤١ المذكورة، وذلك مائة سنة وخمسة وأربعين سنة.

وفي شوال من هذه السنة نادى مناد بأمر السلطان أبي تميم: إنه من تصرف بمال عليه أسماء بني عبيد نالته العقوبة الشديدة، فضاقت الحال بالفقراء والضعفاء وغلت الأسعار بالقيروان وكان الدينار القديم بأربعة دنانير ودرهمين، وكان صرف الدينار الجديد خمسة وثلاثين درهما. وفي هذه السنة، نكب القائد عباد بن مروان الملقب بسيف الملك، وكان من الخاصة، ودفع إلى أعدائه، وأمر باستخراج أمواله، والقبض على جميع من استعمله في أعماله، وبعد ذلك، ألقى في سرداب مظلم حتى مات فيه، وفيها، وردت الأخبار بالقيروان بموت القائد حماد بقلعته، فقال ابن شرف من قصيدة (خفيف):

لا جنود إلا جنود السعيد ... مغنيات عن عدة وعديد

وفي سنة ٤٤٢، اصطالح أهل القيروان وأهل سوسة، وقد كانت جرت بينهم وحشة، فصنع القيروانيون للسوسيين دعوات غسلت فيها الأيدي بماء الورد ومسحت بمناديل الشرب. وفي هذه السنة، ولي الأمير أبو تميم ولده أبا الطاهر بن المعز عهده.

ذكر ولاية العهد لتمام بن المعز بن باديس

قال ابن شرف: وخطب الخطيب يوم الجمعة على جامع القيروان، فدعا للسلطان المعز بن باديس ولولده أبي الطاهر ولي عهده ثم قال: اللهم! أصلح عبدك ووليك أبا الطاهر تميم بن المعز الطاهر من كفر معد بن الظاهر! يعني صاحب مصر وفيها، كان خروج الفقيه الزاهد الواعظ أبي عبد الله بن عبد الصمد من القيروان في شهر رجب، ووكلوا به رجالا وتوجهوا معه إلى

مدينة قابس. وكانت الرفقة خارجة من القيروان إلى مصر، فأمر أن ينتظرها بمدينة قابس إلى أن يصحبها. وكتب عامل قابس بأن لا يترك من يدخل إليه ولا من سلم عليه ولا يخرج من موضع نزوله إلا في يوم سفره، فيخرج وهو غير آمن على نفسه، ثم قتل في طريقه ذلك، وكان رجلا عظيما يعظ الناس، فيجمعون إليه، ويسمعون كلامه، وكان له لسان وحدة فحذره المعز واجتمع عليه بعض فقراء القيروان واستشيعوا ألفاظا ذكرها، فرفعوا رقاعهم إلى المعز بذلك، فكان سبب نفيه وحتفه. وكان أبوه يعرض بجامع مصر في

ذلك الوقت، إلى نعي له ابنه هذا، فحج في تلك السنة، فقبل أنه كان يطوف بالكعبة ويصيح ويقول: (يا رب! العز عليك به! يا رب عليك بآبن باديس!) فكانت الهزيمة على المعز في اليوم الثاني من دعائه، وكان ذلك سبب لخراب ملكه ودمار القيروان حضرته. فلم يشك أحد في إجابة دعوته.

وفي سنة ٤٤٣، كان لباس السواد بالقيروان، والدعاء لبني العباس. قال ابن شرف: وفي جمادى الثانية، أمر المعز بن باديس بإحضار جماعة من الصباغين، وأخرج لهم ثيابا بيضاء من فندق الكنان، وأمرهم أن يصبغوها سودا، فصبغوها بأحلك السواد، وجمع الخياطين، فقطعوها أثوابا، ثم جمع الفقهاء والقضاة إلى قصره، وخطيب القيروان وجميع المؤذنين، وكساهم ذلك السواد ونزلوا بأجمعهم. وركب السلطان بعدهم حتى وصل إلى جامع القيروان، ثم صعد الخطيب المنبر وخطب خطبة أتى فيها على جميع الأمر بأجل لفظ وأحسن معنى، ثم دعا لأبي جعفر عبد الله القائم بأمر الله العباسي، ودعا للسلطان المعز بن باديس ولولده أبا الطاهر تميم ولي عهده من بعده، ثم أخزى بني عبيد الشيعة ولعنهم.

٧٠٢٠ ذكر ما قيل من أخبار بني زيري

ذكر ما قيل من أخبار بني زيري

قال أبو عبد الله محمد بن سعدون بن علي في تأليفه في (تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلب الأزمان) قال: فيه باب أذكر فيه من وضع هذه الدعوة التي شرع فيها عبيد الله وذريته والسبب الذي دعاهم لذلك، وباب أذكر فيه تسييرهم الركبان، بدعوتهم ودعاتهم إلى البلدان، وباب أذكر فيه عبيد الله ونسبه واتمائه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - كاذبا، وسبب ملكه المغرب كله قتال: وأول من نصب هذه الدعوة، جد عبيد الله وهو عبد الله بن ميمون القداح الأهوازي - لعنه الله - وكان أبوه ميمون تنتسب إليه فرقة من أصحاب أبي الخطاب، تعرف بالميمونية. وذكر من جملة كلامه قال: وكان عبد الله ادعى لنفسه النبوة، فقصد لسفك دمه، فاخفى، ثم هرب من وطنه، وفر على وجهه متنقلا في البلاد، مستترا، يستر اسمه ومذهبه لئلا يقتل إن عرف، إلى أن وافته منيته بأقبح علة في الشام وأراح الله منه. وأخذ جماعة كمن أصحابه، فقتلوا عن آخرهم ثم ذكر داعيتهم، وما كان منهم مع غواتهم، قال: فمنهم رجلان، أحدهما يعرف بالنجار الكوفي فخرجا من الشام، وتغلبا على اليمن فأنزل الله عليه الأكلة، فتقطع قطعاً حتى مات وخلف ابناً له، فكان يكتب إلى أصحابه: (من ابن رب العالمين) - تعالى الله عن قوله - فسار إليه ابن نصير فأظفره الله به، فقتله ودخل مدينته فانتهبها وسبهاها. وأما الكوفي فرماه الله تعالى بداء في جوفه فكانت تخرج من دبره حتى مات وأما بالسام، فذكر جماعة أبادهم الله تعالى، وكذلك بالبحرين أيضاً. ثم قال: وإنما دعاهم لهذا الكفر عبد الله بن ميمون القداح لأنه صحب قرمطا ودعاه إلى مذهبه، فطأه على ذلك وقد اشتهر استخفافهم بالدين، وكثرت به الأخبار وأحاديث وكان ممن

أظهر مذهبهم، وأعلن به: أبو عبيد الجنابي، وقت تغلبه على البحرين، فإنه وضع عنهم جميع الفرائض، وأعلن بالزنا والواط والكذب وشرب الخمر وترك الصلاة وكذلك صنع الأصبهاني وحرم على الغلمان الامتناع ممن أراد أن يفعل بهم وجعل حد من امتنع منهم الذبح - لعنه الله - وكانت له ليلة تسمى الأمامية يجمع فيها نساءه ونسائهم فمن ولد من تلك الليلة يسمى ولد الأخوان.

قال: وقد ادعى الحاكم من بني عبيد الله الربوبية، وجعل رجلاً سماه بالهادي يدعوا الناس إلى ذلك، وادعى معد منهم النبوة وجعل من نادى فوق صومعة جامع القيروان: (أشهد أن معد رسول الله!) فارتج البلد لذلك وداخل أهله الرعب، فأرسل من سكن الناس، وكل من كانوا يرسلونه إلى بلد فإنما يأمرونه بإظهار الإسلام والخير حتى يتمكن مما يريد.

وأما نسب عبيد الله الذي تسمى بالمهدي، فإن اسمه سعيد وإنما تسمى بعبيد الله ليخفي أمره، لأنه كان عبيه الطلب من الحسين بن أحمد بن محمد وكان لمحمد هذا ولد يلقب بأبي السلعلع بن عبد الله بن ميمون القداح فبعث بداعيين أخوين إلى المغرب، فنزلا في قبيلة تعرف بكامة، فدعوا أهلها، فاستجابوا لهما: أحدهما حسين يكنى بأبي عبد الله الشيعي وسموه المعلم، والآخر سموه المحتسب وهو أبو

العباس المخطوم المتقدم ذكرهما. فأظهرا من أنفسهما الزهد والورع حتى افتتحا بالكذب والخربة في بلاد أفريقية. وسار أبو عبد الله إلى سلجاسة، فأخرج عبيدا الله من حبسها فلما اجتمع به سلم الأمر إليه وانسلخ الأمر منه، فلم يلبث يسيرا وقتله بنو أخيه. ولما وصل عبيد الله - لعنه الله - إلى رقادة أرسل إلى القيروان من أتابه بأبي إسحاق إبراهيم بن محمد المعروف بابن البرذون وبابن هذيل وكانا من العلماء الخاشعين لله، فلما وصلا إليه وجداه على سرير ملكه جالسا، وعن يمينه أبو عبد الله الشيعي الذي ولاه الملك وسلم له فيه، وعن يساره أبو العباس أخوه، فقال لهما أبو عبد الله وأخذه: أشهد أن هذا رسول الله! فقالا جميعا بلفظ واحد: (والله الذي لا إله إلا هو لو جاءنا هذا والشمس على يمينه والقمر على يساره، وينطقان فيقولان إنه رسول الله، ما قلنا أنه هو). فأمر عبيد الله - لعنه الله - عند ذلك بذبحهما وربطهما في أذنان الخيل، وأن يشق بهما سباط القيروان ففعل ذلك بهما - رحمة الله عليهما - وقال أبو عبد الله الشيعي يوما لأبي عثمان سعيد بن الحداد العالم: (القرآن يخبر أن محمدا ليس بخاتم النبيين في قوله: (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) خاتم النبيين غير رسول الله. فقال أبو عثمان: (هذه الواو ليست من واوات الابتداء وإنما هي من واوات العطف مثل قوله تعالى: " هو الأول والآخر والظاهر والباطن " وقال له مرة أخرى: (أن الله أخبر أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - يرتدون لقوله: " أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم " فقال أبو عثمان: (هذا إنما على الاستفهام، كقوله سبحانه: " أفان مت فهم الخالدون ")! ولما تمكن عبيد الله الشيعي من الملك، قتل أبا عبد الله الداعي وأخاه وانتقم الله منهما على يدي من سعيه له وقتلا الخلق بسببه، حتى أخرجاه من حبس سلجاسة، وسلموا له في الملك، ولم يقيما معه إلا سنة أو نحوها، ثم سلطه الله على كبار كتامة الذين سعوا في إقامة ملكه، فقتل جميعهم، ثم تمدت دولة أبنائه نحو ثلاثمائة سنة، ملكوا من مضيق سبته إلى مكة - شرفها الله - لأن عماله كانوا يصلون إلى مضيق سبته فيعانيوها، ومن هناك يرجعون. وهذا دليل على أن هوان الدنيا على الله وصغر قدرها عنده إذ مكن فيها هؤلاء الكفرة الفجار يسومون أولياء الله سوء العذاب والعماد والقيامة، والحاكم الله!

وخرج في دولة عبيد الله شيخ للسفر، ومعه خيل فباتوا في مسجد بخيولهم فقيل لهم: (كيف تدخلون خيولكم المسجد؟) فقال لهم الشيخ وأصحابه: (إن أرواثها وأبوالها طاهرة لأنها خيل المهدي) فقال لهم القيم في المسجد: (إن الذي يخرج من المهدي نجس فكيف الذي يخرج من خيله؟) فقالوا له: (طعنت على المهدي) وأخذوه وذهبوا به إلى إليه، فأخرجه عشية جمعة فقتله. فلما قرب للموت، دعا عليه فأجاب دعاءه فامتحنه بعلقة قبيحة يقال لها حب القرع وهي دود على صورة حب القرع في آخر مخرجه، تأكل أحشائه وما والاها فكان يؤتى بإذنان الكباش العظيمة فيدخلها في نفسه لتشتغل عنه الدود بها، فيجد لذلك بعض راحة لشغلها بالأذنان ثم يخرج الأذنان، وقد هتكها الدود، يدخل أخرى في دبره، ثم لم تزل الدود تأكل حتى انقطعت مذاكره وهلك، ولما هلك أوتي بابن أخت الغساني المقرئ ليقرأ عند رأسه وكان من أطيب الناس قراءة وحل عبيد الله أبناءه يكون عليه. فقال البغدادي للغساني: (أقرأ) قال: فطلبت ما أقرأ من القرآن فلم أتذكر منه إلا قوله تعالى: "يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار" إلى آخر الآية قال: فطلبت غير هذه الآية أقرأه فلم أقدر فكنيت أرددها حتى خشيت على نفسي أن يفيقوا من بكائهم فيتأملون قراءتي فيقتلونني، فتسللت وخرجت. وذكر أن الحجر الأسود أرسله العين الجنابي إلى عبيد الله بالمهدية فلم يلبث إلا أياما وهلك كما ذكرنا. فلما دفن طرحه الأرض، ثم دفن فطرحته الأرض ثلاثا. فقيل لابنه أبا القاسم (إن هذا لأجل الحجر

فأردده حيث كان!) فأمر بإخراجه ورده إلى موضعه، فعند ذلك استقر عبيد الله في قبره.

ثم ولي ولده أبو القاسم من بعده. فلم يزل في شغل وحزن وبعث الله عليه أبا يزيد مخلد بن كيداد فقهره وخرج عليه وقتل جنوده وقام المسلمون معه عليه كما تقدم ذكره. ولما كان يوم الجمعة طلع الإمام على المنبر، وهو أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن أبي الوليد فخطب خطبة بليغة، وحرص الناس على جهاد الشيعة ثم قال: (اللهم إن هذا القرمطي الكافر المعروف بعبيد ادعى الربوبية من دون الله جاحدا لنعمتك كافرا بربوبيتك! فانصرنا اللهم عليه وأرحنا منه ومن دولته، واصله جهنم وساءت مصيرا، بعد أن تجعله في دنياه عبرة للسائلين وأحاديث للغابرين، واهلك اللهم سيئته وشتت كلمته) ومات أبو القاسم بن عبيد الله محصورا وفي نفسه مقهورا.

ثم ولي بعده ابنه إسماعيل، فأظهر للعامة الجميل. فلما استفحل أمره وقوت شوكته، أراد أن ينتقم من المسلمين فيما تقدم لهم من حربه وحرب أبي القاسم والده، فحال الله - عز وجل - بينه وبين ما أراد، وأجاب المؤمنين فيه فأهلكه الله بالعطش حتى مات.

ثم ولي ابنه معد فادعى النبوة، وصوت المؤذن بذلك فوق صومعة القيروان بأمره، فضج المسلمون لذلك. فلما بلغه ذلك، داخل الرعب وأرسل إلى الناس يهدنهم، إلى أن خرج إلى مصر، فدخلها بالمنكر والبغي، فابتلاه الله بعلّة الاستسقاء، فكان الذي يقعد عند رأسه لا يرى رجله، وسالت عيناه وسقطت أسنانه، واره الله العبرة في نفسه. ثم مات.

وولي بعده نزار المكنى بأبي المنصور، فحدث في أيامه في سب الصحابة، ما حدث ثم تشوفت نفسه مع أحواله الدنية إلى أن يستحضر العلماء من أهل القيروان. ثم حدث عليه بالشام ما أشغله، فخرج إليها فلما وصل السبر مات في مرحاض الحمام.

ثم ولي بعده الحاكم، فأظهر أكثر مذهبه، فكان مما أحدث أنه بنى دارا وجعل لها أبوابا وأطباقا، وجعل فيها قيودا وأغلالا وسماها جهنم، فمن جنى جناية عنده قال (ادخلوه جهنم) وأمر أن يكتب في الشوارع والجوامع بسب الصحابة، أجمعين. ثم أرسل داعيا إلى مكة، فلما طلع المنبر وذكر ما ذكر، اقتحم عليه بنو هذيل قطع قطعة قطعة وكسر المنبر وفتت حتى لم يجمع منه شيئا. ثم أرسل رجلا خراسانيا من بني عمه، فضرب الحجر الأسود بدبوس، فقتل في حينه وأخذ الناس قطعة قطعة وأحرق بالنار وأرسل - لعنه الله - إلى مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من ينبش القبر المعظم فسمع الناس صائحا يقول: القبر ينبش! ففتشه الناس فوجدوه وأصحابه فقتلوه ثم أنه ادعى الربوبية من دون الله، وجعل داعيا يدعو الناس إلى عبادته، وسماه المهدي. فكتب داعيه الكتاب، وكان اسمه حمزة، وذلك في سنة ٤١٠ وقرئ بحضرة الحاكم - لعنه الله - على أهل مملكته، ذكر فيه - تعالى الله عن إبطال المبطلين علوا كبيرا! - الحمد لمولاي الحاكم وحده باسمك اللهم الحاكم بالحق! ثم تهادى فقال: توكلت على إلهي أمير المؤمنين، جل ذكره وبه نستعين في جميع الأمور! ثم طوّل بالكتاب بالتخليط مرة يجعله أمير المؤمنين ومرة يجعله إله، وقال فيه: (وأمرني بإسقاط ما يلزمكم اعتقاده من الأديان الماضية والشرائع الدارسة) وذكر أشياء يطول ذكرها. وكانت له راية حمراء تحت قصره فاجتمع إليه خلق نحو خمسة عشر ألف رجل فيما قيل، ثم إن رجلا من الترك كاتبه حمزة فأظهر الحاكم أنه أمر يقتله. وكان الحاكم كثير التصرف بالليل إلى جبل المقطم على حمار، فخرج ليلا فقتل هو وحماره.

ثم ولي بعده علي الملقب بالظاهر، فكان مشغلا بالشرب منهمكا فيه يلبس ثياب النساء، حتى يظنه الناس إذا مشى معهن امرأة ثم أصابه الاستسقاء حتى صار كالعدل فمات.

ثم ولي بعد معد الملقب بالمستنصر، فمرة يظهر السب ومرة يكف ويسكن الناس، فإذا مشى في جنوده كان بين يديه الشبابة ومن ينشد الشعر. وذكر أنه أرسل من كتب السب في أستار الكعبة في ليلة ظلماء، فأصبح الناس فوجدوه، فضج المسلمون لذلك، وأكثروا البكاء لسب الصحابة، قال ابن سعدون: وعلى هذا بنو أصل مذهبه، أنهم يظهرون الدين والخير حتى يتمكنوا قال المؤلف: انتهى ما لخصته من كتاب ابن سعدون.

وذكر ابن القطان عنهم أنهم قوم الرافضة، يدعون النسب إلى علي - رضي الله عنه - وأكثر اعتقاداتهم كفرا، ولما مات المستنصر بن الظاهر ولي بعده ولده الملقب بالمستعلي، وكان أشبه من غيره سياسة لا ديناً. فلما توفي هو ووزيره الأفضل، استبد ولده وتسمى بالآمر بحكم الله، وكان جبارا عنيدا ظالما جائرا وكثر في زمانه دعوى الباطل، ونصر الظالم على المظلوم، وأعانتة على ظلمه. واستخلص لنفسه فتيين من الفتيان الوضاء الوجوه، اتخذهما للفاحشة، كان رزق كل واحد منهما ألف دينار في كل يوم، وكان يعمل النزاهة، ويبيح للناس فيها المحضورات، فلا يشاء مؤمن أن يعاين منكرا مباحا إلا عاينه.

ثم ولي بعد عبد المجيد، الملقب بالحافظ لدين الله، ابن المستنصر، بويح في اليوم الذي قتل فيه الآمر، وخطب له على المنابر، وزر له أبو علي أحمد ابن الأفضل أمير الجيوش. أبو علي على الأمر وجملة الحال من سنة ٥٢٦ إلى سنة ٥٣٢: كانت لهم فيها محاولات شنيعة وأمور فظيعة منها قتل الأمير، وانتزاع قاتله حرز الملوك، وقتله، واستيلاء ابن الأفضل وقتله،

٧٠٢١ ذكر طرف الفتنة العظيمة ودمار القيروان

وظهور عبد المجيد، وما كان من الأسقف من النفر، والأمر بعبادة عبد المجيد وقتله ثم استيلاء حسين بن عبد المجيد، والقيام عليه إلى أن قتل نفسه بسم، ورجوع عبد المجيد إلى الولاية.

رجع الخبر، وفي سنة ٤٤٣ وردت الأخبار أن محمد بن جعفر الكومي ولي القضاء بمصر ولقب قاضي القضاة وداعي الدعاة. قال ابن شرف: فنعوذ بالله من سوء العاقبة! لأن قاضي القوم منهم وعلى مذهبهم يعني الشيعة وفيها وصلت إلى القيروان مكتبة من الأمير جبارة بن مختار العربي من برقة بالسمع والطاعة للمعز بن باديس، وأخبره أنه وأهل برقة قد أحرقوا المنابر التي كان يدعى عليها للعبودية، وأحرقوا راياتهم وتبرؤوا منهم ولعنوهم على منابرهم ودعوا للقائم بأمر الله العباسي.

وفي هذه السنة كان أول الفتنة بأفريقية.

ذكر طرف الفتنة العظيمة ودمار القيروان

قال ابن شرف: لما آل الأمر إلى التصريح بلعنة بني عبید على المنابر وأمر المعز بن باديس بقتل أشياعهم، أباح بنو عبید للعرب مجاز النيل وكان قبل ذلك ممنوعا، لا يجوز أحد من العرب. ثم أمر لكل جائز من بني نزار، فجاز منهم خلق عظيم، من غير أن يأمرهم بشيء لعلمهم أنهم لا يحتاجون لوصية. فجازوا أفواجا، ولقاموا بناحية برقة. ومضت الأيام على ذلك مدة. ثم قدموا منهم مونس بن يحيى الرياحي على المعز. وكان المعز كارها لإخوانه صنهاجة، محبا للاستبدال بهم حاقدا عليهم ولم يكن يظهر ذلك لهم. فلطف عنده محل مونس هذا، وكان سيدا في قومه، شجاعا، عاقلا، فشاورة المعز في اتخاذ بني عمه رياح جندا فأشار عليه بأن لا يفعل ذلك وعرفه بقلعة اجتماع القوم على الكلمة وعدم انقيادهم إلى الطاعة، فألح عليه في ذلك، إلى

٧٠٢٢ ذكر هزيمة العرب للمعز بن باديس

أن قال له المعز: إنما تريد انفرادك، حسدا منك لقومك! فعزم مونس على الخروج إليهم، بعدما قدم العذر وأشهد بعض رجال السلطان. ثم رحل متوجها نحوهم، فنادى في القوم وحشدهم ووعدهم وغبطهم ووصف لهم كرامة السلطان والإحسان لهم، ثم قدم في ركب منهم، لم يعهدوا نعمة. ولا طالعوا حاضرة، فلما انتهوا إلى قرية، تبادوا (هذه القيروان) ونهبوها من حينها.

فلما ورد الخبر على القيروان، عظم الأمر على المعز بن باديس وقال: إنما فعل مونس هذا ليصحح قوله، فأمر بثقاف أولاده وعياله، وختم على داره حتى يعلم ما يكون من أمره. فلما بلغ مونس ما فعل بأهله وولده اشتدت نكايته، وعظم بلاءه وقال: قدمت النصيحة، فحاق الأمر بي، ونسبت الخطيئة إلي! فكان أشد إضرارا من القوم. وكان قد علم عورات القيروان. ثم أخرج السلطان إليهم بعض الفقهاء، ومهم مكاتبات وشروط ووصايا، وأعلموهم أن السلطان قد دفع عيالاتهم لهم، ونفذوا عليهم العهود والمواثيق بالرجوع إلى الطاعة، وأرسلوا شيوخا منهم بذلك، ثم بعد ذلك نكثوا على السلطان، واستولوا على الفساد في كل جهة ومكان.

ذكر هزيمة العرب للمعز بن باديس

لما كان ثاني عيد الأضحى من هذه السنة كانت الداهية العظمى والمصيبة الكبرى وذلك أن السلطان عبد بوم الاثنين ومشى صباح هذا اليوم إلى ناحية قرية تعرف بني هلال، فلما كان نصف النهار، أنهت الأخبار أن القوم قد قربوا منه بأجمعهم. فأمر بالنزول في أوعار وأودية، فلم يستم النزول حتى حمل العرب عليهم حماة رجل واحد. فانهزم العسكر، وصبر العز صبرا عظيما، إلى أن وصلت رماح العرب إليه، ومات بين يديه خلق

عظيم فدوه بأنفسهم، وأما بنو مناد وجميع صنهاجة وغيرهم من القبائل، فإنهم فروا، وانتهبت العرب معسكر العز السلطان فخازوه، وفيه من الذهب والفضة والأمتعة والأسباب والأثاث والخلف والكراع ما ل يعلم عدده إلا اله. وكان فيه من الأخبية وغيرها ما يتجاوز عشرة آلاف ومن الجمال نحو خمسة عشر ألفا، ومن البغال ما لا يحصى قول. فما خلص لأحد من الجند عقال فما فوقه، وسلك أكثر الناس الجبل المعروف بجيدران فافترقوا فيه. ثم رجع بعضهم على بعض وليس عند أهل القيروان خبر بذلك إلا أنهم كانوا تحت نوقع

وتشوف. فلما كان ثالث العيد، قدم فارسان مع ابن البواب، وهم قد غلبت عليهم الكآبة وكسوف البال، وحالهم تغنى عن السؤال وكثر أيضا سؤال الناس عن السلطان، فذكروا أنه في حيز السلامة، فلم تك إلا ساعة حتى دخل قصره هو وولده. ثم تساقط الناس بعده آحادا وجموعا وتخلف عن الوصول خلق عظيم ففهم من علم خبره ومنم من لم يعلم. ثم ذكر أن العرب أخذوا خلقا كثيرا من الصنهاجيين وغيرهم.

قال ابن شرف: وكان العسكر المهزوم ثمانين ألف فارس، ومن الرجالة ما يليق بذلك وكان خيل العرب ثلاثة آلاف فارس، ومن الرجالة ما يليق بذلك. وفي ذلك يقول علي بن رزق من قصيدة له في ذلك أولها (طويل) :
لقد زارنا من أميم وهنا خيال ... وأيدي المطايا بالذميل عجال
وفيها:

ثلاثون ألفا منكم هزمتهم ... ثلاث آلاف أن ذا لنكال

ووصل العرب إلى نواحي القيروان، وجل كل من شبق إلى قرية يسمى نفسه لهم ويؤمنهم ويعطيهم قلنسوة أو رقعة يكتبها لهم علامة ليعلم غيره

أنه سبقه وبات الناس ليلتين بالقيروان تحت ما لا يعلمه إلا الله تعالى من الخوف لا يدرون ما ينزل بساحتهم. وأقام الناس يومين لا يدخل إليهم داخل ولا خارج، وخيل العرب تسرح حول القيروان في كل جهة ومكان، والناس يرونهم عيانا وبيانا، وخرج السلطان سابع عيد الأضحى بجنوده وخرج عامة القيروان معه، فلم يتعد بهم المصلى ورجع العرب في أمانهم الذي أعطوا أهل البوادي، وانتهبوا جميعا، وانتقل أهلها إلى القيروان. وأمر السلطان كافة الناس بانتهاج الزروع والمحيط بالقيروان وبصبرة، وهي المنصورية، فسر المسلمون بذلك، وحسبوا من أرزاقهم. وكان مصيرها إلى ما قدر الله من فساد واكل البهائم لها.

وفي السابع عشر لذي حجة ظهرت خيل العرب على ثلاثة أميال من القيروان. فنزل السلطان يمشي فيها ويوصي أهلها بالاحتفاظ والبناء وأخذ الناس في بناء دورهم. وأمر السلطان المعز أن ينتقل عامة أهل بصرة وسوقها إلى القيروان ويخلوا الحوانيت كلها ببصرة وأمر الجميع من بالقيروان من الصنهاجين وغيرهم من العسكر أن ينتقلوا إلى بصرة وينزلوا في حوانيتها وأسواقها فأرتج البلد لذلك وعظم الخطب واشتد الكرب. ومد العبيد ورجال صنهاجة أيديهم إلى خشب الحوانيت وسقائفها واقتلعوها. وخرت العمارة العظيمة في ساعة واحدة. وبات الناس على خوف عظيم ثم أصبحوا فعينوا خيول العرب فأمر السلطان ألا يخرج العسكر على سور بصرة. أين ابن شرف: أخبرني من أثق به، قال: خرجت من القيروان وسرت ليلا، فكنت أكن النهار، فلم أمر بقرية إلا وقد سخقت وأكلت، أهلها عراة أمام حيطانها من رجل وامرأة وطفل، يبكي جميعهم جوعا ويردا وانقطعت المير عن القيروان، وتعطلت الأسواق، وأمسك العرب جميع من أسوره، فلم يطلقوا أحدا إلا بالفاء مثل أسرى الروم، وأما الضعفاء والمساكين فامسكهم لخدمتهم

٧٠٢٣ نبذ من وقعة باب تونس أحد أبواب القيروان

٧٠٢٤ هزيمة صنهاجة أيضا ببجل حيدران

٧٠٢٥ وهزيمة المعز بن باديس من وجه آخر

نبذ من وقعة باب تونس أحد أبواب القيروان

وذلك أن العرب دفعت إلى هذا الباب، فخرج إليهم العامة منهم بسلح، ومنهم من بيده عصا لا يدفع بها أضعف الكلاب، فحملت عليهم فرسان العرب وتمكنت منهم سيوفهم ورماحهم، فتساقطوا على وجوههم وجنوبهم، وسطحوهم من حد أفران الآجر إلى هذا الباب ولم يبق منهم إلا من حصنه أجله، ولم يتركوا على حي ولا ميت خرقة تواريه. وخرج أهل القتلى عند انصراف العرب، فرفعوا قتلاهم، فقامت النوايح والنوادر بكل جهة ومكان من أزقة القيروان، تنصدع لمناظرهم وسماعها الجبال. وبقي خلق من الغرباء في

المقتلة، وجرح من الناس خلق كثير، ورأى الناس ما أذهلهم من قبيح تلك الجراحات، فتفتتت الأكباد، وذابت القلوب والأجساد، لبنيات قد سودن وجوههن وحلقن ورؤوسهن على أنبائهن وإخوانهن. فكان هذا يوم مصائب وأنكاد ونوائب. ولم ير الناس مثله في سائر الأمصار، فيما مضى من الأعصار. وبات الناس في هم وغم. تم كلام ابن شرف مختصرا.

هزيمة صنهاجة أيضا بجبل حيدران

وهزيمة المعز بن باديس من وجه آخر

قال أبو الصلت: ثم برز المعز إلى لقاء العرب الواصلة من المشرق، ووجد عساكره، وقدم عليه أبو سلبون، وزكنون بن واعلان، وزيري الصنهاجي، وعاد هو إلى القيروان. فلما كان عيد النحر، انهزمت صنهاجة، وقتل منها كثير، نفرج هو بنفسه إليهم، وانتشبت الحرب بينه وبين العرب، فهزمت العرب، وثبت المعز طائفة من عبيده، ثم عاد إلى المنصورية. فأحصى من

قتل من صنهاجة في هذه الواقعة: فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة. ثم أقبلت العرب حتى نزلت على القيروان، ووقعت الحرب هنالك، فقتل بين رقادة والمنصورية خلق كثير.

وفي سنة ٤٤٤، ذهب المعز بن باديس إلى رفع الحرب بينه وبين العرب، وأباح لهم دخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء. وبقي هو مستوطنا المنصورية من بقي من عسكره. فلما دخلوها، استطالت العامة عليهم، وأوسعهم إهانة وشتما، فقتل العرب منهم خلقا كثيرا. وكان عدد العرب الواصلين من المشرق سبعة آلاف فارسا وخمسمائة. وقدر المعز أن العرب عائدون من حيث أتوا نفرج له الأمر بخلاف ظنه.

وفي هذه السنة، بنى المعز سور القيروان، وسور زويلة، وجعل السور مما يلي صبره كالقيل: حائطان متصلان إلى صبره، وبينهما نحو نصف ميل.

وأما القيروان، فهي في بسط من الأرض، ممدودة في الجوف منها نحو تونس، وفي الشرق نحو سوسة والمهدية وفي القبلة نحو سفاقس، ويقرب منها البحر الشرقي: فينها وبين البحر مسيرة يوم، وسائر جوانبها أرض طيبة. ولا سبيل الموارد أن تدخل القيروان إلا بعد جوازه على صبرة. وأما صبرة فبناها إسماعيل بن أبي القاسم بن عبيد الله الشيعي المتلقب بالمنصور وسماها المنصورية واستوطنها سنة ٣٣٧ ثم كانت منزل الولاة بالقيروان إلى حين خرابها.

وفي سنة ٤٤٥، ولي المعز بن باديس ابنه تميم مدينة المهدية. وفيها، نافق على المعز بن باديس أهل سوسة. وهي مدينة منيعة حاصرها أبو يزيد شهورا ثم انهزم عنها وكان عليها في ثمانين ألفا. وفي ذلك يقول سهل ابن إبراهيم كامل:

إن الخوارج صدها عن سوسة ... أبدا طعان السمر والإقدام

وفي سنة ٤٤٦ حاصرت العرب مدينة القيروان وضيقة عليها تضيقا

شديدا يطول ذكره. وفيها أخذ مؤنس بن يحيى سلطان العرب مدينة باجة وأطاعه أهلها.

وفي سنة ٤٤٧ تولى بلقين الصنهاجي قلعة حماد. وفيها نافق ابن أب زمان على المعز بن باديس. وفيها، كانت بأفريقية مجاعة عظيمة وجهد مفرط.

وفي سنة ٤٤٨، وقع بين عبيد المعز الساكنين بالمهدية وبين عبيد تميم أنه منازعة أدت إلى الاقتتال والمحاربة فقامت عامة زويلة وسائر من كان من البحرين وغيرهم معاضدة لعبيد تميم فهزموهم وأخرجوهم من المهدية وقتلوا منهم عددا كثيرا. وسار الذين بقوا منهم يردون للحاق بالقيروان، فدرس تميم خبرهم إلى العرب، فقتل منهم في الطريق خلق كثير، وسبب هذه المقاتلة قتل تميم عبيد أبيه بالمهدية، ويقال أن الذي قتله منهم سبعمائة. وذكر أن الحرك لقتلهم واستصالحهم قصيد محمد بن حبيب التي أولها (بسيط):

السيف يسبق قبل الحادث العذلا ... لا تغمد السيف حتى تقتل السفلى

نقل عدائك من دنيا لآخره ... فكلهم ظن هذا الملك منتقلا

وفي سنة ٤٤٩، خرج المعز بن باديس من المنصورية منتقلا إلى المهدية، الميلتين بقيتا من شعبان. وفي أول يوم من رمضان، انتهت العرب مدينة القيروان وخربتها. وكانت من أعظم مدن الدنيا. وذكر أبو عبيد أنه انتهى ما ذبح منها من البقر خاصة في اليوم الواحد سبعمائة رأس وخمسين رأسا. وقال: في سنة ٥٢ بنيت القيروان وأُخليت.

وفي سنة ٤٥٠ خرج بلقين ومعه الأذبح ودعي لحرب زناتة، فكسرها وقتل منها عددا كثيرا.
وفي سنة ٤٥١ قتل منصور البرغواطي صاحب سفاقس قتله غدرا حمو ابن ومليل البرغواطي، وولى مكانه وذلك يوم السبت الثاني لشوال.
وفي سنة ٤٥٢ وقعت بين العرب والقيروان وبين هوارة حرب كان الغلب فيها للعرب. وقتلت هوارة بباب الصوم أحد أبوابها.

٧٠٢٦ بعض أخبار المعز بن باديس

وفي سنة ٤٥٣، قتل أهل تقيوس مائتين وخمسين من العرب. وكان سبب ذلك أن العرب دخلت إلى تقيوس متشوفة، فسمع رجل منهم رجلا من أهل المدينة يذكر المعز بخير، ويثني عليه، فقتله العربي، وكان مقدما في المدينة، فقام عليه أهل البلد، فغزوههم وقتلوا من العرب العدد المذكور.
وفي سنة ٤٥٤ ن غدر الناصر بن علناس لبلقين بن محمد الصنهاجي صاحب القلعة، وكان ذلك أول يوم من رجب وولى مكانه. وفيها، توفي المعز ابن باديس.

بعض أخبار المعز بن باديس

كنيته: أبو تميم. ولقبه: أولا شرف الدولة بن أبي مناد باديس نصير الدولة بن أبي الفتح المنصور عبد العزيز بالله بن أبي الفتح بلقين سيف العزيز بالله بن زيري بن مناد بن منقوش الصنهاجي. وفي هذه الأسماء والكنى يقول ابن شرف (خفيف):
شرف الدولة المعز بن باديس ... النصير المظفر المقدام
من له في العلا ثلاثة آباء ... نصير وعدة وحسام
وابن زيري أبو الفتح الذي أعدى ... أعاديه في الورى الإجمام
وأبو الفتح بعده السيد المنصور ... من صوب راحتيه سجام
مولده سنة ٣٩٩. وولي الملك سنة ٤٠٧، وسنة سبعة أعوام وشهران. وتوفي سنة ٤٥٥، وعمره ثمانين وخمسون سنة. فكانت مملكته سبعا وأربعين سنة. وفي سنه وتاريخ ولايته يقول ابن شرف (رجز):
لما انقضت من المئين أربع ... وبعدها ست سنين تتبع
وأول العام الشريف السابع ... دار إليها أيمن طوالع

٧٠٢٧ حكاية في ابتداء دولة صنهاجة

باسم المعز الملك الميمون ... مذل كفر ومعز الدين
فقلد الأمر الشديد المنعة ... منتهضا بحمله ابن سبعة
صفته: أسمر جميل الوجه جهير الصوت حسن الخلق بعيد الغور في الأمور قتل الشيعة وقط دعوتهم من أفريقية، ولغن أمراءهم بني عبيد على سائر منابر أفريقية ووفى كل واحد من الصحابة حقه، وأقام السنة، وكانت متروكة منذ مائة وأربعين سنة.
حكاية في ابتداء دولة صنهاجة

لما تغلب آل عبيد الله على مصر وأراد معد بن إسماعيل الرحيل إليها من إفريقية دعا زيري بن مناد وكان له عشرة أولاد، فقال له: (ادع إلي بنيك. فقد عملت رأي فيهم وفيك) وكان أصغرهم سنا بلقين. فدعا أولاده ما دعاه، والقدر لا يريد سواه. وكانت عند معد بن إسماعيل أثارة من علم الحدثنان، قد عرف بها بصائر أحوالها وأهل الغناء من أعيان رجاله. وكانت عنده لخليفته على أفريقية والمغرب، إذا صار إليه ملك مصر، علامة. فنظر في وجوه بني زيري، فلم يرها، فقال لزيري: (هل غادر من بنيك أحدا؟) فقال له: (غلاما صغيرا) فقال المعز: (لا أراك حتى أراه! فلست أريد سواه!) فلما رآه عرفه، وفوض إليه من حينه، واستخلفه، فاستولى من وقته على الأمور وزاحمت مهابته الأهواء في الصدور، وبعدت أسفاره واشتهرت أخباره، وبلغ بغزواته سبته في خبر طويل. ثم أجاب

صوت مناديه وخلعها علي أعطاف بنيه حتى أُنْتها أمره إلى المعز بن باديس شرف العشيرة، وآخر ملوكها المشهورة. ومن العجب أنهما راقا في الاسم والكنية، أعني المعز ابنا تميم معد بن إسماعيل العبيدي صاحب الحدثان، والمعز أبا تميم هذا. فأول ما افتتح به شأنه، وثبت به ما زعم سلطانه قتل الرافضة ومراسلة أمير المؤمنين العباسي يومئذ ببغداد، فكتب إليه بعهدده وجاءته الخلعة واللقب من عنده رأيا اغتر ببادئه، وذهل عن عواقبه وبواديته. واتصل ذلك بالعبيدي بمصر، وأمره يومئذ يدور على الجرجاني، فاستنعاها عليه، وفوق سهام مكروهه إليه. وكان بطون من عامر بن صعصعة: زغبة، وعدي، والأشجج ورياح وغيرهم، تنزل الصعيد لا يسمح بالرحيل ولا بإيجازه النيل، فأجازهم الجرجاني، وأذن لمن في المعز أمينة طالما تخلت إليهم أطماعهم وعكفت عليها أبصارهم، فغشاه منها سير العرم، ورماه بذلول ابنة الرقيم فشغل المعز بعضهم أولا بخدمته، وحملهم أعباء نعمتهم، وهم في خلال ذلك يترسون بجهاته وبون إلى حماته، ويطلعون على عوراته، حتى بان لهم شأنه، وهان عليه سلطانه، فجاهروه بالعداوة حتى جرت بينهم تلك الحروب، التي تقدم ذكرها مختصرا فأورثته البوار، وضربت عليه الحصار.

وفي أثناء ذلك، أعطاهم الدنيا، وناشدهم التقية، واشترط المهدية، وزف إلى أحد زعمائهم من بناتهم، فأصبحوا له أصهارا، وقاموا دونه أنصارا. فما استحكم باسمه، وأهمته بنفسه، واستجاش من قبله، وأحتمل أهله وثقله وخلا الملك لمن حماه وحمله، وجاء أصهاره بمنعونه ممن عسى أن يكيدته، حتى بلغ المهدية، فأقام بها أسقط من الشمس بالميزان، وأهون من الفقير القيان، ولم يكن أحد في زمانه أشد بأسا في الملاحم، ولا أطول يدا بالمكارم ولا أعني باللسان العرب ولا أحنى على أخل الأدب ومن مشهور كرمه أنه أعطى المنتصر بن خزرون في دفعة مائة ألف دينار إلي ما وصله من مركب أثيل، وزبي حفييل وكان متوقد الذهن حاضر الخاطر حاذقا بطرائف الألحان عالما بالمنثور والمنظوم من الكلام. ومدح كثير من الشعراء، فأجزل لهم العطاء: منهم علي بن يوسف التونسي، ويعلا بن إبراهيم الأركشي، وأبو علي بن رشيق، والقرشي وابن شرف، وغيرهم يطول

٧٠٢٨ دولة الأمير تميم بن المعز

٧٠٢٩ ونبد من أخبارها

الكتاب بذكرهم، لا سيما لا ذكرت من نظمهم ونثرهم. وذكر أبو الحسن الخذلاني المعروف بالحداد: اشتملت على الكثير من أيامه ووقائعها وصفت حاله في خروجه من القيروان، وتسليمه للعرب معظم ملكه، في قصيدة أولها (طويل):

سرت تتهدى بعد ما رحل الركب ... وقد قلدت جيدا الدجا الأنجم الشهب

ومنها

وإن خاني صبري علي به ... فقد خان مولانا العشائر والصحب

ولو شاء تأليف الجنود وجمعها ... لجاءته من أقطارها العجم والعرب

ولكنة أغذى الجفون لعله ... بما سطرت فيه الملاحم والكتب.

ولم يمكث بالمهدية إلا نحو سنتين، وانقضت أيامه، ووافاه أجله، وتوفي يوم السبت لخمس بقين من شعبان سنة ٤٥٤ هـ هكذا ذكر أبو الصلت، وقد تقدم قول ابن شرف أنه توفي في سنة ٤٥٥. أولاده: تميم، ونزار، وعبد الله، وعلو، وحماد، وبلقين، وحمادة، والمنصور.

دولة الأمير تميم بن المعز

ونبد من أخبارها

مولده بالمنصورية في رجب سنة ٤٢٢. وأبرزه والده للناس ابن سنتين وركب، والعسكر وراءه، وطاف مدينتي القيروان والمنصورية، وولي المهدية سنة ٤٤٥، وعمره ثلاث وعشرون سنة. وأقام بها إلى أن خرج والده من المنصورية متجها نحوها، فلما دنا منها، خرج إليه فيمن معه، وترجل عند رؤيته له، وقبل الأرض بين يديه، ومشى راجلا أمامه، وأظهر من طاعته له ما أبان كذب ما نسب إليه، وزور من النفاق عليه، فدعا له والده، وأمره

بالركوب، فركب وسار معه إلى المهديّة فنزل المعز القصر وأقام ابنه تميم متكفلاً بأمر الدولة.

وفي سنة ٤٥٥ فتح مدينة سوسة. وكان أهلها قد نافقوا على أبيه، فعفا عنهم، وفي سنة ٤٥٦، زحف إلى المهديّة حمو بن ومليل البرغواطي الثائر بمدينة سفاقس، بمن استعان بالعرب، فورد خبره على تميم فسار إليه ومعه طائفة كثيرة من زغبة ورياح. وكان مع حمو طائفة من عدي والأثيج، فاقتتل الفريقان. ثم ولت طائفة حمو أديارها، فأخذتها السيوف، وتولتها الختوف وفي سنة ٤٥٧، كسر عسكر الناصر بن حماد وكان قد خرج في عدد كثير من صنهاجة وزناتة وعدي والأثيج، فلقيتهم رياح وزغبة وسليم، فانهزم الناصر وقتل من أصحابه خلق كثير ونهبت أمواله ومضاربه، وقتل أخوه القاسم بن علناس. وكان من أعظم الأسباب في ذلك ما أبرمه تميم في أمره.

وفي ٤٥٨، جرد تميم عسكراً كبيراً إلى مدينة تونس، فأقام محاصراً لها، آخذاً بخنقها أربعة عشر شهراً، حتى رقع الاتفاق بينه وبين ابن خراسان صاحبها، على ما اقتضاه إقلاع العسكر عنها.

وفي سنة ٤٥٩ قام بالمغرب، الأقصى محمد بن إدريس بن يحيى بن علي ابن حمود الحسني، المستدعي من ميلية، فعبر إليها، وقال به جماعة بني ورتدي في ميلية ونواحيها. وكان قد خطب له بالخلافة بمالقة، وتسمى بالمستعلي، فأقام بها إلى، تغلب عليه باديس بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة سنة ٤٤٧، فانقرضت دولة بني حمود يومئذ بالأندلس، واختفى بالمرية إلى أن استدعي.

وفي سنة ٤٦٠ حاصر الناصر بن علناس بن حماد مدينة الأريس، وكان معه الأثيج من العرب، وبقي عليها حتى افتتحها وأمن أهلها، وقتل عاملها ابن مكرز. وفيها، وصل الناصر المذكور إلى القيروان مع العرب ودخلها.

وفيها، استبد أمير لمتونة على زناتة المستوطنين هنالك.

وفي سنة ٤٦١، عاد الناصر بن علناس بن حماد من القيروان إلى قلعتة، خوفاً من جموع العرب، وفيها، شرع أبو بكر بن عمر الممتوني في بناء مراکش على ما يأتي في موضعه.

وفي سنة ٤٦٥، وصلت إلى سفاقس مراكب شرقية، فأخرج إليها السلطان تميم بن المعز أسطوله من المهديّة، فأفسدها.

وفي سنة ٤٦٦، وقيل ٤٦٧ طردت زغبة من أفريقية: طردتهم رياح منها، وباعت القيروان بن الناصر بن علناس بن حماد الصنهاجي صاحب القلعة.

وفي سنة ٤٦٨، وصلت إلى أفريقية عرب برقة ونزلت حول القيروان وما والاها. وفي سنة ٤٦٩، كانت بأفريقية جماعة عظيمة ووباء عظيم، مات فيه من الناس خلق كثير.

وفي سنة ٤٧٠ اصطاح تميم بن المعز والناصر ابن عمه وزجه بنته بلارة وجزاها إليه من المهديّة في عساكر عظيمة ومال وأسباب وذخائر. وفي سنة ٤٧٤، حاصر تميم مدينة سفاقس. وعاث عسكره في أجنحتها المعروفة بالغابة وأفسدها، وولى تميم ابنه مقلداً مدينة طرابلس سنة ٤٧٠.

وفي سنة ٤٧٦، حوصرت المهديّة، نزل عليها مالك بن علوي في جموع عظيمة من العرب، فخرج إليه السلطان تميم فهزمه، وأقلع عنها منهزماً، ودخل اقيروان.

وفي سنة ٤٧٩، حاصر تميم مدينة قابي وسفاقس معا في زمن واحد، مما لم يسمع مثله.

٧٠٣٠ ذكر دخول النصارى مدينة المهديّة

وفي سنة ٤٨٠، كسفت الشمس كسوفاً كلياً. وجرى فيها ما جرى من نزول الروم على المهديّة في ثلاثمائة مركباً حربية، على ظهورها ثلاثون ألف مقاتل.

ذكر دخول النصارى مدينة المهديّة

وسبب ذلك، مع قدر الله تعالى غيبة عسكر سلطانها عنها ومفاجأة الروم قبل استقدامه إليها وأخذ الأهبة للقائهم، وخلوا كافة الناس من الأسلحة والعدد وقصر الأسوار وتهدمها. وتكذيب تميم بخبرهم وسوء تدبير عبد الله بن منكور متولي أمور الدولة في قصده مخالفة قائد الأسطول في الخروج إليهم للقائهم في الماء ومنعهم من النزول في البر. فكا كل ذلك سبب تغلبهم على المدينتين المهديّة وزويلة،

ونهبهم أيامها، وقتلهم الناس فيهما، وإحراقهم بالنار ما هو مشهور بالمهدية إلى الآن. وقد استوعب ذلك أبو الحسن الحداد في قصيدته التي أولها (منسرح) .

أنى يلم الخيال أويقف ... وبين أجفان ثوى الدنف
غزا حمانا العدو في عدد ... هما الدما كثرة أو اللعف
عشرون ألفا ائلفوا ... من كل أوب وليت ما ائلفوا
جاءوا على غرة إلى نفر ... قد جهلوا في الحروب ما عرفوا
وهي طويلة.

وفي سنة ٤٨١، مات الناصر بن علناني بن حناد الصنهاجي، وولي ابنه المنصور.
وفي سنة ٤٨٢، غزا مالك بن علوي مدينة سوسة، ودخلها في طائفة من أصحابه، ولم يتمكن له شيء من مراده فيها فخرج منها منهزما، وقتل جماعة من رجاله وأسر بعضهم.

وفي سنة ٤٨٣، غلت الأسعار في أفريقية، وكانت بها مجاعة شديدة.

وفي سنة ٤٨٤، صلحت أحوال أفريقية في الخصب والرخاء.

وفي سنة ٤٨٦، حاصر عسكر تميم مدينة قابس وأقام عليها حتى فتح ربهها. ٤٨٨، كان ما كان من غدر شاه مالك الغزي ليحيى بن السلطان تميم بن المعز، وسبب ذلك أن تميما خاف الغزي وأوحش منه نفسه ونفس أصحابه لكلام قاله، فأضمر ذلك شاه مالك في نفسه، وكان داهية مكررا، وخرج يحيى بن تميم أثناء ذلك متصيذا، وفي صحبته نفر من أهل مؤانسته ومناذمته. وكان شاه مالك مع كثير من أصحابه، فظفر به وقبض عليه وعلى جماعة من أصحابه. ولما بلغ تميما ذلك، أنفذ الخليل في الغزي فوجدوه قد فات وسار إلى سفاقس ودخلها. فركب صاحبها حمو بن ومليل وتلقى يحيى بتميم مع الغزي الذي قبض عليه، فأقام عنده أياما، وكتب إلى السلطان تميم يلتمس منه عيال الغز وأولادهم، فأمر تميم بإنفاذهم إليهم، ودعا يحيى وأصحابه إلى المهدية. وفي سنة ٤٨٩ فتح تميم مدينة قابس، وأخرج منها عمر بن المعز أخاه وقد كان ولاه أهلها، وفي سنة ٤٩١، كانت بأفريقية مجاعة شديدة. وفي هذه السنة، فتح تميم مدينة قرنة ومدينة تونس. وخرج عدى من أفريقية أمام رياح.

وفي سنة ٤٩٣، فتح تميم مدينة سفاقس وخرج منها حمو بن ومليل هاربا إلى قابس فقبله صاحب مجن بن كامل الدهماني وآواه حتى مات وفي سنة ٤٩٨ مات المنصور بن ناصر بن علسان، صاحب القلعة والباجية وما والاها وولى ابنه باديس وأقام قليلا ومات. ثم ولى أخيه العزيز بالله بن المنصور. وفيها وصل المرمانيون إلى المهدية بأجفان كثيرة حربية، تسمى الشزاني ومعهم ثمانية وعشرون مركبا. وكان قصدهم أن يجدوا فرصة

٧٠٣١ بعض أخبار تميم بن المعز

كما وجدها الروم المتقدم ذكرها. فقصدوا إلى باب دار الصناعة لينعوا أسطول المهدية إليهم نخاب ظنهم وخرجت أسطول المهدية إليهم فهزموا وقتلوا كثيرا منهم. وفي سنة ٤٩٩ وجه السلطان تميم أبا الحسن النهري إلى جزيرة جربة في عدد جم وأسطول كثير فوجد أهلها قد أخوا الأهبة له، واستعدوا واستمدوا فلم يتم له شيء من أمرها.

وفي سنة ٥٠٠ غدرت مدينة باجة وقتل خلق كثير. وفيها رحل المهدي بن تومرت القائم بدعوة من البربر المسمين بالموحدين بجبل هرغة بأقصى المغرب إلى المشرق في طلب العلم فجاز إلى الأندلس وصل قرطبة وسار منها إلى المرية ومها دخل في مركب إلى الشرق وفاب في مركب خمسة عشر عاما.

وفي سنة ٥٠١ ظهر في أفق المغرب كوكب عظيم من ذوات الذوائب وأقام ليلي كثيرة. وفيها مات السلطان تميم بن المعز فكانت مدته سبع وأربعين سنة.

بعض أخبار تميم بن المعز

كان رحمه الله شهما شجاعا حازما عازما، يستصغر صعاب الأمور ويستسهل عظام الخطوب ويغلب عليه شدة البطش والمبادرة. وهو أحد فحول شعراء الملوك وذو السبق والتقدم في معانيه وبدائعه حوى فيه الجودة والكثرة. وله ديوان كبير من شعره؛ فمن قوله (وافر) :
فإما الملك في شرف وعز ... على التاج في أعلى السرير
وأما الموت ببين ظبا العوالي ... فلست بخالد أبدا الدهور
وله في غلام اسمه مدام من قصيدة طويلة (متقارب) :

٧٠٣٢ دولة يحيى بن تميم بن المعز

٧٠٣٣ ونبد من أخباره وسيرته

مدام يطوف بكاس المدام ... فلم أدر أيهما أشرب
فهذا الصديق وهذى الرحيق ... وهذا الهلال وذو الكوكب
وهذا يجود بالحاظه لي ... وهذى بألبابنا تلعب
وما البدر والنجم من ذا وذاك ... ولكنه مثل يضرب
وكان تميم بن المعز جميلا وسيم مدير القامة دري اللون أشم ابلج. وكان يكثر من استغفار بدنه ويرى ذلك أنه تمم صحته. وكان يستعمل كل حار من الأغذية والأدوية ويكثر الاصطلاء بالنار ويدخل الحمام الحر ويكثر الجماع ويشرب الأدوية القوية كالحمودة وغيرها، ويجاوز في ذلك المقدار حتى جف لحمه وفسدت حركاته الطبيعية. وأقعد ثم مات في منتصف رجب من سنة ٥٠١ فكان عمره تسعا وسبعين سنة وولايته من وفاة جاوز عددهم المائة. وقيل أنه كان له من الولد وولد الولد نحو ثلاثمائة.
دولة يحيى بن تميم بن المعز
ونبد من أخباره وسيرته

مولده بالمهدية سنة ٤٥٧. وولى سنة ٥٠١ وعمره إذ ذاك ثلاثة وأربعون سنة. وكان حاذقا بتدبير دولته ساهرا في سياسة رعيته كثير المطالعة لكتب السيرة والأخبار أديبا شاعرا ذا حظ في اللغة العربية صالح. وكان حسن الوجه أشهل العينين أهدج الصوت. وتوفي ثاني عيد النحر من سنة ٥٠٩ فجأة مقتولا في قصره بالمهدية فكانت مدة ملكه ثماني سنين وستة أشهر، وخلف من الأولاد ثلاثين ولدا ذكور. ومما حدث في أيامه من الوقائع ما أذكرها ملخصا، مؤرخة بأوقاته. وفي سنة ٥٠٣ فتح يحيى بن تميم قلعة أقبلية. قال ابن القطانم كان لتميم بن المعز من الولد ثلاثمائة فنفي يحيى أكبرهم إلى المشرق والمغرب
والأندلس. وكانت أيام يحيى هادئة ووادعه. وكان يطلب عمل الكيمياء وجعل لها دارا تردها الطلبة وأجرى عليها الإنفاق ومكنهم من الآلات.

وفي سنة ٥٠٣ جرد يحيى بن تميم كمن أسطوله خمسة عشر غرابا للغزو في بلاد الروم فأصيب منها ستة وعادة البقية إلى المهدية. وفي سنة ٥٠٤ كان بالمغرب زلازل عظيمة دامت شهر شوال كله.
وأمر أفريقيا يحيى بن تميم بن المعز.

وفتي سنة ٥٠٥ وصل سوار صاحب مصر بهدية إلى أمير أفريقيا يحيى بن تميم فتلقيه بغاية الإكرام والاهتمام وأقام عنده حتى صرفه وأصحابه من الذخائر والألطف ما لا يحيط به الوصف.

وفي سنة ٥٠٧ وصلت أسطول المهدية بسبي كثير من بلاد الروم في ربيع الآخر فسر بذلك يحيى بن تميم والمسلمين.

وفي سنة ٥٠٨ ولى يحيى ابنه عليا مدينة سفاقس وولى أخاه عيسى مدينة سوسة. وفيها جثم الروم على مدينة ميورقة وهي بيد مبشر الفتى مولى ابن مجاهد ودخلها عنوة وقتلوا رجالها وسبوا ذراريها ونساءها وذلك بعد حصار شديد ثم استرجعها علي بن يوسف من

أيدي الروم.

وفي سنة ٥٠٩ وصل إلى المهديّة رجّلان أو ثلاثة ذكروا أنّهم طلبوا المصامدة عارفين بصناعة الكيمياء فأبيح لهما بالدخول إلى دار العمل. فما أحكما ما أرادا استأذنا على السلطان يحيى بن تميم. فقال لهما: (أوقفاني على الطرح وحقيقة السرا) فقال: (على أن لا يحظر إلا أنت ووزيرك!) فحظر هو ووزيره وعبداه أبو خموس فصنعا البوط وألقيا الرصاص وأحميا عليه وجعلا كنهما يخرجان الإكسير. فأخرجا خناجيرهما وقتلا الوزير وأبا خنوس وأكثر في السلطان الجراحات. فبقى يعاني جراحه حتى مات وقال له حين جراحه: (أيها الكلب تعجب نحنو أخواك فلان وفلان نفيتنا وبقيت في الملك!) وثارَت الصيحة إذ ذاك فدخل العبيد وقتلا الرجلان للحين.

٧٠٣٤ دولة علي بن يحيى بن تميم بن المعز

٧٠٣٥ بالمهديّة وبعض بلاد أفريقية

ومات يحيى يوم العيد الأضحى من سنة ٥٠٩، وكان الأمير يحيى، مدة مرضه إثر هذه النوبة والغدر، ونفي ابنه الفتوح إلى قصر زيادة، وأظهر اتهامه في القضية. فأقام هناك إلى حين وفاة أبيه وولاية على أخيه. ثم نفاه علي أيضا إلى المشرق، فتوفي هنالك. وفي هذه السنة، عقد الأمير يحيى نكاح العزيز بالله بن المنصور، صاحب القلعة وبجاية، على بنته بدر الدجا، وجهازها إليه. دولة علي بن يحيى بن تميم بن المعز

بالمهديّة وبعض بلاد أفريقية

لما توفي الأمير يحيى، اجتمع أهل الدولة على نفاذ كتاب إلى علي على لسان أبيه، وكان علي يلي سفاقس، فكتبه الكاتب، وكتب علامة يحيى كانت: (الحمد لله وحده!) فوصل الخبر إلى علي ليلا، فخرج لوقته، فوصل إلى المهديّة ثالث عيد النحر، ودخل الناس إليه معزين ومهنيين، وعمره ثلاثون سنة، فاستأبت له الأمر، واستوسق له الملك. وكان كريما جوادا، يركن إلى الراحة واللذات، واتكل على قوم فوض إليهم تدبير دولته، فعاجلته منيته في ربيع الآخر من سنة ٥١٥، فكانت دولته خمس سنين وأربعة أشهر وأثنى عشر يوما. وخلف من الولد الذكور أربعة: الحسن، والعزيز، وباديس، واله (?).

وفي سنة ٥١٠، أمر بعمارة الأسطول إلى جرية، فحاصرها إلى أن أقر أهلا بالطاعة له، ونزلوا على حكمه. وفي سنة ٥١١، أرجف العوام بأنه سيكون في رمضان حادث كبير، وأن السلطان يموت فيه. وفشا القول بذلك، وانتشر. فأكذب الله أحاديثهم. وقال الشعراء في ذلك كثيرا. فنه طويل:

وأشاعوا أباطيل وبثوا زاخارفا ... دعتهم لها آمالهم والمطامع
فلو يستطيع الناس من فرط حبهم ... لضممتك أحشاء لهم وأضالع
ومنها:

أصبح قول المبطلين مكذبا ... ومد لك الرحمن في أمد العمر

فأين الذي حد المنجم كونه ... إذا مر للصوم عشر من الشهر

وفيها، وصل رسول صاحب مصر بهدية إلى المهديّة. وفيها، حاصر علي ابن يحيى مدينة قابس، ودون بعض قبائل العرب، فلما بلغ ذلك رافعا صاحبها، خرج متطارحا على وجوه الجيش، راغبا في الصلح، فلم يجيبه علي إلى ذلك، وفي أثناء ذلك، نزل على المهديّة بيوته، ومن ساعده من عشيرته، فخرج من كان بالمهديّة، فهاجموا على بيوته، فتصايحن نساء العرب، فغارت العرب لذلك، وقعت الحرب بين الفريقين، والأمير على باب زويلة. أن عليا دون على رافع ثلاثة أنحاس العرب من جيشه، فصمد رافع نحوهم، والتقى الجمعان. ثم ولى رافع قاصدا إلى القيروان. واجتمعت شيوخ دهمان، واقتسموا البلاد بينهم، فأعطوا رافعا مدينة القيروان. ووصلت العرب المدونة إلى الأمير علي بن يحيى، فوهبها أموالا جمّة وأمره بالمسير إلى القيروان. فوقع بينهم وبين رافع قتال شديد، وكان الظهور فيه لحزب علي بن يحيى، في خبر طويل.

وفي سنة ٥١٢، وصل إلى الأمير علي بن يحيى، من قبل صاحب صقلية رجار، رسول له يلتمس تجديد العقود، وتأكيد العهود ويطلب أموالا كانت له موقفة بالمهدية وذلك بعنف وغلظة. فرد على رسوله جواب وجهه بالقول. فتزايدت الوحشة بينه وبين رجار، فأوسع شرا، وحال بعد ذلك مكرًا قال ابن القطان: وكان في هذه السنة غلاء عظيم، ووباء، وبلغ ربع الدقيق بتلسمان عشرين درهما. وفي سنة ٥١٣ أغزى إبراهيم بن يوسف أخو علي بن يوسف بن تاشفين

٧٠٣٦ دولة الأمير الحسن بن علي

٧٠٣٧ ابن يحيى بن المعز بأفريقية

ملك الغرب، قورية بالأندلس ففتحها الله عليه. وأمير أفريقية علي بن يحيى ابن تميم. وفي سنة ٥١٤ كانت وقعة بالأندلس انهزم فيها المسلمون وهي وقعة قنطرة، قال ابن القطان: مات فيها نحو عشرين ألفا وفيها، كان حلول ابن تومرت المتلقب بالمهدي بأغمت، محرضا على الخروج على السلطان وتفريق الكلمة المنتظمة. وفي سنة ٥١٥، خرج علي بن يوسف من مراكش إلى الأندلس، فوصلها في ربيع الأول وأخر ابن رشد عن القضاء، وولى أبا القاسم بن حمدين، ثم رجع إلى مراكش. وفيها، توفي أمير أفريقية علي بن يحيى بن تميم.

دولة الأمير الحسن بن علي

ابن يحيى بن المعز بأفريقية

كان أبوه فوض إليه الأمر في حياته وعمره اثنتا عشرة سنة وتسعة أشهر، ومولده بمدينة سوسة في رجب سنة ٥٠٢. فلما مات أبوه، دخل الناس إليه مهنيين ومعزين بالملك والوفاء، وانشده الشعراء وتكفل بأمر دولته صندل الخادم، لا المعرفة ولا سياسة. وفي سنة ٥١٦، غزى أبو عبد الله بن ميمون قائدا علي بن يوسف ن ملك البرين، جزيرة صقلية، فافتتح بها مدينة نقوطرة من عمل رجار صاحب صقلية، وسبي نساءها وأطفالها، وقتل شيوخا، وسلب جميع ما وجد فيها. فلم يشك صاحب صقلية أن المحرك والمسبب له هو أمير أفريقية الحسن بن علي، لما تقدم بينه وبين أبيه من الوحشة العظيمة فاستنفر أهل بلاد الروم قاطبة فالتأم له ما لم يعهد مثله كثرة فعلم بذلك الحسن بن علي، فأمر بتشييد الأسوار واتخاذ الأسلحة وحشد القبائل واستقدام العرب. فجاءت الحشود من كل وجه ومكان والناس متأهبون لما يترقبهم منهم.

وفي سنة ٥١٧، في أواخر جمادى الأولى، وصلت أسطول الإفرنج إلى جزيرة الأحاسي، وخرج منهم إلى البر خلق كثير وإسطوا حتى بعدوا عن البحر أميالًا. وفي اليوم الثاني، خاء إلى المهديّة ثلاثة وعشرين شينيا، فعينوا العساكر والحشود ثم انصرفوا إلى الجزيرة، فوجدوا العرب قد انكشفوا من كان بها من الروم عن مواضعهم، ومزقوا مضاربهم فتقويت نفوس المسلمين بذلك. وكان رجار قد أمر أسطوله أن يدخل تلك الجزيرة، ويأخذ قصر الديماس، وأن يسير الخليل والرجال من هنالك على تعبئة في البر إلى المهديّة، لليلتين خلتا من جمادى الأولى، في آخر ليلة منه كبر المسلمون ودخلوا الجزيرة فانهزم الروم إلى أجفانهم، بعد ما قتلوا بأيديهم كثيرا من خيولهم. وأخذ المسلمون فيما يحتاجونه إليه نحو أربع مائة فرس، وآلات كثيرة وأسلحة. وأحاطت العساكر بقصر الديماس، تقاتله، وأهل الأسطول في البحر يعاينون ذلك، إلى أن طلب الروم الأمان من السلطان الحسن بن علي بن يحيى بن تميم، فلم تساعد العرب على ذلك. وخرجوا من منتصف جمادى الآخرة فأخذتهم السيوف، وقتلوا عن آخرهم. وكان عدد الأجفان نحو ثلاثمائة، وعدد ليل فيها نحو ألف فارس.

أخبر أبو الصلت قال: أخبرني عبد الرحمن عبد العزيز قال: رأيت على باب رجار بصقلية رجلا من الإفرنجة طويل الحية يتناول طرف لحيته بيده، ويقسم بالإنجيل أنه لا يأخذ منها شعرة حتى يأخذ ثأره من أهل المهديّة فسألت عنه، فقل لي أنه لما انهزم، جذب بها حتى أدمته. إلى أن انتهى كلام ابن الصلت في أخبار المهديّة وأميرها الحسن بن علي بن يحيى ابن تميم إلى سنة ٥١٧ وبقي الحسن بن

علي ملكا للمهدية وبلاد تلك الجهات إلى سنة ٥٤٣. ثم خرج باستيلاء صاحب صقلية عليها. وفي سنة ٥١٨، استفحل أمر المهدية والموحدين بالمغرب وأمير أفريقية الحسن بن علي بن يحيى. ومات في هذه السنة العزيز بالله صاحب بجاية، وولي ابن يحيى. وكان لبني الناصر بن علناس بن حماد بجاية والقلعة وتلك البلاد وزراء يعرفون ببني حمدون، وتوارثوا وزاراتهم، منهم ميمون بن حمدون عند يحيى هذا، فنشأ ليحيى ولد ولاء الأمر بعده وفوض الأمور إليه في حياته، فجعل الولد يستنقص الوزير ميمونا، ويقبح أفعاله، ويسميه الشيخ الكذاب. فخاف منه ميمونا على نفسه، وخاطب أبا محمد عبد المؤمن وفي سنة ٥١٩، كان أمير أفريقية الحسن بن علي على حاله. وخرج الطاغية ابن ردمير إلى بلاد المسلمين، فدوخها بلدا بلدا، وضيق عليها.

وفي سنة ٥٢٠ اجتمعت عساكر المسلمين بالأندلس، فتلاقوا مع عدو الله ابن ردمير، وكان قد أذاق المسلمين شرا منذ سنين، فدارت بين الفريقين حرب عظيمة كان الظفر فيها للمسلمين. ثم أخبر الناس أن تيمما رجع فارا بنفسه، فانهزم المسلمون، وركبهم النصارى بالقتل واحتوا على المحل بما فيها وسار تميم إلى غرناطة، وانبسطت خيل النصارى على المسلمين يقتلونهم كيف شاءوا وتفرق الناس أيدي سبا ولجئوا إلى المعقل، وكانت قريبا منهم، فوافاهم الله شرهم. وفي سنة ٥٢١، وقيل في سنة ٥٢٠ نهض أبو الوليد بن رشد إلى مراكش للاجتماع بعلي بن يوسف في المصالح، وعز تميم عن غرناطة.

وفي سنة ٥٢٣، أشر ابن رشد ببناء سور مراكش فبناءه علي بن يوسف وأنفق فيه سبعين ألف دينار وفيها، بعث العزيز بالله بن المنصور صاحب بجاية عسكرا إلى المهدية قود عليه ابن المهلب فنزل عليها ثم انصرف ناكصا على عقبه وفيها، وصل مطرف بن علي بن خزرون الزناتي إلى تونس وأخرج منها أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحق بن خرسان، وقفل إلى الحجاز وبها مات على ما يأتي. وولي تونس في هذه السنة كرامة بن المنصور الصنهاجي من قبل صاحب بجاية.

وفي سنة ٥٢٣ كان الأمير بأفريقية حسن بن علي على ما كان عليه في السنة قبلها، وصاحب بجاية يحيى بن العزيز بالله، ووزيره ميمون بن حمدون. وفي سنة ٥٢٤ قتل أمير مصر الملقب بالأمر، وكان جبارا عنيدا، قتله الغلام الذي أسمه حرز الملوك، وكان الأمر ولي عهده عبد المجيد.

وفي سنة ٥٢٧، قال الوراق في (مقابسه): بعث الله قوما تحالفوا على قتل الجبار العنيد بمصر الملقب بالأمر. قيل أنه قصدوا إليه من بلاد الشام احتسابا وكانوا عشرة أناس، فأقاموا بمصر، وعلموا بيوم ركوبه، وكان إذا ركب سدة الحوانيت والديار في ممره ولا يمر في طريقه أحد سواه ويجعل نصف عسكره أمامه، ونصفه ورائه، وفي وسط تلك المسافتين التي أمامه وخلفه فارسان، بينهما وبينه ما بينهما وبين العسكر وحمله أربعة من عبيده فقصد هؤلاء القوم إلى طريقة وفيه فرن، فقصدوا إلى الفرن، ومعهم دقيق وقالوا له: (نريد منك أن تحب لنا هذا الدقيق، فأنا قوم غرباء مسافرون) فاعتذر لهم بالسلطان فرغبوه، وشارط عليهم العجلة، ثم أشغلوه بالحديث إلى أن مر عليه مقدم العسكر الأول فأعنف عليهم في الخروج فلما رأوا ذلك ادخلوه داخل القرن وسدوا فمه بغطائه وغلقوا باب القرن عليهم إلى أن سمعوا حوافر فرسه. فأول من خرج من القرن كلها منهم، فجعل يسجد إلى الأرض، وينادي: (أنا بالله وبعده مولانا) وسجد مرة بعد أخرى إلى أن ألقى بيده في شكائم الفرس، وأخرج سكينه وضرب بها بطن الفرس فسقط إلى الأرض وخرج أصحابه من القرن مبادرين، فضربوه بسكاكينهم إلى أن فرغوا من قتله. وقتلوا في الحين أجمعين وأراح الله من الفاجر الطاغية وهو الذي أكثر في زمانه دعوى الباطل ونصرة الظالم وعمل

جهنم يعذب فيها الناس، وأباح المحظورات جهارا في النزعات، وغير ذلك من قبائحهم - لعنهم الله - أعني الشيعة العبيدية. وفي سنة ٥٢٨ كان ولاية أفريقية على ما كانوا عليه في السنة قبلها.

وفي سنة ٥٢٩، صرخ الموحدون بموت المهدي، وسموا عهد المؤمن بأمير المؤمنين، وفيها، ولي القضاة قاضي عبد الحق بن عبد الله بن معيشة، فأراق الخمر وكسر الدنان، وشدد على أهلها، وزاد في الجامع الكبير فكان البناء فيه في آخر هذه السنة. وفي سنة ٥٣٠ نزل على حمود على المهدية، بعسكر من قبل صاحب بجاية العزيز بن المنصور ومال برسم العرب فنزل بظاهر زويلة وناشب

القتال برا وبحرا، فأخرج إليهم صاحب المهديّة أسطوله فأخذوا من أسطول بجاية غرابي أمر بسجن قائدهما، فأما الواحد فمات بسهم أصابه ثم وصلت العرب لنصرة المهديّة فرحل عسكر بجاية عن المهديّة بعد أقامته سبعين يوما. وأمر الحسن بن علي قائده بقتل القائدين فقتل أحدهما بين يديه ووجد الآخر قد مات من سهم كان أصابه. وفيها جهز رجار صاحب صقلية أسطولا، فقصدوا جزيرة جربة، واستولوا عليها وسبوا أهلها. وفي سنة ٥٣٣، كان موت عبد المجيد صاحب مصر وكان للشيعة في تولية خليفة عليهم خبر طريف يذكره في موضعه ز وفي سنة ٥٣٦ توفي أبو عبد الله المازري وأبو الصلت. وفيها أخذ صاحب المهديّة المركب الذي أنشأه صاحب بجاية، وبعثه بهدية إلى صاحب مصر، وسبب ذلك أنه كان في الإسكندرية مركب للحسن صاحب المهديّة عطله عن السفر صاحب الديوان لأنه سعى في الشتاة بين الحسن وبين صاحب مصر، وقصد المواصلة بين صاحب مصر وصاحب بجاية، فأقلعت المراكب وبقي هو محبوسا. واقلع في جملتها المركب البجائي ببضائع عظيمة لها شأن وأثمان للتجار وهدية إلى صاحب بجاية. فعمل عليه الحسن، وأخذه، وأمر

بتفريغها. وبقي المركب فارغا حتى جاءت صدمة أكتوبر، فأنكسر وفي هذه السنة، خرج جرجي من صقلية في خمسة وعشرين غرابا، وضرب على مرسى المهديّة ن فأخذ جميع ما كان فيه من المراكب وفيه مركب جديدا أنشأه الحسن من خشب المركب الذي انكسر لصاحب مصر.

وفي سنة ٥٣٧، خرج أسطول صاحب صقلية، ف ضرب على مدينة أطرابلس، فخفيه الله.

وفي سنة ٥٣٨، دخل مدينة سفاقس ودخلت في عمل رجار صاحب صقلية.

وفي سنة ٥٤٣، كان تغلب الروم على مدينة المهديّة، وخرج منها صاحبها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن بسلجين ابن زبرى بن مناد بن منقوش صنهاجي بجملته وحاشيته. وتبعه أهل البلد فارين بإهليهم. وكان قائد رجار صاحب صقلية جرجي بن ميخايل الأنطاكي وكان أبوه علجا من علوج أبيه تميم. فكان هذا اللعين عارفا بعورات المسلمين بالمهديّة وغيرها فلم يزل رجار وقائده جرجا بجيلا على المهديّة بجيلاهما إلى أن استولوا عليها في هذه السنة. وتعرف هذه الكائنة الشنعاء بكائنة يوم الاثنين فبقيت بأيد الروم حتى أفتتحها الموحدون، على ما أذكر في دولتهم، ولما استولى صاحب صقلية على هذه المدينة كانت بأفريقية مجاعة عظيمة، فخاف أهل تونس من أهل هذه السواحل من النصارى. وكان صاحب صقلية افتتح سفاقس ودخل بونة، وسبى أهلها، فأخذ أهل تونس في الاستعداد والأهبة والوقوف بجماعاتهم وقتا بعد وقت عند باب البحر، بحضر واليهم معد بن المنصور وهو من الديوان الذي على الباب فخرجوا يوما من أيام عرضهم، فوجوا قاربا يسوق زراعا، فأبكرت العامة خروج الزرع من بلدهم في تلك الشدة إلى موضع تحت مملكة الروم، واجتمعوا على منعهم، وضجت العامة وارتفع صياحهم، فتعرض لهم رجال معد بن المنصور، فوضعوا السلاح

فيهم وفي عبيد معد واليهم وقتلوه قتل الشيعية وأطلقوا النار تحت برج الديوان، فنزل معد عنه، واستسلم للعامة، فوقفوا عنه، فكانوا يأخذون رجاله وعبيده من تحت ركابه، ويقتلوه. وبقي معد ذلك بتونس على حال قهر من العامة، وكتب إلى بجاية، فجاءه غراب منها، فطلع فيه مع بنيه، وسار إلى بجاية، ورجع النظر في تونس لقائد من قواد صنهاجة مدة يسيرة، ثم انصرف، وبقي البلد في حكم العامة، فكانت الفتنة المشهورة فيهم، والقتال بين أهل باب السويقة وأهل باب الجزيرة، ومدبرهم في تلك المدة قاضيهم أبو محمد عبد المنعم بن الإمام أبي الحسن - رحمه الله - ولما اشتد خوف أهل تونس من صاحب صقلية ومما سمعوه من غضب بجاية واستعدادها لهم، أخذوا في تمليك محمد بن زياد العربي بإرادة قاضيهم. فلما عزموا على ذلك، ووصل ابن زياد إلى تونس، وخرج القاضي والأشياخ إلى لقائه، صاح رجل من العامة: (لا طاعة لعربي ولا غربي) وقامت الفتنة. فرجع ابن زياد إلى القلعة، وأراد القاضي الرجوع إلى المدينة، فنهه العامة وأخرجته، فسار مع ابن زياد إلى القلعة، ولأقام بها مدة طويلة، إلى أن مات - رحمه الله - فيقال أنه كان راقدا في الصيف في طلق علو، فوقع منها ومات، ويقال أنه رمي منها، ثم إن العامة وجهوا إلى أبي بكر إسماعيل بن عبد الحق بن خراسان، فوصل إلى تونس بالليل، فرفع قفي قفة من السور وولي تونس، فأقام عليها نحو سبعة أشهر، ثم غدر به عبد الله ابن أخيه عبد العزيز، على ما يأتي، وإذ قد وقع ذكر بني خراسان، ولايتهم تونس على النسق ومن وليها من غيرهم إلى دخول الموحدين إليها، بحول الله تعالى.

٨ ذكر من ولي تونس من الأمراء

٨٠١ من بعد زوال ملك المعز بن باديس منها

ذكر من ولي تونس من الأمراء

من بعد زوال ملك المعز بن باديس منها

لما انتقل المعز من القيروان والمنصورية إلى مدينة المهدية، وأسلمها إلى العرب، واختل ملكه بفتنة العرب الواصلين من المشرق، كما تقدم، واستحوذوا على كثير من حواضر تونس وما يليها من البلدان ما كان، مثل باجة والأربس وما يليها، وكان بنو حماد قد طمعوا في ملك أفريقية، وصارت عمالة القيروان في أيديهم مدة بمدخلتهم العرب وإحسانهم إليهم وانقطع ملك المعز عن تونسي وغيرها، وضعفت دولتهم بالمهدية عن حمايتها، فشئ أشياخ من أهلها إلى الناصر بن علناس، وهو إذ ذاك في القلعة دار ملكهم، وناظمة سلكهم، فاستدعوا منه النظر إلى مدينتهم وتقديم وال من قبله عليهم، فأمرهم أن يختاروا شيخا منهم، يقوم بأمرهم خلال ما ينظر إليهم، فيقال أنهم راموا تقديم كبير منهم، فاستعفى وتوقف. فوليا من قبل الناصر عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان، فأقام بها إلى أن مات سنة ٤٨٨، ثم وليا بعده ولده عبد العزيز بن عبد الحق، فأقام بها إلى أن، مات في سنة ٥٠٠، ثم وليا ولده أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحق، فبقي واليا عليها اثنين وعشرين سنة، حتى أخرجه عنها مطوف بن علي بن حمدون إلى بجاية، وكان قد بنى قصرا بتونس، سمي قصر بني خراسان، وطالت مدته كما ذكرنا، فاشتدت وطأته، وخرج عن سيرة الأشياخ إلى آثار جبابرة الملوك، وقتل عمه إسماعيل بن عبد الحق، وكان أحق منه بالأمرة. وفر ولده أبو بكر بن إسماعيل إلى بنزرت، فلأقام بها خوفا منه، وأخرج جماعة من لأهل تونس وأشياخها، ونفاهم إلى المهدية وغيرها، واستبد برأيه في أمور تونس، إلى أن وصلت أخباره إلى المنصور صاحب بجاية، فجهز إليه عسكريا قدم عليه مطوف بن علي بن حمدون، فوصل إلى تونس عام ٥٢٢، فخرج أحمد إليه، واستسلم في يديه، فنقله إلى بجاية

من تونس كرامة بن المنصور من بني حماد، إلى لأن مات في سنة كذا وخمسمائة، ثم وليا بعده أخوه أبو الفتوح بن المنصور، إلى أن مات، ثم وليا بعده محمد بن أبي الفتوح، فلم تستحسن سيرته، فأخرج عنها ووليا معد بن المنصور وكان آخرهم فأقام عليها إلى سنة ٥٤٣ حين استيلاء الروم على المهدية، فخاف أهل تونس منهم، وثاروا على أميرهم معد كما تقدم، وثار العامة بها، وكانت الفتنة المشهورة فيها. ثم انهم وجهوا إلى بنزرت، وقدموا أبا بكر بن إسماعيل بن عبد الحق، غدره عبد الله ابن أخيه عبد العزيز بعد إقامته في ولايته سبعة أشهر، وأخرجه في قارب في البحر، فرماه البحر ميتا عند قلعة ابن غبوش. فيقال: غرق، ويقال: غرق. فوليا عبد الله المذكور نحو عشر سنين، وهو الذي قتل القاضي أبا الفضل جعفر بن حلوان وقتل معه ولده وولد أخته ابن الباد، لما خشي أن يجمعوا عليه العرب. وفي أيامه وجه عبد المؤمن عبد الله بن سليمان في قطع من أسطول سبته وأمره بالكشف عن تونس وقوتها والمجاورين لها من الأعراب، وبعد ذلك بعام وصل السيد أبو محمد عبد الله بن عبد المؤمن إلى تونس، ونازلها وحاصر عبد الله بن خراسان فيها مدة، ثم ألقع عنها إلى بجاية، وذلك في سنة ٥٥٣، وفي سنة ٥٥١، في شوال كان القيام على النصارى بالمهدية وحاصرهم فيها. وفي سنة ٥٥٢ استولت الروم على زويلة.

وفي سنة ٥٥٤، دخل عبد المؤمن أفريقية المرة الثانية، ونازل تونس ثم ألقع عنها وحاصر النصارى بالمهدية، وفي سنة ٥٥٥، دخل أبو محمد عبد المؤمن مدينة صليحة، واستولى الموحدون عليها في العاشر من شهر محرم.

وفي سنة ٥٥٨، كانت كائنة يوم السبت بنزول الروم على المهدية، وأخذوا مدينة سوسة ثم خرجوا عنها.

وفي سنة ٥٧٣، كانت يوم الجمعة بنزول النصارى على المهدية

٨٠٢ ذكر الأمراء والولاة بأفريقية لخلفاء بني أمية

ثم غادرها عبد الكريم في ربيع الآخر منها، ودخلها يحيى بن غانية الميورقي في شعبان من سنة ٥٧٨، فلم يزل بها هو وأصحابه لمتونة، ومسوقة، يغيرون منها على أفريقية، حتى تملكوا بعض بلادها، إلى أن دخلها الناصر مع الموحد، في جمادى الأولى من علم ٦٠٢. ذكر الأمراء والولاة بأفريقية لخلفاء بني أمية

عقبة بن نافع، ثم أبو المهاجر، ثم عقبة ثانية، ثم زهير بن قيس، ثم حسان بن النعمان الغساني ثم موسى بن نصير ثم محمد بن يزيد ثم إسماعيل ابن عبد الله ثم يزيد بن أبي مسلم الثقفي ثم محمد بن أوس الأنصاري ثم بشر بن صفوان ثم عبيدة بن عبد الرحمن السلمي ثم عبد الله الحبابة ثم كلثوم بن عياض ثم حنظل بن صفوان ثم عبد الرحمن بن حبيب القرشي ثم الياس بن حبيب ثم حبيب بن عبد الرحمن.

فهؤلاء الثمانية عشر هم الولاة عليها من بين أمية.

ووليا للصفوية عاصم الورجومي، وعبد الملك بن أبي جعد. وكانت مدتهم سنة واحدة وشهرين ووليا للأباضية أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح، مولى المعافرة، وكانت مدته سنتين اثنتين ووليا أبو العباس محمد بن الأشعث الخزاعي. ثم عيسى بن يوسف القيسي. ثم الأغلب بن سالم التميمي ثم الحسن بن حرب الكندي ثم الأغلب. ثم سالم ثاني ثم عمر بن حفص المهلي. ثم يزيد بن حاتم السلمي ثم داود بن يزيد ثم روح

بن حاتم. ثم الفضل بن روح بن حاتم، ثم هرثة بن أعين، ثم محمد بن مقاتل العكي، ثم تمام بن تميم التميمي، ثم محمد بن مقاتل ثانية. ووليا من بني الأغلب إبراهيم بن الأغلب وعبد الله بن إبراهيم بن الأغلب. والأغلب بن إبراهيم بن الأغلب. ومحمد بن الأغلب بن إبراهيم وأحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم. وزيادة اله بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم. ومحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم. وإبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم. وعبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب. وزيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب. وهو آخر بني الأغلب بإفريقية وكان انقراض دولتهم سنة ٢٩٦.

ومن الشيعة العبيدية أبو عبد الله الداعي. ثم عبيد الله المهدي. وإليه نسب العبيدية بمصر، ثم ابنه القاسم بن عبد الله، ثم ابنه إسماعيل بن أبي القاسم وهو الذي ملك مصر ورحل إليها في آخر أيامه.

ومن صنهاجة القائلين بدعوة العبيدية ومن ولايتهم بلجين بن زيري. المنصور بن بلجين. باديس المنصور. المعز بن باديس تميم بن باديس. علي بن يحيى. الحسن بن علي. وعليه دخل الروم.

٩ ذكر صفة الأندلس وأوليتها

ذكر صفة الأندلس وأوليتها

أما صفة الأندلس، فإنها جزيرة مركنة، ذات ثلاث أركان، قريبة من شكل المثلث: الركن الواحد منها عند صنم قَادِس، والركن الثاني في بلاد حليقية، وهو مقابل لجزيرة بركانية حيث الصنم المشبه بصنم قادس، والركن الثالث بناحية الشرق، بين مدينة أربونة ومدينة برذيل حيث هو قرب البحر المحيط الغربي من البحر المتوسط الشامي، وكاد البحران هناك أن يجتمعا في ذلك الموضع، فتصير الأندلس في جزيرة أولا يسير ما بقي منها، وهو مسيرة يوم كامل، وفيه مدخل يقال له الأبواب، وفيه تتصل الأندلس بالأرض الكبيرة. فالأندلس كلها محدة بالبحر: البحر المحيط الغربي والبحر المتوسط القبلي، ويصعد منه قليل إلى ناحية الشرق؛ فخذ الأندلس في الشرق والغرب وبعض الجوف البحر المحيط، وحدها في بعض القبلة والشرق البحر المتوسط، إلا أنه يتوسط الأرض كلها. وقيل إنه في آخر الأقاليم السبعة.

وقيل إن أول من نزل الأندلس بعد الطوفان قوم يعرفون بالأندلس (بشين معجمة) ؛ فسميت بهم الأندلس (بالسين غير معجمة) .
وقيل إنهم كانوا مجوساً؛ فأراد الله قلعهم منها؛ فحبس المطر عنهم حتى غاضت مياههم وعيونهم وأنهارهم، وخرجوا منها، واقتروا في البلاد؛ وأقامت خالية مائة سنة، من حد إفرنجة إلى البحر؛ ثم دخلها بعد ذلك قوم من الأفارقة، أجلاهم صاحب إفريقية من الجوع؛ فلما نزلوا الأندلس، وجدوا أنهارها قد جرت؛ فلكوها نحو مائة وخمسين سنة. وعدد ملوكهم أحد عشر ملكاً، ودار ملكهم مدينة طالقة. ثم غلبت عليهم الإسبانية، حتى أخرجوهم عن الملك، وصار الملك إليهم؛ وبهم سميت إشبيلية؛ فبنوها وسكنوها؛ وخربت طالقة. وهجم عجم رومة، فكانوا ملوكاً، حتى دخل البشترقات على الرومانيين، وقد بعث الله المسيح - عليه السلام! - فبعث الحواريين إلى البلدان كلها، وظهر دين النصرانية وغلب. قم كان دخول البشترقات من رومة. وكانوا يملكون إفرنجة، ويبعثون عمالهم إليها. ودار ملكهم ماردة؛ فكانت عدة ملوكهم سبعة وعشرين ملكاً.

ثم ظهر بإشبيلية إشبان؛ وكان رجلاً ضعيفاً حراً؛ فوقف به الخضر - عليه السلام! - وهو يحرق؛ فقال له: (إذا غلبت علي إيلياء، فأرفق بأولاد الأنبياء!) فقال له: (كيف يكون هذا، وأنا ضعيف، من غير بيت ملك؟) . فقال له: (يقدر ذلك من قدر في عصاك ما قدر!) . فلما نظر إلى عصاه، إذا بها قد أورقت؛ ففزع. وغاب عنه الخضر. ووقع ذلك نبنفس إشبان؛ فلم يزل يصطنع الرجال حتى علا اسمه، وشاع ذكره، وتغلب على الأندلس؛ فخرج في السفن إلى إيلياء؛ فغنمها وهدمها، وقتل فيها مائة ألف من اليهود، وباع منهم مائة ألف؛ وانتقل رخامها إلى الأندلس. وكان ملكه نحو عشرين سنة؛ وبعد سنتين من ملكه، غزا إيلياء. ويقال إن إشبان اسمه إصبهان، لأنه ولد بإصبهان؛ فسمى بها، والله أعلم. فعدة ملوكهم خمسة وخمسون ملكاً.

ثم دخل القوط الأندلس، وقطع الله ملك رومة منها. وعدة ملوك القوطيين ستة عشر ملكاً، آخرهم لذريق، الذي دخل عليه المسلمون. وجعلوا دار ملكهم طليطلة. ووجدت في بعض كتب العجم أن آخر ملوك الأندلس كان يسمى وخشندش، ولم يكن في النصرانية أحكم منه ولا أحسن إصابة

لستهم؛ وعلى سنته أمضت النصرانية أحكامها، وهي الأربعة الأناجيل. التي يحلفون بها وينتهون إلى ما فيها. وقالوا إن لذريق. الذي دخلت عليه العرب والبربر، وثب علي وخشندش هذا وقتله، وغلب على ملك الأندلس، ودانت له طليطلة وغيرها.

وفي كتب العجم: إن رذريق هذا لم يكن من بيت المملكة. وإنما كان زنبياً؛ وكان من عمال الملك بقرطبة؛ وقتل وخشندش بعدما خالف عليه. فغير الحكم، وأفسد سنن الملك، وفتح البيت الذي كان فيه التابوت. وكان إذا مات الملك منهم، يكتب اسمه، وكم ولي، ويوضع في ذلك البيت مع تاجه، ولا سبيل بعد عندهم لفتحه. فلما فتحه رذريق، أنكرت النصرانية ذلك عليه. وجعلوا له مثله ذهباً وفضة، ولا يفتحه؛ فلم يقبل ذلك منهم، وعزم على فتحه؛ ففتحه، ووجد في البيت تيجان الملوك وتابوتاً فيه صور العرب متنكبة قسيها، وفي رؤوسها عمامتها، وعليها مكتوب: (إذا فتح هذا البيت، وأخرجت هذه الصور، دخل الأندلس قوم في صورهم، فغلبوا عليها!) فلما دخلت العرب والبربر مع طارق، والتقوا برذريق، أسلمته النصرانية، وانهزمت عنه حتى قتل. وكان دخول طارق بعد سنة من ولاية رذريق؛ فقتله طارق بقرطاجنة من كور الجزيرة؛ وافتتح البلاد حتى انتهى طارق إلى طليطلة؛ فوجد بها مائدة سليمان - على نبينا وعليه الصلاة والسلام! - ووجد فيها صور العرب والبربر على خيولهم، وهي الصور التي وضعت على القطر بقرطبة وقيل أيضاً إنها طلسمات، كانت العرب قد نصبتها على مساجد الأندلس؛ فنقلها عبد الرحمن بن معاوية إلى القطر بقرطبة.

وهذا القدر كاف هنا من صفة الأندلس وذكر ملوكها الأولين.

١٠ ذكر دخول المسلمين إلى الأندلس

١٠٠١ وانتزاعها من أيدي الكفار

ذكر دخول المسلمين إلى الأندلس

وانتزاعها من أيدي الكفار

أما دخول المسلمين لها، فذكر فيه أربعة أقوال: أحدها أن الأندلس، أول من دخلها عبد الله بن نافع بن عبد القيس، وعبد الله بن الحصين الفهريان. من جهة البحر، في زمن عثمان - رضي الله عنه - قال الطبري: أتوها من برها وبحرها؛ ففتحها الله تعالى على المسلمين هي وإفريقية، وازداد في سلطان المسلمين مثل إفريقية؛ ولم يزل أمر الأندلس لإفريقية، حتى كان زمن هشام بن عبد الملك؛ ففزع البربر أرضهم، وبقي من في الأندلس على حالهم. هذا نصه. وإن ذلك كان سنة ٢٧ من الهجرة الكريمة. وثانيها أن موسى بن نصير افتتحها عام ٩١. وهو قول الطبري أيضاً. فيظهر منه أنه جاز بنفسه، وتولى هذه الغزوة والفتح. وثالثها أن طريقاً دخلها وفتحها في عام ٩١. ورابعها أن طارقاً أول من دخلها، سنة ٩١، ودخل موسى بعده سنة ٩٢.

فهذا الخلاف واضح في هؤلاء الأربعة مواضع: قيل إن أول من دخلها الفهريان؛ ثم ابن نصير؛ ثم طريف؛ ثم طارق؛ فظهر من هذا إن الفهريين أثرا فيها في زمن عثمان - رضي الله عنه - وغنما من جهة البحر، وطريقاً دخلها سنة ٩١ مغيراً ومخرباً، ونسب فعله إلى موسى بن نصير، نسبة فعل المأمور إلى الأمر؛ فصدق عليه إضافته لموسى، فيكون قول الطبري صادقاً؛ وصدق عليه أيضاً قول الرازي بأخرى وأولى، وطارق دخلها دخول المستفتح لها، المكافح، سنة ٩٢، وموسى دخلها بعد ذلك متمماً للفتح.

وقال عريب: إن العليج يُلِيان، صاحب الجزيرة الخضراء، داخل موسى ابن نصير، صاحب إفريقية، عام ٩١، على يد طارق بن زياد عامل موسى على طنجة وما والاها؛ فراسل يُلِيان موسى، يُزِن عنده دخول الأندلس، ويُقرب

له أمرها، وقيل: بل، سار إليه بنفسه في البحر، حتى اجتمع به في ذلك؛ فاستشار موسى الوليد بن عبد الملك، إمّا مراسلة (وهو الأكثر الظاهر) وإمّا بأن نهض بنفسه إليه؛ فأشار الوليد بأن يختبرها بالسرايا، ولا يغرر بالمسلمين؛ فبعث موسى بن نصير عند ذلك رجلاً من البربر، يسمّى طريفاً ويكنى أبا زرعة، في مائة فارس وأربعمائة راجل؛ فجاز في أربعة مراكز، حتى نزل في ساحل البحر بالأندلس، فيما يحاذي طنجة، وهو المعروف اليوم بجزيرة طريف، سميت باسمه لنزوله هنالك؛ فأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء، وأصاب سبياً ومالاً كثيراً، ورجع سالماً. وكانت إجازته في شهر رمضان من سنة ٩١.

وقد اتفق الجميع فيما يظهر على أن مُتولي كبر فتح الأندلس وجهه ومعظمه طارق بن زياد. وقد اختلف في نسبه؛ فالأكثر على أنه بربري من نفزة، وأنه مولى لموسى بن نصير، من سبي البربر. وقال آخرون إنه فارسي.

قال صالح بن أبي صالح: هو طارق بن زياد بن عبد الله بن رفهون بن ورجوم بن ينزغاسن بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو، وكأنهم أيضاً انفقوا على أن طارقاً كان عاملاً لموسى، قبل محاولة الأندلس، على المغرب الأقصى، وترك عنده رهائن برابر المغرب في سنة ٨٦ من الهجرة. وقيل أيضاً إن طارقاً جاز إلى الأندلس برهائن البربر سنة ٩٢.

قال ابن القطان: فالأكثر يقولون: كان مستقره بطنجة، ومنهم من يقول سجلماسة، وإن سلا وما وراءها من فاس وطنجة وسبتة كانت للنصارى؛ وكانت طنجة ليليان منهم؛ فكان طارق إذا نائباً عن موسى بن نصير. واختلفوا أيضاً هنا هل إنما سار إلى الأندلس عن أمر موسى، أو سار إليها لأمر دهمه، لم يمكنه إلا إنفاذه. والقول الأول هو المشهور المتفق عليه.

قال الرازي عن الواقدي: إن الوليد بن عبد الملك استعمل موسى بن نصير على إفريقية، واستعمل موسى بن نصير طارق بن زياد على طنجة. وكان يُلِيان مجاوراً له بالجزيرة الخضراء التي تلي طنجة؛ فدخله طارق حتى صار معه إلى الرضى، ووعد يُلِيان بإدخاله الأندلس هو وجنوده. وكان اجتمع لطارق اثنا عشر ألفاً من البربر؛ فأجمع طارق على غزو الأندلس، بعد أن أخذ إذن ابن نصير مولاه في

ذلك؛ فكان يليان يحتمل أصحاب طارق في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس: ولا يشعر أهل الأندلس بذلك، ويظنون أن المراكب تختلف بالتجار. فحمل الناس فوجاً بعد فوج إلى الأندلس. فلما لم يبق إلا فوج واحد، ركب طارق ومن معه، حتى أجاز البحر إلى أصحابه وتخلف يليان بالجزيرة الخضراء، ليكون أطيّب لنفسه ونفوس أصحابه. فنزل طارق جبلاً من جبال الأندلس، يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة ٩٢، كما تقدّم ذكر ذلك. فسمّي ذلك الجبل باسمه إلى اليوم.

وذكر عيسى بن محمد من ولد أبي المهاجر، في كتابه السبب في دخول طارق الأندلس، وهو أنّ طارقاً كان والياً لموسى على طنجة؛ وكان يوماً جالساً، إذ نظر إلى مراكب قد طلعت في البحر؛ فلما أرست، خرجوا إليها، فنزعوا أرجلها، وأنزلوا أهلها؛ فقالوا: (إليكم جثتا عامدين!) وعظيمهم معهم يقال له يليان. فقال طارق: (ما جاء بك؟) فقال له (إنّ أبي مات. فوثب على مملكتنا بطريق يقال له لذريق؛ فأهانني، وأذلّني، وبلغني أمركم؛ فجئت إليكم أدعوكم إلى الأندلس، وأكون دليلاً لكم!) فأجابه طارق إلى ذلك، واستقر اثني عشر ألفاً من البربر. فحملهم يليان في المراكب فوجاً بعد فوج، كما تقدم ذكره.

وذكر غير هؤلاء أنّ السبب في ذلك أنّ طنجة وسبتة والخضراء وتلك النواحي كانت في مملكة صاحب الأندلس، على نحو ما كانت السواحل كلها

بالعدوة وما قرب منها الروم، يسكنونها، إذ كان البربر يرغبون عن سكنى المدن والقرى، وإنما بغيتهم سكنى الجبال والصحارى، إذ كانوا أصحاب إبل وسائم. وكان النصارى في صلحهم. وكانت السنة في الأندلس في ملوك النصارى أن يستخدموا بني بطارقهم وكبار رجالهم: فالرجال منهم يخدمون خارجاً، والنساء جوار يخدمن داخلاً. وهما كذا سنتهم إلى اليوم في الرجال خاصة، يخدمون صبيانا يتأدبون بأدبهم. ويتعلمون سنتهم؛ فإذا أدركوا وكبروا، ألحقوا برجالهم وأهلهم. وكان ملك الأندلس من القوطيين يسمى رذريق، قد مدّ يده إلى ابنة يليان، وكانت عنده؛ فاغتصبها نفسها؛ فأرسلت إلى أبيها، ودست إليه. فلما بلغه ذلك، أحفظه، وكتمه، وارتصد به الأيام، ونصب له الغوائل، حتى كان من دخول العرب المغرب ما كان. وأرسل رذريق إلى يليان في بزاة وطيور وغيرها، فأرسل إليه: (الأوردن عليم طيراً لم تسمع قطّ بمثلها)، وهو ينوي الغدر به؛ فحينئذ دعا طارقاً إلى ما كان من جواز البحر.

واختلفت الروايات في قتال طارق أهل الأندلس. فقليل إن رذريق زحف إلى طارق بجميع أهل القوة من أهل مملكته بنفسه، وهو على سرير ملكه على بغلين يحملاه، وعليه تاجه وجميع الحلية التي كانت تلبسها الملوك، حتى انتهوا إلى الجبل الذي فيه طارق. فخرج إليهم طارق بجميع أصحابه رجاله، ليس فيهم راكب إلا القليل؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى ظنوا أنه الفناء. ثم صرف الله وجوه أعدائه؛ فانهزموا؛ وأدرك رذريق؛ فقتل في وادي الطين. ومضى حتى دخل قرطبة. وفتح الله الأندلس على المسلمين. هكذا ذكر عيسى في كتابه.

وذكر الواقدي أنهم اقتتلوا من حين طلعت الشمس إلى أن غربت؛ فلم تكن قطّ بالمغرب مقتلة أعظم منها، بقيت عظامهم في المعركة دهنراً طويلاً لم تذهب.

وذكر الواقدي أيضاً، عن عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، قال: سمعت رجلاً من أهل الأندلس يحدث سعيد بن المسيب ويذكر له قصتهم. فقال: (لم يرفع المسلمون السيف عنهم ثلاثة أيام، حتى أوطئوهم غلبة.) ثم ارتحل المسلمون إلى قرطبة، وهي مدينة الأندلس التي كان بها رذريق؛ وبينها وبين الساحل مسيرة خمسة أيام. وكان سلطان رذريق إلى أزيونة ثغر الأندلس، وهي إذ ذاك أقصى مملكة الأندلس. مما يلي إفرنجة؛ ومن أرثونة إلى قرطبة ألف ميل. وكان الذي أصابه طارق ومن معه من السي، في أول فتح لهم، عشرة آلاف رأس؛ وكان سهمانهم من الذهب والفضة لكل واحد من الرجال مائتا دينار وخمسون ديناراً.

وذكر الرازي أنه، لما بلغ رذريق خبر طارق ومن معه، ومكانهم الذي هم فيه، بعض إليهم الجيوش جيشاً بعد جيش؛ وكان قد قوّد على أحدهم ابن أخت له يسمى بنج، وكان أكبر رجاله؛ فكانوا عند كل لقاء يهزمون ويقتلون؛ وقتل بنج، وهزم عسكره؛ فقوى المسلمون، وركب الرجال الخيل، وانتشروا بناحياتهم التي جازوا بها؛ ثم زحف رذريق إليهم بجميع عساكره ورجاله وأهل مملكته، وهو

على سرير ملكه كما تقدّم. فلما انتهى إلى الموضع الذي فيه طارق، خرج إليه؛ فاقتتلوا على وادي لكّه من كورة شدونة يومهم ذلك، وهو يوم الأحد لليلتين بقيتا من رمضان، من حين بزغت الشمس إلى أن توارت بالحجاب؛ ثم أصبحوا يوم الاثنين على الحرب، حتّى إلى المساء. وتمادت أيامهم كذلك إلى يوم الأحد الثاني؛ فتمت ثمانية أيّام. وقتل الله رذريق ومن معه، وفتح للمسلمين الأندلس، ولم يعرف لرذريق موضع، ولا وجدت له جثة، وإنما وجد له خف مفضض؛ فقالوا إنه غريق، وقالوا إنه قتل؛ والله أعلم.

ثم تحرك طارق إلى مضيق الجزيرة؛ ثم نهض إلى مدينة إسنجة؛ فوجد فيها فلّ العسكر؛ فقاتلوه قتالا شديداً، حتى كثر القتل والجراح في المسلمين؛ ثم نصرهم الله، وقطع دعوة العجمة، وقذف الله الرعب في قلوب المشركين، إذ

١٠٠٢ ذكر ما افتتح طارق بن زياد من بلاد الأندلس

١٠٠٣ سنة 92 من الهجرة

١٠٠٤ فتح قرطبة

تقدّم عليهم البلاد؛ فهرب أكثرهم إلى مدينة طليطلة، وتركوا مدائن الأندلس وراءهم قليلة الأهل. وقدم يليان على طارق من الخضراء مشتقره؛ فقال له: (قد فتحت الأندلس؛ فخذ من أصحابي أدلاء، ففرق معهم جيوشك وسر أنت إلى مدينة طليطلة!) ففرّق جيوشه من إسنجة.

ذكر ما افتتح طارق بن زياد من بلاد الأندلس سنة ٩٢ من الهجرة

أول فتوحاته جبل الفتح المسمى بجبل طارق، وذلك لما جار المسلمون ونزلوا في المرسى، وهم عرب وبربر، حاولوا الطلوع في الجبل، وهو حجارة حرش؛ فوطئوا الدواب بالبراذع وطلعوا عليها؛ فلما حصلوا في الجبل، بنوا سورا على أنفسهم يسمى سور العرب. وقيل إنهم فتحوا من حينهم حصن قرطاجنة، وكان في سفح هذا الجبل من نظر الجزيرة الخضراء. فلما بلغ ذلك ملوك الأندلس، نفروا إلى رذريق، وكان جباراً طاغية؛ فاستقر النصرانية. فقبل إنه بعث إلى المسلمين الجيش بعثا بعد بعث؛ فكانوا عند كل لقاء يهزمون ويقتلون. فتقوى المسلمون، وركب رجالهم، وانتشروا في البلاد. وبعد هذا زاحفهم رذريق بنفسه. وقال آخرون بل زاحفهم لأول مرة بنفسه. ثم اختلفوا أيضاً كم أيام المزاخفة التي أعقبها الفتح وانهمز آخرها رذريق؛ فقيل: يوم كامل، وقيل: يومان، وقيل: ثلاثة، وقيل: ثمانية؛ واختلفوا هل ظفر برأس رذريق أم لا؛ فقيل: ظفر به، وقيل: مات غريقاً.

فتح قرطبة

بعث طارق مغيثاً، مولى عبد الملك بن مروان، من لإسنجة إلى قرطبة في سبعمئة فارس، وهي من مدنهم العظام؛ ولم يكن معه راجل إذ كان الرجال قد ركبوا. فلما بلغ مغيث شقندة وقرية طرسيل، وهي على ثلاثة أميال من قرطبة، بعث الأدلاء كي يلقون من عنده خبر؛ فألقوا راعي غنم، فأتوا به إلى مغيث، وهو في الغيضة؛ فسأله عن قرطبة؛ فقال له: (انتقل). عنها عظماء أهلها، ولم يبق فيها إلا بطريقها في أربعمئة فارس من حماهم مع ضعفاء أهلها.) ثم سأله عن حصانة سورها؛ فأخبره أنه حصين، إلا أن فيه ثغرة فوق باب الصورة، وهو باب القنطرة، ووصف لهم الثغرة.

فلما جنّ الليل، تحرك مغيث بمن معه، وعبروا النهر، وقابلوا السور، وراموا التعلق به؛ فتعذر عليهم؛ فرجعوا إلى الراعي، وأتوا به معهم؛ فدلهم على الثغرة؛ فراموا التعلق بها؛ فصعب عليهم، حتى صعد رجل من المسلمين في دروتها، ونزع مغيث عمامته، فناوله طرفها، وارتقوا بها حتى كثروا بالسور؛ ثم جاء مغيث إلى باب القنطرة، وهي يومئذ مهدومة، وأمر أصحابه بالحوم على أحراس السور، فكسروا الأقفال، ودخل مغيث بمن معه. فلما بلغ الملك الذي بها دخولهم. خرج في كآة أصحابه، وهم نحو الأربعمئة؛ فدخلوا كنيسة بغربي

المدينة؛ فتحصنوا فيها؛ فحاصروهم مغيث، وكتب إلى طارق بالفتح. وتمادى على حصار العلوج في الكنيسة المذكورة ثلاثة أشهر. فبينا هو ذات يوم جالس إذ قيل له: (خرج العليج - يعني الملك - هاربا وحده، وهو ينوي التحصين في جبل قرطبة، ليلحق به أصحابه!) فأتبعه مغيث وحده دون أحد من أصحابه؛ فلما برز له وأبصره هاربا، وتحت فرس أصفر، وهو يتبعه، خرج من طريقه؛ فأتى خندقا؛ فوثب به الفرس، وسقط في الخندق، واندقت عنقه؛ فأقبل مغيث، والعلج جالس على ترسه مستأسرا؛ فأسره. ولم يؤسر من ملوك الأندلس غيره، لأن منهم من عقد لنفسه أمانا، ومنهم من هرب إلى أقاصي البلاد مثل حليفية وغيرها. ورجع مغيث إلى بقية العلوج؛ فاستنزلهم أسرا، وضربت أعناقهم صبرا؛ وسميت كنيسة الأسرى. وأبقى العليج صاحب قرطبة، ليقدم به على أمير المؤمنين.

١٠٠٥ فتح مالقة

١٠٠٦ فتح غرناطة قاعدة البيرة

١٠٠٧ فتح مرسية

فتح مالقة

بعث إليها طارق من إسبجة جيشا، وقود عليه قائدا، وجعل معه ودليلا من رجال يليان؛ فاستفتحها وجميع أعمال ربه. ولجأ علوجها إلى جبال ربه الشاخنة المنيع. فتح غرناطة قاعدة البيرة بعث إليها طارق الجيش من إسبجة؛ فحاصرها حتى افتتحها فتح مرسية

ثم تقدم هذا الجيش بعد فتح إغرناطة إلى تدمير، وهي مرسية، وإنما سميت تدمير باسم العليج صاحبها؛ وكان اسمها أوربولة، وهي كانت مدينتها القديمة. فقاتل العليج تدمير المسلمين قتالا شديدا؛ وكان في قوضة. ثم انهزم في فخص لا يستترهم شيء؛ فوضع المسلمين فيهم السلاح حتى أفنوه؛ ولجأ من بقى منهم إلى مدينة أوربولة. وكان تدمير بصيرا بأبواب الحرب؛ فلما رأى قلة من معه من أصحابه، أمر النساء؛ فنشرن شعورهن، وأعطاهن القصب، ووقفن على سور المدينة، ووقف معهن بقية الرجال. ثم قصد بنفسه إلى جيش المسلمين كهيئة الرسول، واستأمن؛ فأمن وانعقد له الصلح ولأهل بلده؛ فافتتحت مدينة تدمير صلحا. فلما انعقد الصلح وتم، أبرز لهم نفسه وقال: (أنا تدمير صاحب المدينة.) ثم أدخلهم البلد؛ فلم يروا فيه أحداً عنده مدفع؛ فندم المسلمون وأمضوا على ما أعطوه من الأمان؛ وكتبوا بالفتح إلى الأمير طارق؛ وأقام بتدمير رجال من أهل العسكر، وصاروا مع أهلها؛ وتقدم معظم الجيش إلى طليطلة؛ فلحق بطارق، وهو عليها.

١٠٠٨ فتح طليطلة

فتح طليطلة

وألقى طارق طليطلة خالية، ليس فيها إلا اليهود في قوم قلة، وفرّ علجها مع أصحابه، ولحق بمدينة خلف الجبل. وتبعهم طارق، بعد أن ضمّ اليهود، وخلي معهم بعض رجالة وأصحابه بطليطلة؛ فسلك إلى وادي الحجارة؛ ثم استقبل الجبل؛ فقطعه من فج يسمى به إلى اليوم؛ فبلغ مدينة خلف الجبل، تسمى مدينة المائدة.

ثم فتح مدينة المائدة؛ فوجد فيها مائدة سليمان بن داود - عليهما السلام! وكانت من زبرجدة خضراء، حافاتها وأرجلها منها؛ وأصاب بها مالا وحليا كثيرا؛ ثم انصرف إلى طليطلة. هكذا أثر الناس هذا كله، على أن طارقا صنعه. وقال آخرون: بل، أقام طارق حيث كانت الوقعة، وجاز إليه موسى. وقيل: بل، وجده بقرطبة.

وفي سنة ٩٢ من الهجرة، دخل موسى بن نصير الأندلس في رمضان، بعد دخول طارق بسنة، ومضى غازيا فيها، مفتتحة لحصونها هذه السنة وسنة أربع وبعض سنة خمس؛ فافتتح جميع حصونها، وهزم جميع من لقيه من أمرائها؛ فلم يلق كيدا من أحد، ولا انهزمت له راية، حتى انتهى إلى مدينة من مدن إفرنجة، يقال لها لوطون، وقد ملك ما سواها ودونها إلى أقصى برسلونة. فلما انتهى إلى مدينة لوطون، ضاق المسلمون، وخافوا أن يحاط بهم؛ فكلموه في ذلك؛ فقفل بهم راجعا. قال مؤلف (كتاب بهجة النفس) : ورأيت في بعض كتب العجم أن المسلمين انتهوا إلى مدينة لوطون قاعدة الإفرنج، ولم يبق لأهل الإسلام شيء لم يتغلبوا عليه مما وراء ذلك، إلا جبال قرقوشة وجبال بنبلونة وصخرة حليقية؛ فأما الصخرة، فلم يبق فيها مع ملك حليقية سوى ثلاثمائة رجل،

١٠٠٩ فتح قرمونة

تلفوا بالموت والجوع والحصار؛ فلما لم يبق منهم إلا ثلاثمائة رجل، ورأى ذلك المرتبون معهم على حصارهم، استقلوهم؛ فتركوهم؛ فلم يزلوا يزدادون حتى كانوا سبب إخراج المسلمين من حليقية، وهي قشتيلة. وأما قرقوشة، فذكر عبد الملك ابن حبيب أنها افتتحت في زمن هشام بن عبد الملك صلحا. وكان الافتتاح كما ذكرته في بقية سنة ٩٢ وبعض سنة ٩٣ من الهجرة. وكان السبب في جواز موسى بن نصير إلى الأندلس أنه أغرى بطارق عبده. وذكر له ما أفاء الله عليه؛ فكتب له موسى بأقبح السب، وأمره ألا يتجاوز قرطبة، حتى يقدم عليه. قال ابن القطان: قيل: إنما حمله على الجواز للأندلس تعدى طارق ما أمره به ألا يتعدى قرطبة، على قول، أو موضع هزيمة لذريق، على قول. وقيل أيضا: إنما حمله على ذلك الحسد لطارق على ما أصاب من الفتوح والغنائم. وقيل أيضا: إنما جاز باستدعاء طارق إياه؛ فكان جوازه في رمضان، كما تقدم. قال الرازي: وحدث الواقدي عن موسى بن علي بن رباح، عن أبيه، قال: خرج موسى بن نصير في عشرة آلاف من إفريقية، مغضبا على طارق، وتقدم يريد الأندلس؛ فدخلها ونزل الجزيرة. فقليل له: (أسلك طريق طارق!) فقال: (لا، والله، أسلك طريقه!) فقال له الأدلاء من الأعلاج: (نحن ندلك على طريق هي أشرف من طريقه، وعلى مدائن هي أعظم خطرا من مدائه، لم تفتح، يفتحها الله على يدك إن شاء الله!) فامتأ موسى سرورا؛ فساروا به إلى مدينة شذونة؛ فافتتحها عنوة؛ وهي أول فتوحاته. فتح قرمونة

ونهب موسى مع أدلائه من شذونة إلى قرمونة؛ ولم يكن بالأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن تنال بحصار أو قتال. فسأل موسى عن أمرها؛ فقليل له: (لا تؤخذ إلا باللطف والحيل!) فتقدم إليها علوجا كانوا من أصحاب يليان

١٠٠١٠ فتح إشبيلية

١٠٠١١ فتح ماردة

وغيرهم؛ فأتوهم في هيئة المنهزمين، ومعهم السلاح؛ فأدخلوهم المدينة؛ فلما علم موسى بدخولهم، بعث الخيل إليهم ليلا؛ ففتحوها لهم باب المدينة، وهو الباب المعروف بباب قرطبة؛ فوثبوا على الأحرار؛ فقتلوهم. ودخل المسلمون المدينة عنوة. فتح إشبيلية

لما فتح موسى قرمونة، تقدم إلى إشبيلية، وهي من أعظم قواعد الأندلس شأنا، وأتقنها بنيانا، وأكثرها آثارا. وكانت دار ملك روم رومة قبل غلبة القوطيين على الأندلس؛ فلما غلب القوطيون عليها، استوطنوا طليطلة، وأقروا بها ملكهم؛ وبقي بمدينة إشبيلية علماء أهل رومة وكتّابهم ورؤساؤهم. فاحتل بها موسى بن نصير، وحاصرها أشهر؛ ففتحها الله عليه، وهرب منها علوجها إلى مدينة باجة. فتح ماردة

وتقدم موسى إلى مدينة ماردة؛ وكانت دار ملك في سالف الأيام. وكانت فيها آثار عجيبة، وقنطرة، وقصور، وكنايس، تفوق وصف الناظرين؛ وهي إحدى القواعد الأربع بالأندلس التي ابتناها أكتبيان قيصر. وهي قرطبة، وإشبيلية، وماردة، وطليطلة. نخرج أهلها إلى حربه نحو الميل منها؛ فحاربهم حتى صرفهم إلى المدينة. فلما انجلت الحرب، وكفَّ عن القتال، طاف موسى بالمدينة؛ فرأى نقبا كان لمقاطع الصخر؛ فكن فيه الرجال ليلا. فلما أصبح، زحف إليهم؛ فخرجوا نكروهم في اليوم قبله؛ فخرج عليهم الكمين وزحف إليهم المسلمون؛ فركبواهم؛ فقتلوا أبرح قتل، ولجأ من بقي منهم إلى المدينة؛ فحاصروهم أشهراً، حتى عمل دبابة؛ فدب المسلمون تحتها إلى برج من أبراجها؛ فنقبوا صخرة؛ فلما نزعوها، أفضوا إلى صخرة صماء نبت المعاول عنها ويئسوا منها؛ فبينما هم يضربون عليها، إذ استثار العلوج عليهم؛ فاستشهد المسلمون تحت الدبابة. فسمى ذلك البرج

١٠١٢ فتح إشبيلية ثانية

١٠١٣ فتح لبلة

برج الشهداء، وبه يعرف إلى اليوم؛ فخميت عند ذلك نفوس العلوج، وثابت إليهم أنفسهم. ثم خرجت إليهم رسل، وتعرضت للصلح؛ فساروا إلى موسى؛ فأروا رجلا أبيض الرأس والحية؛ فكلوه بما لم يوافقهم عليه ولم يرضه؛ فرجعوا عنه، ولم يعقدوا شيئاً؛ ثم عاودوه يوماً آخر؛ فألقوه قد حمر رأسه ولحيته بالخناء؛ فعجبوا منه، وراعهم ما رأوه؛ ولم يتم لهم أمر؛ ثم عاودوا إليه في اليوم الثالث، وذلك يوم عيد الفطر؛ فألقوه قد سود رأسه ولحيته؛ فرجعوا إلى المدينة، وقالوا لمن فيها: (ويحكم! إنها تقاتلون أنبياء يتشبهون بعد المشيب! قد عاد ملكهم حدثاً بعد أن كان شيخاً!) فقالوا: (اذهبوا إليه وأعطوه ما سألكم!) فوصلوا إليه، وصالحوه، وانعقد أمرهم على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الغائبين بجليقية وأموال الكنائس، ذلك كله للمسلمين. ثم فتحوا له الباب من يومهم ذلك، وهو مستهل شوال من سنة ٩٤ من الهجرة.

فتح إشبيلية ثانية

وذلك، لما اشتغل موسى بن نصير بحصار ماردة، ثار عجم إشبيلية، وارتدوا، وقاموا على من كان فيها من المسلمين. وتجالب فلهم إليهم من مدينتي لبلة وباجة؛ فقتلوا من المسلمين نحو ثمانين رجلاً. وبلغ الخبر بذلك إلى موسى بن نصير؛ فلما استم فتح ماردة، بعض ابنه عبد العزيز بجيش إلى إشبيلية؛ فافتتحها، وقتل أهلها.

فتح لبلة

لما استم فتح إشبيلية، تقدم عبد العزيز بن موسى بجيشه إلى لبلة؛ فافتتحها، وانصرف إلى إشبيلية؛ فدخلها أيضاً.

١٠١٤ ذكر اجتماع الأمير أبي عبد الرحمن موسى بن نصير

١٠١٥ مع مولاه طارق بن زياد على طليطلة

ذكر اجتماع الأمير أبي عبد الرحمن موسى بن نصير

مع مولاه طارق بن زياد على طليطلة

اتفق الأكثرون على أن التقاءهما كان على طليطلة. وذكر الطبري أنه كان على قرطبة. وذكر الرازي أن طارقاً خرج من طليطلة لما بلغه مسيره إليه، فلقبه بمقربة من طليطلة. وكان موسى، لما فرغ من أمر ماردة، نهض يريد طليطلة؛ فخرج إليه طارق معظماً له، ومبادراً لطاعته؛ فوبخه موسى، وغضب عليه. وقيل إنه وضع السوط على رأسه؛ وقيل إنه ضربه أسواطاً كثيرة وحلق رأسه. ثم سار به إلى طليطلة، وقال له: (إيتني بما أصبت وبالمائدة!) فأثاه بها، وقد اقتلع رجلاً من أرجلها؛ فقال له: (أين الرجل؟) فقال له: (هكذا وجدتُها!) فأمر موسى؛ ففعل لها رجل من ذهب، وأدخلها في سفط.

واختلفت الروايات لم فعل موسى مع طارق ما فعل من السخط عليه؛ فقليل: إنما فعل ذلك بغيا ونفاسة عليه؛ واستدلوا على ذلك بادعائه خصال طارق وأخذ المائدة عند الخليفة. ومنهم من عذره وقال: إنما فعل ذلك به لتقدمه دون رأيه، وهو مولاه، وعلى توغله بالمسلمين، وتغريه بهم. واتصل بهذا في كتاب الرازي أن الوليد بعث إلى موسى رسولا؛ فأخذ بعنان دابته، وأخرجه من الأ، دلس، ومعه طارق ومغيث. وخلف ابنه على الأندلس، وأبقى معه وزيرا حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع. ولما التقى موسى بطارق، وجرى له معه ما جرى، تقدم من طليطلة إلى سرقسطة؛ فافتتحها، وافتتح ما حولها من الحصون والمعقل. وذكروا أن موسى خرج من طليطلة غازيا، بفتح المدائن، حتى دانت له الأندلس. وجاءه أهل حليقية يطلبون الصلح؛ فصالحهم. وفتح بلاد البشكنش، وأوغل في بلادهم حتى أتى قوما كالبهائم. وغزا بلاد الإفرنج. ثم مال حتى انتهى إلى سرقسطة؛

١٠١٦ ذكر ما أفاء الله على فاتحي الأندلس

فأصاب فيها ما لا يعرف قدره. وبين سرقسطة وقرطبة مسيرة نحو شهر. وافتتح هنالك حصونا كثيرة. وكانت أساقفة الروم تجد صفة موسى في كتبهم؛ فإذا رأوه، قالوا: (هو، والله!) فأعطوه المعقل. ولم يهزم له جمع قط. وقال يوسف بن هشام: انتهى موسى إلى صنم؛ فوجد في صدره مكتوبا: (يا بني إسماعيل! فإلى هنا منتهاكم! وإن سألتكم إلى ماذا ترجعون، أخبرناكم: ترجعون إلى اختلاف ذات بينكم، حتى يضرب بعضكم رقاب بعض، وقد فعلتم.) قال الليث: ولقد جاء رجل إلى موسى بن نصير؛ فقال له: (ابعث معي أدلك على كنز!) فبعث معه رجلا؛ فوقف بهم على موضع؛ فقال: (اكشفوا عن هذا!) فكشفوا؛ فإذا حوض مترع من الياقوت والجوهر والزبرجد ما لم تر عين مثله قط؛ فلما رأوا ذلك، بهتوا وأرسلوا إلى موسى ليحضر. ذكر ما أفاء الله على فاتحي الأندلس

من ذلك مائدة سليمان - عليه السلام! - قيل إنها كانت من ذهب وفضة خليطين، مطوّقة بثلاثة أطواق: طوق لؤلؤ، وطوق ياقوت، وطوق زبرجد، وإنها حملت على بغل عظيم لا بغل أقوى منه؛ فبلغ بها مرحلة حتى تفتحت قوائمه؛ ومنها ياقوته ذي القرنين وجدها بماردة؛ ومنها البيتان اللتان فتح في طليطلة، وجد في إحداهما أربعة وعشرون تاجا عدد ملوكهم، لا يدري ما قيمة تاج منها، وعلى كل تاج اسم صاحبه ومبلغ سنه؛ وفيه وجدت المائدة؛ وكان السبب في حصولها بطليطلة أن ملك الروم، لما زحف إلى بيت المقدس ليقاثل بني إسرائيل، أخذ بلادهم وسبي ما فيها، ووجد فيها مكارم الأنبياء - عليهم

السلام! - منها عصا آدم، والتابوت الذي فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، وعصا موسى ونعلاه، ومائدة سليمان، وهي من ذهب، قد كلل أعلاها وأسفلها بالدر والياقوت. فحمل جميع ذلك إلى رومة. فلما مرّ ملك الروم بمصر، رغب إليه أهلها أن يجعلها عندهم يتبركون بها، وقالوا له: (رومة تبعد عنا!) وكانوا قد أمدوه، وقتلوا معه بني إسرائيل؛ فطلبوا منه شيئا من تلك المكارم؛ فدفعت لهم المائدة؛ فحملتها الأساقفة إلى الإسكندرية. فلما غزا عمرو بن العاصي بمصر، هربوا بها إلى مدينة إطرابلس. فلما نزل عمرو بن العاصي برقة، هربوا بها إلى مدينة قرطاجنة. فلما دخل المسلمون طنجة، هربوا بها إلى مدينة طليطلة، ولم يكن لهم أمتع منها؛ ولا وجدوا حيث يهربون بها بعدها.

قال أبو شبة الصديقي: لقد نظرت إلى رجلين يحملان طنفسة منسوجة بالذهب والفضة واللؤلؤ؛ فلما ثقلت عليهما، أنزلاها؛ ثم حملا عليها الفأس؛ فقطعاها بنصفين؛ فأخذا نصفًا، وتركَا نصفًا. فلقد رأيت الناس يمرون على نصفها؛ فلا يلتفتون إليه اشتغالا بما في أيديهم مما هو أرفع منها.

وحدث عبد الحميد عن أبيه، قال: قدمت الأندلس امرأة عطارة؛ فخرجت منها خمسمائة رأس من السبي؛ فأما ما خرجت به من الذهب والفضة والجوهر والآنية، فذلك ما لا يحاط بعلمه. قال: وقدم علينا شيخ من المدينة، جيد التجربة واللسان؛ فجعل يحدثنا عن الأندلس؛ فقلت له: (كيف علمت هذا؟) قال: (لأني، والله! كنت ممن اشترى بها بحبات فلل أقل من القبضة ما يساوي عددا). وأقام موسى بالأندلس سنتين وشهرا؛ ثم رجع إلى إفريقية، وتحتته بغل أشهب يسمى الكوكب. ولما انصرف عن قرطبة متوجها نحو

إفريقية، حول وجهه إلى قرطبة؛ فقال: (واها لك! يا قرطبة! ما أطيب تربتك، وأشرف بقعتك، وأعجب أمرك! ولعنك الله بعد الثلاثمائة سنة!) ثم مضى حتى وصل الخضراء، وأمر بالعجل؛ فحملت الذهب والفضة والجوهر والمتاع وأصناف متاع

١٠٠١٧ أخبار الأمير أبي عبد الرحمن موسى بن نصير

١٠٠١٨ رحمه الله تعالى

الأندلس. وكان دخول موسى الأندلس سنة ٩٢، وهو ابن ستين سنة، وأقام واليا بإفريقية ست عشرة سنة، وقفل منها سنة ٩٥. أخبار الأمير أبي عبد الرحمن موسى بن نصير رحمه الله تعالى

لما دخل موسى إفريقية، وجدها قد حطت قحطا شديداً؛ فأمر الناس بالصيام والخروج إلى المصلّى، الرجال على حدة، والنساء على حدة، والصبيان على حدة، وكذلك جميع البهائم مع أصنافها. فاجتمعوا في موضع واحد، ودعا الله تعالى، ودعا الناس معه، وبكى، وبكوا، وبكى الصبيان والنساء، وصاحت البقر والعجل والغنم والخرفان وأهل الذمة. فأقاموا كذلك حتى انتصف النهار. ثم خطب الناس؛ فلم يلبث أن سقوا سقا شافيا.

وخرج موسى من إفريقية، واستخلف عليها عبد الله ابنه. وحمل موسى معه من إفريقية من وجوه البربر مائة رجل وعشرين ملكا من ملوك الروم؛ فخرجوا معه بأصناف ما كان في كل بلد من طرائفها وزهوها وفضتها وجوهرها وياقوتها، ما لا يحصى ولا سمع بمثله، حتى انتهى إلى مصر؛ فلم يبق بها شريف، ولا فقيه، ولا عظيم، إلا ودفع إلى سليمان بن عبد الملك عشرة آلاف دينار. ثم خرج من مصر؛ فتوجه إلى فلسطين؛ فتلقيه آل روح بن زنباع الجذامي؛ فنزل بهم؛ فتحروا خمسين جملا. ثم خرج من عندهم، وترك بعض أصحابه وصغار ولده عندهم، وأفرغ على آل روح بن زنباع كثيرا من الكسي والوصائف والوصفات، وغير ذلك من الأموال. وكان موسى، قبل خروجه من المغرب، قدم عليه ولده مروان من السوس الأقصى، وهو يجر الدنيا جرا. ولما وصل رسوله إلى أبيه، يعلمه به وبما يأتي به من السي، خرج إليه في وجوه الناس يتلقاه؛ فلما التقيا، قال مروان بن موسى: (مروا لكل من يلقيني مع أبي بوصيفة وصيفة!) فلما أمر بذلك، سمع موسى

صياح الناس وضجيجهم، ورأى حركاتهم؛ فقال: (ما هذا؟) فقالوا: (ابنك مروان أمر للناس بوصيفة وصيفة!) فقال لهم: (مروا لهم انتم بوصيف وصيف!) فانصرفوا الناس كلهم، ومع كل واحد منهم وصيف ووصيفة.

وكان الوليد بن عبد الملك مرض مرضه الذي مات منه. وكتب إلى موسى يأمره بشد السير إليه ليدركه قبل الموت. وكتب إليه سليمان أن يبطئ في سيره. فعمل موسى بكآب الوليد، ولم يعمل بكآب سليمان، وجدّ في سيره. فغضب عليه سليمان، وقال: (والله! لئن ظفرت به، لأصلبته!) وكان سبب أمر الوليد لموسى بالعجلة ليحرم سليمان ما جاء به؛ وكان أمر سليمان له بترك الاستعجال ليحرم الوليد وولده ما جاء به. فقدم موسى قبل موت الوليد وأتاه بالطرائف من الدر والياقوت والزبرجد، والوصفاء والوصائف، ومائدة سليمان، والتيجان المكحلة لدر والياقوت. فاستغرب الوليد ذلك، وأمر بمائدة سليمان؛ فكسرت، وعمد إلى أرفع ما كان فيها من الجوهر وكل ما كان في التيجان وغيرها؛ فجعله في بيت المال. ثم لم يلبث أن مات وأفضت الخلافة إلى سليمان أخيه؛ فبعث في موسى؛ فعنفه بلسانه، وقال: (والله لأفلن غربك! ولأفرقن جمعك! ولأصغرن من قدرك!) فقال موسى: (أما قولك تغل من غربي وتخفض من قدري، فإن ذلك بيد الله، وإلى الله لا إليك! وبه أستعين عليك!) فأمر به سليمان؛ فوقف في يوم صائف شديد الحر؛ وكان موسى رجلا ضخما، بادنا، ذا نسمة؛ فوقف حتى سقط مغشيا عليه؛ فنظر سليمان إلى عمر ابن عبد العزيز - رضي الله عنه -؛ فقال له: (يا أبا حفص! ما أراني إلا وقد بررت في يميني وخرجت عنه!) فقال عمر: (أجل! يا أمير المؤمنين!) فقال سليمان: (من يضمه إليه؟) فقام يزيد بن المهلب؛ فقال (أنا يا أمير المؤمنين أضمه إلي!) قال: (فضمه إليك ولا تضيق عليه!) فانصرف يزيد، وقدم

إليه دابة؛ فركبها موسى، وأقام عنده أياماً حتى حسن ما بينه وبين سليمان وافتنى منه موسى بمال كثير، قيل: ألف ألف دينار، وقيل غير ذلك. ثم إن يزيد بن المهلب سهر ليلة عند موسى؛ فقال له: (يا أبا عبد الرحمن! في كم كنت تعتد من مواليك وأهل بيتك؟) فقال له موسى: (في كثير!) فقال يزيد: (يكونون ألفاً؟) فقال له موسى: (ألف وألف وألف إلى منقطع النفس!) فقال له يزيد: (كنت على ما وصفت، وألقيت بيدك إلى التهلكة! أفلا أقت في قرار عزك وموضع سلطانك، وامتنعت بما قدمت به؟ فإن أعطيت الرضى، وإلا كنت على عزك وسلطانك!) فقال له: (والله! لو أردت ذلك، لما نالوا من أطرافي طرفاً! ولكني آثرت الله ورسوله! ولم أر الخروج عن الطاعة والجماعة!) وذكر أن سليمان قال لموسى: (ما الذي كنت تفزع إليه عند حروبك ومباشرة عدوك؟) قال: (كنت أفزع إلى التضرع والدعاء والصبر عند اللقاء!) قال: (فأي الخيل رأيته في تلك البلاد أسبق؟) قال: (الشقرا!) قال: (فأي الأمم كانوا أشد قتالاً؟) قال: (هم أكثر من أن أصفهم!) قال: (أخبرني عن الروم!) قال: (أسد في حصونهم، عقبان على خيولهم، نساء في مواكبهم، إن رأوا فرصة انتزوها، وإن رأوا غلبة، فأوعال تذهب في الجبال، لا يرون الهزيمة عاراً.) قال: (فأخبرني عن البربر!) قال: (هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبرا وفروسية، غير أنهم أغدر الناس، لا وفاء لهم ولا عهد!) قال: (فأخبرني عن الأندلس!) قال: (ملوك مترفون، وفرسان لا يخيبون.) قال: (فأخبرني عن الإفرنج!) قال: (هناك العدد والعدة، والجلد والشدة، والبأس والنجدة!) قال: (فأخبرني كيف كانت الحرب بينك وبينهم: أكانت لك أو عليك؟) فقال: (أما هذا، فوالله! ما هزمت لي راية قط، ولا بدد جمعي، ولا نكب المسلمون معي، منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين!) فضحك سليمان، وعجب من قوله. ثم دعا سليمان بطست

من ذهب؛ فجعل يردد بصره فيه؛ فقال له موسى: (إنك لتعجب من غير عجب! والله! ما أحسب أن فيه عشرة آلاف دينار والله! لقد بعثت إلى أخيك الوليد بشنور من زبرجد أخضر، كان يصب فيه اللبن، فيخضر وترى فيه الشعرة البيضاء، ولقد قوم بمائة ألف مثقال، وإنه لمن أدنى ما بعثت به إليه! ولقد أصبت كذا وأصبت كذا!) وجعل يعدد ما أصاب من الدر والياقوت والزبرجد، حتى بهت سليمان من قوله.

وخرج سليمان يوماً يتصيد، ومعه موسى بن نصير؛ فمر في منية له بذود غنم يكون فيها نحو ألف شاة؛ فالتقت إلى موسى، وقال له: (هل كان لك مثل هذا؟) فضحك موسى وقال: (والله! لقد رأيت لأدنى موالي أضعاف هذا! فقال سليمان: (لأدنى مواليك؟) فقال: (نعم والله! نعم والله!) ورددتها مراراً؛ ثم قال: (وما هذا فيما أفاء الله علي! لقد كانت الألف شاة تباع بعشرة دراهم، كل مائة بدرهم! ولقد كان الناس يرمون بالبقر والغنم؛ فلا يلتفتون إليها! ولقد رأيت الذود من الإبل بدينار! ولقد رأيت العليج الفاره وامراته وأولاده يباعون بخمسين درهماً!) قال: فعجب سليمان.

ثم حجَّ سليمان، وخرج موسى معه؛ وكان موسى من أعلم الناس بالنجوم. فلما احتل بالمدينة، قال لبعض إخوانه: (ليمتن بعد غد رجل قد ملاً ذكره المشرق والمغرب!) فظنَّ الرجل أنه الخليفة؛ فمات موسى في اليوم الثاني. وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك. وكان مولد موسى سنة ١٩، في خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قيل إنه من لحم؛ وقيل: من بكر بن وائل.

وقال ابن بشكوال في (كتاب الصلة) له: إنه موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد. وقال غيره: كان نصير ولده معاوية بن أبي سفيان على خيله؛ فلم يقاتل معه علياً؛ فقال له: (ما منعك من الخروج معي على علي؟ وبدى عليك، ولم تكافني عليها؟) فقال: (لم يمكنني أن أشرك بكفر من هو

١٠٠١٩ ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير

أولى بشكري! فقال: (ومن هو؟) فقال: (الله - عز وجل!) قال: فأطرق معاوية ملياً؛ ثم قال: (أستغفر الله!) وعفا عنه. وقال الليث بن سعد: لما قدم موسى بن نصير إفريقية حين الفتح، أخرج ابنا له يسمى عبد الله إلى بعض نواحيها؛ فأثاه بمائة ألف رأس

من السبي، أكثرهن وجوه كالبذور؛ ثم وجه ابنه له يسمى مروان إلى ناحية أخرى؛ فأتاه كذلك؛ ثم خرج هو بنفسه؛ فأتى بنحو ذلك. قال الليث: فبلغ الخمس ستين ألفاً. قال: فلم يسمع بمثل سبایا موسى في الإسلام. وفي سنة ٩٥، كان خروج موسى من الأندلس إلى الشام، واستخلف ابنه عبد العزيز عليها. ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير

واستخلف موسى على الأندلس ابنه عبد العزيز، وترك معه حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع وزيراً له، ومعيناً. وأقام معهما بالأندلس من أراد سكناها. فلما وصل موسى إلى إشبيلية، أقر فيها ولده؛ فارتضاها قاعدة ملكه؛ وتزوج بعد خروج أبيه أم عاصم امرأة رذريق (واسمها أيلة) وسكن معها بإشبيلية. فلما دخل بها، قالت له: (إن الملوك، إذا لم يتوجوا، فلا ملك لهم! فلو عملت لك مما بقى عندي من الجوهر والذهب تاجاً؟ فقال لها: (ليس ذلك في ديننا). فقالت له: (ومن أين يعرف أهل دينك ما أنت فيه في خلوتك؟) فلم تزل به حتى فعل. فبينما هو ذات يوم جالس معها، والتاج على رأسه، إذ دخلت عليه امرأة كان قد تزوجها زياد بن نابغة التميمي، من بنات ملوكهم؛ فعائنته، والتاج على رأسه. فقالت لزياد (ألا أعمل لك تاجاً؟) فقال لها: (ليس في ديننا استحلال لباسه!) فقالت له: (ودين المسيح!)

إنه على رأس ملككم وإمامكم!) فأعلم بذلك زياد حبيب بن أبي عبدة ثم تحدثا بذلك حتى علمه خيار الجند؛ فلم يكن له هم إلا كشف ذلك، حتى رأوه عياناً. فقالوا (قد تنصروا!) ثم هجموا عليه، فقتلوه. وأكثر الناس على أن هذه الحكاية لا تصح، وإنما قتلوه بأمر سليمان لهم بذلك إذ نكب والده.

وقال الواقدي: إن التي نكح بعد خروج أبيه هي ابنة رذريق؛ فجاءته من الدنيا بما لا يوصف. فلما دخلت عليه، قالت له: (ما لي لا أرى أهل مملكتك يعظمونك، ولا يسجدون لك، كما كان أهل مملكة أبي يفعلون له؟) فأمر بباب، فنقب في ناحية قصره، وجعله قصيراً؛ فكان يأذن للناس منه؛ فيدخل الداخل منكساً رأسه قبالة لقصر الباب؛ وقد جعل لها مجلساً، تنظر منه إلى الناس إذا دخلوا عليه من حيث لا يرونها. فلما رأتهم على ذلك، ظنت أنهم يسجدون له. فقالت لعبد العزيز: (الآن قوي ملكك) وبلغ الناس ما أراد بذلك الباب؛ فثار به حبيب بن أبي عبدة الفهري، وزياد بن عذرة البلوي، وزياد بن نابغة التميمي، ومن معهم من الناس، فقتلوه. وقيل أيضاً: إنما قتلوه لأنه خلع طاعة سليمان بن عبد الملك، إذ بلغه قتل أخيه وما صنع بأبيه.

قال الرازي: لما قتل موسى بن نصير، استخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس؛ فضبط سلطانه، وسد ثغورها، وافتتح مدائن كثيرة. وكان من خير الولاية، إلا أن مدته لم تطل، لو ثوب الجند عليه وقتلهم له، لأشياء نعموها عليه. وكان قتله صدر رجب من سنة ٩٧، بمدينة إشبيلية، بمسجد رفينة. ولما دخل المحراب، قرأ فاتحة الكتاب؛ ثم قرأ سورة الواقعة؛ فعلاه من خلفه زياد بن عذرة البلوي بالسيف، وهو يقول: (قد حقت عليك يا ابن الفاعلة؟) فكانت ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر.

وذكر أيضاً أن سليمان بعث إلى الجند يأمرهم بقتله، عند سخطه على أبيه، وأنهم، لما قتلوه، حزوا رأسه. وقدم به على سليمان حبيب بن أبي عبدة الفهري.

١٠٠٢٠ ذكر ولاية أيوب بن حبيب الأندلس

١٠٠٢١ ولاية الحر بن عبد الرحمن الثقفي

فقيل إنه عرض الرأس على والده، وهو في محبسه؛ فتجلد لحر المصيبة، وقال: (هنيئاً له الشهادة؟ فتلثم، والله؟ صواماً قواماً؟) قال الرازي: فكانوا يعدون فعل سليمان هذا بموسى وابنه من كبار زلاته التي لم تزل تنقم عليه. ومكث أهل الأندلس شهراً لا يجتمعهم وال، حتى اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمي، ابن أخت موسى بن نصير.

ذكر ولاية أيوب بن حبيب الأندلس
ثم اجتمع أهل الأندلس على تقديم أيوب هذا، يومهم لصلاتهم؛ وكان رجالاً صالحاً. وأقاموا مدة دون أمير، ونقلوا دار السلطان إلى

قرطبة. فتقدم أيوب ابن حبيب، واحتل بقصر قرطبة؛ وكان مغيث قد اختطه لنفسه. فذكر أن موسى ابن نصير، حين ألقاه رسول الوليد، رجع في قفوله على طريق طارق ليختبر الأندلس؛ فنزل قرطبة وقال لمغيث: (إن هذا القصر لا يصلح لك. وإنما يصلح للعامل الذي يكون بقرطبة.) فتنحى عنه يومئذ. ونزله بعد ذلك أيوب ابن حبيب. فكانت ولايته ستة أشهر. ولاية الحر بن عبد الرحمن الثقفي

لما ولي سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد، مولى ابنة الحكم بن العاصي، إفريقية، كانت الأندلس وطنجة إلى صاحب إفريقية. فوجه محمد بن يزيد الحر ابن عبد الرحمن هذا عاملاً على الأندلس، في أربعمئة رجل من وجوه إفريقية. فبقى الحر واليا. عليها ثلاث سنين؛ فنقل الحر هذا الإمارة من إشبيلية إلى قرطبة. وكان قدوم الحر الأندلس سنة ٩٩ من الهجرة.

١٠٠٢٢ ولاية السمع بن مالك الخولاني

١٠٠٢٣ ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الأندلس

ولاية السمع بن مالك الخولاني

ثم ولي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - السمع بن مالك على الأندلس، وأمره أن يحمل الناس على طريق الحق، ولا يعدل بهم عن منهج الرفيق، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها. وكان رأيُه نقل المسلمين منها وإخراجهم عنها، لانقطاعهم عن المسلمين واتصالهم بأعداء الله الكفار؛ فقليل له: (إنَّ الناس قد كثروا بها، وانتشروا في أقطارها؛ فأضرب عن ذلك) فقدم السمع الأندلس، وامتل ما أمره به عمر - رضي الله عنه - من القيام بالحق، وإتباع العدل والصدق؛ فأنفرد السمع بولايتها؛ وعزلها عمر عن ولاية إفريقية، اعتناء بأهلها، وتهمما بشأنها.

وكان المسلمون، إذ فتحوا قرطبة، وجدوا بها آثار قطرة فوق نهرها، على حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأمم الدائرة، قد هدمها مدود النهر على مر الأزمان. فتقدم إلى فضيلة النظر فيها عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - عندما اتصل به خبرها؛ فأمر السمع بابتنائها؛ فصنعت على أثم وأعظم مما بنى عليه جسر من حجارة سور المدينة.

وفي سنة ١٠١، ورد كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز على السمع بن مالك بالأندلس، يأمره ببناء القنطرة بصخر السور، وبناء السور باللبن، ويأمره بإخراج خمس. قرطبة. نفرج من الخمس البطحاء المعروفة بالربض. فأمر الخليفة عمر أن يتخذ بها مقبرة للمسلمين؛ فتم ذلك.

وقتل السمع - رحمه الله - بطرسونة، وذلك أنه غزا الروم في سنة ١٠٢؛ فاستشهد - رحمه الله - يوم عرفة؛ فكانت ولايته سنتين وأربعة أشهر. وقيل: ثمانية أشهر؛ وقيل: ثلاث سنين.

ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الأندلس

ثم ثدَّم أهل الأندلس على أنفسهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي هذا؛ فدخلها في شهر ذي الحجة سنة ١٠٢.

١٠٠٢٤ ولاية عنبة بن سحيم الكلبي

١٠٠٢٥ ولاية يحيى بن سلمة الكلبي

١٠٠٢٦ ولاية حذيفة بن الأحوص

ولاية عنبة بن سحيم الكلبي

ثم وليّ يزيد بن أبي مسلم عامل إفريقية على الأندلس عنبة بن سحيم هذا؛ فدخلها في شهر صفر. فلما قُتل يزيد بن أبي مسلم، كان على إفريقية محمد بن يزيد، مولى الأنصار، على ما ذكره الطبري، بتقديم أهل إفريقية، وإقرار يزيد بن عبد الملك إياه.

وفي سنة ١٠٣، كان العامل على إفريقية من قبل يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان، أخو حنظلة؛ فأقر عنبة على الأندلس؛ فكانت ولاية عنبة كلها أربع سنين وثمانية أشهر؛ وقيل غير ذلك.

وفي سنة ١٠٥، خرج عنبة غازيا للروم بالأندلس، وأهلها يومئذ خيار، فضلاء، أهل نية في الجهاد وحسبة في الثواب؛ فالح على الروم في القتال والحصار، حتى صالحوه. وتوفي عنبة في شعبان سنة ١٠٧؛ فكانت ولايته كما ذكرنا.

ولاية يحيى بن سلمة الكلبي

وذلك أنه، لما توفي عنبة، قدم أهل الأندلس على أنفسهم رجلا من العرب، يقال له عذرة، إلى أن ورد بعد شهرين يحيى بن سلمة الكلبي واليا من عند أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، في آخر سنة ١٠٩؛ فكانت ولايته سنتين وستة أشهر.

ومات بشر بن صفوان بإفريقية؛ فولى هشام بن عبد الملك مكانه عبيدة ابن أبي الأعور السلمي.

ولاية حذيفة بن الأحوص

ثم ولي الأندلس حذيفة بن الأحوص الأشجعي؛ وقيل: القيسي؛ ولاه عليها عبيدة بن عبد الرحمن السلمي عامل إفريقية من قبل هشام بن عبد الملك، في سنة ١١٠؛ فكانت ولايته ستة أشهر.

١٠٠٢٧ ولاية عثمان بن أبي نسعة

١٠٠٢٨ ولاية الهيثم بن عبيد الكثاني

١٠٠٢٩ ولاية محمد بن عبد الله الأشجعي

١٠٠٣٠ ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ثانية

١٠٠٣١ ولاية عبد الملك بن قطن

ولاية عثمان بن أبي نسعة

ثم ولي عبيدة بن عبد الرحمن بن أبي الأعور السلمي على الأندلس عثمان ابن أبي نسعة الخثعمي؛ فقدمها في شعبان سنة ١١٠، وكانت ولايته خمسة أشهر؛ وقيل: ستة أشهر؛ ثم عزل وانصرف إلى القيروان؛ فمات بها.

ولاية الهيثم بن عبيد الكثاني

ثم ولي الأندلس الهيثم بن عبيد الكثاني، في صدر سنة ١١١؛ وكانت ولايته عشرة أشهر؛ وقيل غير ذلك؛ وهو الذي غزا منوسة. وأقام واليا عشرة أشهر، كما ذكرنا؛ وقيل: سنة وشهرين؛ ثم توفي.

ولاية محمد بن عبد الله الأشجعي

ثم قدم أهل الأندلس على أنفسهم محمد بن عبد الله الأشجعي؛ فكانت ولايته شهرين؛ وقيل غير ذلك.

ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ثانية

ثم ولي الأندلس عبد الرحمن هذا ثانية؛ فكان دخوله إليها في صفر سنة ١١٢؛ فأقام واليا سنتين وسبعة أشهر؛ وقيل: وثمانية أشهر. واستشهد في أرض العدو في رمضان سنة ١١٤.

ولاية عبد الملك بن قطن

ثم ولي عبد الملك بن قطن بن نفيل بن عبد الله الفهري؛ فدخلها في شهر رمضان المذكور الذي توفي فيه عبد الرحمن الغافقي. فألفاه قد استشهد. وقيل: دخلها في شوال من سنة ١١٤. وكانت ولايته سنتين؛ وقيل غير ذلك.

١٠٣٢ ولاية عقبة بن الحجاج السلوي

ولاية عقبة بن الحجاج السلوي

ثم ولي عقبة بن الحجاج السلوي في شوال سنة ١١٦. وقالوا: في ولايته كان عبيد الله بن الحجاب عامل مصر وإفريقية؛ فقدم عليه عقبة بن الحجاج، وكان مولاه؛ فأكرمته، وبرّه، ورفع شأنه وقدره، وأنزله في مكانه، وخبره في ولاية ما شاء من سلطانه. وكان الحجاج أبو عقبة قد أعنت الحجاب أبا عبيد الله؛ فولى هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحجاب مصر وإفريقية والأندلس؛ فكان له من العرش إلى طنجة إلى السوس الأقصى إلى الأندلس وما بين ذلك؛ وكان أحد بنيهم بمصر، والثاني بالسوس وطنجة، والثالث بالأندلس؛ وكان عبيد الله بإفريقية. فلما شرف عبيد الله، وعلت منزلته، وانتشر ذكره، وفد عليه مولاه عقبة؛ فأجلسه معه على فراشه، وأدناه من نفسه، وقربه، حتى عظمت منزلته في الناس؛ فكان يقصده الطالبون وذوو الحاجات، يتوسلون به إلى عبيد الله. فغص به بنو عبيد الله، وقالوا لوالدهم: (اصرفه عنا لئلا يكسر شرفنا!) فما زاده ذلك عنده إلا تعظيما وتكريما، وخبره في ولاية ما شاء من سلطانه؛ فاختر الأندلس؛ فولاه عليها. وكان يجاهد المشركين في كل عام، ويفتح المدائن. وهو الذي فتح مدينة أربونة، وافتتح جليقية وبنبلونة، وأسكنها المسلمين. وعمت فتوحاته جليقية كلها غير الصخرة؛ فإنه لجأ إليها ملك جليقية، وكان بها في ثلاثمائة راجل. فما زال المسلمون يضيقون عليهم، حتى صاروا ثلاثين رجلا، وحتى فنت أزودتهم، ولم يتقوتوا إلا بعسل يجدونه في خروق الصخرة. وأعجب المسلمين أمرهم؛ فتركوهم. وأقام عقبة بالأندلس بأحسن سيرة وأجملها، وأعظم طريقة وأعدلها، إلى أن غزا أرض إفرنجة؛ فلقيته جيوش الأعداء؛ فقتل هو ومن معه ببلاط الشهداء. وذكر عنه أنه كان صاحب بأس ونجدة، ونكاية للعدو وشدة. وكان إذا أسر الأسير، لم يقتله حتى يعرض عليه دين الإسلام، ويفتح له عبادة الأصنام. فيذكر أنه أسلم على يديه بهذا الفعل ألف رجل. وكانت ولايته خمسة أعوام وشهرين.

١٠٣٣ ولاية عبد الملك بن قطن الفهري ثانية

وقيل إن أهل الأندلس شاروا على عقبة بن الحجاج وخدموه. قال ابن القطان: وقيل إن عقبة بن الحجاج، لما حانت وفاته، استخلف عبد الملك بن قطن. قال: وأقام عقبة على الأندلس واليا إلى سنة ١٢١. ولاية عبد الملك بن قطن الفهري ثانية

وفي سنة ١٢٢، ولي عبد الملك بن قطن ثانية، حتى كان من أمر البربر وبلج بن بشر، ابن أخي كلثوم بن عياض عامل إفريقية، ما أذكره. قال ابن القطان: وذلك أن هشام بن عبد الملك كان قد ندب كلثوما لقتال البربر، وولاه إفريقية، وبعث معه ثلاثين ألف فارس: عشرة آلاف من صلب بني أمية؛ وعشرين ألفا من العرب؛ وعهد إليه في سد إفريقية وضبطها، إذ كانوا يجردون في الروايات أن ملكهم يزول، وأن ملك بني العباس لا يجاوز الزاب. فتوحمته بنو أمية زاب مصر، وإنما كان زاب إفريقية. فأمره بالجد في أمر إفريقية، ليلجؤوا إليها إذا ذهب ملكهم؛ وعهد، إن حدث بكلثوم حدث، أن يكون ابن أخيه يلج مكانه؛ فدارت بينه وبين البربر حروب عظيمة، هزموا في بعضها كلثوما وقتلوه. وصار أمر العرب بإفريقية إلى بلج بالعهد المذكور.

ولجأ فلهم إلى سبتة، حتى ضاق عليهم الأمر ضيقا عظيما؛ فكتب بلج وأصحابه عبد الملك بن قطن صاحب الأندلس، وسأله إدخاله وإدخال من معه من الجند. وذكروا له ما صروا إليه من الجهد، وأنهم قد أكلوا دوابهم. فأبى عبد الملك من إدخالهم، ولم يأمنهم، ومطلهم بالميرة والسعن. واتفق أن تناولت البربر أيضا بالأندلس، وفاضخوا العرب، وظهروا على الساكنين منهم بجليقية وغيرها؛ فقتلوه، وطردهم. فلما ورد فل العرب على عبد الملك بن قطن، ورأى عادية البربر، اضطر لأجل ذلك إلى إدخال بلج وأصحابه؛

فكاتبتهم، وشرط عليهم مقام سنة بالأندلس، ثم يخرجون عنها؛ فرضوا بذلك. فأخذ منهم رهائن أنزلهم بجزيرة أم حكيم، وهي على الخضراء. ثم أدخل بلجا وأصحابه عراة،

١٠٠٣٤ ذكر ولاية بلج بن يسر القشيري الأندلس

لا يواريتهم إلا دوابهم، وقد بلغ بهم الجهد غايته. وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام. فلما دخلوا، كساهم عرب الأندلس على قدر أقدارهم؛ قرب رجل يكسو مائة رجل، وآخر عشرة، وآخر واحداً، إلى ما بين ذلك. فلما حلوا بالخضراء، اجتمع بهم عبد الملك بن قطن؛ وكان بشذونة جمع من البربر، عليهم رجل زناتي؛ فبدأ عبد الملك يقاتلهم في وادي الفتح من شذونة، فلم يكن العرب فيهم إلا نهضة، حتى أبادوهم، وأصابوا أمتعتهم ودوابهم. فاكتمى أصحاب بلج، وانتعشوا، وأصابوا الغنائم. ثم نهضوا مع عبد الملك إلى قرطبة؛ ثم ساروا بأجمعهم إلى جهة طليطلة، وقد اجتمع هنالك معظم البربر؛ فكانت هزيمتهم العظمى هنالك بوادي سليط من حوز طليطلة، بعد أن زحف عبد الملك وبلج إليهم بعرب الأندلس، حاشا عرب سرقسطة وثغورها. وزحف البربر بأجمعهم، فهزمهم العرب، وقتلوا منهم في الهزيمة آلاف.

ذكر ولاية بلج بن يسر القشيري الأندلس

قال من له عناية بالأخبار: دخل بلج الأندلس سنة ١٢٣ في ذي القعدة منها، وملكها بعد ذلك؛ وذلك أنه، لما أباد ابن قطن البربر بالأندلس، بمن كان معه من العرب، وبأصحاب بلج، قال لبلج وأصحابه: (اخرجوا من الأندلس على ما شورطتم عليه!) فقال بلج: (احملنا إلى ساحل البيرة أو ساحل تدمير!) فقال لهم عبد الملك: (ليست لنا مراكب إلا بالجزيرة!) فقالوا له: (إنما تريد أن تردنا إلى البربر ليقتلونا في بلادهم!) فلما أُلجَّ عليهم في الخروج، نهضوا إليه؛ فأخرجوه من قصر قرطبة إلى داره بالمدينة. ودخل بلج القصر عشية يوم الأربعاء في صدر ذي قعدة من السنة. وكان بلج، وقت جوازه عن سبتة، قد أعطى رهائن لابن قطن، جعلهم ابن قطن بجزيرة أم حكيم؛ فضاخوا مدة الفتنة بين بلج وابن قطن، والجزيرة المذكورة دون ماء؛ فمات رجل من غسان عطشا، وكان من الرهائن، من أشرف دمشق.

١٠٠٣٥ مقتل عبد الملك بن قطن الفهري

١٠٠٣٦ ولاية ثعلبة بن سلامة العاملي الأندلس

مقتل عبد الملك بن قطن الفهري

لما ملك بلج الأندلس، واستولى عليها، طلب منه الجند أن يعطيهم ابن قطن في الغساني المذكور؛ فتوفق بلج؛ فأُلحَّ الجند، وثارَت اليمن كلها على كلمة واحدة. وكان ابن قطن شيخا هرماء، قد بلغ التسعين؛ وكان قد حضر يوم الحرّة، ومنها فرَّ إلى إفريقية؛ وكان يومئذ بداره بقرطبة؛ فأخرجه الجند منها، كأنه فرخ نعامة من الكبر، وهم ينادونه: (أفلت من سيوفنا يوم الحرّة؛ فطلبنا بثأرنا في أكل الدواب والجلود!) ثم أردت إخراجنا إلى القتل!) ثم قتلوه، وصلبوه، وصلبوا خنزيرا عن يمينه، وكلبا عن شماله.

ثم إن أمية وقطنا ابني عبد الملك بن قطن حشدا في جهة سرقسطة. وكانا قد هربا من قرطبة وقت إخراج أبيهما منها، وجاءا إلى بلج طالبين يثأرهما، وهما في نيف على مائة ألف من العرب القدماء والحدث؛ فخرج إليهما بلج، وهو في أقل من خمس عددهما؛ فاقتلوا قتالا شديدا. ثم انهزم ابنا عبد الملك ومن معهم هزيمة عظيمة؛ وانصرف أصحاب بلج ظافرين، وقد امتلأت أيديهم وأنفسهم غنما ونصرا وسرورا، إلا أن يلجأ أميرهم وفيه من جراحة أصابته في المعركة، ومات بعد أيام. وكانت مدة إمارته اثني عشر شهرا. واختلف في ذلك. فقال أبو عمر السلمي: إن تلك المعركة انجلت عن أحد عشر ألف قتيل، وإن عبد الرحمن بن علقمة فوق سهما إلى بلج؛

فأصاب مقتله. قال هذا في (كتاب درر القلائد و غرر الفوائد) . وقال في (كتاب بهجة النفس) : إن عبد الرحمن ابن علقمة المذكور قتله بالسيف، وإن ولايته ستة أشهر. والأول أصح.
ولاية ثعلبة بن سلامة العاملي الأندلس
وفي سنة ١٢٣، في شوال، ولي الأندلس ثعلبة بن سلامة، ولاه أهل الشام؛ وذلك أن هشام بن عبد الملك كان قد عهد أن يتولى أمر الجيش، إذ جهزه

١٠٠٣٧ ذكر ولاية أبي الخطار

١٠٠٣٨ الحسام بن ضرار الكلبي الأندلس

من الشام، كلثوم بن عياض؛ فإن أصيب، فأين أخيه بلج؛ فإن أصيب، فثعلبة. فأقعد أصحابه ثعلبة بن سلامة بما عهد به هشام إليهم، وبابعوهم. وثار من بقي من البربر بماردة في أيامه؛ فغزاهم، وقتل منهم خلقا كثيرا وأسر منهم نحو الألف؛ وانصرف إلى قرطبة. فسار بأحسن سيرة. وكانت ولايته عشرة أشهر. هذا مساق ابن القطان. ومن (درر القلائد) : كان يبيع ذراري أهل البلد، ويحملهم أسرى، ويرهقهم من أمرهم عسرا. فكان ثعلبة معهم على هذه الحال، إلى أن ورد أبو الخطار.
ذكر ولاية أبي الخطار

الحسام بن ضرار الكلبي الأندلس

وفي سنة ١٢٥، ركب أبو الخطار البحر من ناحية تونس في المحرم، وحل بقرطبة؛ فألقى ثعلبة بن سلامة بالمصاراة، ومعه الأسرى والسبي من عرب قرطبة، قد اشتبك في الجبال الولد بالوالد؛ فأمر أبو الخطار بإطلاقهم، وحلهم من وثاقهم؛ وجمع الناس بعد افتراقهم، وصرفهم إلى معهود إيقافهم؛ فدانت له جماعتهم، وفرق أهل الشام على الكور، ونظر لسواهم أيضا بأحسن النظر؛ فأنزل أهل دمشق بالبيرة، أهل الأردن برية، وأهل فلسطين بشذونة، وأهل حمص بإشبيلية، وأهل قنسرين ببيان، وأهل مصر بباجة، وبعضهم بتدمير. وكان إنزالهم على أموال العجم من أرض ونعم. ودخل في ذلك الوقت الصميل بن حاتم - وسيأتي ذكره - وتعصب المضربون معه، وأتوا إلى قرطبة، حيث أبو الخطار؛ فخرج إليهم دون عدة؛ فهزمه القوم، وقبضوا عليه، وأثقلوا بالحديد رجله. ثم إنه أفلت من كبله، ومد ما انقبض من حبله.
ومن (كتاب بهجة النفس) ، قال: (لما هزم ثعلبة البربر، سبي ذراريهم، ولم يكن قبل بلج ولا غيره يتعرض للذرية بسباء. فأقبل إلى قرطبة بعدد من السبي كثير، حتى نزل طرف المصاراة من قرطبة، ومعه الأسرى والسبي من

١٠٠٣٩ ذكر الصميل بن حاتم وسبب الفتنة

عرب البلد والبربر، وهو يبيع السبي في النداء، ويعبث وييطر؛ فكان يبيع الشيوخ والأشراف ممن ينقص، لا ممن يزيد، وكان فيهم علي بن الحصين، والحارث بن أسد من أهل المدينة، فابتدأ المنادي عليهما بعشرة دنانير؛ فلم يزل ينادي: (من ينقص؟) حتى باع أحدهما بعتود، والآخر بكلب. فبينما هو على هذه الحال من العبث والبغي، وقد أوقف رجالهم، وأبرزهم للقتل، وذلك يوم جمعة، إذ قدم أبو الخطار؛ فألقاهم بهذه الحال. فأمر بإطلاقهم؛ فسمى ذلك العسكر عسكر العافية. وكان أهل الأندلس طلبوا من صاحب إفريقية حنظلة ابن صفوان عاملا يجمع كلمتهم، إذ كانت الكلمة مفترقة، والقتل ذريعا، ولا يأمنون تغلب العدو عليهم؛ فأرسل إليهم أبا الخطار هذا. واجتمع على أبي الخطار أهل الشام وعرب البلد، ودانت له الأندلس. ثم أنه أمن ابني عبد الملك بن قطن، وأنزل أهل الشام في الكور، وتعصب لليمانية، واعتزل قيسا؛ فكان ذلك سبب توثب الصميل بن حاتم عليه مع مضر، بعد أن ولي سنتين؛ وقيل: وتسعة أشهر؛ وقيل: ثلاث سنين.

ذكر الصميل بن حاتم وسبب الفتنة

قال في (كتاب بهجة النفس) : كان الصميل بن حاتم هذا جده شمر قاتل الحسين - رضي الله عنه - وهو من أهل الكوفة؛ فلما قتله، تمكن منه المختار بن أبي عبيد؛ فقتله، وهدم داره؛ فارتحل مع ولده من الكوفة، وصاروا بالجزيرة؛ ثم صاروا في جند قنسرين. فرأس الصميل بالأندلس، وفاق بالنجدة والسخاء. فاغتم أبو الخطار به؛ فدخل عليه يوما، وعنده الجند؛ فأحب كسره؛ فأمر عليه؛ فشتم، ولكز؛ فخرج عنه مغضبا، وأتى داره؛ ثم بعث إلى خيار قومه؛ فشكا إليهم ما لقي؛ فقالوا: (نحن تبع لك!) فقال: (والله ما أحب أن أعرضكم للقضاة ولا لليمانية! ولا كني سألتطف، وأدعو إلب مرج راهط، وأدعو

١٠٠٤٠ ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري الأندلس

لما وجدنا، وتقدم رجلا يكون له الاسم ولنا الحظ). فكتبوا إلى ثوبة بن سلامة الجذامي من أهل فلسطين؛ ثم وفدوا عليه؛ فأجابهم، وأجابهم لحم وجدام. فبلغ ذلك أبا الخطار؛ فغزاهم؛ فلقية ثوبة، وأسرهم. وسار ثوبة حتى دخل قصر قرطبة، وأبو الخطار معه في قيوده. ثم إنه أفلت، كما ذكرنا.

ثم ولي ثوبة سنتين. ولما ولي ثوبة سنة ١٢٨، استجاش أبو الخطار اليمانية، ودعاهم للنصرة على المضرية؛ فاجتمع له إذ ذاك حفل وعسكر ضخم، وأقبل إلى قرطبة؛ فخرج ثوبة بن سلامة إلى لقائه. فافترق الناس عن أبي الخطار، ونفروا عن تلقائه. وتوفي إثر ذلك ثوبة في السنة المذكورة؛ وكانت ولايته كما ذكرنا. فلما توفي ثوبة، عادت الحرب إلى ما كانت عليه؛ فأرادت اليمانية أن تعيد أبا الخطار؛ فأبت ذلك مضر مع الصميل؛ وتشاكس الفريقان. وأقامت الأندلس أربعة أشهر من غير وال، إلا أنهم قدموا عبد الرحمن بن كثير اللخمي للنظر في الأحكام. وصار أمر الشام وملوكه متغير الحال؛ فقال يزيد الوليد، وصارت إليه أحوال بني مروان.

ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري الأندلس

لما تفاقم الأمر، وكثر الاختلاف بين أهل الأندلس، تراضوا واتفقوا على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وعلى أن يدعو ليحيى بن حريث كورة رية؛ فتركت له طعمة. وقد كانت قضاة اجتمعت قبل ذلك، وقدموا على أنفسهم عبد الرحمن بن نعيم الكلبي؛ فجمع مائتي راجل وأربعين فارسا؛ فبيت القصر بقرطبة، وقاتل الأحراس، وهجم على السجن؛ فأخرج أبا الخطار، وهرب به إلى لبلبة؛ فأقام في كلب وقبائل من حمص؛ فاكتنفوه ومنعوه، ولم يحدث شيئا حتى اجتمع الناس على يوسف. فلما استقام له الأمر، غدر يحيى بن

١٠٠٤١ مقتل أبي الخطار

حريث، وعزله عن كورة رية؛ فغضب ابن حريث، وكتب أبا الخطار حينئذ. فقال أبو الخطار: (أنا الأمير المخلوع! فأنا أقوم بالأمر!) وقال ابن حريث: (بل أنا أقوم به، لأن قومي أكثر من قومك!) فلما رأت جذام ما يدعو إليه ابن حريث، قدموه وأجابوه؛ فأصفت يمين الأندلس وحميرها وكندتها على تقديمه والطوع له، وانحازت مضر وربيعة إلى يوسف بقرطبة حضرة الملك. وأقبلا حتى نزلا شقندة. وكان الصميل مع يوسف الفهري، وهو الذي سأله الناس أن ينظر لهم في وال يلي عليهم، لشغل أمير المؤمنين مروان بن محمد بالمشرق عنهم وبعده عنهم. فاختر لهم يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري؛ وكان يومئذ بالبيرة؛ فرضيه الناس كما ذكرنا. ووقع اختلاف بعد ذلك في أمره بين مصر واليمن؛ فانضوت اليمن إلى أبي الخطار، من جميع البلاد والأقطار، وزحف بهم إلى يوسف الفهري بقرطبة؛ فكره يوسف الفتنة، وخاف البغضاء والشحناء. فنزل الصميل بن حاتم بالحلات، وشك السلاح والآلات؛ وأقبل أبو الخطار بمن معه، ونزل موضعه؛ فالتقت بشقندة الفشتان، وتصادمت الفرقتان؛ فلا تسمع إلا صهيلا وصليلا، ولا ترى إلا قتيلا، حتى تكسرت الخطية وتفللت المشرقية، والتفت الساق بالساق، وانضمت الأعناق إلى الأعناق؛ فلم يعهد حرب مثلها في المسلمين، بعد حرب الجمل وصفين، إلى أن انهزمت اليمانية مع أبي الخطار بعد حين. وهرب أبو الخطار، وركب ظهر الفرار؛ واستتر

في ربح للصميل هنالك؛ فظفر به وقتل إذ ذلك. فرأس الصميل بن حاتم في الناس، وشهر بالنجدة والبأس؛ وصرف يوسف الفهري إليه الأمور، وأوقف عليه الرياسة والتدبير. فكان ليوسف الاسم، وللصميل الرسم. مقتل أبي الخطار

ولما أخذ أبو الخطار، وأرادوا قتله، قال: (ليس على فوت! ولا كن دونكم ابن السوداء!) يريد ابن حريث. فدل عليه، وقتلا جميعا. وكان ابن حريث يقول: (لو أن دماء أهل الشام سقيت، لشربتها في قدح!) فلما استخرج من تحت الرحي ليقتل، قال له أبو الخطار: (يا ابن السوداء! هل بقي في قدحك شيء لم تشربه؟) ثم قتلا. وأتى بالأسرى، فقعد لهم الصميل، وضرب أعناقهم جميعا.

ثم أتبع الله الأندلس بعد ذلك بالوباء والموت في السنة الثانية، حتى كاد الخلق أن ينقرض منها. وولي يوسف عن (رضى من) عامة الجند من مضر ويمن والشام؛ فصفت له الأندلس بعد يوم شقندة، وخلصت له القلوب والأنفس. وعاد الصميل بن حاتم قائده الأعلى، وقدحه المعلى، يقرب منه ما شاء، ويدفع عنه ما ساءه، إلى أن تمكن بالدولة، وتملك رقاب تلك الجملة. فشرق به يوسف وقلق، وخشي من جانبه وأرق؛ فرأى أن يبعده من مكانه، ويولي به بعض سلطانه؛ فولاه سرقسطة وبلادها سنة ١٣٣؛ فكان فيها إلى أن قام عليه فيها الحباب بن رواحة من بني زهرة بن كلاب؛ فحاصره مدة من سبعة أشهر. وقعد يوسف عن إغاثة، واعتذر بشدة الأندلس في ذلك الوقت ومجاعته، رغبة في تلافه وهلاكه، وحرصا على الراحة منه لاستحواذه واستملاكه، إلى أن اجتمع قومه بالبيرة وجيان، وساروا إلى نصرته، وتفرج كركته.

وقيل إن الذي قام على يوسف بسرقسطة تميم بن معبد الزهري وعامر العبدري. فغزاها يوسف في سنة ١٣٨؛ فكان عليها، إلى أن دخل عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس. وفي سنة ١٣٠، كانت وقعة شقندة، واجتمع على يوسف. وكان يوم ولايته ابن خمس وسبعين سنة؛ وملك تسع سنين. وكان قبل ولايته معتزلا في بادية، من أهل الديانة والإظهار للخير.

١٠٠٤٢ تسمية من ثار على يوسف بن عبد الرحمن الفهري بالأندلس

١١ جامع أخبار بني أمية بالمشرق

وفي سنة ١٣١، أحملت الأندلس، وعم المحل، وتمادى إلى سنة ١٣٨ وذلك سنة محل وسنة غيث. وأتصل المحل الشديد سنة أو اثنتين؛ ثم سقى الناس سنة ١٣٣، وعادت إلى بعض الصلاح. وفي سنة ١٣٣، ثار أهل جليقية، وترددت الغارات عليها. ثم استحكم الجوع والقحط في سنة أربع وثلاثين وسنة خمس وبعض سنة ١٣٦؛ فخرج أكثر الناس إلى طنجة وزويلة وريف البحر في العدو؛ وكانت إجازتهم من وادي شذونة، وهو المعروف بوادي برباط؛ وبه سميت السنة.

تسمية من ثار على يوسف بن عبد الرحمن الفهري بالأندلس منهم: عبد الرحمن بن علقمة الخمي، ثار عليه بأربونة؛ فخاربة، ولم يمكث في حربه إلا يسيرا حتى أمكنه الله منه وثار عليه عروة بباجة؛ فوجه إليه يوسف من هزمه وقتل أصحابه. وثار عليه تميم بن معبد سنة ١٣٦. وفي سنة ١٣٧، اجتمع تميم بن معبد وعامر بن عمرو بن وهب بسرقسطة؛ فتولى محاربتهم الصميل بن حاتم. وفي سنة ١٣٨، خرج يوسف بنفسه إلى تميم بن معبد وعامر ابن عمرو بسرقسطة؛ فحاصرها؛ ثم ظفر بهما وقتلهما. وفي هذه السنة، انقضت أيام يوسف بن عبد الرحمن الفهري.

جامع أخبار بني أمية بالمشرق

وذلك أن جميع خلفائهم من لدن معاوية إلى آخرهم أربعة عشر رجلا. وكانت مدة دولتهم، منذ خلاص الأمر إلى معاوية إلى أن قتل مروان بن محمد، إحدى وتسعين سنة، وتسعة أشهر، وخمسة أيام، منها أيام ابن الزبير تسع سنين واثنا وعشرون يوما. ثم تفرقت بنو

أمية في البلاد هربا بأنفسهم. وهرب

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك إلى الأندلس؛ فبايعه أهلها، وتجددت لهم بها دولة استمرت إلى بعد الأربع والعشرين والأربعمئة. والناس يعتقدون أن دولتهم كانت انقطعت من حين قتل مروان إلى أن جددها عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٦ أو نحوها؛ وقيل إنها كانت متصلة، لم تنقطع من زمن عثمان - رضي الله عنه - إلى زمن المعتد بالله بقرطبة آخر خلفائهم سنة ٤٢٤. وهذا القول ينسبني على ما قاله بعضهم إن عهد عبد الرحمن بن حبيب صاحب إفريقية من قبل بني أمية وصل إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري المتغلب على الأندلس، الذي دخل عبد الرحمن بن معاوية وهو أميرها. فتأمل هذا، فإنه، إن صح، نكتة غريبة وفائدة عجيب.

قال أبو محمد بن حزم: وانقطعت دولة بني مروان بالمشرق بمروان بن محمد الجعدي. وكانت، على علاقتها، دولة عربية، لم يتخذ ملوكها قاعدة لأنفسهم، إنما كان سكنى كل أمير منهم في داره وضيعته اللتان كانتا له قبل الخلافة، ولا أكثروا احتجاج الأموال، ولا بناء القصور، ولا طلبوا مخاطبة الناس لهم بالتمويل والعبودية والملك، ولا تقبيل أرض، ولا يد، ولا رجل، إنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة والتولية والعزل في أقاصي بلاد الدنيا؛ فكانوا يعزلون العمال، ويولون الآخر في السند والهند، وفي خراسان، وفي أرمينية، وفي العراق، وفي اليمن، وفي المغرب الأدنى والأقصى وبلاد السوس وبلاد الأندلس؛ وبعثوا إليها الجيوش، وولوا عليها من ارتضوا من العمال، وملكوا أكثر الدنيا. فلم يملك أحد من ملوك الدنيا ما ملكوه من الأرض، إلى أن تغلب عليهم بنو العباس بالمشرق، وانقطع بها ملكهم. فسار منهم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس، وملكها هو وبنوه، وقامت بها دولة بني أمية نحو الثلاثمائة سنة. فلم يك في دول الإسلام أنبل منها، ولا أكثر نصرا على أهل الشرك، ولا أجمع لخلال الخير؛ وبهدمها انهدمت الأندلس إلى الآن، وذهب بهاء الدنيا بذهابها.

١١٠١ ذكر دخول عبد الرحمن بن معاوية

١١٠٢ ابن هشام إلى الأندلس وهروبه من الشام

قال أبو محمد: وانتقل الأمر بالمشرق إلى بني العباس؛ فكانت دولتهم أعجمية: سقطت فيها دواوين العرب، وغلب عجم خراسان على الأمر، وعاد الأمر ملكا عضوضا كسرويا، إلا أنهم لم يعلنوا بسب أحد من الصحابة - رضهم - بخلاف ما كانوا عليه بنو أمية من استعمال ذلك في جانب علي - رضي الله عنه -، وكفاهم ذلك قبحا وباطلا، حاشا عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - ويزيد بن الوليد؛ فإنهما لم يستجيزوا ذلك. وافترقت في دولة بني العباس كلمة المسلمين؛ فتغلبت في البلاد طوائف من الخوارج وشيعة ومعتزلة، ومن ولد إدريس وسليمان ابني عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضهم -؛ ومنهم من بني أمية تغلبوا على الأندلس، وكثير من غيرهم. وفي خلال هذه الأمور من اختلاف الكلمة، تغلب الكفار على نحو نصف الأندلس، وعلي نحو نصف السند؛ فأما ما لم يملكه العباسيون، فهو ما وراء الزاب من بلاد المغرب وتلسان وأنظارها، كان فيها شيعة، ثم آل ملكها إلى إدريس؛ وأما تامسنا، ففيها أولاد صالح بن طريف على ضلالتهم؛ وأما سجلماسة، فنزلها رئيس الصفرية. هذه هي البلاد المتفق عليها، وأما المختلف فيها، إفريقية؛ قيل إنه كان فيها عبد الرحمن بن حبيب ثائرا، وفي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري.

ذكر دخول عبد الرحمن بن معاوية

ابن هشام إلى الأندلس وهروبه من الشام

قال الرازي: وفي سنة ١٣٦، ابتدأ عبد الرحمن بن معاوية بمداخلة مواليه من الأمويين بالأندلس. وفي هذه السنة، تفرق ولد معاوية، وولد هشام، وكل من فيه بقية من ولد مروان وأمية. نفرج عبد الرحمن بن معاوية مختفيا

من موضع إلى موضع، وهمه الأندلس، لما كان في نفسه من أمرها ومن الأثر المروي عنه فيها. فوصل إلى مصر؛ ثم سار منها إلى برقة؛ فبقي فيها مستترا مدة. ثم رحل عنها؛ فأوغل في المغرب. قال بدر مولاة: (فأدركته في الطريق، وجهتني إليه أم الأصبع أخته شقيقته

بدنانير وشئ من الجوهر يستعين بها على النفقة والوصول؛ فوصل إلى إفريقية، وصاحبها عبد الرحمن بن حبيب، ومعه يهودي قد خدم مسلمة بن عبد الملك؛ وسمعه يحدث بخبر القرشي الذي يكون من بني أمية يتغلب على الأندلس، اسمه عبد الرحمن، ذو ضفيرتين؛ فنظر إلى عبد الرحمن؛ فوجده بصفيرتين؛ فقال لليهودي: (ويحك!) هذا هو المذكور، وأنا قاتله! فقال له اليهودي: (إن يك ذلك، لم تقتله!) ثم صار ابن حبيب يقتل الواصلين إليه من بني أمية، ويأخذ أموالهم. فهرب عبد الرحمن عن القيروان، ونجا يريد الأندلس، ويشغل نفسه بها لما كان عنده من الروايات في علم الحدثن من قبل مسلمة بن عبد الملك أخي جده وغيره. فسار حتى أتى تادلا من قبائل المغرب؛ فناله عندهم تضيق وأخبار يطول ذكرها. ثم هرب من عندهم حتى أتى نفزة، وهم أخواله؛ فإن أمه كانت من سبيهم. قال بدر: (فجزت إلى الأندلس، واجتمعت بعبيد اله بن عثمان بساحل البيرة، في آخر سنة ١٣٦، ثم انصرفت في سنة سبع بعدها، وأقمت عنده مدة؛ ثم كررت منصرفا إلى الأندلس في موالي عبد الرحمن.

حدث عبد الرحمن، قال: (دخلت الأندلس، وأنا أضبط جليلة مسلمة ابن عبد الملك؛ فإنه أتى جدي هشاما يوما؛ فوجدني عنده صبيا؛ فأمر جدي بتنحيته عنه؛ فقال له مسلمة: (دعه يا أمير المؤمنين! فإنه صاحب بني أمية ومحبي دولتهم بعد زوالها!) فلم أزل أعرف لي مزية من جدي بعد.)

قال الرازي: وفي سنة ١٣٧، ثار الحجاب بن رواحة بجهة سرقسطة؛ وتظافر معه على ذلك عامر بن عمرو العبدري من بني عبد الدار بن قصي؛ وكان قد هرب من قرطبة خوفا من يسوف؛ وكان عامر هذا أحد رجال مضر، (وقد فشا) بالأندلس نجدة وشرفا وعلما وأدبا؛ وكان يلي المغازي بالصوائف من قبل يوسف الفهري؛ وكان سلطان الفهري يومئذ قد ضعف لأجل المحل المتوالي بالأندلس. وكان الصميل قد لزم الثغر في تلك الأعوام، لأنه كان أشبه من غيره في الخصب؛ فلما خاف عامر هذا على نفسه من الفهري والصميل، خرج فارا بنفسه، وقصد الحجاب بن رواحة، واستجاشا فأجابهما رجال من البمانية وناس من البربر؛ فحصر الصميل بسرقسطة حصارا شديدا، حتى يئس من الحياة، وهم بالإلقاء بيده؛ وكتب إلى يوسف يسأله الإمداد؛ فلم يجد في الناس مننضا. فلما أبطأ عليه مدد يوسف، واشتد الحصار، كتب إلى قومه من جند قنسرين ودمشق، يعظم عليهم الخطب، ويناشدهم الرحم؛ فقام له بذلك عبيد بن علي الكلائي، وأكثر كلاب وهوازن وغطفان والأزد تقدم رجلا وتؤخر أخرى، ولم يكن لهم رأس يجمعهم. فلما نهض عبيد بن علي ومضى داعيا في الجندين إلى نصر الصميل، تحركت جماعة كلاب ومحارب، إلا كعب بن عامر وعقيل وقشير والحريش؛ فإنهم كانوا منافسين لبني كلاب، لأن الرياسة يومئذ بالأندلس كانت فيهم؛ وكان بلج قشيريا؛ فضمهم الصميل.

ولم يجتمع من هذه القبائل إلا نحو أربعائة فارس؛ فاستقلوا أنفسهم؛ ثم صمموا، وخف معهم يومئذ قوم من بني أمية في نحو ثلاثين فارسا؛ وخرج معهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان مولاهم، وخرج أيضا معهم عبد الله بن خالد بن أبان بن أسلم، مولى عثمان بن عفان - رضي الله عنه -؛ وكان عبد الله وعبيد الله يتواليان حمل لواء بني أمية بالأندلس بعد، ويتعاقبان في ذلك. وكان لهما ولبي أمية في هذا المجتمع يومئذ بلاء معروف مشهور، وإنما أراد أن يقدم بذلك يدا عند الصميل، لما كانا بنيا عليه من اطلاعه على أمر عبد الرحمن بن معاوية؛ وكانا واثقين بالصميل، وأنه، إن لم يجبهما، كتم عليهما؛ وكذلك فعل؛ فإنه كتم عليهما كتمان عجيبا. فكان هذا هو الذي دعاهم إلى إمداد الصميل واستنفاذه لاعتداد اليد عليه؛ ورأسوا على أنفسهم ابن شهاب استئلافا له؛ ومشي الجميع. فلما بلغوا وادي طليطلة، بلغهم أن الحصار اشتد وأضر بالصميل، وأنه على الهلكة؛ فقدموا رسولا من قبلهم، وقالوا له: (ادخل في جملة المحاربين للسور. فإذا قربت منه، ارم بهذه الأحجار!) وفي كل واحد منها بيتان، وهما (وافر) :

أَلَا أَبْشِرُ بِالسَّلَامَةِ يَا جِدَارُ ... أَتَاكَ الْغَوْثُ وَانْقَطَعَ الْحَصَارُ
أَتُنْكَ بَنَاتُ أَعْوَجَ مُلْجَمَات ... عَلَيْهَا الْأَكْرُمُونَ وَهُمْ نَزَارُ

ففعّل الرسول ذلك. فلما وقعت الحجارة، أتى بها الصميل أو ببعضها؛ فقرئت عليه؛ وكان أميا. فلما سمع ما فيها، قال: (ابشروا يا قوم! فقد جاءكم الغوث، ورب الكعبة!) ومضى القوم يستحيشون كل من استجاب لهم، ومعهم الأمويون، وفي جملتهم بدر رسول ابن

معاوية. وكان عبد الرحمن قد بعث إليهم خاتمة ليكتبوا به عنه إلى كل من رجوا نصره؛ فكتبوا عنه للصميل، يذكرون له أيادي بني أمية عنده، وبعده، ويمنيه. فلما سمع العبدري والعذري بالمدد الواصل إليه، ارتفعوا عنه، وانكشف وجه الصميل؛ فخرج، وتلقى القوم، ووصلهم على أقدارهم، وكساهم، وقفل معهم بماله وحشمه. فلما زال الصميل عن سرقسطة، دخلها الحجاب وملكها. ثم أطلع الأمويون الصميل على قصة ابن معاوية، وعرضوا عليه بدرا رسوله؛ فأحسن إليه وقال لهم: (أروى في أمره). وأقبل قافلا حتى دخل قرطبة. وانصرف الأمويون إلى منازلهم، وبدر معهم. وقد كان الصميل اتفق مع الأمويون على نصره ابن معاوية، وأن يزوجه من ابنته. ثم رجع في قوله، وقال:

(تأملت الأمر؛ فوجدته صعب المرام؛ فبارك الله لكما في رأيكما ومولاكما! فإن أحب غير السلطان، فله عندي أن يواسيه يوسف، ويزوجه ويحبوه! انطلقا راشدين!) فانقطع رجاءهم يومئذ من ربيعة ومضر، ورجعوا إلى اليمن. قال بدر: فلم نمر ببني إلا دعوانه؛ فوجدنا قوما قد وغرت صدورهم، يتنون سبيلا لطلب ثأرهم؛ ثم رجعنا إلى جندنا؛ فابتعنا مركبا، ووجهنا فيه أحد عشر رجلا مع بدر. قال: ومضى يوسف حتى أتى طليطلة، وأمضى بعثين إلى جليقية والبشكنش، وأراد القفول إلى قرطبة؛ فلم يبعد حتى أدركه الرسول بهزيمة الجيش وقتل عامته. فبينما هو ينظر في ذلك، إذ أتاه رجل من عند ولده من قرطبة، يعلمه أن فتى من قریش، من ولد هشام بن عبد الملك، نزل بساحل المنكب؛ فاجتمع إليه موالي القوم والأموية؛ فانتشر الخبر في العسكر، وشتت به الناس لما فعل بالقرشيين؛ فانقض الناس من العسكر، وتنادوا بمشاعرهم، وتقدموا إلى كورهم. فأصبح يوسف، وليس في عسكره غير قيس والصميل؛ فقال الصميل: (ما الرأي؟) قال: (بادره الساعة، قيل أن يستعجل أمره!) فساروا إلى قرطبة؛ فكلما رجوا أن يجتمع لهم بمن يخرجون لاستئصال شوكة ابن معاوية، لم يتجه لهم عمل.

وفي سنة ١٣٨، دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس في غرة ربيع الأول؛ وهو أبو الملوك. وكان خروجه من المركب بموضع يعرف بالمنكب؛ ثم نزل بقرية طرش من كورة إلبيرة. فأقبل إليه جماعة من الأمويين، وقد أعد للأمر ما يصلحه من المركب والمنزل والملبس. فغلظ أمر ابن معاوية، وأقبل الناس من كل مكان إليه. فكتب يوسف الفهري إلى جماعة الأمويين، يحذرهم ويخوفهم؛ فقالوا له: (إنما أقبل ابن معاوية إلينا وإلى جماعة مواليه، يريد المال، ليس فيما يظن الأمير - أصلحه الله! - ولا فيما رفع إليه). واعتذروا له بما أمكنهم. وأقبل وجوه الناس إلى ابن معاوية، وقالوا له: (خفنا مكر الصميل، ولم نأمن غائلته؛ فعرفنا الفهري بكذا وكذا). وكان ابن معاوية يبيت في الجبال.

ومضى يوسف بن بخت إلى جند الأردن؛ فأخذ بيعة جميعهم؛ ومضى عبد الله بن خالد إلى جند حمص؛ ومضى تمام بن علقمة إلى أهل فلسطين؛ وأقبل الناس من كل مكان. فلما ضاقت الأحوال بالفهري، ولم يأت من الأجناد إلا اليسير، أدار له الصميل الرأي، وأمره بالمكر بآبى معاوية والخادعة له، ورجا ذلك منه لحدائث سنه، وقال له: (هو قريب عهد بزوال النعمة؛ فهو يغتم ما تدعوه إليه؛ ثم أتت بعد ذلك متحكم فيه وفي الذين سعوا له بما تحب!) فأجمع رأيهم على تأنيسه بأن يزوجه ابنته ويسكنه في أي الجندين شاء، من دمشق أو الأردن، أو يسكن بينهما، ويصير إليه أمر الكورتين. وبعث إليه بكسوتين ومطيتين وخمسمائة دينار، ووجه إليه كاتبه خالد بن يزيد، وقال له: (اعرف أمره وأي جند عنده، وتأمل أخباره وأخبار من معه!) فخرج في الليل مع أصحابه، وأصبحوا على ابن معاوية بالمال والكسوة والمطيتين. ووجه أيضا إلى بدر فرسا ومائة دينار وكسوة. فقبل ابن معاوية الهدية، وكره التزويج؛ فتكلم خالد بكلام غليظ لابن معاوية إذ أبى التزويج؛ فأمر به؛ فضم إلى وثاق، ورد غيره إلى يوسف؛ ولم يرد عليه جوابا.

وكان يوسف قد كتب إلى ابن معاوية كتابا. وهذه بعض فصول منه: (أما بعد، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب، وتأبش من تأبش إليك ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقض الأيمان المؤكدة، التي كذبوا الله فيها وكذبونا! وبه - جل وعلا! - نستعين عليهم! ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية غبش، حتى عصموا ذلك، واستبدلوا بالأمن خوفا، وجنحوا إلى النقص! والله من ورائهم محيط! فإن كنت تريد المال وسعة الجناب،

فأنا أولى لك ممن لجأت إليه! أكنفك، وأصل رحمك، وأنزلك معي إن أردت وبحيث تريد! ثم لك عهد الله وذمته في ألا أغدر بك،

ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره!) في كلام كثير.

قال ابن عيسى: فحدثني تمام بن علقمة أن عبد الرحمن، لما أتاه كتاب الفهري بما فيه وبترويجه ابنته، أشار عليه كل من أتاه من العرب والأمويين ألا يقبل ذلك منه، إلا أن يعتزل له عن الملك ويبيعه، وإلا حاكمه إلى الله؛ وقالوا له: (إنما يكر بك، ولا يفي لك بشئ، لأن وزيره ومالك أمره الصميل، وهو غير مأمون!) قال: فلما انكشف أمرنا عنده بما أظهرنا من الإباية ويحبس كاتبه خالد ابن يزيد، رأينا أن تشهر أمرنا. فخرجنا إلى جدار بن عمرو وإلى جند الأردن، واجتمعنا إليه، فأتيناه في ثلاثمائة فارس من جماعة الأمويين، ومن أقبل إليه من وجوه العرب. ثم كاتبنا أهل قنسرين وفلسطين. فلما أقبلت إلينا رسلهم بما أردنا، نهضنا إليهم؛ وكنا قد وطنا على الموت، وعزمنا على أن نقتل دونه، وعقدنا له لواء. وأقننا معه ستة أشهر، نبرم له أموره، ونكتب له الناس. وكنا خرجنا إليه في زي حسن عند خروجنا إليه بساحل البحر؛ ثم انتقل من البيرة إلى كورة رية، إلى شدونة، إلى مورور، إلى كورة إشبيلية، والناس يتلقونه بالبشر والترحيب، ويعطونه من الانقياد والطاعة أوفى نصيب. قال تمام: فدخلنا رية في ستمائة فارس، وخرجنا منها في ألفي فارس؛ وخرجنا من إشبيلية إلى قرطبة في ثلاثة آلاف فارس. فلما اجتمعت لنا الجموع، وبلغنا ما يريد الفهري من الخروج إلينا، كتب الأمير عبد الرحمن الكائب، وعبا الأجناد، وخرج إليه؛ ودعا برجل من الأنصار؛ فعقد لواءه؛ وارتحل في جنوده، حتى احتل بقرية على نهر قرطبة يوم الاثنين لست خلون من ذي الحجة.

وخرج الفهري إلى المصاراة. وأقاما ثلاثة أيام متناظرين، والنهر حاجز بينهما بحمله؛ ثم أصبح النهر يوم الخميس، وقد حسر مائه. فعباً الأمير عبد

١٢ خلافة عبد الرحمن بن معاوية

١٢٠١ ابن هشام بن عبد الملك

الرحمن كئابه، وتهاى للحرب؛ فقدم على قبائل العرب أحدا من قواده، وعلى البربر كذلك، وهو إبراهيم بن شجرة. وترجل حماة بني أمية؛ فحفوا بالأمير، والأمير على فرسه متنكبا قوسه؛ فجاوز النهر، واقترب من المصاراة؛ فتجاوز العسكران، وتقارب المضطربان. وأقاما بقية يومهما في سكون وهدوء، والرسل تختلف من قبل يوسف، يرجو عقد الصلح. فلما أصبح يوم الجمعة، التقى الجمعان، واستحرت الحرب والقتال. فشى العلاء بن جابر العقيلي إلى الصميل؛ فقال له: (يا أبا جوشن اتق الله! فوالله! ما أشبه هذا اليوم إلا بيوم المرج! وإن عاره لباقي علينا إلى اليوم؛ فإن الأمور يهتدي لها بالأقران والأمثال: أموي وفهري وقيس واليمن! وهذا يوم عيد، ويوم جمعة؛ ويم المرج أيضا يوم جمعة! والأمر، والله! علينا، لا شك في ذلك! فاتق الله، واغتم لنا الأمر لتكون فيه أعزاء لا أتباعا!) وكان العلاء هذا من وجوه قيس. ثم انهزم الفهري وأصحابه، واستقبل القصر؛ فاعترض له عبد الأعلى بن عوسجة، وحال بينه وبين دخوله، وردده عنه؛ فولى منهزما إلى سفح جبل قرطبة. واستولى الأمير عبد الرحمن يومه ذلك على الملك، وتمت لهبيعة العامة بقرطبة. وتمادى يوسف الفهري في الفرار إلى البيرة.

خلافة عبد الرحمن بن معاوية
ابن هشام بن عبد الملك

نسبه: عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية. كنيته: أبو المطرف. أمه: بربرية من سبي المغرب، تسمى راحا أو رداحا. وفي عبد شمس بن عبد مناف يلتقي نسبه بنسب رسول الله - صلعم - مولده: بموضع يعرف بدير حسينة من دمشق سنة ١١٣؛ مات أبوه وتركه صغير السن. وتوفي يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر؛ وقيل: لعشر خلون من جمادى الأولى سنة ١٧٢؛ ودفن بقصر

قرطبة؛ وقد بلغ تسعا وخمسين سنة؛ وقيل: ستين سنة. فكانت مدة خلافته ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر ونصف؛ ودخل الأندلس وهو ابن خمس وعشرين سنة أو نحوها. بويع له بقرطبة يوم الأضحى من سنة ١٣٨.

وزرائه أربعة: عبد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، ويوسف بن بخت، وحسان بن مالك. حجابه خمسة: تمام بن علقمة، ويوسف بن بخت، وعبد الكريم بن مهران، وعبد الحميد بن مغيث، ومنصور فتاه. قضاته خمسة: يحيى بن يزيد النجيبي، ومعاوية بن صالح، وعبد الرحمن بن طريف، وعمر بن شراحيل، والمصعب بن عمران. وكان له قاض خامس في صوائفه يسمى جدار ابن مسلمة بن عمرو المذحجي. نقش خاتمه: عبد الرحمن بقضاء الله راضي. صفته: طويل القد، أصهب، أعور، خفيف العارضين، بوجهه خال، له ضفيران. وكان يسمى، صقر بني أمية. ولده الذكور أحد عشر، والإناث تسع.

وفي سنة ١٣٩، خرج الأمير عبد الرحمن طالبا للفهري والصميل. فلما اتصل بالفهري قصده إليه، لاذ عنه، وزال عن إغرناطة، فافتنى الأمير عبد الرحمن أثره، حتى إذا أوفى عليه، عاد إلى إغرناطة متحصنا بها؛ ونزل الأمير عبد الرحمن عليه وحاصره. فلما تهادى به الحصار، سأل الفهري الأمان، وأن يعطي ابنته رهنًا؛ فأعطاه الأمير الأمان، وقبل منه ذلك، وكذلك الصميل. وانصرفا في جملته إلى قرطبة، على أن يسكن الفهري منزله بالمدينة، والصميل داره بالريض. واستوسق الأمر للأمير عبد الرحمن، وأمر بلعن المسودة وقطع الدعاء لأبي جعفر المنصور. ودخل يوسف الفهري في عسكر الأمير كأحد رجاله؛ فأنزله على ماله، وأطلق له عياله.

وفي هذه السنة ولد هشام بن عبد الرحمن الملقب بالرضي؛ وذلك لأربع خلون من شوال. وفي سنة ١٤٠، تودع الأمير عبد الرحمن بقرطبة؛ فلم تكن له فيها حركة. ودخل رجال من المشرق ومن بني أمية في هذه السنة؛ فأنزلهم الأمير، وأكرمهم، وأحسن جوائزهم.

وفي سنة ١٤١، هرب الفهري من قرطبة، ناكثًا، ناقضا للأيمان بعد توكيدها؛ فاجتمع إليه الناس، وبلغ جمعه عشرين ألفا من البربر وغيرهم. فلما رأى كثرة ما اجتمع له، تحرك من ماردة، يريد الأمير عبد الرحمن. فلما بلغ الأمير خبره، برز من القصر، وتقدم إلى المدور. وكان عبد الملك بن عمر المرواني عاملا بإشبيلية، وابنه بكورة مورور؛ فحشدا من كان قبلهما من أهل الكورتين، وتوافى الحشدان؛ فبرز به. واتصل بالفهري خروج الأمير إلى المدور وتوافى الحشود على عبد الملك؛ فتوقع الفهري التشبك بين العسكرين؛ فصرف راياته إلى عبد الملك؛ فالتقيا، ووقعت بينهما حرب شديدة؛ فانهزم يوسف، وتفرق أصحابه عنه، وأتبعوا بالقتل. واتصل الفتح بعبد الرحمن، وهو بالمدور منتظرا لتوافي الحشود؛ فأغناه عاجل الفتح؛ وفر الفهري بنفسه مختفيا.

وفي سنة ١٤٢، كان هلاك يوسف الفهري ومقتله بناحية طليطلة؛ وكان قد نهض إليها، وتردد بناحيها شهورا؛ فاغتاله بعض أصحابه، وقتله، واحتز رأسه، وتقدم به إلى الأمير عبد الرحمن؛ فشكر الله على موته، وأمر بنصب رأسه على جسر قرطبة، وأمر بقتل ابنه المرتين، ونصب رأسه مع رأس أبيه. وتوفي الصميل في الحبس؛ وقيل إنه خنق؛ وقيل إن الذي قتل الفهري عبد الله ابن عمرو الأنصاري، لقيه على أميال من طليطلة، بقرية من قراها. فلما عرفه، قال لمن معه: (هذا الفهري! وفي قتله الراحة له ومنه!) فتقدم إليه؛ فقتله، واحتز رأسه، وتقدم به إلى الأمير. فلما قرب من قرطبة، وأعلم الأمير بخبره، أمر أن يتوقف به دون القنطرة، وأمر بقتل ابنه المرتين، وأخرج رأسه إلى رأس أبيه؛ ووضع في قناتين، وتقدم بهما إلى باب القصر.

واختلف في أمر يوسف الفهري؛ فقال بعضهم إنه لم ينكت بغيا، وإنما خوفا؛ فخرج هاربا؛ فأخرج الأمير الخليل في طلبه؛ فأدركته بفحص البلوط؛ ثم أفلت؛ وحشد ولده البربر بالشرق كله، وأقبل في جمع عظيم يريد قرطبة؛ فخرج إليه الأمير؛ فالتقوا بخاضة الفتح؛ فكان القتال بينهم حتى كاد الأمير عبد الرحمن أن يهزم؛ وقيل إنه أنهزم نحو الميل؛ فثبت ابنه سليمان في آخر الناس؛ ثم تراجع الأمير حتى انهزم يوسف، ومضى في طلبه إلى قلعة رباح.

وقال بعضهم: إن يوسف، لما هرب إلى طليطلة، قبض الأمير عبد الرحمن على أبي الأسود ابنه؛ فسجنه. وقام على يوسف موال له؛ فقتلوه، وأتوا به إلى الأمير عبد الرحمن؛ فقال لهم: (عرفتم من هو؟) قالوا: (نعم! هو يوسف الفهري!) قال: (أنتم لم تحفظوا مولاكم؛ فكيف تحفظونني وتنتظمون في طاعتي؟) فأمر بصرب أعناقهم؛ وأمر بأبي الأسود إلى السجن؛ وكان السجن يومئذ يخرج الناس منه إلى النهر لما يكون من الحاجة مع الموكلين بهم؛ فادعى ولد الفهري العمى، وفشا له ذلك؛ فكان يقول: (من يقود الأعْمى؟ يرحمه الله!) وكان يختلف إليه مولى اسمه مفرج يقضي حوائجه ويلقاه على النهر تحت القنطرة. فلما اطمئن إليه، ولم يستنكر خروجه، وشاع

عليه العمى، قال لمفرج مولاه: (ابتع لي فرسا أنج عليه!) ففعل وأعده له؛ فهرب عليه، ولحق بطليطلة. فغزاه الأمير عبد الرحمن ولقيه مرارا، فكان آخر هزيمته إياه بقسطونه؛ ومضى إلى ركانة، ولم يزل بها حتى مات. فقام القاسم بن يوسف، أخو أبي الأسود؛ فأعقب على زوجته، وتولى ما كان أبو الأسود يتولاه؛ فخرج إليه الأمير؛ فأجابه على أن يرد إليه أمواله، ويستوثق منه بالعهد؛ ففعل الأمير ذلك، وانصرف معه إلى قرطبة.

وثار على الأمير عبد الرحمن عبد الغافر اليماني بإشبيلية، وتغلب على ما جاور قرطبة؛ فخرج إليه الأمير؛ فخالفه عبد الغافر ونهض يريد قرطبة، رجاء أن يجدها خالية، والإمام عبد الرحمن في الثغريسدُ خلله، ويحسم عله؛ فقدم

مسرعا حين وافاه الخبر، ولم يلو على ما تعذر، ومحلة عبد الغافر على وادي قيس قد ملأت السهل والوعر. فدخل الإمام عبد الرحمن البربر؛ وكانوا العدد الوافر الأكبر؛ فنزع الأكثر منهم إليه، وصاروا في حربه ولده. ووقعت الهزيمة على عبد الغافر، وأخذ من معه في الفرار والنفار؛ فلم يرفع الإمام عنهم سيفا، وقتل منهم ثلاثين ألفا. وكانت هزيمة هي مدّ الدهر المذكورة، والحفرة التي جمعت رؤوسهم بذلك المكان مشهورة. ومن (كتاب بهجة النفس) قال: لما كان في النيل، تسرع عبد القادر إلى ناحية لقنت؛ وأسرع الأمير القتل في حملته. ولم يذكر عددا.

وثار على الأمير عبد الرحمن حبة من ملامس، وتغلب على إشبيلية وإسجعة وأكثر الغرب، وحشد جموعا؛ فخرج إليه الأمير، وقاتله أياما، حتى همّ الأمير بالهزيمة. ثم إن حبة انهزم ومضى إلى ناحية فريش، وكتب راغبا في العفو.

وفي سنة ١٤٦، ثار العلّاء بن مغيث الجذامي بباجة، ودعا إلى طاعة أبي جعفر المنصور ونشر الأعلام السود؛ فاتبعه الأجناد، وتطلعه العباد، إلى أن كادت دولة الأمير أن تنصرم، وخلافته أن تنخرم. فخرج إليه من قرطبة، وصار بقرمونة؛ فتحصن بها مع مواليه وثقات رجاله؛ فنازله العلّاء بن مغيث منازلة شديدة، وحاصره بها أياما عديدة؛ فلما طال الحصار هنالك، وتخلخل عسكر العلّاء لذلك، وعلم عبد الرحمن ما هم عليه من الانزعاج، وأنهم قد هموا بالإلجام والإسراج، أمر بنار، فأوقدت، ثم أمر بأغمدة سيوف أصحابه، فأحرقت؛ وقال لهم: (اخرجوا معي لهذه الجموع، خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع!) وكانوا نحو سبعمائة مفحصين إلى أعاديهم. فدارت الحرب بينهم طويلا، إلى أن صنع الله جميلا؛ وزلزل قوم العلّاء وأصحابه، فولوا منهزمين، وصار أمرهم

آية للعالمين؛ وقتل العلّاء فيمن قتل من أولئك الأقوام، وطيف برأسه في ذلك المقام. وقيل إن أبا جعفر المنصور كان أرسل إلى العلّاء بن مغيث بولاية الأندلس. فنشر الأعلام السود، وقام بالدعوة العباسية بالأندلس؛ فانحشر إليه الناس. ولما ظفر به الإمام على ما تقدم، أخذ رأسه، وفرغ وحشي ملحا وصبرا، وجعل معه لواء أبي جعفر المنصور، وأدخل في سبط؛ وبعثه مع رجال، وأمرهم أن يضعوا السبط بمكة؛ فوافقوا المنصور بها حاجا في تلك السنة؛ فجعل السبط عند باب سراقه. فلما نظر إلى ما فيه، قال: (إنا لله! عرضنا بهذا المسكين للقتل! الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان!) يعني عبد الرحمن. هذا مساق السالمي في (درر القلائد).

ومن (بهجة النفس) قال: وكانت ثورة العلّاء بموضع يقال له لقنت من عمل بباجة. فأظهر سبيل المنصور ولواءه، وجمع إلى نفسه من أجابه، ونهض إلى بباجة؛ فأخذها، وتغلب منها على جميع الغرب، وخرج يريد الأمير عبد الرحمن؛ فسار حتى انتهى إلى المدور. وكان الأمير يومئذ قد خرج غازيا إلى شرق الأندلس؛ فرجع إذ بلغه أمر العلّاء؛ فلما دنا من قرطبة، أمر من كان معه من أهل إشبيلية أن يفروا في المدور، إذ كان قد اتهمهم لميل أهل إشبيلية إلى العلّاء؛ ثم نهض، وكتب سرا إلى بدر مولاه يأمره بقتلهم، كان الظفر له أو عليه. ومضى العلّاء؛ فالتقى معه. فكانت بينهما حروب وزحوف. ثم قتل العلّاء بمقربة من قرمونة، وقضت جموعه. وقتل من أصحابه نحو ستة آلاف. وأمر الأمير بحز رأس العلّاء ورؤوس أشراف أصحابه؛ وقرطت فيها صكوك بأسمائهم، وجعلت في أوعية؛ وندب الأمير بها قوما توجهوا بها إلى القيروان؛ فطرحوها في الليل في الأسواق. فتسمع الناس أمرها، وأتصل الأمر بأبي جعفر؛ فانكسرت حدته. وقيل إن الذي هزم العلّاء بدر مولى عبد الرحمن بن معاوية، والله أعلم.

وفي سنة ١٤٧، وجه الأمير عبد الرحمن بدرا مولاه وتما بن علقمة في جيش كثيف إلى طليطلة، وبها هشام بن عروة ثائر؛ فخاصراه

حتى سئم أهل طليطلة الحصار؛ فكتبوا بدرا وتما، وسألوهما الأمان على أن يسلموا لهما ابن عروة وهشام بن حمزة بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وحيوة ابن الوليد؛ وكانوا يدا واحدة. فأسلموهم إليهما، وخرج بهم تمام إلى قرطبة؛ فلقبه عاصم بن مسلم؛ فقبض منه الأسرى، وعهد إليه عن الأمير أن يكر إلى طليطلة واليا عليها، ويقبل بدر إلى قرطبة. وأقبل عاصم بالأسرى؛ فلما احتل بقرية حلزة، خرج إليه ابن الطفيل، ومعه حجام وحباب صوف وسلال؛ فخلق رؤوسهم ولحاهم، وألبسهم جباب الصوف، وأدخلهم في السلال، وحملهم على الحمرة؛ فأتى على تلك الحال إلى خشب قد أعدت لهم، فصلبوا فيها. وكتب إلى البلدان بفتح طليطلة.

وفي سنة ١٤٩، ثار سعيد البحصي المعروف بالمطري بكورة ليلة؛ واجتمعت اليمانية إليه، ولاذوا بحقوبه. ثم سار إلى إشبيلية، وتغلب عليها قسرا، ولم يجد أهلها في مدافعتهم نصرا. فكثر عدده، وتأزر عضده؛ وعاد عسكره مهولا، قد أخذ وعورا وسهولا. فسار إليه الأمير عبد الرحمن في جيوش عظيمة المدد، مجهولة العدد، حتى نزل عليه بقلعة زعواق؛ وكان المطري قد تحصن بها، ولاذ بجانبها؛ فحصره فيها حصرا، وأرهقه من أمره عسرا، حتى خرج متعرضا للحرب في جماعة من فرسانه الأكبر، ومن اختصه من أولئك البرابر؛ فلم تنشب الحرب بينهم إلا قليلا، وقتل المطري ومن معه تقتيلا. وجئ برأسه إلى الأمير عبد الرحمن؛ فأمر للحين برفعه في طرف سنان.

وفيها، قتل الأمير عبد الرحمن أبا الصباح بن يحيى البحصي. وكان قد ولاه إشبيلية، ثم عزله عنها؛ فجمع إليه أهل الخلاف وصار عليه؛ فوجه إليه الأمير مولاه تماما ملاطفا له؛ فقدم معه قرطبة في أربعمئة رجل على غير عهد؛ فأوصله تمام إليه؛ فعاتبه؛ فأغلظ له أبو الصباح في الجواب؛ فأمر بقتله؛ ثم أمر بإخراج رأسه والتهتف عليه.

وفي سنة ١٥٠، هاجت فتنة البربر بشنت برية. هاجت فتنة البربر بشنت برية.

وفيها، غزا بدر إلى الثغر، وتقدم إلى ألبه؛ فخار بها؛ فأذعنت له، وأدت إليه الجزية. وأمر بامتحان الرجال بتلك الناحية، واختبار بصائرهم؛ فاستقدم منهم من اطلع له على سوء سريرة وشبهة في الثغر.

وفي سنة ١٥٢، ثار رجل من البربر، ادعى أنه من ولد الحسن بن علي - رضي الله عنه -؛ وكان أصله من مكاسة العدو؛ وكانت أمه تسمى فاطمة؛ فادعى أنه فاطمي؛ وتجمع له الغوغاء. فخرج إليه الأمير من قرطبة، وخلف بها ابنه هشام؛ فتقحم الجبال أمامه بمن كان معه، وانصرف الأمير إلى قرطبة. فأقبل الفاطمي، وقتل عامل شنت برية؛ وغلظ أمره. فكان الأمير يرسل إلى قتاله بعض الفياق؛ فيتعلق بالجبال الشواحق.

وفي سنة ١٥٢، خرج الأمير عبد الرحمن لغزو الداعي الفاطمي؛ فهرب وركب الوعر؛ فانصرف الأمير. فرجع الفاطمي؛ فغراه بدر بالصائفة؛ فوجده بجهة شبطران؛ فأتبعه رجاء أن يدركه. فدخل المفاوز، وانقطع أثره. ومضى هذا الفاطمي إلى مدلين؛ وكان عامله أبو زعل الصدفوري. فتمادت فتنته من سنة ١٥٠ إلى سنة ١٦٠، إلى أن اغتاله بعض أصحابه؛ فقتله، وعفره هناك وجدله.

وفي سنة ١٥٤، تهدن الإمام عبد الرحمن بقرطبة، ولم تكن له بها حركة.

وفي سنة ١٥٥، خرج الإمام عبد الرحمن من قرطبة؛ فخل بشنت برية. وقدم عليه هلال من أبناء المديوني؛ فكتب له عهدا على قومه، وأقره على موضعه؛

وكان رأس البربر في شرق الأندلس. وقلده أمر الفاطمي المتقدم الذكر؛ فكان في ذلك الراحة منه، وتفرقت بفعله ذلك كلمة البربر، وانحلت عقدة الفاطمي، وانصرف من شنت برية إلى الجوف.

وفي سنة ١٥٦، ثار على الأمير عبد الرحمن عبد الغافر اليحصبي، وخلع طاعته. وكان الأمير بناحية الشرق؛ فكتب إليه بدر من قرطبة؛ فطوى المراحل إليه؛ ثم تقدم إلى إشبيلية؛ فوضع السيف فيه وفي أصحابه؛ فقتلوا قتلا ذريعا. وأفلت عبد الغافر؛ فركب البحر، ونجا إلى المشرق.

وفي سنة ١٥٧، خرج الأمير عبد الرحمن إلى ناحية الغرب، واحتل بإشبيلية، وقتل بها خلقا كثيرا ممن كان بسيل عبد القادر، وقطع آثارهم، ووطد الطاعة. ثم انصرف معجلا، لأنه إنما قصد امتحان أهل إشبيلية وتحيصهم. وقيل: كان ذلك سنة ١٥٨.

وفي سنة ١٥٩، غزا الإمام عبد الرحمن قورية، وقصد في طريقه ذلك البربر الذين غدروا بأبي زعل ومكنوه من الفاطمي، فقتله؛ فدوخ بلد البربر، وقتل منهم خلقا كثيرا وأذلهم. وأخذ أبا مزكاة المصمودي، وهو عباس ابن قلعوش.

وفي سنة ١٦٠، أخرجت الصائفة إلى الفاطمي؛ وكان في أحواز شنت برية؛ فعورض بالخليل، وقطعت عاديته. وفي سنة ١٦١، وقيل سنة ١٦٢، دخل إلى الأندلس عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلي؛ فنزل كورة تدمير؛ فاستقر بها، ولم تبد منه في تلك السنة عادية؛ وإنما لقب بالصقلي لأنه كان طويلاً، أشقر، أزرق، أعر. وفيها، حمل نهر قرطبة حملاً عظيماً، حتى سد حنايا القنطرة وهدم بعضها وزلزلها؛ وبقي كذلك يومين. وفي سنة ١٦٣، ثار عبد الرحمن بن حبيب الفهري، المتقدم الذكر في السنة قبل هذه، في ناحية تدمير؛ فغزاه الأمير عبد الرحمن؛ فهرب ابن حبيب وتعلق بالوعر؛ فحال العسكر في كورة تدمير، وتقدم إلى كورة بلنسية، بعد أن أحرق المراكب بساحل البحر. ثم إن مشكارا البربري فتك بابن حبيب الصقلي وقتله. وفيها، ثار ابن شجرة بمورور؛ فخرج إليه بدر يوم الأضحى؛ فألقاه على غرة فقتله، وكتب إلى الإمام بالفتح. وقيل: بل كان ذلك في سنة ١٦٢. وفي سنة ١٦٤، غزا الإمام عبد الرحمن الرماحس بن عبد العزيز؛ وكان على شرط مروان بن محمد؛ فلحق بالأندلس؛ فولاه الإمام الجزيرة؛ فخلع طاعته؛ فخرج إليه واحتل بالجزيرة؛ فوجد الرماحس في الحمام؛ فلم يشعر إلا وخيل الإمام تجوس الديار؛ فأجبل الرماحس عن لبس ثيابه، وخرج في ملحفة مصبغة؛ فدخل في قارب، ونجا إلى العدو. ووجد الأمير عبد الرحمن في سجنه جماعة من الأمويين؛ فأطلقهم. وفي سنة ١٦٥، ثار على الأمير عبد الرحمن الحسين بن يحيى بن سعد بن عيادة الأنصاري بسرقسطة؛ فسار إليه بالجماهير؛ والعسكر الشهير؛ فحاصره بسرقسطة حصاراً، وقدم لقتاله أحزاباً وأنصاراً، إلى أن خرج طائعا إليه، مترامياً عليه؛ فقبل إنابته، ولم يحرم إجابته. فلما عفا عنه، وأغضى عما كان منه، أبقاها بسرقسطة واليا. وقفل الأمير إلى قرطبة سامي اللواء، قاهر الأعداء. ثم إن الحسين خفر الذمة، وكفر النعمة، وأعلن بالنفاق إعلاناً، وأرسل في الشقاق عناناً؛ فسار إليه الإمام أيضاً، ونازله نزالاً، وأذاق سرقسطة نكالاً، إلى أن فتحها بنقب سورها فتحا شنيعاً، وقتل الحسين وأصحابه قتلاً ذريعاً. وولى عليهم علي بن حمزة، وقفل إلى قرطبة طاهر العزة. ومن (كتاب بهجة النفس) قال: وفي سنة ١٦٧، غزا الإمام سرقسطة إلى حسين بن يحيى؛ فحاصره حتى أخذ المدينة عنوة، وقتل حسيناً بالدمغة وجماعة معه؛ وأخرج أهل المدينة عنها إلى قرية على ثلاثة أميال ليمين لزمته فيهم؛ ثم صرفهم إليها بعد أيام، وقفل إلى قرطبة. وفي سنة ١٦٨، أراد المغيرة بن الوليد بن معاوية القيام على الإمام؛ وكان وطنه يومئذ بالرصافة؛ فانكشف له يومئذ أمره من قبل بعض من تعاقد معه؛ فأحضرهم بين يديه، وأقروا؛ فأمر بقتلهم، واستبقى الناضح لهم. وتحول الإمام عبد الرحمن يومئذ من الرصافة إلى قصر قرطبة. وفي سنة ١٦٩، ثار على الأمير عبد الرحمن محمد بن يوسف الفهري، الذي كان في تعامله وهرب؛ وكان قد تحرك من طليطلة وجهة الشرق بالخشود. وبلغ الإمام خبره؛ فأمر بحشد الكور، والتقى معه في مخاضة الفتح؛ فكان بينهم زحف وقتال أياماً؛ ثم انهزم محمد المذكور؛ فقتل رجاله، وأفنى عدده. وكانت هذه الواقعة يوم الأربعاء مستهل ربيع الأول من السنة. قال الرازي قتل فيها أربعة آلاف رجل، سوى من تردى في الوادي، وهلك في المهاوي. وهرب محمد بن يوسف هذا إلى قورية. وفي سنة ١٧٠، خرج الأمير عبد الرحمن إلى محمد بن يوسف الفهري، حتى بلغ قورية. فقرأ أمامه، وأدركت الخيل عياله وأصحابا له؛ فقتل من أدرك

١٢.٢ ذكر بعض أخباره على الجملة

وأحرقت دوره. وانقطع محمد بن يوسف وحده، وانحاش إلى غياض. وأوقع الأمير ببربر نفزة؛ فأذله، وأذهب عاديتهم. ثم مات محمد بن يوسف بقربة ركانة من عمل طليطلة. وفي سنة ١٧١، قام قاسم بن عبد الرحمن الفهري، عم محمد بن يوسف أخو يوسف الفهري، وخلع الطاعة؛ فلما تحرك أمره، وجه إليه

الأمير عبد الرحمن الجيوش؛ فأذعن له بالطاعة.

وفي سنة ١٧٠ المتقدمة، أمر الأمير عبد الرحمن بتأسيس المسجد الجامع بحضرة قرطبة؛ وكانت بموضعه كنيسة؛ فأنفق فيه مائة ألف بالوازنة.

وفي سنة ١٧٢، مات الإمام عبد الرحمن بن معاوية - رحمه الله! - وذلك يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر من السنة المذكورة. ذكر بعض أخباره على الجملة

كان الإمام عبد الرحمن فصيحاً، بليغاً، حسن التوقيع، جيد الفصول، مطبوع الشعر. مما أملاه على كاتبه إلى سليمان بن الأعرابي: (أما بعد، فدعني من معاريف المعاذير، والتعسف عن جادة الطريق! لتمدن يدا إلى الطاعة، والاعتصام بحبل الجماعة، أو لألقين بناها على رصف المعصية نكالا بما قدمت يدك! وما الله بظلام للعبيد!).

وكتب عنه أمية بن زيد كتاباً إلى بعض عماله، يستقصيه فيما فرط من عمله؛ فأكثر وأطال الكتاب. فلما لحظه عبد الرحمن بن معاوية، أمر بقطعه، وكتب بخط يده: (أما بعد، فإن يكن التقصير لك مقدماً، فعد الاكتفاء أن يكون لك مؤخراً. وقد علمت بما تقدمت؛ فاعتمد على أيهما أحيت!).

وثار عليه ثائر؛ فغزاه وظفر به. فبينا هو في الطريق، إذ نظر إلى الثائر، وهو على بغل في كبوله، وتحت الأمير عبد الرحمن فرس له؛ فلما لحقه، قنع رأسه بالفئاة، وقال: (يا بغل! ماذا تحمل من الشقاق والنفاق!) فقال الثائر: (يا فرس! ماذا تحمل من العفو والإشفاق!) فقال: (والله! لا ذقت موتاً على يدي!) فأطلقه.

ومن شعره البديع الرائع، ما كتب به إلى بعض من طرأ عليه من قريش؛ وكان قد استقل جريته، واستطال بقرابته، وسأله الزيادة له والتوسعة؛ فكتب إليه بهذه الأبيات (بسيط):

سَيَّانٌ مَنْ قَامَ ذَا امْتِعَاضٍ ... بِمَنْتَضَى الشَّفَرَتَيْنِ نَصْلًا
جَبَابٌ قَفْرًا وَشَقَّ بَحْرًا ... مُسَامِيًا لُجَّةً وَمَحَلًّا
فَبَزَّ مُلْكًا وَشَادَ عَرًّا ... وَنَاثِرًا لِلْخَطَابِ فَصْلًا
وَجَنَدَ الْجُنْدِ حِينَ أَوْدَى ... وَمَصَرَ الْمَصْرَ حِينَ أَجَلَّا
ثُمَّ دَعَا أَهْلَهُ جَمِيعًا ... حَيْثُ اتَّبَعُوا أَنْ هَلُمَّ أَهْلًا
لِجَاءِ هَذَا طَرِيدٍ جُوعٍ ... شَرِيدٍ سَيْفٍ أَيْدٍ قَتْلًا
فَنَالَ أَمْنًا وَنَالَ شَبْعًا ... وَنَالَ مَالًا وَحَازَ أَهْلًا

وذكر أن أيا جعفر المنصور قال يوماً لبعض جلسائه: (أخبروني: من صقر قريش من الملوك؟) قالوا: (ذاك أمير المؤمنين الذي راض الملوك، وسكن الزلازل، وأباد الأعداء، وحسم الأدواء!) قال: (ما قلتم شيئاً!) قالوا: (فمعاوية؟) قال: (لا!) قالوا: (فجند الملك بن مروان؟) قال: (ما قلتم شيئاً!) قالوا: (يا أمير المؤمنين! فمن هو؟) قال: (صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية، الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلداً أعجمياً، منفرداً بنفسه؛ فصر الأمصار، وجند الأجناد، ودون الدواوين، وأقام ملكاً عظيماً

بعد انقطاعه، بحسن تدبيره، وشدة سكيمته. إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، وذللاً له صعبه؛ وعبد الملك يبيعه أبرم عقدها؛ وأمير المؤمنين يطلب عزته، واجتماع شيعته. وعبد الرحمن منفرد بنفسه، مؤيد برأيه، مستصحب لعزمه، وطد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين، وأذل الجبابرة الثائرين!) فقال الجميع: (صدقت، والله، يا أمير المؤمنين!) وكان الإمام عبد الرحمن من أهل العلم، وعلى سيرة جميلة من العدل. ومن قوله رحمه الله! يتذكر وكنه (خفيف):

أَيُّهَا الرَّاكِبُ الْمَيِّمُ أَرْضِي ... أَقْرَأُ بَعْضَ السَّلَامِ عَنِّي لِبَعْضِي
إِنَّ جِسْمِي كَمَا تَرَاهُ بَارِضٍ ... وَفُؤَادِي وَمَالِكِيهِ بَارِضٍ
قُدِّرَ الْبَيْنُ بَيْنَنَا فَافْتَرَقْنَا ... وَطَوَى الْبَيْنُ عَن جُفُونِي غَمَضٍ

قَدْ قَضَى اللَّهُ بِالْعَادِ عَلَيْنَا ... فَعَسَى بِاقْتِرَابِنَا يَوْفَ يَقْضِي

وله من الشعر كثير مشهور. وذكر الرازي أن الإمام عبد الرحمن، أول نزوله بمنية الرصافة واتخاذها لها، نظر فيها إلى نخلة؛ فهاجت شجته، وتذكر وطنه؛ فقال على البديهة (طويل) :

تَبَدَّتْ لَنَا وَسَطُ الرُّصَافَةِ نَخْلَةً ... تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنْ بَلَدِ النَّخْلِ

فَقُلْتُ شَيْبِي فِي التَّغْرِبِ وَالنَّوَى ... وَطُولِ التَّنَائِي عَنْ بَنِي وَعَنْ أَهْلِي

نَشَأْتُ بِأَرْضٍ أَنْتَ فِيهَا غَرِيْبَةٌ ... فَمِثْلُكَ فِي الْإِقْصَاءِ وَالْمُنْتَايِ مِثْلِي

سَقَاكَ غَوَادِي الْمُنْزَنِ مِنْ صَوْبِهَا الَّذِي ... يَسُحُّ وَيَسْتَمِرِّي السَّمَائِينَ بِالْوَبْلِ

وكان - رحمه الله! - قد عقد العهد لابنيه هشام وسليمان. فولى بعده هشام، على ما أذكره.

١٢٠٣ خلافة هشام الرضي بن عبد الرحمن الداخل

خلافة هشام الرضي بن عبد الرحمن الداخل

كنيته: أبو الوليد. مولده: سنة ١٣٩. أمه تسمى جمال. نقش خاتمه: (بالله يثق عبده هشام وبه يعتصم) . صاحب شرطته: عبد الغافر بن أبي عبدة. وزراؤه: ثمانية. كتابه: اثنان: فطيس بن عيسى، وخطاب بن زيد. قاضيه: المصعب بن عمران. صفته: أبيض مُشرب بجمرة، بعينه حول. حاجبه: عبد الرحمن بن مغيث. بنوه: الذكور ستة، والإناث خمس.

ببيع يوم الأحد مستهل جمادى الأولى من السنة. وكان عند موت أبيه بمدينة ماردة؛ فوافاه الخبر؛ فطرق، ووصل قرطبة بعد ستة أيام. فبايعه الخاصة والعامة. وكان أخوه بطليطة؛ وكان أكبر سنا منه فلما اتصل به خبر أبيه، حشد الحشود، وجند الجنود، يريد قرطبة، مخالفا لأخيه. فلما حصل بجيان، خرج إليه هشام في أجناده، والتقى معه بجهة بلج؛ ف وقعت بينهم حرب شديدة؛ فانهزم سليمان، وأسلم عسكره، وفر على وجهه. وقفل هشام إلى قرطبة ظافرا في أجناده.

وتوفي هشام ليلة الخميس ثلاث خلون من صفر سنة ١٨٠؛ فكان عمره أربعين سنة وأربعة أشهر وأربعة أيام؛ فكانت مدة دولته وخلافته سبع سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام.

وقيل إن عبد الرحمن بن معاوية - رحمه الله! - لما حضرته الوفاة، وابنه هشام بماردة، وابنه الآخر سليمان بطليطة، وكل ابنه عبد الله المعروف بالبلنسي، وقال له: (من سبق إليك من أخوتك، فأرم إليه بالخاتم والأمر! فإن سبق إليك هشام، فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه؛ وإن سبق إليك سليمان، فله فضل سنه ونجدته وحب الشاميين إليه!) فقدم هشام من ماردة قبل سليمان؛ فنزل بالرصافة، وخاف من عبد الله أخيه، إذ صار

متمكنا من قرطبة والقصر والأموال، أن يدافعه. فخرج إليه أخوه عبد الله، وسلم عليه بالخلافة، ودفع إليه الخاتم، كما أوصاه أبوه، وأدخله القصر.

قال الرازي: ولما صار الأمر إلى هشام، واتصل ذلك بسليمان أخيه، أخذ بيعة أهل طليطة وما جاورها لنفسه، وغلب عليها. وشغله أمر أخيه هشام. فثار سعيد بن الحسين الأنصاري بساغنت من إقليم طرطوشة، وأقبل إلى سرقسطة؛ فأخرج منها وإليها، وضرب بين الناس، ودعا إلى نفسه وإلى الفتنة؛ فأرسلها مضرية ويمانية. وحشد موسى بن فرتون إلى سرقسطة؛ فأخذها؛ وكان على دعوة المضرية؛ فالتقى مع اليمنيين. وكانت بينهم حرب؛ فقتل منهم جماعة، ودخل سرقسطة. ثم قدم مطروح بن سليمان بن الأعرابي على دعوة أبيه من برسلونة؛ فتغلب على وشقة وسرقسطة والثغر كله.

وفي سنة ١٧٣، طمحت نفس عبد الله البلنسي أخي هشام إلى الإمارة؛ وقد كانت في يده أولا، ولم يرض منه إلا بمشاركته، وذلك بعد سبعة أشهر من وفاة والدهما. وكان هشام يبره، ويتراضاه، ويفضله على الكثير من اخوته؛ فلم يقنعه ذلك، وخرج يريد أخاه سليمان

بطليلة. فلما بلغ الأمر إلى هشام، أشفق من ذلك، وأخرج إليه من يرضيه ويرده؛ فلم يدركه. ومضى حتى قدم طليطلة. وفي هذه السنة، خرج هشام إلى أخيه سليمان بطليلة. فلما نزل عليه، خرج سليمان مستخفياً، وخلف أخاه عبد الله وابنه داخل المدينة، ونهض يريد انتهاز الفرصة؛ فطوى المراحل، حتى احتل بشقندة. فخرج أهل قرطبة مدافعين له. وبلغ هشام خبره؛ فلم يكثر ذلك. ووجه ابنه عبد الملك يقفو أثره؛ فلما قرب منه، ولى سليمان منهزماً، وقطع إلى غير وجهة حتى خرج متعسفاً إلى ناحية ماردة؛ وكان عاملها حدير المعروف بالمذبح؛ فخرج إليه؛ فهزمه. وتمادى الأمير هشام في حصار طليطلة شهرين وأياماً؛ ثم قفل عنها. وفي سنة ١٧٤، انصرف عبد الله البلنسي إلى أخيه هشام بلا عهد ولا أمان؛ فأنزله الإمام هشام عند ابنه الحكم. وفيها، أغزى هشام ابنه معاوية إلى تدمير، وقائده شهيد بن عيسى وتمام ابن علقمة؛ فدوخوا تدمير (وهي مرسية) ، وبلغوا البحر. وكان سليمان (يعني أخا هشام) قد حصل في بعض ثغور تدمير؛ فطلب سليمان الأمان؛ فاشتراط عليه الأمير هشام الخروج عن الأندلس، ويعطيه ستين ألف دينار؛ فركب سليمان البحر بأهله وولده، واحتل ببلاد البربر. فكفاه الله أمر إخوته. وفي سنة ١٧٥، أغزى هشام بن عبد الرحمن عبيد الله إلى سرقسطة، وبها يومئذ مطروح المذكور؛ فحاصرها عبيد الله؛ ثم احتل بمدينة طرسونة، وألح عليها بالمحاصرة، حتى ضاق ذرع أهل سرقسطة، وضجوا من تمادي الحصار؛ فخرج مطروح في بعض الأيام متصيذاً، ومعه عمرو بن يوسف وابن صلتان؛ فلما أرسل بآزیه على طائر ونزل على الصيد، تعاورا بسيوفهما حتى قتلاه، واحتزا رأسه، وتقدما به إلى ابن عثمان، وهو بطرسونة؛ فتحرك إلى سرقسطة؛ فلم يمتنع عليه أحد من أهلها؛ ودخل المدينة؛ فزله، وبعث برأس مطروح إلى الأمير هشام.

وفي سنة ١٧٦، أغزى الإمام هشام أبا عثمان عبيد الله بن عثمان إلى ألبه والقلاع؛ فلقي بها أعداء الله بجوعهم متوافين؛ فهزمهم الله على يديه، وقتلوا في السهل والوعر؛ وانتهى ما حيز من رؤوسهم إلى تسعة آلاف رأس ونيف.

وفي هذه السنة، غزا يوسف بن بخت إلى جليقية؛ فالتقى بيرمود الكبير، وواضعه الحرب؛ فانهزم عدو الله، وانتهب المسلمون عسكره، وقتل فيهم مقتلة عظيمة، وحز من رؤوسهم عشرة آلاف، سوى من لم يتمكن منه ممن قتل في الوعر. وأتى هذا الفتح قرطبة بعد فتح أبي عثمان. ذكر ذلك الرازي وغيره.

وفي سنة ١٧٧، أغزى الإمام هشام عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة إلى أرض الروم، وهي غزوة شهيرة الخبر، جليقة الخطر، انتهى فيها إلى إفرنجة؛ فحاصرها، وثلم بالجانيق أسوارها، وأشرف على بلاد المجوس؛ وجال في بلاد العدو، وبقي شهوراً يحرق القرى ويخرب الحصون. وأوقع بمدينة أربونة؛ وكان فتحاً عظيماً، بلغ فيه خمس السبي إلى خمسة وأربعين ألفاً من الذهب العين.

وفي سنة ١٧٨، هاجت الفتنة بتاكرنا، وخالف بربرها، وغاروا على الناس، وقتلوا وسبوا. فبعث الإمام هشام إليهم الأجناد بعد الإعذار إليهم. فقتل أكثرهم، وفر سائرهم إلى طليبة وترجيلة. وأقامت تاكرنا، وهي إقليم رندة، وبلادها خالية قفراً سبع سنين.

وفي سنة ١٧٩، أغزى الإمام هشام بن عبد الرحمن عبد الكريم بن مغيث بالصائفة، حتى انتهى إلى مدينة أسترقة داخل جليقية. فبلغه أن إذفونش قد حشد بلاده، واستمد البشكنش وأهل تلك النواحي التي عليه من المجوس وغيرهم، وأنه عسكرهم ما بين حيز جليقية والصخرة، وأنه أذن لسكان السهل بالتفرق في شواحق جبال السواحل. فقدم عبد الكريم فرج بن كانة في أربعة آلاف فارس؛ ثم رحل في إثره؛ فألقى أعداء الله؛ فواضعهم الحرب حتى هزمهم الله؛ فقتل حماهم، وأسر جماعة منهم؛ ثم أمر بعد انحلال الحرب بقتلهم، وبث الخيل في القرى؛ فانسفت جميع ما ألفته من زروعهم، وخربت ما مرت عليه من عمارتهم. وتقدم بعد ذلك إلى واد يقال له كوثية؛ فلقى به غندماره

١٢٠٤ ذكر بعض أخباره على الجملة

وهو في ثلاثة آلاف فارس فقاتله حتى انهزم عسكره، وأخذ غندماره أسيراً، وقتل من أصحابه عدد كثير. وأصاب العسكر جميع ما في تلك الناحية. وتقدم مستنجزاً لإذفونش؛ فلما بلغه قصده إليه، تنحى عن الجبل الذي كان فيه منحازاً عنه إلى حصن له، كان قد بناه

وأثنته على وادي نلون؛ فتقرب منه عبد الكريم مقتنيا لأثره، ولا يمر بمنزل فيما بينه وبينه إلا حرقه، ولا بمال إلا أصابه، حتى أطل على الحصن. فانتقل منه إلى حصن ملكه. واحتل عبد الكريم بالحصن الذي انتقل منه؛ فألقى فيه الأطعمة وضروب الذخر، وبعث في اليوم الثاني من حلوله به فرج بن كانة، في عشرة آلاف فارس، يقفوا أثره؛ فلما قرب منه، انهزم عنه وأسلم جميع عدته وذخره؛ فغنم المسلمون جميع ذلك.

وفي سنة ١٨٠، توفي الإمام هشام بن عبد الرحمن - رحمه الله عليه! - ودفن بقصر قرطبة؛ وصلى عليه ابنه الحكم؛ وذلك ليلة الخميس، كما تقدم ذكره. وبايع الناس ابنه الحكم؛ وكان ابنه عبد الملك أسن منه.

ذكر بعض أخباره على الجملة

كان - رحمه الله! - بسط البنان، فصيح اللسان، وسبع الجنب، حاكما بالسنة والكتاب؛ قبض الزكوات من طرقها، ووضعها في حقها؛ لم يأخذه في الله لوم ولا تعلق به ظلم. ارتفع أخوه عن مبايعته، وامتنع عن طاعته، واستبد بظليطة استبدادا، واستنفر للخلاف والنفاق أجنادا؛ فما زال يشتغل بالفتنة بالا، ويذيق الناس وبالا؛ قد عظمت عليه به المحنة، وعدمت منه الهدنة، حتى مات الأمير هشام، وحكمت بخلافة ابنه الحكم الأحكام؛ فخاربه في تلك القطار، إلى أن اختطفته الأسنة والشفار؛ فأمن بعد ذلك الجنب، ولم يكن في ذلك التاريخ هنالك ما جنب.

وكان هشام يبعث إلى الكور قوما عدولا يسألون الناس عن سير العمال، ثم ينصرفون إليه بما عندهم؛ فيقع نظره بهدم ما تكشفه المحنة له منهم. واعترض له يوما متظلم من أحد عماله؛ فبدر إلى الشاكي من رجال العامل من ترخاه شنقة منه على العامل. فبعث إلى الشاكي وقال له: (احلف على كل ما ظلمك فيه؛ فإن كان ضربك، فاضربه؛ أو هتك لك سترًا، فاهتك ستره؛ أو أخذ لك مالا، فخذ من ماله مثله، إلا أن يكون أصاب منك حدا من حدود الله!) فجعل الرجل لا يحلف على شيء إلا أقيد منه. فكان زجره هكذا العمال، أبلغ فيهم من النكال والأدب. وكان كريما، عادلا، فاضلا، متواضعا، عاقلا، لم تعرف منه هفوة في حديثه، ولا زلة في أيام صباه. (ومن كرمه أنه كان يصبر أموالا في ضرور، ويخرج بها بين المغرب والعشاء يتفقد المسجد؛ فإذا وجد واحدا يصلي في مسجد أو لا يصلي، وضع بين يديه صرة، حتى كثرت عمارة المساجد وكان - رحمه الله! - قد نظر في بنيان قنطرة قرطبة، وأنفق في إصلاحها أموالا عظيمة. وتولى بناءها بنفسه، وتعطى الأجرة بين يديه. قال ابن وضاح: لما بنى هشام القنطرة، تكلم بعض الناس فيه، وقالوا: (إنما بناها لتصيد وزهته!) خلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة.

قال القاضي أبو معاوية: أدركت صدرا من الناس يحكون أن أيام هشام هذا كانت من الدعة والعافية والهدوء بحيث لم يعلم لها مثل. وكان يحضر الجنائز، ويزاحم فيها، كأنه أحد من الناس، تواضعا. وكان لبعض رجال هشام خصومة في دار عند القاضي مصعب بن عمران؛ فسجل عليه القاضي فيها وأخرجه منها؛ فنهض الرجل إلى هشام، وقال له: (إن القاضي سجل علي في داري التي كنت أسكنها، وأخرجني عنها!) فقال له هشام: (وماذا تريد مني؟ والله لو سجل علي القاضي في مقعدي هذا، لخرجت عنه!) انقيادا منه للحق - رحمه الله عليه!.

١٢٠٥ قصة الكاني مع هشام بن عبد الرحمن

قصة الكاني مع هشام بن عبد الرحمن

كان قبل خلافته يقعد في علة مطلة على النهر، ينظر منها إلى الرض، وتقع عينه على من يخطر. فنظروا في الهجرة إلى رجل من بني كانة؛ وكان من صنائعه، مقبلا من باديته بجبان؛ وكان أخوه سليمان واليا عليها؛ فدعا فتى له وقال له: (أرى الكاني صنيعنا مقبلا في هذه الظهيرة، وما أحسب ذلك إلا لخطب ألقه من أبي أيوب أخي. فإذا وصلك، فأدخله على كما هو.) ففعل الفتى ما أمره. وكانت مع هشام جارية له. فلما دنا الكاني، رفع سترًا كان أمامه؛ فدخلت الجارية خلفه؛ ثم قال له، بعد أن سلم عليه: (يا كاني، لا أحسبك إلا قد دهمك أمر!) فقال له الكاني: (قتل رجل من بني كانة رجلا خطاء؛ فحملت الدية على العاقلة؛ فأخذت بنو كانة

عامة، وحيف عليّ من بينهم خاصة، لما عرف أبو أيوب مكاني منك. فعذت بك من ظلامي!) فقال له: (يا كئاني! ليفرج روعك وليسكن جأشك لا جرم قد تحمل هشام عنك وعن قومك جميع الدية!) ثم مد يده إلى خلف الستر؛ فأخرج عقدا كان على الجارية، ثم ثلثة آلاف دينار؛ فقال له: (خذ هذا العقد؛ فأد من ثمنه عنك وعن قومك، وتوسع في الباقي!) فقال الكئاني: (يا سيدي! إنه لم أتك مستجديا ولا ضاق لي مال عن أداء ما حملته؛ ولكني أتيتك مستجيرا بك لما أصبت بالعدوان والظلم؛ فأحببت أن تظهر على من عز نصرك!) قال له: (فما وجه نصرك؟) قال له: (أن يكتب الأمير - أصلحه الله! - إلى أبي أيوب في الإمساك عن أخذي بما لم يجب عليّ، وأن يحملني محل عامه أهلي!) فقال له هشام: (خذ العقد لأهلك ولنفسك، إلى أن ييسر الله فيما ذهبت إليه من أمرك!) ثم أمر هشام بإسراج دابته من فوره، وركب إلى أبيه الأمير عبد الرحمن. فلما مثل بين يديه، قال له: (رجل من بني كئانة، هو لي صنيعة،

١٢٠٦ خلافة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن

عدا عليه أبو أيوب ببيان في دبة حملت على العاقلة!) قال الأمير: (فما تحب في أمره؟) قال: (الكتب إليه بالكف عنه، وأن لا يؤخذ بغير ما لزمه!) فقال الأمير: (أو خير من ذلك! يؤدي الدية عنه وعن قومه من بيت المال، إذ هو منك بهذه المنزلة، وإذ أنت له بهذه العناية!) فأكثر هشام الشكر لوالده؛ ثم أمر الإمام بأداء الدية من بيت المال، وبالكتب إلى أبي أيوب بترك التعرض للكئاني. ولما حان توديع الكئاني لهشام، قال له: (يا سيدي، إني قد بلغت فوق الأمانة، وجاوزت أقصى غاية العز والنصرة! وهذا العقد النفيس قد أغنى الله عنه!) فقال له هشام (يا كئاني، إنه لا سبيل إلى رد شيء قد خرج عنا. نخذه مباركا لك فيه!) وهشام هذا هو الذي أكل سقائف المسجد الجامع بقرطبة، ورفع منارته القديمة، وبني الميضأة العجيبة، وعقد من الجسر ما كان نثلم بالسيل - رحمه الله!

خلافة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن

كنيته! أبو العاصي. أمه: زخرف. مولده: سنة ١٥٤. بويغ بعد موت أبيه بليلة، يوم الخميس ثمان خلون من صفر سنة ١٨٠، وهو ابن ست وعشرين سنة؛ فكانت خلافته ستا وعشرين سنة، وأحد عشر شهرا. كتابه: ثلاثة: فظبس، وخطاب بن زيد، وحجاج العقيلي؛ حاجبه: عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث؛ وزراؤه وقواده: خمسة: إسحاق بن المنذر، والعباس بن عبد الله، وعبد الكريم بن عبد الواحد المذكور، وفطيس بن سليمان، وسعيد بن حسان. قضاته: مصعب بن عمران، ومحمد بن بشير، والفرج بن كئانة، وبشر بن قطن، وعبيد الله بن موسى، ومحمد بن تليد، وحامد بن محمد بن يحيى. نقش خاتمه: (بالله يثق الحكم وبه يعتصم! صفته: آدم، شديد الأدمة، طويل، أشم، نحيف، لم يخضب. بنوه الذكور: تسعة عشر، والبنات: إحدى وعشرون. توفي لأربع بقين لذي الحجة سنة ٢٠٦؛ فكان عمره اثنان وخمسون سنة.

ولما بلغ موت هشام الرضى إلى سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمن بن معاوية، وهما بالعدوة، تقدم عبد الله؛ فجاز البحر إلى ريف الأندلس.

ولما بويغ الحكم بالخلافة، واستوسق له الأمر، وجه عبد الكريم بن عبد الواحد غازيا إلى دار الحرب، في جيش عظيم؛ فاحتل عبد الكريم بالثغر؛ وتوافت عليه الجيوش. ثم تقدم، فاحتل على شاطئ البحر، وقسم الجيش على ثلاثة أقسام، وقدم على كل قسم رئيسا، وأمر كل واحد منهم بأن يغير على الناحية التي قصدها ووجه إليها؛ ففضوا، وأغاروا، واستباحوا، وانصرفوا غانمين ظافرين. ثم عادوا ثانية إلى الإغارة، وجاوزوا خليجا كانت تمد وتحصر؛ وكان أهل تلك النواحي قد تحرزوا بها، ونقلوا إليها العيال والماشية والأموال؛ فأغاروا عليها، واحتلوا على جميع ما وجدوا فيها، وانصرفوا سالمين غانمين.

وفي سنة ١٨١، ثار على الأمير الحكم بهلول بن مرزوق المعروف بأبي الحجاج في ناحية الثغر، ودخل سرقسطة، وملكها. وحل به عبد الله بن الأمير عبد الرحمن بن معاوية؛ وكانت وجهته إلى إفريقية.

وفيها، ثار عبيدة بن حميد بطليطلة؛ فنصب الحكم عمرو بن يوسف لحربه من طلبيرة؛ فكان يتردد لحربهم؛ ثم إن عمرو كاتب رجلا من أهل طليطلة، واستلطفهم حتى مالوا إليه؛ فدعاهم إلى القيام على عبيدة، والفتك به؛ ووعدهم على ذلك بمثوبة جليلة من

الأمير؛ فبدروا إليه، وقتلوه، وتوجهوا برأسه إلى عمروس؛ فأنزلهم عند نفسه بطليبة. فلما علم بهم بعض بربر طليبة، وكانت بينهم دماء، دخلوا عليهم تلك الليلة الدار؛ فقتلوه. فبعث عمروس برأس عبيدة وبرؤوس المذكورين، وهم بنو مخشي إلى الحكم بقرطبة، وكتب إليه يخبرهم. ثم إن عمروس أعمل جهده في استجلاب أهل طليطة بمكاتبتهم، حتى أدخلوه المدينة. فلما تمكن منها، بنى القصر على باب جسرهما؛ فأحكمه، وأتقن أمره؛ ثم سعى في قتل رجال طليطة، وقطع شرهم، وحسم دأهم، توطيدا للمملكة. فأعد للكيد صنيعة، أظهر أنه يذبح فيه البقر، وأمر أن يكون دخول الناس على باب، وخروجهم على باب. فكان كل من دخل وتجاوز الباب قتل، حتى أفنى من أشرافهم سبعمائة.

وفي سنة ١٨٢، كان السيل العظيم بقرطبة، ذهب بربض القنطرة؛ ولم يبق فيه دارا إلا هدمها، حاشى غرفة عون العطار. وبلغ السيل شقنقة.

وفيها، دخل سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية الأندلس من العدو، وتقدم متعرضا لحرب الحكم، في شوال منها؛ فانهزم سليمان، بعدما دارت بينهما حرب شديدة. وفيها، عاد سليمان ثانيا للقتال؛ والتقى مع الحكم أيضا ببسطة؛ فانهزم سليمان.

وفي سنة ١٨٣، خرج سليمان، ومعه برابر اجتمعوا إليه، إلى ناحية إستجة؛ فغزاه الحكم، والتقى بمقربة من إستجة؛ فدارت بينهم حروب شديدة أياما. ثم انهزم سليمان بمن كان معه. ثم التقى أيضا في هذا العام؛ فانهزم سليمان.

وفي سنة ١٨٤، حشد أبو أيوب سليمان بن عبد الرحمن من الشرق، فاحتل بحيان، ثم باليرة. فاتبعه جماعة من الكورتين، والتقى معه الحكم؛ فدام القتال بينهم أياما، حتى هم الحكم بالهزيمة. ثم انهزم سليمان، وأفلت. وقتل في المعترك بشر كثير. وبعث الحكم أصبغ بن عبد الله في طلبه؛ فلحقه بجهة ماردة، وأخذه أسيرا، وأتى به إلى الحكم؛ فأمر بقتله، وبعث برأسه إلى قرطبة.

وفي سنة ١٨٦، أخرج الحكم إلى عمه عبد الله البلنسي أمانا؛ وهو أول خروج كان إليه، وأول مكاتبة كانت بين الحكم وبينه بعد حلوله ببلنسية.

وفي سنة ١٨٧، انعقد أمان عبد الله البلنسي وصلحه بإجزاء الأرزاق عليه، وذلك ألف دينار لكل شهر، وإيجراء المعارف، وذلك ألف دينار لكل عام.

١٢٠٧ مقتل أهل الربض أولا قبل هيجه ثانية

ونخرج إليه هذا الأمان يحيى بن يحيى وابن أبي عامر؛ فعقد الصلح على ذلك وعلى أن يسكن عبد الله بلنسية. وقدم يحيى وابن أبي عامر بولد عبد الله على الحكم؛ فزوجه أخته شقيقته.

مقتل أهل الربض أولا قبل هيجه ثانية

وفي سنة ١٨٩، صلب الإمام الحكم اثنين وسبعين رجلا بقرطبة، منهم أبو كعب بن عبد البر، ويحيى بن مضر، ومسرور الخادم. وكان السبب في ذلك أنهم أرادوا الغدر به، وهموا بالخلاف عليه؛ وطلبوا رئيسا يقومون به. فوقع الخبر علي محمد بن القاسم عم هشام بن حمزة، وأطلعوا على أمرهم، ودعوه للقيام معهم؛ فخذلهم، وأفشى سرهم، وتقرّب إلى الحكم بدمائهم. فتثبت الحكم، وسأله تصحيح ما رفع إليه؛ فقال له: (هات أمناك!) فأخفاهم عنده، ووجه عنهم لميعاده؛ ثم قال لهم: (هذا الذي تدعونني إليه لا أثق بمن سميت، دون أن أسمع منهم كما سمعت منكم؛ فتطيب نفسي، وأدخل في الأمر على قوة وبصيرة!) فأتوه، وسمه مقاتلهم، والأمناء بحيث يرون ويسمعون. فلما صح عند الحكم أمرهم بشهادة الأمناء عليهم، أخذهم وصلبهم جميعا بمردة واحدة. ثم أتقن سور قرطبة وحفر خندقها، وتوجه غازيا إلى بلاد المسلمين.

ومن قوله (طويل) :

رَأَيْتُ صُدُوعَ الْأَرْضِ بِالسَّيْفِ رَافِعًا ... وَقَدَمًا لَأَمْتُ الشَّعْثِ مَذْ كُنْتُ يَافِعًا
فَسَأَلْتُ ثَغُورِي هَلْ بِهَا الْآنَ ثَغْرَةٌ ... أَبَادَرَهَا مَسْتَنْضِي السَّيْفِ دَارِعًا
وَشَافِهِ عَلَى الْأَرْضِ الْفُضَاءِ جَمَاجِمًا ... كَأَخَافِ شَرِيَانَ الْهَبِيدِ لَوَامِعًا

تَنْبُكُ أَنِي لَمْ أَكُنْ عَنْ قَرَاعِهِمْ ... بِوَانٍ وَأَنِي كُنْتُ بِالسَّيْفِ قَارِعًا
فَإِنِّي إِذَا حَادُوا جِزَاعًا عَنْ الرَّدَى ... فَلَمْ أَكُ ذَا حَيْدٍ عَنِ الْمَوْتِ جَارِعًا
حَمَيْتُ ذِمَارِي وَانْتَهَكْتُ ذِمَارَهُمْ ... وَمَنْ لَا يَحَامِي ظِلَّ خَزْيَانٍ ضَارِعًا
وَلَمَّا تَسَاقَيْنَا سِجَالُ حُرُوبِنَا ... سَقَيْتَهُمْ سَمًّا مِنَ الْمَوْتِ نَافِعًا
وَهَلْ زِدْتُ أَنْ وَقَيْتَهُمْ صَاعَ قَرْضِهِمْ ... فَوَافُوا مَنِيًّا قَدَّرْتُ وَمَصَارِعًا
فَهَآكَ بِلَادِي إِنِّي قَدْ تَرَكْتُهَا ... مَهَادًا وَلَمْ أَتْرُكْ عَلَيْهَا مَنَازِعًا

وفي سنة ١٩٠، خرج الأمير الحكم غازيا إلى ماردة. فلما وصلها، احتلها وحاصرها (وكان بها أصبغ بن عبد الله بن وانسوس ثائرا) وإذا بالخبر وصله أن سواد أهل قرطبة أعلنوا بالنفاق، وتداعوا إلى صاحب السوق بالسلاح؛ وكتب المخلفون إلى الحكم بما حدث بعده وبما ظهر من ضمائر السفلة؛ فصدر قافلا، وطوى المراحل، وقطع الطريق في ثلاثة أيام، ودخل القصر. فهدأ الناس، وسكنت الأحوال، وصار الناس في هدوء وسكون من سنة ١٩٠ إلى سنة ٢٠٢، والتزموا الدعة اثني عشر سنة.

وترددت الغزوات سبعة أعوام إلى ماردة، وبها أصبغ بن عبد الله ثائرا متمنعا. وكان سبب ثورته أن عدوا لأصبغ طالبه عند الحكم وأغراه عليه. ثم مشى إلى أصبغ بمثل ذلك، وروعه منه؛ فتوقع العقوبة والسطوة به. فكان ذلك سبب دخوله ماردة وقيامه بها. وتكررت الغارات عليه سبعة أعوام؛ فافتتحت في العام السابع بمحاولة انجلت عن طلب الأمان لأصبغ فأمن، وخرج من ماردة، وصار في مصف الحكم؛ فسكن قرطبة؛ ثم فسح له في الاختلاف إلى ضياعه بماردة حتى التاث أمرها، واضطربت حالها.

وفي سنة ١٩٢، خرج رذريق صاحب إفرنجة إلى جهة طرطوشة؛ فأغزى الحكم ابنه عبد الرحمن في جيش كثيف، وكتب إلى عمروس وعبدون عاملي الثغر بالغزو معه بجميع أهل الثغر. فتقدم عبد الرحمن بالجنود، وتوافت عليه الحشود، وحفت به المطوعة. فألفوا الطاغية خارجا إلى بلاد المسلمين. ودارت

بينهم حروب شديدة، ثبت الله فيها أقدام المسلمين. فانهمز المشركون؛ وكانت فيهم مقتلة عظيمة؛ ففنى أكثرهم.

وفي سنة ١٩٤، غزا الحكم إلى أرض الشرك. وكان السبب في هذه الغزاة أن عباس بن ناصح الشاعر كان بمدينة الفرج (وهي وادي الحجارة). وكان العدو، بسبب اشتغال الحكم بماردة وتوجيه الصوائف إليها مدة من سبعة أعوام، قد عظمت شوكته، ووقى أمره. فشن الغارات في أطراف الثغور، يسيي ويقتل. وسمع عباس بن ناصح امرأة في ناحية وادي الحجارة، وهي تقول: (واغوثاه يا حكم! قد ضيعتنا وأسلمتنا واشتغلت عنا، حتى استأسد العدو علينا!) فلما وفد عباس على الحكم، رفع إليه شعرا يستصرخه فيه، ويذكر قول المرأة واستصراخها به؛ وأنهى إليه عباس ما هو عليه الثغر من الوهن والتيث الحال. فرثى الحكم للمسلمين، وحمى لنصر الدين، وأمر بالاستعداد للجهاد، وخرج غازيا إلى أرض الشرك؛ فأوغل في بلادهم، وافتتح الحصون، وهدم المنازل، وقتل كثيرا، وأسر كذلك، وقفل على الناحية التي كانت فيها المرأة، وأمر لأهل تلك الناحية بمال من الغنائم، يصلحون به أحوالهم ويفدون سبائهم؛ وخص المرأة وآثرها، وأعطاهم عددا من الأسرى عونا. وأمر بضرب رقاب باقيهم، وقال لأهل تلك الناحية وللرأة: (هل أغاثكم الحكم؟) قالوا: (شفا والله الصدور، ونكى في العدو، وما غفل عنا إذ بلغه أمرنا! فأغاثه الله وأعز نصره!) وفي سنة ١٩٦، غزا الحكم إلى بلاد المشركين، وأوغل فيها، وأوقع بهم، وقفل. وفيها، مات تمام بن علقمة الثقفي.

وفي سنة ١٩٩، كانت المجاعة التي عمت الأندلس؛ ومات أكثر الخلق جهدا.

١٢٠٨ ذكر دخول الحكم طليطلة حين خالفت عليه

وفي هذه السنة، أغرى الحكم عمه عبد الله البلنسي الغزوة الشنيعة المشهورة، وكانت ببرشلونة: ألقى المشركين قد حلوا بها يوم احتلاله، وكان يوم الخميس؛ فأراد من معه مناشبة الحرب، وتشوقوا للقتال؛ فنعهم حتى إذا كان في اليوم الثاني، وهو يوم الجمعة وقت الزوال،

أمر بتعبئة الكائب، ونصب الردود؛ وقام، فصلى ركعتين؛ ثم نادى في الناس، وركب هو ومن معه، وناهض أهل الشرك. وما أحسبه فعل ذلك إلا فنها وعلمها وتأسيا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم حيث أمر بالقتال في تلك الساعة: فإن فيها تهب الأرواح، وتفتح أبواب الجنة، وتستجاب الدعوات، فمنحهم الله أكاف المشركين، وانهزموا. وقتل عامتهم، وفرق جمعهم. فلما ألقع عن القتال وانجلت الحرب، نصب قناة طويلة، فأثبتت في الأرض؛ وأمر بالرؤوس؛ فجمعت وطرحت حوالها حتى غابت القناة فيها (ولم تظهر). ذكر دخول الحكم طليطلة حين خالفت عليه

وذلك أنه أظهر الغزو إلى بلاد المشركين، وقصد تدمير، وهو يريد في نفسه طليطلة. فنزل تدمير، واضطرب فيها، ونازل بعض حصونها. وكتب إلى عمال الثغر بنزوله فيها وحربه لها؛ فأمن أهل طليطلة، وانتشروا في بساطهم، ونظروا في زروعهم، وله عليهم عيون. فلما صحَّ عبده انبساطهم، جعل يتغرب من أحواز تدمير، وأخبار طليطلة ترد عليه. فلما أمكنته الفرصة فيها، جدَّ السير إليها، وطوى المراحل؛ فوصل إليها ليلاً، وسبق بقطيع من الحشم. فدخل طليطلة ليلاً، ولم يعلم بدخوله، وأهلها في غفلة، وأبوابها مفتحة. وتتابع العسكر عليه بمقدار قوة كل أحد. فلما كان بين أهلها وبينها، وقطع الخروج عن كان بها إلى من كان بخارجها. فاستوسق له ملكها دون مثونة ولا قتال.

١٢٠٩ ذكر هيج أهل الربض ثانية في سنة 202

فاستنزل أهلها من الجبال إلى السهل، وحرق ديارها، وسكنهم في الصحراء. ثم ردهم إليها. وفي سنة ٢٠٠، أغزى الحكم وزيره عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد المشركين؛ فدخلها، وتوسطها، وأهلك معائشها ومرافقها، وحطم زروعها، وهدم منازلها وحصونها، حتى استوفي جميع قرى وادي أرون. فحشدت إليه الطاغية - دمرها الله! - وانجلبت النصرانية من كل مكان، وأقبلت الجموع، ونزلت بعدوة نهر أرون؛ وصار النهر حاجزا بينهم وبين المسلمين. فلما أصبح، نهض عبد الكريم بمن معه إلى مخاض الوادي؛ ونهض أعداء الله إليهم؛ فقاتلوه على كل مخاضه منها؛ فجالدهم المسلمون عليها مجالدة الصابرين المحتسبين. واقتحم أعداء الله النهر إليهم؛ فاقتتلوا على مخاضته. ثم حمل المسلمون عليهم حملة صادقة؛ فأضعفهم في المضائق، وأدخلوهم على غير طريق؛ فأخذتهم السيوف والطعن بالرمح والغرق في المياه؛ فقتل من المشركين عدد عظيم لا يحصى كثرة، ومات أكثرهم بالتردي ودرس بعضهم بعضا، وصاروا بعد المطاعنة والمجالدة بالرمح والسيوف إلى القذف بالحجارة؛ وأكثروا الحراس بالمخاض، ووعروها بالخشب، وحفروا الحفائر، وخندقوا الخنادق. ونزلت الأمطار؛ وكان قد فرغ ما كان لأعداء الله من المرافق؛ وضاعت الحال أيضا بالمسلمين؛ فقفل عبد الكريم ظافرا لسبع خلون من ذي القعدة. ولم يكن في سنة ٢٠١ صائفة ولا حركة مشهورة.

ذكر هيج أهل الربض ثانية في سنة ٢٠٢

كان من أهل ربض قرطبة في هذه السنة ما نستعيد بالله من الخذلان في مثله، وذهاب التوفيق. وقد اختلفت الروايات في سبب قيام الناس وهيجهم؛ فمنهم

من يقول إن ذلك الهيج كان أصله الأشر والبطر، إذ لم يكن ثم ضرورة من إجحاف في مال، ولا انتهاك لحرمة، ولا تعسف في ملكة، والحال تدل على صحة ذلك: فإنه لم يكن على الناس وظائف، ولا مغارم، ولا سخر، ولا شيء يكون سببا لخروجهم على السلطان، بل كان ذلك أشرا وبطرا، وملالا للعاقبة، وطبعاً جافياً، وعقلاً غيبياً، وسعياً في هلاك أنفسهم - أعاذنا الله من الضلال والخذلان، وأسباب البوار والخسران! ولما احتاجوا وقاموا على السلطان، ناصبهم الحكم القتال، وواضعهم الحرب. وانحاش إليه حاشيته وجنده، وتألّب من كل وجه رجاله. وقامت الحرب بين الجند وعامة قرطبة على ساق. ثم تكاثرت العامة، وهاجت الدهماء السوداء؛ فلم يزدوا على أن ظهروا في ذلك الحين ظهروا لم يبلغهم إلى أمل فلما اشتغلوا بالقتال، احتيل عليهم بمثل حيلة يوم الحرة، وهم لا يشعرون لاشتغالهم بالقتال؛ فخرج عبيد الله بن عبد الله البلنسي المعروف بصاحب الصوائف، وإسحاق بن المنذر القرشي إلى باب الجسر، مع من أمكنهما

من الفرسان والرجالة، والتقوا مع العامة، وجالدوهم حتى أزاحوهم وأدخلوهم الجسر؛ وفتح باب المدينة عند الجسر، ودخل الذين سمينا على باب الحديد؛ ثم اقتحموا على الزقاق الكبير، وخرجوا على الرملة إلى مخاضة هناك، وجازوا النهر، واجتمعوا مع من توافى عليهم من حشود الكور، إذ كانوا قد أئذروا قبل ذلك بما كان بدا منهم، وظهر من علاماتهم. فلما اجتمعوا، أقبل بعضهم من وراء الرض، وشرع بعض في طرح النار في الدور، ودسوا من أخبر العامة بما نزل بهم في دورهم وذرايرهم وعيالهم؛ فلم يبق أحد منهم دون أهله ومنزله، وانصرفوا راجعين نحوها. فأخذتهم السيوف من أمامهم وورائهم؛ فقتلوا قتلا ذريعا، وتبعوا في الأزقة والطرق، يقتلون؛ ونجا منهم من تأخر أجله، ففرّ، فلم يلو على

أهل ولا ولد. وأخذ منهم ثلاثمائة رجل؛ فصلبوا على الوادي، صفا واحدا من المرج إلى المصاراة. وكان الحكم قد عزم على تتبعهم بالأندلس، وقتلهم حيث وجدوا؛ فكسر عليه بعض أصحابه، وذكره صنع الله له فيهم؛ فارغوى وكف. فخرجوا أفواجا بأهاليهم وأولادهم. ولم يعرض لأحد منهم في شئ من بلاد الأندلس، وهي طاعته ومملكه، ولا نالهم ضرر بعد وقت المعركة وغلان الحال، كرما وعفوا من الأمير الحكم - رحمه الله! - وعف الحكم عن الأموال والحرم. وتفرق أهل الرض في جميع أقطار الأندلس؛ ومنهم من جاز البحر إلى العدو بالأهل والواد؛ فاحتلوا بعدوة فاس، فهم عدوة الأندلس منها؛ فصيروها مدينة. ومنهم أهل جزيرة إقربطش؛ فذكر أنه لم يخرج منهم طائفة بناحية من نواح الدنيا إلا وتغلبوا عليها، واستوطنوها على قهر من أهلها. وأكثر من هرب من أهل العلم والخير ممن اتهم أو خاف على نفسه إلى ناحية طليطلة، ثم أمنهم الحكم، وكتب لهم أمانا على الأنفس والأموال، وأباح لهم التفسح في البلدان حيثما أحبوا من أقطار مملكته، حاشى قرطبة أو ما قرب منها.

وفي سنة ٢٠٦، اشتد مرض الحكم بن هشام؛ فأخذ البيعة لابنه عبد الرحمن، ثم للمغيرة من بعده. وانعقدت البيعة يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من السنة. فبويع له ذلك اليوم في القصر؛ واختلف الناس بعد ذلك اليوم إلى دار عبد الرحمن بن الحكم يبايعونه؛ وبايعوا المغيرة في دار أخيه عبد الرحمن أيضا؛ ثم ركب المغيرة إلى الجامع، ونزل فيه يوما بعد يوم لمبايعة الناس له؛ وكانوا يبايعونه عند المنبر؛ ثم بايعوه في داره. ولما انقضت البيعة لعبد الرحمن والمغيرة بعده، أمر الحكم بن هشام بهدم الفندق الذي كان بالرض؛ وكان متقبله من أهل الإضرار والفسق؛ فهدم. وتوفي الأمير الحكم يوم الخميس لأربع بقين من ذي الحجة من السنة؛ وصلى عليه ابنه عبد الرحمن؛ ودفن بالقصر.

١٢٠١٠ بعض أخباره وسيره

بعض أخباره وسيره

كان الحكم - رحمه الله! - شديد الحزم، ماضي العزم، ذا صولة ثقي. وكان حسن التدبير في سلطانه، وتولى أهل الفضل والعدل في رعيته؛ وكان مبسوط اليد. وكان له قاض كفاه بورعة وعلمه وزهده؛ فرض مرضا شديدا؛ فاغتم الحكم لمرضه؛ فذكر بعض خاصته أنه أرق ليلة أرقا شديدا، وجعل يتلمل على فراشه؛ فقيل له: (أصلح الله الأمير! ما الذي عرض؟) فقال: (ويحكم! إني سمعت في هذه الليلة نادية، وقاضينا مريض، وما أراه إلا وقد قضى نحبه. فأين لي بمثله، ومن يقوم بالرعية مقامه؟) فمات القاضي في تلك الليلة، وهو المصعب بن عمران قاضي أبيه. فولى بعده محمد بن بشير.

فكان أقصد الناس إلى حق، وأبعدهم من جور، وأتقدهم بحكم. ورفع إليه رجل من أهل كورة جيان أن عاملا للحكم اغتصبه جارية، وصيرها إلى الحكم؛ فوقعت من قلب الحكم كل موقع؛ فأثبت الرجل أمره عند القاضي، وأتاه بينة تشهد على معرفة ما تظلم منه ويملكه للجارية وبمعرفتهم بها. فأوجبت السنة أن تحضر الجارية؛ فاستأذن القاضي على الحكم؛ فأذن له؛ فلما دخل عليه، قال له: (أيها الأمير! أنه لا يتم عدل في العامة دون إقامته في الخاصة!) وحكى له أمر الجارية، وخيره بين إبرازها للينة ليشهد على عينها، أو عزله. فقال له الحكم: (أولا. أدعوك إلى خير من ذلك! تبتاع الجارية من صاحبها بأبلغ ما يطلب فيها.) فقال القاضي: (إن الشهود قد شهدوا من كورة جيان، وأتى الرجل يطلب الحق في مظامه؛ فلما صار ببابك، تصرفه دون إنفاذ الحق له؛ ولعل قاتلا يقول: باع ما لا يملك

بيع مقورا! فلما رأى عزمه على ذلك، أمر بإخراج الجارية من قصره؛ فشهد الشهود عنده على عينها، وقضى بها لصاحبها. وكان هذا القاضي محمد بن بشير، إذا خرج للمسجد، وجلس للأحكام، جلس في رداء معصفر، وشعر مفرق؛ فإذا طلب ما عنده، وجد أفضل الناس وأورعهم.

وكان الحكم يقول: (ما تحلى الخلفاء بمثل العدل!) وكانت فيه بطالة، إلا أنه كان شجاع النفس، باسط الكف، عظيم العفو. وكان يسلط قضائه وحكامه على نفسه، فضلا عن ولده وخاصته. وكانت للحكم ألف فرس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر، عليها عشرة من العرفاء، تحت يد كل عريف مائة فرس؛ فإذا بلغه عن ثائر ثار في أطرافه، عاجله قبل استحكام أمره؛ فلا يشعر حتى يحاط به. وجاءه الخبر يوما أن جاب بن لبيد محاصر لجيان، وهو يلعب بالصولجان في القصر؛ فدعا بعريف من أولئك العرفاء، وأسر إليه أن يخرج بمن تحت يده إلى جابر بن لبيد؛ ثم فعل كذلك مع أصحابه من العرفاء. فلم يشعر ابن لبيد حتى تساقطوا عليه مسربلين في الحديد؛ فلما رأى العدو ذلك، سقط في يده، وظن أن الدنيا قد حشرت إليه؛ فولى بمن معه منهزما.

وكان الحكم فصيحا بليغا شاعرا مجيدا. فمن شعره - رحمه الله! - يتغزل، وذلك أنه كان له نحس جوار قد استخلصهن لنفسه وملكهن أمره؛ فذهب يوما إلى الدخول عليهن؛ فأبين عليه، وأعرضن عنه. وكان لا يصبر عنهن. فقال (البيسيط) :

قُضِبَ مِنَ الْبَارِ مَلَسْتُ فَوْقَ كُتُبَانِ ... أَعْرَضْنَ عَنِّي وَقَدْ أَرْمَعَنَ هِجْرَانِي
نَاشَدْتُهُنَّ بِحَقِّي فَاعْتَزَمْنَ عَلَيَّ ... الْمَهْجَرَانِ حَتَّى خَلَا مِنْهُنَّ هَيْمَانِي
مَلَكْنِي مُلْكٌ مَن ذَلَّتْ عَزِيمَتُهُ ... لِلْحَبِّ ذُلٌّ أَسِيرٌ مَوْتٌ عَانِي
مَنْ لِي بِمُعْتَصِبَاتِ الرُّوحِ مِنْ بَدَنِي ... عَصَبَنِي فِي الْهَوَى عِزِّي وَسُلْطَانِي

ثم إنهن عدن عليه بالوصل؛ فقال (خفيف) :

نَلْتُ كُلَّ الْوَصَالِ بَعْدَ الْبِعَادِ ... فَكَأَنِّي مَلَكْتُ كُلَّ الْعِبَادِ
وَتَنَاهَى السُّرُورُ إِذْ نَلْتُ مَا لَمْ ... يُغْنِ فِيهِ تَكَاشُفُ الْأَجْنَادِ

١٣ خلافة عبد الرحمن بن الحكم بن هشام

ومن مליح قوله فيهن - رحمه الله! - (خفيف) :

ظَلَّ مِنْ فَرَطِ حُبِّهِ مَمْلُوكَا ... وَلَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ مَلِيكَا
إِنْ بَكَى أَوْ شَكََا الْهَوَى زَيْدَ ظُلْمًا ... وَبَعَادًا يَدْنِي حَمَامًا وَشِيكَا
تَرَكْتَهُ جَاذِرَ الْقَصْرِ صَبًّا ... مُسْتَهَامَا عَلَى الصَّعِيدِ تَرِيكَا
يَجْعَلُ الْخَلْدَ مَائِلًا فَوْقَ تَرْبٍ ... وَهُوَ لَا يَرْتَضِي الْحَرِيرَ أَرِيكَا
هَكَذَا يَحْسُنُ التَّذَلُّلُ لِلْحُرِّ ... إِذَا كَانَ فِي الْهَوَى مَمْلُوكَا

وله - رحمه الله! - أشعار كثيرة في الربضيين القائمين عليه، لا يجاريه فيها حد. وقد تقدم منها ما يستدل به على فضله. ولما دنت وفاته، عتب نفسه فيما تقدم منه عتابا، وتاب إلى الله مثابا، ورجع إلى الطريقة المثلى، وقال: إن الآخرة هي الأبقى والأولى؛ فتزين بالتقوى، واعتصم بالعروة الوثقى؛ وأقر بذنوبه واعترف، وأنس إلى قوله تعالى إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف. وكان من عباد الله المتقين، إلى أن أتاه من ربه اليقين. فتوفي - رحمه الله! - سنة ٢٠٦.

خلافة عبد الرحمن بن الحكم بن هشام

كنيته: أبو المطرف. أمه: تسمى حلاوة. مولده: سنة ٧٦. حاجبه: عبد الكريم بن عبد الواحد. وزراؤه: تسعة؛ رزق كل واحد ثلاثمائة دينار. كتابه: ثلاثة: عبد الكريم المذكور، وسفيان بن عبد ربه، وعيسى بن شهيد. قضاته: أحد عشر؛ منهم: يحيى بن مغمر، وقبله مسرور بن محمد بن بشير، ثم سعيد ابن محمد بن بشير، ثم يحيى المتقدم الذكر، وغير هؤلاء؛ وإنما كثر القضاة في أيامه لأن المشاور في عزلهم وولايتهم يحيى بن يحيى الليثي؛ فكان لا يولى رجلاً إلا برأيه؛ فكان يحيى بن يحيى، إذا أنكر من القاضي شيئاً، قال له: (استعف وإلا رفعت بعزلك!) فكان يستعفي أو يشير يحيى بعزله، فيعزل.

نقش خاتمه: (عبد الرحمن بقضاء الله راض). وكان له قبل ذلك خاتم باسمه؛ فتلّف؛ وأمر بطلبه، فلم يوجد؛ فأعاد نقش خاتم جده عبد الرحمن، بعد أن خرج نصر الفتى من عند الأمير هذا بالخاتم للنقش، وبعث في عبد الله بن الشمر الشاعر، وقال له: (إن الأمير أمر بنقش هذا الخاتم؛ فقل ما ينقش فيه!) فقال (رمل) :

خَاتَمُ لِلْمَلِكِ أَضْحَى ... حُكْمُهُ فِي النَّاسِ مَاضٍ

عَابِدُ الرَّحْمَنِ فِيهِ ... بِقَضَاءِ اللَّهِ رَاضٍ

فاستحسن ذلك الأمير عبد الرحمن، وأمر بنقشهما في الخاتم.

صفته: طويل، أسمر، أقي، أعين، أكل، عظيم اللحية يخضب بالحناء والكم. بويع بعد موت أبيه بيوم واحد، وذلك يوم الخميس لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٢٠٦، وهو ابن ثلاث وعشرين سنة وتسعة أشهر. وتوفي ليلة الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ٢٣٨. عمره: اثنان وستون سنة. خلافته: إحدى وثلاثون سنة وثلاثة أشهر وستة أيام. بنوه الذكور: خمسة وأربعون، وبناته: اثنتان وأربعون.

وفي سنة ٢٠٧، ثارت بتدمير فتنة بين مضر ويمن، ودامت سبع سنين؛ فأغزى إليهم الأمير عبد الرحمن في هذا العام يحيى بن عبد الله بن خلف؛ ثم كان يبعث إليهم المرة بعد المرة بالقواد؛ فيفترقون؛ فإذا قفلوا، عادوا إلى الفتنة. وكانت بينهم وبين يحيى بن عبد الله وقعة تعرف بوقعة المصاراة بلورقة، انتهى مبلغ القتلى فيهم إلى ثلاثة آلاف. وفيها كان بالأندلس جوع شديد، مات به كثير من الخلق.

وفي سنة ٢٠٨، كانت الغزاة المعروفة بغزاة ألبه والقلاع، غزاها عبد الكريم ابن عبد الواحد بالصائفة، واحتل بالثغر؛ وتوافت عليه عساكر الإسلام، واختلّفوا في الدخول على أي باب يكون إلى دار الشرك؛ ثم اجتمعوا على أن يكون من باب ألبه، إذ كان ذلك الباب أنكى للعدو وأحسم لدائه؛ فاقتحموا من فج يقال له جرنيق؛ وكان وراءه بسيط للعدو، فيه خزائنه وذخره. فوقع أهل العسكر على تلك البسائط، فاستصفوها، وعلى ذخرك تلك الخزائن، فاتهبوها؛ واستوعبوا خراب كل ما مروا عليه من العمران والقسرى، وأقفروها. وانصرف المسلمون غانمين ظافرين. والحمد لله! وفي سنة ٢٠٩، توفي عبد الكريم بن عبد الواحد؛ وكان قد أخذ في الحركة إلى أرض العدو؛ فاعتل. وعوض منه الأمير عبد الرحمن بن الحكم أمية ابن معاوية بن هشام. فغزا بالصائفة إلى أوريط؛ فاحتل بها، وهي يومئذ للإسلام؛ فأخذ أهل الذنوب والريب، وعفا عن الباقيين؛ ثم تقدم إلى شنت برية وتدمير. وكان أبو الشماخ رئيس اليمانية يقوم بدعوة الأمين على المضرية. وكانت بينهم وقعة بمرسية كوقعة يوم المصاراة بلورقة، فني فيها من المسلمين أعم. وكان انبعاث هذه الفتنة وسببها بين المضرية واليمانية على ورقة دالية أخذها مضري من جنان يمانى؛ فقتله اليماني؛ فكان ذلك سبب الحروب التي دارت بين الفريقين؛ واتصلت أعواماً؛ وكانت الدوائر تدور أكثرها على اليمانية والقتلى منهم، وذلك أحد عجائب الدهر. وفي سنة ٢١٠، أمر الأمير عبد الرحمن ببنيان الجامع بمدينة جيان. وفيها، كتب إلى عامل تدمير أن ينزل بمرسية ويتخذها موطناً؛ فكانت حينئذ موضع نزولهم وموضع قرارهم؛ وأمر بهدم مدينة آله من تدمير، ومنها ثارت الفتنة أولاً. وفيها، افتتح فرج بن مسرة في أرض العدو حصن القلعة؛ وكان مسرة عامل جيان.

وفي سنة ٢١١، ثار طوريل بتاكرنا؛ فأخرج إليه الأمير عبد الرحمن معاوية ابن غانم في حشد؛ فظفر به، وقطع عاديته.

وفي سنة ٢١٣، غزا عبيد الله بن عبد الله البلنسي بالصائفة إلى دار الحرب؛ فجال في أرض العدو حتى بلغ برشلونة، وتردد في تدريخها

وانتسافها ستين يوما.

وفي سنة ٢١٣، انقطعت الفتنة بتدمير، واستنزل أبو الشماخ وغيره من القلاع، وانقطعت عاديته؛ وصار أبو الشماخ من ولاية الأمير عبد الرحمن ومن ثقاته.

وفي سنة ٢١٤، ثار الضراب بطليطلة؛ واسمه هاشم؛ وسمى الضراب لأنه لما أحرق الحكم طليطلة، وأنزل أهلها منها إلى السهل، أخذ رهائنهم. فدخل حينئذ هاشم الضراب قرطبة، وصار يضرب بالمعول في الحدادين أجيرا؛ فعرف بالضراب. ثم خرج من قرطبة إلى طليطلة؛ فاستدعى أهل الشر والفساد، وألهم؛ فتألب إليه منهم نفر؛ فخرجوا يغيرون على العرب والبربر. وتسامع أهل الشربة؛ فقطعوا إليه، حتى اجتمع له منهم جمع عظيم وخلق كثير؛ فعلا ذكره، وانتشر صيته. وأوقع بالبربر بشنت برية، ودارت له عليهم دوائر. فأخرج الأمير عبد الرحمن إليه محمد بن رستم، وأمره بحربه؛ فخاربه في هذه السنة.

وفي سنة ٢١٦، توافى الجنود لمحمد بن رستم عامل الثغر؛ فهاض هاشم الضراب. وكان قد تغلب على جانب الثغر. وكان عبد الرحمن قد استقصر محمد ابن رستم في حقه، وكتب إليه يعنفه؛ فتقدم ابن رستم، والتقى مع هاشم الضراب؛ ف وقعت بينهم حرب شديدة أياما؛ ثم انهزم هاشم، وقتل هو ومن كان معه؛ وكانوا آلافا.

وفي سنة ٢١٧، حوصرت ماردة وضيق عليها، حتى فر عنها خلق كثير، وقتل منهم كثير.

وفي سنة ٢١٨، كان الكسوف العظيم، الذي توارت معه الشمس، وبدا

الظلام؛ وكان ذلك قبل زوال الشمس، في أواخر رمضان. وفيها، استوزر الأمير عبد الرحمن ابن شهيد واستحجبه. وفيها، قامت الزيادة في المسجد الجامع بقرطبة من الأرجل التي بين السواري إلى القبلة.

وفي سنة ٢١٩، غزا بالصائفة أمية بن الحكم إلى طليطلة وحاصرها؛ ثم قتل العسكر بعد أن أتلّف زروعهم وقطع ثمارهم. وأبقى بقلعة رباح ميسرة الفتى لمحاصرة طليطلة؛ فخرج جمع عظيم من طليطلة يريدون قلعة رباح؛ فبلغه خبرهم؛ فجمع الجمع، وكمن الكائن. فلما قربوا منها، وفرقوا خيلهم في الغارة، خرجت عليهم الكائن؛ فقتلوا، وحزت رؤوسهم؛ فجمعت بين يدي ميسرة؛ واجتمع منها جملة عظيمة. فلما رأى ذلك، ارتاع وداخله الندم؛ فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيرا حتى مات ندما وأسفا.

وفي سنة ٢٢٠، غزا الأمير عبد الرحمن؛ فجعل صدر وجهته على طليطلة، وولى أبا الشماخ قلعة رباح، وأبقى عنده خيلا كثيفة ورجلا كثيرة لمناهضة طليطلة، وتقدم هو إلى كور الغرب. وكان سليمان بن مرتين قد تحيل عليه يحيى الماردي؛ فأخرجه من ماردة؛ فكان في قنن الجبال حينئذ؛ فخل عليه الأمير في هذه الغزاة، وحاصره حتى ضاق سليمان بن مرتين في الحصن؛ فخرج ليلا؛ فبينما هو يمشي، إذ وافق صخرة ملساء على وجه الأرض؛ فزلق به الفرس، فسقط، ومات. ووجده رجل؛ فاحتز رأسه، وادعى قتله؛ ثم عرف أمره.

وفي سنة ٢٢١، افتتحت طليطلة. وكان السبب في ذلك أن ابن مهاجر خرج عنها، ونزع إلى قلعة رباح، واستدعى القواد؛ فخرجوا إليه. فنهض بهم إلى أبواب المدينة، وقطع عنهم مرافقهم. فكان ذلك أقوى الأسباب في افتتاحها. وكان عبد الواحد الإسكندراني بعثه الأمير إليهم؛ فوجدهم قد بلغ بهم الجهد.

ثم أطل عليهم الأمير؛ فافتتحها قهرا، ودخلها على حكمه، وأمر بتجديد القصر الذي كان بناه عمروس في أيام الحكم على باب الجسر. وقيل إن الذي افتتح طليطلة الوليد بن الحكم، وجهه إليها أخوه عبد الرحمن.

وفي سنة ٢٢٢، افتتحها عنوة، ودخلها في شهر رجب من هذه السنة على حكمه.

وفي سنة ٢٢٣، أغزى الأمير عبد الرحمن بن الحكم أخاه الوليد بن الحكم إلى جليقية؛ فدخل من باب الغرب مع قطع من العسكر؛ فدوخها. وكانت له فتوحات كثيرة.

وفي سنة ٢٢٤، أغزى الإمام عبد الرحمن ابنه الحكم إلى دار الحرب، وأمره بالتجوال في جهات الثغور، ليتعرف أخبارها ومصالحها. وأمر بإصلاح قنطرة سرقسطة. ودخل الحكم بالصائفة إلى دار الحرب؛ فدوخها، وقتل من المشركين ما لا يحصى. واجتمع من رؤوسهم أكداس كالجبال، حتى كان الفارس يقف من ناحية؛ فلا يرى صاحبه من ناحية أخرى من عظمها.

وفيها، كانت رجوم بالنجوم، في جمادى الآخرة؛ وتناثرت الكواكب من قبلة إلى جوف، ومن شرق إلى غرب، بجيزة الأندلس. وفي سنة ٢٢٥ غزا الإمام عبد الرحمن بنفسه أرض جليقية. ففتح حصونها، وجال في أرضها. وطالت غزاته، وتعب كثيرا؛ فأرق في بعض الليالي؛ فلما كان في بعض الليل، حضر عبد الله بن الشمر الشاعر؛ فوصف له أرقه، وأنه تذكر بعض من حن إليه؛ فقال عبد الرحمن بن الشمر (متقارب) :

عَدَانِي عَنْكَ مَرَارَ الْعَدَى ... وَقُودِي إِلَيْهِمْ لَهَامًا مَهِيًا
وَكَمْ قَدْ تَعَسَفْتُ مِنْ سَيَسَبٍ ... وَجَاوَزْتُ بَعْدَ دُرُوبٍ دُرُوبًا
وَادَّرَعُ النَّقَعِ حَتَّى لَبِسْتُ ... مِنْ بَعْدِ نَضْرَةٍ وَجْهِي شُحُوبًا
الْأَلَاقِي بِوَجْهِهِ سَمُومَ الْمَهِجِرِ ... وَقَدْ كَادَ مِنْهُ الْحَصَى أَنْ يَذُوبًا
أَنَا ابْنُ الْمَهْشَامِينَ مِنْ غَالِبٍ ... أَشْبُ حُرُوبًا وَأُطْفِي حُرُوبًا
وَبِي أَدْرَكَ اللَّهُ دِينَ الْهُدَى ... فَأَحْيَيْتُهُ وَاصْطَلَمْتُ الصَّلَا
سَمَوْتُ إِلَى الشَّرْكِ فِي جَحْفَلٍ ... مَلَأْتُ الْحَزُونَ بِهِ وَالسُّهُوبًا

وفي سنة ٢٢٦، غزا بالصائفة إلى جليقية من بلاد العدو مطرف بن عبد الرحمن؛ فتوسط بسيطهم، وذهب بنعمتهم؛ وكان القائد عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني.

وفي سنة ٢٢٧، خرج، عبيد الله بن عبد الله صاحب الصوائف؛ فلما حصل بين أربونة وسرطانية، تجالب الأعداء من كل ناحية، وأحاطوا بالعسكر ليلاً؛ فقاتلهم المسلمون الليل كله؛ فلما انبلج الضوء، أيد الله المسلمين، وهزم الأعداء.

وفي سنة ٢٢٨، خرج الأمير عبد الرحمن بنفسه إلى أرض العدو، وخلف في القصر ولده المنذر، وجعل على ميمته ولده محمدًا وعلى الميسرة ولده المطرف. فلقي جيشاً كبيراً من المشركين؛ فناشبههم الحرب؛ فأنزل الله نصره على المسلمين، وهزموا المشركين، وأُثخنوا فيهم القتل. وأفاء الله على المسلمين من ذراري أهل بنبونة وخیلهم وأسلحتهم ما عظم به من الله سبحانه المن. وقفل غزيراً في منتصف شوال. وكان خروجه من قرطبة لتسع بقين من شعبان.

١٣٠١ دخول المجوس إشبيلية في سنة 230

وفي سنة ٢٢٩، خرج الأمير عبد الرحمن لمحاصرة موسى بن موسى بتبليقة؛ فدوخ بلاده، ثم صالحه. ثم تقدم إلى بنبونة؛ فكانت له بها وقعة عظيمة على المشركين، فني فيها أعداء الله؛ وكان معهم موسى بن موسى؛ فثاله ورجاله ما نالهم.

وفيها، ورد كتاب وهب الله بن حزم عامل الأشبونة، يذكر أنه حل بالساحل قبله أربعة وخمسون مركباً من مراكب المجوس، معها أربعة وخمسون قارباً؛ فكتب إليه الأمير عبد الرحمن وإلى عمال السواحل بالتحفظ.

دخول المجوس إشبيلية في سنة ٢٣٠

نفر المجوس في نحو ثمانين مركباً، كأنما ملأت البحر طيراً جونا؛ كما ملأت القلوب شجواً وشجوناً. فخلوا بأشبونة؛ ثم أقبلوا إلى قادس، إلى شدونة؛ ثم قدموا على إشبيلية؛ فاحتلوا بها احتلالاً، ونازلوها نزالاً، إلى أن دخلوها قسراً، واستأصلوا أهلها قتلاً وأسراً. فبقوا بها سبعة أيام، يستقون أهلها كأس الحمام. واتصل الخبر بالأمر عبد الرحمن؛ فقدم على الخليل عيسى بن شهيد الحاجب، واتصل المسلمون به اتصال العين بالحاجب. وتوجه بالخیل عبد الله ابن كليب وابن رستم وغيرهما من القواد واحتل بالشرف. وكتب إلى عمال الكور في استنفار الناس؛ فخلوا بقرطبة، ونفر بهم نصر الفتى. وتواف للمجوس مراكب على مراكب، وجعلوا يقتلون الرجال، ويسبون النساء، ويأخذون الصبيان، وذلك بطول ثلاثة عشر يوماً. ذكر ذلك في (بهجة النفس). وفي كتاب (درر القلائد) : سبعة أيام، كما تقدم. وكانت بينهم وبين المسلمين ملاحم. ثم نهضوا إلى قبيل؛ فأقاموا بها ثلاثة أيام، ودخلوا قورة، على اثني عشر ميلاً من إشبيلية؛ فقتلوا من المسلمين عدداً كثيراً؛ ثم دخلوا إلى طلياطة، على ميلين من إشبيلية؛ فزولوا ليلاً، وظهروا بالعدة بموضع يعرف بالنخارين؛ ثم

مضوا بمراكبهم، واعتكروا مع المسلمين. فانهزم المسلمون، وقتل منهم ما لا يحصى. ثم عادوا إلى مراكبهم. ثم نهضوا إلى شدونة، ومنها إلى قادس، وذلك بعد أن وجه الأمير عبد الرحمن قواده؛ فدافعهم ودفعوه؛ ونصبت المجانيق عليهم، وتوافت الأمداد من قرطبة إليهم. فانهزم الجوس وقتل منهم نحو من خمسمائة عالج؛ وأصيب لهم أربعة مراكب بما فيها؛ فأمر ابن رستم بإحراقها وبيع ما فيها من الفياء. ثم كانت الواقعة عليهم بقربة طلياطة يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر من السنة، قتل فيها منهم خلق كثير، وأحرق من مراكبهم ثلاثون مركبا. وعلق من الجوس بإشبيلية عدد كثير، ورفع منهم في جذوع النخل التي كانت بها. وركب سائرهم مراكبهم، وساروا إلى لبلة؛ ثم توجهوا منها إلى الأشونة؛ فانقطع خبرهم.

(وكان احتلالهم بإشبيلية يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من المحرم من سنة ٢٣٠). وكان لبن دخولهم إلى إشبيلية وخروج من بقي منهم وانقطاعهم اثنان وأربعون يوما؛ فقتلهم الله وأبادهم، وبدد عددهم وأعدادهم؛ وقتل أميرهم نقمة من الله وعذابا، وجزاء بما كسبوا وعقبا. ولما قتل الله أميرهم، وأفنى عديدهم، وفتح فيهم، خرجت الكتب إلى الآفاق بخبرهم. وكتب الأمير عبد الرحمن إلى من بطنجة من صنهاجة، يعلمهم بما كان من صنع الله في الجوس، وبما أنزل فيهم من النقمة والهلكة؛ وبعض إليهم برأس أميرهم وبمائي رأس من أنجادهم.

وفي سنة ٢٣١، غزا بالصائفة جليقية محمد ابن الأمير عبد الرحمن؛ فحصرها، وحصر مدينة ليون، ورماها بالمجانيق. فلما أيقنوا بالهلاك، خرجوا ليلا، ولجئوا إلى الجبال والغياض؛ فأحرق ما فيها، وأراد هدم سورها؛ فوجد سبعة ثمان عشرة ذراعا؛ فتركه؛ وأمعن في بلاد الشرك قتلا وسبيا.

وفي سنة ٢٣٢، قطعت الأندلس قحطا شديدا؛ وكانت فيها مجاعة عظيمة، حتى هلكت المواشي، واحترقت الكروم، وكثر الجراد. وفي سنة ٢٣٤، أمر الأمير بتوجيه العساكر إلى أهل جزيرة ميورقة، لنكايتهم، وإذلالهم، ومجاهرتهم بنقضهم العهد، وإضرارهم بمن مر عليهم من مراكب المسلمين. فغرتهم ثلاثمائة مركب؛ فصنع الله للمسلمين جميلا، وأظفرهم بهم، وفتحوا أكثر جزائرهم. وفي سنة ٣٤ المذكورة، توفي يحيى بن يحيى؛ فاستراح القضاة من همه.

وفي سنة ٢٣٥، ورد كتاب أهل ميورقة ومنورقة إلى الأمير عبد الرحمن، يذكرون ما نالهم من نكاية المسلمين لهم؛ فكتب إليهم كتابا أذكر هنا فصولا منه، وهو: (أما بعد، فقد بلغنا كتابهم، تذكرون فيه أمركم، وإغارة المسلمين الذين وجهناهم إليكم لجهادكم، وإصابتهم ما أصابوه منكم من ذرايكم وأموالكم، والمبلغ الذي بلغوه منكم، وما أشفيتم عليه من الهلاك. وسأتم التدارك لأمركم، وقبول الجزية منكم، وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة، والنصيحة للمسلمين، والكف عن مكروهم، والوفاء بما وتحملونه عن أنفسكم. ورجونا أن يكون فيما عوقبتم به صلاحكم، وقمعكم عن العود إلى مثل الذي كنتم عليه. وقد أعطيناكم عهد الله وذمته!) وفيها، كان سيل عظيم بجزيرة الأندلس، حمل وادي شيل، وخرب فوسين من حنايا قنطرة إستجة، وخرب الأسداد والأرحاء. وذهب السيل بست عشرة قرية من قرى إشبيلية على النهر الأعظم. وحمل وادي تاجه؛ فأذهب ثمان عشرة قرية؛ وصار عرضة ثلاثين ميلا. وفي سنة ٢٣٦، ثار رجل من البربر، يقال له حبيب البرنسي، بجبال

١٣.٢ ذكر بعض أخباره على الجملة وسيره

الجزيرة؛ وتآبش إليه جماعة من أهل الشر والفساد؛ فأخرج إليه عبد الرحمن الأجناد. فلما وصلوا إليه، ألقوا البربر قد قصدوا حبيبا ومن تآبش إليه؛ فتغلبوا على المعقل الذي كان انضوى إليه، وأخرجوه عنه، وقتلوا عدة كثيرة من أصحابه. وافترق بقيتهم عنه، ودخل حبيب في غمار الناس. فكتب الأمير عبد الرحمن إلى عمال الكور بالبحث عنه.

وفي سنة ٢٣٧، قام رجل من المعلمين بشرق الأندلس؛ فادعى النبوة، وتناول القرآن على غير تأويله؛ فاتبعه جماعة من الغوغاء، وقام معه خلق كثير. وكان من بعض شرائعه النهي عن قص الشعر وتقليم الأظفار، ويقول: [لا تغيير لخلق الله!] فبعث إليه يحيى بن خالد؛ فأتى به. فلما دخل عليه، كان أول ما خاطبه به إن دعاه إلى اتباعه والأخذ بما شرع؛ فشاور فيه أهل العلم؛ فأشاروا بأن يستتاب فإن

تاب، وإلا قتل. فقال: (كيف أتوب من الحق الصحيح!) فأمر بصلبه. فلما رفع في الخشبة، قال: (أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله!) فصلبه، وكتب إلى الأمير يخبره.

وفي سنة ٢٣٨، توفي الأمير عبد الرحمن بن الحكم - رحمه الله! - ليلة الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر من السنة. وما زال يقتني المآثر، ويبني المكارم والمفاخر، حتى قبضته شعوب، وأرداه مردى القبائل والشعوب. ذكر بعض أخباره على الجملة وسيره

لما ولي الأمير عبد الرحمن، بعث في اخوته وأهله ووزرائه؛ فبايعوه، وبايعته العامة. ثم صلى على أبيه الحكم. فلما قضى صلاته وواراه، جلس بالأرض متطأطأ، ليس تحته وطاء، وجلس من كان معه. ثم افتتح القول؛ فقال: (الحمد لله، الذي جعل الموت حتماً من قضائه، وعزماً من أمره، وأجرى الأمور على مشيئته؛ فاستأثر بالملكوت والبقاء، وأذل خلقه بالفناء؛ تبارك اسمه وتعالى جده) ! وصلى الله على محمد نبيه ورسوله، وسلم تسليمًا! وكان مصابنا بالإمام - رحمه الله! - مما جلت به المصيبة، وعظمت به الرزية؛ فعند الله تحتسبه، وإياه نسأل إلهام الصبر، وإليه ترغب في كمال الأجر والذخر! وعهد إلينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم ولسنا ممن يخالف عهده، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله! ثم قام عنهم، وخرجت لهم الأموال والكسي على قدر أقدارهم.

وكان شاعراً، أديباً، ذا هممة عالية. وكانت له غزوات كثيرة، وفتوحات في دار العدو شهيرة، يخرج إليها في العدد الجم، والعسكر الضخم، يخرب ديارهم، ويعني آثارهم، ويقفل ظاهر الاعتلاء، قاهر الأعداء. لم يلق المسلمون معه بؤساً، ولم يروا في مدته يوماً عبوساً. وهو أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل، وترتيب الخدمة. وكسى الخلافة أبهة الجلالة (فشيد القصور، وجلب إليها المياه، وبني الرصيف، وعمل عليه السقائف؛ وبني المساجد الجوامع بالأندلس؛ وعمل السقاية على الرصيف، وأحدث الطرز، واستنبط عملها؛ واتخذ السكة بقرطبة. ونظم ملكه. وفي أيامه دخل الأندلس نفيس الوطاء وغرائب الأشياء؛ وسبق ذلك إليه من بغداد وغيرها. وعندما قتل محمد الأمين، ابن هارون الرشيد، وانتهب ملكه، سبق إلى الأندلس كل نفيس غريب من جوهر ومتاع. وقصد بالعقد المعروف بعقد الشفاء؛ وكان لزبيدة أم جعفر.

ومن مآثره أنه كان ورد عليه يوماً أموال من بلاده، لعطبات أجناده؛ فأدخلت إليه، وجعلت الخرائط بين يديه. وكان بعث فتياه؛ نفلاً مجلسه إذ ذاك، ولم يبق أحد هناك، حاشى فتى كان بين يديه واقفاً، وعلى خدمته الخاصة عاكفاً؛ فغشيت الأمير عبد الرحمن نعسة، ظنها الفتى تهرة وخلصة؛ فقبض على خريطة من ذلك المال، وأسدل عليها كمة أسبغ إسدالاً، والأمير يلاحظه بطرف خفي، ويصمت عنه صمت برّ حفي؛ ففاز الفتى بماله، وناط به أسباب

آماله. فلما رجع الفتیان، أمرهم الأمير عبد الرحمن برفع تلك الخرائط المبسوطة؛ فوجدوا نقصان تلك الخريطة؛ فتدافعوا فيها إذ ذاك، كل يقول لصاحبه: (أنت أخذتها من هناك!) فقال لهم الأمير: (أسكنوا عن هذا! فقد أخذها من لا يردّها، وعائنه من لا يقولها!) فكان هذا مما عدّ من كرمه وفضله.

وكانت له جارية تسمى طروب، كان بها دنفا؛ فصدت عنه يوماً، وأبدت هجرانه. فأرسل فيها؛ فامتنعت عليه، وأغلقت على نفسها بيتاً. فأمر بينان الباب بالخرائط المملوءة من الدراهم، استرضاء لها، واستعطافاً لوصلها. فلما فتحت الباب، تساقطت الخرائط من كل جانب؛ فأخذتها؛ فألفت فيها نحو من عشرين ألفاً؛ وأمر لها يعقد قيمته عشرة آلاف دينار؛ فجعل بعض من حضر من وزرائه يعظم الأمر عليه؛ فقال له الأمير عبد الرحمن: (إن لابسك أنفوس منه خطراً وأرفع قدراً! ولئن راق من هذه الحصاء منظرها، ورصف في النفس جوهرها، فلقد برأ الله من خلقه جوهرها يغشى الأبصار، ويذهب بالألباب. وهل على وجه الأرض من زبرجدها وشريف جوهرها أقر لعين، وأجمع لزين، من وجه أكل الله فيه الحسن ونضرتة، وألقى عليه الجمال بهجته؟) ثم قال لعبد الله بن الشمر الشاعر

وكان حاضراً: (هل يحضرك شيء في المعنى؟) فأنشد (طويل) :

أُتْقِرْنَ حَصَبَاءُ الْبَوَاقِيتِ وَالشَّدَرِ ... بِمَنْ يَتَعَالَى عَنْ سَنَا الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ
بِمَنْ قَد بَرَّتْ قَدَمَا يَدُ اللَّهِ خَلْقَهُ ... وَلَمْ يَكُ شَيْئاً قَبْلَهُ أَبَداً يَبْرَى

فَأَكْرَمَ بِهِ مَنْ صَنَعَهُ اللَّهُ جَوْهَرًا ... تَضَاءَلَ عَنْهُ جَوْهَرُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
فَأَعْجَبَتِ الْأَمِيرَ الْأَيَّاتُ وَطَرِبَ لَهَا طَرِبًا شَدِيدًا. وَأَنْشَدَ الْأَمِيرُ مَرْتَجِلًا (طويل) :
فَرِيضُكَ يَا ابْنَ الشَّعْرِ عَنِّي عَلَى الشَّعْرِ ... وَجَلَّ عَنْ الْأَوْهَامِ وَالذَّهْنِ وَالْفِكْرِ
إِذَا شَافَهُتُهُ الْأُذُنُ أَدَّى بِسِحْرِهَا ... إِلَى الْقَلْبِ إِبْدَاعًا فَجَلَّ عَنِ السِّحْرِ
وَهَلْ بَرَأَ الرَّحْمَنُ مِنْ كُلِّ مَا بَرَأَ ... أَقْرَعَ عَيْنٍ مِنْ مَنْهَمَةٍ يَكْرِ
تَرَى الْوَرْدَ فَوْقَ الْيَاسْمِينِ بِخَدِّهَا ... كَمَا فَوْقَ الرَّوْضِ الْمُنْعَمِ بِالزَّهْرِ
فَلَوْ أَنَّيْ مَلَكَتْ قَلْبِي وَنَظَرْتِي ... نَظَمْتُهُمَا مِنْهَا عَلَى الْجِيدِ وَالنَّحْرِ

١٤ خلافة محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام

ثم أمر لابن الشعر ببذرة فيها خمسمائة دينار؛ فخرج مع الوصيف يحملها له تحت إبطه. فلما تواريا عن الأمير، قال له الوصيف: (أين لذات العمر، يا ابن الشعر؟) فقال: (تحت إبطك يا سيدي!) ودخل عليه الغزال الشاعر يوما؛ فقال الأمير (كامل) : جاء الغزال بحسنة وجماله فقال له الوزير: أجز. ما بدأ به الأمير! فقال الغزال (كامل) :

قَالَ الْأَمِيرُ مُدَاعِبًا بِمَقَالِهِ ... جَاءَ الْغَزَالُ بِحُسْنِهِ وَجَمَالِهِ
أَيْنَ الْجَمَالُ مِنْ أَمْرِي أُرْبِي عَلَى ... مُتَعَدِّدِ السَّبْعِينَ مِنْ أَحْوَالِهِ
وَهَلْ الْجَمَالُ لَهُ؟ الْجَمَالُ مِنْ أَمْرِي ... أَلْقَاهُ رَيْبُ الدَّهْرِ فِي أَغْلَالِهِ
وَأَعَادَهُ مِنْ بَعْدِ جِدَّتِهِ بَلَى ... وَأَحَالَ رَوْنَقَ وَجْهِهِ عَنْ حَالِهِ
وهي طويلة.

ومن قول الإمام عبد الرحمن - رحمه الله! - يصف حال المعزول، فأبدع (طويل) :

أَرَى الْمَرْءَ بَعْدَ الْعَزْلِ يَرْجِعُ عَقْلُهُ ... وَقَدْ كَانَ فِي سُلْطَانِهِ لَبَسٌ بِعَقْلٍ
فَتَلْفِيهِ جَهْمُ الْوَجْهِ مَا كَانَ وَالْيَا ... وَيَسْهَلُ عَنْهُ ذَاكَ سَاعَةً يُعَزَلُ

وكتب إليه بعض عماله يسأله عملا رفيعا ليس من شاكلته؛ فوقع له في أسفل كتابه: (من لم يصب وجهه مطلبه، كان الحرمان أولى به!) ومثل هذا كثير مما يدل على فضله.

خلافة محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام

كنيته: أبو عبد الله. أمه: بهير. مولده: في شهر ذي القعدة سنة ٢٠٧. وزراؤه وقواده: اثنا عشر. حجابته: اثنان، ابن شهيد وابن أبي عبدة. كتابه:

ثلاثة، عبد الملك بن أمية، وحامد بن محمد الزجالي، وموسى بن ابان. قضاته: أحمد بن زياد، ثم عمرو بن عبد الله المعروف بالقبعة، ثم سليمان بن أسود الغافقي. نفس خلقه: بالله يثق محمد وبه يعتصم. صفته: أبيض، مشرب بحمرة: ربعة، أوقص، وافر اللحية يخضب بالحناء والكتم. بنوه: ثلاثة وثلاثون. بناته: إحدى وعشرون. بويج يوم الخميس لأربع خلون لربيع الآخر سنة ٢٣٨، وهو ابن ثلاثين سنة وخمسة أشهر. وتوفي يوم الخميس ليلة بقيت من شهر صفر سنة ٢٧٣. عمره: خمس وستون سنة وأربعة أشهر. وكانت خلافته أربعاً وثلاثين سنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً.

وفي سنة ولايته، ثار عليه أهل طليطلة، وحبسوا العامل عندهم، حتى أطلقت رهائنهم من قرطبة، وحينئذ أطلقوه.

وفي سنة ٢٣٩، خرج الحكم ابن الأمير عبد الرحمن إلى طليطلة بالصائفة. وكانت قلعة رباح قد أقفرت، خوفاً من أهل طليطلة. فاحتلها الحكم، وأمر ببنين سورها، واسترجاع من فر من أهلها إليها.

وفيهما أخرج الأمير محمد إلى شندلة قاسم بن العباس وتمام بن أبي العطاء صاحب الخيل، ومعهم الحشم. فلما حلا بأندوجر، خرجت عليهم كجائن أهل طليطلة، ووقعت الحرب، وكثر القتل؛ فانهزم قاسم وتمام، وأصيب ما في العسكر. وفي ذلك يقول صفوان بن العباس أخو قاسم المذكور (رمل) :

ضَرَطَ الْقَاسِمُ يَوْمًا ... ضَرَطَةً فِي الْقَرْمِيطِ
مَاتَ مِنْهَا كُلُّ حُوتٍ ... كَانَ فِي الْبَحْرِ الْحُيْطِ
وكانت هذه الواقعة في شوال.

وفي سنة ٢٤٠، خرج الأمير محمد بنفسه إلى طليطلة في المحرم. فلما اتصل بأهلها ذلك، أرسلوا إلى أردن بن إذفونش صاحب جليقية، يعلمونه بحركته

ويستمدون به. قبعث إليهم أخاه غثون في جمع عظيم من النصارى. فلما اتصل ذلك بالأمير محمد، وقد كان قارب طليطلة، أعمل الحيلة والكيد، واستشعر الحزم؛ فعبا الجيوش، وكن الكجائن بناحية وادي سليط؛ ثم نصب الردود، وطلع في أوائل العسكر في قلة من العدد. فلما رأى ذلك أهل طليطلة، أعلموا العليج بما عاينوه من قلة المسلمين؛ فتحرك العليج فرحاً، وقد طمع في الظفر والغنيمة وانتهاز الفرصة. فلما التقى الجمعان، خرجت الكجائن عن يمين وشمال، وتواترت الخيل أرسلالا على إرسال، حتى غشى الأعداء منهم ظلل كالجبال؛ فانهزم المشركون وأهل طليطلة، وأخذتهم السلاح، هذا بالسيوف، وطعنوا بالرماح؛ فقتل الله عامتهم، وأباد جماعتهم. وحيز من رؤوسهم مما كان في المعركة وحواليها ثمانية آلاف رأس، وجمعت ورصعت؛ فصار منها جبل علاه المسلمون، يكبرون ويهللون ويمجدون ربهم ويشكرون. وبعث الأمير محمد بأكثرها إلى قرطبة، وإلى سواحل البحر، وإلى العدو. وانهى عدد من فقد منهم في هذه الواقعة إلى عشرين ألفاً. وكانت في شهر محرم من السنة.

وفي سنة ٢٤١، شن الأمير محمد قلعة رباح وطلبيرة بالحشم، ورتب فيها الفرسان؛ وترك فيها عاملاً حارث بن بزيح. وفيها، جدد الأمير محمد طرز الجامع بقرطبة وأتقن نقوشه.

وفيها، حشد الأمير محمد ودخل إلى ألبة والقلاع، وبلغ إلى أقصاها وافتتح كثيرا من حصون المشركين.

وفي سنة ٢٤٢، كتب الأمير محمد إلى موسى بن موسى بحشد الثغور والدخول إلى برشلونة؛ فغزا إليها، واحتل بها، وافتتح في هذه الغزاة حصن طراجة، وهي من آخر أحواز برشلونة؛ ومن خمس ذلك الحصن زيدت

الزوائد في المسجد الجامع بسرقسطة؛ وكان الذي أسسه ونصب محرابه حنش الصنعاني - رضي الله عنه - وهو من التابعين. وفيها وجه الأمير محمد ابنه المنذر بالجيوش إلى طليطلة؛ فحاصرها، وأقام عليها ينسف معائنها.

وفي سنة ٢٤٣، كانت وقعة عظيمة في أهل طليطلة، وذلك أنهم خرجوا إلى طلبيرة؛ فخرج إليهم قائدها مسعود بن عبد الله العريف، بعد أن كمن لهم الكجائن؛ فقتلهم قتلاً ذريعاً، وبعث إلى قرطبة بسبعمئة رأس من رؤوس أكابرهم.

وفي سنة ٢٤٤، خرج الأمير محمد بنفسه إلى طليطلة، وعددهم قد قل، وحدهم قد قل، بتواتر الوقائع عليهم، ونزول المصائب بهم؛ فلم تكن لهم حرب إلا بالقنطرة. ثم أمر الأمير بقطع القنطرة، وجمع العرفاء من البنائين والمهندسين، وأداروا الحيلة من حيث لا يشعروا أهل طليطلة. ثم نزلوا عنها؛ فبينما هم مجتمعون بها، إذ اندقت بهم، وتهدمت نواحيها، وانكفأت بمن كان عليها من الحماة والكجاة؛ فغرقوا في النهر عن آخرهم. فكان ذلك من أعظم صنع الله فيهم.

وفي سنة ٢٤٥، دعا أهل طليطلة إلى الأمان؛ فعقد الأمير لهم؛ وهو الأمان الأول.

وفيها، خرج المجوس أيضاً إلى ساحل البحر بالغرب، في اثني وستين مركباً؛ فوجدوا البحر محروساً، ومراكب المسلمين معدة، تجري من حائط إفرنجة إلى حائط جليقية في الغرب الأقصى. فتقدم مركبان من مراكب المجوس؛ فتلاقت بهم المراكب المعدة؛ فوافوا هذين المركبين في بعض كسور باجة؛ فأخذوهما بما كان فيهما من الذهب والفضة والسي والعدة. ومرت سائر مراكب المجوس في الريف حتى انتهت إلى مصب نهر إشبيلية في البحر؛ فأخرج الأمير الجيوش، ونفر الناس من كل أوب؛ وكان قائدهم عيسى بن الحسن

الحاجب.

وتقدمت المراكب من مصب نهر إشبيلية حتى حلت بالجزيرة الخضراء؛ فتغلبوا عليها، وأحرقوا المسجد الجامع بها؛ ثم جازوا إلى العدو؛ فاستباحوا أريافها؛ ثم عادوا إلى ريف الأندلس، وتوافوا بساحل تدمير؛ ثم انتهوا إلى حصن أوربولة؛ ثم تقدموا إلى إفرنجة؛ فشتوا بها، وأصابوا بها الذراري والأموال، وتغلبوا بها على مدينة سكنوها، فهي منسوبة إليهم إلى اليوم، حتى انصرفوا إلى ريف بحر الأندلس، وقد ذهب من مراكبهم أكثر من أربعين مركبا. ولقيهم مراكب الأمير محمد؛ فأصابوا منها مركبين بريف شذونة، فيها الأموال العظيمة. ومضت بقية مراكب المجوس.

وفي سنة ٢٤٦، أغزى الأمير محمد بن عبد الرحمن إلى أرض بنبلونة أحد قواده؛ فخرج في هذه الغزوة خروجا لم يخرج قبله مثله جمعا وكثرة، وكال عدة، وظهور هيبته. وكان غرسية إذ ذاك متظافرا مع أزدون صاحب جليقية؛ فأقام هذا القائد يدوخ أرض بنبلوبة، مترددا فيها اثنين وثلاثين يوما، يخرب المنازل، وينسف الثمار، ويفتح القرى والحصون. وافتتح في الجملة حصن قشتيل، وأخذ فيه قروتون بن غرسية المعروف بالأنفر، وقدم به إلى قرطبة؛ فأقام بها محبوسا نحو من عشرين سنة؛ ثم رده الأمير إلى بلده، وعمر فرتون مائة وست وعشرون سنة.

وفي سنة ٢٤٧، قال الرازي: غزا محمد بن السديم أرض الحرب، وعامل الثغري إذ ذاك عبد الله بن يحيى. وكان كتب موسى بن موسى يذكر ما ناله ونال أهل بلده في إداختهم أرض الجليقيين، وما وصل إليهم من النصب، وسأل أن يكون دخول العسكر على غير ناحيته؛ فأسعف في ذلك، ودخلت العساكر على غير بلده.

وفي سنة ٢٤٨، تقدم موسى بن موسى لمقاتلة ابن سالم في وادي الحجارة؛ فنالته جراح منعتة الركوب بعدها؛ وكانت سببا لهلاكه؛ فتوفي في هذه السنة.

وفي سنة ٢٤٩، خرج عبد الرحمن ابن الأمير محمد إلى حصون ألبة والقلاع؛ وكان القائد عبد الملك بن العباس؛ فافتتحها، وقتل الرجال، وهدم البنيان، وانتقل في بساطها من موضع إلى موضع يحطم الزروع، ويقطع الثمار. وأخرج أردون بن إذفونش أخاه إلى مضيق الفج ليقطع بالمسلمين، ويتعرضهم فيه؛ فتقدم عبد الملك؛ فقاتلهم على المضيق، حتى هزمهم وقتلهم وبددهم؛ ثم وافهم بقية العساكر، وأظلتهم الخيل من كل الجهات؛ فصبر أعداء الله صبرا عظيما؛ ثم انهزموا. ومنح الله المسلمين أكثافهم؛ فقتلوا قتلا ذريعا؛ وقتل لهم تسعة عشر قومسا من كبار قوادهم.

وفي سنة ٢٥٠، كملت مقصورة المسجد الجامع بقرطبة؛ وبنى فيها الأمير محمد بنيانا كثيرا في القصر الكبير والمنى الخارجة عنه. ولم تكن في هذه السنة صائفة، استغنى بالغزوة المتقدمة، وأريح العسكر فيها.

وفي سنة ٢٥١، كانت غزوة ألبة والقلاع أيضا (هزيمة المركوز - أخزاه الله!) - خرج إلى هذه الغزاة عبد الرحمن بن محمد، وتقدم حتى حل على نهر دوبر. وتوالت عليه العساكر من كل ناحية، فرتبها. ثم تقدم؛ فاحتل بفتح بردنش؛ وكانت عليه أربعة حصون؛ فتغلب العسكر عليها، وغنم المسلمون جميع ما فيها وخربوها؛ ثم انتقل من موضع إلى موضع، لا يمر بمسكن إلا خربه، ولا موضع إلا حرقه، حتى اتصل ذلك في جميع بلادهم. ولم يبق لردريق صاحب القلاع، ولا اردمير صاحب توفة، ولا لعندشلب صاحب برجية، ولا لغومس صاحب مسانقة، حصن من حصونهم إلا وعمه الخراب. ثم قصد الملاحة، وكانت من أجل أعمال ردريق؛ فحطم ما حوالها وعفا آثارها.

ثم تقدم يوم الخروج على فج المركوز؛ فصد العسكر عنه، وتقدم ردريق بحشوده وعسكره؛ فحل على الخندق المجاور للمركوز. وكان ردريق قد عانى

توغيره أعواما، وسخر فيه أهل مملكته، وقطعه من جانب الهضبة؛ فارتفع جرفه، وانقطع مسلكه؛ فنزل عبد الرحمن ابن الأمير محمد على وادي إبره بالعسكر، وعبا القائد عبد الملك للقتال؛ وعبا المشركون، وجعلوا الكائن على ميمنة الدرب وميسرته. وناهض المسلمون جموع المشركين بصدورهم؛ فوقع بينهم جلاد شديد. وصدق المسلمون اللقاء؛ فانكشف الأعداء عن الخندق، وانحازوا إلى هضبة كانت تليه. ثم نزل عبد الرحمن ابن الأمير محمد، ونصب فسطاطه، وأمر الناس بالنزول وضرب أبنيتهم؛ فأقامت الحلة. ثم نهض المسلمون إليهم؛ فصدقوهم القتال، وضرب الله في وجوه المشركين، ومنح المسلمين أكثافهم؛ فقتلوا أبرح قتل؛ وأسر منهم جموع. واستمروا في

الهمزية إلى ناحية الأهزون، وافتحموا نهر إنره باضطراب في غير مخاضه؛ فمات منهم خلق كثير غرقا. وكان القتل والأسر فيهم من ضحى يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب إلى وقت الظهر. وسلم الله المسلمين ونصرهم على المشركين. وكان قد لجأ منهم إلى الوعر والغياض، عندما أخذتهم السيوف، جموع؛ فتبعوا وقتلوا؛ ثم هتك الخندق وسوى حتى سهل، وسلكتهم المسلمون غير خائفين ولا مضطحين. وأعظم الله المنة للمسلمين بالصنع الجميل، والفتح الجليل. والحمد لله رب العالمين. وكان مبلغ ما حيز من رؤوس الأعداء في تلك الوقعة عشرين ألف رأس وأربعمائة رأس واثنين وسبعين رأسا.

وفي سنة ٢٥٢، خرج عبد الرحمن ابن الأمير محمد غازيا إلى ألبه والقلاع؛ فخارب أهلها، وأفسد زروعها، وغادرها هشيمًا. وكان أهل هذا الجانب في ضعف ووهن شديد ألجأهم إلى المنع من التجمع والاحتشاد، لما نالهم في العام الفارط من النهب والقتل الذريع.

وفي سنة ٢٥٣، خرج الحكم ابن الأمير محمد غازيا إلى جرنيق؛ فجال في أرض الأعداء، وحل على حصن جرنيق، وحاصره حتى فتحه عنوة.

١٤٠١ وفيها كانت بالأندلس مجاعة عظيمة متوالية

وفيها كانت بالأندلس مجاعة عظيمة متوالية

وفي سنة ٢٥٤، خرج الأمير محمد إلى ماردة، وأظهر أن استعداداه لطليطلة. وكان بماردة قوم من المنتزين. فلما فصل من قرطبة، وتقدم بالرحلات إلى طريق طليطلة، نكب إلى ماردة؛ فاحتل بهم، وهم في أمن وعلى غفلة. فتحصنوا في المدينة أياما. ثم ناهض القنطرة؛ فوقع القتال، واشتد الحرب حتى غلبوا عليها؛ فأمر الأمير بتخريب رجل منها؛ فكان ذلك سببا لإذعان أهل ماردة؛ فطاعوا على أن يخرج فرسانهم، وهم يومئذ عبد الرحمن بن مروان، وابن شاكر، ومكحول، وغير هؤلاء؛ وكانوا أهل بأس ونجدة وبسالة مشهورة. فخرج المذكورون ومن هو مثلهم إلى قرطبة بعيالهم وذرائعهم. وولى عليها سعيد ابن عباس القرشي، وأمر بهدم سورها؛ ولم تبق إلا قصبتها لمن برد من العمال.

وفي سنة ٢٥٥، خرج الحكم ابن الأمير محمد، وقصد مدينة سرية. وكان قد تغلب بها سليمان بن عبدوس، وخالف فيها؛ فبادرته الصائفة، وحلت به العساكر، وأحدقت بالمدينة، ورميت بالجنانيق، حتى هتكت أسوارها. فقام أهلها على سليمان بن عبدوس؛ فطاع، ونزل؛ فقدم به قرطبة؛ فسكنها.

وفي سنة ٢٥٦، غدر عمرو بن عامل وشقة وملكها، وظهرت عاديته في الثغر؛ فأخرج الأمير إليه قطيعا من الحشم والعدة، وقصد بها لاردة ابن مجاهد المعروف بالتدميري؛ فلزمها. وحشد عبد الوهاب بن مغيث الحشود، وقدم عليهم عبد الأعلى العريف، وبعثه إلى وشقة. فلما بلغ عمرو خبره، خرج عن وشقة، وأسر بها لب بن زكرياء بن عمرو بن عامل؛ وكان أحد قتلة عامل السلطان بها موسى بن غلند؛ فقتل لب وعلق من السور.

وفي سنة ٢٥٧، خرج إلى الثغر عبد الغافر بن عبد العزيز؛ وكان بتطيلة. فقبض على زكريا بن عمرو بن عامل وأولاده وجماعة من أهل بيته، ونزل بهم على باب مدينة سرقسطة، وقتلهم بها. وقتل إلى قرطبة بالرؤوس.

وفي سنة ٢٥٨، كانت في الثغر ثورات وحركات، منها أن مطرفا وإسماعيل ابني لب، ويونس بن زنباط غدروا بعبد الوهاب بن مغيث، عامل تطيلة، وابنه محمد عامل سرقسطة. فتقبضوا عليهما، وملكوا في هذا العام الثغر. وكان توفي مطرف في صفر، ودخل إسماعيل سرقسطة في ربيع الأول.

وفي سنة ٢٥٩، خرج الأمير محمد بنفسه إلى الثغر، وحل في وجهته بطليطلة، وأخذ رهائنهم، وعقد أمانهم، وقاطعهم على قطع من العشور يودونه في كل عام، وهو الأمان الثاني. واختلفت أهواؤهم في عملهم؛ فطلب قوم منهم تولية مطرف بن عبد الرحمن، وطلب آخرون تولية طريشة؛ فولى كل واحد منهما جانبا، وتقسما المدينة وأقاليمها على حدود مفهومة معلومة؛ ثم تنازعا، وأراد كل واحد منهما الانفراد بملك طليطلة. ثم غلب الداعون إلى تقديم طريشة ابن ماسوية، وتأخير مطرف المذكور. وكان الأمير محمد نزلها في وجهته هذه، في الارتحال والاحتلال، طلائع الظفر، وبوادر النجح والنصر. وتجول في الثغر محاصرا لبني موسى، ومضيقا عليهم. ثم

تقدم إلى بنبلونة؛ فوطئ أرضها، وأذل أهلها، وخربها؛ قم قفل؛ فحل بقرطبة، ومعه جماعة من الثوار الناكثين المفسدين. فلما أخذ راحته، أمر بقتل مطرف بن موسى وبنيه، وأمر بإطلاق كاتبتهم، وكان لا ذنب له. فلما أخرج مطرف وبنوه للقتل، وأخرج كاتبتهم للإطلاق، وكان يعرف بالأصمحي، قال: (لا خير في العيش بعد هؤلاء!) فقدم للقتل قبلهم، ورفعت رؤوسهم.

وفي سنة ٢٦٠، خرج المنذر بن الأمير محمد إلى سرقسطة وبنبلونة؛ وكان القائد هاشم بن عبد العزيز. فاحتل سرقسطة، وانتهب زروعها، وأذهب ثمارها وأشجارها، ونقل أطعمتها إلى وشفة، وتقدم إلى بنبلونة؛ فجال في أرضها، وأتلف معاش أهلها. وفيها، كانت المجاعة التي عمت الأندلس؛ ومات فيها أكثر الخلق.

وفي سنة ٢٦١، هرب ابن مروان الجليقي من قرطبة مع رجال ماردة المنزلين منها، واستقروا بقلعة الحنش. فغزاه الأمير محمد، وحاصره حصارا قطعته وضيق عليه مدة من ثلاثة أشهر، ألجأه فيها إلى أكل الدواب؛ وقطع عنه الماء، ورماه بالمجانيق، حتى أذعن، وطلب الأمان، وشكى ثقل الظهر وضيق الحال؛ فأباح له الأمير محمد الرحيل إلى بطليوس والحلول بها؛ وهي يومئذ قرية؛ ففرج إليها، وقفل عنه.

وفي سنة ٢٦٢، خرج المنذر بن الأمير محمد إلى ابن مروان؛ وكان القائد هاشم بن عبد العزيز؛ وهو الذي كان سبب هروب ابن مروان، لأنه قال له من بين الوزراء: (الكلب خير منك!) وأمر يصفع قفاه، واستبلغ في خزيه؛ فهرب مع أصحابه، وذلك في خبر طويل. وكان ابن مروان قد ابنتى بطليوس حصنا، وجعله موطنًا، وأدخل فيه أهل ماردة وغيرهم من أهل المكافئة له على الشر. فلما انتهى إلى ابن مروان تحرك العسكر إليه، تنقل عن بطليوس، وحل بحصن كركي؛ واجتمع أهل ماردة إليه فيه؛ فنزل العسكر بمقربة من الحصن. وكان هاشم قد يعث إلى منت شلوط خيلا ورجلا لضبطه. وكان سعدون الرماري قد دخل إلى بلاد الشرك مستمدا؛ فجاء بمدد من المشركين، وأظهر أنه في قلة؛ فكتب بذلك عامل حصن منت شلوط إلى

هاشم؛ فرأى هاشم أن ذلك فرصة في سعدون؛ فبادر بالخروج من العسكر على غير تعبئة ولا أهبة، في خيل قليلة. وأخص هاشم، وجاوز الوعر، وأبعد عن العسكر؛ فأخذت المضايق عليه، وناشبه القتال؛ فأخذته جراح، وقتل من أصحابه جماعة؛ وأسر هاشم المذكور. ولما اتصل خبر هاشم بالأمر محمد، وقع في جانبه، وقال: (هذا أمر جناه على نفسه بطيشه وعجلته!) ثم رد ولده عوضا منه. وحصل هاشم أسيرا بيد ابن مروان الذي صنعه في أسره في قرطبة؛ فبره ابن مروان، وأكرمه، وأحسن إليه، ولم يعاقبه بما فعل معه.

وفي سنة ٢٦٣، خرج المنذر بن الأمير محمد، وجعل طريقه على ماردة فلما انتهى ذلك إلى ابن مروان، زال عن بطليوس؛ واحتل بها قائد المنذر الوليد بن غانم؛ فخرب ديارها. وتقدم ابن مروان إلى بلاد العدو.

وفي سنة ٢٦٤، حارب المنذر سرقسطة، وأفسد ما ألقى من زروعها؛ ثم تقدم إلى تطيلة والمواقع التي صار فيها بنو موسى؛ فانسحقها، وأجال العسكر عليها.

وفيها، دخل البراء بن مالك من باب فلنبرية إلى جليقية بحشود الغرب، وتردد هنالك حتى أذهب نعيمهم. وفيها، أطلق هاشم من الأسر.

وفي سنة ٢٦٥، ظهرت الفتنة وظهر الشر في جانب كورة ربة والجزيرة وتاكرنا؛ وظهر يحيى المعروف بالجزيري؛ فغزاه هاشم؛ فأذعن له، وقدم به إلى قرطبة.

وفي سنة ٢٦٦، خرج عبد الله بن الأمير محمد إلى كورة ربة ونواحي الجزيرة، وبنى حصونا في تلك النواحي؛ ثم قفل. وفيها، أمر الأمير محمد بإنشاء المراكب بقرطبة ليتوجه بها إلى البحر

المحيط عبد الحميد الرعبطي المعروف بابن مغيث؛ وكان قد رفع إليه رافع أن جليقية من ناحية البحر المحيط لا سور لها، وأن أهلها لا يمتنعون من جيش إن غشيم من تلك الناحية. فلما كلمت المراكب بالإنشاء، قدم عبد الحميد بن مغيث عليها. فلما دخل البحر، تقطعت المراكب كلها وتفرقت، ولم يجتمع بعضها إلى بعض. ونجا ابن مغيث.

وفي سنة ٢٦٧، التأت الحصون المبتناة برية وتاكرنا وجهة الجزيرة. وفيها، ابتدأ شر اللعين عمر بن حفصون، الذي أعجب الخلفاء أمره، وطالت في الدنيا فتنته، وعظم شره؛ فقام في هذه السنة على الأمير محمد بناحية رية. فتقدم إليه عامر بن عامر؛ فانهزم عامر وأسلم

قبتة؛ فأخذها ابن حفصون، وهو أول رواق ضربه؛ فاستكن إليه أهل الشر. وعزل الأمير عامرا عن كورة رية، وولاهها عبد العزيز بن عباس؛ فهادته ابن حفصون، وسكنت الحال بينهما. ثم عزل عبد العزيز، وتحرك ابن حفصون، وعاد إلى ما كان عليه من الشر. وخرج هاشم بن عبد العزيز إلى كورة رية يطلب كل من كشف وجهه في الفتنة وأظهر الخلاف، وأخذ رهائن أهل تاكرنا على إعطاء الطاعة.

ومن العجائب في هذا العام، ما ذكره الرازي وغيره. قالوا: زلزلت الأرض بقرطبة زلزالا شديدا، وهاجت ريح عند صلاة المغرب؛ فأثارت سحباً فيه ظلمات ورعد ويرق؛ فصعق ستة نفر، وانقلبوا على ظهورهم، مات اثنان؛ وخر جميع الناس سجداً إلا الإمام، فإنه ثبت قائماً؛ وكان الرجلان اللذان ماتا أقرب الناس إلى الإمام؛ فاحترق شعر أحدهما واسود وجهه وشقه الأيسر؛ والآخر ظهر بشقه الأيمن سواد؛ والأربعة الصرعى مكثوا حتى فرغ الإمام؛ فسئلوا عما أحسوا؛ فقالوا: (أحسنا نارا كأنها الموج الثقيل). ووجد أهل المسجد رائحة النار، ولم يوجد للصاعقة أثر في سقف ولا حائط. واهتزت لهذا

الزلازل القصور والجبال، وهرب الناس إلى الصحارى، ضارعين إلى الله تعالى. وعم هذا الزلزال من البحر الشامي إلى آخر الجوف وإلى آخر أرض الشرك، لم يختلف في ذلك مختلف.

وفي سنة ٢٦٨، خرج المنذر ابن الأمير محمد، والقائد هاشم بن عبد العزيز؛ فقصد الثغر الأقصى، وحطم سرقسطة، وافتح حصن روطبة؛ ثم تقدم إلى ألبه والقلاع، وافتتح حصونا كثيرة، وأخلى حصونا كثيرة، خوفاً من مهرة العسكر، وتوقعا من تغلبه. وفيها، فسد ما بين المنذر وبين الوزير هاشم بن عبد العزيز.

وفي سنة ٢٦٩، قال الرازي: وفي سنة ٢٦٩، غزا محمد بن أمية بن شهيد إلى كورة رية وكورة إلبيرة. وكانوا بحال توحش ونفار؛ فسكن أحوال أهلها، وهادن الناس بها، ونظر في استئصال رجال بجبال رية وغيرها من بني رفاعه وغيرهم.

وفي سنة ٢٧٠، استم محمد بن أمية بن شهيد استئصال بني رفاعه. وأتاه في هذه الغزاة كُتاب الأمير محمد بتولية عبد العزيز بن العباس كورة إلبيرة؛ فولاه، وقفل.

وفيها، غزا هاشم كورة رية، واستنزل عمر بن حفصون من جبل برشتر وقدم به قرطبة؛ فأنزله الإمام، وأوسع له في الإكرام.

وفي سنة ٢٧١، هرب عمر بن حفصون من قرطبة، ولجأ إلى جبل برشتر؛ فانتدب الأمير محمد إلى حربه؛ وحوصر في السنة الآتية.

وفي سنة ٢٧٢، خرج عبد الله ابن الأمير محمد، والقائد هاشم بن عبد العزيز. وقصد الغرب إلى ابن مروان، وهو بجبل اشبرغزة؛ فنازله وحاربه.

قال حيان بن خلف في عمر بن حفصون: هو كبير الثوار بالأندلس ونسبه: عمر بن حفص، المعروف بحفصون، بن عمر بن جعفر بن شتيم بن ذبيان ابن فرغلوش بن إذفونش، من مسالة الذمة، من كورة تاكرنا من عمل رندة. وكان الذي أسلم منهم جعفر بن شتيم؛ ففشا نسله في الإسلام. وكان له من الولد الذكور عمر وعبد الرحمن؛ فولد عمر بن جعفر حفصاً. وولد حفصون هذا عمر هذا الثائر الملعون؛ فعمر هذا هو الذي ثار على الأمير محمد أولاً، ثم بلغ بعد ذلك في الشقاق والفتن مبلغاً لم يبلغه ثائر بالأندلس. واستوطن لأول نفاقه حصن برشتر قاعدة وحضرة، وهي أمتع قلاع الأندلس قاطبة، وذلك في هذه السنة، وهو تأريخ صعوده الآخر إليها الذي توطد له ملكه فيه، وخالف على السلطان حتى رضى عنه بالمناركة. واتصلت أيامه في ظهور وعزة حتى قدم فيها ثلاثة من خلفاء المروانيين أئمة الجماعة بالأندلس - رحمهم الله! - أولهم هذا الأمير محمد؛ وتخلف بعدهم إلى أن هلك على يد الرابع منهم، وهو عبد الرحمن الناصر، على ما يأتي مفسراً.

وفي سنة ٢٧٣، خرج المنذر بن الأمير محمد إلى كورة رية، والقائد محمد ابن جمهور. فقصد مدينة الحامة، وفيها حارث بن حمدون من بني رفاعه؛ وكان مظاهراً لعمر بن حفصون، وكانا قد اجتمعا بالحامة. فنازلهم، وناهضهم، وأحرق بهم من كل ناحية؛ وأقام محاصراً لهم شهرين. فلما وصل إليهم الضيق، برزوا إلى باب المدينة خارجاً، مستقبليين للحرب. وقام بها؛ فثأله جراح، وشلت يده؛ ثم انهزم هو وأصحابه، وصاروا بين قتيل وفيل. ودخل باقيهم في الحامة. فبينما المنذر في هذه الحال من السرور، إذ أتاه الخبر بموت أبيه الأمير محمد بن عبد الرحمن، ليلة الخميس لليلة بقيت من شهر صفر من السنة؛ ودفن في القصر. وأدركه المنذر قبل مواريثه وصلى عليه.

بعض أخباره وسيره

كان الأمير محمد - رحمه الله! - فصيحا، بليغا، عظيم الأناة، متنزها عن القبح، يؤثر الحق وأهله، لا يسمع من باغ، ولا يلتفت إلى قول زائع. وكان عاقلا، على أخلاق جميلة ومكارم حميدة، ذا بديهة وروية، يرى كل من باشره وحديثه أن له الفضل المستبين في إدراكه، وفهمه، ودقة ذهنه، ولطيف فطنته، وجزالة رأيه. وكان أعلم الناس بالحساب وطرق الخدمة. وكان متى أعضل منها شيء، رجع إليه فيه؛ وإذا أخل أحد من خزانه وأهل خدمة الحساب بشيء من ذلك، لم يجز عليه بأدنى لحظة أو نظرة. ولقد استدرك على بعض خزانه في صك يشتمل على مائة ألف دينار خمس درهم؛ فرد الصك، وأمر بتصحيحه؛ فتجمع الخدمة والكتاب عليه؛ فلم يقعوا على ذلك النقصان لدقته وخفائه؛ فرجعوا إليه معترفين بالتقصير، وأعلموا الرسول؛ فرد الصك إليه وأعلمه باعترافهم؛ فعلم لهم على موضع الخطأ؛ فإذا هو خمس درهم.

وقال هاشم بن عبد العزيز: كان الأمير محمد - رحمه الله! - أصح الناس عقلا، وأحسنهم تمييزا، وأبصرهم بوجه الرأي. وكان يستشيرنا؛ فنجتهد ونقول ونحصل؛ فإن أصبنا، أمضى ذلك؛ وإن كان في الرأي خلل، قام فيه بالحجة، وأبانه بما تعجز الأوهام عنه تنقيحا وتهذيبا. وما يحفظ عنه أنه قال لهاشم في شيء أنكروه عليه من عدم التثبت: (يا هاشم! من أثر السرعة أمضت به إلى الهفوة. ولو أنا أصغينا إلى محو زلاتك، وأصغنا إلى هفواتك، لكنا شركاءك في الزلة، وقسماءك في العجلة! فهلا عليك، ورويدا بك! فإنك إن يعجل يعجل لك!) وكان، مع تشبته وأناته، وافيًا لمواليه في أنفسهم وأعقابهم، لا يكبح عنده كادح في شيء عن أحدهم، فيسمعه أو يسمعه. ولقد ولي الكفاية عبد الملك بن عبد الله بن أمية اصطناعا له، وعائدة

عليه؛ فرد عليه يوما جوابا يقول فيه: (قد فهمنا عنك، ولم نأت ما أئيناه عن جهل بك، لكن اصطناعا لك، وعائدة عليك. وقد أبخنا لك الاستعانة بأهل اليقظة من الكتاب. فتخير منهم من نثق به وتعتمد عليه. ونحن نعينك على أمرك بتفقد كتبك والإصلاح عليك، إلى أن تتركب الطريقة وتبصر الخدمة إن شاء الله تعالى!) فحسده على الخطة لشرفها من رأى نفسه أولى بها لاستكمال أدواتها؛ فطولب عليها. وكان أشد الناس في ذلك هاشم بن عبد العزيز، يثير سقطاته، ويتتبع هفواته، ويشنع عليه؛ والأمير محمد بفطنته يتغافل له. فلما طال عليه الصبر، دعا هاشما، وقال له: (قد أكثر أهل خدمتنا وأكثر في هذا الكاتب: تذكرون جهله وفدائمه، وقد ضمنا إليه من الكتاب من يستعين به، ويستظهر على خدمته بمكانه؛ وإنما تقفوا بخدمتنا، وننسلك بمراتبنا طريق من ابتدأها وأسسها ووضع أهلها فيها. وإذا كنا لا نخلف آباءكم بكم، ولا نخلفكم بأبنائكم، فعند من نصنع إحسانا ونزب أيادينا؟ أعند أبناء القرائن أو الجزارين أو أمثالهم من الممتننين؟) وأنت كنت أحق بالحصص على هذا، وتصويب الرأي فيه، لما ترجو من مثله في أولادك وعقبك!) فرجع هاشم إلى الشكر له وتقدير يده ورجله.

وكان - رحمه الله! - مأمولا محبوبا في جميع البلدان. وكان محمد بن أفلح صاحب ناهرات لا يقدم ولا يؤخر في أموره ومعضلاته إلا عن رأيه وأمره؛ وكذلك بنو مدرار بسجلهاسة. وكان قرولش ملك إفرنجية يسترخ عقله؛ فيهاديه ويتخفه؛ وهو (أعني قرولش) الذي عمل صورة عبي من ثلاثمائة رطل من ذهب خالص، وصفها بالياقوت والزبرجد، وجعل لها كرسيًا من ذهب خالص مفصص بالياقوت والزبرجد أيضا؛ فلما اكمل ذلك، سجد له وأسجد له جميع أهل إفرنجية في ذلك التاريخ؛ ثم دفعه إلى صاحب كنيسة الذهب برومة.

وكان الأمير محمد - رحمه الله! - مهتلا بأمور رعيته، مراقبا لمصالحها. ووضع عن أهل قرطبة ضريبة الحشود والبعوث. وقال ابن حبان: كانت عدة الفرسان المستنفرين لغزو الصائفة المجردة إلى جليقية في مدة الأمير محمد مع الولد عبد الرحمن ابنه على هذه التسمية المفصلة: من ذلك كورة إلبيرة: ألفان وتسعمائة؛ جيان: ألفان ومائتان؛ قبرة: ألف وثلاثمائة؛ باغه: تسعمائة؛ تاكرنا: مائتان وتسعة وتسعون؛ الجزيرة: مائتان وتسعون؛ إنسجة: ألف ومائتان؛ قرمونة: مائة وخمسة وثمانون؛ شذونة: ستة آلاف وسبعمائة وتسعون؛ رية: ألفان وستمائة؛ فخص البلوط: أربعمائة؛ مورور: ألف وأربعمائة؛ تدمير: مائة وستة وخمسون؛ ريينة: مائة وستة؛ قلعة رباح وأوربط: ثلاثمائة وسبعة وثمانون. قال: ونفر من أهل قرطبة لهذه الغزوة عدد لم يوقف على قدره. وكان هذا العدد الذي غزا به بعد أن رفع

الضريبة التي كانت على أهل قرطبة وأقاليمها وغيرها من البلاد؛ وقطع عنهم الحشود التي كانوا يؤخذون بتجديدها في كل سنة للصوائف الغازية لدار الحرب، وأسقطها منهم ووكلمهم إلى اختيار أنفسهم في الطوعية للجهاد من غير بعث. فحسن موقع ذلك منهم، وتضاعف حمدهم له وشكرهم واغبتاطهم بدولته.

وذكر جماعة من المؤرخين، عن بقي بن مخلد، أنه قال: ما كلمت أحدا من ملوك الدنيا أكل عقلا ولا أبلغ فضلا من الأمير محمد. دخلت عليه يوما في مجلس خلافته؛ فافتتح الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ثم ذكر الخلفاء خليفة خليفة؛ فحلى كل واحد منهم بتخليته، ووصفه بصفته، وذكر مآثره ومناقبه بأفصح لسان وأبلغ بيان، حتى انتهى إلى نفسه؛ فسكت. وفي صدر دولته سعى بقي بن مخلد إلى الأمير محمد؛ وذلك أنه لما قدم بقي بن مخلد من المشرق عن رحلته الطويلة بما جمع من العلوم الواسعة والروايات العالية والاختلافات النقية، أغاظ ذلك فقهاء قرطبة أصحاب الرأي والتقليد،

الزاهدين في الحديث، الفارين عن علوم التحقيق، المقصرين عن التوسع في المعرفة؛ فحسدوه، ووضعوا فيه القول القبيح عند الأمير، حتى ألزموه البدعة، وشنؤوه إلى العامة. وتخطى كثير منهم برميهم إلى الإلحاد والزندقة، وتشاهدوا عليه تغليظ الشهادة، داعين إلى سفك دمه؛ وخاطبوا الأمير محمدا في شأنه، يعرفونه بأمره، ويكثرون عليه بكل ما يرجون به الوصول إلى سفك دمه، ويسألونه تعجيل الحكم فيه. فاشتد خوف بقي بن مخلد جدا، واستتر خوفا على دمه، وعمل على الفرار عن الأندلس إن أمكنه ذلك. فأرشده الله إلى التعلق بجبل هاشم بن عبد العزيز، وسؤاله الأخذ بيده؛ وكتب إلى الأمير محمد، ينشده الله في دمه، ويسأله التثبيت في أمره، والجمع بينه وبين خصومه، وسماع حجته، فيأتي في ذلك بما يوفقه الله له. فألقى الله في نفس هاشم الإصغاء إلى شكواه، والاعتناء بأمره؛ فشمر له عن ساعده، وأوصل كتابه إلى الأمير محمد يشرح حاله؛ فعطف عليه، وإنهم الساعين به إليه؛ فأمر بتأمين بقي بن مخلد، وإحضاره مع الطالبين له؛ فتناظروا بين يديه؛ فأدلى بقي بحجته، وظهر على خصومه؛ واستبان الأمير محمد حسدهم إياه لتقصيرهم عن مده. فدفعهم عنه، وتقدم إليه يطأطأه قدمه، ونشر عليه. وأمر بإيصاله إليه في زمرة من الفقهاء، والرفع من منزلته؛ فاعتلى ذروة العلم، ولم يزل عظيم القدر عند الناس وعند الأمير محمد إلى أن مات - رحمه الله! - وفي صدر دولته، توفي عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب، وذلك في رمضان سنة ٢٣٩. وهو عبد الملك بن سليمان بن مروان بن جيهلة بن عباس ابن مرداس السلمي، يكنى أبا هارون؛ أوله من كورة البيرة، ونقله الأمير محمد إلى قرطبة، بل نقله أبوه عبد الرحمن بن الحكم. وكان محمد بن عمر بن لبابة يقول: عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب، وعاقلها يحيى بن يحيى، وفقهها عيسى بن دينار. قال ابن وضاح وغيره: لم يقدم الأندلس أحد أفقه

من سخون، إلا أنه قدم علينا من هو أطول لسانا منه، يعني ابن حبيب. وكان ابن حبيب أدبيا، نحويا، حافظا، شاعرا، متصرفا في فنون العلم من الأخبار والأنساب والأشعار. وله مؤلفات حسان في الفقه والأدب والتواريخ كثيرة. قال ابن العزبي: بضاعته في الحديث مزجاة. وكانت علته التي مات منها الحصى. وتوفي وسنه أربع وستون سنة. وكتب إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم في ليلة عاشوراء (بسيط):

لَا تَنْسَ، لَا يَنْسَكَ الرَّحْمَنُ، عَاشُورَا ... وَأَذْكُرُهُ لَا زَلَّتْ فِي الْأَخْبَارِ مَذْكُورَا
مَنْ بَاتَ فِي لَيْلِ عَاشُورَاءَ ذَا سَعَةٍ ... يَسْكُنُ بَعِيشَتِهِ فِي الْحَوْلِ مُحْشُورَا
فَارْغَبْ، فَدَيْتُكَ، فِيمَا فِيهِ رَغْبَنَا ... خَيْرُ الْوَرَى كُلُّهُمْ حَيًّا وَمَقْبُورَا

ونخرج الأمير محمد بن عبد الرحمن إلى الرصافة يوما متنزها، ومعه هاشم بن عبد العزيز؛ فكان بها صدر نهاره على لذته؛ فلها أمسى، واختلط الظلام انصرف إلى القصر، وبه اختلاط. فأخبر من سمعه وهاشم يقول له: (يا ابن الخلائف! ما أطيب الدنيا لولا الموت!) فقال له الأمير: (يا ابن الخناء! لحت في كلامك! وهل ملكنا هذا الملك الذي نحن فيه إلا بالموت؟ فلولا الموت، ما ملكناه أبدا!) وكان الأمير محمد - رحمه الله! - غزاه لأهل الشرك والاختلاف. وربما أوغل في بلاد العدو الستة أشهر والأكثر، بحرق وبنسف. وله وقعة وادي سليط، وهي من أمهات الوقائع؛ ولم يعرف بالأندلس قبلها مثلها. وفيها يقول عباس بن فرناس، وشعره يكفيننا من

صفتها؛ وهو (طويل) :
 وَمُخْتَلَفِ الْأَصْوَاتِ مُؤْتَلَفِ الرَّحَفِ ... لَهُمُ الْفَلَاحُ عِبِلَ الْقَنَابِلِ مُلْتَفِ
 إِذَا أَوْمَضَتْ فِيهِ الصَّوَارِمُ خِلَتَهَا ... بَرُوقًا تَرَاءَى فِي الْجِهَامِ وَتَسْتَخْفِي
 كَأَنَّ ذُرَى الْأَعْلَامِ فِي مِيلَانِهِ ... قَرَأَقِيرُ فِي يَمٍّ عَجَزَنَ عَنِ الْقَذْفِ
 وَإِنْ طَحَنَتْ أَرْحَاؤُهَا كَانَ قُطْبُهَا ... حَجَّى مَلِكٍ نَدَبٍ شَمَائِلُهُ عَفَّ
 سَمِيَّ خَتَامِ الْأَنْبِيَاءِ مُحَمَّدٍ ... إِذَا وَصِفَ الْأَمْلاكَ جَلَّ عَنِ الْوَصْفِ
 فَمِنْ أَجَلِهِ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ غُدُوَّةً ... وَقَدْ نَفَضَ الْإِصْبَاحُ حَبْلَ عُرَى السِّجْفِ
 بَكَى جَبَلًا وَادِي سَلِيطٍ فَأَعْوَلَا ... عَلَى النَّفْرِ الْعُبْدَانِ وَالْعُصْبَةِ الْغُلْفِ
 دَعَاهُمْ صَرِيحُ الْحَيْنِ فَاجْتَمَعُوا لَهُ ... كَمَا اجْتَمَعَ الْجُعْلَانُ لِلْبَعْرِ فِي وَقْفِ
 فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِبَعْضِهَا ... فَوَلَّوْا عَلَى أَعْقَابٍ مَهْزُولَةٍ كُشِفِ
 كَانَ مَسَاعِيرَ الْمَوَالِي عَلَيْهِمْ ... شَوَاهِينُ جَادَتْ لِلْغَرَانِيقِ بِالنَّسْفِ
 بِنَفْسِي تَنَانِينَ الْوَغَى حِينَ صَمَّتْ ... إِلَى الْجَبَلِ الْمَسْحُونِ صَفًّا عَلَى صَفِّ
 يَقُولُ ابْنُ بُولُشٍ لِمُوسَى وَفَدَوْنِي: ... أَرَى الْمَوْتَ قُدَّامِي وَتَحْتِي وَمَنْ خَلْفِي
 قَتَلْنَا لَهُمْ أَلْفًا وَأَلْفًا وَمِثْلَهَا ... وَأَلْفًا وَأَلْفًا بَعْدَ أَلْفٍ إِلَى أَلْفِ
 سِوَى مَنْ طَوَاهُ النَّهْرُ فِي مُسْلِحِهِ ... فَأَغْرَقَ فِيهِ أَوْ تَذَاذًا مِنْ جُرْفِ

قال أبو عمر السالمي: كانت أول غزواته إلى بلد العدو، وقد حشد لها وجند، وصوب كيف شاء وصعد، ألقى العدو وقد ضاق بخيله الفضاء الواسع، والمكان الداني والشاسع، وهو متأهب للقائه! متوجه إلى تلقائه. فخامر الأمير محمد الجزع، وشابه الروع والفرع، وظن أن لا منجاة من الكفار، وأن المسلمين هناك طعن الشفار؛ فرأى من الحزم الأوكد، والنظر الأحمد الأرشد، الرجوع عن تلك الحركة، لقوله تعالى: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة؛ فقام رجل؛ فقال: (أيها الأمير! قال الله تبارك وتعالى: الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم الآية. فقال له الأمير محمد: (والله! ما جبت نفسي، إلا أنه لا زأى لمن لا يطاع، ولست أستطيع أن أجاهد وحدي!) فقال له العتي: (والله! ما أراه قذف بها على لسانه إلا ملك! فأستخر الله في ليلك

هذا وفي يومك!) فأراه الله في مقابلة العدو الرشاد، وألهمه التوفيق والسداد. فندب الناس إلى لقاء أعداء الله ونصر دينه، وأن يكون كل على حسن ظنه من الظفر وبقينه. فلما انعقدت راياتهم، وتأكدت على المقارعة نياتهم. قدّم عليهم الأمير محمد ابنه المنذر، إذ كان مشهوراً بالبأس، محبوباً في الناس. فسار المسلمون إلى أن التقى الجمعان، والتف الفريقان فأعقب الله لأوليائه ظفراً ونصراً، وجعل بعد عسر يسرا. قال: ولم يؤذن مؤذن الظهر إلا ومن رؤوس الأعداء جملة آلاف مقطوعة لأعداء الله؛ وذلك من فضل الله. وفي هذا الفتح يقول العنبي، يمدح الأمير محمد في قصيد طويل أذكر هنا بعضه، وهو (كامل) :

سَائِلٌ عَنِ النَّغْرِ الصَّوَارِمَ تَصَدِّقُ ... وَاسْتَنْطِقِ السُّمَرَ الْعَوَالِي تَنْطِقِ
 تَرَكَّتْ وَقَائِعَ فِي الثُّغُورِ وَقَدْ غَدَتْ ... مَثَلًا بِكُلِّ مُغْرِبٍ وَمُشْرِقِ
 وَأَدَاخَ أَرْضِ الْمُشْرِكِينَ بِوَقْعَةٍ ... تَرَكَّتْهُمْ مِثْلَ الْأَشْيَاءِ الْحُرْقِ
 جَادَتْ عَلَيْهِمْ حَرْبُهُ بِصَوَاعِقٍ ... تَرَكَّتْهُمْ مِثْلَ الرَّمَادِ الْأَزْرَقِ

خلافة المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم كنيته: أبو الحكم. مولده: سنة ٢٢٩. أمه: تسمى أثل، ولدته لسبعة أشهر. وزراؤه: أحد

عشر. كتابه: اثنان: سعيد بن مبشر، وعبد الملك بن عبيد الله بن أمية بن شهيد. حاجبه: عبد الرحمن بن أمية بن شهيد. قواده: سبعة. قاضيه: أبو معاوية عامر بن معاوية اللخمي. نقش خاتمه: المنذر بقضاء الله راض. صفته: أسمر، جعد الشعر، بوجهه أثر جدري، يخضب بالحناء والكتم. أولاده الذكور: خمسة، والإناث: ثمان. بويج يوم الأحد ثمان خلون من ربيع الأول سنة ٢٧٣، وهو ابن أربع وأربعين سنة، وسبعة عشر يوما؛ وتوفي في

غزاة له على برشتر يوم السبت للنصف من صفر سنة ٢٧٥. عمره: ستة وأربعون سنة. خلافته: سنتان إلا سبعة عشر يوما. ودفن بقصر قرطبة، وصلى عليه أخوه عبد الله، جد الناصر.

واتصل به موت أبيه، وهو على حصن الحامة يقاتل المرتد اللعين عمر ابن حفصون؛ فقفل إلى قرطبة. وتمت له البيعة في اليوم الثاني من وصوله؛ ففرق العطاء في الجند، وتحبب إلى أهل قرطبة والرعايا بأن أسقط عنهم عشر العام وما يلزمهم من جميع المغرم.

وكانت أكثر حصون رية قد حصلت في طوع ابن حفصون؛ فبعث إليها الإمام المنذر الأجناد؛ فانصرفت إلى الطاعة.

ولما بلغ ابن حفصون موت الأمير محمد، وانصرف عنه المنذر على ما تقدم، نهض من فوره؛ فراسل الحصون التي بينه وبين الساحل كلها؛ فأجابته وطاعت له. ونهض إلى باغه وجبل شيبه؛ فأخذ من الأموال ما لا يوصف، كل ذلك منه بلا قوة، ولا كثرة من مال، ولا عدد؛ ولكنه كان عذابا من الله ونقمة انتقم بها من عبيده. وانفق له زمان هرج وقلوب قاسية فاسدة ونفوس خبيثة، متطلعة إلى الشر، مشرئة إلى الفتنة. فلما ثار، وجد من الناس انقيادا وقبولا للمشاكلة والموافقة؛ فتألبت له الدنيا، ودخل إلى الناس من جهة الألفة، وقال: (طال ما عنت عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وأخرجكم من عبوديتكم!) فكان ابن حفصون لا يورد هذا على أحد إلا أجابه وشكره. فكانت طاعة أهل الحصون بهذا الوجه. وكان أتباعه شطار الناس وشرارهم. فكان يمنيهم بفتح البلاد، وغنائم الأموال. وكان مع ذلك متحبا لأصحابه، متواضعا لألأفه. وكان، مع شره وفسقه، شديد الغيرة، حافظا للحرمة؛ فكان ذلك مما يميل النفوس إليه. ولقد كانت المرأة في أيامه تجئ بالمال والمتاع من بلد إلى بلد منفردة، لا يعترضها أحد من خلق الله. وكانت عقوبته السيف، يصدق المرأة

والرجل والصبي أو من كان على من كان، لا يطلب على ذلك شاهدا أكثر من الشكوى. وكان يأخذ الحق من ابنه، ويبر الرجال، ويكرم الشجعان؛ وإذا قدر عليهم، عفا عنهم. وكان يسورهم بأسورة الذهب إذا اختصلوا. فكانت هذه الأشياء كلها عوناً له. وانتهى ابن حفصون بعاديته إلى قبرة وما أمامها إلى قرية الجالية، وأغار على القبذيق من البيرة، وعلى أحواز جيان، وأسر عبد الله ابن سماعة عامل باغ.

وكان اجتمع إلى حصن آشر من حوز رية وبمقربة من قبرة جمع الشر من أصحاب ابن حفصون. فراع أهل قبرة أمرهم وهابوهم. واتصل بالأمر المنذر خبرهم؛ فأرسل أصبغ بن فطيس في خيل كثيفة إلى حصن آشر؛ فحاصرهم حتى افتتحه، وقتل من كان فيه. وأخرج الأمير المنذر عبد الله بن محمد بن مضر وأبدون الفتى بنخيل إلى ناحية لجانة من قبرة؛ وكان بها مسلحة لابن حفصون؛ فنازلوهم وقتلوهم حتى أفنوهم.

قال الرازي: وفي سنة ولاية الإمام المنذر، غزا محمد بن لب إلى ألبه والقلاع ومعه جموع المسلمين؛ ففتح الله للمسلمين، وقتلوا المشركين قتلا ذريعا.

وفي هذه السنة، أعني سنة ٢٧٣، في جمادى الأولى، أمر الأمير المنذر بسجن هاشم بن عبد العزيز وزير أبيه وخاصته، وأمر بقتله في جمادى الأولى؛ وسبب ذلك أن هاشما كان يجسد لمكانه من الأمير محمد وخاصته به؛ فكانوا يسعون به عند المنذر، ويكررون ذلك عليه، حتى تنافرت النفوس. فلما مات الأمير محمد، وولى المنذر، أراد أن يفي له ويتبع فيه فعل أبيه؛ فولاه الحجابة. ثم تمالأوا عليه، وأمروا، وحرفوا عليه الكلام، وتأولوا عليه أقبح التأويل، حتى نفذ قضاء الله فيه. وكان مما تأولوا عليه أن هاشما أنشد عند مواراة الأمير محمد - رحمه الله! - (وافر):

أَعْرَى يَا مُحَمَّدُ عَنْكَ نَفْسِي ... أَمِينُ اللَّهِ ذَا الْمَنِّ الْجَسَامِ

فَهَلَّا مَاتَ قَوْمٌ لَمْ يَمُوتُوا ... وَدَوَّفَعَ عَنْكَ لِي كَأْسُ الْحِمَامِ
فَتَأَوَّلُوا أَنَّهُ يَرِيدُ بَقُولَهُ (لَمْ يَمُوتُوا) الْمُنْذَرُ. وَكُتِبَ هَاشِمٌ مِنْ حَبْسِهِ إِلَى جَارِيَتِهِ عَاجٍ (طَوِيلٌ) :
وَإِنِّي عَدَانِي أَنْ أَرْوِرَكَ مَطْبَقٌ ... وَبَابٌ مَنِيعٌ بِالْحَدِيدِ مُضَبَّبٌ
فَإِنْ تَعَجَّبِي يَا عَاجُ مِمَّا أَصَابَنِي ... فَقِنِي رَبِّبْ هَذَا الدَّهْرَ مَا يَتَعَجَّبُ
تَرَكْتُ رَشَادَ الْأَمْرِ إِذْ كُنْتُ قَادِرًا ... عَلَيْهِ فَلَا قِيَتَ الَّذِي كُنْتُ أَرْهَبُ
وَكَمْ قَاتِلٍ قَالَ: أُنْجِ وَيَحْكُ سَالِمًا ... فَقِنِي الْأَرْضَ عَنْهُمْ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبٌ
فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ الْفَرَارَ مَذَلَّةٌ ... وَنَفْسِي عَلَى الْأَسْوَاءِ أَحْلَى وَأَطْيَبُ
سَأَرْضِي بِحُكْمِ اللَّهِ فِيمَا يَنْبَغِي ... وَمَا مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ لِلْهَرَبِ مَهْرَبُ
فَمَنْ يَكُ أَمْسَى شَامِنًا بِي فَإِنَّهُ ... سَيْنَهُلُ فِي كَاسِي وَشِيكَأً وَيَشْرَبُ

ثم بعث فيه الأمير ليلاً؛ فقتله، وسجن أولاده وحاشيته، وانتهب ماله، وهدم داره، وألقى أولاده في السجن، وألزمهم غرم مائتي ألف دينار؛ فلم يزلوا في السجن والغرم إلى موت المنذر وولاية أخيه عبد الله؛ ثم أطلقهم عبد الله، وصرف عليهم ضياعهم، وولى أحدهم الوزارة والقيادة.

وفيهما، كانت الوقعة على أهل طليطلة وكانوا قد جيشوا البربر المنفيين من ترجيله، فقتل منهم ألوف.

وفي سنة ٢٧٤، خرج الأمير المنذر بجيوشه إلى عمر بن حفصون؛ فافتتح حصونه برية، والحصون التي بجهة قبرة؛ ثم توجه إلى حضرته بريشتر؛ فحاصره فيها، وأفسد ما حواليه، وضيق عليه؛ ثم انتقل عنه إلى أرجذونة، وبها عيشون؛ فأقام عليها محاصراً لها ومضيقة على أهلها، إلى أن نبذوا عيشوناً وأهلها، وأسلموه بذنبه؛ فدخلها الأمير المنذر، وقبض على عيشون وأصحابه. وظفر أيضاً ببني مطروح، وهم: حرب، وعون، وطالوت، وافتتح حصونهم بجبل باغه، وأتى بهم

إلى الأمير أسارى؛ فبعث ببني مطروح إلى قرطبة، وأمر بقتلهم وصلبهم؛ وكانوا اثنين وعشرين رجلاً؛ فصلبوا بأجمعهم؛ وصلب مع عيشون في الخشبة خنزير وكلب. وكان السبب في ذلك أن عيشوناً كان يقول: (إذا ظفري، فليصلبني وليصلب عن يميني خنزيراً وعن يساري كلباً!) وكان يثق بنفسه في القتال ثقة شديدة، ويأمن من أن يؤخذ لشدة وشجاعته. فلما يئس الأمير منه، دس إلى بعض أهل أرجذونة بأن يتحيل في أخذ عيشون؛ فأجابه، ووعد بأخذه. فلما كان في بعض الأيام، دخل بيت أحدهم بغير سلاح، وقد استعد له بكل؛ فأوثق به وبعث به إلى الأمير المنذر.

شأن عمر بن حفصون في أيام المنذر - رحمه الله! ولما كان في العام الثاني من ولايته وهي هذه السنة المؤرخة، خرج في عديده الأكثر، وقصد بريشير. فخل عليها أحفل احتلال، وقاتل ابن حفصون بها أشد قتال؛ وانتشرت خيله في تلك الأقطار، واستولت على السهول والأوعار. ثم عطف الأمير إلى مدينة أرجذونة ليتبرها تبيراً، ويولي أهلها يوماً عبوساً قطرياً، لدخولهم في طاعة ابن حفصون، ونزوعهم إلى ما نزع إليه أهل تلك الحصون، فخرجت رسلهم إلى الأمير؛ فتلقته بالسمع والطاعة، والدخول في جمهور الجماعة؛ فتقبل نزوعهم، وأنس جميعهم. وتغلب على القصة إثر ذلك؛ وأسر عامل ابن حفصون هنالك. واستمر اللعين ابن حفصون على ضلالتة وغيه، ولم يثن عنانا عن عاديته وبغيه. فخرج إليه الأمير ثانية وحاصره حصاراً، وقد عدم ابن حفصون أعواناً وأنصاراً. فلما رأى الأمير أخذاً بمحققه، وسد أفواه طرقة، أعمل سوانح الفكر، في الخديعة والمكر، ليعتصم بذلك من تلك الجبال المنصوبة، والأشراك المعترضة المضروبة؛ فأظهر الإنابة إلى الطاعة، وشهر النصيحة جهد الاستطاعة، على أن يكون عند الأمير من خاصة جنده، ويسكن قرطبة بأهله وولده، وأن يلحق أبناءه في الموالي، ويتابع الإحسان قبله ويوالي. فأجابه

الأمير إلى مطلبه بأكد الأيمان؛ وكتب له بذلك مبادراً عقداً أمان، وقطع لأولاده أرفع الثياب؛ وأوفرت لهم الدواب، بالأموال والأسباب، إسباغاً عليهم بالإفضال، وتوسيعاً لهم في الأماني والآمال. وسألا اللعين مائة بغل يحمل عليها جملة متاعه وعياله، وجعل

طلبها قوة لمكره واحتياله. فأمر الأمير بالبغال أن تحمل إليه، وتوضع بين يديه؛ وقد جعل عليها عشرة من العرفاء بمائة وخمسين فارساً إتماماً للإكرام، وإنعاماً على إنعام. فأرسل عمر بن حفصون جميعهم إلى بربشتر حيث أهله وولده، وطريقة من المال ومتملده. وانحل العسكر عن الحصن إذ ذاك، وقفل القاضي والفقهاء عن تمام الصلح من هناك، وظنهم قد غلب أن لا كذب ولا مين، وأن قد نيل من الراحة من شغبه أملاً وقرّة عين. فلما انفض جمع ذلك العسكر، وانتفض ذلك المعسكر، ودخل الليل، وامتد للفتاك الذبل، هرب عمر بن حفصون من ذلك الحصن، وسار إلى بربشتر في ظل الأمن. فلقى العرفاء فناصرهم القتال، وأخذ تلك البغال، وعاد إلى سيرته الأولى، وقال لشيئته: [أنا ربكم الأعلى!] فأقسم الأمير المنذر أن يقصده ويحل عليه، ولا يقبل منه أو يلقى بيده إليه؛ فأعمل الغزو إلى بربشتر، وجمع لها الجمع الأكبر. فلما احتل عليها، أمر أن يحدق بها، ويحاط بجوانبها، وأن يعتزم لقتالها اعتزاماً، ويلتزم محاصرتها التزاماً. فظهر من حزم الأمير المنذر وعزمه ما يئس معه ابن حفصون، من البقاء في تلك الحصون. فبقى الأمير على حصن بربشتر، برومه روما، مدة من ثلاثة وأربعين يوماً. وكان قد أصابته علة أكرثت نفسه، وكدرت أنسه؛ فبعث في أخيه عبد الله لينوب منابه، وينتدب في تلك الحال انتدابه. فلما وصل إليه، وحصل في المظلة لديه، خرجت في الحين روحه، وبكاه من كان يغدوه ويروحه. فوقع الحرم في العسكر إثر موته، وتفرق الناس عند فوته. ولم يقدر أخوه عبد الله على ضبطهم، وعقد ما انحل من ربطهم. واستطال عمر بن حفصون

في المحلة، وانتهبها بالجملة. وحمل الأمير المنذر على جمل إلى قرطبة؛ فدفن مع أجداده هنالك، وصار عند الناس أهون مفقود وأيسر هالك، إذ كان قد اضطهرهم في ذلك المقام، وندبهم إلى الثبات هنالك والمقام.

وفي هذه السنة، كان القحط الشديد بالأندلس؛ فاستسقى الناس. فنزل ثلج كثير في أول يوم من يناير، ولم ينزل غيث. ثم استسقوا مراراً؛ فلم يمتطروا؛ فخامر الناس القنط. فلما دخل من فبراير بعض أيام، سقى الناس، وارتفع الناس؛ فاستبشروا بفضل الله، وأعلنوا بشكره. فقال العكي في ذلك، يمدح الأمير المنذر (كامل) :

زَلَّ الْحَيَاَ الْحَيِّي وَطَابَتْ أَنْفُسُ ... إِذْ كَانَ سُوءُ الظَّنِّ فِيهَا يَهْجِسُ
أَحْيَى الْإِلَهِ عِبَادَهُ مِنْ بَعْدِ مَا ... كَانَتْ مِنَ الْقَنْطِ النَّفُوسُ تُوسِسُ
مُتَلَفِيًّا فِيهِ بَعَائِدُ رَحْمَةٍ ... لَوْلَا عَوَائِدُهَا طَوْتَنَا الْأَبُوسُ
مَلِكُ الْمُلُوكِ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ أَلْ ... حُسْنَى وَعَزَّ جَلَالُهُ الْمُتَقَدِّسُ
ومنها:

بِالْمُنْذِرِ الْمَيْمُونِ طَلَبَ زَمَانُنَا ... وَيَطِيبُ دَوْلَتَهُ تَطِيبُ الْأَنْفُسِ
إلى قوله:

خَذَهَا أَمِينُ اللَّهِ وَابْنُ أَمِينِهِ ... مِنْ شَاكِرٍ فِي الشُّكْرِ لَيْسَ يُدَلِّسُ

وفي سنة ٢٧٥، توفي الأمير المنذر - رحمه الله! - وقد ذكر موته على حصن بربشتر محاصراً للخيث ابن حفصون. وكانت وفاته منتصف شهر صفر من السنة المذكورة، وهو ابن ست وأربعون سنة. وملك سنتين إلا أياماً.

١٤٠٣ بعض سيره وأخباره

١٥ خلافة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم

بعض سيره وأخباره

كان الأمير المنذر - رحمه الله! - يحب إخوته، ويكرمهم، ويدني مجالسهم، ويصلهم، ويحضرهم مجالس أنسه. وكان يجزل العطاء للشعراء؛ فينشدونه غازياً وراجعاً. وكان من شعرائه أحمد بن عبد ربه، والعكي، وغيرهما. ولم يكن أحد من الخلفاء قبله مثله شجاعة

وصرامة وعزما وحزما. ولقد بلغ في سنة بذلك ما لم يبلغه غيره في الدهر. ولقد كان أبطال الرجال وأنجادهم من أهل الفتنة يذعنون إليه دون محنة، ويرسلون إليه بالطاعة قبل أن يطلبها. وإن الخبر المستفيض عن الشيوخ أنه، لو عاش المنذر عاما واحدا زائدا، لم يبق بركة منافق؛ وأخباره تدل على ذلك. وأول أخباره الدالة على ذلك أنه، لما أتاه موت أبيه، لم يمنعه ذلك من التعرّيج عن القصد واختصار الطريق، ولا شغله أمر مهم ولا أمر جليل عن آخر؛ فجعل طريقه على رية؛ فذهب أمورها، وولى عليها سليمان بن عبد الملك بن أخطل، وعبد الرحمن بن حريش، وأدخل معهما أهل المعقل من العرب والحشم. ثم جمع في يوم ولحد مبايعته، وإعطاء الجند، والنظر فيما أسقط من الأزمة عن الرعية، وما فعله من الاستحسان إلى أهل قرطبة بإسقاط العشور عنهم، والنظر في النذب وإخراج القائد. وهكذا كان فعله في جميع أسبابه؛ ويحسب ذلك كان انقياد الأشياء له.

خلافة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم

كنيته: أبو محمد. مولده: في النصف من ربيع الآخر سنة ٢٢٩. أمه: تسمى بهار وقيل: عشار. حجاب: اثنان: عبد الرحمن بن شهيد وابن السليم. وزاؤه: ستة وعشرون. كتابه: ثلاثة: عبد الله بن محمد الزجالي، وعبد الله بن محمد بن أبي عبدة، موسى بن زياد. صفته: أبيض، مشرب

بجمرة، أصهب، أزرق، أقرنى الأنف، ربة، يخضب بالسواد. بنوه: أحد عشر، أحدهم محمد المقتول، والد عبد الرحمن الناصر. بناته: ثلاث عشرة. بويغ في اليوم الذي مات فيه أخوه المنذر في الحلة على بربرشتر، وذلك يوم السبت في النصف من شهر صفر سنة ٢٧٥. ثم قفل إلى قرطبة بأخيه المنذر ميتا؛ فاستم البيعة بقرطبة، ودفن أخاه بعدها. وتوفي عبد الله سنة ٣٠٠، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة؛ فكانت خلافته خمسا وعشرين سنة، وخمسة عشر يوما. ومن قول ابن عبد ربه فيه (طويل):

خِلاَفَةُ عَبْدِ اللَّهِ حَجٌّ عَلَى الْوَرَى ... فَلَا رَفَتْ فِي عَصْرِهِ وَفُسُوقُ
تَجَلَّتْ دِيَابِجِي الْحَيْفِ عَنْ نُورِ عَدْلِهِ ... كَمَا ذَرَّ فِي جَنَحِ الظَّلَامِ شُرُوقُ
وَنَثَقَفَ شَهْمَ الدِّينِ بِالْعَدْلِ وَالتَّقَى ... فَهَذَا لَهُ نَصْلٌ وَذَلِكَ فُوقُ
وَأَعْلَنَ أَسْبَابَ الْهُدَى بِضَمِيرِهِ ... فَلَبَسَ لَهُ إِلَّا بَيْنَ عُلُوقُ
وَمَا عَاقَهُ عَنْهَا عَوَاتِقُ مُلْكِهِ ... وَأَمْثَالُهَا عَنْ مِثْلِهِنَّ تَعُوقُ

وأفضت الخلافة إليه، وقد تحيفها النكث، ومزقها الشقاق، وحل عراها النفاق؛ والفتنة مستولية، والدجنة متكاثفة، والقلوب مختلفة، وعصى الجماعة متصدعة، والباطل قد أعلن، والشر قد اشتهر؛ وقد تملا على أهل الإيمان حزب الشيطان؛ وصار الناس من ذلك في ظلماء ليل داج، لا إشراق لصباحه، ولا أقول لنجومه. وتألّب على أهل الإسلام أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة، الذين جردوا سيوفهم على أهل الإسلام؛ فصار أهل الإسلام بين قتيل ومحروب ومحصور، يعيش مجهودا، ويموت هزلا؛ قد انقطع الحرث، وكاد ينقطع النسل. ففاضل الأمير بجهد، وحمل بجده، وجاهد عدو الله وعدوه. وانقطع الجهاد إلى دار الحرب، وصارت بلاد الإسلام بالأندلس هي الثغر المخوف؛ فكان قتال المنافقين وأشباههم أوكد بالسنة، وألزم بالضرورة.

فأول ما تناوله، ونظر فيه، أن وجه إبراهيم بن خمير لأخذ بيعة ابن حفصون وبيعة من قبله. فقصده إبراهيم إليه، وطلب طاعته؛ فظهر منه حسن

مذهب؛ فأخذ بيعته، وصدر عنه؛ وقدم معه حفص ابنه وجماعة من أصحابه؛ فأخذت عليهم البيعة، وردد لهم الأمير محبوبين بالكرامة والرعاية. فبقى ابن حفصون سامعا مطيعا منتبيا عما نهى عنه، واقفا عندما أمر به. ثم تعدى بعد ذلك حده، ومد يده إلى ما نهى عنه؛ فلم يدع مالا عند من أمكنه، واستحوذ على أهل الكور في أموالهم، وأمضى نفسه على عادته الذميمة من الفساد وقطع السبل، وذلك في سنة ولاية الأمير عبد الله.

وفي سنة ٢٧٦، خرج الأمير عبد الله بنفسه إلى بربرشتر وحصون رية؛ فانتسف معاشها، وقتل عنها، وقد شد تلك الناحية؛ وأبقى بحاضرة رية محمد بن ذنين من أهل قرطبة؛ فخرج ابن حفصون في إثره، وتألّف إليه المفسدون؛ فأتوا إلى إسنيحة، فاحتلوها، ثم إلى

حصن إستبة، فأخذه؛ فأخرج إليهم الأمير جيشاً؛ فنزل ابن حفصون، واعترف بذنبه؛ ف عقد له الأمير أماناً. وفي هذه السنة، ولي محمد ابن الأمير عبد الله كورة إشبيلية؛ فخرج في أيامه بعض عرب إشبيلية إلى قرمونة؛ فضبطوها. وفيها، ثار أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز النجيبى المعروف بالأنقر. وفيها، نقض ابن حفصون وقصد بيانة؛ فخارب أهلها، ثم أعطاهم العهد؛ فلما نزلوا إليه، غدرهم، وقتلهم، وأخذ أموالهم، وسبى ذراريهم. وفيها، انتفض أهل جيان، وأخرجوا عاملها عباس بن لقيط، وملكها ابن شاكر. وفي سنة ٢٧٧، ولد عبد الرحمن الناصر. وفيها، غزا القائد ابن أبي عبدة إلى جيان، وفيها ابن شاكر مخالفاً؛ فخاربه، وحاصره، وقتل جماعة من أصحابه، وأحرق كثيراً من دور جيان. وفيها، خرج حفص بن المرة إلى سوار، وكمن له الكائن، وأغار عليه؛ فلما خرج سوار في طلبه، خرجت عليه الكائن؛ فقتل: وفيها، قتل ابن شاكر الثائر بجيان. وسبب قتله أن ابن حفصون أزد أن يراجع طاعة الأمير، وأن يتقرب إليه بقتل ابن شاكر؛ فبعث إليه خيلاً يريه أن يمدده على عدوه؛ فأقبل المدد إليه؛ فلما خرج إليهم، فتكوا به وقتلوه، وبعثوا برأسه إلى ابن حفصون؛ فبعث به إلى الأمير عبد الله. وعند ذلك توجه ابن حفصون إلى جيان؛ فأغرم أهلها الأموال الجسيمة. وأقامت جيان والبيرة مدة دون عامل من الأمير. وفي سنة ٢٧٨، خرج الأمير عبد الله إلى بلاي من عمل قبرة، وبها عدو الله ابن حفصون مع جماعة كبيرة من أصحابه أهل الفساد والارتداد. وكانوا قد أضروا بأقاليم قرطبة، وضيقوا عليهم حتى أغاروا على أغنام قرطبة. فخرج إليهم الأمير مستهل صفر، واحتل به؛ فناهضه وصادقه القتال؛ فانهزم هو ومن معه، ولجأ إلى حصنه مع ملاً من أصحابه، وعوجل عشيره عن الدخول معه، واتبعوا؛ فلم يخلص منهم أحد. فبات الأمير قير عين، والمسلمون كذلك، وقد أخذوا عليه تلك الليلة الباب رجاء أن يأتي الصباح، فيؤخذ داخل الحصن. ثم خرج منه مع بعض أصحابه، ونجا ونجوا. ولما أصبح، أعلم السلطان بخبره؛ فأرسل الخيل في أثره؛ فلم يعلم له خبر. ودخل الأمير الحصن يوماً آخر؛ فوجده مترعاً بالذخ، ملآن من العدد؛ وكان عدد عسكر الأمير ثمانية عشر ألف فاري. وقيل إن ابن حفصون ألب أهل حصون الأندلس كلها، وأقبل إليه في ثلاثين ألفاً. ووقعت الحرب بينهم؛ فانهزم عدو الله، وقتل أكثر من كان معه. ودخلت جملة منهم في محلة الأمير؛ فأمر بالتقاطهم؛ فأتى بألف رجل منهم؛ فقتلوا صبراً بين يديه. هكذا ذكر في (بهجة النفس). ثم قصد الأمير إستبة؛ فنازلهم؛ وحاربهم، وقتل لهم عدداً كثيراً. فلما أخذهم الجهد، رفعوا الأطفال على الأيدي في الأسوار، مستصرخين، ضارعين، راغبين في العفو؛ فغف عنهم. وفي سنة ٢٧٩، غدر أهل ارجذونة بأحمد بن هاشم. ونقض ابن حفصون ما كان انعقد من السلم والطوع. وفي سنة ٢٨٠، توجه المطرف بن الأمير عبد الله بالجيش إلى ابن حفصون بمرنشتري؛ فحاصرها، وهتك جميع ما حوالها. وفيها، أمر الأمير عبد الله ببنيان حصن لوثة، وأبقى عليه إدريس بن عبيد الله. وفيها، دخل إذفونش بن أردون مدينة سمورة وبنها؛ وكانت من بنيان عجم طليطلة. وفي سنة ٢٨١، أغزى الأمير عبد الله عبد الملك بن أمية؛ فتقدم إلى حصون ابن مستنة، ونازل حصن آشر، وحاربه، وقتل من أهله عدداً كثيراً، وهدم حصن السهلة. ثم قفل إلى قرطبة. وفي سنة ٢٨٢، غزا بالصائفة المطرف بن الأمير عبد الله. وقاد الصائفة عبد الملك بن أمية. فلما كان بمقربة من إشبيلية، قبض على القائد عبد الملك، وقتله، وقدم على قيادة العسكر أحمد بن هاشم. وأقام العسكر في الموضع أربعة أيام، وكتب أماناً لأهل إشبيلية، وأماناً لأهل شذونة؛ فدانت له، وقبض جبايتها، ودوخ تلك البلاد. ثم رحل إلى إشبيلية؛ فناشبههم الحرب؛ فانهزم أهل إشبيلية، ووقع فيهم القتل إلى سور المدينة. ثم أجاز الوادي؛ فتبع القرى بالنسف والتغيير. وفي هذه السنة، ضم المطرف بن الأمير عبد الله إبراهيم بن حجاج وابن

١٥٠١ ذكر ثورة بني حجاج بإشبيلية

خلدون وابن عبد الملك الشذوني إلى السجن، وأوثقهم في الحديد. وقطع لسان سخون الكاتب، وضرب ظهره. وفيها، أتت جباية إشبيلية. وعندما أتت، أطلق ابن حجاج وابن خلدون والشذوني من سجن قرطبة. ذكر ثورة بني حجاج بإشبيلية

وذلك أن إبراهيم بن حجاج ترك ولده رهينة بقرطبة، ورجع إلى بلده إشبيلية؛ فتوزع كورتها على نصفين: خرج إبراهيم بالنصف، وابن خلدون بالنصف. وبقي كذلك أعواما. وكان الأمير عبد الله قد أخذ في الضرب بينهما، وبكاتب كل واحد منهما بما يراه من صاحبه. فلما كان في بعض الأيام، كتب إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون إلى الأمير عبد الله في مصالحهما؛ وكتب معهما خالد بن خلدون أخو كريب كتابا يغري فيه إبراهيم بن حجاج عند الأمير، ويقول إنه في قبضتهم. فكتب له جوابه على نص كتابه. وخرج الحامل بالكتب إليهم؛ فسقط له كتاب خالد الذي كان بعث للأمير؛ فأخذه بعض فتيان القصر؛ فقرأه وعلم ما فيه؛ فدفعه لرسول إبراهيم بن حجاج، وقال له: (اسبق به مولاك!) فلما وصل الرسول والكتاب إلى إبراهيم، علم حقيقة ما يحتوي عليه ابنا خلدون من سوء الباطن. وكان هذا في سنة ٢٨٦. فعند ذلك، تطف إبراهيم في طعام، ودعا ابني خلدون؛ فوصلا إليه. فلما استقر المجلس بهم، أخذ إبراهيم في عتاب كريب وأخيه خالد، وأخرج الكتاب الذي بعث به الأمير إليهما، وأوقفهما عليه، وأبلغ في عتابهما، وأكثر في ذلك عليهما. فأخرج خالد سكيئا كانت في كفه؛ فضرب بها رأس إبراهيم بن حجاج؛ فزق قلنسوته، وضربه في وجهه. فلما صدر منه ذلك، نهض إبراهيم، ودعا من حضر من رجاله؛ فعلوهم بالسيوف، حتى قتلوهما. وألقى رأسيهما إلى أصحابهما ورجالهما؛ فتفرقوا. وتبعهم إبراهيم بالقتل والنهب، ودفن جسدي ابني

خلدون؛ وانقاد له جميع أهل الكور الملاصقة لإشبيلية. وخاطب عند ذلك الأمير عبد الله، يتبرأ له من دهما، ويقول إنهما كانا يحملانه على النكث، وأنه الآن على الطاعة؛ وطلب منه ولاية إشبيلية. فأجابه الأمير إلى ذلك. وانفرد إبراهيم بولاية إشبيلية؛ فاجتبي الأموال، واصطنع الرجال، وارتقى في الأحوال، وامتدت لفضائله الآمال. وكان له حميد آثار، وجميل أخبار، فاق بها أهل عصره، وحسن في الآفاق طيب ذكره.

ولم يزل بعد ذلك إبراهيم بن حجاج يشط على الأمير عبد الله، إلى أن سأل إطلاقا ولده عبد الرحمن الرهين عنده. فلم يسعفه الأمير عبد الله في ذلك. فنبذ إبراهيم الطاعة عند ذلك، وظاهر ابن حفصون، وأمد به بالمال والرجال، نكاية للأمير عبد الله. فقويت شوكة ابن حفصون، وازداد به طماعية؛ وفي خلال ذلك، لم يزل إبراهيم يدس ويرسل من يشير على الأمير بإطلاق ولده، ويتضمن له عوده إلى الطاعة، حتى وافق السلطان على ذلك؛ فأطلق عبد الرحمن ابن إبراهيم، وأعظم الإحسان إليه، وجدد له التسجيل على بلده إشبيلية. فعاد إبراهيم إلى ما كان أولا عليه من الطاعة، واستقامت أحوال تلك النواحي على يديه.

قال حيان بن خلف: لما ملك إبراهيم بن حجاج إشبيلية وقرمونة وما والاها، ارتفع ذكره، وبعد صيته، واتخذ لنفسه جندا، ورتب لهم الأرزاق كنعل السلطان؛ فكل في مصافه خمسمائة فارس. وكان لإبراهيم بن حجاج في بساط السلطان بقرطبة قوم يقفون في حقه، ويعلمونه بما عند السلطان من حاله، وينصحونه في أمره. فعند ذلك، ألقع عما كان عليه من موافقة ابن حفصون، واعترف بحق أمير الجماعة؛ فعامله الأمير بما شهر له من الفضل. وكانت منزلته عنده أعلى منزلة، إلى أن توفي - رحمه الله! وذكر حيان أيضا قال: كان لإبراهيم بن حجاج في بلده إشبيلية قاض يقوم

بالحكم، وصاحب مدينة يقيم الحدود، جرى في ذلك كله مجرى السلطان في حضرته. قال: وكان فظا على أهل الريب، قامعا لأهل الشر؛ وكان منجعا على البر والبحر، مقصودا بالغرائب والطرف. وكانت له بإشبيلية طرزيطرز فيها على اسمه كفعل السلطان إذ ذاك؛ وكانت قرمونة تحت مملكه؛ وهو الذي حصنها وحسن بنيان سورها؛ وفيها كان مربوط خيله المتخذة لركوبه؛ وبينها وبين إشبيلية كان ترداده سائر أوقاته. وكان جوادا، ممدحا، يرتاح للثناء، ويعطي الشعراء، ويضاهي في فعله كبار الأمراء، ويتفقد أهل البيوتات والشرف بالعطاء. وكان أهل قرطبة متعرضين لسبيه، فيكرمهم ويصلهم. وقد انتجعه شاعرهم الأكبر أبو عمر أحمد بن عبد ربه من بين جميع ثوار

ذلك الوقت بالأندلس؛ فعرف قدره، وأفضل عليه.
ومن قوله فيه، يصف تنقله من إشبيلية إلى قرمونة (طويل) :
ألا أن إبراهيم لجة ساحل ... من الجود أرسّت فوق لجة ساحل
فإشبيلة الزهراء تزهى بجده ... وقرمونة الغراء ذات الفضائل
إذا ما تجلّت تلك من نور وجهه ... غدت هذه للناس في زِي عاطل
وإن حلّ هندي فهو يوحس هذه ... فهندي برسل نحوه ورسائل
وهي طويلة. ومن قوله أيضا من قصيد طويل (وافر) :
كتاب السوق يطويه الفؤاد ... ومن قبض الدثوع له مداد
تخط يد البكاء به سطوراً ... على كيدي ويمليها السهاد
وكيف وبى فؤاد مستطير ... لمن لا يستطير له فؤاد
أمن يُمن يكون الجود خلوا ... وإبراهيم حاتمها الجواد
زيارته لمن يأتيه حج ... ومدحته رباط أو جهاد
وما لي في التخلف عنه عذر ... ولي في الأرض راحلة وزاد

ولأحمد بن عبد ربه في إبراهيم بن حجاج أشعار كثيرة، ولغيره من الشعراء. وذكر ابن أبي الفياض أن محمد بن يحيى القلقاط الشاعر القرطبي قصد الأمير إبراهيم بن حجاج بمدحه بقصيدة نونية، أولها (خفيف) :
أزفت رحلتي فاهمت جفونا

ثم أخذ في هجاء عشيرته أهل قرطبة، وكبرائها، وعظماء دولتها؛ فأفحش عليهم. فلما أنشد القصيدة إبراهيم بن حجاج، زها به، وحرمه وأساء ذكره؛ فانصرف خائبا من نواله، جانيا ثمره فعالة ومقاله. فلما وصل قرطبة، أخذ يهجو إبراهيم بن حجاج بقصيدة أولها (كامل) :
لا تنكري للبين طول بكاءي

فلما بلغت إبراهيم، أغضبته؛ فأوصى من قال له عنه يمينا مغلفة: (إنه إن عاد لما وقع فيه، لآمرن بأخذ رأسه بقرطبة على فراشه!) فارتاع القلقاط المذكور لذلك، وكف. فكان هذا الفعل لإبراهيم في حق أهل قرطبة أجل مكرمة، وعد في جملة فضائله. ولأجل هذا ساقه القاضي ابن أبي الفياض - رحمه الله! - وقد قصده العذري من المجاز؛ فراعى حقه، وأكرم مثواه، وأناله جزيل خيره. ورفع الناس ذكره.

وقد ذكر أبو عامر السامي في كتابه المسمى ب (درر القلائد وغرر الفوائد) أن الأمير الرئيس الهمام الجواد الحسيب أبا إسحاق إبراهيم بن حجاج سمع بجمالية بغدادية اسمها قر؛ فوجه بأموال عظيمة إلى المشرق في ابتياع هذه الجارية، إلى أن استقرت بدار مملكته إشبيلية؛ وكانت كالبدر المنير، ذات بيان وفصاحة ومعرفة بالألحان والغناء؛ فوجدها قرا عند اسمها؛ وكان لها شعر يستحل ويستحسن. فمن قولها
ترد على من عاذلها (بسيط) :

قالوا أنت قمر في زِي أطمار ... من بعدما هتكت قلباً بأشفار
ثمسي على وحل تغدو على سبل ... تشق أمصار أرض بعد أمصار
لا حرّة هي من أحرار موضعها ... ولا لها غير ترسيل وأشعار
لوعقلون لما عابوا غريبتهم ... لله من أمة تزري بأحرار
ما لابن آدم نحر غير همته ... بعد الديانة والإخلاص للباري

دَعْنِي مِنَ الْجَهْلِ لَا أَرْضَى بِصَاحِبِهِ ... لَا يَخْلُصُ الْجَهْلُ مِنْ سَبِّ وَمِنْ عَارٍ
لَوْ لَمْ تَكُنْ جَنَّةً إِلَّا لِلْجَاهِلَةِ ... رَضِيتُ مِنْ حُكْمِ رَبِّ النَّاسِ بِالنَّارِ

ولم تزل مدة إبراهيم تمتشى على أحسن حال وأجزل، وأهذب زي وأكله، تقضت زينا لعصره، ونفرا له بها على أهل مصره، لم يلحقه في ذلك أحد في وقته، ولا قدر على نيل مرتبته، إلى أن وافته منيته فجأة، وذلك عام ٢٨٨. وولى ابنه عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج بعد أبيه، وطالت مدته ثلاث عشرة سنة، وتوفي سنة ٣٠١. وكان أخوه محمد بن إبراهيم بن حجاج - رحمه الله - صاحب قرمونة في حياة أبيه وبعد موته إلى أن مات أخوه، ولم يستقر بإشبيلية، ولا حكمها. وقيل إنه دس على أخيه عبد الرحمن جارية سمته؛ فمات من ذلك.

قال ابن أبي الفياض: كان محمد بن إبراهيم بن حجاج صاحب قرمونة بعد موت أبيه؛ وكانت له بها دولة حسنة وأيام صالحة، شهر في الفضل ذكره، وانبسط على السنة الناس شكره، قصد من الأقطار، ومدح يجيد الأشعار؛ فأنال القاصدين، ومنح المادحين. ولما توفي أبوه، ولي إشبيلية أخوه عبد الرحمن، إذ كان كبيره. وكان محمد يزيد على عبد الرحمن بأشياء من المحامد، خص بها في وقته فحمد، وظهر أثر الإمارة في فعاله فشكر وحسد. وكانت دولته بقرمونة أضخم من دولة أخيه بإشبيلية وأطول، وذلك أربع عشرة سنة بعد موت أبيه. وتوفي عام ٣٠٢.

قال الرازي: افتتح الناصر لدين الله إشبيلية سنة ٣٠١. وكان سبب ذلك موت عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج المنتقري فيها بعد والده، واجتماع أهلها من بعده على تقديم أحمد بن مسلمة، ودفعهم لأخي عبد الرحمن محمد بن إبراهيم صاحب قرمونة، ومخالفة محمد ومن معه بقرمونة، وليأذه بسطان الجماعة. فبعث الناصر عسكريا إلى إشبيلية؛ فجرت بينهم حروب عظيمة. ثم بعث الأمير عبد الرحمن الناصر إلى محمد بن إبراهيم بن حجاج، وأمره بالتضيق على أهل إشبيلية، وعقد له على ذلك، وأشرك معه فيه قاسم بن الوليد صاحب شرطته في ذلك الوقت؛ وكان بينه وبين محمد صداقة. فخرجا معا من قرطبة إلى قرمونة، ومنها دنوا إلى إشبيلية. فتردد محمد وقاسم بالجموع على إشبيلية، وملكا أقاليم الشرف، وأقاليم طالقة، وإقليم البر وغيرها، وأخذوا بمنح ابن مسلمة صاحب إشبيلية؛ فاستجاش ابن مسلمة برأس النفاق اللعين ابن حفصون؛ فأثاه بنفسه، وخرج معه من مدينة إشبيلية، وجاز النهر؛ وكان الجيش يحصن قبرة، وفيه محمد بن إبراهيم بن حجاج، وقاسم بن وليد؛ فخرجا إليهما بمن معهما من حشم السلطان؛ فانهزم ابن حفصون، وفر على وجهه، حتى لحق بقلعته. فتأمل ابن مسلمة منتشبه مع ابن عمه محمد بن حجاج، ودخوله معه في وراثة أبيه، وأنه لا طاقة له به. فأخذ في إصلاح ما بينه وبين السلطان الناصر؛ فراسله بأن يعطيه إشبيلية. فوصله الحاجب بدر، وتملك السلطان إشبيلية دون إراقة دم ولا قتال. فلما استقر الحاجب بإشبيلية، أحضر أهلها، ووعدهم عن السلطان بكل جميل، وأن يجري عليهم عوائدهم مع بني حجاج وزيادة على ذلك؛ فرضى القوم، وتم الأمر للحاجب وابن مسلمة. وأخذ الحاجب في مخاطبة محمد بن حجاج، يعرفه بتملك السلطان إشبيلية، وأن السلطان أمره بالكف عن حصارها. فعند وقوف محمد على الكتاب، ساءه ذلك، وتغير له، وخرج من حصن قبرة الذي كان به مع قاسم بن وليد ناكثا للطاعة؛ وسرى ليلته مع جموعه قاصدا بلده قرمونة؛ فالقى في طريقه أغناما لأهل قرطبة؛ فأغار عليها، وحملها معه إلى قرمونة؛ فدخلها، وأظهر التمتع بها. فأخرج إليه الناصر لدين الله صاحب الحشم؛ فلما وصله وخاطبه بما أمره به السلطان، رد عليه الأغنام بجملتها.

ولما رجع صاحب الحشم إلى قرطبة، خرج محمد بن حجاج من قرمونة

١٥٠٢ أخبار عمر بن حفصون في أيام الأمير عبد الله

بجيشه؛ فوصل إشبيلية عند الصباح؛ فهجم عليها. وكان بعض سورها مهدما؛ فطمع فيها؛ فخرج إليه العامل عليها من قبل السلطان؛ فهزمه عنها؛ فرجع إلى قرمونة. فلما علم الناصر بذلك، وجه عسكريا إلى عامل إشبيلية تقوية له؛ فحصد البلد على نفسه، وأمن من عادية محمد بن حجاج. ولما طال على الناصر تمادي محمد بن حجاج على العناد، بعث إليه صديقه ابن وليد، طالبا منه العودة إلى الطاعة؛ فلم يزل

به حتى أظهر الإنابة له؛ فأنفذ محمد بن حجاج خاصته إلى الناصر؛ فوصل إليه؛ فالحقه الناصر بنفسه، وشافهه بما ألقاه إليه محمد، وأعلمه أنه ينزل عن قرمونة ويسكن قرطبة، على أن يترك بها نائبه. فأجاب الناصر لذلك كله، ووعد به بتتميم أغراضه. فلما وصل الرسول إلى محمد بما ألقاه إليه الأمير الناصر، خرج من قرمونة في شهر رمضان المعظم من عام ٣٠١، ووصل قرطبة مع وجوه قومه وعدة من رجاله. فأمر لهم الناصر بالكسب ووصلهم على أقدارهم ومنازلهم عند محمد، وأجل لهم الصلاة، وأعطى محمد العطاء الجزل، وقربه من نفسه، وولاه من حينه خطة الوزارة، منوها، مرفع الذكر. قم خرج الناصر لدين الله غازيا؛ فأغزاه معه وزيره. وكان حبيب بن عمر الوالي على قرمونة من قبل السلطان قد امتنع بقرمونة. فحاصر الناصر قرمونة، ومحمد بن حجاج معه وزيره؛ فسعى به عند السلطان من كان يحسده، وقال له: (إنما نافق ابن عمر مع محمد وبأمره!) فعزله عن الوزارة، وحبسه، وحبس معه ابن وليد صاحب الشرطة. ثم أطلقا بعد ذلك. فلم يلبث محمد بن حجاج بعد ذلك إلا يسيرا، وتوفي في شوال سنة ٣٠٢.

أخبار عمر بن حفصون في أيام الأمير عبد الله

وعندما ولي عبد الله الخلافة، ووافته الكتب من البلاد؛ واجتمعت على طاعته جميع العباد، رأى عمر بن حفصون على فرط عناده، وتوه في الأرض وفساده، أن يدخل في جماعته، ويلتزم بفروض طاعته. فأرسل ابنه حفصا إلى قرطبة مع جماعة من أصحابه، على أن يعقدوا مع الأمير سلما منتظما، وصلحا مبرما، لا يحيله حال، ولا يلحقه محال، على أن يستقر عمر بن حفصون ببرشت على الطوع، ويقم بها على الطاعة والسمع. فقبل الأمير نزاعه، وسمح بإبقائه هنالك، وأصدر ابنه ورسله إصدارا جميلا؛ ومنحهم برا جزيلا، ووجه معهم عبد الوهاب بن عبد الرؤوف واليا على كورة رية، ومشاركا لابن حفصون في عقده وحله، ومساهما له في توليته وعزله. فكثا شريكين في الأمر والنهي، إلى أن غلب ابن حفصون على عبد الوهاب، وأخرجه من الكورة منبت الأسباب. واشتدت معرفته، وتأكدت عاديته ومضرته، حتى همت القرى بالخلاء، والناس بالجللاء. ولم يبق بالقنباية قرية إلا غشيتها الخليل، وعمتها الذلة والوبل، وقد ملك اللعين إستجة وأرجذونة، وأجندهم ثقافا، وصير فيهما من الآلات أصنافا. فلما رأى الأمير عبد الله ما أحاط بقرطبة من ابن حفصون، ودار عليها من الحرب الزبون، أمر بإخراج السراق إلى فخص الربرض بشقنفة. فلما اشتدت أطنابه، ومدت حباله وأسبابه، بعث ابن حفصون خيلا ترمي على شقنفة لعلها تأخذ السراق السلطاني وتفوز به، وتهجم على البلد وتحيط بجانبه. فخرجت لهم الخليل إثر ذلك، وطردتهم طرادا من هنالك، ووصلت إلى ابن حفصون؛ فدفعته عن الجهة، ومنعته من تلك الوجهة، وأوى إلى حصن بلبي بقبرة؛ فجمع له الأمير أهل قرطبة، وسار إليه في نحو أربعة عشر ألفا. وحشد ابن حفصون نحو ثلاثين ألفا؛ فصدمه الأمير بمن معه؛ فنثر عقده وفرق جمعه؛ فعملت السيوف في رقابهم، وتبع سيل أعقابهم، حتى رويت الأرض من دمائهم. ودخل الأمير عبد الله القلاع الثائرة عليه؛ وصارت يومئذ في يديه.

وفي ذلك يقول ابن عبد ربه (كامل) :

رَامَ ابْنُ حَفْصُونِ النِّجَاةَ فَلَمْ يَسِرْ ... وَالسَّيْفُ طَالِبُهُ فَلَيْسَ بِنَاجٍ
فِي لَيْلَةٍ أَسْرَتْ بِهِ فَكَاثِمًا ... خِيلَتْ نَفِيسَةَ لَيْلَةِ الْمِعْرَاجِ
مَا زَالَ يُلْقِحُ كُلَّ حَرْبٍ حَامِلٍ ... فَالآنَ أَتَجَهَّأُ بِشَرِّ نَتَاجِ

١٥٠٣ جملة الثوار ببلاد الأندلس في أيام الأمير عبد الله

١٥٠٤ الخارجين عن الجماعة المضرمين لنار الفتنة

رَكِبُوا الْفِرَارَ بِهُضْبَةٍ قَدْ جَرَبُوا ... غَبَّ الشَّرَى وَعَوَاقِبُ الْإِدْلَاجِ
وَإِذَا سَأَلْتَهُمْ مَوَالِي مَنْ هُمْ ... قَالُوا: مَوَالِي كُلِّ لَيْلٍ دَاجٍ

ولما رجع ابن حفصون إلى برشتر، حشد أعوانه، وجدد للعرض ديوانه، وخرج بجمعه إلى البيرة، وأدار بها حربا مبيرة، إلى أن تغلب عليها بأيده، وقبض على عاملها بكيده. فأخرج الأمير عبد الله العسكر إليه، وقدم ابن أبي عبدة عليه. فلما تدانى الفريقان، وتراءى الجمعان، هجمت خيل ابن أبي عبدة على خيل ابن حفصون؛ فعكستهم عسكا، وطمست آثارهم طمسا؛ وأثقل ابن حفصون بالجراح، وآب من النصر صفر الراح، قد ركب الأوعار، واجتمعت الخزي والعار؛ ويبلغ حصن برشتر مفلولا، خاسرا ذليلا. ثم عاد إلى عاده، وسبيل بغيه وفساده. وفي كل ذلك كان الأمير عبد الله يهزم جيشه، ويروغ ببأسه جأشه، حتى نحدت نيرانه، وملت أنصاره وأعوانه. فلما توفي الأمير عبد الله، وولى الناصر لدين الله، بادر إلى الطاعة، والدخول في الجماعة. ثم نكث وخان، حتى هلكته الأزمان.

حملة الثوار ببلاد الأندلس في أيام الأمير عبد الله
الخارجين عن الجماعة المضرمين لنار الفتنة

أولهم ابن حفصون؛ وقد تقدم ذكره. وتأتي بقية أخباره بحسب السنين. وثار سوار بن حمدون بحصن منت شاقرة؛ فقام إلى جعد عامل إلى البيرة بمن معه؛ فهزم جمعه، وأخذ أسيرا، وأراه يوما عسيرا. ثم أطلقه من عقاله، وعمه بإفضاله، وانصرف إلى البيرة بلده، ومقر أهله وولده. وسار سوار إلى غرناطة، وأغار على حصون ابن حفصون؛ فاجتمع أهل البيرة في نحو ثلاثة وعشرين ألفا؛ فلقبهم سوار في عدد قليل؛ فلابوا بالفرار والنفور، وصاروا كالهباء المنثور؛ ونيطت بهم الحتوف كسفا، وقتل منهم على ما ذكر اثنا عشر ألفا، وذلك في سنة ٢٧٦. وكانت بين سوار هذا وابن حفصون ملاقة انقلب فيها ابن حفصون مهزوما، وتولى ملوما مذموما، قد أثقل بالجراح، وقتل قواده في ذلك الكفاح. وكان جعد الثائر بالبيرة منفقا مع ابن حفصون على النفاق، منعقدا معه على الفساد في تلك الآفاق؛ فأعمل جعد الحيلة في الغدر بسوار جهده، وأظهر في ذلك نصبه وجهده؛ فأغار على جهته يوما، وقد أكن هنالك قوما. وخرج هو بنفسه في نفر يسير؛ فاكتسح وأغار، وأنجد في الجهة وغار. وظن سوار أن ليس وراءه أجناد تنجده، ولا أمداد تمده؛ فبرز إليه بأهل المكان، وقد أيقن بالظفر والإمكان. فلما انبسط من هنالك كالفرخ الأشرف، ثارت الكائن عليه كالجراد المنتشر، وأحدثت الخيل بسوار؛ فقتل ثقتيلا، وعاد عسكره مهزوما مفلولا. وأرسل جعد صاحب البيرة إلى ابن حفصون برأس سوار، وأعلمه بالكبت الشامل لأعدائهم والبور.

وثار سعيد بن جودي في ذلك التاريخ بالعرب، وعارض ابن حفصون بالحرب والحرب، حتى أغصه بريقه، وضايقه في سبيله هناك وطريقه؛ فرجع ابن حفصون إلى الحيلة فيه والكيد، إذ عجز عنه بالقوة والأيد، حتى قبض عليه، وصار أسيرا لديه، وأقام عنده ببشتر شهورا مكبولا، إلى أن قبل فيه ابن حفصون مالا جزلا قبولا؛ فأطلقه من وثاقه؛ فجذ في خلافه على الأمير عبد الله وشقاقه، إلى أن مكر به مكرًا، وقتل في دار عشيقه له يهودية غدرا. وتولى أمر العرب بجانب البيرة محمد بن أضحى؛ فأمسى على طاعة الأمير عبد الله وأضحى؛ فناسب ابن حفصون الحرب، وعارضه بالطعن والضرب، إلا أن ظفر به ابن حفصون في تلك المسالك، وصار عنده أسيرا هنالك؛ ففداه العرب منه بمال جسيم، ومشى من طاعة الأمير على منهاج قويم.

وثار العرب بإشبيلية ثورة، وقبضوا على عاملها عنوة، وانتهبوا طارفه ومشلده، ولم يتركوا إلا أهله وولده، وقتلوا كثيرا من أعوانه، وعانوا ما شأوا في سلطانه؛ فاجتمعت العساكر من قرمونة وسائر الأقطار، وأحاطت بإشبيلية إحاطة الفلك الدوار؛ فغلبوا على القائمين فيها. وقتلوا منهم فرقة؛ فكانت الوقعة المعروفة بالدعقة.

وتغلب إبراهيم بن حجاج على إشبيلية تغلبا، ونصب لأحواز قرطبة منها حربا وحربا؛ وارتبط مع ابن حفصون على العيث التام، والاحتلال بقرطبة في ذلك العام. وتغلبا على الحصون والقلاع، وجدا في الكفاح والقراع، إلى أن انتقض ما بينهما من السلم المنتظم، والعهد المحكم المنبرم. وصالح ابن حجاج الأمير عبد الله؛ فأقره بإشبيلية، وصرف إليه زمامها، وأوقف عليه أعمالها وأحكامها. وثار دبسم بن إسحاق، وغلب على مدينتي لورقة ومرسية، وما يليهما من كورة تدمير. وكان مودودا من طبقات الناس، رفيقا برعيته، جوادا، منتجعا، له إفضال على الشعراء والأدباء.

وثار عبيد الله بن أمية، وملك كورة جيان، ودخل حصن ابن عمر وغيره.

ومنهم، عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي، اقتعد مدينتي بطليوس وماردة؛ ففارق الجماعة، وجاور أهل الشرك، ووالاهم على أهل القبلية.

ومنهم، عبد الملك بن أبي الجواد، اقتعد مدينة باجة وملكها، وتحصن بحصن مارتلة، وله حظ من المنعة تشييدا وعدة. وكان معاقدا لابن مروان، صاحب بطليوس في هذا التأريخ، وابن بكر صاحب أكشونة؛ فكانوا متآيين على من خالفهم. وثار ابن السديم، وهو منذر بن إبراهيم بن محمد بن السليم، بمدينة ابن السليم، المنسوبة إلى جده، من كورة شذونة؛ فاقصد في سيرته، ولم يظهر نبد الطاعة، إلى أن قتله مملوك له يسمى غلنده. وخلفه وليد بن وليد، وصار إلى الطاعة عند هبوب ريحها بالخليفة عبد الرحمن الناصر.

ومنهم، محمد بن عبد الكريم بن إلياس، امتنع بقلعة ورد من كورة شذونة، وسعى للفتنة سعيه، وتمادى، حتى استنزل الناصر فيمن استنزل من الثوار. ومات بقرطبة.

وثار خير بن شاكر بحصن شوذر من كورة جيان، زظاهر زعيم الثوار عمر ابن حفصون؛ ففتك بخير المذكور، وأرسل برأسه إلى الأمير عبد الله.

ومنهم، عمر بن مضم الهترولي المعروف بالملاحى؛ وكان جنديا متدونا عند العامل بحضرتها؛ فوثب عليه؛ فغدره، وضبط القصبية. ومنهم، سعيد بن هذيل. كانت ثورته بحصن المنتلون من كورة جيان؛ فبنى قصبته، وحصنها، وأعلن بالخلاف، حتى استنزل الناصر؛ فلحق بقرطبة إلى أن مات.

وثار سعيد بن مستنة بكورة باغة، واقتعد حصونها؛ فاستفحل أمره وشره، وعمَّ أذاه واصطفى من حصونها التي ظهر عليها أربعة لا مثيل لها في الحصانة والمنعة.

وثار بنو هابل الأربعة: أكبرهم منذر بن حريز بن هابل، وأخوه أبو كرامة هابل بن حريز، وأخوه عامر، وأخوه عمر؛ ثاروا ببعض حصون جيان في أيام الأمير عبد الله، وخلعوا طاعته، وأطلقوا الغارة، وأطلعوا أهل الفساد. ثم استنزلوا؛ فنزلوا على حكم الأمان؛ فحسنت طاعتهم وخدمتهم.

وثار إسحاق بن إبراهيم بن عطف العقيلي بحصن متيشة؛ فبناه وحصنه وامتنع به، إلى أن استنزل الخليفة الناصر إلى قرطبة؛ وبها توفي. ومنهم، سعيد بن سليمان بن جودي؛ أمرته عرب إغرناطة والبيرة؛ فضبط أمرهم، حتى دبر عليه كبريان منهم بحيلة؛ فقتلاه بها. فلم ينتظم للعرب هناك أمر بعده.

وثار محمد بن أضخى بن عبد اللطيف الهمداني، من أكابر أبناء العرب بكورة إلبيرة، إلى أن هلك الأمير عبد الله؛ فاستنزل الناصر لدين الله عن حصنه، فيمن استنزل من الثوار. وكان ابن أضخى هذا مع رجولته أديبا بليغا، يقوم بين أيدي الأمراء في المحافل، فيحسن القول، ويطيب الثناء. وله أخبار معروفة.

وثار بكر بن يحيى بن بكر، واقتعد مدينة شنت مرية من كورة أكشونة، وبناها حصنا اتخذ عليها أبواب حديد. وكان له ترتيب وأهبة، ورجال شجعان، وعدة موفورة. وكان يتشبه - بزعمه - في سلطانه بإبراهيم بن حجاج. وكان له أصحاب للرأي وكتاب للعمل. وكان له عهد مؤكد إلى جميع من في طاعته بإضافة أبناء السبيل، وقراء النزيل. وحفظ المجتازين؛ فكان السالك بناحيته كالسالك بين أهله وأقاربه.

وثار ابنا ملب، من وجوه قبائل البربر بكورة إلبيرة؛ وهما خليل وسعيد؛ ثارا ثورة نظرائهما بجهتهما؛ فأقاما على سبيلهما إلى أن استنزل الناصر أولادهما بعد وفاتهما.

وثار سليمان بن محمد بن عبد الملك الشذوني بشرش شذونة؛ وهو الذي بنى نبرشة وحصنها.

وثار ابنا جرج بحصن بكور؛ ففسدت سيرتهما؛ فأخرجوا عن الحصن. فمات عبد الوهاب، ولحق محمد بن عبد الرحمن بن جرج بابن الشالية؛ وكان مصافيا له؛ فتقبله، واستخدمه، وبني له حصن مورينة من كورة جيان؛ فأقام فيه إلى أن استنزل الناصر ونقله إلى قرطبة.

وثار أبو يحيى النجيب المعروف بالأقر بمدينة سرقسطة وأعمالها، وقتل أحمد ابن البراء القرشي عامل الأمير على سرقسطة، واستولى عليها؛

وأظهر التمسك

بطاعة الأمير عبد الله، وخاطبه، وهو ينسب ابن البراء إلى الخلفاء. فأظهر الأمير تصديقه، وسجل له على سرقسطة. فثبت بها قدمه. وفي سنة ٢٨٣، أخرج الأمير عبد الله على العسكر هشام بن عبد الرحمن ابن الحكم إلى كورة تدمير، في أواخر ربيع الأول. وكان القائد معه على الجيش أحمد بن أبي عبدة. ولما احتل بوادي بلون، تقدم قطيع من الخيل؛ فافتتح هنالك حصنا، وغنم ما كان فيه. وتوافت على العسكر حشود أهل الكور. ثم انتقل وطوى المراحل حتى حل بمرسية. ثم انتقل إلى لورقة. فخرج إليه ديسم بن إسحاق؛ فخاربه؛ فهزم ديسم؛ ورجع إلى لورقة وأقام محاصرا حتى قتل عنه العسكر. ثم خرج ديسم بمن معه؛ فضرب في الساقة؛ فرجع إليه؛ فهزم واتبع حتى اشتغاث بالوعر ونجا راجلا، وأخذ فرسه. وقفل العسكر سالما. وفقد في هذه الغزاة الماء، ومات فيها اثنان وثلاثون رجلا عطشا، وهلكت دواب كثيرة.

وفي سنة ٢٨٤، أخرج الأمير عبد الله ابنه أبان إلى لبلة. وكان ابن خصيب بحصن منت ميور، وكان قد ثار به؛ فحاصره، ونصب عليه المجانيق، ورماهم بها حتى ضجوا ودعوا إلى الطاعة؛ وانعقد أمانهم. وفي خلال ذلك، دخل ابن حفصون إسجعة الثانية؛ فورد كتاب الأمير باستعجال الفحول بسبب إسجعة؛ فقفل العسكر. وكانت مدة الحركة شهرين ونصفا، وهي أول حركة أبان. وفي سنة ٢٨٥، غزا أبان ابن الأمير عبد الله إلى ابن حفصون، والقائد ابن أبي عبدة.

وفيها أيضا، غزا عباس بن عبد العزيز إلى حصن كركي وجبل البرانس؛ وقتل ابن بامين وابن موجول، وأخذ حصونهما. وفيها، تقدم لب بن محمد بن طليطلة إلى حيز جيان، ونازل حصن قسكلونة؛ وكان فيها نصارى يحاربون عبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية؛ فأخذ الحصن، وقتل العجم. ووافاه فيه قتل أبيه محمد بن لب في محاصرته لسرقسطة. وفيها، كانت المجاعة الشديدة التي سميت السنة ٢٨٥ بها سنة لم أظن.

وفي سنة ٢٨٦، أظهر ابن حفصون النصرانية؛ وكان قبل ذلك يسرها؛ وانعقد مع أهل الشرك وباطنهم، ونفر عن أهل الإسلام، وناذهم؛ فثبرا منه خلق كثير. وناذره عوسجة بن الخليع، وبني حصن قنبط، وصار فيه مواليا للأمير عبد الله، محاربا لأبن حفصون. واتصلت عليه المغازي من ذلك الوقت، ورأى جميع المسلمين أن حربه جهاد؛ فتتابعت عليه الغزوات بالصوائف والشواني، ولا بني القواد عنه في الحل والترحال. وفي ذلك قال ابن فلزم للقائد ابن أبي عبدة (متقارب) :

فَقِي كُلِّ صَيْفٍ وَفِي كُلِّ مَشْتَى ... غَزَاتَانِ مِنْكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ
فَتَلَكَ تُبَيْدُ الْعَدُوِّ وَهَذِي ... تُفِيدُ الْإِمَامَ بِهَا بَيْتَ مَالٍ

وفي سنة ٢٨٧، كانت الصائفة مشجولة ما بين كورة موزور وكورة شذونة وكورة رية. وفيها، قتل القائد ابن أبي عبدة طالب بن مولود الموروري.

وفيها، صلب إسحاق وصاحبه؛ وكانا من رجال ابن حفصون؛ وفيهما جرى المثل في الناس: (غررتني يا إسحاق!) وذلك أن أحدهما قال هذه الكلمة لصاحبه، وهو يرفع في الخشبة.

وفي سنة ٢٨٨، قبضت رهائن ابن حفصون. وتجولت الصائفة بشذونة وغيرها من الكور. وفيها، عظم السيل بقرطبة، وانهدم رجل من قنطرتها.

وفيها، خرج من قرطبة أحمد بن معاوية ابن الإمام هشام إلى فخص البلوط. ثم تقدم إلى ترجيله؛ فأقام فيها مدة يسيرة. وانحشدت إليه الحشود؛ فدخل إلى سمورة وبها قتل في شهر ربيع الأول.

وفي سنة ٢٩١، كان غزو أبان ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - إلى رية؛ وقاد الخليل أحمد بن محمد بن أبي عبدة. وفصل يوم الخميس لخمس خلون من جمادي الآخرة؛ ونهض حتى احتل بوادي نسقانية، واضطرب في هذه المحلة. وخرج إليه عمر بن حفصون؛ ثم التقيا؛ فوقع بينهما حرب شديدة؛ ثم انكشفت الهزيمة على أصحاب ابن حفصون؛ فقتل منهم عدد كثير؛ ثم أضرم قرى وادي نسقانية وما حوالها نارا. ثم انتقل وحل على وادي بينش المجاور لببستر، ووقعت الحرب بين أهل العسكر وبين ابن حفصون؛ فانهزم ابن حفصون، وقتل له رجال، وعقرت له خيل. واتصل الحريق في جميع قرى تلك الناحية. ثم انتقل إلى محلة طلجيرة؛ فأقام بها أياما، يحارب

فيها ابن حفصون كل يوم، وينال منه. وفي هذه الأيام، أحرقت منية لجعفر بن عمر بن حفصون. وفي هذه الغزاة، حوربت طرش والرجل، وقتل أخو زيني وجماعة من حماة ابن حفصون. ونصب المنجنيق على الرجل؛ فأثر فيه وثلث في سوره. ثم تقدم القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة من حصن لوشة إلى حصن الحشن، في جرائد الخيل، وأبقى أبان ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - معسكرا بمحلة لوشة؛ فخارب حصن الحشن، وقتل عددا من أهله، وأسر منهم جماعة، وانصرف بالرووس والأسرى إلى لوشة. ثم قفل بالعسكر، ودخل قرطبة يوم الجمعة لخمس بقين لرمضان؛ فكانت هذه الغزاة ثلاثة أشهر وعشرين يوما.

وفيها، خرج لُبُّ بن محمد إلى بايش من أحواز آلبه، وذلك في رمضان؛ فافتتح حصن بايش وما يليه، والعليج إذفنش يومئذ على حصن غزنون محاصرا لأهله. فلما بلغه دخول لُبُّ بن محمد بحصن بايش، ولَّى هاربا.

وفيها، ثم في ذي الحجة، خرج لُبُّ بن محمد إلى ناحية بليارش؛ فافتتح حصن لحروسة؟، وحصن إيلاس، وحصن قشتيل شنت، وحصن مولة، وقتل بهذه الحصون نحو من سبعمائة عليج، وسبى بها نحو من ألف سبية.

وفيها، توفي جعفر بن يحيى بن مزين الفقيه من أهل قرطبة؛ وكانت له رواية عن أبيه وغيره. وفيها، توفي أحمد بن هاشم القائد بمدينة غرناطة، ودفن هنالك، وهو ابن أربع وسبعين سنة. وفيها، توفي إسحاق بن عبد الله الطيب. وفيها، مات عامر بن موصل الأصبحي بحصن ناجرة) .

وفي سنة ٢٩٢، كان خروج الصائفة إلى عمر بن حفصون. وتحوّل العسكر على حصونه؛ فهتك بعضها. وقطع البعض على وظيف يودونه. وفيها، كانت الوقعة العظيمة على عمر بن حفصون بوادي بلون من جيان. وكان قد توافى إليه أهل الخلاف والخلعان، وخرج مغيرا على المسلمين؛ فهزمه الله، وقتل كثيرا ممن كان معه. وأديره في شردمة قليلة، وأفنى أكثر رجاله في ذلك المعترك.

وفيها، خرج لُبُّ بن محمد لمحاصرة مدينة سرقسطة، وأخذ في ردم الخندق المجاور لسورها وشرع في البنيان عليها. فلما كل له ردم الخندق وبنان ما فيه، رحل عنه وأدخل ندبة فيه من رجاله.

وفيها، توفي عبد الله بن قاسم بن هلال؛ وكانت له رحلة؛ وأدخل الأندلس كتب داوود العباسي وغيره. وفيها، وتوفي الوزير سليمان بن محمد بن وانسوس، وعبد الرحمن بن أمية بن عيسى بن شهيد المعروف بدحيم، وتوفي أخواه عثمان بن أمية وعيسى بن أمية.

وفي سنة ٢٩٣، كان خروج الصائفة إلى فهر بن أسد، وهو بحصن تش من كورة جيان؛ فافتتح الحصن، وأخذ فहर أسيرا، وقدم به إلى قرطبة؛ فأمر الإمام عبد الله - رحمه الله - بصلبه عند القصابين في بيع الآخر.

وفيها، عزل محمد بن أمية بن شهيد عن المدينة؛ ووليها محمد بن غانم؛ فكانت ولايته شهورا؛ ثم عزل، وولى مكانه موسى بن محمد بن حدير. وفيها، حبس حزمير القومس، وعذب وأدهق حتى مات.

وفي جمادى الآخرة، دخل القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة حصن قنيط من ناكرنا، وندب فيه جيشا، واستنزل من كان فيه من بني الخليج، وأدخل فيه الحشم.

وفيها، توفي يونس بن هاشم بن عبد العزيز. وفيها، توفي ديسم بن إسحاق صاحب تدمير. وفيها، قتل يحيى بن قسي، ومحمد بن إسماعيل، وأيوب ابن سليمان بطليطلة وفي سنة ٢٩٤، كان غزو أبان ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - الصائفة إلى الجزيرة. وقاد الخليل أحمد بن محمد بن أبي عبدة، وحل بالجزيرة

يوم الجمعة لتسع بقين من رجب. ثم تقدّم إلى حصن لوزة يوم السبت لانسلاخ رجب؛ فخارب الحصن وحاصره، وقتل جماعة ممن فيه؛ ثم تقدم إلى حاضرة رية، فيها مساوور بن عبد الرحمن؛ فأحرقت أرباض الحاضرة وحوصر من كان فيها؛ فدعا مساوور إلى السلم، وبذل الرهائن. فأجيب إلى ذلك، وقبضت رهائنه؛ ثم تقدم القائد إلى الساحل؛ فجال عليه أجمع، وخرج على حصون إلبيرة، وقفل منصرفا إلى قرطبة؛ فدخلها يوم السبت لليلتين خلتا من ذي القعدة.

وفيها، خرج لُبُّ بن محمد إلى جانب بنبونة؛ فبذل في تهوره، وشرع في البنيان بحصن هريز؛ فحشد إليه العليج شانجه جميع أهل بلده،

وكايدته بالمكامن؛ ثم وجه إليه خيلاً يسيره؛ فلما سمع الصيحة، بدر إلى الركوب؛ فلقى بكمين، فهزمه؛ ثم بكمين، فهزمه؛ ثم أهدقت به الكائن. فقتل وقتل من كان معه، ممن أثر الشهادة؛ وذلك في ذي الحجة لاثنتي عشرة ليلة بقيت منه. فنزل تطيلة أخوه عبد الله بن محمد. وكان لب، يوم قتل، ابن ثمان وثلاثين سنة.

وفيها، ظهر محمد بن عبد الملك الطويل في الثغر، ودخل حصن بربشتر وحصن القصر وحصن بربطانية. وفي سنة ٢٩٥، كان غزاة أبان ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - بالصائفة إلى جهة رية؛ وقاد الخليل أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة؛ فقصده ببشتر، وحارب ابن حفصون، ونكاه، وأنزل به، وحارب ما حواله من الحصون. وفيها، غدر سعيد بن الوليد المعروف بأبن مستنة، وتخلّى عن حصن بلدة إلى عمر بن حفصون، وظافره، وأبدى ما كان بصميره من العصيان.

وفيها، ولي المدينة محمد بن عبيد الله بن أبي عثمان، وذلك يوم خميس؛ فاستعفى عنها؛ فأعفي يوم الجمعة ثاني ولايته، وولى مكانه علي بن محمد المعروف بالباسة؛ وكان عليها ثلاثة أيام. ثم عزل وأعيد إليها موسى بن حدير؛ فكان واليا عليها إلى آخر أيام الإمام عبد الله؛ وأقره أمير المؤمنين - رحمه الله - إلى سنة ٣٠٣. وفيها، دخل محمد بن عبد الملك الطويل حصن منتشون ومدينة لاردة في الحرم.

وفيها، دخل محمد بن عبد الرحمن النجيب مدينة شبة. وفيها، خرج محمد بن عبد الملك الطويل إلى بربطانية؛ فافتتح حصونا جمة، وسبى سبيا كثيرا.

وفيها، توفي الفقيه يحيى بن عبد العزيز بن الجرّار، والفقيه محمد بن غالب ابن الصفار، ومحمد بن يحيى بن أبي غسان صاحب السوق. وولى أحكام السوق يحيى بن سعيد بن حسان. وفيها، توفي موسى بن محمد بن موسى بن قطبس الخازن.

وفي سنة ٢٩٦، كان غزو أبان ابن الإمام عبد الله بالصائفة إلى حصون رية وغيرها. وقاد الخليل معه أحمد بن محمد بن أبي عبدة؛ فقصده ناحية بهشتر، ونازل ابن حفصون، وحاربه ونكاه، وتحرك عيسى بن أحمد القائد غازيا إلى حصون سعيد بن مستنة؛ فنازله أيضا، حتى قفل القائد أحمد ابن محمد من يبشتر. ثم نازل حصن لك من حصون ابن مستنة؛ فأقام عليه حتى افتتحه.

وفيها، خرج محمد بن عبد الملك الطويل إلى بليارش في شهر رمضان؛ فقتل هنالك مقتلة عظيمة. ووفد عليه رسل أهل حصن روضة، يرغبون الصلح ويسمحون بالرهائن والجزية؛ فلم يجبهم إلى ذلك؛ فخرجوا هاربين من الحصن، وأخلوه. وتقدم إليه؛ فهدمه. وفيها، تغلب على حصن منت بطروش، وهو المعروف بجبل الحجارة.

وفيها، توفي محمد بن سليمان بن تليد المعافري قاضي مدينة وشقة. وفيها، توفي عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة؛ وكان حج قبل وفاته بثلاثة أعوام، هو ويحيى بن سعيد بن حسان صاحب السوق. وفيها، توفيت السيدة ابنة مطرف ابن الأمير عبد الرحمن بن الحكم - رحمه الله - وفيها، توفي أحمد بن حفص بن رفاع الفقيه المقرئ.

وفي سنة ٢٩٧، كان غزو العاصي ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - الغزاة المعروفة بغزوة رية وفريرة. وقاد الخليل أحمد بن محمد بن أبي عبدة. وفصل يوم الخميس لتسع بقين من شعبان؛ فتقدم إلى بلدة؛ فخار بها. ثم احتل على نهر طليجيرة؛ فدارت بينه وبين أصحاب ابن حفصون حرب، عقرت فيها خيل السلطان، وقتل عدد من أصحاب ابن حفصون. ثم تقدم إلى حصون البيرة؛ فنزل على حصن شبيلش؛ فكانت هنالك حرب شديدة، ونالت بعض حماة العسكر جراح. وتجول في كورة البيرة، وحل بمحلة بجانة؛ ثم قفل على كورة جيان؛ فنازل حصن المتلون يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي القعدة؛ فأقام عليه محاصرا أياما؛ ثم ضحى فيه يوم الأحد، وقفل يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، ودخل قرطبة يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة. وفيها، افتتحت بياسة؛ واستنزل منها محمد بن يحيى بن سعيد بن بزيل.

وفيها، كان سيل عظيم غرقت منه أركان بيت الله الحرام، وفاضت بئر زمزم؛ ولم ير مثل هذا السيل في قديم الأزمان. وفيها، اجتمع عمر بن حفصون، وسعيد بن مستنة، وسعيد بن هذيل، وضمهم عسكر واحد؛ فضرخوا بناحية جيان وأغاروا؛ فأصابوا وغنموا،

وانصرفوا إلى حصن جريشة؛ فاتبعهم القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة؛ فلحقهم، وهزمهم، وقتل جماعة منهم، فيهم تسريل العجمي من قواد ابن حفصون.

وفيها، افتتح القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة حصن الزيب، وابتنى حصن ترضيض تضيقا على ابن هذيل، وحصن قلعة الأشعث، ووضع فيه ندبا من الرجال. وشى القائد هذه السنة بجبل ارنيش من كورة قبرة. وكانت له في هذه الشدة حركات بالغت في نكايه أهل النفاق.

وفيها، خرج محمد بن عبد الملك الطويل إلى بار بليارش؛ فافتتح حصن أوربالة، وأصاب من المشركين ثلاثمائة سبية، وقتل كثيرا منهم، وهدم الحصن وحرقه. وتقدم إلى حصني علتير والغبران؛ فهدمهما. وكان مبلغ الفيء في هذه الغزاة ثلاثة عشر ألفا. وفيها، قتل إبراهيم بن حجاج ابن عمه أحمد بن سيد بن عمر بن عمير، وهو ابن خمس وأربعين سنة.

وفيها، وذلك يوم الخميس لسبع بقين من ذي الحجة، اعتقل موسى ابن محمد بن حدير صاحب المدينة إبراهيم ومحمدا وسعيدا بني الأمير محمد - رحمه الله - وابن أخيه محمد بن عبد الملك ابن الأمير محمد - رحمه الله - وحبسهم في دار مطرف ابن الأمير عبد الله. وكان سبب ذلك أن الإمام عبد الله - رحمه الله - عهد إليه ألا يترك أحدا يجوز القنطرة إذا كان له خروج للصيد. وكان يصيد الإمام في تلك الجهة بعدوة النهر. فخرج الإمام في هذا اليوم متصيда. وخرج هؤلاء من المدينة متروحين؛ فردهم واعتقلهم. فلما انصرف الأمير - رحمه الله - من صيده، أنهى إليه أمرهم وما فعله فيهم؛ فاستحسن ذلك منه، وشكر له، وعهد إليه بإطلاقهم.

وفي سنة ٢٩٨، خرج العاصي ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - بالصائفة. وقاد الخليل أحمد بن محمد بن أبي عبدة؛ فتقدم إلى حصن ببشتر وغيره من حصون الساحل بكورة رية. ثم تقدم بالعسكر إلى كور إليرة؛ فحطم زرعها، وهشم ثمارها.

وفيها، أقام عيسى بن أحمد بن أبي عبدة في طقيع من الخليل بمدينة بيانة؛ فأغار عمر بن حفصون وسعيد بن مستنة في بسيت قبرة وقرى قرطبة. وأخذوا الغنائم؛ فخرج عيسى بن أحمد طالبا لهما؛ فالتقى بهما على نهر ألبة؛ فدارت بينهم حرب شديدة، وإنهزم عمر بن حفصون وابن مستنة؛ فقتل من أصحابهما خلق كثير، واقتروا أيادي سبا. وبعث عيسى بن أحمد من رؤوسهم عددا كثيرا.

وفيها، غزا الوزير عباس بن عبد العزيز إلى مدينة قلعة رباح؛ وكان أهلها قد خالفوا، وخلعوا الطاعة؛ فافتتحها. وكان فضل بن سلمة، ختن سعيد ابن مستنة، قد خالف بحصن أشر؛ فتقرب أهل حصن أشر بقتله إلى الإمام عبد الله - رحمه الله - فقدّم منهم قوم برأسه إلى باب السدة؛ فشكر لهم ذلك.

وفيها، خرج عباس بن أحمد بن أبي عبدة قائدا على خيل كثيفة إلى المنشلون لحرب سعيد بن هذيل. وفيها، تداعى البربر الطنجيون الذين كانوا غزوا مع القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة إلى النزوع إلى مدينة بلدة إلى ابن حفصون؛ وتداعى الطنجيون الذين كانوا مع عباس بن أحمد على المنتلون إلى النزوع إلى ابن هذيل؛ فخرجوا عن العسكر، ولحقوا بأهل الكفر والخلعان. ثم دارت الدائرة على هؤلاء وهؤلاء في الموضعين جميعا لأمر أحدثوها، واستدرجهم الله - عز وجل - بها؛ فقتلوا ببشتر والمنتلون. وعاد من بقى منهم إلى الطاعة. وكان صاحب الصائفة العاصي ابن الأمير عبد الله؛ وكان

فصوله لهذه الغزاة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان، وهو يوم النصف من أبريل. وكانت في هذه الغزاة أمراض ووباء. وفيها، خرج محمد بن عبد الملك الطويل إلى أرغون يريد بنبلونة وأن يجتمع هنالك مع عبد الله بن محمد بن لب. فانتفى إلى حصن البربر؛ فأحرق ما حواله، وهدم كنائس تلك المواضع، وذلك في شهر رمضان. وخرج عن ملاقة ابن لب وعن القصد إلى بنبلونة، وانصرف؛ فاحتل حصنا من حصونه يعرف بشار قشتيله؛ فأنذر بأن ابن شانجه يريد الهجوم عليه؛ فخرج في بعض أصحابه متسللا. فلما أيقن أهل العسكر بهروب ابن الطويل، تخاذلوا؛ فكان سببا لانهزام أهل الحصن. فلما بلغ عبد الله بن لب الخبر، وأن ابن الطويل كع عن ملاقة شانجه، نزل بمن معه من المسلمين على حصن لوازة من حصون شانجه؛ فقتل جماعة منهم وكر راجعا؛ فالتقى ببعض الخيل التي كان فيها شانجه؛ فقتل فيهم وسبي.

وفيها، استشهد ابن أبي الخصيب التطيلي، واسمه نعم الخلف؛ وكان نبيلًا أديبا، وفقيا محدثا.

وفيهما، مات إبراهيم ابن الإمام محمد - رحمه الله - وفيها، توفي معاوية ابن محمد بن هشام القرشي؛ وعثمان ابن الأمير محمد - رحمه الله -؛ ومطرف ابن أحمد بن مطرف ابن الأمير عبد الرحمن - رحمه الله -؛ وأبان بن عبد الملك ابن الأمير عبد الرحمن - رحمه الله - . وفيها، توفي محمد بن أمية بن عيسى بن شهيد الوزير، صاحب المدينة. وفيها، توفي سعيد بن عبد الرحيم السدوني الكاتب؛ وأبو يحيى يزيد بن محمد النجبي الخازن؛ وموسى بن العاصي بن ثعلبة؛ وأبو مروان عبيد الله بن يحيى بن أبي عيسى؛ وأصبغ بن عيسى بن فطيس؛ وإبراهيم بن حجاج صاحب إشبيلية، وهو ابن ثلاث وستين سنة؛ وعمر بن قومس الكاتب؛ وريان الفتي صاحب الطراز؛ وأفلح الوصيف.

وفي سنة ٢٩٩، كان غزاة القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة إلى حصن فنجالة من حصون ابن هذيل، بالقرب من جبل المتلون، وذلك في صدر المحرم؛ فحاصره أشد الحصار، حتى افتتح الحصن.

وفيهما، غزا بالصائفة أبان ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - وقاد الخليل عباس بن عبد العزيز الوزير. وفصل يوم الاثنين لتسع بقين من شعبان، وقصد حصن بيشتر، وحارب ابن حفصون، وأوقع به. ثم خرج بإثره أحمد ابن محمد بن أبي عبدة؛ فتولى القيادة مكانه، واستقدم عباس بن عبد العزيز إلى قرطبة؛ فقصد القائد حصون ابن حفصون، وحارب من كان فيها.

وفي هذه السنة، كسفت الشمس جميعا قبل وقت الغروب، وذلك يوم الأربعاء لليلة بقيت من شوال؛ وظهرت النجوم. وبدر أكثر أهل المساجد؛ فأذنوا لصلاة المغرب، وصلوا. ثم انجلى ذلك، وعادت الشمس مضيئة. ثم توارت للمغيب.

وفيهما، خرج محمد بن عبد الملك الطويل إلى وادي برشلونة؛ فأغار بوادي طراجة. فخرج عليه العليج شنير؛ فأخذ عليه المضايق. فلها كّر عسكر المسلمين، ألقوا أعداء الله على تلك المضايق؛ ففتح الله للمسلمين عليهم، وقتلوا فيهم مقتلة عظيمة.

وفيهما، توفي عبد الله بن أبي زيد صاحب الخليل. وفيها، توفي أصبغ بن مالك الزاهد الفقيه. وفيها، هلك العليج إذفنش؛ وكانت مدة أيامه أربعاً وأربعين سنة؛ وولى ابنه غرسية مكانه.

١٥٥ شأن ابني الأمير عبد الله محمد ومطرف

١٥٦ شأن القاسم أخى الأمير عبد الله

شأن ابني الأمير عبد الله محمد ومطرف

كان الأمير عبد الله قد رشح ابنه محمداً لولاية عهده، وأثره بما عنده؛ فعظم الأمر على أخيه مطرف، وبعدما بينهما كل البعد، وقابل الواحد الثاني بالهجران والصد. فوجد مطرف يوماً فارساً من فرسان محمد؛ فاغتاله وقتله؛ ثم فرق من أبيه عبد الله وحذر سطوته، ولم يأمن طولته؛ فسار إلى السجن وفتقه، وحلّ من شدة أبوه وأوثقه، وخرج بمن فيه من أهل الذعارة والفساد، ولحق ببربشتر قاعدة أهل الضلال والعناد، وصار عند ابن حفصون، في حرز من الأمن مصون. ثم إن الأمير عبد الله أباه خاطبه بالأمان، وقال: (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان!) فقبل من أبيه، وانصرف إلى أهله وذويه. ولم يزل بعد ذلك مطرف يغري بمحمد إغراء، ويطوي له عداوة وبغضاء، ويزعم أنه يخاطب ابن حفصون ويدخله، ويداهنه على القيام على أبيه ويواصله. فسجن الأمير عبد الله ابنه محمداً في دار البنيقة، وامتنح خلال ذلك عين الحقيقة. فلما واصل في البحث صباحه ومساءه، لم يقرع سمعه من جهته ما ساءه فأسرع إطلاقه، وحلّ وثاقه؛ فدخل مطرف إليه، وأجهز في الحين عليه، وتركه متخبطاً في دمه، ملقى على وجهه وفه. فلما علم ذلك الأمير عبد الله، أعظم ذلك منه، وهم بقتله عنه؛ فلم يعد من كسر عليه لذلك؛ فتركه. وقيل: قتله فيه: والله أعلم. وكان ذلك في سنة ٢٧٧.

شأن القاسم أخى الأمير عبد الله

كان الأمير عبد الله قد اتهم أخاه بالقيام عليه في الملك، وإبراده موارد الهلك. فلما كثر بذلك الرفع إليه، وتتابع الكلام فيه عليه، رأى بمقتضى الرياسة، وحكم التدبير والسياسة، أن يجبسه في دار البنيقة من القصر، حتى

١٥٠٧ صفة الإمام عبد الله بن محمد

يكشف من هذا الأمر. ثم نقله منها إلى حبس الدويرة؛ ففنع النوم هنالك؛ فأرسلت له أمه مرقدًا لذلك، وأمرته أن يقسمه على ثلاثة أيام؛ فشرب الجميع في يوم واحد؛ فأصبح رهن الحمام.

وفي سنة ٣٠٠، كان وفاة الإمام عبد الله بن محمد - رحمه الله - ليلة الخميس مستهل ربيع الأول، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة. وكانت خلافته خمسًا وعشرين سنة، وخمسة عشر يومًا. ودفن في قصر قرطبة مع أجداده الخلفاء - رضي الله عنه وعنهم! - وصلى عليه أمير المؤمنين عبد الرحمن ابن محمد - رضه.

صفة الإمام عبد الله بن محمد

كان أبيض، أصهب، مشربًا بحمرة، أزرق أقي بخضب بالسواد، ربعة إلى الطول، عظيم الكراديس.

تسمية أولاد الإمام عبد الله: ممن ولد له قبل الخلافة: محمد أبو أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد - رحمهما الله -، أمه: درّ، وأحمد، أمه: تمام؛ ومطرف، وسليمان، أمهما: غزلان؛ وأبان، لأم ولد تسمى شأن؛ وعبد الرحمن؛ وعبد الملك؛ والسيدة؛ وعائشة؛ والسيدة أخرى، أمهن: غزلان؛ وهشيمة، أمها: قرش؛ وأسماء؛ أمها قتيان؛ وحكيمة، أمها: ملك؛ والباء، أمها: درّ؛ وفاطمة، وكانت أسن ولده. وممن ولد له بعد الخلافة: العاصي لمستظرف، وعبد الرحمن لخديع، ومحمد الأصغر، أمهما: ملحّة، ورقية، وزينب للملحة، وفاطمة لماجن، وزينب لشارق، وفاطمة الصغرى لدرّ.

ذكر حجابته ووزرائه وكتابه وأصحاب شرطه: ألقى الإمام عبد الله على الحجابة وقت وفاة الإمام المنذر - رحمهما الله - عبد الرحمن بن أمية بن شهيد؛ فأمضاه عليها؛ ثم عزله، وولي مكانه سعيد بن محمد بن السليم؛ ثم عزله، ولم يول بعده الحجابة أحدا. والوزراء: براء بن مالك القرشي؛ عباس ابن عبد العزيز القرشي؛ سعيد بن محمد بن السليم؛ عبد الملك بن عبد الله.

١٥٠٨ بعض أخبار الأمير عبد الله بن محمد على الجملة

ابن أمية. وقاد الخليل بالصوائف عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة. وولي الكتّابة أحمد بن محمد بن أبي عبدة. وقاد بالصوائف سلمة بن علي بن أبي عبدة؛ عبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة؛ حفص بن محمد بن بسيل. ولي المدينة مع الوزارة محمد بن وليد بن غانم. ولي المدينة مع الوزارة أصبغ بن عيسى بن فطيس؛ عبد الله بن محمد الزجالي، وكان كاتبًا ووزيرًا؛ سليمان بن محمد بن وانسوس؛ أحمد بن هاشم. وقاد الخليل جعفر بن عبد الغافر. وقاد الخليل العاصي بن عبد الله بن ثعلبة؛ تمام بن عمرو بن علقمة وكان وزيرًا لثلاثة من الخلفاء؛ عبد الله بن حارث بن بزيع؛ إبراهيم بن نحير؛ محمد ابن أمية بن شهيد. وولي المدينة نضر بن سلمة، وولي القضاء موسى بن زياد؛ وولي الكتّابة والشرطة والقضاء. ومن أصحاب الشرط موسى بن زياد، ثم ولي مكانه، لما ولي القضاء، يحيى بن زياد عمه؛ ثم مات يحيى بن زياد، وبقيت الشرطة دون والٍ سنتين؛ ثم وليها قاسم بن وليد الكلبي؛ فبقي عليها حتى توفي الإمام - رحمه الله! ومن كتّابه: عبد الله بن محمد الوزير؛ عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة؛ موسى بن زياد. ومن قضاته: النضر بن سلمة القيسي؛ ثم موسى بن زياد؛ ثم محمد بن سلمة أخو النضر؛ ثم أعيد النضر بن سلمة ثانية؛ ثم عزل وولي محمد بن سلمة؛ ثم مات، وولي بعده أحمد بن محمد بن زياد اللخمي.

بعض أخبار الأمير عبد الله بن محمد على الجملة

كان الإمام عبد الله مقتصدًا، يظهر ذلك في ملبسه وشكله وجميع أحواله. وكان حافظًا للقرآن، كثير التلاوة له. وكانت له صدقات كثيرة ونوافل

جزيلة. وكان متقدمًا في ورعه وفضله، محبا للخير وأهله، كثير الصلاة، دائم الخشوع والذكر لله عز وجل، كثير التواضع، منكرا للسرف ومبعدا لأهله، شديد الوطأة على ذوي الظلم والجور. وكان متفنا في ضروب العلوم، بصيرا بلغات العرب، فصيح اللسان، حسن البيان وكان لا يخلو في أكثر أيامه من مقاعدة وزرائه ووجوه رجاله؛ فإذا انقضى خوضهم في الرأي والتدبير لأسباب مملكته وما كان يحاوله

من حسم علق الفتنة، خاض معهم في الأخبار والعلوم. ولم يكن ممن اشتغل بلذة، أو قارف شيئا من الأنبذة في أيام خلافته ولا قبلها. وهو ابني السباط بين القصر والجامع بمدينة قرطبة، رغبة في شهود الجمعة، ومحافظة على الصلوات، وحبا للصالحات. وكان يقعد في السباط قبل صلاة الجمعة وبعدها؛ فيرى الناس، ويشرف على أخبارهم وحركاتهم، ويسر بجماعاتهم، ويسمع قول المتظلم؛ ولا يخفى عليه شيء من أمور الناس. وكان يقعد أيضا على بعض أبواب قصره في أيام معلومة؛ فترفع إليه فيه الظلامات، وتصل إليه الكتب على باب حديد قد صنع مشرجا لذلك؛ فلا يتعذر على ضعيف إيصال بطاقة بيده، ولا إنهاء مظلمة على لسانه. وكان أهل المكانات وذوو المنازل والأقدار يتحفظون من كل أمر يوجب الشكوى بهم، وينقبضون عن التحامل على من دونهم، ويهابون عقابه، ويحذرون إنكاره، ويتحرون موافقة مذاهبه. وكانت اللذات مهجورة في أيامه، واللهو غير مقترف من جميع خاصته وعامته، وإعمال الخير وإظهار البر والتقوى فاش في كل طبقة من رجاله ورعيته. وكان - رحمه الله - كثير الاستغفار لله عز وجل، ومتحفزا من اليمين باسمه؛ فإذا حلف له حالف بالله، صدقه؛ وإذا شفع به إليه شافع، شفعه؛ أو خائف، أمنه؛ أو مذنب، صفح عنه. وما أثره كثيره، وفضائله محفوظة مذكورة. وكان قد فتح بابا في القصر، سماه باب العدل. وكان يقعد فيه للناس يوما معلوما في الجمعة، ليباشر أحوال الناس بنفسه، ولا يجعل بينه وبين المظلوم سترا. وكان بصيرا باللغات، حافظا لأشعار العرب وأيامها وسير الخلفاء،

راوية للشعر. وكانت اللذات في أيامه مهجورة؛ فإنه لم يشرب قط نبذا ولا مسكرا. واعتذر إليه يوما بعض مواليه؛ فقال له: (إن مخايل الأمور لتدل على خلاف قولك وتنبي عن باطل تنصلك. ولو أقررت بذنبك، واستغفرت لجرمك، لكان أجمل بك، وأسدل لستر العفو عليك! فقال: (قد اشتمل الذنب على، وحق الخطاء بي! وإنما أنا بشر، وما يقوم لي عذر!) فقال: (مهلا عليك، رويدا بك! تقدمت لك خدمة، وتأخرت لك توبة؛ وما للذنب بينهما مدخل. وقد وسعت الغفران!) وأملى كتابا إلى بعض عماله: (أما بعد، فلو كان نظرك فيما خصصناك به، واهتباك به على حسب مواترتك بالكتب واشتغالك بذلك عن مهم أمرك، لكنت من أحسن رجالنا عناء، وأتمهم نظرا، وأفضلهم حزما. فأقلل من الكتب فيما لا وجه له ولا نفع فيه، واصرف همتك وفكرتك وعنايتك إلى ما يبدو فيه اكتفاؤك، ويظهر فيه غناؤك، إن شاء الله!) وكتب أحد الوزراء إليه كتابا في أمر. فوقع فيه (خفيف):

أَنْتَ يَا نَضْرَ أَبَدَةً ... لَسْتَ تُرْجَى لِفَائِدَةٍ
إِنَّمَا أَنْتَ عُدَّةٌ ... لَكَيْفٍ وَمَائِدَةٍ

وكان - رحمه الله - تقيا نقيا. بنى السباط من القصر إلى الجامع، محافظة منه على الصلوات. والتزم الصلاة مع الجماعة إلى جانب المنبر دائما حتى لقي ربه. وكان - رحمه الله - شاعرا مطبوعا؛ له أشعار حسان. فمن قوله يتغزل في صباه (متسرح):

وَيَحْيَى عَلَى شَادِنٍ كَحِيلٍ ... فِي مِثْلِهِ يُخْلَعُ الْعِدَارُ
كَأَنَّمَا وَجَّتَاهُ وَرَدَّ ... خَالَطَهُ النُّورُ وَالْبَهَارُ
فَضِيبُ بَانَ إِذَا تَشَنَّى ... بِدِيرٍ طَرَفًا بِهِ أَحْوَارُ
فَصَفُو وَدِّي عَلَيْهِ وَقَفَّ ... مَا أَطَرَدَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ

ومن قوله أيضا في مثل ذلك - رحمه الله - (رجز):
يَا مَهْجَةَ الْمُشْتَاكِ مَا أَوْجَعَكَ ... وَيَا أَسِيرَ الْحَبِّ مَا أَخْضَعَكَ
وَيَا رَسُولَ الْعَيْنِ مِنْ لَحْظِهَا ... بِالرَّدِّ وَالتَّبْلِيغِ مَا أَسْرَعَكَ
تَذْهَبُ بِالسَّرِّ فَتَاتِي بِهِ ... فِي مَجْلِسٍ تَخْفَى عَلَيَّ مِنْ مَعَكَ
كَمْ حَاجَةٌ أَنْجَزْتَ أَسْرَارَهَا ... تَبَارَكَ الرَّحْمَانُ مَا أَطْوَعَكَ
ومن قوله في الزهد (كامل):

يَا مَنْ يُرَاوِغُهُ الْأَجَلُ ... حَتَّى مَ بُلْهَبِكَ الْأَمَلُ

حَتَّى مَ لَا تَخْشَى الرَّدَى ... وَكَأَنَّكَ بِكَ قَدْ نَزَلَ
أَغْفَلْتَ عَنْ طَلَبِ النَّجَاةِ ... وَلَا نَجَاةَ لِمَنْ غَفَلَ
هَيَّاتَ يَشْغَلُكَ الْمُنَى ... وَلَمَّا يَدُومُ لَكَ الشَّغْلُ
فَكَأَنَّ يَوْمَكَ لَمْ يَكُنْ ... وَكَأَنَّ نَعِيكَ قَدْ نَزَلَ
وله أيضا في الزُّهد (وافر) :

أَرَى الدُّنْيَا تَصِيرُ إِلَى فَنَاءٍ ... وَمَا فِيهَا لَشَيْءٍ مِنْ بَقَاءٍ
فَبَادِرْ بِالْإِنَابَةِ غَيْرَ وَإِنْ ... عَلَى شَيْءٍ يَصِيرُ إِلَى فَنَاءٍ
كَأَنَّكَ قَدْ حُمِلْتَ عَلَى سَرِيرٍ ... وَغُيِبَ حُسْنُ وَجْهِكَ فِي الثَّرَاءِ
فَنَافَسَ فِي التُّقَى وَاجْتَنَحَ إِلَيْهِ ... لَعَلَّكَ تُرْضِيَنَّ رَبَّ السَّمَاءِ

ولم يزل - رحمة الله عليه - يرفع منار الدين، ويسلك سبيل المهتدين، لم تمنعه الفتن عن النظر لنفسه، والعمل ليوم فاقتة وحلول رमسه. وكانوا يعدونه من أصلح خلفاء بن أمية بالأندلس، وأمثلهم طريقة، وأتمهم معرفة، وأتمهم ديانة؛ إلا أنه كان منغص الحال بدوام الفتنة، وتضييق نطاق الخطأ، ونقصان مقدار التزكية، حتى كان يتخلله الرياء تحت قناع تقواه، والبخل بطوقه طبيعة ليست له تحط من هواه؛ وغض دينه لما كان من هوان الدماء عليه، بسبب

١٥٠٩ الناصر لدين الله

١٦ خلافة أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد

الفتن الطارئة حتى من ولديه، آخذاً لأكبرهما بالظنة. وقد صرح النقية أبو محمد بن حزم بدم هذا الأمير، وقال إنه كان قتالا تهون عليه الدماء مع كثرة إقباله على الخيرات، وإعراجه عن المنكرات؛ فإنه احتال على أخيه المنذر على إثارة له، وواطأ عليه حجامه بأن سم له الموضع الذي قصده به، وهو نازل بعسكره على ابن حفصون. ثم قتل ولديه معا بالسيف واحدا بعد واحد: قتل محمداً والد الناصر لدين الله، وقتل أخاه المطرف؛ ثم قتل أخوين له معا أيضاً: قتل هشاماً منهما بالسيف، والقاسم بالسم. والله أعلم بحقيقة أمره.

خلافة أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد

الناصر لدين الله

نسبه: هو عبد الرحمن بن محمد، الذي قتله أخوه مطرف، ابن الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الربضي بن هشام الرضي بن عبد الرحمن الداخل. كنيته. أبو المطرف. لقبه: الناصر لدين الله. أمه: أم ولد تسمى مزنة. عمره: ثلاث وسبعون سنة وسبعة أشهر. ولي في اليوم الذي توفي فيه جده الأمير عبد الله وبويع فيه، وذلك يوم الخميس مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠. وتوفي يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شهر رمضان المعظم سنة ٣٥٠؛ فكانت خلافته خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام. صفته: أبيض، ربعة، أشهل، حسن الجسم، جميل، بهي، يخضب بالسواد.

قضاته: أحمد بن محمد بن زياد؛ ثم عزله وولي أسلم بن عبد العزيز بن هاشم؛ ثم أحمد بن محمد بن زياد ثانية؛ ثم أحمد بن بقي؛ ثم منذر بن سعيد البلوطي.

نقش خاتمه: (عبد الرحمن بقضاء الله راض) . وكان أبوه ولي عهد أبيه عبد الله وأكبر بنيه؛ فقتله أخوه مطرف، وقتله أبوه به. وقيل في ذلك كلام كثير.

وكان مولد الناصر قبل قتل أبيه محمد بأحد وعشرين يوماً، وذلك يوم الخميس لثمان بقين من رمضان سنة ٢٧٧. وكان جده الأمير

عبد الله يحطيه دون بنيه، ويومئ إليه، ويرشحه لأمره، وربما أقعده في بعض الأيام والأعياد مقعد نفسه لتسليم الجند عليه. فتعلقت آمال أهل الدولة به، ولم يشكوا في مصير الأمر إليه. فلما مات جده، أجلسوه مكانه في الخلافة دون ولده لصلبه، لما أراد الله من ضخامة الملك ونصر الإسلام وإبادة الشرك؛ اتفق له في ذلك ما لم يتفق للملك قبله ولا بعده. وكان يسكن القصر مع جده دونهم؛ فتهياً إجلاله دونهم مكانه بغير منازعة. وقيل إن جده رمى بخاتمه إليه إبانة منه لاستخلافه.

فكان أول من بايعه أعمامه أولاد الإمام عبد الله، وهم: أبان، والعاصي، وعبد الرحمن، ومحمد، وأحمد. وتلاههم اخوة جده، وهم: العاصي، وسليمان، وسعيد، وأحمد. وكان أحمد متكلمهم. فلما بايعه، أقفى عليه بكل جميل.

والناصر هذا هو أول من تسمى منهم بأمير المؤمنين، وتلقب بأحد الألقاب السلطانية، وهو الناصر ثم تسمى منهم من كان بعده من خلفائهم بإمرة المؤمنين وآثر اللقب السلطاني، وذلك حين هاجت الخلافة العباسية، وضعفت، وظهرت الدولة التركية والديلية؛ فصارت إمرة المؤمنين لاثقة بمنصبه، وكلمة باقية في عقبه. فاستهل الخطيب بجامع قرطبة أحمد بن بقي بن مخلد، بذكر هذا الاسم المخلد، يوم الجمعة مستهل ذي الحجة من سنة ٣١٦. وفي يوم ولايته يقول أحمد بن عبد ربه من قصيدة (بسيط):

بَدَا الْهَلَالُ جَدِيدًا ... وَالْمَلِكُ غَضَّ جَدِيدُ

يَا نِعْمَةَ اللَّهِ زَيْدِي ... فَمَا عَلَيْكَ مَزِيدُ

وولي، والأندلس جمة تحتم، ونار تضطرم شقاقا ونفاقا؛ فأحمد نيرانها، وسكن زلازلها، وغزا غزوات كثيرة. وكان يشبه بعبد الرحمن الداخل؛

ومن وقت دخوله الأندلس سنة ١٣٨ إلى ولاية عبد الرحمن الناصر، مات من بني أمية سبعة خلفاء وعبد الرحمن ثامنهم؛ ومات في المدة المذكورة من بني العباس اثنان وعشرون ملكا.

وفي سنة ٣٠٠، استخلف الإمام الناصر لبدن الله أمير المؤمنين عبد الرحمن ابن محمد - رحمه الله - يوم الخميس مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠، وهو ابن ثلاث وعشرون سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوما. وكنيته: أبو المطرف. وأمه: أم ولد تسمى مزنة. وجلس للبيعة في محراب المجلس الكامل بقصر قرطبة، وتولي أخذها له على الخاصة والعامة بدر بن أحمد مولاه، وموسى بن محمد بن حدير صاحب المدينة. وأحضر أعمامه، وأعمام أبيه، وطبقات قريش، وصنوف الموالي، وعامة الناس؛ فبايعوا مبايعة رضى واغتباط، بوجه متهلة، وصدور منشرحة، وألبسة داعية شاكرة لله - عز وجل - على ما قلده من أمرهم، وأصاره إليه من رعايتهم، والذب عن حرمتهم؛ قد استبشر جميعهم بيمين نقيته واعتلاء همته، ورجوا ما قد حققه الله لهم من بركة دولته، وصلاح الأحوال على يديه، وتجرده لاستئصال علق الفتنة، والتمهيد الطاعة. وكان الخلاف قد عم أقطار الأندلس، وطبق القاصي والداني منها، واستولي أهل النفاق على كورها ومعاقلها بفترة طاوتهم، وهمل تراخت أيامه بهم؛ فحسم الله - عز وجل - منه على يديه ما سيأتي الخبر عنه، وتصل الحياة له.

وعهد - رحمه الله - بالكاتب ببيعته إلى الكور والأطراف. وولي في يوم مبايعته بدرا مولاه الحجابة مع الوزارة وخطة الخيل، إلى ما كان إليه من خطة البرد. وولي موسى بن محمد الوزارة، إلى ما كان إليه من خطة المدينة. وكان على الكتابة عبد الله بن محمد الزجالي؛ فأقره عليها، وأقر أحمد بن محمد ابن أبي عبدة على القيادة؛ وأقر قاسم بن وليد الكلبي على الشرطة العليا؛ وكان مع ذلك خازنا؛ فصرف الخزانة عنه وولاهها عبد الملك بن جهور. وولي الخزانة أيضا محمد بن عبيدة بن مبشر، ومحمد بن عبد الله بن أبي عبدة، وعزل

عنها عيسى بن شهيد، وولي مكانه سعيد بن سعيد بن حدير. وولي عمر بن محمد ابن غانم، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالي، ومحمد بن سليمان بن وانسوس خطة العرض. وولي محمد بن عبد الله الخروبي خزانة السلاح مع العقل، وحسين بن أحمد الكاتب خزانة السلاح أيضا، ويحيى بن إسحاق ومسلمة بن عبد القاهر المعروف بابن الشرح. ثم ولي - رضي الله عنه - عيسى بن أحمد بن أبي عبدة الشرطة العليا، وصرف عنها قاسم بن وليد الكلبي، وولي فطيس بن أصبغ خطة البيازرة، وصرفها عن الحاجب بدر بن أحمد، إلى أعمال وخطط ولاها من استحق عنه من مومليه ووجوه مواليه.

وأخرج - رحمه الله - عباس بن عبد العزيز القرشي في قطع من الجند إلى برابر كركي وجبل البرانس؛ وأخرج القائد أحمد بن أبي عبدة في من ضم إليه من الجند إلى كورة قبرة لمعالجة من كان في هاتين الجهتين من أهل الشر والفتنة. فالتقى عباس بن عبد العزيز بالفتح بن موسى بن ذي النون بقلعة رباح؛ فهزمه، وقتل كثيرا ممن كان انضوى إليه. وورد كتاب عبيد الله بن فهر عامل قلعة رباح يذكر ظفريه بمحمد بن أردبيلش بناحية عمله؛ وكان من العصاة المفسدين؛ فقتله، وبعث برأسه؛ وكان أول رأس رفع لمارق في دولة أمير المؤمنين - رحمه الله -، وذلك يوم الأحد لعشر خلون من ربيع الآخر. وبدت تباشير الصنع، ودلائل الإقبال على أوائل نظره - رحمه الله

ولثمان بقين من ربيع الآخر، ولي أمير المؤمنين - رضي الله عنه - أحمد بن محمد ابن حدير الوزارة والقيادة؛ وكان قبل ذلك يلي الشرطة الصغرى. وولي هذه الشرطة محمد بن محمد بن أبي زيد. وأجرى الرزق على عبد الرحمن وعبد الله ابني بدر الحاجب، وذلك لكل واحد منهما ثلاثون دينارا وازنة. وولي إسماعيل بن بدر كتابته خاصة، أرتبه لها. وولي - رحمه الله - جهور بن عبد الملك الوزارة وولائها أيضا عبد الله بن مضر. وولي عبد الرحمن بن بدر الخليل، وعبد الله بن محمد بن عبد الخالق بن سودة قضاء كورة إلبيرة. وهو أول قاض خرج إلى كورة في أيامه - رحمه الله - ولأربع بقين من ربيع الآخر، عزب أحمد بن محمد بن أبي عبدة عن الوزارة والقيادة، وابنه عيسى بن أحمد عن الشرطة العليا، وصرف إليها قاسم بن وليد الكلبي؛ وعزل محمد بن وليد ابن غانم عن الوزارة، وعمر بن محمد بن وليد عن العرض.

وفي يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى، افتتحت مدينة إسجدة، ودخلها الحاجب بدر بن أحمد والوزير أحمد بن محمد بن حدير؛ وكان أول موضع افتتح في أيام الناصر - رحمه الله -؛ وضبطت المدينة، وهدم سورها. وبقي أحمد بن محمد الوزير قائدا بها ومسكنا لأحوال أهلها. وولي عمالتها حمدون بن بسيل.

وفي يوم السبت لسبع بقين من جمادى الأولى منها، ولي الوزارة محمد بن عبد الله بن أمية.

ولست خلون من جمادى الآخرة، طلب رجل من المفسدين، يعرف بمحمد ابن يونس الجياني: كان محبوسا في أيام الإمام عبد الله - رحمه الله -؛ فأطلقه أمير المؤمنين الناصر رضه - بعد أن عاهد الله ألا يواقع منكرًا؛ فنكث، وخرج يبغى الفساد في أيامه - رحمه الله! ولتسع بقين من جمادى الآخرة، عزل أحمد بن محمد بن زياد عن قضاء الجماعة بقرطبة، وعن الصلاة، لأمر أنكرت عليه. وتولي القضاء أسلم بن عبد العزيز، والصلاة محمد بن عمر بن لبابة الفقيه.

وفيهما، كانت غزاة أمير المؤمنين - رحمه الله - إلى معاقل جيان، وهي أول غزواته: برز الناصر - رضي الله عنه - من قصر قرطبة يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٣٠٠، وفصل غازيا إلى كورة حيان يوم السبت لسبع خلون من رمضان بعد بروزه بثلاثة وعشرين يوما. واستخلف في القصر موسى ابن محمد بن حدير الوزير صاحب المدينة، وعبد الرحمن بن بدر، ونهض

- رضي الله عنه - في جيوش كثيفة وعدد كاملة. وكان قد نزع إليه قبل فصوله محمد ابن فروة صاحب أبدة في جملة فرسانه؛ فتقبلهم أحسن قبول، وأنزلهم أتم إنزال؛ وصاروا في جملة رجاله ومن يضمه عسكره. وسار - رحمه الله - لوجهه. فلما احتل بحصن مارتش من عمل جيان، ورد الخبر بمضايقة عمر بن حفصون لأهل حاضرة رية، وأنه أطمع نفسه عند تخاذلهم بانتهاز الفرصة فيهم. فوجه لتلافي ذلك سعيد بن عبد الوارث، في قطع من الجند، وأمره أن يغذ السير، ويطوي المراحل، حتى يحتل مدينة مالقة، ويقطع بابن حفصون عما كان رامه منها وأطمع نفسه فيها؛ فتوصل القائد إلى الموضع، وضبطه، وحمى تلك الجهة عن ابن حفصون وحزبه.

ونَهَضَ أمير المؤمنين - رحمه الله - إلى حصن المنتلون واحتله يوم الأحد للنصف من شهر رمضان؛ وحارب سعيد بن هذيل فيه حتى افتتحه يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت منه. وأنزل سعيد بن هذيل من الحصن، وأوسع الأمان. وولي عمله محمد بن عبد الوهاب. ثم تقدم - رحمه الله - إلى حصون شمنتان؛ فاستأمنه عبيد الله بن أمية بن الشالية، وإسحاق بن إبراهيم صاحب منتيشة، وعكاشة بن محصن صاحب وادي بني عبد الله، وسلبة بن عرام صاحب بحيلة، ومنذر بن حريز صاحب بغتورة، وأفلح بن عروس صاحب بكور، وغفلون ابن عبد الله صاحب سانة؛ ونزلوا عن معاقلهم إليه، وكلهم مدعن بطاعته ومحكم في نفسه؛ فأوسعهم أمير المؤمنين - رحمه الله

- فضله، وألبسهم عفو، وأخلى تلك المواضع منهم، وقدم أولادهم ونساءهم إلى قرطبة. واستعمل في الحصون ثقات رجاله. واستنزل عبد العزيز بن عبد الأعلى من حصن الشارة،

ودحّثون بن هشام. ثم انتقل - رحمه الله - منها إلى كورة إلبيرة. فلما احتلها، تداعى أهل حصون تاجلة وبسطة ومريبط والبراجلة والأسناد إلى النزول والطوع، وأخلوا حصونهم. فأحكم الناصر - رحمه الله - أمر ذلك الجانب كله، وضبط المعادل برجاله، وأتقن الجميع بنظره. ثم انتقل - رحمه الله - إلى حصون وادي آش؛ فأخلى أكثرها رهبة له، ونزل على حصن فنيانة يوم الخميس لأربع خلون من شوال؛ وكان فيه من شيعة ابن حفصون من آوى أهله وأصلهم؛ فتمنعوا من النزول، ورجوا أن يعتصموا بوعر الحصن؛ فأحاطت العساكر بهم، وأضرمت أرباضهم نارا؛ فضرعوا في قبول الإنابة، على أن يسلبوا من كان عندهم من شيعة ابن حفصون؛ فاجبيوا إلى ذلك، وتقبض على أصحاب ابن حفصون، وشدوا وثاقا.

ثم انتقل أمير المؤمنين يتقرب تلك المعادل بجهة بشيرة وأجلها، حتى توغل بالعساكر في جبل الثلج، وهو ممتنع السلوك؛ فجازه الناس، ويسر الله ذلك عليهم، وسهله لهم. وافتتحت حصون تلك الجهة، ولم يبق بها معقل ممتنه.

واتصل بأمير المؤمنين - رحمه الله - إنَّ ابن حفصون أقبل في جماعة أصحابه إلى حاضرة إلبيرة، طامعا في انتهاز الفرصة فيها. فأخرج عباس بن عبد العزيز قائدا نحوه. فلما قرب من مدينة غرناطة، أقبل ابن حفصون لما كان رجاء وطمع به؛ فخرج أهل إلبيرة واثقين بالمدد الذي وردهم، والقائد المصرح لهم؛ فهزموا ابن حفصون، وقتلوا جماعة من رجاله، وأسروا عمر بن أيوب حفيده. وجرح أحد أولاده جراحا أثخنه.

وتقصى أمير المؤمنين - رحمه الله - ما كان بقي من معادل تلك الجهة، حتى احتل بحصن شيلش؛ وكان من أعظم حصون ابن حفصون منعة، وأصعبها مراما، وأوعرها مكانا؛ وإليه كان انضوى كلُّ مشرك تغلت من الحصون المتقدمة الذكر فاحتلت العساكر عليه يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيت من شوال؛ فقطعت ثمارهم، واستهلكت زروعهم ومعايشهم؛ وحوصروا خمسة عشر يوما، حتى نادوا بالطاعة، وضرعوا في قبول الإنابة؛ وأسلبوا أصحاب ابن حفصون الذين كانوا عندهم؛ فقتل ذلك أمير المؤمنين - رحمه الله - بالقبول، وأخرج إليه جميع من كان في الحصن من المشركين؛ فأمر بضرب رقابهم حتى أيقوا عن آخرهم.

ثم أمَّ - رحمه الله - مدينة شلوبينية، وفعل فيها مثل فعله فيما تقدم ذكره؛ وضبط برجاله كل حصن افتتحه. وانحسم الداء في كورة إلبيرة، وتألقت كلمتهم، واستقامت طاعتهم. وصدر - رحمه الله - قافلا على طريق حصن أشنين وحصن بنة فراطة؛ وكانا قد أضرا بأهل غرناطة وحاضرة إلبيرة، وهما في غاية الحصانة والمنعة. فنزلت الجيوش عليهما، وأحدثت بهما؛ وحوربوا أشد محاربة وأنكاهما عشرين يوما. ثم أخذت عليهم الحصون وشخت بالرجال. وقفل أمير المؤمنين - رحمه الله - بعد إيعابه النظر في كلِّ ما شخص له من استصلاح أمر كورة جيان وإلبيرة وما والاها، ودخل القصر بقرطبة يوم الأضحى؛ وقد استتم في غزاته اثنين وتسعين يوما. وفي هذه السنة، توفي هشام بن محمد القرشي المعروف بابن الشبانسية.

وفي سنة ٣٠١، توفي بإشبيلية عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج صاحبها، في المحرم؛ فاجتمع أهلها على تقديم أحمد بن مسلمة مكانه؛ وكان من الشجعان فأخرج أمير المؤمنين الناصر - رحمه الله - أحمد بن محمد بن حدير الوزير قائدا نحوها؛ فكان أول من حاربها وأوقع بأهلها. وكان محمد بن إبراهيم بن حجاج عند ذلك بمدينة قرمونة؛ فقصده باب السدة، وعرض نفسه على أمير المؤمنين لمحاربة أهل إشبيلية. فأخرجه لذلك مع قاسم بن وليد الكلبي؛ وحاصرها شهورا. ثم خرج إليها الحاجب بدر بن أحمد؛ فدخلها يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى من هذه السنة، وهدم

أسوارها، واستصلح أمور أهلها، وأخرج مع نفسه سعيد بن المنذر عاملا عليها. وفيها، ولي محمد بن سليمان بن وانسوس الوزارة. ووليا أيضا عيسى بن أحمد بن أبي عبدة. وولي محمد بن عبد الله الخروبي، ومحمد بن أحمد بن حدير، وفند الكبير، ودرى مولي الناصر خطة العرض. وعزل عمر بن أحمد ابن فرج عن السوق، وصرف النظر فيها إلى

محمد بن عبد الله الخروبي؛ وذلك في ربيع الآخر. وولي أحمد بن مسلمة الشرطة العليا. واستقدم محمد بن إبراهيم بن حجاج من مدينة قرمونة، وولي الوزارة، وقعد مع الوزراء يوما واحدا. واستقدم سعيد بن المنذر من إشبيلية، ووليا فطيس بن أصبغ في شعبان وأعيد إلى الشرطة العليا قاسم بن وليد الكلبي. وولي خزانة المال موسى بن سليمان الخولاني المعروف بأبي الكوثر، وعبد الملك بن سليمان أخوه خزانة السلاح.

وفي هذه السنة، افتتح أهل الثغر حصن قلهرة؛ وكان بأيدي المشركين؛ وذلك يوم الأربعاء لثمان عشرة ليلة خلت من ذي القعدة. وفيها، كانت محاصرة لب بن محمد مدينة سرقسطة، وبنيان الردم عليها. وفيها، قتل محمد بن عبد الملك الطويل.

وفيها، خرج الناصر غازيا إلى كورة رية والجزيرة وقرمونة، وهي الثانية من غزواته: برز - رحمه الله - من قصر قرطبة يوم الخميس لثمان خلون من شهر رمضان، وفصل غازيا لثمان خلون من شوال. وتحلف في القصر موسى بن محمد ابن حدير صاحب المدينة. وكانت الكتب تنفذ إلى هشام الولد - رضي الله عنه -، وهو ضغير. فكان أول مقصده حصن طرش، بعد أن قدم حاجبه بدر بن أحمد في قطع من الجند إلى حصن بلدة؛ فألقى أهله غرة، وقتل منهم، وسبي، وأسر جملة كثيرة. واحتل الناصر - رضي الله عنه - بجيوشه على حصن طرش يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال؛ فحصر من كان فيه، وأقام عليه خمسة أيام، يغاديهما الحرب ويماسيهما، ويقطع ثمارهم، ويحطم معاشهم، ويقتل من تظاهر منهم. ثم أبقى عليها من يحاصرها، وتنقل إلى حصون رية ومعاقل ابن

حفصون، يتبعها معقلا معقلا، وينزل نأسه ومعة جيوشه بكل ما ينزل به منها. وأوقع بآبن حفصون ومن انخشد إليه من النصرانية في حصن طرش وقبعة عظيمة ذهب فيها كثير منهم. وبعث برؤوسهم إلى قرطبة. وألقيت للشرك عمر بن حفصون مراكب في البحر، كانت غميره من العذرة؛ فأحرق جميعها. وسارع كل من كان بتلك الناحية من أهل شانز، وفج وسيم، وقليرة، والقصر، وما انتظم بها من أحواز الجزيرة إلى الدخول في الطاعة والاعتصام بها من الهلكة؛ فقبلهم الناصر - رضي الله عنه - وأمنهم، وسكن أحوالهم. وتنقل منها إلى حاضرة الجزيرة؛ ثم إلى كورة شذونة؛ ثم إلى كورة مورور، حتى أوفى على مدينة قرمونة؛ فاحتلها يوم الثلاثاء مستهل ذي الحجة. وكان حبيب بن سودة قد أظهر الخلاف فيها عند قدوم محمد بن إبراهيم بن حجاج قرطبة؛ فنازلته جيوش أمير المؤمنين - رحمه الله - وحوصر بها عشرين يوما، حتى عضته النكاية، وأخذت بمخنقة المحاصرة؛ ثم استأمن؛ فأمن، وسأل أن يمهل لا تنقل أهله وثقله إلى قرطبة؛ فأجابته الناصر - رحمه الله - إلى ذلك، ولم يرهقه من أمره عسرا؛ وقفل إلى قرطبة؛ فدخلها يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة وقد استتم في غزاته اثنين وثمانين يوما.

وفي هذه الغزاة، بعث في قاسم بن وليد الكلبي صاحب الشرطة، وكان قد خلف قرطبة؛ فسجن وسجن معه محمد بن إبراهيم بن حجاج، ومحمد بن وهيب، وعبيد الله بن محمد الرهاني، وسكن بن جديدة. وعزل ابن مسلمة عن الشرطة العليا، ووليا عباس بن أحمد بن أبي عبدة.

وفيها، استقود الناصر عيسى بن أحمد بن أبي عبدة، وأعادته إلى كورة إشبيلية. وفي هذه السنة، توفي عبد الله بن محمد الزجالي الوزير الكاتب، في ربيع الأول؛ فولي رسم الكتابة عبد الله بن بدر؛ وكان سكن بن إبراهيم، وعمر بن ناجيت كاتب بدر الحاجب يقيم خدمه الكتابة.

وفيها، توفي العاصي ابن الإمام محمد - رحمه الله - في ربيع الأول، وهو ابن ثلاث وستين سنة. وتوفي عباس بن عبد العزيز القرشي في جمادى الأولى. وتوفي الوزير أبو الحارث سلمة بن علي، ومحمد بن وليد بن غانم الوزير، وأيوب بن سليمان بن صالح الفقيه، وسعيد بن حمير الفقيه.

وفيها، قتل بيرشلونة عبد الملك بن عبد الله بن شبريط. وأغار المشركون بوادي الحامة في الثغر. وكانت ملحمة أرنيط يوم الأحد لعشر بقين من شعبان، وهلك فيها غرسية بن إذفنش صاحب حليقية؛ وصار الأمر إلى أخيه أردون ابن إذفنش.

وفي سنة ٣٠٢، كانت ولادة أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله - أطال الله بقاءه - ابن أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد - رضي الله عنه - وذلك يوم الجمعة مستهل رجب وقت أذان الظهر.

وفيها، أغزى أمير المؤمنين الناصر - رحمه الله - في الصائفة عمه أبان ابن الإمام عبد الله؛ ففصل في شوال إلى كورة رية، وتردد بالجيش فيها، ونازل حصونها، وحطم زروعها، وقطع ثمارها.

وفيها، أمحل الناس، وتوالى القحط وعم. فبرز إلى مصلى الربض محمد بن عمر بن لبابة صاحب الصلاة، واستسقى بالناس خمس مرات في أيام مختلفة؛ فلم تكن سقيا؛ وغلت الأسعار، وقلت الميرة في الأسواق. ثم برز أحمد بن أحمد ابن زياد للاستسقاء بالناس يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال، وهو أول شهر ماية؛ فنزل رذاذ تماسك به بعض الزرع، وذهب الأكثر. وكان القحط عاما شاملا بالأندلس وأطرافها وثغورها؛ وغلت الأسعار في جميع جهاتها.

وفي هذه السنة، قدم الناصر - رحمه الله - محمد بن عبد الله الخروبي من ولاية السوق إلى ولاية المدينة، وعزل عنها موسى بن محمد بن حدير. وولي

السوق أحمد بن حبيب بن بهلول، وذلك يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شوال؛ وفي هذا اليوم عزل عبد الله بن بدر عن الكُتَّاب، ووليا عبد الملك بن جهور؛ وعزل محمد بن محمد بن أبي زيد عن الشرطة الصغرى ووليا يحيى بن إسحاق.

وفيها، عزل عبد الرحمن بن بدر عن خطة الخيل، ووليا عبد الله بن مضر. وفيها، ولي المواريث قند ودرى موليا أمير المؤمنين الناصر. وفي يوم الأحد مستهل ذي الحجة، قتل عباس بن أحمد بن محمد بن أبي عبدة صاحب الشرطة العليا؛ وكان أمير المؤمنين الناصر - رحمه الله - قد أرتبه على محاصرة منت روبي؛ فواقعه ضربة في حرب باشرها وغرَّر بنفسه فيها. فولي الناصر أخاه عبد الله بن أحمد بن محمد الشرطة العليا، وولي محمد بن محمد ابن أبي عبدة خزنة المال.

وفيها، توفي مروان بن المنذر ابن الإمام عبد الرحمن بن الحكم - رحمه الله - يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة؛ وكان قد توفي قبله عمر ابن الإمام عبد الرحمن لست بقين من جمادى الأولى.

وفيها، توفي سعيد بن السليم؛ وكان حاجبا في أيام الإمام عبد الله - رحمه الله - وكانت وفاته لأربع خلون من ربيع الآخر. وتوفي النضر بن سلمة، وكان قاضيا في أيام الإمام عبد الله، وذلك يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة. وفيها، توفي عبيد الله بن محمد بن أبي عثمان لثلاث خلون من شهر رمضان. وتوفي حمدون بن بسيل في شعبان، وعبد الله بن محمد بن عبد الخالق الغساني قاضي إشبيلية لست بقين من جمادى الأولى. وتوفي الفقيه خالد بن وهب يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الآخر؛ وفيها، توفي محمد بن يحيى النحوي المعروف بالقلقاط في جمادى الآخرة؛ وكان من العلماء الحفاظ والشعراء الفصحاء؛ وكان هجاء للناس، سبابة للأشراف، كثير البذاء والسفه في شعره.

وفي سنة ٣٠٣، كانت المجاعة بالأندلس، التي شبت بمجاعة سنة ستين؛

وبلغت الحاجة بالناس مبلغا لا عهد لهم بمثله؛ وبيع قفيز قح بكيل سوق قرطبة بثلاثة دنائير دخل أربعين. ووقع الوباء في الناس، وكثر الموتان في أهل الفاقة والحاجة، حتى كاد أن يعجز عن دفنهم. وكثرت صدقات أمير المؤمنين الناصر - رحمه الله - على المساكين في هذا العام، وصدقات أهل الحسبة من رجاله؛ فكان الحاجب بدر بن أحمد أكثرهم صدقة، وأعظمهم بماله مواساة. ولم يمكن في هذا العام، لضيق الأحوال فيه، أن يكون غزاة أو إخراج جيش، غير أن الناصر - رضه - أخذ بالجد والحزم في ضبط أطرافه، والتحفظ بالمسلمين من عادة أهل الخلاف والخلعان، إذ كانوا مع استيلاء الجوع يغاورون من قرب منهم، ويغدرون على من مر بهم من رفاق المسلمين وطلبي المعاش ومستجلي المير.

وفي هذه السنة، ولي إسحاق بن محمد القرشي الوزارة؛ وكان ذا رأي وعناء. وفيها، ولي محمد بن محمد بن أبي زيد الشرطة العليا؛ وكان يلي الشرطة الصغرى من قبل.

وفي هذه السنة، توفي أبان ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من جمادى الآخرة. وهو ابن خمس وخمسين سنة؛ ودفن بمقابر قریش في الربض. ومات فيها لأمر المؤمنين الناصر - رضي الله عنه - ولد يسمى هشاما ويكنى بأبي الوليد؛ وكان بكر ولده.

وتوفي فيها أحمد بن هشام ابن الإمام عبد الرحمن بن الحكم - رحمه الله - يوم الجمعة لعشر بقين من شوال؛ والقرشي العثماني الطارئ من

المشرق في أيام الإمام عبد الله بن محمد - رحمه الله - وذلك يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رمضان. وتوفي القرشي العبدى ثلاث عشرة ليلة خلت من شهر شعبان. وتوفي يحيى بن إسحاق بن يحيى بن أبي عيسى الفقيه؛ وكانت له رحلة روى فيها الحديث؛ ولم يكن بالثقة، غير أنه كان نبيلاً مفوهاً. وتوفي فيها الفقيه النيري، واسمه أحمد بن عبد الله بن فرج. وتوفي أحمد بن بيطير الفقيه يوم الخميس لليلتين هلتا من ذي الحجة. وتوفي فيها مفوز بن غريب. وفيها، أسر مطرف بن محمد بن لب بن قسي؛ أسره العدو بالثغر. وفيها، توفي بالثغر عبد الله بن محمد بن لب بن قسي؛ وكان من أهل البأس والشجاعة والنكاية للعدو. وقتل ابنه محمد بن عبد الله عمه مطرفاً. ووقعت بين بني لب فتون وحروب، واختلف أمرهم. ومات في هذا العام بقرطبة جملة من وجوهها وبياض أهلها، يطول الأخبار عنهم والاجتلاب لهم، إلى من مات في الكور والمواقع البعيدة ممن لم يأخذه إحصاء ولا عد. وكانت للعدو مع بني قسي جولات في الثغر هذا العام. وفي سنة ٣٠٤، كان إغزاء أمير المؤمنين الناصر لدين الله - رضي الله عنه - أحمد بن محمد بن أبي عبدة القائد إلى أرض الحرب. وفصل يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم، وهو اليوم الثامن عشر من يولييه، وضم إليه من الموالي والأجناد عدد كثيراً. ودخل أرض المشركين؛ فبكي، وغنم، وسبي؛ وخرج من أرض العدو بالمسلمين سالمين غانمين. وفيها، ولي عبد الحميد بن بسيل الخزانة. وفيها، غزا إسحاق بن محمد القرشي إلى كورة تدمير؛ فافتتح حصن أوربالة واستصلح أحوال أهل الكورة. وفيها، ولي فطيس بن أصبغ الخزانة ولايته الأولى. وفيها، غزا الحاجب بدر بن أحمد إلى مدينة لبلة؛ فحاصرها وافتتحها يوم الاثنين لعشر بقين من شهر رمضان. وفيها، عزل عبد الملك بن جمهور عن الكاية، ووليها عبد الحميد بن بسيل؛ ولم يطل أمد ولايته؛ ثم أعيد إليها عبد الملك بن جمهور. وفيها، ولي إسماعيل بن بدر العرض. وفيها، نُقل علي بن حسين عن خزانة السلاح إلى خطة العرض، لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر. وفيها، ولي العرض محمد بن عبد الله بن مضر. وفيها، توفي منذر ابن الإمام المنذر - رحمه الله - سلخ شعبان؛ وكان مولده بعد موت أبيه إلى ستة أشهر؛ وعبد الملك بن حوزة القرشي، يوم الثلاثاء لتسع خلون من ربيع الآخر؛ وأخوه الأحذب، وكان يتنجم، في عقب ربيع الآخر؛ والعارض صاحب المواريث قند مولى أمير المؤمنين الناصر، يوم الثلاثاء لثلاث خلون من رجب؛ فولي مكانه المواريث إسماعيل بن بدر. وتوفي المؤدب محمد بن أرقم يوم الجمعة لست خلون من رجب؛ وفيه توفي الولد محمد ابن أمير المؤمنين الناصر - رحمه الله - والولد سليمان الأكبر. وفي عشر خلون من شوال من هذا العام، ولد الولد أبو مروان عبيد الله شقيق أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله - أيده الله! وفيها، توفي الفقيه الزاهد أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الزراد لأربع خلون من جمادى الأولى؛ مولده سنة ٢٤٢؛ وكان قد روى علم ابن وضاح. وتوفي الفقيه المحدث طاهر بن عبد العزيز الرعيني. وتوفي أبو القاسم محمد بن عبد السلام بن قلمون ليلة الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر؛ وكان نبيلاً، مرسلار، حسن الخط؛ وولي الخزانة؛ وكان له لسان وبيان. وفي سنة ٣٠٥، غزا بالصائفة إلى دار الحرب أحمد بن محمد بن أبي عبدة الوزير القائد؛ وفصل يوم الاثنين لعشر خلون من صفر. وخرج معه طبقات الناس من المجاهدين وأهل الديوان؛ وحشد إليه رجال الثغر؛ فدخل أرض العدو في جمع كبير، ونازل حصن قاشتر مورش الأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول. وجد المسلمون في محاربة المشركين حتى كانوا قد أشرفوا على الظفر بمن كان في الحصن؛ فاحتشدت النصرانية من جميع جهاتها مدين لكفرتهم، ومجلبين على المسلمين بخيلهم ورجلهم. فتداعى بعض أهل المداينة في الدين من أهل الثغر إلى إظهار الهزيمة وجروها على المسلمين؛ فانهزم كثير

١٦٠١ ذكر موت عمر بن حفصون

منهم. وثبت القائد أحمد بن محمد بنفسه، وأظهر الصبر، ودافع مدافعة الوطن. وقيل إنه كان قد اعتقد مذهبا في طلب الشهادة؛ فاستشهد القائد المذكور الأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول. واستشهد من المسلمين معه من أثر الشهادة ورغب عن خزي الفرار. ولم يول المشركين دبرا، ولا أراهم نكوصا ولا فرارا. وانعقد سائر أهل الجيش، وصاروا يدا واحدة؛ فسلموا وخرجوا إلى أرض المسلمين بدوابهم وأثقالهم وأبنيتهم.

وفيها، غزا إسحاق بن محمد الوزير إلى مدينة قرمونة؛ فحاصر فيها حبيب بن عمر، وضايقه، وأخذ بمخنقه. ثم خرج إليها الحاجب بدر بن أحمد؛ فتمادى على حصارها حتى فتحها قسرا، ودخلها يوم الخميس لخمس خلون من ربيع الآخر.

ذكر موت عمر بن حفصون

وفي هذه السنة، هلك عمر بن حفصون، عميد الكافرين، ورأس المنافقين، وموقد شعل الفتنة، وملجأ أهل الخلاف والمعصية. فعد هلاكه من أسباب الإقبال، وتباشير الصنع، وانقطاع علق المكروه. ولما توفي افتتحت أبدة البيرة، وهي المعروفة بأبدة فروة؛ وكان فيها سليمان بن عمر بن حفصون؛ فاستنزل عنها، وقدم به قرطبة يحيى بن إسحاق في شوال؛ فأنزل وتوسع له.

وفيها، ولي الوزارة عبد الملك بن جهور يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال. وفيها، توفيت البهاء بنت الإمام عبد الرحمن بن الحكم - رحمه الله - في رجب؛ فلم يتخلف أحد عن جنازتها. وتوفيت للناصر - رضي الله عنه - ابنة تسمى بعائشة. وفيها، توفي سعيد بن عبد الوارث الأيسر؛ وكان من أهل الشجاعة والعناء في الخدمة. وتوفي الفقيه محمد بن إبراهيم المحدث المجازي. وتوفي عمر بن أحمد بن فرج؛ وكان كاتب الرأي؛ وولي السوق.

١٦٠٢ غزوة مطونية

وفي هذه السنة، حشد أردون بن إذفنش، وشائجه بن غرسية صاحب النصرانية، بجليقية وبنبلونة، وخرجها في جموعهم واحتفال من كفرتهم إلى مدينة ناجة بالثغر الأقصى؛ فنزلا عليها في عقب ذي الحجة، وأقاما عليها ثلاثة أيام. وعانت النصرانية في ذلك الثغر. وأفسدت الزروع؛ ثم تنقلت إلى تطيلة. وبلغ العدو إلى نهر مالس، وجزائر مسقبرة، ووادي طرسونة. وخلف شائجة نهر إبرة، وقاتل حصن بلبيرة، وقهره على أهل الرض، وأحرق المسجد الجامع؛ فكان ذلك مما أحفظ الناصر وحركة لمجاهدتهم والأنصار منهم، على ما سيأتي ذكره.

غزوة مطونية

وفي سنة ٣٠٦، كان غزاة الحاجب بدر بن أحمد إلى دار الحرب، وهي غزاة مطونية. وكان أمير المؤمنين الناصر - رضي الله عنه - لما اتصل به تطاول المشركين على من كان بازائهم من أهل الثغور بامتناع الصوائف عن غزوهم، والإيغال في بلادهم بالحرب المتقدم الذكر، أحفظه ذلك، وأذكى عزمه، وأكد بصيرته في مجاهدة أعداء الله وأعداء دينه في هذا العام؛ فأمر بالاحتفال في الحشد وجمع الرجال والتكثير من الأجناد والفرسان الأبطال. وعهد إلى حاجبه بالغزو بنفسه في الصائفة. ونفذت كتبه إلى أهل الأطراف والثغور بالخروج إلى أعداء الله، والدخول في معسكره، والجد في نكاية أهل الكفر، والإيقاع بهم في أواسط بلادهم، ومجتمع نصرانيتهم. ففصل الحاجب بالجيش، يوم الثلاثاء لخمس بقين من المحرم؛ وانثالت إليه العساكر من كل جهة في أرب ثغور المسلمين؛ ودخل بهم دار الحرب، وقد انحشد المشركون، وتجمعوا من أقاصي بلادهم، واعتصموا بأمنع أجبلمهم؛ فنازلهم الحاجب بدر بن

١٦٠٣ غزاة الناصر لدين الله إلى بلدة

أحمد بأولياء الله وأنصار دينه؛ فكانت له على أعداء الله وقائع اشتفت فيها صدور المسلمين، وانتصروا على أعداء الله المشركين. وقتل في هذه الغزاة من حمايتهم، وأبطالهم، وصلاة الحروب منهم، جملة عظيمة لا يأخذها عدٌّ، ولا يحيط بها وصف. وكان الفتح يوم الخميس ثلاث خلون من ربيع الأول ويوم السبت نحس خلون من ربيع الأول، في معارك جليلة، لم يكن أعظم منها صنعا، ولا أكثر من أعداء الله قتيلا وأسيرا. وورد الكتاب بذلك على أمير المؤمنين الناصر - رضي الله عنه - يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول؛ فأكثر من شكر الله عز وجل على ما منَّ به، وفتح فيه. وقرئ (كتاب الفتح) في الجوامع وكتب به إلى الأطراف. وفي يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، في العام المؤرخ، ولد أبو الأصبع عبد العزيز بن عبد الرحمن، شقيق أمير المؤمنين المستنصر بالله - أيده الله -.

غزاة الناصر لدين الله إلى بلدة

وفي شهر ذي الحجة من هذه السنة، غزا الناصر بنفسه مدينة بلدة من كورة رية؛ فبرز لها يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة؛ وفصل يوم الثلاثاء للنصف من ذي الحجة بعد بروزه بستة وعشرين يوما؛ وتخلّف في القصر بقرطبة ابنه وولي عهده وقبلة الآمال من بعده، أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله - أبقاه الله - ومن الوزراء موسى بن محمد بن حدير. فلما قرب الناصر من مدينة بلدة، قدم من ثقات رجاله، وإخفاء أجناده من يمنح إماكن زرعها وموضع المضطرب عليها؛ فألقى الزرع متأخرا؛ وأنته الأنباء بإماكن زروع فخص رعين؛ فرأى التعريج إليه بعد أن أمر بابتناء صحرة فوزان، لتكون موفية على بسيط بلدة. ثم ارتحل إلى حصن دوش امانتش؛ فزاله وحاربه حتى افتتحه. ثم نهض إلى مدينة بلدة؛ فاحتلها يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذي الحجة، وأحاطت العساكر بها؛ فتداعى من كان من المسلمين فيها إلى النزول بأنفسهم وذرائعهم؛ وذكروا أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم؛ فأمنهم الناصر، وقاتل الكفرة المتغلّقين في المدينة، حتى أظفره الله بهم؛ فقتلوا عن آخرهم وملكت المدينة، وتدب فيها الرجال. ثم انتقل إلى حصون رية، يتقرّأها معقلا معقلا، ويفتتح ما مر به منها. ونزل على جبل ببشتر؛ فحاصر أهله، وقطع ثمراتهم، واستبلغ في نكايتهم؛ فسأله جعفر بن عمر بن حفصون قبض رهائنه، استيثاقا من طاعته، على أن يؤدي من الجباية ما فرض عليه؛ فأجابه الناصر إلى ذلك، وفيضت رهائن جعفر وشيعته، وصارت في قبضته وداخل معسكره. ثم قفل الناصر لدين الله عن جبل ببشتر، ودخل القصر ثلاث بقين من المحرم من سنة ٣٠٧، وقد استتم في غزاته أربعين يوما.

وفي هذه السنة، عهد الناصر بعمل الفوّارة إزاء باب القصر المعروف بباب العدل، وإقامة محراب مصلّى المصاراة بقرطبة. وفيها، توفي عبد الله بن كليب بن عبد السلام، نحس خلون من ربيع الآخر. وفيها، توفي للناصر ابن يسمى بمحمد، ويكنى بأبي القاسم. وفيها، توفيت رقية ابنة الإمام محمد. وتوفي فيها موسى بن أزهر الفقيه الإسنجي ثلاث خلون من ربيع الأول؛ وكان من أهل الفصاحة والبيان والخط الحسن. وتوفي فيها حزب الله بن ربايعي بن عبد الله الخشني الزاهد، وكانت له رواية.

وفي سنة ٣٠٧، كان احتلال الناصر أمير المؤمنين بمدينة ببشتر، على ما تقدم ذكره في العام قبله، ودخوله قرطبة قافلا من غزاته في التاريخ المتقدم ذكره.

وفي هذه السنة، افتتح حصن طرش؛ وكان فيه عبد الرحمن بن عمر بن

١٦٠٤ غزاة مویش

حفصون؛ فأسلم الحصن إلى رجال أمير المؤمنين الناصر لدين الله، ودخل قرطبة؛ فأنزل ووسع عليه. وكان غير داخل في الحرب والفتنة مدخل أبيه؛ وإنما كان صاحب كتب، وكان حسن الخط ضعيف العقل. قال عريب: وقد صار بعد ذلك وراقا. وفيها، ولي أمير المؤمنين الناصر محمد بن عبد الله بن محمد الزجالي خزانة المال لتسع خلون من شهر رمضان.

وفيهما، توفي محمد بن أحمد بن زياد، يوم السبت لأربع عشرة خلت من رجب؛ وكان جارا لمحمد بن وضاح الفقيه؛ فأوصى أن يصلي عليه؛ فقام له بذلك ذكر. وفيها، مات محمد بن سليمان بن وانسوس الوزير، يوم الجمعة لعشر خلون من شهر رمضان. وفيها، مات حمدون بن بسيل وفيها، أمر الناصر بقتل موسى بن زياد، ليلة السبت لاثني عشرة ليلة خلت من صفر؛ وكان قد ولي الوزارة في أيام الإمام عبد الله، وكثرت مطالبته للناس، ورفع عليهم، وتحككه بهم؛ وكان يجاهر بكراهة أمير المؤمنين الناصر، ويرفع عليه إلى جده - رحمهما الله -، ويغري الإمام عبد الله برجاله؛ فحبسه أمير المؤمنين الناصر في يوم بيعته؛ ولم يزل محبوسا إلى أن أمر بقتله؛ وقتل معه حبيب بن عمر بن سودة، وولده، ومحمد بن وليد المعروف بالغليلي؛ وكانت لهم ذنوب وجرائم أحرده عليهم.

غزاة مویش

وفي سنة ٣٠٨، كان غزاة أمير المؤمنين الناصر إلى دار الحرب، وهي غزاة مویش؛ فبرر - رحمه الله - لهذه الغزاة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة ٣٠٧؛ ثم فصل غازيا من قصر قرطبة يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ٣٠٨، وهو اليوم الثالث من شهر حزيران،

ذلك بعد بروزه بثلاثين يوما. وتخلف في القصر ولي عهده الحكم أمير المؤمنين المستنصر بالله - أيده الله - ومن الوزراء موسى بن محمد بن حدير. فلما كان في اليوم الرابع من فصوله، ونزل بمخاضة الفتح، ورد عليه بها كتاب فتح من قبل عامل مدينة الفرج، يذكر أن المشركين من أهل جليقية أتوهم في جمع كثير؛ فأغاروا على ما لاقوه في بسيطهم من الدواب والسوام، ثم عرجوا على حصن بقربهم، يعرف بالقليعة؛ فأحدقوا به طامعين في التغلب عليه؛ فانحشد إليهم جميع أهل المدينة بفارسهم وراجلهم، وواضعوهم القتال بأثبت بصائرهم؛ ففتحهم الله - عز وجل - أكثاف الكفرة، وأطال أيديهم عليهم؛ فقتلوا وأسروا كثيرا منهم، واتبعوهم من أول النهار إلى آخره، والسيف يعمل فيهم، وبعثوا بجملته من رؤوسهم؛ فاستبشر الناصر بما وردته وتقال باسم المحلة التي كان فيها عند ورود الفتح عليه.

ونهب آما لوجهته، والحشود والعساكر تتلاحق به من سائر أقطار الأندلس، وجميع جهاتها. ونزل - رحمه الله - على مدينة طليطلة، وخرج إليه لب بن الطريشة صاحبها، مبادرا إليه، وغازيا معه؛ وكان يظهر طاعة تحتها معصية. ثم تنقل - رحمه الله - في مناقله، حتى نزل بمدينة الفرج؛ فنظر لأهلها، وعزل بني سالم عنهم، إذ شكوا بهم. واستوزر - رضي الله عنه - في هذه المحلة سعيد بن المنذر، وقدمه قائدا وضابطا لمدينة الفرج، وأغراه مع نفسه، واستعمل على الموضع ابن غزلان القرشي صهره، واستقصى عليهم محمد بن مسور الفقيه. فصلحت أحوالهم، وعم الرضى جميعهم؛ وخرج للجهاد أكثرهم. ونهب أمير المؤمنين الناصر - رحمه الله - في جيوش تغص بها السبل، ويضيق بها القضاء الأوسع، حتى احتل بثغر مدينة سالم، وأظهر - رحمه الله - التوجه إلى الثغر الأقصى. وقدمت المقدمة نحوه. ثم عرج بالجيوش إلى طريق آية والقلاع، وطوى من نهاره ثلاث مراحل، حتى احتل بوادي دوبر؛ فاضطربت العساكر

فيه، وباتت عليه. ثم أخرج صباح تلك الليلة سعيد بن المنذر الوزير، في جرائد الخيل وسرعان الفرسان، إلى حصن وخشمة؛ فأغذ السير حتى قرب من الحصن، وسرح الخيل المغيرة يمنة ويسرة، والمشركون في سكون وغفلة، إذ كان العليج الذي يلي أمورهم قد كاتب أمير المؤمنين - رحمه الله -، مكائدا له في إزاحته عن بلده بمواعيد وعداها من نفسه؛ فأظهر أمير المؤمنين - رحمه الله - قبول ذلك منهم، وأضر الكيد بهم؛ فغشيتهم الخيل المغيرة على حين غفلة، وأصابوا نعمهم وسوامهم ودوابهم مسرحة مهلمة؛ فاكتسحوا جميع ذلك، وانصرفوا إلى العسكر سالمين غانمين. فلما كان في صباح يوم الجمعة لاثني عشرة ليلة بقيت من صفر، اندفعت الخيل في أكل تعبئة، وأهذب ترتيب، وأوكد ضبط، وأبلغ حزم وعزم، إلى حصن وخشمة؛ ففر عنه الكفرة، وأخلوه، ولاذوا بالغياض الأشبة، والصخور المنقطعة. ودخل المسلمون الحصن، وغنموا جميع ما فيه وأضرموه نارا. وبات أمير المؤمنين - رحمه الله - في محله على وخشمة ليلة السبت؛ ثم رحل عنها في اليوم الثاني إلى حصن قاشتر مورش، وهي شنت أشتين، بيضة المفر، وقاعدتهم، والموضع الذي كانوا تعودوا فيه الاستطالة على من وردهم. فلما رأوا أن أنصار دين الله قد أطلوهم، وأولياءه قد يمددوا نحوهم، أخلوا الحصن وخرجوا هاربين عنه؛ فدخله المسلمون، وغنموا جميع ما فيه؛ وخرّبوا حصن القبيلة المجاور له، ولم يترك لأعداء الله في تلك الجهة نعمة يأوون إليها.

واضطرب العسكر بشرقي حصن قاشتر مورش. وبات المسلمون ليلة الأحد بأسر ليلة كانوا بها، والحمد لله. ثم انتقل أمير المؤمنين - رضي الله عنه - في صبيحة اليوم الثاني من مكان المضطرب شرقي الحصن إلى غريبه، ولم يكن بين الموضعين إلا قدر ميل؛ فكسر العسكر في ذلك المكان يوم الأحد متقصيا لآثار الكفرة، ومستبيحا لنعمهم. ثم ارتحل إلى مدينة لهم أولية تعرف بقلونية، وكانت من أمهات مدنهم؛ فلم تمر الجيوش إليها إلا على قرى منتظمة وعمارة بسيطة؛ فغنمت جميع ما كان بها، وقتلت من أدركت فيها، حتى أوفت العساكر على المدينة؛ فألقيت

خالية، قد شرد عنها أهلها إلى الأجل المجاورة لهم؛ فغنم المسلمون جميع ما أصابوا فيها، وعملت الأيدي في تخريب ديارها وكائسها. وكسر الناصر - رحمه الله - عليها ثلاثة أيام، مطاولا لنكاية المشركين، وانتساف نعمهم. ثم ارتحل - رحمه الله - من مدينة قلونية يوم السبت لخمس بقين من صفر إلى ثغر تطيلة، لغياث صريح المسلمين به، إذ كان العليج شانجه قد ضايقهم، وتردد بكفرته عليهم؛ فأخذ الناصر - رحمه الله - بالرفق في نهوضه، لئلا يعنف على المسلمين بحث السير مع اتصال سفرهم؛ فاستقبل بالجيوش قطع المفاز الأعظم، مسائرا لوادي دوير، وقطع في ذلك خمس محلات، حتى احتل حوز تطيلة؛ ثم قدم الخليل مع محمد ابن لب عاملها إلى حصن قلهرة الذي كان اتخذ شانجه على أهلها. فلما قصدته الخليل، أخلاه من كان فيه، وضبطه المسلمون.

ثم نهض - رحمه الله - إلى حصن قلهرة. وكان شانجه قد اتخذ معقلا، وتبوأه مسكنا. فلما فجأت العساكر، أخلاه العليج، وزال عنه؛ فغنمه المسلمون بأسره؛ وكسر الناصر - رحمه الله - عليه يومين حتى خرب جميعه، وانتسف كل ما كان حواله. ثم رحل بالجيوش يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأول إلى دي شره، وأجاز إليها وادي إبره؛ فخرج شانجه من حصن أرنيط في جموعه وكفرته، متعرضا لمن كان في مقدمة العسكر؛ فتبادر إليه شجعان الرجال، تبادر رشق النبال؛ فانهزم الكفرة، وركبتهم الخليل، تقتل وتجرح، حتى تواروا في الجبال، ولاذوا بالشعاب وأيقنوا بالدمار والهلاك. وحيز كثير من رؤوس المشركين؛ فقتلوا بها أمير المؤمنين - رحمه الله -، ولا علم عنده المعركة التي دارت بينهم وبين أعداء الله. واضطرب العسكر بهذا الموضع، وبات المسلمون ظاهرين على عدوهم، ومنبسطين في قراهم ومزارعهم.

وورد الخبر على الناصر - رحمه الله - باجتماع العليجين أرذون وشانجه، واستمداد بعضهما ببعض، طامعين في اعتراض المقدمة، أو انتهاز فرصة في

الساقة. فأمر الناصر - رحمه الله - بتعبئة العساكر، وضبط أطرافها؛ ثم نهض بها موغلا في بلاد الكفرة؛ فتطللوا على كدي مشرفة وأجبل منيعة؛ ثم تعرضوا من كان في أطراف الجيش، وجعلوا يتصاحبون، ويولولون ليضعنوا من قلوب المسلمين؛ فعهد الناصر - رحمه الله - بالنزول والاضطراب وإقامة الأبنية. ثم تبادر الناس إلى محاربة الكفرة، وقد أسهلوا من تلك الأجل؛ فواضعوهم القتال، واقتحم عليهم حشم أمير المؤمنين ورجاله وأبطال الثغر وحماته، ويضعون أسلحتهم فيهم، ويمطرون رماحهم عليهم، حتى انهزم المشركون، لا يلوون على مكان مضطربهم، ولا يهتدون لوجه متقلبهم، والمسلمون على آقارهم، يقتلون من أدركوا منهم، حتى حجز الظلام بينهم. ولجأ عند الهزيمة أزيد من ألف عالج إلى حصن مویش، ورجوا التمتع فيه. فأمر الناصر بتقديم المظل وأبنية العسكر إلى الحصن؛ فأحبط به من جميع جهاته، وحوربوا داخله حتى تغلب عليه، واستخرج جميع العلوج منه، وقدموا إلى الناصر - رحمه الله -؛ فضربت رقاب جميعهم بين يديه، وأصيب في الحصن والمحلة التي كانت للكفرة بقربه من الأمتعة والأبنية والحلية المتقنة والآنية ما لا يحصى كثرة؛ وأصيب لهم نحو ألف وثلاثمائة فرس. وكسر أمير المؤمنين - رحمه الله - بهذه المحلة أربعة أيام، يغير جميع ما حوالها من نعم المشركين وثمراتهم ومزارعهم؛ ثم انتقل - رحمه الله - يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول إلى حصن كان اتخذ شانجه على أهل بقرية؛ فألقاه خاليا، قد فر عنه أهله؛ فعهد بهدمه، ولم يبرح أمير المؤمنين - رحمه الله - من محلته هذه حتى انتقل إلى حصن بقرية من أطعمة الكفرة ألف مدي تقوية لأهله.

ثم انتقل إلى حصون المسلمين يسكنها وينظر في مصالح أهلها؛ فكلما ألفى بقرها معقلا للمشركين، هدمه وأحرق بسيطه، حتى لقد اتصل الحريق في بلاد المشركين عشرة أميال في مثلها. واجتمع عند الناس من الأطعمة والخيرات ما عجزوا عن حمله، ولم يجدوا لها ثمنا تباع

بع؛ وكان القمح في العسكر تبذل

سنة أفقره بدرهم؛ فلا يوجد من يشتريه؛ فجمعت الأطعمة وأدخلت النار إليها حتى أخرجت عن آخرها. وقفل الناصر - رحمه الله - يوم الثلاثاء. لثلاث بقين من ربيع الأول، حتى انتهى إلى مدينة أنتيشة؛ فكسر - رحمه الله - بها يوما، ووصل رجال الثغر، وكساهم، وحملهم، وأذن لهم في الرجوع إلى مواضعهم. وبعث إلى قرطبة من رؤوس الكفرة التي أصيبت في المعارك المذكورة أعدادا عظيمة، حتى لقد عجزت الدواب عن استيفاء حملها. ودخل - رحمه الله - القصر بقرطبة يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الآخر، وقد استكمل في غزاته هذه تسعين يوما.

وفي هذه السنة، بعد القفل، عزل الناصر - رحمه الله - محمد بن محمد بن أبي زيد عن الشرطة العليا، وولاهها دريا مولا. وفي هذه السنة، قتل جعفر بن عمر بن حفصون بجبل ببشتر، قتله أصحابه غيلة، ودخله أخوه سليمان وضبطه. وفيها، ولي العرض عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي.

وفيها، افتتحت المندات بحذر فرطمة من كورة رية، وبني حصن فاشتره ذكوان، وألزمه الرجال والقوة. وفي هذه السنة، توفي أبو عمرو سعد بن معاذ بن عثمان بن حسان بن بخامر الشعباني الفقيه بقرطبة في جمادى الأولى؛ وكان معظما في أهل العلم؛ وفيها، توفي عبد الغافر بن هاشم بن عبد العزيز.

وفي سنة ٣٠٩، كان غزاة أمير المؤمنين الناصر - رحمه الله - إلى كورة رية، وهي غزاة طرُش. وبرز لها - رحمه الله - يوم الخميس لسبع خلون من ذي الحجة سنة ٣٠٨، وهو اليوم العاشر من أيار. وفصل من قصر قرطبة غازيا يوم السبت لثمان خلون من المحرم سنة ٣٠٩، وهو اليوم العاشر من حزيران بعد بروزه إلى أحد وثلاثين يوما. وتحلف في النصر ولي عهده أمير المؤمنين المستنصر

بالله - أطل الله بقاءه - فسار - رضي الله عنه - في احتفال من جيوشه، وطبقات من رجاله، حتى احتل على حصن طرُش؛ وكانت النصرانية قد احتشدت إليه، وتحصنت فيه؛ فأحدثت العساكر به من جميع جهاته، وعهد بمحاربتهم والتضييق عليهم ونصب المجانيق على مرتقى تصل منه حجارته إلى الكفرة. وكانوا في أول المنازلة لهم يبرزون للحرب، ويظهرون المدافعة، حتى مزقتهم الحرب، وقللت عددهم، وقلت حدهم؛ فعادوا بالاستغلاق في داخل حصنهم. ثم تبادى التضييق عليهم، والحصار لهم، حتى أخذهم الجهد، وأشفوا على الهلاك؛ فخاطبوا أمير المؤمنين ضارعين إليه في تأمينهم، على أن يسلموا الحصن، ويخرجوا عنه؛ فأجابهم إلى ذلك، وقيل إنابتهم؛ ودخل رجاله الحصن، وخرج عنه جميع من كان به من النصرانية داخله. وهدمت قصابه وألقيت أجارها في النهر؛ وبني في موضع الكنيسة مسجد جامع. ونظر الناصر - رحمه الله - أيام محاصرته لحصن طرُش في توجيه القوادر والأجناد إلى حصن ببشتر وحصن أقوط وجبل الحجارة، لمحاربة سليمان وحنص ابني عمر بن حفصون، والتضييق عليهم، والانتقاص لعددهم. ثم قفل الناصر - رحمه الله - من محلته على حصن طرُش يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، ودخل قصر قرطبة يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت منه، وقد استتم في غزاته هذه تسعة وستين يوما.

وفي هذا العام، استنزل بنو سعيد بن ناصح بن مستنة من حصون باغة المعروفة بعالية وربرش. واستنزل موسى بن يزيد، أخو حمصي، من الصخرة التي كان بها. واستنزل بنو مهب من حصونهم المعروفة بقرذيرة وإشبرغيرة وغيرهما، وهدم جميعها.

وفي هذه السنة، أمر الناصر - رحمه الله - بقتل العاصي ابن الإمام عبد الله، ومحمد بن عبد الجبار ابن الإمام محمد - رحمهما الله -، إذ شهد كل واحد منهما

على صاحبه بمطالبة الخلافة ونقض البيعة، وكثرا في ذلك؛ وكان لهما غليان. فقتلا ليلة الأربعاء لثلاث خلون من رجب.

وفي ليلة الجمعة لست خلون من رجب، مات الحاجب بدر بن أحمد وولي الحجابة موسى بن أحمد بن حدير.

وفيها، مات محمد بن عبد الله بن أمية الوزير؛ وعبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني في شوال؛ وفيها، توفي الفقيه محمد بن أحمد المعروف بابن الزراد، ليلة الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة.

وفي سنة ٣١٠، كان غزو أمير المؤمنين الناصر - رحمه الله - إلى كورة البيرة، وهي غزاة منت روبي، وبرز لهذه الغزاة يوم الخميس

لثلاث خلون من ذي الحجة سنة ٣٠٩، وهو الرابع من نيسان، وفصل غازيا من قصر قرطبة يوم السبت لعشر خلون من المحرم، وهو اليوم الحادي عشر من أيار، بعد بروزه بسبعة وثلاثين يوما. وتخلّف في القصر ولي عهده الحكم المستنصر بالله - أبقاه الله -، ومن الوزراء أحمد بن محمد بن حدير. وغزا معه في هذه السنة الحاجب موسى بن محمد؛ فصار - رضي الله عنه - حتى احتل بحصن منت روبي يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من المحرم؛ وكان جبلا ممتنعا، بعيد المرام، كثير السكان من عجمة، قد لاذت به، وامتنعت فيه؛ وهو متوسط بين كورة إلبيرة وكورة جيان، وعلى طريق مدينة بجانة. فكان من سلك السبيل من وارد أو صادر لا يسلم من عادة ذلك الحصن. وكانوا يسفكون الدماء، ويسلبون الأموال، ويخيفون السبل. فأقام عليهم أمير المؤمنين - رحمه الله - خمسة وثلاثين يوما محاصرا، حتى أباد كثير منهم، وقطع ثمراتهم، وغير نعمهم. ثم أبقى على الحصن من رجاله وأجناده من استمر على محاصرتهم، حتى كان لا يدخل إليهم داخل، ولا يخرج عنهم خارج. وتقدم عنه إلى حصون كورة إلبيرة؛ فعم جميعها بالنكاية. ثم عرج منها إلى كورة رية، ونزل على جبل ببشتر يوم السبت لسبع خلون من ربيع الأول؛ فخاربه أشد محاربة، ونكاهم أبغ نكاية وقطع ما كان بقي في أسناد الجبل من الثمار، ورتب لمحاصرتهم أكابر القواد. وقصد رحمه الله - كورة تاكوتا؛ فاستصلح أحوال أهلها، واستوثق من طاعتهم ونقل من رأى نقله إلى قرطبة من وجوههم. ثم وصل نظره فيها بالنظر في كورة مورور، وطالع في طريقه كورة إشبيلية وقرمونة، وقفل بعد إحكامه جميع الأمور في تلك الجهات؛ فاحتل قصره يوم السبت لست خلون من ربيع الآخر، وقد استكمل في غزاته هذه خمسة وثمانين يوما.

وفي هذه السنة، ولي الوزارة أبو سعيد عبد الملك بن محمد الشذوني، يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر. وولي فيها الوزارة أيضا يحيى بن إسحاق؛ وكانت بيده الشرطة الصغرى؛ فوليا مكانه محمد بن محمد بن أبي زيد، وذلك يوم السبت لخمس بقين من شوال.

وفيها، عزل أفلح بن عبد الرحمن عن الخليل، ووليا صاحب المدينة محمد بن عبد الله الخروبي أياما يسيرة؛ ثم أعيد إليها أفلح. وفيها، ولي أحمد بن موسى بن حدير، وثمان بن سليمان الخزائنة، في شوال.

وفيها، ولي أحمد بن عبد الله الخروبي العرض.

وفيها، مات سالم بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن أبا الفقيه؛ وعبد الله بن أبي الوليد ابن أخت محمد بن الصفار الفقيه، وكانت له رواية عن سخون؛ ومحمد بن عبد الحكم؛ وفيها، توفيت عليّة بنت الإمام عبد الرحمن ابن الحكم - رحمه الله -.

وفي سنة ٣١١، كان غزو أمير المؤمنين الناصر لدين الله - رضي الله عنه - إلى مدينة ببشتر وحصون رية؛ فبرز لغزاته هذه يوم الخميس لست خلون من ذي الحجة سنة ٣١٠، وهو اليوم السابع عشرين من آذار؛ وفصل غازيا يوم الاثنين مستهل المحرم، وهو اليوم الثاني عشرين من نيسان، بعد بروزه بخمسة وعشرين يوما؛ فصار - رحمه الله - حتى احتل على حصن ببشتر؛ وبادر سليمان بن عمر بن حفصون بمكاتبته، راجيا لصرف عزمه عنه؛ فأعرض الناصر عن محاربته،

وقبول ما تعرض له من مكايده، وأخذ بالجد والعزم في محاصرته، وقطع باقي ثمراته وكرماته، واصطلام معائشه. وأقام عليه سبعة أيام، يصل الغدو بالرواح في التغيير والتدمير والنكاية والاستبلاغ؛ وفعل كذلك فيما بقي من حصونه، كحصن قردارش، وحصن نجارش، وحصن ألجش، وشنت ببطر؛ فخرج إليه حفص بن عمر بن حفصون، وتبرأ من حصن قامرة؛ فأمنه أمير المؤمنين الناصر - رحمه الله -، وأقره في بعض حصونه، لما رآه من السياسة ووجه المصلحة فيه وفي سليمان أخيه. ثم تقدم إلى مرسى شاط والمنكب، وحصن مشكيل، ونهض بعساكره في وعز لم يقتحمه جيش قبله؛ فاستنزل جميع أهل تلك الحصون، واستصلح تلت الجهات. ثم قصد جبل ببشتر، وقد كان أهله أرادوا الفتك بسليمان بن حفصون، وضبطوا القصبه دونه، وأطلقوا من كان في حبسه، وانتهبوا أكثر أمتعته؛ ثم إنه احتال مع بقية أصحابه، حتى دخلوا المدينة، وفتحوا له بابها؛ فدخل منه متلثما، وأطمع السواد في أموال القائمين عليه؛ فثاروا معه، وبادروا إلى قتل من ظفر به منهم؛ فأفنى أكثرهم؛ وسلط الله بعض الكفرة على بعض، ليمحو آثارهم. وبقي سليمان بجبل ببشتر مشغولا بنفسه، مرتابا ممن حوله؛ فاحتل به أمير المؤمنين مرّة ثانية في غزاته هذه، وذلك يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأول؛ فلم

يكن لأحد من الكفرة إطلال عند اضطراب العسكر على ما كانوا تعودوا من قبل؛ وأرتب على الجبل أمير المؤمنين من وثق به من رجاله، وألزمهم مواضع في جميع جهاته. ثم قفل، ودخل القصر بقرطبة يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول، وقد استتم في غزاته تسعة وستين يوماً.

وفي هذه السنة، كانت وقعة بقرية ومحاصرة أهل بنبلونة لعبد الله محمد ابن لب، حتى تغلب عليه وعلى من كان معه، وأسروهم العليج شانجه؛ ثم قتلهم. وكان مع ابن لب في حصن بقرية مطرف بن موسى بن ذي النون، ومحمد بن محمد ابن عمه، ووجوه رجالهم؛ فذهبوا في هذه الوقعة بأجمعهم. وشنع الحادث

١٦٠٥ غزاة الناصر إلى بنبلونة

فيها على الناصر - رحمه الله - فأخرج عبد الحميد بن بسيل قائداً إلى الثغر الأقصى، بعد أن استوزره؛ وكان على خزانة المال؛ فنهض حتى احتل الثغر بجيوش كثيفة، أخرجت معه، وحشدت إليه من الثغر وغيره؛ فدخل مدينة تطيلة وملكها.

وفيها، ولي محمد بن أحمد بن حدير خطة العرض، وعزل محمد بن محمد ابن أبي زيد عن الشرطة الصغرى، ووليا يحيى بن يونس القبرسي. وفيها، توفي عبد الرحمن ابن الإمام المنذر - رحمه الله - وتوفي جهور بن عبد الملك، وهو قائد شذونة. وفيها، قتل عبد الله بن محمد بن مروان الجليقي، صاحب بطليوس، دخل عليه بعض أهل الموضع، فقتلوه. وفيها هلك أرذون بن إذفنش صاحب جليقية، وولي مكانه فلورية.

غزاة الناصر إلى بنبلونة

وفي سنة ٣١٢، كان غزاة أمير المؤمنين الناصر لدين الله - رضي الله عنه - إلى دار الحرب، وهي الغزوة المعروفة ببنبلونة؛ فبرز - رحمه الله - لهذه الصائفة مبكراً قبل ميقات الصوائف، إذ أحفظه ما دار على بني لب وبني ذي النون بحصن بقرية؛ فبرز لغزاته هذه يوم الخميس لليلتين خلتا من ذي الحجة، وهو اليوم الثاني عشر من شباط سنة ٣١١. وفصل من قرطبة يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ١٢، وهو اليوم السابع عشرين من نيسان، وذلك بعد برونه بثلاثة وأربعين يوماً. فاحتل لأول خروجه بحلة بالش، وكسر بها يومين، متلوماً على المجاهدين معه من أجناده ورعيته، والمحشودين من أقطار كورة. وتخلف - رحمه الله - بالقصر بقرطبة ولي عهده الحكم المستنصر بالله - أبقاه الله -، ومن الوزراء أحمد بن محمد بن حدير. وأم الناصر رضه

في أول خروجه كورة تدمير وكورة بلنسية، واستصلح أحوال أهلها، واستنزل عبد الرحمن بن وضاح، ويعقوب بن أبي خالد التوري، وعامر بن أبي جوشن، وغيرهم، من مواضعهم التي كانوا متأمرين فيها، ومتعاصين عن النزول منها. وأرتب القواد والجيوش على محمد بن عبد الرحمن بن الشيخ، إذ يمنع من النزول إليه والغزو معه؛ وكان يمدية العسكر من أحواز بلنسية.

ثم نهض أمير المؤمنين الناصر - رحمه الله - في عساكر كعدد الحصى، حتى دخل ثغر تطيلة. وخرج إليه التجيبيون وغيرهم، وتلقاه عمال الثغر في جنود عظيمة، وعدة كاملة؛ فدخل - رحمه الله - بلاد المشركين يوم السبت لأربع خلون من ربيع الآخر بأنقذ عزم، وأوكد حزم، وأقوى نية في الانتقام لله عز وجل ولدينه من الأرجاس، الكفرة الأنجاس. فحل من أول بلادهم حصن قلهرة؛ وكان العليج شانجه قد أخلاه؛ فأمر بهدمه وإحراق جميع ما فيه وحوله؛ ثم تنقل عنه إلى موضع يعرف ببيطرة التة؛ وكانت حوله حصون مانعة؛ فأخلاها الكفرة، وتخلقوا في بسطها جميع أمتعتهم وأطعمتهم، إذ عوجلوا عن انتقالها. ولجأ علوج منهم بأهلهم وولدهم إلى ثلاثة غيران في شفير جرف على النهر؛ فلم يزل أهل العسكر يتعلقون إليهم فيها، ويتسورون عليهم من أعاليها، حتى فتح الله تلك الغيران عليهم؛ فقتلوا العلوج وسبوا الذراري، وغنموا الأمتعة. وكان ذلك أول ما أفاء الله - عز وجل - على أهل العسكر، وغنمهم إياه. وهدمت حصون الكفرة التي كانت في تلك الجهة؛ ولم يبق منها صخرة قائمة.

ثم تنقل - رحمه الله - من هذه المحلة، بعد أن كسر بها يوماً، إلى حصن فالجش؛ فأضرمت أرباضه ناراً، واستقصيت زروعه ونعمه انتساقاً وتغييراً. ثم ارتحل رضه إلى حصن نفالية؛ وكان من حصونهم الشريفة؛ فألقيت الأتعمة به كثيرة، والنعم فيه فائضة؛ فانتهب

المسلمون جميع ذلك، ودأبوا في تخريب الديار، وتغيير الآثار. ثم ارتحل منه إلى حصن قرقستال على وادي أرغون؛ ثم استعزم الناصر - رضي الله عنه - على الإيغال في بلدهم، والتوصل إلى موضع قرارهم،

ومجتمع كفارهم، ونكاليهم في عقر دارهم، ومكان أمنهم؛ فأخذ في الحزم، وعهد بضبط مجنات العسكر، وتقدم من فج المركوبر في أمكّ تعبئة وأهذب ترتيب، وذلك يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر؛ فدخلت الجيوش مواضع لم تدخل قبل ذلك، وأحرقت الحصون، وهدمت الديار، حتى نزل بقرية بشكونشة، التي إليها ينسب العليج، ومنها أصله؛ فهدمت مبانيها، أحرق كل شئ كان فيها.

فجمع العليج شانجه كفرته، واستمد بنصرانته من كل مكان، طمعا أن بغاث منه حتى توافي له جمع رجا أن يكافح المسلمين به؛ فتطلعت له خيل على تلك الأجل المنيعة على العسكر، وذلك ليلة الأربعاء للنصف من شهر ربيع الآخر؛ فأمر الناصر - رحمه الله - بالتعبئة للرجال، وشك العسكر، وإتقان النظر؛ وصالح النهوض والتقدم لوجهته، واثقا بالله - عز وجل - ومتوكلا عليه؛ فسلكت الجيوش بين أجيل شامخة وشواحق منقطعة. ورجا أعداء الله مع ذلك بانتهاز الفرصة والاعتراض للمسلمين في مجنبة أو ساقية؛ فلما توسط الجيش بعض تلك المواضع المتضايقة على واد يعرف بوادي هيغة، هبطت للمشركين خيل من الأجيل؛ فحالت بينهم وبين أهل العسكر مناوشة يسيرة. فعهد أمير المؤمنين - رحمه الله - برفع المظل والتعبئة للحرب، ونهض المسلمون إلى أعدائهم نهوض الأسود؛ فعبروا النهر إليهم، وصمموا بالحملة عليهم، حتى اقتلعوهم عن موضعهم، وهزموهم، ووضعوا سيوفهم ورماحهم فيهم، حتى اضطروهم إلى مرتقى وعرج جبل منقطع؛ فتقحم المسلمون عليهم، وسهل الله وعره لهم؛ فقتلوا جملة منهم، وبسطت الأرض بأجسادهم. واستمرت الخيل المغيرة في بسطهم؛ فأصاب الغنائم والسوام وضروب النعم، وانصرفوا سالمين، لم يصب منهم غير يعقوب بن أبي خالد التوري، ونفر يسير من الحشم فازوا بالشهادة، وختم الله لهم بالسعادة.

واجتمع من رؤوس المشركين عدد عظيم منع من البعثة بها إلى قرطبة بمنع الطريق وبعد المسافة.

ثم ارتحل أمير المؤمنين رضه إلى محلة لتبيرة؛ ثم إلى محلة لغين؛ والجيوش لا تمر بموضع إلا اصطلمته، وتعلقت زروعه، وهدمت قراه وحصونه، إلى أن بلغ رضه مدينة بنبونة؛ فوجدها خالية مقفرة؛ فدخلها - رحمه الله - وجال بنفسه عليها، وأمر بهدم جميع بنيانها، وتخريب كنيسة الكفرة بها، التي كانت يبعثهم موضع نسكهم، حتى لقد جعلت قاعا صفصفا. ثم تنقل - رضي الله عنه - منها إلى صخرة قبس؛ وكانت بها كنيسة قد شيدها العليج، وأتقنها، وطاول الأيام بالتأثق فيها، والتحصين لها؛ فلما حلت بها الجيوش وأخذت في هدمها، تطلع الكلب من جبل كان أسد إليه، طامعا في حمايتها؛ فدخله أولياء الله بأسرع من لحظة الطرف. حتى اقتلعوه مهزوما موليا، وصرع من فرسانه ووجوه أصحابه من كان عنه محاميا ودونه مستهلكا؛ وأخرت الكنيسة وما أحاط بها، وعادت القرية نارا موقدة. ثم تنقل منها إلى محلة اسارية؛ وكان في ممره إليها فج يقال له هرقلة ضيق المسلك، وعرج المجاز؛ فرام الكفرة انتهاز فرصة من المسلمين فيه؛ فأمر الناصر - رحمه الله - بالتعبئة والاحتراس، ونهض على أتم التحفظ والضبط، حتى جاورت العساكر ذلك المضيق، وخرجت عنه وتظاهر أعداء الله لأهل الساقية، متسنمين لأعلى جبل؛ فهضت الخيل إليهم، وهزمتهم، وقتلت طائفة منهم. وانقشعوا مدبرين لا يلوون ولا يعرجون. وتقدم المسلمون بعزة القهر، وسرور النصر، حتى نزلوا محلة إسانية. ثم ارتحل الناصر - رحمه الله - منها إلى محلة بقرية منيير؛ ثم تنقل إلى محلة بدى شره المجاورة لشدت اشتبين؛ وكان موضع "استركاح" العليج شانجه، ومكان طمأنينته؛ فحلت الجيوش بهذه المحلة يوم الأربعاء لثمان بقين من ربيع الآخر، وتظاهر الكلب على الجبل، قد جمع جموعه، وحشد رجاله، واستجاش بمدود انته من ألبة والقلاع، طامعا في معارضة المسلمين، يقيم

بها عذره عند كفرته، وأهل ملته؛ فناشبههم المسلمون الحرب، والتحم بينهم القتال؛ فهزم الله جموع المشركين، وانقبضوا إلى أعلى جبلهم، وتفرقوا في شعراء متصلة بهم. وبات أهل العسكر في مجلتهم. وانبسطت العلاقة في القرى؛ فانتسفت ما فيها. ثم انتقل الناصر إلى محلة بموضع يعرف بربة سرتة، وهو يريد فلهرة. وتظاهر العليج بجموعه مرة ثانية في الموضع الذي كان مشرفا فيه، ومعتصما به؛ فتبادر إليه الفرسان؛ فانهزم أقبح انهزام. وقتل له رجال وعقرت له خيل.

وتنقل الناصر - رحمه الله - إلى حصن قلهرة؛ فألقاه خالياً، وأمر بهدمه ثم تنقل إلى حصن بلميرة، وهو من حصون المسلمين المجاورة للمشرّكين؛ فعهد بادخار الأطعمة عندهم، وتفريق الأموال فيهم. واحتل بمدينة تطيلة. وكسر بها، وذلك يوم الاثنين لثلاث بقين من ربيع الآخر، ورحل عنها قافلاً، وجعل مروءة بني ذي النون؛ وكان يحيى بن موسى قد استراب، وتوقف عن الجهاد، فدارت عليه معرة الجيش، حتى أذعن منقاداً، وخرج خائفاً وجلاً، وتلقى أمير المؤمنين معترفاً بذنبه؛ فأوسع عفوهُ؛ وفعل مثل ذلك يحيى بن أبي الفتح ابن أخيه، ودخل أمير المؤمنين - رحمه الله - قرطبة يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الأولى، وقد استم في غزاته هذه أربعة أشهر.

وفي سنة ٣١٣، كان غزاة أمير المؤمنين الناصر - رحمه الله - إلى كورة إلبيرة، ومنازلته حصن اشتين، واستصلاحه الأحوال بكورة جيان وما والاها؛ فبرز - رحمه الله - لهذه الغزاة يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ٣١٣، وهو اليوم السابع من نيسان، وفصل غازياً يوم الخميس لثمان بقين من صفر، وهو اليوم السابع من أيار، وذلك بعد بروزه بإثنتين وأربعين يوماً؛ وتخلف في القصر بقرطبة وليّ عهده الحكم المستنصر بالله. ومن الوزراء أحمد بن محمد بن حدير، وعلى المدينة محمد بن عبد الله الخروبي؛

واستقدم سعيد بن المنذر الوزير من كورة تدمير، ليغزو معه. وأخرج محمد ابن إسحاق مديلاً له؛ فاحتل في طريقه بحصن المنتلون من كورة جيان، وأنزل عنه عبد الله بن سعيد بن هذيل، وعزله عن سائر الحصون التي كانت بيده؛ واستعمل على الجميع عبد العزيز بن مسلمة وعبد الله بن عمرو بن مسلمة؛ وعهد بهدم أكثر حصون جيان وقصاها، إذ كانت مستركاً لأهل الشر والخرف، وضراً على أهل الطاعة والاستقامة؛ وكذلك ما فعل بحصون إلبيرة، حتى احتل بحصن اشنين يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول؛ وكان أهله على مكيدة باطنة، وإظهار طاعة تحتها مداينة؛ فعرض عليهم الناصر النزول عن حصنهم إلى البسيط حوله؛ فاضطربوا في أمرهم، ولاذوا عن رشدهم؛ فاحتلت العساكر بهم، وأخذ بالجد والعزم في محاصرتهم، وأحيط بهم من جميع جهاتهم، وبنيت عليهم ستة حصون يقابل بعضها بعضاً، حتى عادوا في مثل حلقة الخاتم ضيقاً وحصاراً. وبقي الناصر على محاصرتهم خمسة وعشرين يوماً، وهو يدأب مع ذلك في استصلاح أمور رعيته، وتأمين سبلهم، وقطع المخاوف عنهم، ويشخص بنفسه إلى مل جهة من جهاتهم.

وفي هذه الغزاة، استجلب الناصر وليّ عهده وعماد أنسه الحكم المستنصر بالله من قصر قرطبة إلى معسكره، وهو في ذلك الوقت ابن عشرة أعوام وثمانية أشهر ونصف، إذ استوحش له، وتاقت نفسه الكريمة إليه؛ فقدم عليه - أبقاه الله - بهذه المحلة مع ثقات رجاله وفتيانها؛ واستخلف له في القصر أخوه عبد العزيز لينفذ الكتب باسمه إلى وقت منصرفه. فأنس - رحمه الله - به، وسر بقربه. وقفل الناصر من هذه الغزاة يوم الجمعة لست خلون من ربيع الآخر، بعد أن أرتب الوزيرين سعيد بن المنذر وعبد الحميد بن بسيل على حصن اشتين، محاصرين لأهله في كثف من الحشم. ودخل القصر بقرطبة يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر، وقد استم في غزاته خمسين يوماً.

وفي هذه السنة، ولي خلف الفتى الكبير الطراز.

وفي شوال منها، ولي يحيى بن يونس القبرسي السوق. إذ اعتل أحمد بن بهلول على أبطلته عن الحركة؛ ثم ولي يحيى بن يونس المواريث في ذي القعدة، وولي عبد الله بن محمد الخروبي خزانة السلاح.

وفيهما، صلب على الرصيف بباب قصر قرطبة الرامي المعروف بأبي نصر؛ وكان قد ذهب به الصوت في الرماية والإصابة أيام عمر بن حفصون؛ فصلب؛ ثم رمى بالنبل حتى أصيبت جوارحه ومقاتله؛ وبقي في الجذع أياماً؛ ثم أحرق.

وفيهما، توفي ابن الناصر يسمى بمحمد. وفيها، مات بن حزم العوفي من أهل سرقسطة، في شهر رمضان؛ وكان كثير الرواية، بصيراً باللغة؛ وله رحلة سمع فيها من بعض الفقهاء بالمشرق. وفيها، هلك فلوية صاحب جليقية، وولي إذفنش؛ ثم ترهب، وولي أخاه رذمير مكانه في سنة ١٩٠.

وفي سنة ٣١٤، كان إغزاء الناصر - رحمه الله - قواده بالصوائف؛ ولم يكن له غزو بنفسه في هذا العام لحل كان فيه، وخط شديد؛ فأخرج عبد الحميد بن بسيل الوزير إلى الثغر الذي كان به بنو ذي النون؛ فأوقع بهم إذ كانوا قد مرقوا عن الطاعة، وأكثروا الفساد في

الأرض، والاستطالة على من جاورهم من المسلمين؛ فقتل منهم من استحق القتل، وافتتحت مدينة سرته؛ وكان أهلها على خلاف وخلعان للطاعة؛ فدرت جبايتها من ذلك الوقت، وصارت بسيل سائر الكور المستقيمة الأحوال. ثم صدر عبد الحميد بن بسيل من ذلك الثغر، وقد استقامت على يديه أحوال أهله؛ فأخرجه الناصر إلى مدينة ببشتر، محاصرا لسليمان بن حفصون في جملة القواد المحاصرين له؛ وأخرج - رحمه الله - أفلح صاحب الخليل مولاه إلى سليمان بن حفصون أيضا؛ فنازله وحاصره، وفتح حصن منت روبي؛ وكان من أمتع معاقله.

١٦٠٦ ذكر قتل سليمان بن حفصون

ذكر قتل سليمان بن حفصون
وفي هذه السنة، قتل سليمان بن عمر بن حفصون؛ وكان قد ركب وخرج عن مدينة ببشتر معارضا لبعض الحشم المغاورين له من العسكر؛ فتبادرت إليه الخليل من الجهة التي كان فيها عبد الحميد الوزير؛ فصارع سليمان عن فرسه؛ فاحتز رأسه سعيد بن بعلي العريف المعروف بالشفة؛ وكانت قد واقعته قبل ذلك طعان على يدي محمد بن يونس العريف وبعض بني مظاهر العجم؛ وقطعت يداه ورجلاه، وذلك يوم الثلاثاء مستهل ذي الحجة من سنة ٣١٤. وبعث الوزير عبد الحميد برأسه وجثته ويديه مبعضة مفترقة؛ فرفعت على باب السدة بقرطبة في خشبة عالية؛ وكان الفتح فيه عظيما سارا لجميع المسلمين. وفيها، ورد الخبر بهلاك العليج شانجه صاحب بنبلونة.

وكان القحط في هذا العام شديدا، والمحل عاما؛ فاستسقى بالناس الخطيب أحمد بن بقي صاحب الصلاة مرارا؛ ونفذت الكتب إلى الكور في الاستسقاء؛ فوافى نزول الغيث مع رفيع جثة سليمان بن حفصون صليبة على باب السدة. فقالت في ذلك الشعراء أشعارا كثيرة، منها (طويل):

سَحَابٌ يَمُورُ الْغَيْثُ وَدِيمَةٌ ... دِمَاءُ الْعِدَى تَهْمِي بِهَا وَتَفْلَاوُرُ
غِيَاثَانِ فِينَا وَاكْفَانِ مِنَ الْحَبَا ... وَلَكِنْ ذَا رَجَسٌ وَذَاكَ طَهْوُرُ
وَذَاكَ نَجِيعٌ لَيْسَ يَقْبَلُهُ الثَّرَى ... وَذَا نَاجِعٌ يَسْرِي بِهِ وَبَعْوُرُ
تَدَنَسَتْ الدُّنْيَا بِهِ فَتَطَهَّرَتْ ... بَطُونٌ لَهَا مِنْ رَجَسِهِ وَظُهُورُ

وفيها، ولي محمد بن عبد الله الزجالي الوزارة يوم السبت للنصف من جمادى الأولى. وفيها، عزل أسلم بن عبد العزيز عن قضاء الجماعة بقرطبة لعله أقعدته وولي أحمد بن بقي القضاء مع الصلاة.

وفيها، ولي أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف خزانة المال. وولي عبيد الله بن عبد الله الزجالي العرض. وولي خزانة السلاح حسين بن محمد بن عاصم، وأحمد بن يحيى بن حسان، وعبد الوهاب بن محمد بن عبد الرؤوف.

وفيها، توفي أصبغ ابن الأمير المنذر، وفيها، توفي محمد بن عمر بن لبابة الفقيه، ليلة الاثنين لخمس بقين من شعبان؛ وكان مولده مستهل رجب سنة ٢٢٦؛ وكان عالما بالفتيا، حسن الدين، مستقيم الحال من حادثته إلى وقت وفاته.

وفيها، توفي محمد بن عبد الله الخروبي، صاحب المدينة، مستهل صفر؛ وولي المدينة مكانه عيسى بن أحمد بن أبي عبدة بعد وفاته إلى ثمانية أيام.

وفي سنة ٣١٥، كان غزو أمير المؤمنين الناصر - رضي الله عنه - إلى مدينة ببشتر لمحاربة حفص بن عمر بن حفصون؛ فبرز لهذه الغزاة يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٣١٥، وهو اليوم التاسع عشر من نيسان، وفصل غازيا يوم الاثنين للنصف من شهر ربيع الآخر، وهو اليوم الحادي عشر من أيار، وذلك بعد بروزه باثنين وثلاثين يوما. وأغزى مع نفسه ولي عهده الحكم المستنصر بالله، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وتسعة أشهر ونصف، وتخلف في القصر عبد العزيز شقيق ولي العهد، ومن الوزراء أحمد بن محمد بن حدير، وعلى المدينة أحمد بن عيسى مخرقا لأبيه عيسى بن أحمد الوزير. فنزل الناصر بجيوشه وخيله وعدده على مدينة ببشتر يوم الثلاثاء

لسبع بقين من ربيع الآخر، وزاد عزمًا في البنيان عليها، والجد في محاصرتها، وأرتب بها من الفؤاد من يلازمها، وتنقل منها إلى مدينة الحنش؛ فاستنزل من كان فيها، وأخلاها من ساكنيها، وأمر بهدم أسوارها وتعفية آثارها؛ وبأشر ذلك ولي عهده مع الحاجب موسى بن محمد مولاه.

ثم أم الناصر حصن شنت بيطر وما قرب منه من الحصون؛ فنازلهم، وقطع ثمارهم وكرومهم، واصطلم معاشهم؛ ثم تنقل بجيوشه إلى مدينة مالقة؛ فنظر بمثل ذلك في الحصون المجاورة لها، وولي مدينة مالقة عبد الملك بن العاصي، وألزم معه جملة من الحشم لمغاورة أهل تلك الحصون، وأمره بحمل السيف على كل داخل إليهم أو خارج عنهم. ثم صدر إلى مدينة ببشتر؛ فاضطرب عليها ثانية من ناحية لماية، ورأى أن البنيان بها من أنكى الأمور للكفرة وأشدّها عليهم؛ فأمر ببنيان صخرة لأول تعرف بالمدينة، وقدم لذلك أحمد بن محمد بن إلياس، وصرف إليه كورة تاكرنا، وما اتصل بها من لماية. وألزم عبد الحميد بن بسيل الوزير مكانا يشرف منه على مجمع الطرق، ويحترس فيه بالمنتشرين من أهل العسكر في العلاقات وطلب المرافق، والمختلفين إليه من كل موضع. وأقام بمحلته هذه سبعة أيام، لم يدع فيها للكفرة مرفقا ولا معاشا. ثم انتقل إلى محلة طلجيرة؛ فعهد بالبنيان فيها، وأقام بها حتى كمل بها شأن مدينة ألزها سعيد بن المنذر الوزير. ورأى الناصر صرف ولي عهده إلى قصر قرطبة إيثارا لصيانتة ومعاودته إلى تأديبه؛ فوجهه مع ثقات رجاله، وفيهم دري بن عبد الرحمن، صاحب الشرطة العليا، ومحمد بن أحمد بن حدير العارض؛ فبلغوه القصر وانصرفوا عن باب السدة إلى العسكر؛ ولم يتقدم أحد منهم إلى داره، ولا دخل منزله، ولا رأى أحدا من أهله. ثم قفل - رحمه الله - يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة، ودخل قصر قرطبة يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الآخرة، وقد استكمل في غزاته هذه خمسة وستين يوما.

وفي هذه السنة، أغزى الناصر دُرِّي بن عبد الرحمن، صاحب الشرطة. مولاه، إلى ابن الزيات؛ فلما قرب منه، خرج هاربا؛ وظفر دُرِّي في وجهته هذه بهابل، قائد كان لابن حفصون، وبأصحاب له؛ فأسرهم وأوثقهم بالحديد، وقدم بهم قرطبة؛ فصلبوا في المرج الذي بين يدي القصر، وذلك يوم الأحد لسبع خلون من شهر رمضان.

١٦٠٧ ذكر افتتاح مدينة ببشتر

وفيها، ولي فطيس بن أصبغ الوزارة، وعيسى ابنه الخزانة، وعبد الله بن محمد بن عبد الله الخروبي العرض، وعبيد الله بن عبد الله الزجالي المواريث.

ذكر افتتاح مدينة ببشتر

ولما اشتدت المحاصرة على حفص بن عمر بن حفصون بمدينة ببشتر، وأحبط به بالبنيان عليه من كل جانب، ورأى من الجد والعزم في أمره ما علم ألا بقاء له معه في الجبل الذي تعلق فيه، كتب إلى أمير المؤمنين الناصر، يسأله تأمينه والصفح عنه، على أن يخرج عن الجبل مستسلما لأمره، راضيا بحكمه. فأخرج إليه الناصر الوزير أحمد بن محمد بن حدير، وتولى هو وسعيد ابن المنذر إنزاله من مدينة ببشتر. ودخلها رجال أمير المؤمنين الناصر وحشمه، يوم الخميس لسبع بقين من ذي القعدة من السنة. واستنزل حفص والة وجميع النصاري الذين كانوا معه، وقدم بهم أحمد بن محمد الوزير إلى قرطبة مع أهلهم وولداهم. ودخلها حفص في مستهل ذي الحجة؛ وأوسعها أمير المؤمنين صفحة وعفوه، وصار في جملة حشمه وجنده. وبقي الوزير سعيد بن المنذر بمدينة ببشتر ضابطا لها، وبانيا لما عهد إليه من بنيانه وإحكامه منها.

وفيها، مات أحمد ابن الأمير محمد - رحمه الله - بمدينة إستجة. وتوفي الوزير محمد بن عبد الله الزجالي في شعبان، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة. وتوفي العارض محمد بن أحمد بن حدير في آخر هذا العام؛ وكان حدثا، قد توجه ذكره، وتمكن محله؛ فعظم أسف الحاجب عمه والوزير أبيه عليه؛ وولي الناصر خطته أخاه موسى بن أحمد بن حدير، وهو صغير، لم يبلغ الحل، تعزية لأبيه وعمه عن المفقود وإحياء لذكره. وفيها، مات أبو سليمان داود بن هذيل ابن منان من أهل طليطلة بقرطبة؛ وكان راوية للنسائي وغيره، وحمل عنه الحديث جماعة من أهل قرطبة.

وفي سنة ٣١٦، كان غزاة أمير المؤمنين الناصر إلى مدينة بيشتر، بعد افتتاحها، لتدبير أمرها وإحكام ضبطها؛ ففصل من قرطبة دون بروز، يوم الثلاثاء للنصف من المحرم، وهو السابع من آذار؛ وأغرى مع نفسه وليَّ عهده الحكم المستنصر بالله؛ وتخلف في القصر ابنه عبد العزيز لتنفيذ الكتب إليه، ومن الوزراء أحمد بن محمد بن حدير، وعلى المدينة أحمد بن عيسى مخلصاً لأبيه عيسى بن أحمد؛ وكان الحاجب موسى بن محمد عليلاً، فلم يغز في هذا العام. وكانت الطريق على مدينة إسججة، ثم إلى أشونة. واحتل بحصن بيشتر يوم الأحد لعشر بقين من المحرم؛ فدخل المدينة، وجال في أقطارها، وعان من شرفها وحصانها، وعلو مرتقاها، وانقطاع جبلها مع جميع جهاته، ما أيقن معه ألا نظير لها في الأرض حصانة ومنعة واتساع قراراة. فأكثر من حمد الله - عز وجل - على ما افتتح له منها، ويسر له فيها؛ والتزم الصوم أيام مقامه بها. ثم دبر بنيان قصبته على أحسن ما دبره وأحكمه في غيرها؛ وفرق رجاله على هدم كل حصن كان حوالها وعلى الديارات الخارجة عنها. وأمر بنبش جيفتي عمر بن حفصون وابنه؛ فكشفت قبورهما؛ فألقيا مدفونين على ظهورهما، كما يتدافن النصراني؛ وشهد ذلك عامة الفقهاء الغازين مع الناصر - رحمه الله -، وأيقن جميع من شهد ذلك بهلاكهما على دين النصرانية؛ فأستخرجاً من لحدّهما، وأتى بأعظمهما الرجسة إلى باب السدة بقرطبة؛ فرفعت في جدوع عالية إلى جنب الملحد سليمان بن عمر، وصاروا عظة للناظرين، وقرت بهم عيون المسلمين.

وقد الناصر أمر مدينة بيشتر والضبط لها وإكمال البنيان فيها سعيد بن المنذر. واستنزل أهل حصون شنت بيطر وبمارش وجطرون وغيرها من المعقل، وهبطوا من أجبلهم، وتفرقوا في بسيطهم، واستقصيت الحصون خراباً ونسفاً؛ ولم يبق للنصرانية بتلك الجهة حصن مذكور، ولا معقل معمور. وعادت

كورة رية، على كثرة ما كان فيها من الحصون المانعة والمعقل القائمة، ليس فيها جبل مضبوط، ولا بها عدو محذور. واحتمل على مثل ذلك في حصون تاركنا وحصون مغيلة، إلا ما وجب التمسك به منها. ونظر في إزعاج من وجب إزعاجه إلى قرطبة، ممن كانت نفسه تائقة إلى الفتنة، ليكون الناس أمة واحدة، ورعية ساكنة وادعة. وقدم عبد الحميد بن بسيل الوزير إلى كورة شذونة، لهدم حصونها، وتبسيط أهلها، وجمعهم إلى مدينة قلانة، التي هي قاعدة الكورة. وأمر باستنزال بني داود عن الحصون التي كانوا فيها، وولاهما من عماله وثقات رجاله من يحسن السيرة في رعية تلك الجهة. وكانت سفرته أئمن سفره، وأجمعها لكل خير وصلاح. والحمد لله! ثم قفل يوم الأحد لخمس خلون من صفر؛ فدخل منية الناعورة يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر، وقد استتم في سفرته هذه ستة وعشرين يوماً.

وفيهما، افتتح أحمد بن إسحاق القائد القرشي مدينة لفنت من تدمير، ومدينة قليوشة؛ واستنزل عنها وعن القصاب التي كانت حوالها بني الشيخ، وقدم بهم إلى قرطبة، يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شعبان. واستنزل في هذا العام بنو أبي جوشن من معقل بلنسية، وكانوا في نحو ستين رجلاً، وقد أهملوا أنفسهم في الفتنة، وتعرضوا لما نزل بهم من النعمة؛ فأمر الناصر بتميز أهل الجرائر منهم، والتشريد بهم؛ فقدم من استحق القتل منهم إلى المرج بين يدي قصر قرطبة، وضربت رقابهم فيه يوم دخولهم.

وفي هذه السنة؛ عزل فطيس بن أصبغ عن الوزارة، وولي أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف المدينة وعزل عنها عيسى بن أحمد بن أبي عبدة؛ وقيل ذلك ما كان عزل جميع خزان المال، وكانوا خمسة، وهم: سعيد بن سعيد بن حدير، وأحمد بن موسى بن حدير، وأحمد بن عبد الوهاب المنقول إلى المدينة، وخالد بن أمية بن شهيد، وعيسى بن فطيس؛ وولي الناصر مكانهم أربعة خزان، وهم: محمد بن جهور، وأحمد بن عيسى بن أبي عبدة، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالي، وأحمد بن محمد بن أبي قابوس.

وفيهما، أمر الناصر بإقامة دار السكة داخل مدينة قرطبة، لضرب الدينار والدرهم؛ وولي الخطة أحمد بن موسى بن حدير يوم الثلاثاء عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان؛ وأقام الضرب فيها من هذا التاريخ من خالص الذهب والفضة؛ وصحح في ذلك أحمد بن موسى وتحفظ. وكانت مثاقيله ودرامه عياراً محضاً.

وفيهما، خرج أحمد بن إلياس القائد غازياً إلى كور الغرب؛ فافتتح مدينة ماردة، ومدينة شنتين بلا حرب، ونزلوا إليه بالأمان، ووفاهم غاية الإحسان.

وفي هذه السنة، رأى الناصر أن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبات له في جميع ما يجري ذكره فيه، بأمر المؤمنين، لما استحقه من هذا الاسم الذي هو له بالحقيقة، ولغيره بالانتحال والاستعارة؛ فهو أبر أمراء المؤمنين والهداة الفاضلين، والأبرار المنقنين، من كل

منتخب في المشرق والمغرب، وقائم بالحق، وسالك لسبيل الهدى والرشد؛ فعهد إلى أحمد بن بقي القاضي صاحب الصلاة بقرطبة بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذي الحجة بذلك. ونفذت الكتب إلى العمال فيه، بما اجتلبنا نسخته لما فيها من إيعاب القول، واستبقاء الحجة، وظهور الحقيقة. ونسخة الرسالة النافذة في ذلك: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإننا أحق من استوفي حقه، وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كرامة الله ما ألبسه، للذي فضلنا الله به، وأظهر أثرنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسر على أيدينا إدراكه، وسهل بدولتنا مرامه، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا، وعلو أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم إلينا، واستبشارهم بدولتنا. والحمد لله ولي النعمة والإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه! وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له، ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه. وعلمنا أن التماذي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه، واسم ثابت أسقطناه. فأمر الخطيب

بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطباتك لنا عليه، إن شاء الله. والله المستعان! وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذي الحجة سنة ٣١٦. وفيها، عزل أفلح ودرى موليا الناصر عن الخيل والشرطة. وولي الخيل عبيد الله الزجالي، والشرطة أحمد بن أبي قابوس. ثم أعيد أفلح إلى الخيل، ودرى إلى الشرطة بعد شهر. وفيها، تولى إبراهيم بن محمد بن اللبرقي خطة العقل.

وفيها، عزل غالب بن محمد بن عبد الرؤوف عن خطة الضياع، ووليا محمد بن عبيد الله بن مضر، في انسلاخ جمادى الآخرة. ثم عزل عنها ابن مضر، ووليا خلف بن أيوب بن فرج الكاتب؛ وكان يكتب للحاجب موسى بن محمد، وذلك لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة.

وفيها، توفي محمد ابن الإمام المنذر؛ وتوفي أحمد بن يحيى بن قاسم بن هلال الفقيه؛ وكان منقبضا، خيرا، صالحا، بصيرا بالوثائق وعللها؛ وتوفي سعيد ابن إبراهيم الفقيه، وكان يلي الصلاة بكورة رية؛ وتوفي محمد بن هشام القرشي المعروف بابن الشبانسة بكورة شدونة، وهو وعاملها.

وفي سنة ٣١٧، كان ظهور المحل، واحتباس الغيث، وغلاء الأسعار؛ فعهد الناصر بالاستسقاء بجامع قرطبة يوم الجمعة لليلة بقيت من الحرم، وذلك في شهر آذار. واتصل الاستسقاء في الجامع ومصلى الربض ومصلى المصارة.

وفيها، كانت غزاة الناصر إلى مدينة بطليوس، لمحاربة أهلها وابن مروان المنتزي عليه فيها؛ فبرز - رحمة الله عليه - لغزاته هذه يوم الخميس لعشر خلون من ربيع الأول، وهو اليوم الثالث عشرين من نيسان؛ وفصل من قصر قرطبة يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر، وهو اليوم الرابع عشرين من أيار، وذلك بعد بروزه بأحد وثلاثين يوما. وأغزى معه ولي عهده الحكم المستنصر بالله، وابنه منذرا، وتخلف في القصر ابنه عبد العزيز لتنفيذ الكتب إليه، ومن الوزراء أحمد بن محمد بن حدير، وعلى

المدينة أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف. وكان احتلاله بالجيوش على مدينة بطليوس يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر. وواضعهم الحشم القتال في أفنيتهم وعلى أبواب دورهم، وتقحموا عليهم داخل أرباضهم، وقتلوا منهم في ثاني احتلالهم عليهم جملة بعثت رؤوسهم إلى قرطبة. وقطعت ثمارهم، وأحرق ما أخلوه من ديارهم خارج سورهم؛ وبقوا محصورين في المدينة. وأقام عليهم الناصر عشرين يوما؛ ثم أبقى عليهم أحمد بن إسحاق في قطع من الجند، وانتقل إلى جهة ماردة؛ فأصلح الأحوال بها، وولاهها محمد بن إسحاق، وندب معه عدة من الحشم). ثم عاد - رحمه الله - إلى مدينة بطليوس؛ فاضطربت عساكره عليها من غير الجهة التي كانت اضطربت فيها أولا؛ وتولي من نكايتهم وأليم محاصرتهم، ما أذاقهم به وبال عصيانهم، وعاقبة غيهم، وضلالهم. ثم أرتب عليهم أحمد بن إسحاق قائدا في جيش كثيف، ورجال منتقين، وعدد كاملة، وأمره بالتشدد في حصرهم، والاستبلاغ في مضايقتهم. وانتقل ناهضا إلى مدينة باجة؛ فزلها يوم الأحد مستهل جمادى الآخرة، واضطربت عساكره عليها، وتقدم بالإعذار إلى عبد الرحمن بن سعيد بن مالك الذي كان بها، ودعاه إلى الطاعة؛ فلاذ والتوى؛ فتصببت المجانيق عليه، وحورب أشد محاربة، وقتل من رجاله عدد كثير. وانحطت بعض أبراج المدينة بمن كان عليها؛ فضربت رقابهم بين يدي المظل؛ فاستأمن عبد الرحمن بن مالك، وأهله، وجميع أهل باجة أمير المؤمنين

الناصر، وخضعوا لأمره، ونزلوا على حكمه؛ فأوسعهم أمانه، وأخرجوا عن المدينة، ونقلوا إلى قرطبة. ودخلها الناصر، وولاهها عبد الله بن عمر بن مسلمة، وندب معه فيها قوة، وأكتف له الجمع والعدة، وأمره بابتناء قصبة فيها، ينفرد بها العامل ويسكنها. وكان مقام الناصر على باجة خمسة عشر يوما. ثم انتقل منها قاصدا إلى مدينة ألكشونة بقرب الساحل الغربي من البحر المحيط؛ فاحتل بها يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الآخرة؛ وكان قد افتتح في طريقه حصن الوقاع، وأصاب فيه

١٦٠٨ مطالعة أمير المؤمنين الناصر لببشتر في الشتاء

خلف بن بكر صاحب ألكشونة أموالا وعدة وسلاحا؛ فغم ذلك الحشم وأهل العسكر، وصار لهم نقلا. ثم تلقى رسل خلف بن بكر أمير المؤمنين، مظهرا للإنبابة، وملتزمًا للطاعة، ومتوسلا ببعد الدار والقاصية، وأخرج إلى الناصر النزائل، وأقام له الوظائف، والتزم إدار الجباية الكاملة؛ وأظهر أهل ذلك الجانب فيه رغبة شديدة، ووصفوه بسيرة حميدة، فأقره الناصر عليهم، وفرض عليه من الجباية ما التزم إirاده له في كل عام، وعهد إليه بحسن السيرة، والرفق بالرعية، وألا يقبل نازعا، ولا يكتنف هاربا؛ فالتزم جميع ما أمر به، ووقف عندما حد له.

وقفل الناصر عن مدينة ألكشونة يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة، ودخل القصر بقرطبة يوم الأحد لأربع عشرة ليلة خلت من رجب، وقد استتم في غزاته ثلاثة وتسعين يوما.

مطالعة أمير المؤمنين الناصر لببشتر في الشتاء

وفي هذه السنة، كانت للناصر خرجة من قصر الناعورة، طالعا لببشتر ومعائنا لما قام من البنيان بها، وما تم من ترتيبه فيها. وكان خروجه من منية الناعورة يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال، ونزوله بجبل ببشتر يوم الخميس لعشر بقين منه. فدخل المدينة، وجال فيها، وأحكم ما له قصد من أمرها؛ ثم صدر عنها في اليوم الثاني، ودخل القصر بالناعورة يوم الثلاثاء لأربع بقين من شوال؛ وكانت مدة توجهه وانصرافه ثلاثة عشر يوما.

وترددت الفتوحات في هذا العام بوقائع كانت على أهل بطليوس، وبعث أحمد بن إسحاق من أهلها بسبعين أسيرا، وقتلوا صبورا بين يدي قصر قرطبة.

وافتححت فيه مدينة شاطبة من بلنسية، واستنزل عنها عامر بن أبي جوشن على يدي دري بن عبد الرحمن صاحب الشرطة؛ واشترط عامر بسكنى شنت برية، حتى يأخذ في انتقال ثقله وعياله إلى قرطبة.

وفي هذه السنة، ولي الناصر عبد الملك بن عمر بن شهيد، وعيسى بن أحمد ابن أبي عبدة الوزارة، وسعيد بن سعيد بن حدير الشرطة الوسطى؛ ولم تكن قبل هذه الخطبة؛ وفيها، ولي خالد بن أمية بن شهيد الخزانة ولاية ثانية، وولي عبد الرؤوف بن أحمد بن عبد الوهاب خطة العرض.

وفي سنة ٣١٨، كان افتتاح مدينة بطليوس وذلك أن أهلها وابن مروان صاحبها، لما أخذهم الحصار، وطاولتهم الحرب، وفنى رجالهم، واستبيحت نعمهم، وقطعت ثمراتهم، ورأوا عزمًا لا فترة فيه، وجدا لا بقاء لهم عليه، استأمنوا الناصر، وعادوا بصفحه؛ فأوسعهم ما أوسع أمثالهم قبلهم. واستنزل ابن مروان الجليقي وأهله، وذوى الشوكة من صحبه، وأسكنهم قرطبة، وألحقهم في الملاحق السنية؛ وملك المدينة وولاهها عماله، وصارت بسيل كوره.

وفيها، أخرج الناصر لدين الله أهل الثقة من خدمته، والأمانة والتصحيح من فقهاء مصره إلى أهل طليطلة، معذرا إليهم، داعيا لهم إلى الطاعة والدخول فيما صارت إليه الجماعة، إذ كانوا لا يؤدون جباية، ولا يلتزمون طاعة، ولا يتناهون عن منكر ولا معصية؛ فازوا بمعاذير المخادعة، وجاوبوا الناصر بما لم يضع إليه من غشهم وتمريضهم؛ فاستعزم على غزوهم، وشمر لناهضتهم وإنزال بأسه بهم. وبرز للغزو في الصائفة إليهم في صدر ربيع الآخر سنة ٣١٨، وفي شهر نيسان من العام المؤرخ. وقدم الوزير سعيد بن المنذر إلى مدينة طليطلة في جيش كثير وعدد جم، وأمره بالاحتلال عليها والمحصرة لها، حتى يلحق الناصر بجيوشه وصنوف حشمه بها. فخرج إليها الوزير يوم السبت لثمان بقين من ربيع الآخر، وأغد السير نحوها، حتى نزل بساحتها. وأخذ في ما حد له من محاصرتها بأبلغ عزم وأتم حزم؛ ثم فصل أمير المؤمنين إلى مدينة طليطلة يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادى الأولى، وهو التاسع عشر من أيار؛ وأغزى مع نفسه ولي

عهده الحكم المستنصر بالله ومنذرا ابنه؛

وتخلف في القصر ابنه عبد العزيز لتنفيذ الكتب إليه، ومن الوزراء أحمد بن محمد بن حدير، وعلى المدينة أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف.

فلما احتل - رحمه الله - في طريقه بحلة الغدر، وقرب من حصن مورة الذي كان اتخذ أهل طليطلة شجرا على المسلمين ومسترحا للمفسدين، وقدموا عليه منهم مطرف بن عبد الرحمن بن حبيب، قدم إليه من أنذره وخوفه، وأمره بالخروج عن الحصن وإسلامه. فبدر إلى ذلك بدرا لم يجد منه بدا، ولا في الامتناع طمعا؛ ونزل عن الحصن. وأمر الناصر بضبطه؛ ثم نهض بجيوشه المؤيدة، وعزيمته الماضية، حتى احتل محلة جرنكش بقرب طليطلة، وذلك يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى. فأشرف من محلته هذه على سهلة طليطلة ونهرها، وأجنتها وكرومها؛ ودبر رأيه في أمكن المواضع من محاصرتها، وأقرب الجهات الآخذة بمخنق أهلها؛ فرأى النزول بحلة المقبرة على باب المدينة أبلغ في النكاية، وأشد في المضايقة؛ فارتحل إليها في اليوم الثاني، وأخذ في نكاية العصاة، بما لم يجر لهم على ظن). وأقام بهذه المحلة سبعة وثلاثين يوما، يوالي فيها بنكايتهم، وقطع ثمراتهم، وتخريب قراهم، وانتساف نعمهم، وتحطيم زروعهم. ثم أمر بالبنيان في جبل جرنكش لمدينة سماها بالفتح، وأرتب لبنانها سعيد بن المنذر الوزير، وأمر بنقل الأسواق إليها، والتمدين لها، لتكثر مرافق أهل العسكر بها؛ وأرتب محمد بن سعيد بن المنذر على باب القنطرة في جمل من الحشم، وعهد إليهما بالاستبلاغ في محاربة القوم. وقدم على الناصر بمحلته على طليطلة صاحب حصن قيلش وصاحب حصن الفهمين، معتصمين بطاعته؛ فأمر بنقلهما إلى قرطبة، والتوسع عليهما، ومكافأة نزوعهما وقصدهما. ثم قفل الناصر عن مدينة طليطلة يوم الخميس لست بقين من جمادى الآخرة، ودخل القصر بقرطبة يوم الاثنين لأربع خلون من رجب، وقد استتم في غزاته أحدا وستين يوما.

وفي هذه السنة، ولي المواريث طرفة بن عبد الرحمن صاحب المطبخ؛ وولي خزانة السلاح أحمد بن أبان بن هاشم، وحفص بن سعيد بن جابر.

وفيهما، مات الناصر ابن يسمى بمحمد. وفيها، مات أمية بن محمد بن أمية ابن عيسى بن شهيد. وفيها، توفي هاشم بن محمد النجيب. وفيها، توفي محمد بن إبراهيم بن الجباب الفقيه، صاحب الوثائق، يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان؛ وتوفي صهيب بن منيع قاضي إشبيلية؛ وتوفي أبو غالب مروان بن عبيد الله بن بسيل.

وفي سنة ٣١٩، أبرز السراق والأبنية إلى المضطرب المعروفة بفحص السراق بجوني النهر الأعظم؛ ثم برز الناصر إلى هذه المحلة لغزاة نواها إلى مدينة طليطلة؛ ولم يتم عزمه عليها إذ استغنى بالقواد المرتبين على المدينة، المحاصرين لأهلها؛ وأكتف للقواد بها الخيل والعدة، وأمدهم بالسلاح، وأكد بصائرهم في الجد والعزم والاستبلاغ في نكاية المفسدين المغتربين من أهلها.

وفي سنة ٣١٩، كاتب موسى بن أبي العافية، صاحب الغرب، أمير المؤمنين الناصر، ورغب في موالاته، والدخول في طاعته، وأن يستميل له أهواء أهل الغرب المجاورين له؛ فتقبله أحسن قبول، وأمدّه بالخلع والأموال، وقوى أيدّه على ما كان يحاوله من حرب ابن أبي العيش وغيره. فظهر أمر موسى من ذلك الوقت في الغرب، وتجمع له كثير من قبائل البربر، وتغلب على مدينة جراوة، وأخرج عنها الحسن بن أبي العيش بن إدريس العلوي؛ وجرت بينهما حروب عظيمة.

وفيهما، افتتح الناصر مدينة سبتة؛ فشكها بالرجال، وأتقنها بالبنيان. وبني سورها بالكزان، وألزم فيها من رضيه من قواده وأجناده؛ وصارت مفتاحا للغرب والعدوة من الأندلس، وباب إليها كما هي الجزيرة وطريف مفتاح الأندلس من العدو. وقامت الخطبة فيها باسم أمير المؤمنين الناصر، لثلاث خلون لربيع الأول من العام المؤرخ.

وفيهما، اتصل بالقواد المحاصرين لطليطلة أن العدو بذلك الجانب عملوا على الخروج لافتراض غرة في بعض ثغور المسلمين؛ فنفر إليهم الوزير أحمد بن

محمد بن حدير من قرطبة في جملة من الحشم ومن خف من المسلمين؛ فلما بلغ أعداء الله خروجه، توقفوا عن حركتهم، وقرؤا في بلادهم؛ وكفى الله المؤمنين معرفتهم. فبلغ القائد أحمد بن محمد بن حدير طليطلة، ونازلها مع القواد المرتبين فيها.

وفيها، خرج بالأسطول أحمد بن محمد بن إلياس، ويونس بن سعيد قائدين في البحر، يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الأولى، في عدة، ومراكب جملة، ورجال كثير، وصنوف من البحريين والمقاتلين؛ فجازا مرسى الجزيرة، واحتلوا العدو، وحاصروا ابن أبي العيش، إذ كان على مخالفة لمن دخل في طاعة أمير المؤمنين من أهلها، ومحاربة لموسى بن أبي العافية وليه ومقيم دعوته والداخل في طاعته؛ ثم حال الشتاء بينهما وبين التماس على الحصار والمطاول؛ ففقلا بالأسطول ومن فيه.

وفيها، عزل أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف عن المدينة، وقدم إلى الوزارة؛ وولي المدينة يحيى بن يونس القبرسي وذلك في غرة جمادى الأولى. ثم عزل يحيى بن يونس عنها، وكانت فيه حدة ومحاربة لأهل الجرم، ووليا عبد الحميد بن بسيل الوزير في شوال. وفيها، ولي خطة العرض عبد الوهاب بن محمد بن عبد الرؤوف، وولي الضياع محمد بن عبد الله بن مضر، وعبد الله بن معاوية بن بزيل مشتركين.

وفيها، ولي الناصر، من تحت يدي ولي العهد المستنصر بالله، أحمد بن هاشم بن أحمد بن هاشم مولاه عمالة عبله وفنيانة من البيرة. وفيها، مات أبو الجعد أسلم بن عبد العزيز بن هاشم بن خالد بن عبد الله بن خالد بن عبد الله بن حسين بن جعد بن أسلم بن أبان بن عمرو مولاي عثمان بن عفان - رضي الله عنه -؛ وكان قاضي الجماعة بقرطبة، وله رحلة وسماع؛ وكانت فيه صلابة وإنفاذ للحق على وجوهه؛ وعزل عن القضاء قبل وفاته إذ أخذه

الكبر، وضعف عن القعود للأحكام؛ وكانت وفاته يوم الأربعاء لست خلون من شعبان، وهو ابن سبع وثمانين سنة. ومات في هذا العام فضل بن سلمة الفقيه البجاني، وكان له سماع وتأليف حسن؛ وتوفي محمد بن فطيس الفقيه المحدث بالبيرة؛ وتوفي أحمد بن حامد الزجالي في جمادى الأولى.

وفيها، ماتت السيدة ابنة الإمام عبد الله ثمان بقين من ذي الحجة؛ وكانت قد نافرت أمير المؤمنين الناصر أيام حادثته وقبل إفضاء الخلافة إليه، وهو حينئذ ولد في القصر بين يدي الإمام عبد الله جده؛ وطالبتة وآذنه عند أبيها عبد الله الإمام؛ فلما ولي الناصر، لم تشك في معاقبته لها، ومجازاته لسوء معاملتها؛ فكان الأمر على خلاف ظنها؛ وقرب الناصر مكانها، ورفع منزلتها، واختصها في جملة من اختص من أهل وبنات أعمامه، حتى صارت أقربهن محلا منه.

وفيها، توفي عبيد الله بن فهر، وكان متصرفا في العمالات والقيادة، وذلك يوم السبت لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة. وفي سنة ٣٢٠، كان غزو الناصر إلى مدينة طليطلة، غزاته الثانية التي فتحت فيها عليه، فبرز لهذه الغزاة في صدر جمادى الآخرة سنة ٣٢٠، في شهر حزيران من العام المؤرخ، وفصل يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من رجب، وهو اليوم الحادي عشر من تموز، مع ولي عهده الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين. وتخلف في القصر ابنه عبد العزيز لتنفيذ الكتب إليه؛ ومن الوزراء أحمد بن محمد بن حدير، وعبد الحميد بن بسيل، وكان صاحب المدينة.

وكان أهل طليطلة، لما أخذهم الحصار، واشتد عليهم التضييق، ولازمهم القواد، قد استجاشوا بالمشركون، واستجدوهم، ورجوا نصرهم لهم؛ فلم يغنوا عنهم فتيلة، ولا كشفوا عنهم عذابا، ولا جلبوا إليهم إلا خزيا وهوانا. وخرج القواد المحاصرون لهم إلى الكفرة؛ فهزمهم، وفرقوا جموعهم، وانصرفوا مولين.

على أعقابهم، خاذلين لمن انتصر بهم، ورجا الغياث من قبلهم. فلما يئس أهل طليطلة أن ينصرهم أحد من بأس الله الذي عاجلهم، وانتقامه الذي طاولهم، عاذوا بصفح أمير المؤمنين، وسألوه تأمينهم، وضرعوا إليه في اغتفار ذنوبهم؛ ففرج لاستئصال أهل طليطلة، وتوطيد طاعته فيها، وإحكام نظره بها، في التاريخ الذي قدمنا ذكره؛ فنزل عليها بحلة جرنكش، يوم الأربعاء لخمس بقين من رجب؛ وقد كان بدر إليه ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث مقدما، وتلقاه قبل نزوله بها، معترفا بجهله، ومستقبلا من زلته؛ فعفا عنه الناصر، وعاد عليه بفضله. ثم أمن أهل طليطلة، وخرجوا إلى العسكر، ونالوا المرافق فيه، وابتاعوا المعاش التي طال ما أجهدهم عديمها، ومنعهم الحصار منها؛ فعرفوا غبطة ما صاروا إليه من الأمن بعد الخوف، والسعة إثر الضيق، والانبساط بعد طول الانقباض. ثم ركب الناصر إلى مدينة طليطلة في اليوم الثاني من نزوله بحلته عليها، ودخلها، وجال في أقطارها؛ فرأى من حصانتها، وشرف قاعدتها، وانتظام الأجل داخل مدينتها، وامتناعها من كل الجهات بواديها ووعرها، وطيب هوائها وجوهرها، وكثرة البشر بها، ما أكثر له من شكر الله عز

وجل على ما منحه فيها، وسهل له منها؛ وعلم أنه، لولا ما أخذ به من الجد والعزم في أمرها، لما ملكت مع حصانتها ومنعتها مع اتساعها وانفساح أقطارها، ولما اعتاده أهلها من مداخلة المشركين وموالاتهم، والاستمدا على الخلفاء بهم؛ فكم أعيت الملوك، وامتنعت من العساكر، وانصرفت عنها الصوائف بغير نجاح؛ ولكن فضل الله عز وجل الذي أعطاه أمير المؤمنين، وصنعه له، وتأييده إياه أجرى افتتاحها على يديه. ثم دب فيها بناء محكما متقنا، ليكون مستقرا للقواد الملازمين فيها، وزماما على ساكنيها؛ وأرتب على البنيان بها دري بن عبد الرحمن قائده، وملأها رجالا وعدة وسلاحا. وركب إليها الناصر، وأمر بهدم ما وجب هدمه في المدينة، وتردد عليها ثمانية أيام حتى أكل فيها ما دبره، وهذب ما أرادته. وفتحت أسوس البنيان الذي أمر به؛

واطمأنت بأهل المدينة الدار، وفتحوا الخوانيت، وانتشروا في الأسواق؛ وانبسطوا في أفنيهم وأبواب مساجدهم، آمين، والحمد لله. ثم قتل الناصر عن محله بطليطلة، يوم السبت لست خلون من شعبان، ودخل القصر بقرطبة يوم السبت لعشر بقين منه، وقد استتم في غزاته ستة وثلاثين يوما.

وفيهما، صنع الناصر لضروب رجاله ومواليه وصنوف أجناده وحشمه ممن شاهد فتح طليطلة معه، ووافق ذلك تطهيره لبعض بنيه الأصاغر.

وفيهما، عزل عن خزنة المال محمد بن عبد الله بن حدير، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالي، ونقل أحمد بن عيسى بن أبي عبدة عن الخزانة إلى قيادة بجانة. وأقر من الخزان خالد بن أمية بن شهيد، ومحمد بن جهور بن عبد الملك؛ وولي مكان المعزولين عنها سكن بن إبراهيم، وأحمد بن محمد ابن مستنبر.

وفيهما، ولي الخلال سعيد بن القاسم خطة العرض.

وفيهما، ولي المدينة فطيس بن أصبغ لإحدى عشرة ليلة هلت من شوال.

وفيهما، ولي العرض محمد بن قاسم بن طملس. وفيها، ولي السكة يحيى بن القرسي، وذلك يوم السبت لأربع خلون من شوال؛ وعزل هذا النهار عنها أحمد بن محمد بن موسى بن حدير.

وفيهما، توفي أحمد بن أبي نوفل القرشي، وهو أحمد بن محارب بن قطن ابن عبد الواحد بن قطن بن عصمة بن أنيس بن عبد الله بن جحوان بن عمرو بن حبيب بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر، وكان منقبضا متزهدا، وبلغ من السن خمسا وسبعين سنة.

وفيهما، مات الحاجب موسى بن محمد بن حدير، للنصف من شهر صفر ليلة الأحد، بعد صلاة المغرب، وبلغ من السن خمسا وستين سنة. وفيها، توفي عبيد الله بن عبد الله الزجالي، وكان على الموارث والبنيان، في رمضان،

وهو ابن إحدى وأربعين سنة. وفيها، مات أحمد بن محمد الزجالي، وكان قد تصرف في الخدمة، وله أدوات وحركة؛ وتوفي فيها عمران بن أبي عمر المتطيب، وكان قد كف بصره، وهو من المتظرفين المتطيين، وصحب الملوك، وخف على أمير المؤمنين الناصر؛ وكان يوصله ويحضره مجالس راحته، وهو أعمى).

وفي سنة ٣٢١، وصل الخبر إلى قرطبة بولاية أبي المنصور بن المعتز مدينة سجلماسة، وهو غلام ابن ثلاث عشرة سنة؛ فكث في ولايته شهرين، وقام عليه ابن عمه محمد بن الفتح، وأخرجه منها، وتملكها، وتسمى بأمر المؤمنين، وتلقب بالشاكر لله، وذلك بعد مدة نحو من عشرين سنة، وضرب الدنانير الشاكرية.

وفي سنة ٣٢٢، وصل الخبر إلى قرطبة بوفاة أمير إفريقية عبيد الله الشيعي الملقب بالمهدي، وتقدم ولده أبي القاسم الملقب بالقائم بأمر الله.

وفي سنة ٣٢٣، وصل إلى مدسنة فاس ميسور الصقلي قائد أبي القاسم الشيعي أمير إفريقية؛ فخاربه أهل فاس سبعة أشهر، ولم يقدر عليهم؛ ثم حاصر ابن أبي العافية، واستعان عليه ببني إدريس؛ فانجلى ابن أبي العافية إلى الصحراء، وصار جميع ما كان لابن أبي العافية لبني إدريس؛ وقد تقدم خب بني إدريس.

وفي سنة ٣٢٤، ظهر أبو يزيد مخلد بن كيداد بإفريقية على أبي القاسم الشيعي، وذلك في جبل أوراس، وفيه قلاع كثيرة يسكنها هواره وغيرهم، وهم على رأي الخوارج.

وفي سنة ٣٢٥، أمر الناصر ببناء مدينة الزهراء؛ وكان يصرف فيها من الصخر المنجور ستة آلاف صخرة في اليوم، سوى التبليط في الأساس، على ما أذكره بعد.

وفي سنة ٣٢٧، قام بالغرب الأقصى أبو الأنصار بن أبي عقير البرغواطي بعد موت أبيه؛ وكان يفي بالعهد والوعد، وهو الذي بعثه عقير البرغواطي رسولا إلى الحكم المستنصر بالله، ابن أمير المؤمنين الناصر.

وفي سنة ٣٢٩، استتم القائد أحمد بن محمد بن إلياس مدينة سكاك، وشحنها بالرجال، وأخذ فيها الأطعمة والأسلحة؛ فأخرج الناصر إليها أحمد بن بعلي قائدا في ضروب من الحشم، ضمهم إليه؛ فنفذ إليها في صفر من هذه السنة؛ فلما كان في غرة جمادى الأولى منها، وافى فتح من قبل أحمد بن بعلي القائد بسكاك الحديثة؛ بدخول كان له منها إلى جهة من عمل الطاغية ردمير؛ فقتل وسبي وأسر، وأرسل مع كتابه إلى قرطبة مائتي عالج أسراء؛ وكان هذا أول فتح لابن بعلي أذل به الطاغية ردمير.

وفي سنة ٣٣٠، في المحرم من هذه السنة، طلع كوكب الزباني في الأفق الغربي بقرطبة إزاء العقرب، منحرفا عنها، يكاد يتصل بالفلكة العليا في رأي العين؛ وكان أول ليلة لاح فيها للأنصار ليلة السبت لثلاث بقين من المحرم منها، وهي ليلة ست عشرة خلت من أكتوبر؛ وتمادى طلوعه مستعليا مكبرا في السماء حتى توارى.

وفي سنة ٣٣١، في يوم الخميس لخمس خلون من صفر منها، دخل الوزير القائد أحمد بن إلياس إلى قرطبة قافلا عن غزاته إلى الثغر التي خرج إليها في عقب شوال من سنة ٣٣٠ قبلها، إلى ثلاثة أشهر ويومين من خروجه عنها؛ ودخل في سفرته هذه كورة تدمير؛ فأزال الالتبث الواقع من أهلها إزالة، وقدم برهائن بعضهم؛ وكان أثره جميلا.

وفيهما، كان المد العظيم بنهر قرطبة، الثالم لقنطرتها.

وفي سنة ٣٣٢، أغزى الناصر لدين الله القائد أحمد بن محمد بن إلياس إلى جليقية؛ فدخل دار الحرب؛ فغتم، وأحرق جملة من حصونهم هنالك، وقفل راجعا.

وفيهما، كانت زلزلة عظيمة بقرطبة، ليلة الاثنين لتسع خلون من ذي القعدة؛ قلم يرقط مثلها ولا سمع من قوتها؛ ووقعت بعد العشاء الآخرة؛ فدامت ساعة؛ ففزع أهل قرطبة لها فزعا شديدا، ولجئوا إلى المساجد فيها، وضجوا بالدعاء إلى الله تعالى في كشفها، حتى أغاثهم وصرفها عنهم. وفي صبح ليلة الزلزلة، هبت ريح عاصف ردفها أخرى؛ فاقتلعا كثيرا من شجر الزيتون والتين وغيرهما من الأشجار والنخيل، وأطارا كثيرا من قرمد السقف. ونزل إثر ذلك مطر وابل طبق الأرض، وبرد غليظ؛ فقتل كثيرا من الوحش والطيور المواشي، وأتلف ما أصاب من الزرع، وأساء التأثير.

وفي سنة ٣٣٣، في المحرم، هبت بقرطبة ريح عاصف من ناحية القبلة ونزل برد غليظ.

وفيهما، ظهر بأشبونة رجل يزعم أنه من ولد عبد المطلب وأن أمه مريم ابنة فاطمة؛ وادعى مع النسب أنه نبي وأن جبريل ينزل عليه، وسن لا تبعه سننا، وشرع لهم شرائع، منها حلق الرأس وغير ذلك مما لا يعقل؛ ثم وقع عليه البحث، فخفي أثره.

وفيهما، أخرج الناصر قاسم بن محمد قائدا إلى عدوة الغرب بحرب بني محمد الأدارسة الحسينيين الذي بدا من خلافهم عليه في هذه السنة، ونقضهم الطاعة، بعد ما قدم الكتب إلى محمد بن الخير عظيم زناته وغيره من ولاته بالغرب، يأمرهم بالاستعداد لذلك والمعونة عليه. وأجاز قاسم البحر إلى سبتة في النصف من ربيع الأول؛ فلما تبين ذلك لكبير بني محمد، وهو أبو العيش بن

عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -، أسرع إلى تحقيق الطاعة للناصر؛ فعقد له الأمان على نفسه، وانفذ إليه أبنه محمد بن أبي العيش إلى قرطبة، مؤكدا لطاعته؛ فاحتفل السلطان لدخوله احتفالا عظيما، وركب الوافد محمد مع مستقبله من قبل الناصر القائد أحمد بن يعلى في أهبة راقية العيون وملأت الصدور. ووصل إلى قصر الزهراء، وقعد له الناصر أنخم قعود؛ فأوصله إلى نفسه، وأبلغ في تكريمه؛ ثم خرج عنه في مثل الهيئة التي دخل عليها. ودخلت بدخول محمد بن أبي العيش في هذا النهار على الناصر رسل لبني عمه الأدارسة أمراء الغرب. وانعقد في هذا النهار كتاب أمان محمد بن إدريس. ودعا الناصر أيضا محمد بن أبي العيش؛ فبالغ في تكريمه، وأقام بقرطبة بقية هذه السنة في تكريمة. وانصرف الوفد المذكور بعد التزامهم للطاعة للناصر، وذلك فيخبر

طويل.

وفي عقب شوال، قدم رسول الخير بن محمد بن خزر الزناني أمير الغرب ومعه رسول حميد بن يصل الزناني، يعرفان الناصر بما كان من دخولهما مدينة تاهرت، وأنهما أقاما فيها الدعوة له.

وفي منسلخ شوال، قدم على الناصر رسولان من أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار، القائم بإفريقية على أبي القاسم الشيعي، برسالة منه يخبر بتغلبه على القيروان ورقادة وعلمهما، وإيقاعه بأصحاب الشيعي فيها، وما يعتقد من ولاية الناصر، ويأوي إليه من اعتقاد إمامته. واتصلت كتب أبي يزيد ورسله على قرطبة من ذلك الوقت إلى حين وفاته.

وفي سنة ٣٣٤، جلس الناصر لدين الله لوداع رسل أهل القيروان الواردين عليه من قبلهم وقبل أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الناجم بأرض إفريقية في ذلك الوقت، محتسبا في جهاد ملوك الشيعة المنتزين على إفريقية من آل

عبيد الله الداعي، وكان له في القيام عليهم وقائع شنيعة؛ فوصلوا إلى الناصر في هذا اليوم، وهم ثلاثة نفر، أوجههم تميم بن أبي العرب التيمي؛ فكلهم بما تقتضيه رسالتهم، ودفع إليهم أجوبة من أرسلهم، وأذن لهم في الانصراف إلى بلدتهم، ووصلهم وكساهم؛ فانطلقوا لسبيلهم.

وفيها، وصل إلى قرطبة رسل ملك الروم الأكبر قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية العظمى، يكتب من ملكهم إلى الناصر؛ فقعد الناصر على سرير الملك بقصر قرطبة لدخولهم عليه، ولمن تكامل بالباب من وفود البلاد، بعد أن أمر باستقبالهم بالعدد والأجناد. واستوى الناصر على سريرته؛ وقعد على يمينه ابنه الحكم؛ وقعد سائر أولاده عن يمينه ويساره؛ وقعد الوزراء والحجاب على منازلهم صفوفًا. فدخل الرسل، وقد قدموا الهدايا بين أيديهم، وقد دهشوا لهول ما عاينوه من جلالة الملك ووفور الجمع؛ فصنعوا بين يدي الخليفة؛ فأشار إليهم أن لا؛ فدفعوا إليه كتاب مرسلهم قسطنطين. وكان الكتاب مصبوغا بلون سماءي، مكتوبا بالذهب.

وفيها، كان السيل العظيم بقرطبة؛ وبلغ الماء في البرج المعروف ببرج الأسد؛ فهدم من آخر القنطرة، وثلم الرضيف وغيره.

وفيها، قدم على الناصر محمد بن محمد بن كليب من القيروان؛ فحكى أن أبا القاسم بن عبيد الله الشيعي هلك بالمهدية، وهو محصور من أبي زيد؛ وأن شيعته قدمت ولده إسماعيل مكانه، وأنه فارس شجاع، أبي النفس؛ أقدم على أبي يزيد وجموعه، ولاقاه بمدينة سوسة؛ فانهزم أبو يزيد أمامه إلى القيروان.

وفي عقب صفر منها، ولي خزانة السلاح عبد الأعلى بن هاشم المتوفي في المحرم منها.

وفي سنة ٣٣٥، كان ابتداء بناء مدينة سالم بالثغر الأوسط. وفي كتاب

ابن مسعود: في سنة ٣٣٥، ابنتي الناصر مدينة سالم القديمة التعطيل بالثغر الأوسط الشرقي، المواجهة لبلد قشتيلة - دمرها الله تعالى -، وهي يومئذ خالية مقفرة. وأرسل لذلك غالبا مولاه في جيش جرده معه من الحضرة، وأنفذ العهد إلى قواد الثغر بالاجتماع إليه لبنائها؛ فسارعوا إلى أمره، وبنيت أحسن بناء؛ ونقل إليها البناؤون من بلاد الثغر للاختطاط لديارها والرباط بها؛ فتم ذلك في صفر من هذه السنة. واطمأنت الدار بمن نزلها من المسلمين؛ واكتمل بناؤها وعمرانها على مرور الأيام؛ ففزع الله المسلمين بها، وصيرها شجا في حلق الكافرين. قال: ووافي في إثر كتاب القائد ابن حدير وابن هاشم كتاب من قبل عامر بن مطرف بن ذي النون إلى الناصر بما فتح الله له في المشركين، وقتله العدد الكثير منهم، وبعثه برؤوسهم؛ فتمت الفتوح، وعمت الفروح، وعز الإسلام، واستبشر الأنام، وطابت الأيام، بحمد ولي الإنعام، الذي منه يرجى التمام، عز وجهه! وفيها، كان القحط الكائن بقرطبة.

وفيها، وصل إلى قرطبة أيوب بن أبي مخلد بن كيداد اليفرني الأباضي رسولاً من والده أبي يزيد؛ فقعد له الناصر قعوداً؛ فأوصله إلى نفسه، وكرم لقاءه، وأمر بإنزاله في قصر الرصافة؛ وقد أعد له فيه من الفرش والوطاء والغطاء والآنية والآلة ما يعد لأمثاله؛ فأقام هنالك تحت نزل واسع وكرامة موصولة.

وفي سنة ٣٣٦، في يوم الجمعة التاسع من المحرم منها، ورد كتاب قند مولى الناصر، القائد يومئذ بطليطلة، بفتح فتحه الله على يده في أعداء الله أهل جليقية؛ ففرئ في المسجد الجامع بقرطبة والزهاء؛ وبعث من ذلك برؤوس وخيل أصيبت لأعداء الله.

وفيها، عزل الناصر عبد الله بن محمد عن السكة، وسخط عليه لتقصير ما كان فيه وأمر بسجنه. وقدم عبد الرحمن بن يحيى بن إدريس الأصم، ونقل السكة من مدينة قرطبة إلى الزهراء.

وفيها، خرج الكاتب جعفر بن عثمان المصحفي إلى ميورقة وذواتها لإصلاح ما فسد من حالها. وفيها، وصل حميد بن يصل المكاسي إلى قرطبة قاصداً إلى الناصر من بلده من الغرب؛ فاستقبل بالجيوش والزينة؛ وكرم الناصر مورده، وأجمل مواعده.

وفي سنة ٣٣٧، في النصف من المحرم، قعد الناصر بقصر الزهراء قعوداً بهياً؛ فدخل إليه حميد بن يصل؛ ثم وصل بعده منصور وأبو العيش، ابنا ابن أبي العافية، ودخل معهما حمزة بن إبراهيم، صاحب جزائر بني مزغنا؛ فوصلهم وكساهم، وأذن لهم في الانصراف إلى بلادهم.

وفيها، صلب بقرطبة علي بن عشرة، من أهل أشبونة، بعد أن قطعت يداه ورجلاه؛ وكان من المفسدين في الأرض بقطع السبل. وفيها، كانت وقعة أرتقية على العدو - دمره الله -.

وفي سنة ٣٣٨، كان قدوم رسل ملك الروم الأكبر صاحب القسطنطينية على الناصر، راغباً منه إيقاع المواقفة واتصال المكاتب؛ فتأهب الناصر لورودهم عليه، وأمر بتلقيهم في الجيش والعدة؛ وجلس لهم الناصر الجلوس المشهور الذي ما تهبأ مثله الملك قبله في جلالة الشأن، وعزة السلطان؛ ووصف ذلك يطول. ودفعوا كتاب ملكهم في رق مصبوغ سماءي مكتوب الذهب؛ وكان على الكتاب طابع ذهب، وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورة المسيح - عليه السلام -، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده. وفيها، أمر الناصر أحمد بن يعلى وحميد بن يصل المكاسي بالخروج إلى بني محمد الأدارسة الحسنيين أمراء الغرب، ففصلاً بمن ضم إليهما من الجيش

إلى الخضراء؛ وكان خروجهما من قرطبة للنصف من رجب. وفي عقبه، قدم على الناصر رسول من بعض الحسنيين، يذكر طاعتهم إليه، وانقيادهم لأمره في هدم مدينة تطلون التي أنكر عليهم بناءها؛ فعقد لهم في أول شعبان، وأمر بحاربتهم؛ ثم وصل محمد بن أبي العيش الحسني إلى الناصر من أبيه أبي العيش؛ فأقبل عليه الناصر، وأبلغ في تكريمته؛ ثم ورد الخبر بوفاة أبي العيش، فأوصل الناصر أبنه محمداً إلى نفسه، وعزاه عن والده، وعقد له على عمله، ووصله، وخلع عليه وعلى الوافدين معه، وصرفهم. فخرج محمد مبادراً إلى عمله بالغرب. وكان، عند وفاة أبيه أبي العيش، قصد ابن عمه قنون إلى بلده؛ فاحتوى على ماله وأهله. ولما بلغ البربر إقبال محمد بن أبي العيش إلى بلده من قبل الناصر، رجعوا إلى عيسى بن قنون، وقد خرج عن تبكيساس؛ فقطعوا به، وكسروه، وسلبوه ما كان أخذه لابن عمه، وقتلوا أكثر أصحابه؛ فلم يخلص إلا في سبعة فوارس.

وفيها، وصل إلى قرطبة أحمد بن الاطرابلسي رسول البوري بن موسى بن أبي العافية بكتاب يذكر أنه صح عنه أن الخبر بن محمد بن خزر الزناتي وصل إلى تاهرت، فغاربها؛ فاستنصر أهلها بميسور قائد الشيعي؛ فالتقوا؛ فدارت الدائرة على ابن خزر أول نهارهم، ثم كانت الكرة لوناته؛ ودخل الخير أميرهم مدينة تاهرت وملكها في غرة ذي القعدة، وأخذ قائد الشيعي أسيراً في عدة من أصحابه؛ ووقع في يده عبد الله بن بكار اليفرني الذي توجه إلى الشيعي برأس أيوب بن أبي يزيد؛ فأرسل به إلى يعلى بن محمد بن صالح اليفرني ليقتله بوالده بعدما كان أخذ كل ما عنده؛ فلم يرض يعلى بذلك، ولا رآه كفواً لعبده، فكيف لوالده؛ ودفعه المذكور إلى رجل من البربر كان قد قتل ابنه، فقتله به. ودخل يعلى بن محمد وهران، فملكها.

وفيها، جرت قصة الولد عبد الله بن الناصر التي أراد الله بها ابتلاء أبيه فيه؛ فعجل الوثوب به وبأصحابه آخر هذه السنة، عجل عليهم فيها بأفطع العقاب؛ فقتلهم؛ وتأتي بانبه عبد الله مديدة إلى أن طوقه الحسام في آخر سنة ٣٣٨؛ وكان الحكم أخوه ذكر عنه أنه يريد القيام على أبيه؛ فقبل قوله فيه. وكان عبد الله من أهل العلم والذكاء والنبيل.

وفي سنة ٣٣٩، أخرج الناصر قائده أحمد بن يعلى نحو جليقية، وجاء في انتهاز فرصة من العدو؛ فأعانه الله عليها، واقتحم على غفلة؛ فافتتح ثلاثة حصون، وسبي نحو ألف سبية، وانصرف آخر رجب من السنة.

وفيها، ورد الخبر بهلك ردمير بن أردون صاحب جليقية؛ فملك الجلالقة ابنه أردون، ونازعه أخوه غرسية؛ فجرى بينهم اختلاف أظفر الله بن المسلمين.

وفيها، وصل إلى قرطبة ابنا البوري بن موسى بن أبي العاقبة أمير الغرب. وورد رسول الأمير الخير أمير زناتة وكبير أمراء الغرب إلى الناصر، يذكر ما أتاح الله له من دخول مدينة تاهرت، وظفره بميسور وعبد الله بن بكار اليفرني قواد الشيعي؛ فقرى كتابه بجامعي قرطبة والزهراء. ثم ورد كتاب عبد الرحمن ابن عبد الله الزجالي من جهة شذونة، يذكر أن بني محمد الأدارسة بالغرب زحفوا إلى حميد بن بصل قائد الناصر، ونزلوا عليه، والتقوا به؛ فكانت الدائرة على بني محمد، وانصرفوا مغلوبين.

وفي سنة ٣٤٠، كانت للمسلمين غزوات على الروم، نصرهم الله فيها. منها فتح على يد قائد بطليوس بجيلية، هزمهم أقبح هزيمة، قتل جملة من حماهم ومقاتلتهم، وسبي من نسائهم وذرائعهم نيفا على ثلاثمائة رأس؛ ووصل ذلك السبي إلى قرطبة لثلاث خلون من الحرم، وفتح آخر على يدي أحمد بن يعلى قائد الناصر؛ وفتح آخر على يدي رشيق قائد الناصر على طلبيرة؛ وفتح آخر على يدي يحيى بن هاشم النجبي.

وفي غرة جمادى الآخرة، وهو الثامن من أكتوبر، هبت بقرطبة ريح عاصف، وتتابع البرق، واشتد الهول، ونزلت صاعقة في دار أحمد بن هاشم ابن عبد العزيز، فقتلت امرأة، وأبطلت أخرى.

وفي سنة ٣٤١، كان للمسلمين غزوة في الروم، نصرهم الله فيه، وفتوحات ومنوحات.

وفي آخر جمادى الأولى، وردت الأخبار بأن زبى بن مناد الصنهاجي عامل الشيعي على تاهرت أسر سعيد بن خزر زعيم زناتة وكبيرها. وفي هذا الوقت، ورد كتاب ابن يعلى قائد الأسطول بقبضة لرهن محمد ابن إدريس الحسني كبير أمراء الأدارسة.

وفي آخر جمادى الآخرة، وصل إلى قرطبة فتوح بن الخير بن محمد بن خزر كبير أمراء زناتة بأرض الغرب، وافدا إلى الحضرة، ومعه وجوه أهل تاهرت ووهران؛ وأدخلت بين يديه الرؤوس التي احتزها للقواد المشاركة ووجوههم من رجال إسماعيل الشيعي العبيدي، يقدمها رأس ميسور الخصي ورأس محمد بن ميمون وغيرهما من رؤوس أعلام الشيعة، وعشرة من بنودهم، أدخلت منكسة، معها عدة من طبولهم؛ فرفعت هذه الرؤوس والبنود والطبول على باب قصر قرطبة، وأقيمت له ولمن جاء معه الكرامات الواسعة. وفي سنة ٣٤٢، قدمت رسل هوتو ملك الصقالبة على الناصر.

وفيها، خرج القائد أحمد بن يعلى غازيا إلى جليقية؛ فنحه الله في الكفار القتل للرجال، والسبي للذرية والعيال، وإحراق القرى، وانتساف النعم؛ فقرى كتابه يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ربيع الأول بقرطبة؛ وقرى معه كتاب القائد غالب، يذكر عظيم ما فتح الله عليه ومنحه من نكاية المشركين؛ ثم دخلت الرؤوس إلى قرطبة، ومعها النواقيس والصلبان، فقرت عيون أهل الإسلام.

وفي سنة ٣٤٣، ولي الناصر مدينة طليطلة القائد أحمد بن يعنى، وصرف عنها محمد بن عبد الله بن حدير.

وفيها، فصل القائد حميد بن يصل، المستأمن إلى الناصر، بالجيش الذي ضمه إليه إلى بلاد الغرب، وخرج معه القرشي السليماني المستأمن إلى الناصر أيضا، الذي كان أميرا على مدينتي تنس وأرشقول وما بينهما من أرض إفريقية؛ فأخرجه عنها قواد الشيعي. واسمه علي بن يحيى، ينتسب إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -؛ فكان خروجهما من بين يدي الناصر بعد أن خلع عليهما خلع الوداع، بعد خلع تقدمت له عليهما بيوم قبل وصولهما من دراريع الديباج والخز وعمائم الشرب المذهبة وغير ذلك. ودفع لحמיד سبعة عشر ألفا للنفقة على الجند، ومن أحمال الكسوة سبعة أحمال.

وفيها، وصل إلى قرطبة وقد ازداجة من البربر الذين انحاشوا إلى الطاعة؛ فكساهم الناصر ووصلهم. وورد كتاب فتح من حميد بن يصل قائد الناصر بالعدوة بما فتح الله عليه من مدينة آسلان وانتشار الدعوة الأموية بنواحيها.

وفيها، قدم الحاج؛ فذكروا أنه وقع بقشطاط مصر حريق عظيم احترق فيه ستة ألفا بين دار ومسكن.

وفي سنة ٣٤٤، وردت قواد الثغور لسبع خلون من ربيع الآخر على الناصر، وفيهم غالب، ومطرف، ومحمد بن يعلى، وعبيد الله بن

أحمد بن يعلى، وهذيل ابن هاشم النجبي، ومروان بن رزين، وعامر بن مطرف بن ذي النون، يذكرون أنهم دخلوا إلى أرض العدو، وقصدوا حصناً من بلد قشتيلة؛ فتغلبوا على أرباضه، وقتلوا جماعة من أهله، وقفلوا عنه؛ فوافقتهم جموع النصرانية؛ فأيد الله المسلمين، وانهزم المشركون أمامهم مقدار عشرة أميال، يقتلونهم كيف شاءوا؛ فأحصى أنه قتل منهم مقدار عشرة آلاف. وكانت هذه الواقعة بينهم لليلة.

بقيت من ربيع الآخر منها؛ فقرى كتابهم بهذا الفتح الجليل بقرطبة؛ ثم وردت إلى قرطبة الرؤوس المحتزة في هذه الهزيمة نحو خمسة آلاف رأس؛ فأمر الناصر برفعها على الخشب حوالي سور قرطبة.

ولسبه خلون من جمادى الأولى، كانت بقرطبة زلزلة عظيمة ظاهرة الهزة؛ وعادت زلزلة أخرى مثلها يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت منها، وذلك عند الظهر.

وفيها، ثقف الناصر أمور الخدمة السلطانية، ووزعها بين وزرائه؛ فقلد الوزير جهور بن أبي عبدة النظر في كتب جميع أهل الخدمة؛ وقلد الوزير عيسى ابن فطيس النظر في كتب أهل الثغور والسواهل والأطراف وغير ذلك؛ وقلد الوزير الكاتب عبد الرحمن الزجالي النظر في تنفيذ كل ما يخرج من العقود والتوقيعات، وينفذ به الأمر أو الرأي وغير ذلك؛ وقلد الوزير محمد بن حدير النظر في مطالب الناس وحوادثهم، وتجنيز التوقيعات لهم. فالتزم القوم ما ألزموا؛ فاعتدل بهم ميزان الخدمة، وسهلت مطالب الرعية.

وفيها، ورد كتاب يعلى بن حميد قائد العدو من قبل الناصر بما فتح الله عليه في قائد الشيعي معد بن إسماعيل صاحب إفريقية من هزيمته له وقتله من قتل من رجاله وغير ذلك. ووصل إلى قرطبة ابن عم حميد بن يصل، ومعه ستة وثلاثون من وجوه كرامة وغيرهم من القبائل المستأمنين إليه من عسكر الشيعي؛ فأمر الناصر بانزالهم، وجلس لهم على سريره بقصر الزهراء يوم الثلاثاء ربيع خلون منه؛ فوصلوا إليه؛ فرأوا مقاما جليلا، وكلهوه، فرد عليهم جميلا، وأحسن موعدهم، وأمر بالخلع عليهم، ووصلوا بصلات جزلات، وأمروا بالرجوع إلى القائد حميد بن يصل.

وفيها، أمر الناصر بإطلاق اللعن على ملوك الشيعة بجميع منابر الأندلس، وإنفاذ كتبه بذلك إلى العمال بسائر الأقطار. وفي سنة ٣٤٥، وطئ غالب، قائد أسطول الناصر، أرض سواحل إفريقية من عمل الشيعي.

وفيها، قدم محمد بن حسين رسولا كان من الناصر إلى الطاغية أردون ابن ردمير ملك جليقية، ومعه حسداي بن شبروط اليهودي، بكتابه إلى الناصر، راغبا منه في الصلح؛ فأسعفه الناصر في ذلك على اختيار ولده الحكم، واشترط على الطاغية شروط؛ وانصرفت رسله بذلك.

وفيها، قتل محمد بن أبي العيش الإدريسي أمير الغرب.

وفيها، خرج قاسم بن عبد الرحمن إلى حميد بن يصل قائد الناصر بالغرب من قرطبة بأحد عشر حملا من المال وأحمال العدة، تقوية على الذب عن الدولة المروانية بالغرب، وذلك لخمس خلون من صفر منها. ولما كان يوم النصف منه، ورد كتاب حميد بدخوله مدينة تلمسان.

وفي سنة ٣٤٦، قدم إلى الناصر أمراء بني رزين ومن التف إليهم؛ فوصل إلى الناصر كبيرهم مروان بن هذيل بن رزين الثائر بالسهلة المنسوبة إليهم؛ فأدنوا وأكرموا.

وفيها، برز القائد غالب الناصري إلى فخص السراق غازيا إلى دار الحرب؛ ففتح عليه في بلاد المشركين؛ وفتح الحصون وقتل المقاتلة واكتسح بسيط عدو الله غرسية بن شانجه ملكهم، وخرب قراه، ورجع بالمسلمين ظاهرين. وكذلك برز القائد أحمد بن يعلى للغزو إلى بلد العدو تاليا للقائد غالب؛ فورد كتابه يوم الأحد لخمس بقين من ربيع الآخر بفتح عظيم تهايا له في غزوة إلى جليقية، وأنه ثخن في قتلهم، وحز من رؤوسهم أربعمائة، واستاق من الماشية والكرع ما فات الإحصاء.

وفي سنة ٣٤٧، أول المحرم، أمر الناصر صاحب الشرطة القائد أحمد بن يعلى بالخروج غازيا في الأسطول إلى بلد الشيعي معد بن إسماعيل صاحب

إفريقية؛ فبرز ابن يعلى إلى محلة الربض لغزاته هذه يوم الخميس ثمان خلون منه؛ وكان بروزه نخما، خرج إليه من النظارة من أهل قرطبة رجالهم ونسائهم وأبنائهم وولداتهم خلق لا يحصيه إلا خالقهم؛ فانتشروا بأكاف الربض على عاداتهم؛ فأخذ السفلة منهم والغوغاء

يتقاذفون بالحجارة حاكين لصفي القتال؛ فدخل في عرضهم قوم من الطنجيين من جند السلطان حشوا الضراب بينهم، حتى حمى وطيسه، وقد تكنف صفيهم من النظارة الرجال والنساء خلق عظيم. فلم يك إلا ساعة، ودارت بينهم جولة ظهر فيها أحد صفيهم؛ فمالوا على مغلوبهم، وانبسطوا عليهم؛ فامتد الطنجيون بغالب شرهم وجهلهم إلى نهب مغلوبهم من الرجال، وتخطوهم إلى من حولهم من النظارة، وانبسطوا على النساء؛ فسلبوهن ثيابهن، وفضحوا كثيرا منهن؛ فجعل المجردات من النساء يتوارين في الزرع المكمل، حياء من الناس، وترقبا لوقت تفرقهم. وشرح ذلك يطول.

وفي جمادى الآخرة منها، ورد كتاب قائد الأسطول أحمد بن يعلى من مدينة آسلا من عمل تلسان، يذكر أن جوهر قائد معد بن إسماعيل صاحب إفريقية قتل يعلى بن محمد بن صالح اليفرنى صاحب مدينة آفكان غدرا، وأن ابن عمه انتصب مكانه بإقامة من جلة قومه له، ورجع القائد المذكور إلى قرطبة ومعه ولد ابن قره، ابن عم يعلى بن محمد المتقدم الذكر، المقدم بعده في قومه بني يفرن؛ فبلغ في إكرامه.

وفي سنة ٣٤٨، في أول ربيع الآخر منها، خرج علي بن يحيى الحسيني إلى شرشل مكانه من العدو قائدا، بمن انضم إليه من الحشم، لمكافأة أصحاب الشيعي صاحب إفريقية.

وفي أول ذي القعدة منها، أوصل الناصر إلى نفسه حريز بن منذر في جماعة من وجوه الموالي والعرفاء ورجال الجند، يأمرهم جميعا بالخروج إلى مدينة

١٦٠٩ بعض أخبار الناصر على الجملة

مسنة من أرض العدو، مع بدر الفتى الكبير صاحب السيف، لتنفيذ العدد فيها من أجل جولان جوهر قائد معد الشيعي صاحب القيروان بأرض العدو؛ فنفذوا لأمره، ومكثوا كذلك إلى أن أمنت الحادثة؛ فانصرفوا مع القائد بدر، آخر ذي الحجة من السنة. وفي سنة ٣٤٩، كان ابتداء علة الناصر، وذلك يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر، وذلك نصف النهار منه، طرقت أمير المؤمنين الناصر علته الصعبة من الريح الباردة؛ فأرجف به، وخيف عليه، وأكبت الأطباء على معالجته، إلى أن ظهر عليه تجفيف؛ فتجشم القعود لخاصته في العشر الأوائل لجمادى الأولى. فوصل إليه الفتیان الأكبر، وصاحب الطراز، وخواص أكبر العبيد كظفر وذويه؛ فاستبشر أهل المملكة بما بدا لهم من انحطاط مرضه، وسألوا الله كمال عاقبته؛ والقضاء قد سبق بموته من علته؛ فلم تفارقه، تخف حيناً وثقل حيناً، إلى أن قضت عليه في سنة ٥٠ التي بعد هذه.

بعض أخبار الناصر على الجملة

كان الناصر - رحمه الله - ملكاً أزال الأواء؛ وحسم الأدواء؛ وقهر الأعادي، وعدل في الحاضر والبادي؛ قد أسس الأوس؛ وغرس الغروس واتخذ المصانع والقصور، وترك أعلاما باقية إلى النفخ في الصور. فاعتبر بالزهراء كم بها من قصر مشيد، وآثار ملوك صيد؛ قد عادت معاهدها بعدهم دارسة، وآثارها دونهم طامسة؛ تنفي الرياح بجنباتها، وتبكي الغيوم على عرصاتهما. ولما ولي الناصر لدين الله، اعترز ركن الدين، واحتفى دمار المسلمين، وقام الجهاد على ساق، ونحمت نار الخلاف والشقاق، ودخل الناس في طاعته أفواجا، واستنفروا إلى دعوته أفرادا وأزواجا. فناهيك من فضل أعطاهم، وعدل أكنفهم به وغطاهم، وتكرمة أنالهم إياها، ومسرة أبدى لهم محياها؛ قد ملك سبته وما يليها من الأقطار، وطردها ملوك الأدارسة طرد الليل النهار، وبث عماله وقواده فيها، وطاعت له البرابر في جميع نواحيها، واعتصموا بحبله، ولاذوا بفضله وعدله. وكان اصطفى مولاه بدرا، وجعله شمساً لملكه وبدرا، وقلده خطة الحجاب، وجعل له النفي والإيجاب؛ فشد ملكه بقوة ساعد، وسعج مساعد؛ ثم قدم موسى بن حدير؛ فكل به الملك واتسق واتفق له من الجد ما اتفق؛ فقاد عسكرا مجرا، وجر الدنيا جرا.

ومن قول ابن عبد ربه فيه (بسيط):

قَدْ أَوْضَحَ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ مِنْهَا جَا... وَالنَّاسُ قَدْ دَخَلُوا فِي الدِّينِ أَفْوَاجَا
وَقَدْ تَزَيَّنَتِ الدُّنْيَا لِسَاكِهَا... كَأَنَّمَا أَلْبَسَتْ وَشِيًّا وَدِيَا جَا

يا ابن الخلائف إنَّ المزنَ لو عَلِمْتَ ... نَدَاكَ ما كان منها الماء نجاجا
والحربُ ولو عَلِمْتَ بأَسَا تَصُولُ به ... ما هَيَّجَتْ من حُمَاكَ الذي اهْتَاجَا
مَاتَ النِّفَاقُ وَأَعْطَى الكُفْرُ ذِمَّتَهُ ... وَذَلَّتْ الخَلِيلُ الجَمَامُ وإِسْرَاجَا
وَأَصْبَحَ النَّصْرُ مَعْقُوداً بِالْوِيَةِ ... تَطْوِي المَرَاحِلَ تَهْجِيراً وإِدْلَاجَا
إِنَّ الخِلَافَةَ لَنْ تُرْضَى وَلَا رُضِيَتْ ... حَتَّى عَقَدْتَ لها في رَأْسِكَ التَّاجَا
ومن مناقبه، أنه لم يبق في القصر الذي هو من مصانع أجداده ومعالم أولته بنية إلا وله فيها أثر محدث، إما بتجديد أو بتزييد. ومن مناقبه، كثرة جوده الذي لم يعرف لأحد قبله من أجواد الجاهلية والإسلام، حتى قيل فيه - رحمة الله عليه - (كامل) :

١٦٠١٠ حكاية

١٦٠١١ حكاية

يا ابن الخلائف والعلی للمعتلى ... والمجدُّ يَعْرِفُ فَضْلَهُ لِلْمُفْضَلِ
نَوَّهَتْ بالخُلَفَاءِ بَلْ أَحْمَلَتْهُمْ ... حَتَّى كَانَتْ نَبِيلُهُمْ لَمْ يَنْبِلِ
أَذْكُرْتُ بَلْ أَنْسَيْتُ مَا ذَكَرَ الْوَرَى ... مِنْ فِعْلِهِمْ فَهَآءُ لَمْ يُفْعَلِ
وَأَتَيْتُ آخِرَهُمْ وَشَاوُكَ فَائْتِ ... لِلآخِرِينَ وَمُدْرِكُ لِلأَوَّلِ
تَأْيِي فِعَالُكَ أَنْ تُعَدَّ لآخِرٍ ... مِنْهُمْ وَجُودُكَ أَنْ يُعَدَّ لِأَوَّلِ

وكم للناصر - رحمه الله - من غزوات مذكورة، وفتوحات مشهورة، يبقى في الأعقاب نغرها، ولا يبلى على مر الأقطاب أثرها. وقد نظم ابن عبد ربه في غزواته أرجوزة من سنة ٣٠١ إلى سنة ٣٢٢. وقد أطل الشعر في مدحه، وأطنبوا في شكره؛ ولولا أن الناس مكتفون بما في أيديهم منها، لأعدنا هنا ذكرها أو ذكر بعضها؛ ولكن المذهب هنا الاختصار والإيجاز والاختصار.

حكاية

ومما ذكر من إفضاله، مع بعض عماله، قال حيان بن خلف: كان محمد بن سعيد المعروف بابن السليم قد احتجن أموالا كثيرة بتصرفه في بكار الولايات في المدة الطويلة؛ فعلم ذلك منه الناصر؛ فعرض له مرارا في أن يساهمه فيه عن طيب نفس منه، وهو ملكه، ولو شاء لأخذه منه، ولكن أبى ذلك كرم طبعه. فقال في مجلسه يوما: (ما بال رجال من خاصتنا توسعوا في دنيانا، فطفقوا يحتجون الأموال، ويضيعون تعمدنا، وهم يرون غليظ مؤنتنا في الإنفاق على شؤوننا التي بقدرتنا عليها صلاح أحوالهم ورفاهية عيشهم. ويعلمون أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، قسطاس الموازين، قاسم عماله أرباحهم في تجارتهم؛ فجعلها في بيت المال، وهو من هو، وهم من هم، والأسوة في فعله!) فسكت ابن السليم عنه وغالطه في تعرضه كأنه

يعني غيره. فازداد الناصر حنقا عليه وغيظا؛ فقال له يوما في بعض مجالسه الخاصة معه، وقد أخذ الشراب منه، وشق تفاحة بسكين في يده: (وددت أن أشق هكذا رأس من أعرف له مالا كثيرا غله دوننا، ولم يسهم بيت المال منه!) فطار عقل ابن السليم، ولم يختلجه الشك في أنه المعني به؛ فقام بين يديه، وقال: (يا أمير المؤمنين! طال ما عرضت بي! فسكت؛ بلى والله! إن عندي مالا كثيرا، وهو دون ظنك فيه، حطته بالتقتير، وأعددت له الدهر العثور، ولست والله أعطيك منه درهما، فما فوقه، ورأيتك في جميل إلا أن تستحل) (وأعوذ بالله!) أن تمد يدك إليه بغير جناية مني عليك! فإن الأنفس محضرة الشح. قال: فجل الناصر وأطرق يتلو قول الله تعالى: [إن يسئلكموها فيحفظكم أن تبخلوا ويخرج أضغانكم.] ثم أقبل على ابن السليم يونسه ويسكن جأشه، إلى أن اعتدل مجلسه؛ فجعل يمعن في الشرب طلبا للسكر الذي خامره من الذعر. فقال له الناصر: (خفض عليك، يا محمد؛ فلا سبيل إليك!) فلما سكر ابن السليم، تهوع؛ فقفز، وابتدره الوصفاء بالطست والمناديل؛ فأقبل الناصر وأخذ برأسه يمسه، ويقول له: (استفرغ ما في معدتك وتأن بنفسك!) .

فأنكر ابن السليم كلامه بين الخدم، وصرف إليه رأسه، وإذا به الناصر. فما تمالك أن خر إلى رجليه يقبلهما، ويقول: (يا ابن الخلائف! إلى هنا انتهيت من برّي!) وجعل يدعو له، ويعظم شكره؛ فقال له الناصر: (ليتني أخرج كفافاً من شأني معك الليلة: تأنيساً بإخافة وإطافاً بجفوة). ثم أمر له بكسوة، وانقلب إلى أهله. فكان هذا مما يعد من كرمه وفضله. فلما مضت أيام، أرسل ابن السليم إلى الناصر بمائة ألف دينار دراهم؛ فقبلها الناصر، وشكر فضله) وعوضه بكبير الولايات، وصحبته منه النعمة العريضة إلى حين وفاته. حكاية

ومازح الناصر - رحمه الله - يوماً وزيره أبا القاسم لباً؛ فقال له:

(يا لبُّ اهج الوزير عبد الملك بن جهور!) فامتنع عليه؛ فقال لابن جهور: (فأهيج أنت، إذ أبي هو من هجوك). فقال: (يا أمير المؤمنين، أتوقع عرضي منه، وأصون نفسي عنه!) فقال الناصر: (فأنا أهجوه). فقال (سريع):

لبُّ أبو القاسم ذو لحية ... طويلة في طولها ميلٌ

ثم قال لابن جهور: (لا بد لك من تذييل هذا البيت؛ فدع الاعتذار). فقال:

وعرّضها ميلان إن كسرت ... والعقل مأفون ومدخولٌ

لأنه أحتاج إلى غسلها ... لم يكفه في غسلها السيلُ

فضحك الناصر، وقال لب: (إنه قد سبب لك القول؛ فقل!) فقال لب:

قال أمين الله في خلقه ... لي لحية أزرى بها الطولُ

وابنٌ غير قال قول الذي ... مأكولهُ القرظيل والنولُ

لولا حيائي من إمام الهدى ... نخشت بالمنخس (شو قول)

فلما بلغ لبُّ إلى قوله (شو) سكت؛ فقال له الناصر: (قول). فأتى له على نحو ما أضمر؛ فقال له: (أنت هجوته، يا مولاي!) فضحك الناصر، وأمر له بصلة.

وكان الناصر قد خرج يوماً على فرس أبلق في هيئة جليلة والوزراء قد حفوا به؛ فقال ابن عبد ربه في ذلك مرتجلاً (سريع):

بدرٌ بدا من تحته أبلق ... يحسد فيه المغرب المشرقُ

لويلعلم الأبلق من فوقه ... لا خيال من عجب به الأبلقُ

إمامٌ عدلٌ بأسط كفه ... يرزق منها الله من يرزقُ

عابه الدهر الذي قد مضى ... وجدَ والله به الخبلقُ

وكان، لما ترعرع ابنه الحكم بن عبد الرحمن، ولاه العهد من بعده. وكان له أخ اسمه عبد الله؛ فحسده على ذلك، واجتمع عليه قوم وأراد قتل أخيه؛ واتفق مع أصحابه أن يبادروه؛ فافتضحوا وقتلوا جميعاً، كما تقدّم. وأما الولد عبد الله، فذكر أنه أخرجه أبوه الناصر ثاني يوم عيد الأضحى؛ فذبح بين يديه - رحمه الله -؛ وكان عالماً فاضلاً.

وكان الناصر أمر ببناء الصومعة العظيمة في سنة ٣٤٠، وشرع في بنائها؛ وهي الشهيرة التي لا صومعة تعد لها. وكان الذي دعاه إلى بنائها حدث في القديمة؛ فهدمت إلى قواعدها وبنيت بصخر الحجارة المنقولة إليها على العجل؛ وجمع لها فجاءت فائقة الصنعة. وقد كانت الأولى ذات مطلع واحد؛ فصير لهذه مطلعين، وفصل بينهما بالبناء؛ فلا يلتقي الراقون فيها إلا بأعلاها. ولكل مطلع منها مائة درج وسبعة أدرج؛ وطولها ثمانون ذراعاً بالرشاشي إلى وقوف المؤذن؛ وفي أعلى ذروة المنار ثلاث رمانات تغشى النواظر بشعاعها، وتخطف الأبصار بالتماعها: الأولى مفروغة من الذهب، والوسطى من الفضة، والثالثة من الذهب أيضاً؛ وفوقها سوسانة من الذهب المحض مسدسة؛ وفوق السوسانة رمانة صغيرة من الذهب؛ ثم طرف الزج، وفيه تأريخ مكتوب بالذهب. وزنة كل رمانة من الثلاثة المذكورة قنطار واحد فما دونه، ودور كل واحدة ثلاثة أذرع ونصف. وكل بناء الصومعة في جمادى الأولى؛ فذلك ثلاثة عشر شهراً.

وكان الناصر زاد في المسجد الجامع بقرطبة زيادته المشهورة، المتصلة بزيادة ابنه الحكم بعده، وفيها القبو الكبير الذي يصطف المؤذنون أمامه يوم

١٦٠١٢ ذكر مسجد قرطبة الأعظم

الجمعة للأذان، وهو من أعجب البنيان. وإذا قد وقع ذكر المسجد الجامع بقرطبة؛ فالواجب أن نذكر أول من أحدثه ومن تولى بناءه من ملوك بني أمية. على سبيل الاختصار؛ فنقول:
ذكر مسجد قرطبة الأعظم

ذكر الرازي عن الفقيه محمد بن عيسى أنه قال: لما افتتح المسلمون الأندلس، استدلوها بما فعل أبو عبيدة وخالد - رضي الله عنهما - عن رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من مشاطرة الروم في كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحا. فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة في كنيساتهم العظمى التي كانت بداخلها، وابتنى المسلمون في ذلك الشطر مسجدا جامعاً. وبقي الشطر الثاني بأيدي الروم، وهدمت عليهم سائر الكنائس. فلما كثرت المسلمون بالأندلس، وعمرت قرطبة ونزلها أمراء العرب بجيوشهم. ضاق عنهم ذلك المسجد، وجعلوا يعلقون منه سقائف؛ فنال الناس من الضيق مشقة عظيمة. فلما دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس، وسكن قرطبة، نظر في أمر الجامع، وتوسيعه، وإتقان بنائه؛ فأحضر أعاجم قرطبة، وسألهم بيع ما بقي بأيديهم من الكنيسة المذكورة، وأوسع لهم البذل فيه، وفاء بالعهد الذي صولحوا عليه؛ وأباح لهم بناء كنائسهم التي كانت هدمت عليهم في وقت الفتح بخارج قرطبة. وخرجوا عن الشطر؛ فاتخذوه وأدخله في الجامع الأعظم. وكان شروع عبد الرحمن الداخل في هدم الكنيسة وبناء الجامع سنة ١٦٩؛ وثم بناؤه، وكملت بلاطاته، واشتملت أسواره في سنة ١٧٠؛ فذلك مدة من عام كامل؛ فقل إن النفقة التي أنفق الإمام عبد الرحمن بطول هذه السنة في بناء الجامع ثمانون ألفاً بالوازنة. وفي ذلك يقول البلوي - رحمه الله - (طويل) :

وَأَبْرَزَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَوَجْهِهِ ... ثَمَانِينَ أَلْفًا مِنْ لُجَيْنٍ وَعَسْجَدٍ
فَأَنْفَقَهَا فِي مَسْجِدِ أَسْهُ الشُّقِيِّ ... وَمَنْهَجَهُ دِينَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

ثم زاد ابنه هشام صومعة، كان ارتفاعها أربعين ذراعاً إلى موضع الأذان وبني بآخر المسجد سقائف لصلاة النساء؛ وأمر ببناء الميضأة بشرقي الجامع. وأقام الجامع على هيئته تلك إلى أيام عبد الرحمن بن الحكم؛ ثم زاد عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الزيادة المنتظمة بالأرجل، طولها خمسون ذراعاً، وعرضها مائة وخمسون، وعدد سواربها ثمانون سارية؛ وكان الفراغ من هذه الزيادة في جمادى الأولى سنة ٢٣٤. ثم زاد الأمير محمد بن عبد الرحمن أن أمر بإتقان طرر الجامع، وتثنيق نقوشه، وإقامة المقصورة، وجعل لها ثلاثة أبواب؛ فلما كمل ما أمر به في الجامع، دخله وصلى فيه ركعات خضع فيها. فقال في ذلك موسى بن سعيد (طويل) :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَبْدَى الْإِمَامُ التَّوَاضُّعَا ... فَأَصْبَحَ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ خَاشِعَا
بَنَى مَسْجِدًا لَمْ يُبْنَ فِي الْأَرْضِ مِثْلُهُ ... وَصَلَّى بِهِ شُكْرًا لِذِي الْعَرْشِ رَاكِعَا
فَطُوبَى لِمَنْ كَانَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ ... لَهُ إِذْ دَعَا فِيهِ إِلَى اللَّهِ شَافِعَا

ثم زاد الأمير المنذر بن محمد البيت المعروف ببيت المال في الجامع؛ فوضع فيه الأموال الموقفة لغياب المسلمين؛ وأمر بتجديد السقاية وإصلاح السقائف. ثم زاد أخوه الأمير عبد الله بن محمد ساباطاً معقوداً على حنايا، أوصل به ما بين القصر والجامع من جهة الغرب؛ ثم أمر بستارة من آخر هذا السباط إلى أن أوصلها بالحرايب؛ وفتح إلى المقصورة باباً كان يخرج منه إلى الصلاة؛ وهو أول من اتخذ ذلك من أمراء بني أمية بالأندلس - رحمهم الله -.

رجع الخبر إلى ذكر الناصر. قيل إنه أنفق في صومعة المسجد وفي تعديل

١٦٠١٣ ذكر بناء مدينة الزهراء بقرطبة

١٦٠١٤ أعادها الله للإسلام بفضله

المسجد وبنیان الوجه للبلاطات الأحد عشر بلاطا سبعة أمداد وكيكين ونصف كيل من الدراهم القاسمية. وجملة ما أنفق عبد الرحمن الناصر في بناء مدينة الزهراء وقصورها خمسة وعشرون مدبا من الدراهم القاسمية وستة أقفزة وثلاثة أكيال ونصف. ذكر بناء مدينة الزهراء بقرطبة أعادها الله للإسلام بفضله

ابتدئ بنائها في أيام الناصر من أول سنة ٣٢٥. وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ستة آلاف صخرة سوى التبليط في الأسوس؛ وجلب إليها الرخام من قرطاجنة إفريقية ومن تونس؛ وكان الأمانة الذين جلبوه عبد الله بن يونس، وحسن القرطبي، وعلي بن جعفر الإسكندراني؛ وكان الناصر يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلها سارية. وكان فيها من السواري أربعة آلاف سارية وثلاثمائة سارية وثلاث عشرة سارية، المجلوبة منها من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية. وأهدى إليه ملك الروم مائة وأربعين سارية؛ وسائر ذلك من رخام الأندلس. وأما الحوض الغريب المنقوش المذهب بالتماثيل، فلا قيمة له، جل به ربيع الأسقف من القسطنطينية من مكان إلى مكان حتى وصل في البحر؛ ووضع الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالموئس؛ وكان عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصع بالدر النفيس العالي مما صنعه بدار الصنعة بقصر قرطبة. وكان المتولي لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم، لم يتكل الناصر فيه على أمين غيره. وكان يخبز في أيامه كل يوم يرسم حيتان البحيرات ثمان مائة خبزة، وهذا من أعظم الأشياء إلى ما فوق ذلك.

وكان الناصر قد قسم الجباية على ثلاثة أثلاث: ثلث للجنود، وثلث للبناء، وثلث مدخر. وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن المستخلص والأسواق سبع مائة ألف دينار وخمسة وستين ألف دينار.

ومما قيل في آثار مدينة قرطبة وعظمتها حين تكامل أمرها في مدة بني أمية - رحمهم الله تعالى - إن عدة الدور التي بداخلها للرعية دون الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار، ومساجدها ثلاثة آلاف؛ وعدة الدور التي بقصرها الزهراء أربع مائة دار، وذلك لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته. وعدد الفتيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبع مائة وخمسون. وعدة النساء بقصر الزهراء الكبار والصغار وخدم الخدمة ستة آلاف وثلاثمائة امرأة؛ وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل ينقسم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون ذلك، سوى الدجاج والحجل وصنوف الطير وضروب الحيتان. وعدد حماماتها ثلاثمائة حمام؛ وقيل إنها المبرزة للنساء. وكان عدد أرباض قرطبة - أعادها الله للإسلام - في ذلك الوقت ثمانية وعشرين ربضا، منها مدينتان: الزهراء والزاهرة. وأما اليتيمة التي كانت في المجلس البديع، فإنها كانت من تحف قيصر اليوناني صاحب القسطنطينية، بعض بها للناصر مع تحف كثيرة سنوية. فسبحان من لا يبذل ملكه ولا ينقطع عزه!

وفي سنة ٣٥٠، توفي الناصر - رحمه الله -، وذلك في صدر رمضان منها. ووجد بخطه تأريخ قال فيه: (أيام السرور التي صفت لي دون تكدير في مدة سلطاني يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا). فعدت تلك الأيام؛ فوجد فيها أربعة عشر يوما. فأعجب أيها الغافل لهذه الدنيا، وعدم صفائها، وبخلها بكال الأحوال لأولائها. إن الخليفة الناصر ملك خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام، ولم يصف له من الدنيا إلا أربعة عشر يوما! فسبحان ذي العزة العالية، والمملكة الباقية، تبارك اسمه وتعالى جده!

١٧ خلافة الحكم بن عبد الرحمن المستنصر بالله

ومن رثاه، جعفر بن عثمان المصحفي، فقال (طويل):

ألا إنَّ أياماً هَفَّتْ بِإِمَامِهَا ... لَجَائِرُهُ مُشْتَطَّةٌ فِي احْتِكَامِهَا
فَلَمْ يُؤْلَمْ الدُّنْيَا عِظَامُ خُطُوبِهَا ... وَأَحْدَاثُهَا إِلَّا قُلُوبَ عِظَامِهَا
تَأْمَلْ فَهَلْ مِنْ طَالِحٍ غَيْرِ آفِلٍ ... لَهْنٌ وَهَلْ مِنْ قَاعِدٍ لِقَامِهَا
وَعَايِنْ فَهَلْ مِنْ عَائِشٍ بَرَضَاعِهَا ... مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَيِّتٌ بِفِطَامِهَا
كَأَنَّ نَفُوسَ النَّاسِ كَانَتْ بِنَفْسِهِ ... فَلَمَّا تَوَارَى أَثْنَتُ بِحِمَامِهَا
فَطَارَ بِهَا يَأْسُ الْأَسَى وَتَقَاصَرَتْ ... يَدُ الصَّبْرِ عَنْ أَعْوَالِهَا وَاحْتِدَامِهَا
خلافة الحكم بن عبد الرحمن المستنصر بالله

نسبه: الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن الداخل. كنيته: أبو المطرف. أمه: اسمها مهران. عمره: ثلاثة وستون سنة وسبعة أشهر. بويج بعد موت أبيه ثلاث خلون لرمضان سنة ٣٥٠. وتوفي ليلة الأحد ثلاث خلون من صفر من سنة ٣٦٦؛ فكانت دولته خمس عشرة سنة، وسبعة أشهر، وثلاثة أيام. لقبه: المستنصر بالله. صفته: أبيض مشرب بحمرة، أعين، أقنى، جهير الصوت، قصير الساقين، ضخم الجسم، غليظ العنق، عظيم السواعد، أقيم. قضاته: منذر بن سعيد البلوطي قاضي أبيه؛ ثم أبو بكر محمد بن السليم. نقش خاتمه: الحكم بقضاء الله راض. وافتتح خلافته بالنظر في الزيادة في المسجد الجامع بقرطبة؛ وهو أول عهد أنفذه؛ وقد ذلك حاجبه وسيف دولته جعفر بن عبد الرحمن الصقلي، وذلك لأربع خلون لرمضان من السنة، وهو اليوم الثاني من يوم خلافته. فكان أول ما عهد إليه تقديم النظر في سوق الصخور التي هي أس البنيان؛ فابتدئ بانتقالها في رمضان المذكور. وكان قطر قرطبة قد كثر به الناس؛ فضاق الجامع عن

١٧٠١ ذكر الحبس الذي حبس المستنصر بالله على الجامع بقرطبة

حملهم، ونالهم التعب في ازدحامهم؛ فسارع المستنصر إلى الزيادة فيه؛ فخرج لتقديرها، وتفصيل بنيانها، وأحضر الأشياخ والمهندسين؛ فحدوا هذه الزيادة من قبلة المسجد إلى آخر الفضاء ماداً بالطول لأحد عشر بلاطاً. وكان طول الزيادة من الشمال إلى الجنوب خمسة وتسعين ذراعاً؛ وعرضها من الشرق إلى الغرب مثل عرض الجامع سواء؛ وقطع من هذا ساباط القصر المتخذ لخروج الخليفة إلى الصلاة إلى جانب المنبر بداخل المقصورة؛ فجاءت هذه الويادة من أحسن ما زيد في المسجد قبل وأشدّه وأتقنه. ذكر الحبس الذي حبس المستنصر بالله على الجامع بقرطبة

لما كملت زيادته، أحضر الفقهاء والعدول الشهداء وأعيان الناس ووجوههم وقضاتهم وأئمتهم. فحمد الله، وأثنى عليه، وجدد شكره على توفيقه، لإجراء هذه البنية الكريمة على يديه، وأنه تلقى هذه النعمة العظيمة بأن حبس ربع جميع ما جرته إليه الوراثة عن أبيه أمير المؤمنين في جميع كور الأندلس وأقاليمها على ثغور الأندلس كافة تفرق عليهم غلات هذه الضياع عاماً بعد عام على ضعفائهم إلا أن تكون بقرطبة مجاعة، فتفرق فيهم إلى أن يجبرهم الله. وجعل القبض والنظر في هذا الحبس إلى حاجبه وسيف دولته جعفر؛ وجعل دفع ذلك إلى وزيره وكتابه عيسى بن فطيس. وأشهد الحاضرين على ذلك، وأشهد أيضاً بعق كل مملوك له من الذكران، وخرج غازياً إلى بلاد المشركين.

وفي سنة ٣٥١، غزا الحكم المستنصر بالله بلاد الروم؛ ففتح بها حصونا كثيرة ومدناً جلييلة، وسبى وغنم، وانصرف غانماً ظافراً. وفيها، وفد عليه أبو صالح زموهر البرغواطي رسولاً من ملك برغواطة أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار؛ فسأله الحكم عن أنساب برغواطة ومذاهبهم؛ فأخبره بما تقدم في الجزء الأول.

وكان الحكم قد أنفذ الكتب في محرم من سنة ٣٥١ إلى جميع الولاة والقواد والعمال بأقطار الأندلس، يأمرهم بارتباط الخيل، والقيام عليها، والاستعداد بالعدد والأسلحة والآلات برسم الجهاد في سبيل الله.

وفيها، عزل عبد الله بن بدر عن شرطة المدينة بقرطبة، وولاهها محمد بن جهور، وأنفذ له سجلا بذلك بخط يده. وفيها، استحب جعفر الصقلي الفتى الكبير الناصري.

وفيها، وفد على المستنصر بالله أردون بن إذفونش الأحذب، من ملوك الجلالقة، المنازع لابن عمه شانجه بن ردمير سابقه إلى ولاية ملكهم؛ فبالغ في إكرامه في خبر طويل. وكان الفصحاء في ذلك مقامات وأشعار يطول الكتاب بذكرها. فمن قول عبد الملك بن سعيد من قصيدة (كامل) :

مَلِكُ الْخِلاَفَةِ آيَةُ الْإِقْبَالِ ... وَسُعُودُهُ مَوْصُولَةٌ بِتَوَالِي
فَالْمُسْلِمُونَ بِعِزَّةٍ وَبِرَفْعَةٍ ... وَالْمُشْرِكُونَ بِذِلَّةٍ وَسَفَالِ
أَلْقَتْ بِأَيْدِيهَا الْأَعَاجِمُ نَحْوَهُ ... مُتَوَقِّعِينَ لَصَوْلَةِ الرَّثْبَالِ
هَذَا أَمِيرُهُمْ أَتَاهُ أَخْذًا ... مِنْهُ أَوَاصِرٌ ذِمَّةٌ وَحِبَالِ

وفيها، وصل قرطبة إرسال شانجه بن ردمير، منازع الطاغية أردون ابن عمه ملك الجلالقة، ومعهم عبد الرحمن بن بحاف قاضي بلنسية، وأيوب بن الطويل وغيرهما؛ فتوصلوا كلهم إلى المستنصر في ربيع الآخر، وأوصلوا كتاب شانجه بن ردمير بجواب ما خوطب فيه وبيعته التي عقدها على نفسه وجميع أهل مملكته لأمر المؤمنين المستنصر بالله، في خبر طويل.

وفيها، ولد للخليفة الحكم ولد ذكر من حزبته التي سماها جعفر أم ولده؛ فسماه عبد الرحمن، وسرَّ به سرورا عظيما، إذ كان لا يولد له. وقالت في ذلك الشعراء والأدباء. فأكثرُوا. وفيها، ظهر نكت الجلالقة بكل جهة. وفيها، كان المدُّ الطامي بنهر قرطبة.

وفي سنة ٣٥٢، كانت غزوة شنت أَسْتَبْن، غزاها الحكم المستنصر بالله. وفي سنة ٣٥٣، كانت بقرطبة مجاعة عظيمة؛ فتكفل الحكم بضعفائها ومساكينها بما تقيم أرماقهم، وأجرى نفقاته عليهم بكل ربض من أرباض قرطبة وبالزهراء.

وفيها، قرى بالجامعين: قرطبة والزهراء، فتح ورد من قبل سعد الجعفري مولي الخليفة الحكم، القائد بالجوف، يذكر ما أتاحه الله على يديه في أهل جليقية، وأفاءه على المسلمين بسعد إمامهم الزكي.

وفيها، كان ازدحام الناس بالمسجد الجامع بقرطبة وتضاغطهم حتى كادت النفوس تلتف؛ فأمر المستنصر بالله بتوسعته والزيادة فيه؛ فأتى القاضي منذر ابن سعيد إلى المسجد الجامع، ومعه صاحب الأحباس والفقهاء والعدول بما اجتمع قبله من أموال الأحباس؛ فنظروا في الزيادة فيه.

وفيها، أنفذ المستنصر بالله أحمد بن نصر لبنان مدينة بغير طليطلة، وتشبيدها، وتوثيق أمورها؛ وجعل بين يديه أحمال أموال. وفيها، تحرك الحكم من قرطبة إلى المرية توقعا لما يصدر من صاحب إفريقية المحاد لأهل الأندلس، ولمعينة ما استكملها بها من الحصانة ومطالعة حال رابطة القبط ومشاركة حال الرعايا بتلك الجهة. وفيها، كان خبر اللص الذي سرق بيت المال الذي للسبيل بداخل المسجد الجامع بقرطبة في شوال.

وفي سنة ٣٥٤، نزل الغيث بقرطبة؛ فرويت الأرض، وطاب الحرث، وسرَّت النفوس. وفيها، ولد هشام بن الحكم. قال ابن حيان: كان الخليفة الحكم شديد الكلف بطلب الولد لعلو سنه؛ فبشر في بعض خلواته باشتغال أم ولده على حمل؛ فسر به، وبقي يترقبه؛ فأثته به أول خلافته؛ ثم مات طفلا؛ فأحزته. فلما بشر بهذا، فرح به؛ فاستبشر جعفر بن عثمان وزيره ببشراه، وأرسل إليه في التهئة بذلك أبياتا، وهي (وافر) :

هَنِيئًا لِلْأَنَامِ وَلِلْإِمَامِ ... كَرِيمٌ يَسْتَفِيدُ عَلَى كِرَامِ
مُرَجَّى لِلْخِلاَفَةِ وَهُوَ مَاءٌ ... مَأْمُولٌ لِأَمَالٍ عِظَامِ

أضاء على كريمته ضيائه ... فلم تعلم بغاشية الظلام
ولم لا يستضاء بجانيها ... وبين ضلوعها بدر التمام
قال: فلها ولدت جاريته جعفر ابنها هشاما الملقب بالمؤيد، بشر الخليفة الحكم بطلوعه، وجعفر بن عثمان عنده في خلوة؛ فارتاح لارتياحه؛
فقال على البديهة يهنته (منسرح) :
اطلع البدر من حجاب ... وأطرد السيف من قرايه
وجاءنا وارث المعالي ... ليثبت الملك في نصابه
بشرنا سيد البرايا ... بنعمة الله في كتابه
لو كنت أعطي البشير نفسي ... لم أفض حقاً لما أتى به
وفيها، كملت القبة المبتناة على المحراب في الزيادة بالمسجد، وذلك في شهر جمادى الآخرة منها.
وفيها، شرع في تنزيل الفسيفساء بالمسجد الجامع؛ وكان ملك الروم بعث بها إلى الخليفة الحكم. وكان الحكم قد كتب له في ذلك، وأمره
بتوجيه صانعها إليه، افتداء بما فعله الوليد بن عبد الملك في بنيان مسجد دمشق؛ فرجع وفد الحكم بالصانع، ومعه من الفسيفساء ثلاثمائة
وعشرون قنطاراً، بعث بها ملك الروم هدية؛ فأمر الحكم بإنزال الصانع، والتوسيع عليه، ورتب معه جملة من
مماليكه لتعلم الصناعة؛ فوضعوا أيديهم معه في الفسيفساء المحلوبة، وصاروا يعملون معه؛ فأبدعوا، وأربوا عليه، واستمروا بعد ذلك منفردين
دون الصانع القادم، إذ صدر راجعاً عند الاستغناء عنه، بعد أن أجزل له المستنصر الصلة والكسوة. وتداعى إلى هذه البنية كل صانع
حاذق من أقطار الأرض. وركب الحكم المستنصر بالله في العشر الوسط لشوال من الزهراء إلى الجامع، ودخله، ونظر إلى الزيادة وما
تم فيها، وأمر بإقلاع السواري الأربع التي كانت في عضادة المحراب القديم الفائقة التي لا نظير لها، وصيانتها إلى أن توضع في المحراب
الجديد عند إتقان إحكامه وإكماله.
وفي سنة ٣٥٥، في المحرم، أمر بوضع المنبر القديم إلى جانب المحراب، ونصب المقصورة القديمة. ونصب في قبلة هذه الزيادة مقصورة
من الخشب، منقوشة الظاهر والباطن، مشرفة الذروة، طولها خمسة وسبعون ذراعاً، وعرضها اثنان وعشرون ذراعاً، وعلوها إلى الشرفات
ثمانية أذرع. وكان الفراغ من هذه الزيادة ونصب المقصورة في رجب من السنة.
وفي يوم الجمعة ثمان خلون منه، قرى كتاب فتح من قبل سعادة الجعفري، القائد بمدينة الفرج، يذكر ما فتح الله له وأتيح على يديه من
أعداء الله المشركين.
وفي يوم الأربعاء لأربع خلون من ربيع الأول منها، نفذت الكتب إلى عمال الثغر الأدنى والأقصى في ارتباط الخيل، والتكثير منها،
وجودة القيام عليها لما يؤمل من الجهاد بعون الله.
وفي يوم الجمعة لثلاث خلون منه، قرى بقرطبة والزهراء كتاب فتح ورد من قبل الوزير يحيى بن هاشم، وكتاب فتح ورد من قبل سعد
الجعفري، وكتاب فتح ورد من قبل حريز بن هائل، يذكرون ما منحهم الله وفتح على أيديهم من قبل أعداء الله المشركين، وأن كل
واحد منهم نهض إلى ما قبله من بلادهم، فقتل وسبي، واكتسح وأشجى، وانصرف سالماً غانماً.
وفي أول رجب منها، ورد كتاب من قصر أبي دانس على المستنصر
بالله، يذكر فيه ظهور أسطول المجوس ببحر الغرب بقرب من هذا المكان، واضطراب أهل ذلك الساحل كله لذلك، لتقدم عادتهم
بطروق الأندلس من قبله فيما سلف؛ وكانوا في ثمانية وعشرين مركباً؛ ثم ترادفت الكتب من تلك السواحل بأخبارهم، وأنهم قد
أضروا بها، ووصلوا إلى بسط أشبونة. فخرج إليهم المسلمون، ودارت بينهم حرب، واستشهد فيها من المسلمين وقتل فيها من الكافرين.
وخرجت أسطول إشبيلية؛ فاقتحموا عليهم بوادي شلب، وحطموا عدة من مراكبهم، واستنفذوا من كان فيها من المسلمين، وقتلوا جملة
من المشركين، وانهزموا إثر ذلك خاسرين. ولم تزل أخبار المجوس تصل إلى قرطبة في كل وقت من ساحل الغرب، إلى أن صرفهم
الله تعالى.

وفيها، أغزى الحكم القائد غالباً، ففتح الله له في المشركين، وانصرف سالماً غانماً.

وفيها، أمر الحكم لابن فطيس بإقامة الأسطول بنهر قرطبة، واتخاذ المراكب فيها على هيئة مراكب المجوس - أهلهم الله - تأمياً لركوبهم إليها.

وفي سنة ٣٥٦، عهد الخليفة الحكم بمخاطبة العمال بكور الأندلس، يعنفهم على جرأتهم ويحذرهم من سطوته وعقوبته، إذ اتصل به أن بعضهم قد استزادوا زيادات فاحشات يعاملون بها الرعية ظلماً لهم؛ فأنكر ذلك عليهم. وفيها، كانت غزوات المسلمين انجلت عن هزائم للمشركين.

وفيها، ولي أمير المؤمنين الحكم محمد بن عبد الله بن أبي عامر الذي رأس بعد وتلقب بالمنصور وكالة أبي الوليد هشام بن الحكم، وفوض إليه في جميع شؤونه؛ فتحركت حاله في الدولة.

وفي النصف من شوال، قعد الخليفة الحكم على السرير بالزهراء قعوداً بهياً احتفل فيه، وأوصل إلى نفسه رسولين وصلاً من أمراء الغرب الأدارسة؛

فأوصلاً كتابهم، يذكرون أنهم على محبة صادقة ومودة مستحكمة مع التزامهم للطاعة واعتقادهم للولاية؛ فأدنى رسولهم، وألطف جوابيهما. وفي يوم الجمعة لأربع بقين من شوال، قرى كتاب فتح ورد من قبل القائد غالب، يذكر ما هيا الله له في كفرة قشتيلة من القتل والأسر؛ فسر الخليفة بذلك ودخلت الرؤوس قرطبة.

وفي يوم السبت بعده، أنفذ الخليفة الحكم كتبه إلى القواد والعمال بأقطار مملكته، بإنكار ما اتصل به من أن بعضهم يسفك دماء بعض بلا عهد ولا مشورة، وأن ذلك عظم عنده، وتبرأ إلى الله ممن أقدم عليه.

وفيها، أجرى الماء إلى سقايات الجامع والميضأتين اللتين مع جانبيه: شرقيه وغربيه، ماء عذبا جلبه من عين بجبل قرطبة، خرق له الأرض، وأجراه في قناة من حجر متقنة البناء، محكمة الهندسة، أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس. وابتدى جري الماء من يوم الجمعة لعشر خلون لصفر من السنة؛ وفي جري الماء إلى قرطبة يقول محمد بن شخيص في قصيدة له، منها (بسيط) :

وَقَدْ خَرَقَتْ بَطُونُ الْأَرْضِ عَنْ نَظْفٍ ... مِنْ أَعَذَبِ الْمَاءِ نَحْوَ الْبَيْتِ تُجْرِيهَا

طُهِرَ الْجُسُومَ إِذَا زَالَتْ طَهَارَتُهَا ... رِي الْقُلُوبِ إِذَا حَرَّتْ صَوَادِيهَا

قَرَنْتَ نَخْرًا بِأَجْرِ قَلٍّ مَا اقْتَرَنَا ... فِي أُمَّةٍ أَنْتَ رَاعِيهَا وَحَامِيهَا

وابتدى بغربي الجامع دار الصدقة، اتخذها معهداً لتفريق صدقاته - رحمه الله تعالى - ومن مستحسناً أفعاله وطيّبات أعماله، اتخذها المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قرطبة؛ وأجرى عليهم المرتبات، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح، ابتغاء وجه الله العظيم؛ وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتباً، منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة، وباقيها في كل ربض من أرباض المدينة. وفي ذلك يقول ابن شخيص (بسيط) :

وَسَلْحَةُ الْمَسْجِدِ الْأَعْلَى مُكَلَّلَةٌ ... مَكَاتِبًا لِلْيَتَامَى مِنْ نَوَاحِيهَا

لَوْ مَكِّنْتُ سُورَ الْقُرْآنِ مِنْ كَلِمٍ ... نَادَتْكَ يَا خَبَرَ تَالِيَهَا وَوَاغِيَهَا

ووجد بخط الخليفة المستنصر بالله: (ابتدى بنیان الجامع - صانه الله - يوم الأحد لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٥١، وكل سنة ٣٥٥. وبلغت النفقة فيه إلى مائتي ألف وأحد وستين ألفاً وخمسمائة وسبعة وثلاثين ديناراً ودرهم ونصف (وقع " ونصف " في الأصل المنقول منه هذا. وقال إنه نقله مندرساً، ثم إنه تعرف بعد ذلك صحته من الثقات أنه " ونصف " صحيح؛ وكذلك قال وقع بخط الحكم - رحمه الله -) .

وفي سنة ٣٥٧، في العشر الآخر من رمضان، احتل الوزيران القائدان غالب بن عبد الرحمن وسعيد بن الحكم الجعفري بجيوش الثغر بالصائفة على حصن قلهرة؛ فأقاما بساحته مدة استظهرها بها على تمكين بنیان الحزام فيه والزيادة في ارتفاع البرج الثامن بذروته فاتتها من ذلك إلى الإدارة، وقفلاً بالعسكر، وقد وثقا للحصن بالأمانة.

وفي سنة ٣٦٠، في محرم منها، قعد الخليفة المستنصر بالله على السرير بقصر قرطبة على جرى العادة من الاحتفال والزينة؛ فأوصل إلى نفسه عيسى بن محمد ومحمد بن العالي وحسن بن عليّ رُسُل بني محمد الحسين أمراء الغرب؛ فأوصلوا كتاب مرسلهم، وذكروا ما هم عليه من الطاعة، وطلبوا بعثه رماة تقوية لهم لما يتوقعونه من حركة قائد معد الشيعي نحوهم؛ وتقربوا بإهداء خيل وجمال وغير ذلك؛ فقبلت منهم.

وفي صدر رمضان منها، وقع الإرجاف بتحرك المجوس الأردمانيين - لعنهم الله -، وظهورهم في البحر، ورومهم سواحل الأندلس الغربية على عادتهم؛ فأزعج السلطان قائد البحر بالخروج إلى المرية، والتأهب لركوب الأسطول منها إلى إشبيلية، وجمع الأساطيل كلها للركوب إلى ناحية الغرب.

ذكر مقتل زيري بن مناد، قائد الشيعي على تيرت، وفي يوم السبت، لاثنتي عشرة ليلة بقيت لشهر رمضان منها، ورد الخبر على المستنصر بالله بقتل زيري بن مناد عامل معد الشيعي وقائده على الغرب، قتله جعفر ويحيى ابنا عليّ المعروف بابن الأندلسي، المخالفان على معد فيمن استظفرا به عليه من زنانة، وجدوه بناحية الغرب في حرب دارت بينهم شهدا بنو خزر وغيرهم من رؤساء القبائل القائلين على زيري بدعوة الحكم المستنصر بالله؛ ففتح لهم في قتله أعظم الفتوح. ووصل عليّ البغدادى كاتب جعفر المذكور بكتابه إلى المستنصر وذكر احتياج الحرب العظيم بين أهل الدعوتين بالغرب.

ذكر فراق جعفر بن عليّ المعروف بابن الأندلسي صاحب المسيلة لمعد ابن إسماعيل الشيعي صاحب إفريقي، وتقربه إلى الحكم المستنصر بانضمامه إلى زنانة المنحاشين إلى دعوة بني أمية، وتألب جماعتهم على زيري بن مناد الصنهاجي عامل معد الشيعي على حرب بلاد الغرب وقتلهم لزيري عند انقضاضه عليهم صادا لهم عن طريقهم متقربين بقتله إلى الحكم. وسبق جعفر ويحيى أخوه وذووهما بالعبور إلى الأندلس مهدين رأس زيري، خالعين للدعوة الشيعية، متقلدين للدعوة الأموية الجماعية. فكان لهما في ذلك قبول ورفعة عظيمة من الخليفة.

وقد ذكر محمد بن يوسف الوراق خبرهما؛ قال: وهما أبنا عليّ بن حمدون؛ وجدتهما الأكبر عبد الحميد كان الداخل إلى الأندلس من الشام، ونزل بكورة إلبيرة؛ ثم تنقل حفيده حمدون، جد جعفر هذا، إلى بجاية، وصحب أبا عبد الله الشيعي الداعي، ودخل في مذهبه. فلما تغلب الشيعي على إفريقية، ظهر عليّ بن حمدون؛ ثم ازداد ظهورا في أيام عبيد الله المهدي وحظوة، وضمه إلى ابنه أبي القاسم ولي عهده؛ فازداد حظوة لديه، وخرج معه إلى أرض الغرب؛ فأمره ببناء مدينة المسيلة، وولاه عليها؛ فبقى بها إلى أن هلك في فتنه أبي يزيد، سقط من جرف عال، فاندقت يداه ورجلاه، سنة ٣٣٤. وتولى جعفر هذا ابنه المسيلة من بعده؛ فلم يزل متوليا لها، رفيع المنزلة عند

سلطانه، إلى أن قتل محمد بن الخير بن حزر الزناتي القائم بدعوة بني أمية زيري بن مناد؛ فخاف جعفر من صاحب إفريقية؛ فبادر إلى الفرار بنفسه مع أخيه يحيى وجميع أهله وماله سنة ٣٦٠؛ فصار عند بني خزر أمراء زنانة؛ فشق جعفر الصحراء معهم قاصدين لزيري؛ فالتقوا معهم، ودارت بينهم حرب صعبة انجلت عن قتل زيري وخلق من رجاله؛ واحتوى الزناتيون فيها على جميع عسكر زيري، وأدركوا ثأرهم منهم. ولما أن تم الأمر لأمراء زنانة وجعفر بن عليّ على ما أملوه من الفتح في عدوهم زيري بن مناد، بادر جعفر بمراسلة الحكم إلى الأندلس، ملقيا بنفسه عليه، معتصما بدعوته؛ ثم أرسل إليه أخاه يحيى؛ ثم سار إليه بنفسه، فخطي عنده.

قال ابن حمادة: وفي ربيع الآخر من سنة ٣٦٠، التقى يوسف بن زيري الصنهاجي، المشتهر اسمه ببلقين، مع محمد بن الخير أمير زنانة؛ فهزمه بلقين ابن زيري، وقتل جماعة من أهله ورجاله. فلما أيقن محمد بن الخير أن عدوه قد أحاط به، اتكأ على سيفه، فذبح به نفسه، أنفة من أن يملكه بلقين؛ فأتى بأمر عظيم سار ذكره بأرض الغرب. وملك بلقين بن زيري إثر ذلك الغرب، وقتل زنانة، وهدم مدينة البصرة وغيرها من مدن الغرب، ولم يش عنانا عن مدينة سبتة؛ ومنها رجع، وإليها كان انتهاؤه؛ وصدر عاجزا عنها.

وفي ذي القعدة منها، خاطب المستنصر بالله قواده وعماله بكور الأندلس في استقدام كبارها وأعلام رجالها لمشاهدة دخول يحيى بن عليّ بن حمدون وبني خزر أمراء زنانة القادمين برأس زيري بن مناد الصنهاجي قائد معد بن إسماعيل الشيعي وبرؤوس أعيان أصحابه. فلما كان يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة منها، خرج صاحب السكة والمواريث، وقاضي

إشبيلية محمد بن أبي عامر لتلقي جعفر بن عليّ ويحيى أخيه، ومعه أربعة من عتاق الخيل وبغل أشهب، منتقاة من دواب الخليفة، بسروج الخلافة ولجمها؛ ومعه الأخبية الديباجية وغير ذلك. فاحتل ابن أبي عامر بالمرسى الذي خرج فيه جعفر وبمقربة من مالقة. ثم وصل بعد ذلك للوافدين خيل وبغال من قبل الخليفة، وهوادج وكسوات وعماريات لعيال جعفر؛ ثم قدموا إلى قرطبة ببروز عظيم، واحتفال لدخولهم جسيم، حتى وصلا الخليفة. وقد ذكرت الشعراء شأن فراق جعفر وأخيه يحيى لسلطاتهما معد بن إسماعيل ومسيرهما إلى الخليفة الحكم، واعتافهما بحقه فيما مدحت به الخليفة الحكم وأكثر في ذلك. وقال يوسف ابن هارون (كامل) :

وَلَقَدْ عَجِبْتُ لَغَفَلَةِ الْمُسْتَنْصِرِ ... إِذْ أَكْتَفَ الْجَيْشَ اللَّهُامَ لَجَعْفَرٍ
وَلَوَانَ مِنْ أَهْوَاهُ وَجْهَهُ ... قَامَتْ لَوَاحِظُهُ مَقَامَ الْعَسْكَرِ

وفي يوم السبت لليلتين من ذي القعدة منها، جلس الخليفة الحكم فوق السرير جلوسا بهيا، وأوصل إلى نفسه أجناد الكور ووجوه أهلها، الذين استدعاهم لمشاهدة جعفر بن عليّ ومن أتى معه من أمراء زناتة، وأمرهم بالانصراف إلى بلادهم؛ فانصرف جند دمشق، وهم أهل البيرة، وجند حمص، وهم أهل كورة إشبيلية، وجند فاسرين، وهم أهل جيان، وجند فلسطين، وهم أهل شذونة، وغير هؤلاء. وفي سنة ٣٦١، هاجت بالغرب حروب مع حسن بن قنون الحسني وقواد الحكم المستنصر بالله.

بعض أخبار حسن بن قنون الحسني أمير الغرب مع قواد الأندلس في هذه السنة. كان المستنصر بالله دعا محمد بن قاسم الناظر في الحشم، وأمره بالخروج إلى مدينة سبتة في رمضان من هذه السنة، قائدا على من يضمه إليه من طوائف الأجناد، للذي بدا من نقض حسن بن قنون، وانحرافه إلى دعوة معد صاحب

إفريقية واستدعائه من دن منه من أحزابه، مستعينا بهم فيما اعتزم عليه من نفاقه على الحكم، وإعلانه بإيقاع الدعاء الشيعي معد على منابر عمله، فأوصى الحكم قائده محمد بن قاسم باستعماله جده وجهده في مغاورة ابن قنون، وأمره، إن أظهره الله تعالى، أن يأخذ بالعفو والصفح، وإصلاح البلاد، واستصلاح الرعية؛ وأمره أن يستعين بمن دخل في الطاعة الأموية. فكان عبوره البحر إلى سبتة لإحدى عشرة بقية من شوال منها؛ وتكاملت الجيوش والأساطيل بسبتة. وفي يوم السبت لأربع خلون من ذي القعدة ورد كتاب على المستنصر بالله بفتح طنجة، فتحها قائده على البحر عبد الله بن رماحس، يذكر أنه نازها بالأسطول غرة ذي قعدة، ودعا أهلها إلى الطاعة والعود إلى الجماعة؛ فاستولوا الرد عليه؛ وكان حسن بن قنون داخلها يشد عزائمهم؛ فلما كان يوم الخميس، خرج حسن لقتال العسكر الخارج إليه من سبتة إلى تلون، وأبرز من طنجة عددا كثيرا من جنده الغربيين وأنصاره؛ فانهزموا أمام جيش الحكم، وولوا مدبرين؛ فلما رأى ذلك حسن، فرّ هاربا في خاصة من أصحابه، لا يلوى على أحد، ولم يعرج على ما كان له ولأصحابه بطنجة من أموال وأخبية وأمتعه؛ فلما أمعن في فراره، وأسلم أهل طنجة، خرج شيخهم ابن الفاضل إلى القائد ابن رماحس مع جماعة وجوه طنجة، وهم ينادون (الطاعة لله ولأمر المؤمنين الحكم) ثم تقدم ابن الفاضل إلى القائد رماحس وطلب منه الأمان لأهل بلده؛ فأعطاه إياه، ودخل طنجة، ونهب ما كان بها لحسن بن قنون وأصحابه؛ وأنفذ القائد كتابه بالفتح إلى الخليفة.

وورد كتاب القائد محمد بن قاسم على المستنصر بالله لتسع بقين من ذي القعدة، يذكر أنه التقى مع حسن بن قنون؛ فدارت بينهما حرب شديدة، أجلت عن هزيمته، وقتل كثير من شيعته؛ وفر فيمن بقي معه إلى جبل حصين؛ فتبعه

الجند، وانفضوا عليه؛ فدارت بينهم حرب يسيرة؛ ثم انهزم أيضا، وخلف أثقاله، وفرّ، لا يلوى على شيء؛ فصار الجبل بأيدي الجند، ونهبوا ما فيه؛ ثم نهضوا في اليوم الثاني إلى مدينة دلول؛ ففتحها الله لهم. ولحق بهم القائد محمد بن قاسم في العسكر؛ فقصده مدينة أصيلا، فدخلها؛ ودخل القائد إلى جامعها، فوجد فيه منبرا جديدا موسوما باسم الشيعي معد بن إسماعيل؛ فأمر بإحراقه بالنار، بعد أن خلع من أعلاه اللوح المنقوش فيه اسم معد، وكان فيه من الغلو ما في ذكره أمر كبير؛ فأمر باقتلعه، وأرسله مع كتاب الفتح إلى المستنصر. وانصرف العسكر إلى مدينة دلول؛ فأمر بهدم أسوارها، وتضريم بيوتها نارا، وتركها عبرة. واستولي العسكر على ما كان بها، واستوسعوا في أطعمتها وما ترك فيها حسن المذكور.

وفي سنة ٣٦٢، قتل القائد محمد بن قاسم بفحص مهران على يدي حسن ابن قنون، يوم الأحد لسبع بقين من ربيع الأول؛ وقتل في ذلك اليوم جملة من الجند الذين كانوا معه نحو الخمسمائة من الفرسان الأبطال الأندلسيين الأنجاد، ومن رجالهم نحو الألف. وفي غرة جمادى الآخرة، دخل إلى قرطبة جمع من مصمودة ممن كان مع حسن بن قنون، وهم سبعون رجلاً، نزعوا إلى الطاعة. وفيها، استدعى المستنصر بالله غالب بن عبد الرحمن، وأمره بحرب حسن ابن قنون الحسيني عندما تفاقم أمره، وقتل الجند. وورد على المستنصر بالله كتاب فتح من قبل القواد بمدينة أصيلا، أنهم التقوا مع حسن بن قنون، فدارت بينهم حرب شديدة انهزم فيها حسن وقتل كثير من حماته. وقدم إلى قرطبة حنون بن إدريس صاحب مدينة العدو الأندلسية من فاس، ورسول عبد الكريم صاحب مدينة القرويين من فاس، يرغبان في طاعة أمير المؤمنين المستنصر، والقيام بدعوته؛ فكرم رسولهما، وأجمل موعودهما. وفي شعبان منها، خطب القائد غالب بأنه بعث إليه بعشرة آلاف دينار لصلوات الخارجين إليه من أصحاب حسن بن قنون، يوزعها عليهم بحسب مقاديرهم؛ وقرن بها من فاخر الكسوة والسيوف المحلاة عدد كثير للخلع عليهم. وفيها، أرسل المستنصر بالله الوزير يحيى بن محمد النجيبى إلى الغرب بعسكر، مدداً للقائد غالب، وجامعا لليد معه على الخالع للطاعة حسن بن قنون؛ فكان ذلك في خبر طويل.

وفي أواخر ذي القعدة، ورد على المستنصر كتاب القائد غالب يذكر صنع الله تعالى في افتتاحه حصن الكوم، وهرب المخذول عنه حسن بن قنون مع صهره صاحب البصرة علي بن خلوف وغيرهما.

وفي منتصف ذي الحجة، ورد كتاب صاحب الشرطة، قاضي القضاة بالغرب محمد بن أبي عامر، يذكر تعيين الناس يوم الخميس، وقيام الخطبة في المصليات هنالك للمستنصر بالله، وسرور المسلمين بذلك، وابتهاجهم به.

وفيها، كانت حروب مع الحسينيين يطول ذكرها، انجلى عن مقتل خلق كثير من أصحاب حسن بن قنون الحسيني؛ وحز من رؤوس مشاهيرهم مائة رأس؛ وترك أكثرهم صريعا. وقتل في الهزيمة محمد بن أبي العيش الكامي وكان من حسن محل أخيه تارة ومحل أبيه تارة أخرى.

وفي سنة ٣٦٣، افتتح غالب، قائد الحكم المستنصر بالله، مدينة البصرة التي كان انتزى فيها محمد بن حنون الحسيني، وذلك أن أهل البلد قاموا عليه، وقتلوا نائبه وخليفته عليهم، وابتدروا لمخاطبة القائد غالب، يستجلبونه إليهم؛ فوصلهم، وملك المدينة، وخاطب الخليفة بخبرها، وأدرج كتاب أهلها طي كتابه.

وفي يوم الخميس منتصف صفر، ورد كتاب غالب على المستنصر، يذكر منصرفه عن بلد البصرة وأخذه رهنهم، ويذكر أنه قد صار إلى الطاعة جميع أهل الغرب وعامة قبائل البربر، ولم يبق فيه غير الخائن حسن بن قنون، وأنه قد صار من ضيق أمره في غمة. ووصل أهل البصرة إلى قرطبة الدافعين لأمرهم حسن، الداخلين في الطاعة.

وفيها، ورد الخبر السار على المستنصر بالله بإذعان الحسن بن قنون الحسيني، ودخوله في طاعته؛ فشهد الخليفة صلاة الجمعة منسلخ جمادى الآخرة؛ فقع بجامع قرطبة، وأعلم الوزراء بخضوع حسن بن قنون المنتزى عليه بالغرب، وأنه ورد عليه كتاب غالب بذلك، وأنه يوجه إليه ابنه علي بن حسن المذكور، وأن الخطبة قامت بدعوته في قلعة حجر النسر؛ فاستبشر الوزراء وعنوه، وغبطوه وأعلنوا بالسكر لله تعالى والدعاء للخليفة، وأطالوا في ذلك.

وفي سنة ٣٦٤، قدم على المستنصر قائده غالب بن عبد الرحمن قافلا من عدوة الغرب، ومعه حسن بن قنون وسيعته بنو إدريس الحسينيون ملوك الغرب، المستنزلون من معاقلمهم إلى الأندلس، حافين بشيخهم المشتهر بحنون، واسمه أحمد بن عيسى، صاحب مدينة الأقلام وما ولاها؛ ومعه اخوته وبنو عمه وبنوهم وأهلهم؛ فأمر باحتمال هؤلاء الأشراف من المحلة، في ظلام ليلة الخميس لأربع خلون من المحرم، إلى الدور التي أخلت لهم بقرطبة؛ فأرسل القوم معهم ثقاتهم من فتيانهم ومواليهم، حتى أدتهم إلى الدور المعدة لهم، بعد أن فرشت مجالسها بشيء يطول ذكره.

وفيها، كان اعتلال الخليفة الحكم، في ربيع الأول؛ واحتجب عن جميع مملكته إلى أن تخلف وصبه، وظهر لخاصته يوم الجمعة ليلة

بقيت من ربيع الآخر منها. وفي عقب ربيع المذكور، أعتق الحكم نحوًا من مائة رقبة من عبيد، له فيه لبعضهم تديير، ولباقهم عتق بتل ومؤجل، خلص به جميعهم من الرق؛ وعقدت بذلك وثائق. فكان أول من أوقع شهادته فيها أبو الوليد هشام بن الحكم، ثم الفقهاء أهل الشورى، ثم العدول. وفيها، حبس الحكم حوائت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء. وفيها، أسقط الحكم سدس جميع المغارم عن الرعايا بجميع كور الأندلس، شكرًا لله على أنظاره له. وفيها، كان جيشان العدو - خذله الله - ومنازلته بعض حصون المسلمين. وفيها، كان الظفر بأبي الأحوص معن بن عبد العزيز النجبي؛ فقبض عليه رشيق، وبعثه مكبولا إلى قرطبة مع عشرة من أصحابه، وكان يظاهر المشركين ويدلهم على عورات المسلمين؛ فأخذه الله. وفي سنة ٣٦٥، خرج من قرطبة جعفر ويحيى، ابنا علي بن حمدون بن الأندلس، قائدين إلى الغرب من العدو، وبين أيديهما الأولوية والطبول مديلين للوزير يحيى بن محمد بن هاشم. وفيها، كان الإعلان ببيعة أبي الوليد هشام بن الحكم، وأن تؤخذ له من الخاصة والعامة بقرطبة وسائر كور الأندلس، وما إلى طاعته من بلاد الغرب. وذكره في الخطبة على المنابر في الجمعة والأعياد، وذلك مستهل جمادى الآخرة: قعد أمير المؤمنين الحكم بقصره، وافتتح الكلام بما عزم عليه من تقليد ابنه عهده الخلافة من بعده؛ فالتزمت بيعته، وأخرجت نظائر من كتب البيعة ليوقع شهادته كل من التزمها؛ وتولي إعطاءها للناس على مراتبهم المنصور محمد بن أبي عامر، وهو يومئذ صاحب الشرطة والموارث، وميسور الفتى الجعفري الكاتب. وفيها، خرج الوزير يحيى بن محمد بن هاشم قائدا إلى سرقسطة، وبين يديه الطبول والبندود. وفيها، نفذ عهد الحكم إلى الوزير صاحب المدينة جعفر بن عثمان المصحفي بإطلاق أبي الأحوص النجبي من سجن المطبق مع أصحابه، فصفح الحكم عنهم. وفي سنة ٣٦٦، توفي أبو علي البغدادي، صاحب النوادر، المعروف بالقالي، منسوب إلى قالي قلا من ديار المشرق. وفيها، مات محمد بن يحيى النحوي، وأبو مروان المرادي، وعبد الملك بن سعيد؛ فكانت تسمى سنة الأدباء. وكل بناء المسجد سنة ٦٥؛ كان المنبر الذي صنعه الحكم مدخلا من عود الصندل الأحمر والأصفر والأبنوس والعاج والعود الهندي؛ قام على الحكم - رحمه الله - بخمسة وثلاثين ألف دينار وسبعمئة دينار وخمسة دنانير؛ وكان تمامه في خمسة أعوام. ووجد بخط المستنصر بالله تأريخ وفاة قاضيه وقاضي أبيه منذر بن سعيد البلوطي، وأنه توفي يوم الخميس لليلتين بقيتا من ذي قعدة من سنة ٥٥؛ وكان مولده سنة ٢٧٣؛ فكان عمره اثني وثمانين سنة. وكان في هذا القاضي منذر دعاية يعرض بها ويتعرض له بها؛ فكتب إليه قوم من أهل المجانة والظرف (خفيف):
قُلْ لِقَاضِي الْجَمَاعَةِ الْبَلُّوطِي ... مَا تَرَى فِي خَرِيدَةٍ كَالنُّحُوطِ
نَاكِهَا لِلثَّوَابِ قَوْمٌ ظِرَافٌ ... هَلْ تَرَى سَيِّدِي بَذَا مِنْ سُقُوطِ
فوقع لهم في كتابهم: (لا منفردة). فقال له من حضر: (ما هذا؟). فقال: (أردت لا أرى ذلك). فقالوا: (لا يفهم عنك إلا غيره). فقال: (كل يجاوب على معتقده)!. فكان له - رحمه الله - نوادر مستحسنة، وغرائب مستملحة.

١٧٠٢ ذكر اتصال محمد بن أبي عامر بخدمة الحكم المستنصر

ذكر اتصال محمد بن أبي عامر بخدمة الحكم المستنصر
قال بعض المؤرخين: كان اتصال ابن أبي عامر بالحكم، فيما حدثني به ابن حسين الكاتب والأديب أبو إسحاق بن محمد الإفريقي وغيرهما من المشيخة أن الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، القائم بدولة الحكم، خلا في بعض الأيام بالقاضي محمد بن إسحاق بن السليم؛ فشكا

إليه ابن السليم شجوه بمحمد بن أبي عامر ووصف له حاله. فلما طلب الحكم له ويكلا لولده عبد الرحمن الدارج في حياته، ذكر له جعفر ابن أبي عامر بخير، ووصف لأم عبد الرحمن جماعة اختارت منهم ابن أبي عامر، وذلك باختيار جعفر له؛ فنصبه الحكم لخدمتها وخدمة ابنها عبد الرحمن.

فلما مات عبد الرحمن، بقي في خدمة أمه السيدة، وكانت قد ولدت هشام بن الحكم؛ فصرف ابن أبي عامر لوكالته. وكان تقدمه أولا لوكالة الولد عبد الرحمن يوم السبت لتسع خلون من ربيع الأول سنة ٣٥٦؛ وأجرى عليه في ذلك الوقت خمسة عشر دينارا في الشهر مرتبا بالوازنة. فبدا من نصحه وحسن نظره ما عرف له؛ ثم استأثر الله بعبد الرحمن؛ فصرف إلى وكالة هشام، يوم الأربعاء لأربع خلون لرمضان سنة ٣٥٩. وكان قد تقدم للنظر في امانة دار السكة يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت لشوال من سنة ٥٦. كانت ولايته أولا لوكالة، وأضاف له الخزانة؛ ثم قدمه على خطة المواريث يوم الخميس لسبع خلون من المحرم سنة ٣٥٨. واستقضاه على كورة إشبيلية ولبلة وأعمالها يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ٥٨ المذكورة. وفي سنة ٣٦١، قدم الحكم المستنصر بالله محمد بن أبي عامر على الشرطة الوسطى في جمادى الآخرة، وأهاب به إلى الأمانات بالعدوة؛ فاستصلحها واستمال أهلها؛ وجعله قاضي القضاة بالغرب من العدوة، وأمر عماله وقواده ألا ينفذوا شيئا دونه، إلا بمشورته؛ ثم أضاف إليه الحكم النظر في الحشم، وهو في علة التي مات فيها بالفالج.

وقيل أيضا إن سبب ظهوره كان خدمته للسيدة صبح البشكنشية، أم عبد الرحمن وهشام؛ فكانت أقوى أسبابه في تنقيط الملك عما قليل إليه؛ فإنه استمال هذه المرأة بحسن الخدمة، وموافقة المسرة، وسعة البذل في باب الإتحاف والمهاداة، حتى استهواها، وغلب على قلبها؛ وكانت الغالبة على مولاها، وابن أبي عامر يجتهد في برها والمثابة على ملاطفتها؛ فيدع في ذلك، ويأتيها بأشياء لم يعهد مثلها، حتى لقد صاغ لها قصرا من فضة وقت ولايته السكة، عمل فيه مدة، وأنفق فيه مالا جسيما؛ فجاء بديعا، لم تر العيون أعجب منه؛ وحمل ظاهرا لأعين الناس من ذار ابن أبي عامر، وشاهد الناس منه منظرا بديعا، لم تر العيون أعجب منه؛ فتحدث الناس بشأنه دهرا، ووقع من قلب المرأة موقعا لا شيء فوقه؛ فتزيت في بره، وتكفلت بشأنه، حتى تحدث الناس بشغفها به. وقال الحكم يوما لبعض ثقاته: (ما الذي استلطف به هذا الفتى حرما حتى ملك قلوبهن، مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه، ولا يرضيهن إلا ما أتاه؟ إنه لساحر عليم، أو خادم لبيب! وإنني لخائف على ما بيده!) ثم سعى به إلى الحكم، وقيل عنه إنه قد أسرع في إتلاف مال السكة الموقوف قبله؛ فأمره الحكم بإحضاره ليُشاهد سلامته؛ فأظهر الإسراع إلى ذلك، وقد استهلك جملة من الأموال؛ فألقى نفسه في جبرها على الوزير ابن حدير في إسلافه إياها؛ وكان صديقا له؛ فياسره فيه، وقام المال إليه من وقته؛ فتمم به ما قبله، وارتفعت الظنة عنه؛ فأكذب الحكم ما رفع إليه عنه، وازداد عجباً به، وأقره على حاله؛ فرد ابن أبي عامر المال لابن حدير من حينه، ولصق بالحكم، وصار في عداد كنفاته.

واشتغل قلب الحكم، آخر أيامه، بأمر العدوة ومن جرده إليها من عساكره لحرب الأدارسة وغيرهم، واغتم لما خرج من يده في ذلك الوجه من الأموال.

١٨ خلافة هشام بن الحكم

١٨٠١ ابن عبد الرحمن الناصر والدولة العامية

فقلد ابن أبي عامر قضاء القضاة بالغرب، وجعله عيناً على العسكر، وأوعز إليه في مهماته؛ فسار ابن أبي عامر إلى هنالك؛ فخدمت سيرته، وصحب حينئذ وجوه العسكر وأشياخ القبائل وملوكهم؛ فكانت تلك الحركة أول ظهوره، وبعد رجوعه منها، لم يزل يزداد نبلا، ويرتقى منزلة، وهو مع ذلك كله يغدو إلى دار جعفر بن عثمان المصحفي وزير الدولة ويروح، ويختص به، ويدعى نصيحته.

وفي سنة ٣٦٦، توفي الحكم المستنصر بالله بعد اتصال علة؛ وجعفر بن عثمان يدير سلطانه إلى حين وفاته، ليلة الأحد لثلاث خلون لرمضان من السنة المؤرخة.

نسبه: تقدم في خلافة أبيه وجده. كنيته: أبو الوليد. لقبه: المؤيد بالله. أمه: صبح البشكنشية، أم ولد، وكان سيدها الحكم يسميها بجعفر، وكانت مغنية حظية عنده، وتوفيت في خلافة ابنها هشام. بويج له يوم الاثنين لأربع خلون من صفر سنة ٦٦ بعهد من أبيه، وهو ابن إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر؛ وخلع يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة، سنة ٣٩٩؛ فكانت خلافته الأولى، إلى أن قامت الفتنة، ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام. وفي الخلافة الثانية سنتين وعشرة أشهر؛ الجميع الذي كمل له في المؤتين ستة وثلاثون سنة وشهران وعشرة أيام. صفته: أبيض، أشهل، أعين، خفيف العارضين، لحيته إلى الحمرة، حسن الجسم، قصير الساقين، مائل إلى العبادة والانقباض، مقبل على تلاوة القرآن ودرس العلوم، كثير الصدقات على أهل الستر من الضعفاء والمساكين.

قضاته: محمد بن السليم، ألقاه قاضياً لأبيه فأقره على ولايته؛ ثم أبو بكر ابن زرب؛ ثم محمد بن يحيى التيمي عرف بابن برطال، وغيرهم. نقش خاتمه: (هشام بن الحكم، بالله يعصم). وتولي عقد الشهادة على الناس في البيعة بين يديه ويكليه وصاحب شرطته الوسطى والسكة والموارث أبو عامر محمد بن أبي عامر، بعدما كان قاضي الجماعة محمد بن إسحاق بن السليم يأخذها على من شهد المجلس من الأعمام وأبنائهم والوزراء وطبقات أهل الخدمة ورجال قريش وأعلام أهل الحضرة.

فلما كان يوم السبت السادس من جلوس هشام، وهو العاشر لصفر سنة ٣٦٦، قلد الخليفة هشام حجابته وزير أبيه الأخص أبا الحسن جعفر بن عثمان المصحفي. وفي هذا اليوم، أنهض الخليفة هشام محمد بن أبي عامر إلى خطة الوزارة، نقله إليها عن شرطته الوسطى وأجراه رسيلاً لحاجبه جعفر في تدبير دولته؛ فاده محمد شأواً، وجرى إلى غاية برز فيها دونه، سابقاً في الحلية، وتخلف جعفر عن مده. ومن أخبار جعفر بن عثمان المصحفي: هو أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن فوز بن عبد الله بن كسيلة القيسي. كان لطيف المنزل من الحكم المستنصر بالله، قديم الصحبة، قريب الخاصة؛ وكان أول سبب ذلك تأديب والده عثمان بن نصر للحكم في صباه، واستخدمه في أيام والده الناصر، واستكتبه، ورقاه إلى خطة الشرطة الوسطى والنظر في عدة من الأعمال والكور. فلما أفضت الخلافة إلى الحكم، قلده، بعد ثلاثة أيام من خلافته، خطة الوزارة، وأمضاه على الكتابة الخاصة؛ ثم جمع له الكتابة العليا بالخاصة، وولي ابنه الأعمال الكبار. وكان جعفر بن عثمان أحد شعراء الأندلس المحسنين، المتصرفين في أنواع الشعر من المديح والأوصاف والغزل، غاية في كل ذلك في الرقة والإبداع والحسن. وقد تقدم قوله مرتجلاً: (هنيئاً للإمام والأنام) وقوله مرتجلاً: (تطلع البدر من حجاب) وغير ذلك.

قال ابن بسام: كان جعفر بن عثمان رجلاً بلغ المنتهى، وسوغ برهته من دهره ما اشتى، دون مجد تفرع من دوحته، ولا نخر نشأ بين مغداه وزوجته. فسمما دون سابقة، وارتقى إلى رتبة لم تكن لبينته مطابقة؛ فلم يزل يستقل ويضطلع، وينتقل من مطلع إلى مطلع، حتى التاح في أفق الخلافة، وارتاح إليها بعطفها كندشوان السلافة؛ وجب الإمام، وانسكب برأيه ذلك الغمام. فأدرك بذلك ما أدرك، ونصب لأمانيه الحبال والشرك، واقتنى وادخر، وأزرى بمن سواه وسخر. واستعطفه محمد بن أبي عامر، ونجته غابر لم يلح، وسره مكتوم لم يبح؛ فما أقبل عليه ولا عطف، ولا جنا من روضة دنياه زهرة أمل ولا قطف؛ وأقام في تدبير الأندلس، وهو يجري من السعد في ميدان رحب، ويكرع من العز في مشرب عذب. وكان له أدب بارع، وخاطر إلى نظم المحاسن مسارع. فمن ذلك ما بعثه عليه إيناس دهره وإسعاده، وقاله حين ألهمته سلماه وسعاده (طويل):

لَعَيْنِكَ فِي قَلْبِي عَلَى عَيُونٍ ... وَبَيْنَ ضُلُوعِي لِلشُّجُونِ فُنُونُ

لَئِنْ كَانَ جِسْمِي مُحَلَقًا فِي يَدِ الْوَلَّى ... فَحُبُّكَ غَضٌّ فِي الْفُؤَادِ مَصُونُ

وله، وقد أصبح يوماً عاكفاً على حمياه، هاتفاً بإجابة دنياه، مرتشفاً ثغور الأُنس متنسماً رياه، والمملك يغالزه بطرف عليل، ويبرم من أنسه كل نخيل، والسعد قد عقد عليه أي إكليلي، يصف لون مدامه، وما يعرف منها دون ندامه؛ فقال (كامل):

صَفَرَاءُ تَبْرُقُ فِي الرَّجَاجِ فَإِنْ سَرَتْ ... فِي الْجِسْمِ دَبَّتْ مِثْلَ صِلِّ لَادِغٍ
عَبَثَ الزَّمَانُ بِحُسْنِهَا فَتَسْتَرَّتْ ... عَنْ عَيْنِهِ ثَوْبٌ نُورٍ سَابِغٍ
خَفِيَتْ عَلَى شُرَابِهَا فَكَأَنَّمَا ... يَجِدُونَ رِيًّا فِي إِنَاءِ فَارِغٍ
وَاسْتَمَرَ فِي حِجَابِهِ، وَمَرَّ بَيْنَ سَمْعِ الدَّهْرِ وَإِجَابَتِهِ، وَالنَّفُوسِ الْعَلِيَّةِ مِنْ تَنَاهِي حَالِهِ مُتَغَيِّرَةً، وَفِي تَكْيِيفِ سَعْدِهِ مُتَحِيرَةً. وَلَمْ يَزَلْ لِنَجَادِ تِلْكَ
الْخِلَافَةِ مُعْتَقِلًا، وَفِي

١٨٠٢ بعض أخبار المنصور محمد بن أبي عامر في ابتدائه

مطالعها منتقلا، إلى أن توفي الحكم، فانفصم عنده المحكم، وانبرت إليه النوائب، وتسددت له الخطوب بسهام صوائب؛ واستولي عليه الكسل، وأسرت إليه الذوايل والأسل، وتعاوره الإدبار، وساوره من المكروه ما فيه اعتبار؛ وانتقل إلى المنصور ذلك الأمر، واختص به كما اختص يزيد أخوه الغمر، وأناف في تلك الخلافة كما شب قبل اليوم عن طوقه عمرو؛ فاعتقل بتلك النجاء، واستبد به دون أولئك الأجداد، وانبرى إلى المصحفي بصدر كان قد أوغره، وجد سام طال ما استقصره؛ فأباده ونكبه، وسلب جاهه وانتهبه، وأقنص من تلك الإساءة، وأغص حلقة بكل مساءة، وألهب جوانحه حزنا؛ ونهب له مدخرا ومختزنا، ودمر عليه ما كان حاطا، وأحاط به من مكروهه ما أحاط؛ فبقي سنين في مهوى النكبة، وجوى تلك الكربة، ينقله المنصور معه في غزواته، ويعتقله بين أظفار التضييق أو في لهواته، وهو يستعطف ويستميل، فلا يتحقق له رجاء ولا تأميل، إلى أن تكورت شمسه، وقاضت بين أنياب المحن نفسه؛ فاغتيل في المطبق، ونفذ فيه أمر الله وسبق.

بعض أخبار المنصور محمد بن أبي عامر في ابتدائه

نسبه: هو أبو عامر محمد بن أبي حفص عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الداخل إلى الأندلس مع طارق؛ وكان له في فتحها أثر جميل؛ وكان في قومه وسيطا؛ وقد ذكره محمد بن حسين الشاعر العالم بأخبار الأندلس في بعض أمداحه للمنصور هذا، فقال (طويل):

وَكُلُّ عَدُوٍّ أَنْتَ تَهْدِمُ عَرْشَهُ ... وَكُلُّ فَتَوَّجٍ عَنْكَ يَفْتَحُ بَابَهَا
وَإِنَّكَ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ الَّذِي لَهُ ... حُلِيٌّ فَضْجٌ قَرَطَاجَنَّةً وَانْتَبَاهَا
جَبَّاهَا أَبُو مَرَوَانَ جَدُّكَ قَابِضًا ... بِكَفِّ تَلِيدٍ طَعْنَهَا وَضَرَاهَا
فَإِنْ سَنَحَتْ فِي الشَّرِكِ مِنْ بَعْدِ فَتَحِهِ ... فَتُوحٌ فَمَضْرُوفٌ إِلَيْكَ ثَوَابَهَا

وجده عبد الملك هو الذي دخل مع طارق ونزل الجزيرة الخضراء لأول الفتح؛ فساد أهلها، وكثر عقبه فيها؛ وتكررت فيهم النباهة والوجاهة؛ وجاور الخلفاء منهم بقرطبة جماعة أحدهم أبو عامر محمد بن الوليد، الذي عرف آل عامر طرأ به. وساد بعده ولده عامر، وتقدم عند الخلفاء، وولي الأعمال، ومات بقرطبة؛ وباسمه نقش محمد السكك، ورقم الأعلام. وكان عبد الله السكني بأبي حفص، والد محمد المنصور، من أهل الدين والزهد في الدنيا والقعود عن السلطان؛ سمع الحديث، وأدى الفريضة، ومات منصرفا من حجه بمدينة إطربلس المغرب؛ وأصره التميميين المعروفين بقرطبة ببني برطال؛ فنكح بريهة بنت يحيى بن زكريا؛ فولدت له أبا عامر المنصور، وأخاه يحيى. وكانت أم عبد الله، والد المنصور، بنت الوزير يحيى بن إسحاق، وزمر الناصر لدين الله وطيبه.

وكان محمد هذا حسن النشأة، ظاهر النجابة، تنفوس فيه السيادة؛ سلك سبيل القضاة في أولته، مقتفيا آثار عمومته وخولته؛ فطلب الحديث في حداثته، وقرأ الأدب، وقيد اللغات على أبي علي البغدادي، وعلى أبي بكر بن القوطية؛ وقرأ الحديث على أبي بكر بن معاوية القرشي، راوية النسائي، وغيره من رؤساء أهل المشرق؛ وبرع بروعا أدناه، مع نوازع سعد وبوادر حظ، من الحكم المستنصر؛ فقربه وصرفه في مهم الأمانات وأصنافها؛ فاجتهد وبرز في كل ما قلده، واضطلع بجميع ما حملة.

وكان الحكم، لشدة نظره في الحدثان، يتخيل في محمد بن أبي عامر أكثر الصفات المجتمعة إلى النسب والبلدة. وكان يجد القائم عليهم من الجزيرة الخضراء، أصفر الكفين. فيقول لخاصته: (ألا ترون صفرة كفيه؟) فإذا قالوا له: (أرح نفسك منه!) يقول: (لو كانت به شجة، لكانت تكلمة صفاته). فكان من قدر الله أن حدثت الشجة بمحمد بعد موت الحكم بضربة غالب

الناصري له، وبها تم الأثر فيه؛ كما أن الحكم قد كان وقف في الأثر على البقعة التي بنيت فيها الزاهرة؛ وكانت ملوك مروانية تتخوف ذلك، وكان ألمجهم بشأنها الخليفة الحكم؛ فنظر في أمرها، وهي البقعة المعروفة بألش (بفتح اللام)، وهي بغربي قرطبة؛ ووجد انتقال الملك إليها؛ فأمر حاجبه جعفرًا بالسبق إليها والشروع في بنائها طمعا في مزية سعداء، وأن لا يخرج الأمر عن يد ولده؛ وأنفق عليها مالا عظيما؛ فكان من غريب الأمور أن محمد بن أبي عامر تولي النظر في شأنها مع من نظر فيها، وهو يومئذ في حال النتوة والاحتياج، ولا يعلم يومئذ به. فسبحان من يؤتي ملكه من يشاء.

ثم رفع إلى الحكم أن البقعة بغير ذلك الموضع، وأنها بشرقي مدينة قرطبة؛ فأنفذ ثقتة محمد بن نصر بن خالد للوقوف عليها، وانتهى إلى منزل أبي بدر المسمى بألش (مضمومة اللام)، وأصاب هنالك عجوزا مسنة وافقتة على حد الارتياح، وقالت له: (سمعنا قديما أن مدينة تبني هنا، ويكون على هذا البرّ نزول ملكها). فعاد إليه محمد بن نصر بالجلية؛ فلم تطل المدة حتى بناها ابن أبي عامر، وتبوا أرجاء ذلك البشر قرارة. وكان المنصور على ثقة من سرعة انتقال الملك إليه، لا يشك في ذلك لأنه تمكن من مطالعة ما كان عند الحكم، فوقف على الجليلة.

ولم يزل الحكم يقدم محمدا ويؤثره، إلى أن ولي العهد ابنه هشام؛ فزاد مقداره لخاصته بولي العهد ومكانه من السيدة والدته؛ فاحتاج الناس إليه وغشوا بابه؛ فأنساهم من سلف من أصحاب السلطان سعة إشعاف، وكرم لقاء، وسهولة حجاب، وحسن أخلاق؛ فعرض جاهه، وعمر بابه، وأتسع في بناء داره بالرصافة، واتخذ الكآب الجللة، واستصحب سراة الصحابة. وكانت مائدته موضوعة لمن ينتاب داره، وهمته تترامى إلى وراء ما يناله؛ وهو في هذا كله يغدو إلى دار جعفر بن عثمان المصحفي ويزور، ويصيح ببابه ويختص به.

ثم اتصلت علة الخليفة الحكم من الفالج، وجعفر يدير سلطانه. ووقع إرجاف بموت الحكم؛ فأشار محمد بن أبي عامر على جعفر بن عثمان باستركاب ولي العهد هشام في ذلك اليوم في الجيش، إرهابا لأهل الخلاف؛ ففعل وركب في الناس ركبته المشهورة، ومحمد بن أبي عامر بين يديه، قد كساه الخرز، ونقله إلى أكابر أهل الخدمة. وأمر ولي العهد هشام في ذلك اليوم وهو العاشر لصفر من سنة ٦٦ بإسقاط ضريبة الزيتون المأخوذة في الزيت بقرطبة، وكانت إلى الناس مستكرهة؛ فسروا بذلك أعظم سرور، ونشب شأنها إلى محمد بن أبي عامر، وأنه أشار بذلك؛ فأحبه لذلك. ولم تزل الهمة تحذوه، والجد بحظيه، والقضاء بساعده، والسياسة الحسنة لا تفارقه، حتى قام بتدبير الخلافة، وأقعد من كان له فيها إنافة، وساس الأمور أحسن سياسة، وداس الخطوب بأخشن دياسة، واستشعر اليمن كل فريق. وأسقط جعفر المصحفي، وعمل فيه ما أراد.

فأول غزوة فصمها من عرى المملكة غزوة الصقالبة الخدم بالقصر موضع الخلافة؛ وكانوا أبهى حلل المملكة، وأخص عددها؛ عنى الخلفاء يجمعهم والاستكثار منهم؛ وكانوا خاصة الناصر والحكم بعده، حتى لقد ظهرت منهم في زمن الحكم أمور قبيحة أغضى عنها مع إيثاره العدل واطرح الجور بالجملة. وكان يقول: (هم أماناؤنا وثقاتنا على الحرم؛ فينبغي للرعية أن تلين لهم، وترفق في معاملتهم؛ فتسلم من معرفتهم، إذ ليس يمكننا في كل وقت الإنكار عليهم). ولما مات الحكم، كان الصقالبة أكثر جمعا وأحد شوكة، يظنون أن لا غالب لهم وأن الملك بأيديهم. وكانوا نيفا على الألف محبوب؛ فحسبك بما يتبعهم؛ وكان رأسهم فائق المعروف بالنظامي، صاحب البرد والطرار؛ ويلييه صاحبه جوذر صاحب الصاغة والبيازرة؛ وإليهما كان أمر الغلمان الفحول بخارج القصر. وكان قد جرى بين فائق وجوذر مع الحاجب جعفر المصحفي إثر موت الحكم

ما أذكره: وذلك أنه لما توفي الحكم، خفي موته على وزيره جعفر وسائر أهل المملكة لطول تددده في العلة، وتفرد بعلم ذلك في وقته خادماه الخاصان به: فائق وجوذر؛ فاستظهرا بكتمان ذلك، وتقدما في ضبط الدار، وخلوا للتشاور، وقد عزموا على رد الأمر للغيرة بن الناصر، أخي مولاها الحكم، خشية من انتشاره على ابنه هشام، لصغر سنه، وإنكار الناس لتقدمه على أن يقر ابن أخيه هشاما على

العهد بعده؛ فيمنا على المغيرة بسوق الخلافة إليه، وبقياً لمولاهما بارتقاب كبر ولده، ويكون الملك في أيديهما بحاله؛ وكان رأياً حسناً لو أراد الله به.

فلما اتفقا على ذلك، قال جودر لفائق: (ينبغي أن نحضر جعفر بن عثمان الحاجب؛ فنضرب عنقه؛ فبذلك يتم أمرنا). فقال له فائق: (سبحان الله يا أخي! تشير بقتل حاجب مولانا وشيخ من مشيختنا دون ذنب، ولعله لا يخالفنا فيما نريده، مع افتتاحنا الأمر بسفك الدم). فأرسلا في جعفر بن عثمان؛ فحضر: ونعيا إليه الحكم، وعرضا عليه ما أجمعا عليه من الرأي. فقال لهما جعفر: (هذا، والله! أسد رأي وأوفق عمل؛ والأمر أمرك؛ وأنا وغيري فيه تبع لكما. فاعزما على ما أردتما، واستعينا بمشورة المشيخة؛ فهي أنفى للخلاف، وأنا أسير إلى الباب، فأضبطه بنفسي؛ وأنفذاً أمركما إلى بما شئتما). وخرج عنهما؛ فضبط باب القصر، وتقدم في إحضار أصحاب الهاشمية مثل زياد بن أفلح مولي الحكم، وقاسم بن محمد، ومحمد بن أبي عامر، وهشام بن محمد بن عثمان، وأشباههم؛ واستدعى بني برزال، إذ كانوا بطائته من سائر الجند. واستحضر سائر قواد الأجناد الأحرار؛ فاجتمع له من هذه الطوائف ما شد ركنه وقوى أيده؛ فنعى لهم الخليفة، وعرفهم مذهب الصقالبة في نكت بيعة هشام؛ وأقبل بثبت أصحابه، وقال لهم: (إن حبسنا الدولة على هشام، أمنا على أنفسنا، وصارت الدنيا في أيدينا؛ وإن انتقلت إلى المغيرة قبل أن يبلغه موت أخيه، فتمكنه الحيلة. فعمل

١٨٠٣ مقتل المغيرة بن عبد الرحمن الناصر

برأيهم؛ فتوافقوا فيما بينهم النهوض إلى قتله؛ فكفوا وجنوا؛ فبدرهم محمد بن أبي عامر وقال: (يا قوم إني أخاف فساد أمركم، ونحن تبع لهذا الرئيس وأشار إلى جعفر، فينبغي ألا نختلف عليه، وأنا أتحمّل ذلك عنكم إن أجذبني إليه؛ فاحفضوا عليكم!) فأعجب جعفر والجماعة ما كان منه، وولوه شأنه، وقالوا له: (أنت أحق بتولي كبره لخاصتك بالخليفة هشام ومحللك من الدولة). فأرسل جعفر معه طائفة من الجند الأحرار، وثق بهم لذلك.

مقتل المغيرة بن عبد الرحمن الناصر

فركب محمد بن أبي عامر إلى المغيرة من ساعته، وركب معه بدر القائد مولي الناصر في مائة غلام من غلمان السلطان، ووقف لهم خارج باب دار المغيرة، وأحاط سواه من أصحاب محمد بجهاتها، واقتحم محمد عليه؛ فوجده مطمئناً على غير استعداد؛ فنعى إليه أخاه الحكم، وعرفه بجلوس ابنه هشام في الخلافة، وأن الوزراء خشوا خلافه، فأنفذوه لامتحان القصة. فاشتد ذعره؛ ثم استرجع عليه، واستبشر يملك ابن أخيه، وقال: (أعلمهم أنني سامع مطيع واف ببيعتي؛ فتوثقوا مني كيف شئتم!) وأقبل يستلطف ابن أبي عامر، ويناشده الله في دمه، ويسأله المراجعة في أمره، حتى رق له محمد، وكتب إلى جعفر يصدق عنه ويصف له الصورة التي وجده عليها من السلامة والطمأنينة، ويستأذنه في شأنه. فرد عليه جعفر يلومه في التأخير، ويعزم عليه في التصميم، ويقول له: (غررتنا من نفسك؛ فانفذ لشأنك؛ أو فانصرف، نرسل سواك). فخمى محمد لجوابه، وعرض الرقعة على المغيرة، وجعلها بيده، وزال عن وجهه، وأدخل عليه تلك الطبقة؛ فقتلوه خنقاً في مجلسه، وعلقوا جسده في مخدع يتصل بمجلسه، كههيئة المختنق من تلقاء نفسه، وذلك كله بمعاينة حرمه. ثم أشاعوا أنه خنق نفسه، لما أكرهوه على الركوب لابن أخيه؛ فطاح دمه على هذه الصورة.

١٨٠٤ بعض أخبار الصقالبة مع ابن أبي عامر

وكان سنه يوم قتل سبعا وعشرين سنة. ثم تقدم محمد بإخفاء ذلك، وأمرهم بدفنه في مجلسه، وأن يسدوا أبوابهم، فiamنوا بذلك على ولده ونعمته.

وعاد ابن أبي عامر إلى جعفر بالقصة؛ فطابت نفسه، وصير محمداً إلى جانبه، وشكره. ووصل الحادث على المغيرة إلى جودر وفائق؛ فدهشا، وسقط في أيديهما. وقال جودر لفائق: (قد نصحت لك، فلم تسمع مني!) وكان أكل دهاء منه. فانكفشا إلى جعفر، فأظهرا له السلامة والاستبشار بما أتاه، والاعتذار مما رأياه، وقالوا له: (إنّ الجزع أذهلنا عما أرشدك الله إليه. فجزاك الله عن ابن مورنا خيراً،

وعن دولتنا وعن المسلمين!) فأظهر لهما بعض القبول. وانغمس جعفر في الشغل بأمر البيعة أياما، وفي نفسه للصقالية ما لا تهنيه معه عيشة، وفي أنفسهم له أبحر لوعة.

وأجلس جعفر هشام بن الحكم للبيعة بالخلافة صبيحة يوم الإثنين لأربع خلون من صفر سنة ٣٦٦؛ ودعا الناس ابن أبي عامر للبيعة؛ فلم يختلف عليه اثنان. فكان لابن أبي عامر في أخذها أثر كبير، تذاكره الناس، وعلا شأنه ومكانه، وبعد في الناس صيته.

بعض أخبار الصقالية مع ابن أبي عامر
وذلك أنه لما تمكنت الوحشة ما بين جعفر والصقالية، انحرفوا عنه، وكرهوا ولاية هشام. فأخذ جعفر حذره منهم؛ وأذكى العيون؛ وبلغه أن جوذرا وفائقا يديران على الدولة، ويدسان في ذلك إلى بعض من في قيادتهما من وجوه الغلمان والفحولة؛ وكان الدخول والخروج إليهما على باب الحديد؛ فأمر الحاجب جعفر المصحفي بسده بالحجر، وصير دخول الناس على باب السدة، فحسم شر الصقالية، وصيرهم تحت الرقبة. ونظر جعفر في غزالة الغلمان الفحولة عن رسم هذين الصقليين بمواطاة محمد بن أبي عامر؛ ودس محمدا إلى من طلبهم له؛ فتقدم عليهم محمد بن أبي عامر؛ فكان يطأ عقبه منهم خمسمائة غلام، فاشتد بهم أرزوه، ونخم أمره، وقدمهم في الإنزال والعطاء؛ فأحبوه؛ ثم انقلب بنو برزال إلى محمد بن أبي عامر، وصاروا في قيادته. فاعتز بالطائفتين، وقهر عدوه، وتبعه سائر الجند. فهان أمر الصقالية عنده.

ثم إن جوذرا الفتى استأذن السلطان في الخروج إلى داره مستعفيا من الخدمة، وهو يظن أنه لا يجاب إلى ذلك؛ فأذن له في الخروج؛ فاشتد وعيد أصحابه، وزاد كلامهم؛ وكان أجسرهم على ذلك دري الفتى الصغير، لما فيه من التمرد والجهالة؛ فحرك جعفر ابن أبي عامر لإزالته والراحة منه، وقال: (حاول عليه!) فدس إلى رعبته ببياسة، وأمرهم بالشكوى به وبعماله، ووعدهم العدو عليه والإراحة من جوره؛ فسارعوا إلى ذلك. ورفع الحاجب جعفر قصته إلى السلطان، وقد أحكم ابن أبي عامر شأن التدبير عليه؛ فخرج التوقيع بالجمع بين دري وبينهم، والنظر في مصالحهم؛ فاستدعى دري إلى بيت الوزارة؛ فلما أشرف على الدار، ورأى من أعد فيها، أحسن بالشر؛ فخنس راجعا؛ ففنع ابن أبي عامر، وقبض عليه؛ ففجأذبا؛ فبطش دري بابن أبي عامر، وقبض على لحيته؛ فصاح محمد بن أبي عامر بمن حضر من الجند؛ فاحتشم الأندلسيون دريا، وأسرع بنو برزال إلى إجابته؛ فتقدموا إلى دري، فأوجعوه ضربا؛ ولحقته ضربة بصفح السيف، أزال عقله، وحمل للوقت إلى داره؛ ففوجئ من ليلته بالقتل. وأمر في الوقت فائقا وجماعة من كبارهم بالخروج إلى ديارهم والتزامها؛ فخرجوا إليها. وانحصدت شوكة الصقالية حينئذ، وفل حدهم؛ وتجرد ابن أبي عامر لطلبهم، فاستخرج منهم أموالا جمعة. وآلت حال فائق إلى أن صير إلى الجزائر الشرقية؛ فمات هنالك.

وفي خروج الصقالية من القصر، يقول سعيد الشنتريني الشاعر (سريع):

١٨٠٥ غزوة محمد بن أبي عامر الأولى

أَخْرَجَ مِنْ قَصْرِ إِمَامِ الْهُدَى ... كُلُّ فِتَى مُنْبَسِطٍ جَائِرٍ
فَمَنْ رَأَيْنَا مِنْهُمْ قَالَ لَا ... مَسَاسٍ فَعِلِ النَّاسِ بِالسَّامِرِ
نَحَفَّ ظَهْرُ الْمَلِكِ الْمُتَرَضَّى ... قَدْ خَفَّ مِنْ ثِقَلِهِمُ الظَّاهِرِ
وَسِيلَ مَاءِ الْعِلْمِ مِنْ وَجْهِهِ ... مُذْ زَالَ مِنْ جَهْلِهِمُ الْخَائِرِ
فَلَا زَمَ الْإِقْرَاءُ فِي قَصْرِهِ ... مَعَ الْوَزِيرِ الْخَيْرِ الظَّاهِرِ

وقد جعفر المصحفي أمر القصر والحرم، بعد إخراج هاؤلاء الفتیان، سكرًا صاحبهم؛ فسكن أنفُس الصقالية، وأجراهم على الطاعة؛ فأصغوا إليه إلى أن استباحهم جوذر الفتى عظيمهم عند الظهور الذي هم به.

فلما هم لابن أبي عامر تديره في الصقالية، جعل يتوصل إلى تقلد جيش المملكة، والقيام بجهاد العدو دون الجماعة؛ وكان العدو جاس

بلاد المسلمين، وطمه في انتهاز الفرصة فيهم؛ فأنف ابن أبي عامر من ذلك، وأشار على الحاجب جعفر بتهييز الجيش والاعتداد للجهاد، وعرض القيام به على جميع الأكابر؛ فكلهم كع عنه إلا ابن أبي عامر؛ فإنه بادر إليه على أن يختار من يخرج معه من الرجال، ويتجهز لغزوه بمائة ألف دينار. فاستكثر ذلك بعض من حصر؛ فقال له محمد بن أبي عامر: (خذ ضعفها وامض! وليحسن غنائك!) فخام المعترض عن ذلك، وسلم الجيش والمال إلى ابن أبي عامر؟

غزوة محمد بن أبي عامر الأولى

نفرج ثلاث خلون من رجب من سنة ٣٦٦، ودخل على الثغر الجوفي. فنزل حصن الحامة من جليقية؛ فحاصره، وأخذ ريبه، وغنم وسبي؛ وقفل بالسبي والغنائم إلى قرطبة إلى ثلاثة وخمسين يوما. فعظم السرور به، وأخلص الجند له، لما رأوا من كثرة جوده، وكرم عشرته، وسعة مائدته؛ فأحبوه والتقوا به؛ وكثر إحسانه إليهم وإفضاله عليهم، إلى أن أدرك بهم سولة، وبلغ مأموه

١٨٠٦ ذكر نكبة الحاجب جعفر بن عثمان

١٨٠٧ غزوة ابن أبي عامر الثانية

ذكر نكبة الحاجب جعفر بن عثمان

وذلك أنه، لما سمع الحال بمحمد بن أبي عامر، واستتب أمره، أعمل الحيلة والتدبير في إسقاط جعفر بن عثمان، والانفراد بالدولة؛ فلم يجد لذلك سببا أقوى من مظاهرة الوزير أبي تمام غالب الناصري، صاحب مدينة سالم والثغر الأدنى، شيخ الموالي قاطبة، وفارس الأندلس يومئذ غير مدافع له؛ وكان بينه وبين الحاجب جعفر بن عثمان عداوة ومنافسة. والثالث حال غالب صدر دولة هشام في سنه ولايته لما ملك جعفر أمرها، وبأن تقصير غالب في مدافعة أعداء الله، وخاف أن يصل أمره إلى الخلاف والمعصية؛ فأشار ابن أبي عامر في استصلاحه ورعى ذمامه. ولم يزل ابن أبي عامر يقوم بشأنه، ويخدمه داخل الدار عند السيدة أم هشام وسائر الحرم، حتى تم مراده فيه كي يستعين به على إهلاك المصحفي؛ فأنهض غالبا إلى خطة الوزارتين، وأنفذ إليه كتاب الخليفة بذلك، وأمره بالاجتماع مع ابن أبي عامر على التدبير على الصوائف، على أن يدير ابن أبي عامر جيش الحضرة، ويدير غالب جيش الثغر.

غزوة ابن أبي عامر الثانية

وخرج محمد بن أبي عامر بالصائفة يوم الفطر من سنة ٣٦٦؛ فاجتمع مع غالب بمدينة مجريط. وأصل معه من التظافر على جعفر ما أصاب به النكبة من قلبه؛ واتفقا وتوافقا. وخدم ابن أبي عامر غالبا في سفره هذا خدمة ملك بها نفسه؛ فقال إليه غالب بكلمته. واستمرا في غزوهما، وافتتح حصن مولة، وظهرها فيه على سبي كثير، وغنم المسلمون أوسع غنيمة. وكان أكثر الأمر فيها لغالب؛ فتجافى عنه لابن أبي عامر. وسار معه إلى ثغره، ومنه فارقه، بعد أن أبلغ في مواطاة محمد بن أبي عامر على عدوه جعفر بما أراده؛ وقال غالب لابن أبي عامر عند وداعه: (سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذكر جليل، يشغلهم السرور به عن الخوض فيما تحدثه من قصة. فإياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتثقلها دونه!) فاعتقد محمد ذلك.

وخاطب غالب الخليفة هشاما بحسن مناب ابن أبي عامر في هذه الغزوة، ونسب السعي والاجتهاد إليه، وشكره، وشد عضده عند الخليفة؛ وعاد محمد ابن أبي عامر إلى حضرة قرطبة منصرفا بالسبي والغنائم. فاستمال محمد بهذا الفتح قلوب العامة والخاصة، وتعرفوا فيه بمن النقية؛ فبعد صيته، وهان عليه أمر جعفر وغيره، وشرع في هدمه. ونفرج أمر الخليفة يوم وروده بصرف محمد بن جعفر بن عثمان عن المدينة وتقليدها ابن أبي عامر. نفرج محمد نحو كرسيها في هذا اليوم، والخلع عليه، ولا عند جعفر علم بذلك؛ وكان محمد بن جعفر جالسا في مجلسها في أهبة، إذ صعد ابن أبي عامر نحوه؛ فولي محمد بن جعفر ناكصا على عقبه، وأتبع بدايته.

وملك ابن أبي عامر الباب بولاية الشرطة؛ والجيش يقوده له؛ والدار بعناية الحرم به؛ فملك على جعفر بذلك وجوه الحيلة، وخلاه، وليس في يده من الأمر إلا أقلخ. فضبط محمد المدينة ضبطا أنسى أهل الحضرة من سلف من أفراد الكفاة وأولى السياسة، وقد كانوا

قبله في بلاء عظيم، يتحارسون الليل كله، ويكابدون من روغات طراقه ما لا يكابد أهل الثغور من العدو. فكشف الله ذلك عنهم بمحمد بن أبي عامر وكفائته، وتنزهه عما كان ينسب لابن جعفر. فسد باب الشفاعات، وقمع أهل الفسق والذعارات، حتى ارتفع البأس، وأمن الناس، وأمنت عادية المتجرمين من حاشية السلطان؛ حتى لقد عثر على ابن عم له يعرف بعسقلانة؛ فاستحضره في مجلس الشرطة وجلده جلدا مبرحا كان فيه حمامة؛ فانقمع الشر في أيامه جملة. واستخلف ابن أبي عامر على

١٨٠٨ غزوة ابن أبي عامر الثالثة

المدينة ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبي عامر؛ فسلك في أهل الشر سبيله، بل أربى عليه في ذلك. وكتب جعفر غالبا يستخلصه، ويستميله، ويخطب بنته لابنه؛ فتجددت بينهما ألفة، وجرى عقد في المناكة. وانكشف ذلك لابن أبي عامر؛ فكتب غالبا ينشده العهد، وألقى أهل الدار عليه في فسح المصاهرة؛ فكتبوه في ذلك؛ فانحرف إلى ابن أبي عامر، وحل عقدة جعفر في نكاحه، وأنكح ابن أبي عامر أسماء ابنته؛ فكانت أحظى نسائه.

غزوة ابن أبي عامر الثالثة

فلما تم هذا العقد، خرج إليها؛ فدخل على طليطلة غرة صفر من سنة ٣٦٧؛ فاجتمع مع صهره غالب؛ فعظمه وجرى إلى موافقته. ونهضا معا؛ فافتتحا حصن المال وحصن زنبق، ودوخا مدينة شلمنقة وأخذوا أرباضها. وقفل ابن أبي عامر إلى قرطبة بالسي والغنائم، وبعدد عظيم من رؤوس المشركين، إلى أربع وثلاثين يوما من خروجه؛ فزاد له السلطان في التوبة، وأنهضه إلى خطة الوزارتين، سوى فيها بينه وبين غالب، ورفع راتبه إلى ثمانين دينارا في الشهر، وهو راتب الحجابة. واستقدم السلطان غالبا لاستهداء أسماء إلى زوجها محمد؛ فبالغ في إكرامه؛ ووقع زفاف أسماء في مشهد بعد العهد بمثله شهرة وجلالة؛ وزفت إليه ليلة النيروز من قصر الخليفة؛ فهو الذي تولى مع حرمة أمرها. وكانت أسماء هذه توصف بجمال بارع وأدب صالح؛ وحظيت عند ابن أبي عامر؛ فلم يفارقها. وقلده الخليفة خطة الحجابة مع جعفر مشتركا. ثم سخط الخليفة على جعفر بن عثمان المصحفي، وصرفه عن الحجابة يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٣٦٧؛ وأمر بالقبض عليه وعلى ولده

وأسابيه، وعلى ابن أخيه هشام؛ وصرفوا عما كان بأيديهم من الأعمال، وكتبوا بالأموال. فتوصل ابن أبي عامر بحاسبتهم إلى استصفاء أموالهم، وانتهاك حرهم، وترديد النكبات عليهم، حتى مزقهم كل ممزق. وسارع إلى قتل هشام ابن أخي جعفر في المطبق، إذ كان أشد آل عثمان عداوة له؛ وأخرج إلى أهله ميتا. واستمرت النكبة على جعفر سنين عدة، يحبس مرة ويطلق أخرى. ومما حفظ له في ابن أبي عامر، مستعظما له (مقارب) :

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ أَلَا رَحْمَةً ... تَجُودُ بِعَفْوِكَ إِنْ أَبْعَدَا
لَنْ جَلَّ ذَنْبٌ وَلَمْ أَعْتَمِدْهُ ... فَأَنْتَ أَجَلُّ وَأَعْلَى بَدَا
أَلَمْ تَرَّ عَبْدًا عَدَا طَوْرُهُ ... وَمَوْلِي عَفَا وَرَشِيدَا هَدَى
وَمُفْسِدًا أَمْرًا تَلَا فَيْتَهُ ... فَعَادَ فَأَصْلَحَ مَا أَفْسَدَا
أَقْلَنِي أَقْلَكَ مَنْ لَمْ يَزَلْ ... بِقَبِيكَ وَيَصْرِفُ عَنْكَ الرَّدَى

وكان جعفر بن عثمان في محنته أخور الناس، أراهم للذل، وأحبهم في الحياة؛ انتهى به الاستحذاء لمحمد بن أبي عامر، والطمع في الحياة، أن كتب إليه بعرض نفسه عليه لتأديب ابنه عبد الله وعبد الملك؛ فقال ابن أبي عامر: (أراد أن يستجهلي ويسقطني عند الناس، وقد عهدوا مني ببابه مؤملا؛ ثم يروونه اليوم بدهليزي معلما.) ثم جد ابن أبي عامر في مكروهه، وأدق حسابه، وأمر بإحضاره إلى مجلس الوزراء بقصر الخلافة، ليناظر بين أيديهم فيما ادعى عليه من الخيانة؛ فتردد إلى هذا المجلس مرارا، وأقبل آخر مرة إليه، وواثق الضاغط يزججه، والبحر والسن قد هاضاه، وقصرا خطاه، والموكل به يحذوه ويستحثه؛ فيقول له جعفر: (يا بني رفقا؛ فستدرك

ما تريد! ويا ليت أن الموت بيع، فأغلى الله سومه!) حتى انتهى به إلى المجلس، والوزراء جلوس، فجلس في آخر المجلس دون أن يسلم؛ فأسرع إليه الوزير محمد بن حفص بن جابر، وكان من حزب ابن أبي عامر، فعنفه، واستجهله، وأنكر عليه ترك التسليم، وجعفر معرض عنه. فلما أكثر عليه، قال له جعفر: (يا هذا جهلت المبرة، فاستجهلت عالمها وكفرت. اليد، فقصرت بمسديها.) فاضطرب ابن جابر من قوله، وقال: (هذا هو البهت بعينه! وأي أياديك الغراء التي مننت بها؟ أيد كذا أم يد كذا)؛ وعدد أشياء؛ فأنكرها عليه الحاجب، وقال: (هذا لا يعرف؛ والمعروف دفعي عن يمينك القطع، وشفاعتي فيها إلى الماضي - رحمه الله - حين استخونك في مال كذا!) فأصر ابن جابر على الجحد؛ فقال جعفر: (أنشد الله من له علم بما ذكرت أن يتكلم!) فقال الوزير ابن عياش: (قد كان بعض منا ذكرته؛ وغير هذا أولى بك، يا أبا الحسن!) فقال: (أخرجني الرجل، فقلت.) ثم أقبل الوزير محمد بن جهور على محمد بن جابر، فقال له: (أوما علمت أنه من كان في سنخ السلطان، تحامى السلام على أولائه لأنهم إن ردوا عليه، أسخطوا السلطان لتأمينهم من أخافه؛ وإن تركوا الرد، أسخطوا الله، وتركوا ما أمر به؟ فكان الإمساك أولى! ومثل هذا لا يخفي على أبي الحسن.) فحجل ابن جابر وأسفر وجه جعفر وتهلل. ثم أخذ القوم في مناظرته على المال؛ فقال: (قد والله استنفدت ما عندي من الطارف والتالد، ولا مطمع في درهم، ولو قطعت إرباً إرباً!) فصرف إلى محبسه في مطبق الزهراء؛ فكان آخر العهد به.

وله، وقد أودعه المنصور المطبق، والشجون تسرع إليه وتسبق، معزيا لنفسه، ومجتزيا في يومه بإسعاد أمسه؛ فقال (متقارب):
أَجَارِي الزَّمَانَ عَلَى حَالِهِ ... مُجَارَاةً نَفْسِي لَأَنْفَاسِهَا
إِذَا نَفْسٌ صَاعِدٌ شَفَّهَا ... تَوَارَتْ بِهِ بَيْنَ جُرسِهَا
وَإِنْ عَكَفَتْ نَكْبَةً لِلزَّمَانِ ... عَكَفْتُ بِصَدْرِي عَلَى رَأْسِهَا

ومن بديع ما حفظ له في نكبته، قوله - رحمه الله - يستريح من كربته (طويل):
صَبَرْتُ عَلَى الْيَّامِ لَمَّا تَوَلَّتْ ... وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتْ
فِيَا عَجَبًا لِلْقَلْبِ كَيْفَ اصْطَبَّارُهُ ... وَلِلنَّفْسِ بَعْدَ الْعِزِّ كَيْفَ اسْتَدَلَّتْ
وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى ... فَإِنْ طُمِعَتْ تَأْتِ وَالْأَسَلَّتْ
وَكَانَتْ عَلَى الْيَّامِ نَفْسِي عَزِيزَةً ... فَلَمَّا رَأَتْ صَبْرِي عَلَى الذَّلِّ ذَلَّتْ
وَقُلْتُ لَهَا نَفْسِ مُوتِي كَرِيمَةً ... فَقَدْ كَانَتْ الدُّنْيَا لَنَا ثُمَّ وَلَّتْ

وكان من هلاكه في محبسه هذا على يقين؛ وذلك أنه لما أمر به إلى المطبق، ودع أهله وولده ووداع الفرقة، وقال: (هذا وقت إجابة الدعوة! وأنا أرتقبه منذ أربعين سنة!) فسئل عما ذكره؛ فقال: (رفع على فلان أيام الناصر وسعى به إليه؛ فأشرفت على أعماله؛ فآل أمره إلى ضربه وتغير نعمته وإطالة حبسه. فبينما أنا نائم ذات ليلة، إذ أتاني آت؛ فقال لي: (أطلق فلانا؛ فقد أجيبت دعوته فيك؛ ولهذا أمر أنت لا بد لاقية!) فانتبعت مذعورا، وأحضرت الرجل، وسألته إحلالي؛ فامتنع علي؛ فاستحلفته على إعلامي بما خصني به من الدعاء؛ فقال: (نعم! دعوت الله أن يميئك في أضيق السجون كما أعمرتني حقبة.) فعلبت أنه قد وجبت دعوته، وندمت حيث لا ينفع الندم، وأطلقت الرجل؛ ولم أزل أرتقب ذلك في السجن.) فإلبث في السجن إلا أياما، وأخرج ميتا، وأسلم إلى أهله. فقيل: قتل خنقا في البيت المعروف ببيت البراغيت في المطبق؛ وقيل: دس إليه شربة مسمومة.

قال محمد بن إسماعيل، كاتب المنصور: (سرت مع محمد بن مسلمة إلى الزهراء لتسليم جسد جعفر إلى أهله وولده، والحضور على إنزاله في ملحد؛ فنظرت إليه ولا أثر فيه، وليس عليه شيء يواريه غير كساء خلق لبعض البوابين، ستره به. فدعا له محمد بن مسلمة بغاسل؛ فغسله (والله!) على فرد باب اقتلع من ناحية الدار، وأنا أعتبر من تصرف الأقدار؛ وخرجنا بنعشه إلى قبره، وما معنا إلا إمام المسجد المستدعي للصلاة؛ وما تجاسر أحد على النظر إليه.) ثم قال: (وإن لي في شأنه لخبرا ما سمع بمثله طالب وعظ، ولا وقع في مسمع ولا تصور للخط؛ وقفت له في طريقه، أيام نهبه وأمره، أروم أن أناوله قصة كانت به مختصة؛ فوالله ما تمكنت من الدنو منه بحيلة،

لكثافة موكبه، وكثرة من حَفَّ به، وأخذ الناس السكك عليه وأفواه الطرق، ينظرون إليه ويسلمون عليه، حتى ناولت قصتي بعض كتابه الذين نصبهم جناحي موكبه لأخذ القصص؛ فانصرفت، وفي نفسي ما فيها من الشرق بحاله والغصص، فلم تطل المدة حتى غضب عليه المنصور، واعتقله، ونقله معه في الغزوات ذليلاً وحمله. واتفق أن نزلت بجليقية في بعض المنازل إلى جانب خبائه في ليلة نهى فيها المنصور عن وقد النيران ليخفي على العدو أثره، ولا ينكشف له خبره؛ فرأيت - والله - ابنه عثمان يسفه دقيقا قد خلطه نساء يقيم به أوده، ويمسك به رmqه بضعف حال، وعدم زاد ومال، وسمعتة يقول (طويل) :

تَأْمَلْتُ صَرَفَ الْحَادِثَاتِ فَلَمْ أَزَلْ ... أَرَاهَا تُؤَانِي عِنْدَ مَقْدَمِهَا الْحَرَّ

فَلِلَّهِ أَيَّامٌ مَضَتْ لَسِيلِهَا ... فَإِنِّي لَا أُنْسَى لَهَا أَبَدًا ذِكْرًا

تَجَافَتْ بِهَا عَنَّا الْحَوَادِثُ بُرْهَةً ... وَأَبَدَتْ لَنَا مِنْهَا الطَّلَاقَةَ وَالْبُشْرَا

لِيَالِي لَمْ يَدْرِ الزَّمَانُ مَكَانَنَا ... وَلَا نَظَرْتُ مِنَّا حَوَادِثُهُ الشَّرَّارَا

وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا سَحَابٌ ... عَلَى كُلِّ أَرْضٍ تُمَطِّرُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّارَا

وكان مما أعين به ابن أبي عامر على جعفر بن عثمان المصحفي ميل حلية الوزراء إليه وإيثارهم له عليه، وسعيهم في ترقيه، وأخذهم بالعصية فيه؛ فإنهم، وإن لم تكن لهم حمية أعرابية، فقد كانت سلفية سلطانية، يقتفى القوم فيها آثار سلفهم، ويمنعون بها ابتذال شرفهم؛ غادروها سيرة، وخلفوها عادة أثيرة، تشاح الخلف فيها تشاح أهل الديانة، وصانوا بها مراتبهم أعظم صيانة؛ ورأوا أن أحدا من التوابع لا يدرك فيها غاية، ولا يلحق لها راية. فلما أحظى المستنصر بالله جعفر بن عثمان واصطنعه، ووضع من أثرته حيث وضعه، حسدوه وذموه، وخصوه بالمطالبة وعموه. وكان أسرع هذه الطائفة إلى مهاودة المنصور عليه، والانحراف

١٨٠٩ استبداد ابن أبي عامر بالملك وتغلبه عليه

عنه إليه، آل أبي عبيد وآل شهيد، وآل جهور، وآل فطيس؛ وكانوا في الوقت أزمة الملك وقوام الخدمة، ومصاييح الأمة؛ فأحفظوا محمد بن أبي عامر مشايحه، ولأسباب المصحفي منازعه، وشادوا بناءه، وقادوا إلى عنصره سناءه، حتى بلغ الأمل، والتحف بمنه واشتمل. وعند التيام هذه الأمور لابن أبي عامر، استكان جعفر بن عثمان للحادثة، وأيقن بالنكبة، وزوال المرتبة، وكف عن اعتراض محمد وشركته في التدبير، وانقبض الناس عن الرواح إليه والتبكير. واثالوا على ابن أبي عامر؛ نخف موكبه، وغار من سماء العزة كوكبه، وتوالى عليه سعي ابن أبي عامر وطلبه حتى محاه، وهتك ظلاله وأضحاه. ومن قوله (كامل) :

لَا تَأْمَنَنَّ مِنَ الزَّمَانِ تَقَلُّبًا ... إِنَّ الزَّمَانَ بِأَهْلِهِ يَتَقَلَّبُ

وَلَقَدْ أَرَانِي وَالْبُوثُ تَهَابُنِي ... وَأَخَافُنِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الثَّلَبُ

حَسَبُ الْكَرِيمِ مَهَانَةً وَمَذَلَّةً ... أَلَّا يَزَالَ إِلَى لَيْمٍ يَطْلُبُ

وكان قوله هذه الأبيات لما سبق إلى مجلس الوزارة للمحاسبة، وواثق الضاغظ يزججه ويستحثه، وهو يقول له: (رفقا بي، يا واثق، فستدرك ما تحبه وتشتيه، وترى ما كنت ترتجيه!) وقد تقدم ذلك.

استبداد ابن أبي عامر بالملك وتغلبه عليه

لما قتل ابن أبي عامر جعفر بن عثمان، انفرد بشأنه، ورمى الغرض الأبعد من ضبط السلطان والحجر عليه والاستبداد بالمملكة وأمور الدولة؛ جرى في ذلك مجرى المتغلبين على سلطان بني العباس بالمشرق من أمراء الديلم، حتى أورث ذلك عقبه. فأخذ ابن أبي عامر في تغيير سير الخلفاء المروانية في استجرار

الأمر لنفسه وسبك الدولة على قلبه؛ فأداه ذلك إلى مضادة ما كانوا عليه؛ فعوض باللبن غلظة، وبالسكون حركة، وبالأناة بطشه، بالموادعة محاربي؛ فجعل أهل الرأي من مصادر أموره ومواردها يقصون بخروجها عن حد الصواب وقانون التدبير لها؛ وربما فاوض

جلتهم الرأي، فيسيرون عليه من الوجه الذي عرفوه، والقانون الذي حمدوه؛ فيعدل عن ذلك إلى المذهب الذي شرعه، والطريق الذي نهجه، والخطر الذي لا يجهل اقتحامه؛ فيبته القوم من حسن ما يقع له.

قال الفتح بن خاقان: (فرد نابه على من تقدمه، وصرفه واستخدمه؛ فإنه كان أمضاهم سنانا، وأذكاهم جنانا، وأتمهم جلالا، وأعظمهم استقلالاً. قال أمره إلى ما آل، وأوهم العقول بذلك المال؛ فإنه كان آية الله في إتقان سعده، وقربه من الملك بعد بعده؛ بهر برفعه القدر، واستظهر بالأناة وسعة الصدر، وتحرك فلاح نجم الهدو، وتملك فما حقق بأرضه لواء عدو، بعد نحول كابد منه غصصا وشرفا، وتعذر مأمول صارده فيه سهر وأرقا، حتى أنجز له الموعود، وفرّ نحسه أمام تلك السعود. فقام بتدبير الخلافة، وأقعد من كان له فيها أنافة؛ وساس الأمور أحسن سياسة، وداس الخطوب بأخشن دياسة؛ فانتظمت له الممالك، واتضحت به المسالك؛ وانتشر الأمن في كل طريق، واستشعر اليمن كل فريق. وملك الأندلس بضعا وعشرين حجة، لم تدحض لسعادتها حجة، ولم تزخر لمكروه بها لجة؛ لبست فيها البهاء والإشراق، وتنفست عن مثل أنفاس العراق. وكانت أيامه أحمد أيام، وسهام بأسه أسد سهام. غزا شاتيا وصائفاء، ومضى فيما يروم زاجرا وعائفا؛ فأوغل في تلك الشعاب، وتغلغل حتى راع ليث الغاب، ومشى تحت ألوته صيد القبائل، واستجرت في ظلها بيض الظبي وسمر الذوابل؛ وهو يقتضي الأرواح بغير سوم، وينقضي الصفاح

على كل روم، ويتلف من لا ينساق للخلافة وينقاد، ويحتطف منهم كل كوكب وقاد، حتى استبد وانفرد، وأنس إليه من الطاعة ما نفر وشرد. وانتظمت له الأندلس بالعدوة، واجتمعت له اجتماع قریش في دار الندوة؛ ومع هذا، فلم يخلع اسم الحجابة، ولم يدع السمع لخليفته والإجابة، ظاهر يخالفه الباطن، واسم تنافره مواقع الحكم والمواطن. وأذل قبائل الأندلس بإجاة البربر، وأحمل بهم أولئك الأعلام الأكابر؛ فإنه قاومهم بأضدادهم، واستكثر من أعدادهم، حتى تغلبوا على الجمهور، وسلبوا منهم الظهور، ووشوا عليهم الوثوب المشهور، الذي أعاد أكثر الأندلس قفرا يبابا، وملأها وحشا وذئابا، وأعراها من الأمان، برهة من الزمان. وعلى هذه الهيئة، فهو وابنه المظفر كانا آخر سعد الأندلس، وحد السرور بها والتأنس. وغزواته فيها شائعة الإثر، رائعة كالسيف ذي الأثر، وحسبه وافر، ونسبه معافر. ولذا قال بنجر (طويل):

رَمِيتْ بِنَفْسِي هَوْلَ كُلِّ كَرِيهَةٍ ... وَخَاطَرْتُ وَالْحَرُّ الْكَرِيمُ مُخَاطِرُ

وما صاحبي إلاَّ جَنَانٌ مُشِيعٌ ... وَأَسْمَرُ خَطِيٌّ وَأَبْيَضُ بَاتِرُ

وَإِنِّي لَزَجَاءُ الْجِيوشِ إِلَى الْوَغَى ... أَسْوَدُ تَلَاقِيهَا أَسْوَدُ خَوَادِرُ

لَسَدَّتْ بِنَفْسِي أَهْلَ كُلِّ سِيَادَةٍ ... وَكَاثَرْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مِنْ أَكَاثِرُ

وما شَدْتُ بُنْيَانًا وَلَا كِنَ زِيَادَةٍ ... عَلَى مَا بَنَى عَبْدُ الْمَلِكِ وَعَامِرُ

رَفَعْنَا الْمَعَالِي بِالْعَوَالِي حَدِيثَةً ... وَأَوْرَثْنَاها فِي الْقَدِيمِ مَعَاوِرُ

وكانت أمه تميمية؛ فحاز الشرف من طرفيه؛ والتحف بمطرفيه. قال القسطلي (طويل):

تَلَاقَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَمِيمٍ وَيَعْرُبٍ ... شُمُوسٌ تَلَاوُلًا فِي الْعُلَى وَبُدُورُ

مِنَ الْحَمِيرِينَ الَّذِينَ أَكْفَهُمْ ... سَحَابٌ تَهْمِي بِاللَّدى وَبُحُورُ

وتصرف قبل ولايته في شتى الولايات، وجاء من التحدث بمنتهى أمره

بآبات، حتى صح زجره، وجاء بصبحه فجره، يؤثر عنه في ذلك أخبار، فيها عجب واعتبار. وكان أديبا محسنا. وعالما متفطنا. فن ذلك قوله، يمني نفسه بملك مصر والحجاز، ويستدعي صدور تلك الأعجاز (خفيف):

مَضْنُوعَ الْعَيْنِ أَنْ تَذُوقَ الْمَنَامَا ... حُبُّهَا أَنْ تَرَى الصِّفَا وَالْمَقَامَا

لِي دُيُونٌ بِالْشَرْقِ عِنْدَ أَنَاسٍ ... قَدْ أَحَلُّوا بِالْمُشْعِرِينَ الْحَرَامَا

إِنْ قَضَوْهَا نَالُوا الْأَمَانِي وَالْأَمَانِي ... جَعَلُوا دُونَهَا رِقَابًا وَهَمًّا
عَنْ قَرِيبٍ تَرَى خُيُولَ هِشَامٍ ... يَبْلُغُ النَّيْلَ خَطْوَهَا وَالشَّامَا

وفي سنة ٣٦٨، أمر المنصور بن أبي عامر ببناء قصره المعروف بالزاهرة، وذلك عندما استفحل أمره، واتقد جمهره، وظهر استبداده، وكثر حساده، وخاف على نفسه في الدخول إلى قصر السلطان، وخشي أن يقع في أشطان. فتوثق لنفسه، وكشف له ما ستر عنه في أمسه، من الاعتزاز عليه؛ ورفع الاستناد إليه؛ وسما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه، ويحله بأهله وذويه، ويضم إليه رياسته، ويتم به تديره وسياسته، ويجمع فيه فتياه وغلمانته. فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة، الموصوفة بالقصور الباهرة، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم، ونسق فيها كل اقتدار معجز ونظم. وشرع في بنائها في هذه السنة المؤرخة، وحشد إليها الصناع والفعلة، وجلب إليها الآلات الجليلة، وسربلها بهاء يرد العيون كليلة؛ وتوسع في اختطافها، وتولع بانتشارها في البسيطة وانبساطها، وبالغ في رفع أسوارها، وثابر على تسوية أنجاده وأغوارها. فالتسعت هذه المدينة في المدّة القريبة، وصار من الأنباء الغريبة. وبني معظمها في عامين.

وفي سنة ٣٧٠، انتقل المنصور بن أبي عامر إليها، ونزلها بخاصته وعامته؛ فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته، وأمواله وأمتعته، وأخذ فيها الدواوين والأعمال،

وعمل داخلها الأهراء، وأطلق بساحتها الأرجاء. ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكُتّابه، وقواده وحجابه؛ فاقتنوا بأكافها بكار الدور، وجليلات القصور، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة، والمنازه المشيدة. وقامت بها الأسواق، وكثرت فيها الأرفاق؛ وتنافس الناس في النزول بأكافها، والحلول بأطرافها، للدنو من صاحب الدولة، وتناهي الغلو في البناء حوله، حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة، وكثرت بحوزتها العمارة، واستقرت في بحبوحتها الإمارة. وأفرد الخليفة من كل شيء إلا من الاسم الخلافي، وصير ذلك هو الرسم العافي. ورتب فيها جلوس وزرائه، ورؤوس أمرائه، وندب إليها كل ذي خطة بخطة، ونصب على بابها كرسي شرطته، وأجلس عليه واليا على رسم كرسي الخليفة، وفي صفة تلك الرتبة المنيفة. وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك الأموال الجبايات، ويقصدها أصحاب الولايات، وينتابها طلاب الحوائج، وحذر أن يعوج عنها إلى باب الخليفة عائج. فاقتضيت لديها اللبانات والأوطار، وانحشد الناس إليها من جميع الأقطار. وهم لمحمد بن أبي عامر ما أراد، وانتظم بلبه أمانيه المراد؛ وعطل قصر الخليفة من جميعه، وصبره بمعزل من سامعه ومطيعه، وسد باب قصره عليه، وجد في خبر ألا يصل إليه، وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر، ويبسط فيه النهي والأمر، ويشرف منه على كل داخل، ويمنع ما يحذر من الدواخل؛ ورتب عليه الحراس والبوابين، والسمار والمتنابيين، يلازمون حراسه من فيه ليلا ونهارا، ويراقبون حركاتهم سرا وجهارا؛ وقد حجر على الخليفة كل تدبير، ومنعه من تملك قبيل أو دبير. وأقام الخليفة هشام مهجور الفناء، محجور الغناء، خفي الذكر، عليل الفكر، مسدود الباب، محجوب الشخص عن الأحاب، لا يراه خاص ولا عام، ولا يخاف له بأس ولا يرجى منه إنعام، ولا يعهد منه إلا الاسم السلطاني في السكة والدعوة، وقد نسخه وليس أبهته، وطمس بهجته. وأغنى الناس عنه، وأزال أطماعهم منه، وصيرهم لا يعرفونه، وأمرهم أنهم لا يذكرونه.

واشدت ملك محمد بن أبي عامر منذ نزل قصر الزاهرة، وتوسع مع الأيام في تشييد أبنيتها، حتى كملت أحسن كمال، وجاءت في نهاية الجمال، نقاوة بناء، وسعة فناء، واعتدال هواء رق أديمه، وصقالة جوا اعتل نسيمه، ونضرة بستان، وبجة للنفوس فيها افتنان. وفيها يقول صاعد اللغوي (بسيط) :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ مِنْ يَمِينٍ ... وَالْمُبْتَنَى نَسَبًا غَيْرَ الَّذِي انْتَسَبَا
بِغَزْوَةٍ فِي قُلُوبِ الشَّرِكِ رَلْعَةٍ ... بَيْنَ الْمَنَايَا تَنَاقَى السُّمَرِ وَالْقُضْبَا
أَمَا تَرَى الْعَيْنَ تَجْرِي فَوْقَ مَرْمَرِهَا ... زَهْوًا فَتُجْرِي عَلَى أَحْسَائِهَا الطَّرْبَا
أَجْرِيَّتَهَا فَطَمًا الزَاهِي بِجَرِيَّتَهَا ... كَمَا طَمُوتٌ فَسَدَتْ الْعُجْمَ وَالْعَرْبَا
تَحَالَ فِيهِ جُنُودُ الْمَاءِ رَافِلَةً ... مُسْتَلْثَمَاتٍ تُرْبِكُ الدَّرْعَ وَالْبَلْبَا

تَحْفُهَا مِنْ فُتُونِ الْأَيْكِ زَاهِرَةٌ ... قَدْ أَوْرَقَتْ فِصَّةً إِذْ أُمِّرَتْ ذَهَبًا
بَدِيعَةُ الْمَلِكِ مَا يَنْفَكُ نَاطِرُهَا ... يَتَلَوُّ عَلَى السَّمْعِ مِنْهَا آيَةً عَجَبًا
لَا يُحْسِنُ الدَّهْرُ أَنْ يَنْشِيَ لَهَا مَثَلًا ... وَلَضَوْ تَعَنَّتْ فِيهَا نَفْسُهُ طَلَبًا

ودخل عليه عمرو بن أبي الحباب في بعض قصوره من المنية المعروفة بالعامرة، والروض قد تفتحت أنواره، وتوشحت بجاده وأغواره، وتصرف فيها الدهر متواضعا، ووقف بها السعد خاضعا؛ فقال (بسيط) :

لَا يَوْمَ كَالْيَوْمِ فِي أَيَّامِكَ الْأَوَّلِ ... بِالْعَامِرِيَّةِ ذَاتِ الْمَاءِ وَالطَّلَلِ
هَوَاؤُهَا فِي جَمِيعِ الدَّهْرِ مُعْتَصِدِلٌ ... طَيِّبًا وَإِنْ حَلَّ فَضْلٌ غَيْرُ مُعْتَدِلٍ
مَا إِنْ يُبَالِي الَّذِي يَحْتَلُّ سَاحَتَهَا ... بِالسَّعْدِ أَلَّا تَحُلَّ الشَّمْسُ بِالْحَمَلِ

وما زالت هذه المدينة رائقة، والسعود بلبتها متناسقة، تراوحها الفتوح وتغادياها، وتجلب إليها منكسرة أعاديها، ولا تزحف منها راية إلا إلى فتح، ولا يصدر عنها تديرير إلا إلى نجاح، إلى أن حان يومها العصيب، وقبض لها من المكروه أوفر نصيب. فتولت فقيدة، وخلت من بهجتها كل عقيدة.

وأشاع ابن أبي عامر أنَّ السلطان فَوَّضَ إليه النظر في أمر الملك، وتخلَّى له عنه لعبادة ربه. وانبث ذلك في الرعية حتى اطمأنوا إليه، مع قوة ضبطه وسرعة بطشه. فانتظم له ذلك كله وأكثر منه، بعد أن حصن قصر الخليفة في هذا الوقت بالسور الذي أدار حوله، وعمل الخندق المطيف به من جانبيه، والأبواب الوثيقة بالأحراس والسمار الذين وضعهم بأنقابه. ومنع الخليفة من الظهور، ووكّل بأبوابه من يمنع وصول خبر إليه أو أمر من الأمور إلا عن إذنه؛ فإن عثر على أحد من الناس في تجاوز هذا الحد، عاجله ونكل به. والأخبار عنه في هذا المعنى واسعة جدا، غير أن الاختصار في ذلك أن ابن أبي عامر بلغ من ذلك مبلغا لم يبلغه قط متغلب على خليفة، لأنه احتوى على الملك كله، وصير الخليفة قبضة في يده، حتى أنه لم يكن ينفذ له أمر في داره ولا حرمة إلا عن إذنه وعلمه. وجعل متولي قصره من قبله من يثق به، وصيره عينا على السلطان، لا يخفى عليه شيء من حركاته وأخباره.

ولما ترقى ابن أبي عامر إلى هذا القدر، عمل في مكروه القائد الكبير غالب الناصري صهره، والتوطئة لأسباب هدمه. فرأى أن يبني عليه ضدا له من أصحاب السيوف والحرابة المشهورين، لأن غالبا كان يستطيع على ابن أبي عامر بأسباب الفروسية، وبيانه بمعاني الشجاعة، ويعلوه من هذه الجهة التي لم يتقدم لابن أبي عامر بها معرفة. فلم يجد لذلك مثل جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي شدة بأس، وربط جاش، ونباهة ذكر، وجلالة قدر. فجد في استجلابه، وهو مقيم بالعدوة. وآل عليّ ممن أطاع الخليفة هشاما من زناته؛ فبعث ابن أبي عامر إليه، وتواترت كتبه إليه؛ فأسلم العمل إلى أخيه يحيى، وعبر إلى الأندلس بجيشه؛ فنزل قصر العقاب، بعد أن أعد له ما يصلح فيه. فاستوزره أبي عامر؛ فعظم شأنه، وأحلّه محل الأخ في الثقة، وقدمه على الكفاة؛ فوجد عنده ما أحبه، وفوق ما قدره؛ فاعتدل بالبرابرة أمره، وقوى

ظهره، وكانت هذه القطعة من البربر نحو الستمائة. وما زال بعد ذلك يستدعيهم ويتضمن الإحسان إليهم، والتوسعة عليهم، إلى أن أسرعوا إلى الأندلس، وانثالوا على ابن أبي عامر، وما زالوا يتلاحقون، وفرسانهم يتواترون، ييجئ الرجل منهم بلباس الخلق على الأعجف، فيبدل له بلباس الخنز الطرازي وغيره، ويركب الجواد العتيق، ويسكن قصرا لم يتصور له في منامه مثله، حتى صاروا أكثر أجناد الأندلس. ولم تزل طائفة البربر خاصة ابن أبي عامر وبطانته، وهم أظهر الجند نعمة، وأعلاهم منزلة.

ولما علم غالب بإدناء جعفر، علم الغرض فيه؛ ففسد ما بينهما، ووقع بينهما معارك وفتن كان الظفر فيها لابن أبي عامر على غالب. ومات، وهو يقاتله مع النصارى؛ وكان قد استجلبهم إليه في خبر طويل. فوجد غالب مقتولا في مجال الخيل، وابن أبي عامر كاد أن ينهزم له. فقبل إن قربوس سرجه قتله. وقيل غير ذلك. فكان ذلك أكبر سعد ابن أبي عامر؛ ولم يبق له بعد ذلك من يخاف منه. ولما فرغ ابن أبي عامر من غالب، دبر الحيلة في حتف جعفر بن علي، الذي أقامه أكبر معين في أمر غالب؛ فوأكأ على قتله أبا الأحوص

معن بن عبد العزيز النجبي فارس العرب، في طائفة من أصحابه الأندلسيين؛ فقتلوه غيلة؛ ثم قتل ابن أبي عامر بعد ذلك أبا الأحوص، وانفرد وحده.

وفي سنة ٣٧١، تسمى ابن أبي عامر بالمنصور، ودعى له على المنابر به، استيفاء لرسوم الملوك؛ فكانت الكتب تنفذ عنه: من الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر إلأى فلان. وأخذ الوزراء بتقبيل يده؛ ثم تابعهم على ذلك وجوه بني أمية؛ فكان من يدخل عليه من الوزراء وغيرهم يقبلون يده، ويمولونه عند كلامه ومحاطبته. فانقاد لذلك كبيرهم وصغيرهم؛ وإذا بدا لأبصارهم طفل من ولده، قاموا إليه، فاستبقوا ليده تقبيلًا، وعموا أطرافه لثما. فساوى محمد بن أبي عامر الخليفة في هذه المراتب، وشاركه في تلك المذاهب. ولم يجعل فرقا بينه

وبينه إلا في الاسم وحده في تصدير الكتب عنه، حتى تنامت حاله في الجلالة، وبلغ غاية العز والقدرة.

قال حيان بن خلف: وقرأت في بعض الكتب أن محمد بن أبي عامر، لما حجب هشاما عن الناس واستبد بالأمر دونه، ظهرت فيهم بقرطبة أقوال معرضة أفشوا بينهم فيها أبياتا فاحشة. فن ذلك ما قيل على لسان هشام الخليفة في شكواه لهم (وافر) :

أَلَيْسَ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ ... يَرَى مَا قَلَّ مُتَنَعًا عَلَيْهِ

وَتَمْلِكُ بِاسْمِهِ الدُّنْيَا جَمِيعًا ... وَمَا مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ فِي يَدَيْهِ

ومما قيل في تقديم هشام، وهو صغير لم يبلغ الحلم، وفي قاضيه ابن السليم (سريع) :

اقْتَرَبَ الْوَعْدُ وَحَانَ الْهَلَاكُ ... وَكُلُّ مَا تَكْرَهُهُ قَدْ أَتَاكَ

خَلِيفَةُ يُحْضِرُ فِي مَكْتَبٍ ... وَأُمُّهُ حُبْلَى وَقَاضٍ يَنَاكَ

يريد بذلك شغف أم هشام بابن أبي عامر، لأنها كانت تهم به، وهي أوصلته إلى حيث وصل من الحال التي لم يتمكن لأحد قبله ولا بعده مثلها؛ فسلم هشاما ملكه وجنده وماله.

وفي سنة ٣٧٢، قتل جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي؛ وذلك أن المنصور عزم - بزعمه - على إكرام جعفر المذكور ليلة الأحد ثلاث خلون من شعبان من السنة، مكرًا منه، وحيلة لقتله؛ فانتخبه ساقى المجلس بكأس؛ فقال له ابن أبي عامر: (اسقها أعز الناس علي). فأمسك الساقى حيرة لكثرة من ضم المجلس من العلية؛ فزجره ابن أبي عامر وقال: (ناولها الوزير أبا أحمد! عليك لهنة الله!) فقام جعفر؛ فتناولها على قدمه، واستخفه الطرب حتى قام يرقص؛ فلم يبق أحد بالمجلس إلا فعل كنعله، وأمليت إليه الكؤوس حتى ثقل وانصرف في جوف الليل مع بعض غلمانته؛ فخرج إليه معن وأصحابه؛ فلم يكن فيه امتناع لما كان عليه من السكر؛ فأخذته السيوف حتى برد، وحز رأسه ويده اليمنى، وحملوا إلى ابن أبي عامر سرا. فأظهر ابن أبي عامر الحزن عليه.

وفي سنة ٣٧٥، جهز المنصور جيشا كثيفا، وبعثه إلى العدو؛ فحاصر حسن ابن قنون الشريف الحسني. وكان حاول الخروج من الدعوة المروانية؛ واجتمع إليه خلق من أهل الغرب، وظهر أمره؛ فوصله الجيش العرم؛ فلم يجد ملجأ إلا الاستسلام للأمان. فأمنه قائد الجيش، وحمله إلى قرطبة مرقبا. فلم يمض ابن أبي عامر أمانه، وأمر بقتله ليلا في الطريق بغيا وتعديا، لأن أمان قائده أمانه؛ فقال من شاهد قتله أن هبت عليهم ريح عاصف في تلك الليلة التي قتل فيها غدرا ذلك الشريف، صبتهم على وجوههم، وسلبتهم أثوابهم، واحتملت رداء حسن المقتول؛ فلم يجدوه، وأظلم عليهم الأفق حتى خافوا على أنفسهم.

وفيها تفرق بنو إدريس في البلاد، وملك ابن أبي عامر الغرب، وأخرج منه من كان بقي به من الأدارسة. فقليل في ذلك (كامل) :

فِيمَا أَرَى عَجَبُ لِمَنْ يَعْجَبُ ... جَلَّتْ مُصِيبَتُنَا وَضَاقَ الْمَذْهَبُ

إِنِّي لَا أَكْذِبُ مُقَلَّتِي فِيمَا أَرَى ... حَتَّى أَقُولَ غَلَطْتُ فِيمَا أَحْسَبُ

أَيَكُونُ حَيًّا مِنْ أُمِيَّةٍ وَاحِدٍ ... وَبَسُوسُ صَخَمِ الْمَلِكِ هَذَا الْأَحْدَبُ

تَمْشِي عَسَاكِرُهُمْ حَوَالِي هَوْدَجٍ ... أَعَوَادُهُ فِيمَنْ قَرَدُ أَشْهَبُ

أبي أمية ابن أقمار الدُّجى ... مِنْكُمْ وما لوجوهها تَنْغِيْبُ

ثم قام بعد ذلك في الغرب على ابن أبي عامر زيري بن عطية المغراوي، ونكث طاعته بعد الحب الشديد والولاء الأكيد؛ وطعن على ابن أبي عامر تغلبه

على هشام وسلبه ملكه. فأنفذ له ابن أبي عامر واضحاً الفتى في جيش كثيف؛ فقاومه بالغرب؛ ودارت بينهم حروب عظيمة. ثم أردفه ابن أبي عامر تولده عبد الملك، وهبط ابن أبي عامر إلى الجزيرة الخضراء، يمدهم بالقواد والأجناد، وسار عبد الملك بن أبي عامر من طنجة إلى زيري بن عطية؛ ودارت بينهم حرب، لم يسمع بمثلها قط. ثم انهزم زيري ومن معه، ونجا مثنخا بالجراح. وملك ابن أبي عامر بلاد الغرب إلى سنة ٣٩٧.

(وكان أول من ملك سبتة من بني أمية وملك منها الغرب) عبد الرحمن الناصر؛ وسبب ذلك أنه وجه إليها أسطولا. فلما حلت بسبتة، أعلن أهلها بدعوته، وبادروا إلى طاعته، يوم الجمعة صدر ربيع الأول من سنة ٣١٩. ثم تابعت البلاد بالطاعة؛ ثم تكاثر ورود وفودها عليه وعلى الحكم ابنه؛ ثم الثالث طاعتها على ابن أبي عامر؛ فوجه واضحاً فتاه؛ فسكن في جبل أبي حبيب عاما في الأخبية؛ ثم وجه بابنه عبد الملك إليها؛ فالتقى بزيري وهزمه، وغدره ابن عمه الخير بن مقاتل؛ فطعنه برمح في قفاه وهرب. ومات بعد ذلك زيري من الجرح بعدما لقي جموع صنهاجة، أصحاب إفريقية، وهزمهم.

وانصرف عبد الملك بعدما استقامت له الطاعة بالغرب؛ فوجد أباه في غزاته بلاد البشاكشة منصرفا عنها. والتقى به بسرقسطة؛ وهي التي تسمى بغزاة البياض، سنة ٣٧٩.

وفي سنة ٣٧٩، قتل المنصور بن أبي عامر عبد الرحمن بن مطرف صاحب سرقسطة والثغر الأعلى؛ وسبب ذلك أنه، لما فكر عبد الرحمن في شأن من أئلفه ابن أبي عامر من كبار رجال الدولة، علم أنه لم يبق غيره، وخشي أن يلحقه بالجماعة. فسول له القدر المتاح التدبير على محمد؛ وقرب عليه مأخذه ولده عبد الله بن المنصور.

١٨٠١٠ ذكر تدبير عبد الرحمن بن مطرف

١٨٠١١ مع عبد الله بن المنصور في القيام عليه

ذكر تدبير عبد الرحمن بن مطرف

مع عبد الله بن المنصور في القيام عليه

وذلك أن عبد الله بن محمد بن أبي عامر كان مقيما بسرقسطة عند عبد الرحمن، متغير النفس على أبيه لإحباطه عبد الملك أخيه. وكان عبد الله يرى أنه أشجع وأفهم وأرجل وأفرس من أخيه عبد الملك، وأن أباه عين الظالم له في النسوية بعبد الملك؛ فكيف في تقديمه عليه. فكان في قلبه على أبيه سعي نار، أذكاه عبد الرحمن بن مطرف وأضرما. فتوطأ على الوثوب بالمنصور في أول فرصة، على أن يقسما ملك الأندلس: فالخضرة لعبد الله، والثغر لعبد الرحمن. وشرعا في إحكام سيل ذلك والتماس وجهه؛ وساعدهما عليه جماعة من وجوه أهل قرطبة من الجند والخدمة وغيرهم، فيهم الوزير عبد الله بن عبد العزيز المرواني صاحب طليطلة. فانبت أراجيف شنيعة تحقق المنصور صحتها، ولم يشك فيها؛ فاستدعى ابنه عبد الله من سرقسطة، واستأنف له كثيرا من التقديم والمبرة، خديعة ومغالطة؛ وصرف المرواني عن طليطلة صرفا جميلا؛ ثم صرفه عن الوزارة بعد مديدة، وألزمه داره. ثم خرج ابن أبي عامر غازيا إلى قشتالة؛ فتوافت إليه أمداد الثغور، فيهم عبد الرحمن بن مطرف ورجال سرقسطة؛ فلما صاروا بوادي الحجارة، أطبق أهل الثغور على الشكوى بعبد الرحمن، بدسيسة من ابن أبي عامر لهم في ذلك، حيلة منه؛ وذكروا أنه يحتبس أرزاقهم، ويحتجن لنفسه. فصرفه المنصور عن سرقسطة منسلخ صفر من سنة ٧٩ المذكورة، وقلدها مكانه (ابن أخيه عبد الرحمن بن يحيى) الملقب بسماجة، إطماعا لقومه النجيبيين في المحافظة. ولبث عبد الرحمن في العسكر مترددا إلى أن قبض عليه يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول. وسخط عليه المنصور، وأمر بحسابه؛ ثم قتل بعد ذلك بالزاهرة بين يدي المنصور.

١٨٠١٢ ذكر مقتل عبد الله المنصور

واستدعى المنصور ابنه عبد الله إلى عسكره خوف أن يحدث حدثاً بأنفته؛ فوافي العسكر؛ ففرق به أبوه، وأمل استصلاحه، وقد تباعد ذلك عليه لسقم سريره وشدة حقه. ونازل المنصور أثناء ذلك مدينة شنت أشتين؛ فلما اشتغل المسلمون بالقتال، فرَّ عبد الله بن المنصور من العسكر في ستة نفر من غلانه؛ فلحق بعدو الله غرسية بن قرذند صاحب آلبه؛ فقبله وأجازه على أبيه؛ فتحرك المنصور لغزو غرسية ومطالبته بإسلام ابنه إليه، وأقسم له أنه لا يقلع عنه حتى يمكنه من ولده. وأصر غرسية على الامتناع من ذلك؛ فهزم المنصور غرسية، وفض جمعه، واشتق بلد آلبه، واقتتح حصن وخشمة عبوة، أسكنه المسلمين؛ فضرع غرسية في مسالته على ما شار من شروطه في عبد الله وغيره؛ فعقد له المنصور على ذلك؛ فوكل غرسية بعبد الله جماعة من العلوج؛ وحمل عبد الله وأصحابه على البغال. وخرج سعد الخادم يستقبل عبد الله؛ فدنا من سعد وهو على بغل فار، مرتفع الحلية، عليه ثوب عجيب الصنعة، وهو متطلق، قوي الرجاء في الإقالة. فقبل سعد يده، وأنسه، وهون عليه الخطب؛ ثم تخلف عنه بقرب الوادي الجوفي، ووكل به من قتله؛ فحَفَّ به الموكلون وأعلموه بموته.

ذكر مقتل عبد الله المنصور

ولما أعلموه بأن حلَّ به ما كان يحذره، أمروه بالنزول؛ فلم يمتنع لهم وترجل، ومشى إلى السيف متطلقاً؛ فظهرت منه عند الموت صرامة، عجب لها من شاهده؛ وتقدم إليه ابن خفيف الشرطي؛ فضرب عنقه صبرا عند غروب الشمس من يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ٣٨٠. وأنفذ المنصور رأس ابنه إلى الخليفة مع كتاب الفتح؛ ودفن جسده في الموضع الذي قتل فيه. وكان سنه يوم قتل ثلاثاً وعشرين سنة، وذلك في غزوته الخامسة والأربعين. ثم إنَّ ابن أبي عامر استثقل سعدا وابن خفيف، ولم يزل

حاقدا عليهما، حتى قتلهما بعد الامتحان. وأزداد ابن أبي عامر بما فعله بابنه هيبة، وملئت قلوب الناس منه ذعرا. ومما حكى في أمر عبد الله المقتول، قال الوزير أبو عمر بن عبد العزيز: لما قتل المنصور ابنه، ارتاع الناس لذلك، وأوحشهم فعله؛ فتكلموا في ذلك كثيرا، ورجحوا فيه الظنون، ولم يتوجه لأحد فيه سبب يقضي بقتله. ثم تحرك المنصور إثر ذلك في بعض غزواته، فلما احتل بقلعة رباح؛ قال المخبر: دعينا إلى الطعام، فقال من حضر على لسان واحد: أيد الله المنصور! لقد صرت من قتله في غاية يعدم الصبر في مثله. فما سبب ذلك؟ قال: (لا أعلم أن أسلو عنه. فابتعتها، متجاوز النهاية في ثمنها، وجعلتها عند قريبة لي. وكنت كل يوم أخطر عليها أتعرف استبراءها؛ فلما أحسست بحبي لها، وكلفني بها، توخت رضائي، وذكرت لي أنها قد استبرأت، وهي كاذبة في ذلك، تريد بذلك موافقة مساري واستعجال مرادي؛ فدخلت بها، وهي لم تستبرأ؛ فكنت شاكا فيه.) وكان مولده سنة ٣٥٨.

حكاية زطرزون البربري مع المنصور. - وجرت للمنصور غيبٌ ذلك مع رجل من أعيان البربر اسمه زطرزون بن نزار البرزالي نادرة؛ وذلك أنه قال يوما، وقد بسطه في بعض المجالس: (يا مولاي لم قتلت عبد الله ابنك؟) ووصف شجاعته وخصاله؛ فقال له المنصور: (لا يسوك ذلك! فلو لم أفعل لقتلني. ما كان من ولدي! وبهذا اتهمت أمه وكانت أمه سوء. وقد قالوا إنَّ الأرحام الردية تفسد الذرية). فقال الجاهل زطرزون: (كذا يا مولاي؟ فحرام أمه وجرم أبيه)؛ ففجّل المنصور وقال: (شقيننا بهذا الملعون في حياته وبعد موته!) وعلم ما كان عليه زطرزون من الجهالة؛ فأعرض عنه. وصارت كلمته مأثرة في الناس مدة طويلة.

وكان المنصور آية من آيات فاطرة دهاء ومكرا وسياسة: عدا بالمصاحفة على الصقالة حتى قتلهم وأذلهم؛ ثم عدا بغالب الناصري على المصاحفة حتى قتلهم وأبادهم؛ ثم عدا بجعفر بن الأندلسي على غالب حتى قتله؛ ثم عدا بنفسه على جعفر وقتله؛ ثم أنفرد بنفسه وصار ينادي صروف الدهر: (هل من مبارز؟) فلما لم يجده، حمل الدهر على حكمه؛ فانقاد له وساعده؛ فاستقام أمره، منفردا بمملكة لا سلف له فيها. ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينكب قط في حرب شهدا، وما توجهت قط عليه هزيمة، وما انصرف عن موطن إلا قاهرا غالبا، على كثرة ما زاول من الحروب، ومارس من الأعداء، وواجه من الأمم. وإنها لخاصة ما أحسب شركه فيها أحد من

الملوك الإسلامية. ومن أعظم ما أعين به، مع قوة سعده، وتمكن جده، سعة جوده وكثرة بذله؛ فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان؛ وأول ما اتكأ على أرائك الملك وارتفق، وانتشر عليه لواء السعد وخفق؛ حط صاحبه المصحفي، وأثار له كامن حقه الخفي، حتى أصاره للهموم وخفق، وفي غايات السجون حبيسا؛ فكتب إليه يستعطفه (بسيط) :

هَبْنِي أَسَأْتُ فَأَيُّنَ الْعَفْوُ وَالْكَرَمُ ... إِذْ قَادَنِي نَحْوَكَ الْإِذْعَانُ وَالنَّدَمُ

يَا خَيْرَ مَنْ مَدَّتْ الْأَيْدِي إِلَيْهِ أَمَا ... تَرَقِّي لِشَيْخِ نَعَاهُ عِنْدَكَ الْقَلَمُ

بالغت في السَّخَطِ فَأَصْفَحْ صَفْحَ مُقْتَدِرٍ ... إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا مَا اسْتَرْحَمُوا رَحِمُوا

فما زاده ذلك إلا حنقا وحقدا، ولا أفادته الأبيات إلا تضمرما ووقدا. فراجعه بما أياسه، وأراه مرمسه، وأطبق عليه محبسه، وضيق تروحه من المحنة وتنفسه) :

الآن يَا جَاهِلًا زَلَّتْ بِكَ الْقَدَمُ ... تَبَغِي التَّكْرُمَ لَمَّا فَاتَكَ الْكَرَمُ

أَغْرَيْتَ بِي مَلِكًا لَوْلَا تَشَبُّهُهُ ... مَا جَارَ عِنْدَهُ نَطْقٌ وَلَا كَلَمٌ

فَيَأْسُ مِنَ الْعَيْشِ إِذْ قَدْ صِرْتَ فِي طَبَقٍ ... إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا مَا اسْتَنْقَمُوا نَقَمُوا

نَفْسِي إِذَا سَخَطْتَ لَيْسَتْ بِرَاضِيَةٍ ... وَلَوْ تَشَفَّعَ فِيكَ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ

وكان من أخبار المنصور الداخلة في أبواب البر والقربة، ببيان المسجد الجامع والزيادة فيه سنة ٣٧٧. وذلك أنه، لما زاد الناس بقرطبة، وانجلب إليها قبائل البربر من العدو وإفريقية، وتناهى حالها في الجلالة، ضاقت الأرباض وغيرها، وضاق المسجد الجامع عن حمل الناس؛ فشرع المنصور في الزيادة بشرقيه حيث يتمكن الزيادة لاتصال الجانب الغربي بقصر الخلافة. فبدأ ابن أبي عامر هذه الزيادة على بلاطات تمتد طولا من أول المسجد إلى آخره؛ وقصد ابن أبي عامر في هذه الزيادة المبالغة في الإتقان والوثاقة دون الزخرفة، ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة ما عدا زيادة الحكم. أول ما عمله ابن أبي عامر تطيب نفوس أرباب الدور والمستغلات الذين اشترت منهم للهدم لهذه الزيادة، بإنصافهم من الثمن أو بمعاوضة. وصنع في صحته الجب العظيم قدره، الواسع فناؤه. وابن أبي عامر رتب إحراق الشمع في المسجد الجامع زيادة للزيت؛ فتطابق بذلك النيران. وكان عدد سوارى الجامع، الحاملة لسمائه واللاصقة بمبانيه وقبابه ومناره، ما بين كبيرة وصغيرة، ألف سارية وأربعمائة سارية وسبع عشرة سارية. وعدد ثريات الجامع، ما بين كبيرة وصغيرة، مائتان وثمانون ثرية؛ وعدد الكؤوس سبعة آلاف كأس وأربعمائة كأس وخمس وعشرون كأسا. وزنة مشاكي الرصاص للكؤوس عشرة أرباع أو نحوها؛ وزنة ما يحتاج إليه من الكنان للفتائل في كل شهر رمضان ثلاثة أرباع القنطار؛ وجميع ما يحتاج إليه الجامع من الزيت في السنة خمسمائة ربع أو نحوها؛ يصرف منه في رمضان خاصة نحو نصف العدد. ومما كان يختص برمضان المعظم ثلاثة قناطير من المشع، وثلاثة أرباع القنطار من الكنان المقصر، لإقامة الشمع المذكور؛ والكبيرة من الشمع توقد بجانب الإمام يكون وزنها من خمسين إلى ستين رطلا، يحترق بعضها بطول الشهر، ويعم الحرق لجمعها ليلة الختمة. وكان يخدم الجامع المذكور بقرطبة في دولة ابن أبي عامر ويتصرف فيه من أئمة، ومقرئين،

وأمناء، ومؤذنين، وسدنة، وموقدين وغيرهم من المتصرفين مائة وتسعة وخمسون شخصا. ويوقد من البخور ليلة الختمة أربع أواق من العنبر الأشهب وثمانى أواق من العود الرطب.

ومن ذلك: ببيان قطرة على نهر قرطبة الأعظم. ابتداء المنصور ببيانها سنة ٣٨٧، وفرغ منها في النصف من سنة ٨٩؛ وانتهت النفقة عليها إلى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار؛ فعظمت بها المنفعة، وصارت صدرا في مناقبه الجليلة. وكانت قطعة أرض لشيخ من العامة، ولم يكن للقطرة عدول عنها؛ فأمر المنصور أمناء بإرضائه فيها؛ فحضر الشيخ عندهم، وأخذ حذره منهم؛ فساوموه بالقطعة وعرفوه وجه الحاجة إليها، وأن المنصور لا يريد إلا إنصافه فيها. فرماهم الشيخ بالعرض الأقصى عنده فيما ظنه ألا تخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهباً، كانت عنده أقصى الأمانة، وشرطها صحاحا. فاغتنم الأمناء غفلته، ونقدوه الثمن، وأشهدوا عليه؛ ثم أخبروا

المنصور بخبره؛ فضحك من جهالته، وأنف من غبنه، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل، وتدفع له صحاحا كما قال. فقبض الشيخ مائة دينار ذهباً؛ فكاد أن يخرج عن عقله وأن يجن عند قبضها من الفرح؛ وجاء محتفلاً في شكر المنصور. وصارت قصته خبراً سائراً. ومن ذلك أيضاً: بنيان قنطرة على نهر إستجة، وهو نهر شليل؛ فتجشم لها أعظم مؤنة. وسهل الطرق الوعرة والشعاب الصعبة.

ومن ذلك: إنه خط بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره، يدرس فيه ويتبرك به. ومن قوة رجائه، إنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده؛ فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازلهم، حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصويره في حنوطه عند موته؛ وكان يحمله حيث ما سار مع أكفانه، توقعا لحلول منيته؛ وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه، وغزل بناته. وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد؛ فكان كذلك.

وكان المنصور متسماً بصحة باطنه، واعترافه بذنبه، وخوفه من ربه، وكثرة جهاده. وإذا ذكر الله ذكر، وإذا خوف من عقابه ازدجر، ولم يزل متنزهاً عن كل ما يفتتن به الملوك سوى الخمر؛ لكنه أقنع عنها قبل موته بسنتين. وكان عدل المنصور في الخاصة والعامة، واطراحه المهادنة، وبسطه الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته، أمراً مضروباً به المثل.

ومن عدله أنه وقف عليه رجل من العامة يوماً بمجلسه؛ فناده: (يا ناصر الحق! إن لي مظلمة عند ذلك الوصيف الذي على رأسك!) وأشار إلى الفتى صاحب الدركة، وكان له فضل محل عند ابن أبي عامر؛ ثم قال: (وقد دعوته إلى الحاكم؛ فلم يأت!) فقال المنصور: (أو عبد الرحمن بن فطيس بهذه المنزلة من العجز والمهانة، وكنا نظنه أمضى من ذلك؟ اذكر مظلمتك، يا هذا!) فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما قطعها من غير نصف؛ فقال المنصور: (ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية!) ثم نظر إلى الصقلي، وهو قد ذهل عقله؛ فقال: (ادفع الدركة إلى فلان، وانزل صاغراً، وساو خصمك في مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك!) ففعل، ومثل بين يديه؛ ثم قال لصاحب شرطته الخاص به: (خذ بيد هذا الظالم الفاسق، وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره!) ففعل ذلك، وعاد الرجل إليه شاكراً؛ فقال له المنصور: (قد انتصفت أنت؛ فاذهب لسبيلك. وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بمنزلي.) فتناول الصقلي بأنواع من المذلة، وأبعده عن الخدمة.

ومن ذلك، قصة فتاه الكبير المعروف بالميورقي مع التاجر المغربي؛ فإنهما تنازعا في خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور، وهو يومئذ أكبر خدم المنصور، وإليه أمر داره وحرمة؛ فدافع الحاكم، وظن أن جأه يمنعه من إحلافه. فصرخ التاجر بالمنصور في طريقه إلى الجامع متظهماً من الفتى؛

فوكل به في الوقت من حمله إلى الحاكم؛ فأنصفه منه، وسخط عليه المنصور، وقبض نعمته منه ونفاه.

ومن ذلك، قصة محمد، فصاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه؛ فإن المنصور احتاجه يوماً إلى القصد، وكان كثير التعهد له؛ فأنفذ رسوله إلى محمد؛ فألقاه الرسول محبوساً في سجن القاضي محمد بن زرب، لحيف ظهر منه على امرأته، قدر أن سبيله من الخدمة يحمله من العقوبة. فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصته، أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رقباء السجن، يلزمه إلى أن يفرغ من عمله، ثم يعيده إلى محبسه. ففعل ذلك على ما رسمه، وذهب القاصد إلى شكوى ما ناله؛ فقطع عليه المنصور، وقال له: (يا محمد، إنه القاضي وهو في عدله، ولو أخذني الحق، ما أطق الامتناع منه! عد إلى محبسك أو اعترف بالحق؛ فهو الذي يطلقك.) فانكسر الحاجم، وزال عنه ربح العناية. وبلغت قصته للقاضي؛ فصالحه مع زوجه، وزاد القاضي شدة في أحكامه.

ومن دهائه، قال ابن حيان: كان جالساً في بعض الليالي، وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر؛ فدعا بأحد الفرسان، وقال له: (انفض إلى قج طليارش، واقم فيه؛ فأول خاطر يخطر عليك، سقه إليّ.) قال: فنهض الفارس، وبقي في الفج في البرد والريح والمطر واقفاً على فرسه، إذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرم على حمار له، ومعه آلة الخطب؛ فقال له الفارس: (إلى أين تذهب، يا شيخ؟) فقال: (وراء حطب.) فقال الفارس في نفسه: (هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطباً. فما عسى أن يريد المنصور منه؟) قال: فتركته. فسار عني قليلاً؛ ثم فكرت في قول المنصور، وخفت سطوته؛ فنهضت إلى الشيخ، وقت له: (ارجع إلى مولانا المنصور.) فقال: وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلي؟ سألتك بالله أن تتركني لطلب معيشتي!) فقال له الفارس: (لا أفعل) ثم قدم به على المنصور،

ومثله بين يديه، وهو جالس، لم ينم ليلته تلك. فقال المنصور للصقابة: (فتشوه!) ففتش؛ فلم يوجد عنده شيء؛ فقال: (فتشوا برذعة حماره!) فوجدوا داخلها كتاباً من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور، يحزمون عنده إلى أصحابهم من النصارى ليقبلوا ويضربوا في إحدى النواحي المعلومة. فلما انبلج الصبح، أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة؛ فضربت أعناقهم، وضربت رقبة الشيخ معهم.

ومن ذلك قصة الجوهرى التاجر؛ وذلك أن رجلاً جوهرياً من تجار المشرق قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير، وأجار نفيسة؛ فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنته، ودفع إلى الجوهرى التاجر صرته، وكانت قطعة يمانية. فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شط النهر؛ فلما توسطها، واليوم قانظ، وعرقه منصّب، دعتة نفسه إلى التبرّد في النهر؛ فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط؛ فمرت حداة، فاخترقت الصرة، تجسبها لحماً، وصاعدت في الأفق بها ذاهبة؛ فقطعت الأفق الذي تنظر إليه عين التاجر؛ فقامت قيامته، وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بعدوى ولا بحيلة؛ فأسر الحزن في نفسه، ولحقته لأجل ذلك على اضطرب فيها. وحضر الدفع إلى التجار؛ فحضر الرجل لذلك بنفسه؛ فاستبان له ما به من المهانة والكآبة، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة. فسأله المنصور عن شأنه؛ فأعلمه بقصته؛ فقال له: (هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر؟ فكنا نستظهر على الحيلة؛ فهل هديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها؟) قال: (مرّ مشرفاً على يمت هذا الجنان الذي يلي قصرك!) يعني الرملة؛ فدعا المنصور شرطيه الخاص به؛ فقال له: (جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة)؛ فضى، وجاء بهم سريعاً؛ فأمرهم بالبحث عن غير حال الإقلاق منهم سريعاً، وانتقل عن الإضافة دون تدرّج؛ فتناظروا في ذلك، ثم قالوا: (يا مولانا! ما نعلم إلا لأجل من ضعفاً كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناولون السقى بأقدامهم عجزاً عن شراء دابة؛ فابتاع

اليوم دابة، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة. فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب؛ فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور؛ فاستدناه، والتاجر حاضر، وقال له: (سبب ضاع منا وسقط إليك: ما فعلت به؟) فقال: (هو ذا يا مولاي؟) وضرب بيده إلى حمزة سراويله، فأخرج الصرة بعينها؛ فصاح التاجر طرباً، وكاد يطير فرحاً؛ فقال له المنصور: (صف لي حديثها.) قال: (نعم! بينا أنا أعمل في جناني تحت نخلة، إذ سقطت أمامي؛ فأخذتها، وراقني منظرها؛ فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار؛ فاحترزت بها، ودعيتي فاقتي إلى أخذ عشرة مثاقيل عيوناً كانت معها مصرورة، وقلت: أقل ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها.) فأعجب المنصور ما كان منه، وقال التاجر: (خذ صرّك، وانظرها، واصدقني عن عددها.) ففعل وقال: (وحق رأسك، يا مولاي، ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها، وقد وهبتها له.) فقال له المنصور: (نحن أولى بذلك منك، ولا ننقص عليك فرحتك. ولولا جمعه بين الإفراق والإنكار)، لكان ثوابه موفوراً عليه.) ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً من دنانيره، وللجنان بعشرة دنانير ثواباً لتأنيته عن إفساد ما وقع بيده، وقال: (لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث، لأوسعناه جزاء!) قال: فأخذ التاجر في الثناء على المنصور، وقد عاوده نشاطه، وقال: (والله لأبئن في الأقطار عظيم ملكيك، ولأبين أنك تملك طير عملك كما تملك انسها؛ فلا تعتصم منك ولا تؤذي جارك!) فضجك المنصور، وقال: (اقصد في قوله! يغفر الله لك!) فعجب الناس من تطف المنصور في أمره، وحيلته في تفرّج كربته.

وكان المنصور أشد الناس في التغير على من علم عنده شيء من الفلسفة والجدل في الاعتقاد، والتكلم في شيء من قضايا النجوم وأدلتها، والاستخفاف بشيء من أمور الشريعة. وأحرق ما كان في خزائن الحكم من كتب الدهرية

والفلاسفة، بمحضر كبار العلماء، منهم الأصيلي وابن ذكوان والزبيدي وغيرهم؛ واستولي على حرق جميعها بيده.

ومن أوقع به المنصور في مثل هذه المعاني المبتكرة: محمد بن أبي جمعة؛ بلغه عنه قول من الأرجاف في القطع على انقراض دولته؛ فقطع لسانه، ثم قتله وصلبه؛ فخرست ألسن جميعهم لذلك؛ وكذلك أيضاً عبد العزيز بن الخطيب الشاعر، وكان أرفع أهل هذه الطبقة منزلة؛ وكان مقدماً في أصحاب المنصور، حتى فسد ضميره عنده، وبقي مدة يلتبس غرّة منه، حتى قال في بعض أبيات من شعر أفرط فيها (كامل):

مَا شِئْتَ لَا مَا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ ... فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
فَكَأَنَّمَا أَنْتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ... وَكَأَنَّمَا أَنْصَارُكَ الْأَنْصَارُ

فأمر بضربه خمسمائة سوط، ونودي عليه باستخفافه؛ ثم حبسه، ونفاه بعد عن الأندلس. وفي سنة ٣٨١، رشع المنصور ولده عبد الملك للولاية، وقدم أخاه عبد الرحمن للوزارة. وترك اسم الحجابة، واقتصر على التسمي بالمنصور، وأن يكتب: (من المنصور أبي عامر - وفقه الله - إلى فلان). بحذف اسم الحجابة، ويذكر اسم ولده عبد الملك بخطة الحجابة والقيادة العليا وسائر خطط المنصور، سلم فيها لابنه عبد الملك، وصحت له الحجابة من يومئذ. وبعد هذا، واستبدل المنصور جند الأندلس بالبربر، فأقام لنفسه جندا اختصهم باستصناعه، واسترقهم بإحسانه، نسخ بهم في المدة القريية جند الخليفة الحكم - رحمه الله -، كما فعله في سائر أموره.

واتفق في ذلك الوقت أن تحرك بلقين بن زيري الصنهاجي إلى المغرب في جموعه، وأوقع بقبائل زناتة طالبا ثار أبيه زيري؛ فهربوا أمامه كلهم إلى سبتة، وضاعت عليهم أرض العدو؛ ففيل لابن أبي عامر: (قد أمكنك الله

١٨٠١٣ غزوة شنت ياقوب على سبيل الاختصار

من اصطناع فرسان زناتة، واعتقاد المنة عليهم. فأرسل إليهم، يأتوك سراعا؛ فيجد إحسانك إليهم مكانا! فعمل ابن أبي عامر على ذلك، وأنفذ كتبه إلى قبائل العدو يستدعيهم، ويتضمن الإحسان إليهم، والتوسعة عليهم، حتى كثروا بالأندلس؛ فحسنت أحوالهم، وكثرت أموالهم، وما زالوا خاصته وبطانته إلى أن هلك، وانقرضت الدولة العامرية. وقد صار بالأندلس منهم القبائل بأسرها، وكاثروهم حتى نفذ قضاء الله عليهم بأيديهم.

وفي سنة ٣٨٦، عهد المنصور أن يخص بتسويده من بين سائر الناس كافة في المخاطبات، وأن يرفع ذلك عن سائر أهل الدولة مع الاقتصاد في مراتب الأدعية؛ فنفذ الكتب بذلك، وجرى العمل عليه بقية حياته؛ وخوطب هذا الوقت بالملك الكريم؛ واستبلغ في تكريمه وتعظيمه.

غزوة شنت ياقوب على سبيل الاختصار

وعند تناهي المنصور ابن أبي عامر في هذا الوقت على الاقتدار، والنصر على الملوك الطاغية - دمرها الله -، سما إلى مدينة شنت ياقوب قاصية غلبسية، وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة. وكانت كنيسة عندهم بمنزلة الكعبة عندنا؛ فيها يحلفون وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها؛ ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقوب الحواري أحد الاثني عشر - رحمهم الله -؛ وكان أحصهم بعيسى - عليه السلام -، وهم يسمونه أخاه للزومه إياه. وقد زعم جماعة منهم أنه ابن يوسف النجار. وشنت ياقوب هي مدفن ياقوب؛ فهم يسمونه أبا الرب - تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا - . وياقوب بلسانهم يعقوب؛ وكان أسقفا ببيت المقدس؛ فجعل يستقري الأرضين داعيا لمن فيها؛ فجاز إلى الأندلس حتى انتهى إلى هذه القاصية؛ ثم عاد إلى أرض الشام؛ فقتل بها، وله مائة وعشرون سنة شمسية. فاحتمل أصحابه رمته، فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره. ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام في قصدها، ولا الوصول إليها، لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها، وبعد شقتها.

نفرج المنصور إليها من قرطبة غازيا بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٨٧، وهي غزوته الثامنة والأربعون. ودخل على مدينة قورية. فلما وصل المنصور إلى مدينة غلبسية، وافاه عدد عظيم من القوامس المتكسطين بالطاعة، في رجالهم، وعلى أتم احتفالهم؛ فصاروا في عسكر المسلمين، وركبوا في المغاورة سبيلهم. وقد كان المنصور تقدم في إنشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي دانس من ساحل غرب الأندلس، وجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين، وحملت الأقوات والأطعمة والعدد والأسلحة، استظهارا على نفوذ العزيمة، إلى أن خرج بموضع يرتقال على نهر دويره؛ فدخل في النهر إلى المكان الذي عمل المنصور على العبور منه؛ فعقد هناك من هذا الأسطول جسرا بقرب الحصن الذي هناك. ووزع المنصور ما كان فيه من الميرة على الجند؛ فتوسعوا

في التزود منه إلى أرض العدو.

ثم نهض يريد شنت ياقوب؛ فقطع أرضين متباعدة الأقطار، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلجان يمدّها البحر الأخضر. ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليّة من بلاد فطارش ومباسيطه والدير وما يتصل بها؛ ثم أفضى إلى جبل شاخ شديد الوعر، لا مسلك فيه، ولا طريق لم تهتد الأدلاء إلى سواه. فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعه شعبه وتسهيل مسالكه؛ فقطعه العسكر وعبروا بعده وادي منية؛ وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين أريضة، وانتهت مغيرتهم إلى دير قسطن وبسيط بالبوك على البحر المحيط، وفتحوا حصن شنت بلايه، وغنموه، وعبروا سياحه إلى جزيرة من

البحر المحيط لجأ إليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي؛ ففسبوا من فيها ممن لجأ إليها. وانتهى العسكر إلى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط؛ ففتلوا أقطاره، واستخرجوا من كان فيه، وحازوا غنائمه. ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليج لورقي في معبرين أرشد الأدلاء إليهما؛ ثم نهر ايله؛ ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة، كثيرة الفائدة، منها بسيط أوبنة وقرجيطه ودير شنت برية. ثم انتهوا إلى خليج ايليء؛ وهو من مشاهد ياقوب أيضا صاحب القبر، تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل، يقصد نساكهم له من قاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرها. فغادره المسلمون قارعا. وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقوب البائسة، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان؛ فوجدها المسلمون خالية من أهلها؛ فحاز المسلمون غنائمها، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها، وغفوا آثارها. ووكل المنصور بقبر ياقوب من يحفظه ويدفع الأذى عنه؛ وكانت مصانعها بديعة محكمة؛ فغودرت هشيمًا، كأن لم تغن بالأمس، وذلك يوم الاثنين أو الثلاثاء بعده. وانتسفت بعوثة بعد ذلك سائر البسائط، وانتهت إلى جزيرة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط، وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم، ولا وطئها لغير أهلها قدم. فلم يكن بعدها للخيّل مجال، ولا وراءها انتقال.

وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقوب، وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله. فجعل في طريقه القصد على عمل برمند بن أردزون ليستقر به عائنا ومفسدا، حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره؛ فأمر بالكف عنها، ومرّ مجتازا حتى خرج إلى حصن مليقه من افتتاحه. فأجاز هناك القوامس بمجملتهم على أقدارهم، وكساهم، وكسا رجالهم، وصرفهم إلى بلادهم. وكتب بالفتح من مليقه. وكان مبلغ من أكساه ابن أبي عامر في غزاته هذه من ملوك الروم ولمن حسن

عناؤه من المسلمين ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازي، وإحدى وعشرين كساء من صوف البحر، وكسائين عنبرين، وأحد عشر سفلاطونا، وخمس عشرة مريشات، وسبعة أثمانط ديباج، وثوب ديباج رومي، وفروي فنك. ووافى جميع العسكر قافلا إلى قرطبة سالما غانما، وعظمت النعمة والمنة على المسلمين. والحمد لله.

ولم يجد المنصور بشنت ياقوب إلا شيخا من الرهبان جالسا على القبر؛ فسأله عن مقامه؛ فقال: (أوانس يعقوب). فأمر المنصور بالكف عنه.

قال الفتح من خاقان: وتمرس المنصور ببلاد الشرك أعظم تمرس، ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس؛ وغاردهم صرعى البقاع، وتركهم أذل من وتد بقاع؛ ووالى على بلادهم الوقائع، وسدد إلى أبكادهم سهام الفجائع؛ وأغصّ بالحمام أرواحهم، ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم. ومن أوضح الأمور هنالك؛ وأفصح الأخبار في ذلك، أن أحد رسله كان كثير الانتياب، لذلك الجنب؛ فسار في بعض مسيراته إلى غرسية صاحب البشكش، فصادفه في يوم فصيح؛ فوالى في إكرامه، وتناهى في بره واهتمامه؛ فكالبت مدته فلا متنزه إلا مرّ عليه متفرجا، ولا موضع إلا سار إليه معرجا؛ فخل في ذلك أكثر الكائس هنالك؛ فبينما هو يجول في ساحتها، ويحيل العين في مساحتها، إذ عرضت له امرأة قديمة الأسر؛ قويمة على طول الكسر؛ فكلمته، وعرفته بنفسها وأعلمته، وقالت له: (أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بوسها، ويتمتع بلبوس العافية وقد قصت لبوسها؟) وزعمت أن لها عدة من السنين بتلك الكنيسة محبسة، وبكل ذلّ وصغار ملبسه، وناشدته الله في إنهاء قصتها، وإبراء غصتها، واستحلفتها بأغلظ الأيمان، وأخذت عليه في ذلك أوكد موثيق الرحمان. فلما وصل إلى المنصور، عرفه بما يجب تعريفه به وإعلامه، وهو مصغ إليه حتى نَمَّ كلامه. فلما فرغ، قال له المنصور: (هل وقتت هنالك على أمر أنكركته، أم لم تتقف على غير ما ذكرته؟) فأعلمه بقصة المرأة، وما خرجت عنه إليه، وبالمواريث التي

أخذت عليه؛ فعبته ولامه، على أن لم يبدأ بها كلامه؛ ثم أخذ في الجهاد من فوره، وعرض من من الأجناد في نجده وغوره؛ وأصبح غازيا على سرجه، مباهيا مروان يوم مرجه، حتى وافى ابن شانجه في جمعه؛ فأخذت مهابته ببصره وسمعه؛ فبادر بالكتاب إليه يتعرف ما هي الجنية، ويخلف له بأعظم ألية، ما جنا ذنبا؛ ولا نبا عن مضجع الطاعة جنبا. فعنف أرساله، وقال لهم: (كان قد عاهدني ألا يبقى بأرضه مأسورة ولا مأسور، ولو حملته في حواصلها النسر؛ وقد بلغني بعد مقام فلانة المسلمة) بتلك الكنيسة. ووالله! لا أنهي عن أرضه حتى أكتسحها!) فأرسل إليه المرأة في اثنتين معها، وأقسم له أنه ما أبصرهن، ولا سمع بهن، وأعلمه أن الكنيسة التي أشار بعلمها، قد بالغ في هدمها، تحقيقا لقوله، وتضرع له في الأخذ بطوله. فاستحي منه، وصرف الجيوش عنه، وأوصل المرأة إلى نفسه، وألحق توحشها بأنسه، وغير سوء حالها، وعاد بسواكب نعماء على جذبها وإمحالها، وحملها إلى قومها، وكلها بما كان شرد من نومها.

وحدث شعلة، قال: قلت للمنصور ليلة طال فيها سهره: (قد أفرط مولانا في السهر، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم، وهو يعلم ما يحركه عدم النوم من علة العصي!) فقال لي: (يا شعلة، إن الملك لا ينام إذا نامت الرعية! ولو استوفيت نومي، لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة!) وكان المنصور يزور في كل سنة ألف ألف مدى من الشعير قصيلا لدوابه الخاصة به؛ إذا قدم من كل غزوة من غزواته، لا يحل عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل، فيعلمه ما مات منها وما عاش، وصاحب الأبنية، فيعلمه بما وهي من أسواره ومبانيه وقصوره ودوره. وكان له دخالة في كل يوم اثني عشر ألف رطل من اللحم، حاشى الصيد والطير والحيتان. وكان يصنع في كل عام اثني عشر ألف ترس عامرية لقصري الزاهرة والزهراء. وابتنى المنصور على

طريق المباهاة والضخامة مدينة الزاهرة) ذات القصور، والمتنزهات المخترعة كذات الوادين، ومنية السرور، وأرطانية، وغيرها من منشئاته البديعة.

قال ابن حزم: كما مع المنصور، في يوم صقيل الجو، في الزورق، في النهر الذي بين يدي الزاهرة، في نفر من وزرائه، ومنظريه بأمامه وورائه، ونحن على مؤانسة قد امتد طنبا، وارثشف بها لعس المسرة وشنبا، وانحشر إليها هو الدنيا ولعبها؛ وهو يستبدع ذلك النشيد، ويتطلع منها إلى المزخرف والمشيد، ويصوب نظره ويصعده في قصوره المشرفة، ومصانعه المونفة، وقد قيدت الأحاظ جمالا، وجددت في الحياة آمالا. فقال المنصور: (وبها لك! يا زاهرة الحسن. لقد حسن مرءاك، وعقب ثراك، وراق منظرك، وفاق مخبرك، وطاب تربك، وعذب شربك! فليت شعري من المربد الذي يعدمك، يوهن ركنك ويهدمك، ويخلي ميدانك، ويضوي قصبك وأفنانك! فبؤسا له إذ لا يروقه حسنك، فيكف عن تغييرك! ألا تسببه بهجة منظرك، فكيف عن محو أثرك!) قال: فاستعظمتنا ذلك منه، وأنكرنا ما صدر عنه، وظننا أن الراح غلبت عليه، وخيلت ذلك عليه؛ فأفرط الكل مما في استنكار ما جاء به، وفاه بأمره وسببه؛ فقال: (والله! كأنكم لا تعلمون ذلك! نعم! سيظهر عليها عدونا في أقرب مدة، فيهدم هذا كله ويعدمه. وكأني بجارتها في هذا النهر!) فأخذنا به طريق التسكين والتهدين، وعجبنا لما ذكره من ذلك النبأ المبين.

وعند فراغه من ابتناء الزاهرة، غزا غزوة أبعد فيها الإيغال، وغال فيها من عظماء الروم من غال، وحل من أرضهم ما لم يطرق، وراع منهم ما لم يرع قط ولم يفرق، وصدر صدرا أسمى به على كل حسناء عقيلة، وجلا به كل صفحة للحسن صقيلة، ودخل قرطبة دخولا لم يعهد، وشهد له فيه يوم لم يشهد. وكان ابن شهيد متخلفا عن هذه الغزوة لنقرس عداه عأده، وجفاه منتجعته ورائده.

وابن شهيد هذا أحد حجاب الناصر، وله على ابن أبي عامر أياذ محكمة الأواصر. وكان كثيرا ما يتحفه، ويصله ويلطفه. فلما صدر المنصور من غزوته هذه، نسي متاحفته، وأغفل ملاطفته؛ فكتب إليه (خفيف):

أنا شيخٌ والشيخُ يهوى الصبايا ... يا لنفسٍ تقيك صَرْفَ الرزايا
ورسولُ الإلهِ أسهم في الفياء ... لمن لم يُحِبَّ فيها المطايا
فاجعلني (فديت!) أنكحُ معر ... وفك وأبعث بها عذابَ الثنايا
هو عُرِفَ فإن تحولَ صهرا ... كان والله آية في البرايا

فبعث إليه بعقيلة من عقائل الروم، يكتفها ثلاث جوار كأنهن نجوم سرار، وكتب (خفيف):

قَدْ بَعَثْنَا بِهَا كَشَمْسِ النَّهَارِ ... فِي ثَلَاثٍ مِنَ الْمَهْيِ أَبْكَارِ
فَاجْتَهَدْ وَاتَّبِدْ فَإِنَّكَ شَيْخٌ ... خَفِيَ اللَّيْلُ عَنْ بَيَاضِ النَّهَارِ
صَانِكَ اللَّهُ عَنْ كَلَالِكَ فِيهَا ... فَمِنْ الْعَارِ كَلَّةُ الْمِسْمَارِ
فَافْتَضْنَهُنَّ جَمِيعًا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكُتِبَ إِلَيْهِ (خَفِيف) :
قَدْ فَضَضْنَا خِتَامَ ذَاكَ السَّوَارِ وَاصْطَبَعْنَا مِنَ النَّجِيعِ الْجَارِي
وَنَعَمْنَا فِي ظِلِّ أَنْعَمِ لَيْلٍ ... وَلَهَوْنَا بِالْبَدْرِ ثُمَّ الدَّرَارِي
وَقَضَى الشَّيْخُ مَا قَضَى مُحْسَامٍ ... ذِي مَضَاءٍ عَضْبِ الطُّبَى بَتَّارِ
فَاصْطَبَعْنِي فَلَسْتُ أَجْزِيكَ كُفْرًا ... وَاتَّخَذَنِي سَيْفًا عَلَى الْكُفَّارِ

قال حيَّان بن خلف: وجد بالمنصور عزم أزعجه الغزو بعض البروج المهمة؛ فأبرز أموالاً عظيمة، وتقدم إلى الناس في البكور للزاهرة؛ فاستبقوا، وقد طرقة في ليلته وجع حماه عن العمض؛ فلم يمنعه من إنفاذ عزمته، وقعد للنظر في شأنه بأعلى منسته المسماة بالؤلؤة، وقد صح على الكيِّ عزمه، وكان أقرب أبواب الراحة منه؛ فأقبل بوجهه على من تحته، يفري الفري في شأنهم؛ وقد ناول الطبيب في خلال ذلك رجله؛ فحمل عليها عدة كيات، ثم أمال

شفه نحوه، وأمكنه من يديه معا واحدة بعد أخرى، وما زوى وجهه، ولا فقد نصحا له كلامه، بل كان يتناول أوامره من وعده ووعيده بأنفذ من الإشفى، ويحملهم من وروده على الأوفى فالأوفى، وإن تن لحمه المكوي لبيت فيهم آخذاً بخواشيهم، وهم لا يعلمون. وفي سنة ٣٩٢، توفي المنصور ابن أبي عامر - رحمه الله - ليلة الاثنين لثلاث بقين لرمضان المعظم، وهو ابن خمس وستين سنة وعشرة أشهر؛ كان له من الولد الذكور يوم وفاته إثنان، وهما عبد الملك وعبد الرحمن الناصر؛ فكانت مدة قيامه بالدولة منذ تقلد الحجابة إلى أن توفي خمسا وعشرين سنة، وأربعة وأربعين يوما. وترك من الأموال الناضبة بالزاهرة أربعة وخمسين بيتا. وكان عدد الفرسان المرتزقين بحضرته ونواحيها، الذين حارب بهم الحروب، عشرة آلاف وخمسمائة، وأجناد الثغور قريبا من ذلك.

ولله درُّ القائل فيه (كامل) :
آثَرُهُ تُنْبِئُكَ عَنْ أَخْبَارِهِ ... حَتَّى كَأَنَّكَ بِالْعُيُونِ تَرَاهُ
تَاللَّهِ مَا مَلَكَ الْجَزِيرَةَ مِثْلُهُ ... حَقًّا وَلَا قَادَ الْجُيُوشِ سِوَاهُ

وذكر أن هذين البيتين قد نقشاً في رخامة على قبره - رحمه الله - . وكانت عدة غزواته سبعا وخمسين غزوة، باشرها كلها بنفسه، وهو في أكثرها يشكو على النقرس - عفا الله تعالى عنا وعننا! - كُئِلَ السفر الأولُ بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه ويمنه. وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبداه.